تأليف

سانت جون فيلبي

العربية السعودية

من سنوات القحط إلي بوادر الرخاء

ترجمة

الدكتور / عاطف فالح يوسف

مراجعة وتعليق

د. عمر بن صالح بن سليمان العمري

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ردمك :

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

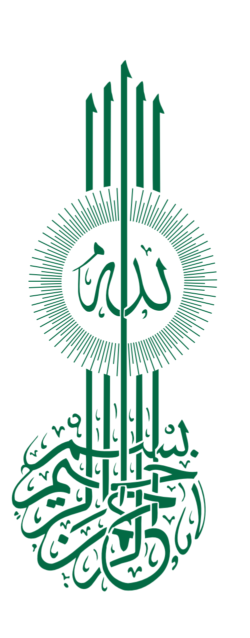
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز البريدي ١١٥٩٥

هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة بيضاء

محتويات الكتاب

صفحة بيضاء

الإهــداء

بقلم : سـي. إم. دوني «الفجر في بريطانيا»

إحياءً لذكرى « عبد العزيز بن سعود» أعظم ملوك الصحراء العربية نقول :

أواه... ها هو قد قضى نحبه، وأصاب الوجل كافة القلوب

التي شهدت جثمان ذلك الملك وهو يواري الثرى

ستظل أمجاده من هذه اللحظة وصاعداً راسخة في ذكرى بني البشر

صفحة بيضاء

كلمة من الناشر

تعيش المملكة العربية السعودية هذا العام (١٤١٩هـ) ذكرى وطنية عزيزة على قلوب كل المحبين لهذا الوطن المعطاء هي ذكرى مرور مائة عام على استرداد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، طيب الله ثراه، الرياض، ومن ثم الانطلاق في رحلة التأسيس والتوحيد للمملكة العربية السعودية.

وإسهاماً من مكتبة العبيكان للطباعة والنشر في هذه المناسبة التاريخية المهمة يصدر هذا الكتاب الذي يحكي شيئاً من تاريخ الدولة السعودية عبر أطوارها الثلاثة.

والكتاب الذي بين يديك أخي القارئ الكريم هو واحد من عدة إصدارات تاريخية تصدرها المكتبة بهذه المناسبة الوطنية.

والكتاب من تأليف الرحالة والمؤرخ الدبلوماسي سانت جون فيلبي (H.ST. JONH PHILBY) وهو في أصله صادر باللغة الإنجليزية بعنوان (SAUDI ARABIA) وقام بترجمته بتكليف من المكتبة الدكتور عاطف فالح يوسف عضو هيئة التدريس في كلية اللغات والترجمة في جامعة الملك سعود.

وقد حرصت المكتبة على أن يخرج الكتاب من النص الإنجليزي مع السماح بالتصرف اليسير الذي لا يخل بمضمون الكتاب ولا بالأفكار الواردة فيه.

ولن نستبق الأحداث في الحديث عن الكتاب وأهميته العلمية حيث إن ذلك متروك للمختصين من المؤرخين ويمثلهم في هذا الكتاب الدكتور عمر ابن صالح بن سليمان العمري أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك في قسم التاريخ والحضارة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الذي استجاب لدعوة المكتبة مشكوراً وقام بمراجعة الكتاب بعد الترجمة مراجعة علمية تاريخية وعلق على ما يحتاج منه إلى تعليق في ثنايا الكتاب وكتب مقدمة؛ هي دراسة تاريخية علمية تحدث فيها عن المؤلف وحياته وكتاباته المختلفة بوجه عام، وعن الكتاب وأهميته العلمية بوجه خاص.

وما يهمنا هنا هو أن نؤكد، فقط، على قضية مهمة، وإن كانت بالتأكيد لا تخفى على الجميع، هذه القضية هي أن قيامنا على ترجمة الكتاب وتكليف الدكتور عمر العمري بمراجعته ومن ثم نشر الكتاب لا تعني الضرورة أن المكتبة على قناعة أو إيمان بما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار وحقائق أو وجهات نظر، وإنما هي تمثل وجهات نظر أصحابها كل في بابه.

واسمح لنا عند هذا الحدث أخي القارئ العزيز أن نتركك مع الكتاب راجين لك وقتاً ممتعاً مع محتوياته، آملين أن نكون بنشر الكتاب وغيره من الإصدارات قد قمنا ولو بشيء يسير من الواجب الملقى علينا في هذه المناسبة الوطنية المهمة وهي مناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

مقدمة المترجم

ينظر مؤلف هذا الكتاب السيد «جون فيلبي» إلى «ابن سعود» على أنه آخر – وربما أعظم – زعيم بين الزعماء العرب الذين ارتكزت سمعتهم على المنجرات الشخصية التي حققوها في بيئة صحراوية رومانسية متقشفة .

ولقد كتبت هذه الرواية التاريخية بمعرفة وثيقة وحميمة لا يمكن إلا القليل من الناس أن يجاورها ، لأن المؤلف كان صديقاً شخصياً للملك على مدى سنوات عديدة . يبدأ سرد أحداث هذه الرواية من أوائل أيام عائلة «ابن سعود» مرورا بالأيام العظام التي عاشها «عبد العزيز» ووصولاً لسنوات ما بعد الحرب ، حيث تدفقت الخيرات من النفط .

أما بخصوص الترجمة فقد توخيتُ وبكل الحرص أن أنقل فكر ومعاني الكتاب الأصلي مع تصرف يسير في بعض الأفكار الاستطرادية الواردة . كما حرصت أن تكون الترجمة بأسلوب يُرضي ذوق القارئ دون الخروج عن المعنى الوارد في أسلوب المؤلف «جون فيلبي» . وهذا يعني أن كافة ما ورد في هذه الترجمة من أفكار وآراء وأحداث ووقائع وحقائق هي بالدرجة الأولى من نسج فكر المؤلف «جون فيلبي» وليست من بنات فكر المترجم .

أرجو من الله التوفيق ، وأرجو أن يحقق هذا الكتاب الفائدة التي يرجوها القارئ ، كما أتوجه بالشكر لطابعه ومنقحه .

والله ولي التوفيق ، ، ،

دراسة تاريخية عن المؤلف وعن الكتاب

بقلم الدكتور عمر بن صالح بن سليمان العمري

أستاذ التاريخ الحديث المشارك

قسم التاريخ والحضارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

فيسرني من خلال هذه الصفحات أن أقدم لك أخي القارئ الكريم دراسة علمية تاريخية عن الكتاب الذي بين يديك وهو كتاب: العربية السعودية SAUDI ARABIA من تأليف الرحالة والمؤرخ والسياسي المعروف سانت جون فيلبي H. ST. JOHN PHILBY وهذا الكتاب واحد من عدد من الإصدارات التاريخية التي تصدرها مكتبة العبيكان للطباعة والنشر بالرياض في هذا العام المميز في التاريخ السعودي الحديث، وهو عام (١٤١٩هـ)، وذلك مشاركة من المكتبة في الأنشطة الثقافية والعلمية التي تجري في المناسبة التاريخية الوطنية التي تحتفل بها المملكة العربية السعودية، وهي مناسبة ذكرى مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

وكانت الفكرة ومن ثم الخطوات العملية بهذه الإصدارات قد بدأت، حسب علمي، منذ وقت مبكر من العام قبل الماضي، أي منذ أن انطلقت الأجهزة العلمية المختلفة في المملكة العربية السعودية في سباق وتنافس شريف للمساهمة في هذه المناسبة الوطنية المهمة.

وكانت صلتي العلمية بهذا المشروع من الإصدارات التاريخية قد بدأت في مرحلة متقدمة من مراحل الخطوات العملية التي قامت بها دار النشر ؛ العبيكان .

فقد كان لي شرف المشاركة المبكرة في جوانب مختلفة من الاستشارات والخطوات العلمية التي قامت بها الدار لاختيار وانتقاء بعض المؤلفات التاريخية الأمثل والتي تخدم أهداف هذه المناسبة التاريخية وذلك من بين عدد كبير من المؤلفات والإصدارات التاريخية النادرة التي تم استعراضها آنذاك .

واستمراراً للتعاون العلمي بيني وبين الدار في هذا المجال فقد قمت ، بعد أن تمت ترجمة الكتاب من قبل الدكتور عاطف فالح يوسف ، بمراجعة الكتاب المترجم مراجعة علمية تاريخية مع التعليق على بعض النقاط التي رأيت أنها تحتاج إلى تعليق ، وقبل ذلك وبعده إعداد هذه الورقة أو الدراسة التاريخية عن الكتاب وعن مؤلفه المؤرخ الرحالة والدبلوماسي المعروف سانت جون فيلبي .

وبهذه المناسبة يسرني أن أقدم عبر هذه الورقة خالص التقدير للإخوة في مكتبة العبيكان لجهودهم التي بذلوها وإصرارهم على المضي في خطواتهم الطموحة لإصدار هذه المؤلفات القيمة ، كما أشكرهم على الثقة التي شرفوني بها ، آملاً أن أكون عند حسن ظنهم بي .

وبهذه المناسبة أشكر للدكتور عاطف قيامه بترجمة الكتاب ، رغم علمي

بالصعوبات التي يلاقيها أمثاله، خاصة في التعامل مع الأسماء التي ربما بدت بعيدة المنال عليه إما لغرابتها في الأصل أو لعدم كتابتها باللغة الإنجليزية كما يفترض أن تكتب. وظهر لي أثر تلك الصعوبة التي واجهها المترجم في نصوص الترجمة التي قمت بمراجعتها والتي اضطرتني في الحقيقة في بعض الأحيان إلى الابتعاد عن نصوص الترجمة وجعل النص الأصلي هو الأساس الذي اعتمد عليه في مثل هذه المواقف بعد الاستعانة بالطبع ببعض المصادر التاريخية التي تقربني من الحقيقة المفقودة.

كما وفي الوقت نفسه أحب أن أشير بقدرة الدكتور عاطف على التصرف في الترجمة ببعض الأحيان وعدم تقيده الحرفي بالنص الانجليزي وهذا فن من فنون الترجمة العلمية الراقية رغم أني قد لاحظت عند المراجعة أنالتصرف الذي تم في الترجمة كان يسيراً وقاصراً في معظمه على بعض الموضوعات التي استطرد فيها المؤلف.

وختاماً آمل أن أكون قد قدمت من خلال هذا الكتاب وهذه الدراسة خدمة علمية للقراء عامة وللباحثين والمؤرخين على وجه الخصوص، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عمر بن صالح العمري

الرياض ربيع الآخر ١٤١٩هـ

مؤلف الكتاب :

مؤلف الكتاب هو المؤرخ الرحالة والدبلوماسي البريطاني المشهور سانت جون فيلبي .

وتجدر الإشارة إلى أن حياة فيلبي ربما تكون صورة نموذجية مصغرة لحياة بعض رجال الإدارة ورجال السياسة البريطانيين في مرحلة التوهج البريطاني، أي في الوقت الذي كانت فيه (بريطانيا العظمى) هي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس كما يقال .

فالمولد للبعض من أولئك الرجال لم يكن في بلدهم بريطانيا بلدهم الأم والعيش والعمل والنشاط السياسي كذلك لم يكن في بلادهم بريطانيا، علاوة على ذلك فقد شارك فيلبي بعض أولئك الرجال في مكان الوفاة حيث توفي، مثله مثل غيره من رجالات بريطانيا الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة في الحياة الدنيا خارج بريطانيا .

وإن كان فيلبي قد شارك أولئك الرجال بتلك السمات في نموذج مسار الحياة، فقد توج فيلبي، على ما يبدو، هذا النموذج بميزة تميزه عن غالبية أولئك الرجال؛ وهي مسألة اعتناقه الإسلام .

نعم إن حياة فيلبي حقا صورة مصغرة من صور حياة بعض رجال التاج البريطاني الذين استطاعوا بتفانيهم وتضحياتهم أن يديروا الشؤون البريطانية بكل حماسة وبكل دقة وأن يحافظوا على الصالح العليا لبريطانيا من مواقعهم المختلفة .

ينتمي فيلبي إلى أسرة إنجليزية أرثوذكسية من إقليم ايسكس ESSEX [١] في شرقي لندن وفي الجنوب الشرقي من بريطانيا تقريبا[٢] .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ومن أجل التجارة، حيث اشتهرت الأسرة، قام والده هاري مونتي Harry Montagu بالترحال إلى الشرق وبالذات إلى سيلان حيث تجارة القهوة، مثله في ذلك غيره من كثير من التجار البريطانيين في ذلك الوقت الذي كانوا يهيمنون فيه على تجارة المستعمرات البريطانية ومقدراتها كجزء من هيمنتهم وسيطرتهم الكلية على تلك البلدان وإدارتها وفق المصالح البريطانية .

وفي سيلان وفي كولمبو بالذات وخلال إحدى الحفلات التقى هاري بفتاة نالت إعجابه تدعى كويني Gueenie . ويبدو أن تلك الفتاة لم تكن غريبة عن هاري حيث كانت البنت الكبرى لقائد الحامية البريطانية في كولمبو العقيد جون دنكن John Duncan ولذلك لم يجد الطرفان صعوبة في الاتقان ومن ثم عقد القران بينهما في شهر مايو من عام ١٨٨٣م[٣] .

وفي عام ١٨٨٥م، وفي مصحة سانت القريبة من مسكن والديه في كولمبو كان مولد فيلبي . وكان هو الثاني من بين إخوته الثلاثة الذين ولدوا جميعا في سيلان خلال ست سنوات هي الفترة ما بين ١٨٨٤ - ١٨٨٩[٤] .

---

(١) لعله من باب الصدف التي لا تنسى، أن تكون ايسكس هي إحدى المقاطعات التي عشت بها قرابة خمس سنوات حيث كانت ايسكس هي الجامعة التي حصلت منها على درجة الدكتوراه في بريطانيا .

(2) ELIZABETH MONROE, PHILBY OF ARABIA, FIRST PUBLISHED BY FABER AND FABER, LONDON, 1973, PP 11, 12.

(3) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, P 12.

(4) IBIED, P 14.

ويبدو، كما يرى الدكتور عبد الله العثيمين، فإن فيلبي قد أضاف إلى اسمه ذلك اللقب الشرفي سانت جون ST. JOHN من اسم تلك المصحة التي ولد بها (١).

وكانت معاناة أسرته قد بدأت في سيلان في التسعينيات من القرن التاسع عشر على إثر قانون الزراعة في المستعمرات البريطانية الذي أجبر بعض المزارعين البريطانيين في سيلان على تحويل نوعية مزروعاتهم من القهوة إلى الشاي، وكان والد فيلبي من بين ضحايا التغير، وزادت مأساة الأسرة حين انحرف هاري في مسار حياته وانغمس في الملذات والشهوات التي بدأت تأخذه كثيراً عن بيته وتجارته، فكانت الضحية بالطبع ماله وأولاده وزوجته.

وفي عام ١٨٩١م، وحينما ازداد بعد هاري عن بيته ونفد صبرها من محاولات العلاج فقد اضطرت والدة فيلبي إلى الانتقال بأولادها من سيلان والتوجه بهم إلى البلد الأم بريطانيا حيث عاشت معهم في لندن (٢).

وفي لندن عاشت الأم مع أولادها في السنتين الأوليين حياة يغلب عليها الشقاء والبؤس، ولم يخفف تلك المعاناة إلا تدخل والد الأم جون دنكن الذي ساعد ابنته على نفقات التعليم لأولادها، حيث التحق فيلبي في البداية في مدرسة داخلية. كان تفوق فيلبي ونبوغه مدعاة لالحاقه في مدرسة وستمنستر WESTMINSTER .

وهي من المدارس ذات المستوى الرفيع، وفيها واصل فيلبي تفوقه العلمي

(١) سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م، قدم لهذا العمل تاريخيا وترجمه وعلق عليه، عبد الله الصالح العثيمين، ط ١ ، الرياض، ١٤١٨هـ، ص ٥٣ .

(2) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, P 14.

حيث كان الأول على زملائه كما برزت عنده مواهب بدنية وفكرية وقيادية أخرى أغرت المحيطين به على إلحاقه بمراحل تعليمية أعلى [١].

فمن هذه المدرسة، وفي عام ١٩٠٤م انتقل فيلبي إلى مدينة كيمبرج الشهيرة بجامعتها وكلياتها المختلفة ليلتحق هناك في كلية دينية من كلياتها هي كلية (التثليث) ترنتي TRINITY COLLEGE حيث تخرج فيها وبدرجة امتياز في اللغات الحية عام ١٩٠٧م[٢].

ومثله مثل كثير من المتخرجين من هذه الكلية توجه فيلبي بعد تخرجه بطلب الالتحاق بخدمة التاج البريطاني عن طريق حكومة الهند البريطانية، وبدأت ملامح النجاح في مسعاه حين اجتاز أول الامتحانات المطلوبة للعمل[٣]. واستكمالاً لمتطلبات العمل الجديد التحق فيلبي مرة أخرى بجامعة كمبردج لدراسة اللغتين الفارسية والهندية لمدة عام واحد [٤].

وفي عام ١٩٠٨م توجه فيلبي إلى الهند لمباشرة عمله فيها، وليواصل طموحاته العلمية والعملية. وتمثلت الطموحات العلمية بتعلم المزيد من اللغات الشرقية حيث تعلم اللغة البنجالية والأوردية ثم العربية كما بدأ في الهند بتعلم القرآن الكريم.

أما الطموحات العملية فتظهر من خلال تدرج فيلبي في الوظائف الإدارية والإعلامية التي أظهر فيها مقدرة وكفاءة عالية، وبرهن خلالها على

---

(١) خيري حماد، عبد الله فيلبي قطعة من تاريخي العرب الحديث، ط ١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت، ابريل ١٩٦١م، ص ٢٩، ٢٠.

(٢) نورتون، فيلبي رجل الجزيرة العربية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، السنة الأولى، العدد الثالث، جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ، ص ١٥٢.

(٣) ELAZABETH MONROE, OP. CIT, PP 14 - 17.

(٤) نورتون، المرجع السابق، ص ١٥٢.

قـدرة فائقـة في التـحمل والتغـرب حين ظل يعـمل في الهند عشـر سنوات متواصلة لم يرجع فيها إلى إنجلترا ولا مرة واحدة(١).

ويعيـد التاريخ نفسه، ولكن هذه المرة في الهند، وفي إحدى الحفلات التي اقيـمت في أحـد الأندية الخاصـة بالبريطانيين تعـرف فيلبي على دور جونسون DORA JOHNSTON بنت أحد المهندسين البريطانيين في سكة حديد روانبدي واقترن بها، وكان ذلك في سبتمبر من عام ١٩١٠م(٢).

وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، ومن ثم تطور الأوضاع البريطانية في الشرق نقطة تحول أخرى في حياة فيلبي.

فيبدو أن للمـواهب التي تميز بها فيلبي خاصة تعلمه العربية ومعرفته بعـادات وتقـاليد وديانة العـرب دور في وقـوع الاخـتيار عليه للتوجه إلى العراق للمساعدة في إدارة الشؤون البريطانية في أعقاب نجاح البريطانيين في الهيمنة عليها وإجبار العثمانيين على الانسحاب منها (٣).

وكانت الشؤون البريطانية في العراق في تلك الفترة تحت إدارة السير برسي كوكس أحد الرجالات البارزين في إدارة الشؤون البريطانية في الشرق (٤).

وفي العـراق وبإشـراف وتدبير مباشر من كوكس كلف فيلبي في العمل ضمن الفريق المكلف بإعادة بناء التنظيم الإداري للبصرة الذي كان يتطلب

(١) خيري حماد، المصدر السابق، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) ELAZABETH MONROE, OP. CIT, PP 32 - 35.

(٣) SARI J. NASIR, THE ARABS AND THE ENGLISH, SECOND EDITION, LONMAN, LONDON, 1979, P 129.

(٤) للمزيد عن حياة كوكس انظر المؤلف الخاص بالترجمة لحياته:

THE LIFE OF SIR PERCY COX, BY PHILIP GRAVES, SECOND OMPRESSION, HUTCHINSON & CO, LINDON

عملاً شاقاً خاصة أن العثمانيين قاموا بأخذ السجلات الحكومية معهم عند انسحابهم منها. كما كلف فيلبي بمهمات أخرى مثل مهمة جمع الضرائب، والإشراف على إصدار جريدة للدعاية البريطانية[١].

ونتيجة للنجاحات التي حققها فيلبي في مهماته فقد ترقى في المناصب حتى كلف بالعمل في بغداد مساعداً لكوكس في إدارة الشؤون البريطانية في العراق [٢].

وخلال الحرب العالمية الأولى وبالتحديد في عام ١٩١٧م بدأت صلات فيلبي في الجزيرة العربية عامة والملك عبد العزيز خاصة.

ففي ذلك العام كانت الساحة الإقليمية في الجزيرة العربية تغلي بالصراع بين عدد من الأطراف السياسة، مثل ابن سعود المتمركز في غالبية مناطق نجد وشرق الجزيرة العربية، وابن رشيد المتمركز في مناطق حائل وشمالها، والأشراف المنتشرة في مناطق غرب الجزيرة العربية إضافة إلى مناطق الأردن وما جاورها من الشرق ومن الغرب.

وكان كل فريق من هذه الفرق يسعى بالطبع لخدمة مصالحه الخاصة بغض النظر عن تأثير ذلك في مسار المصالح البريطانية. وكانت بريطانيا تحاول جاهدة في تلك الفترة تسيير الأمور لمصلحتها العليا [٣]. وكان تسيير المصلحة يقتضي أحيانا تقريب وجهات النظر بين الفرقاء، وفي أحيان أخرى كانت المصلحة البريطانية في تطبيق السياسة البريطانية المعروفة، الناجحة،

---

(١) روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ترجمة الدكتور عبد الله آدم نصيف، ط ١، الرياض ١٤٠٩هـ، ص ٩١.

(٢) سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ص ٥٥، ٥٦.

(٣) SARI J. NASIR, OP, CIT, PP 129, 130.

وهي سياسة (فرق تسد).

ومن باب التنسيق بين الأجهزة البريطانية مصلحة في الشرق فقد جاءت التحركات البريطانية لتسيير المصالح البريطانية في مناطق شبه الجزيرة العربية بالتنسيق بين أجهزتها الإدارية في العراق التابعة في إدارتها للإدارة البريطانية في الهند، وبين أجهزتها الإدارية في مصر التي تدار من لندن مباشرة.

وفي تلك الفترة كان العقيد ستورز موفداً من مصر إلى العراق ورأى الجهازان البريطانيان في العراق وفي مصر أن من المناسب تكليف العقيد ستورز، في طريق عودته إلى مصر، بعبور الجزيرة العربية [1].

وتحددت أهداف مهمة العقيد ستورز، وفق ما جاء في التقارير البريطانية بالآتي :

١ - زيارة ابن سعود في موقعه في القصيم، وإحاطة السير بيرسي كوكس بوضعه وبحجم قوته العسكرية وتقدير مدى تأثير كل ذلك في ميزان الصراع على الجبهة العثمانية.

٢ - محاولة تقريب وجهات النظر بين ابن سعود وبين الأشراف في الحجاز بإزالة مخاوفهما من بعضهما البعض لهدف تحسين العلاقات فيما بينهما.

وهكذا فقد عملت الترتيبات اللازمة للقيام بالرحلة المنتظرة، وفي التاسع من يونيو من عام ١٩١٧م غادر العقيد ستورز الكويت بصحبة قافلة من الجمال والجمالين من أهل الزلفي الذين كانوا يشتهرون بهذه المهنة.

---

(١) عن هذه البعثة (الفاشلة) انظر : سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ص ٥٦، ٥٧.

ويبدو أن البريطانيين قد أساءوا اختيار التوقيت المناسب للرحلة. فمن المعلوم أن شهر يونيو من الأشهر التي تشتد فيها الحرارة في الجزيرة العربية، ولذلك لم يستطع العقيد ستورز أن يحتمل حرارة الشمس وخاف ضرباتها التي بدأت تعييه، ولذلك وبعد أربعة أيام فقط من انطلاقته من الكويت عاد العقيد ستورز أدراجه مرة أخرى مقررا بالنسبة له إلغاء الرحلة والعودة إلى مصر عن طريق البحر، ومقترحاً بالنسبة لغيره تأجيلها إلى وقت مناخي أنسب من ذلك الوقت.

وبعد حوالي شهرين من رحلة ستورز الفاشلة، ومع ازدياد تدهور الأوضاع السياسية بين القوى السياسية فيها، ولضرورة تدارك المصالح البريطانية، وحيث إن الظرف المناخي أصبح أكثر ملائمة من ذي قبل خاصة مع اعتدال الجو، جددت الأجهزة البريطانية في العراق محاولاتها المعلقة بإرسال بعثة إلى شبه الجزيرة العربية للسعي لتحقيق الأهداف المحددة للبعثة السابقة، مع الأخذ في الاعتبار ما طرأ من تطورات في الأوضاع خلال الشهرين الأخيرين.

وتحسباً لتلك التطورات فقد اقترح السير بيرسي كوكس على حكومته أن تكون البعثة الجديدة أكثر ثقلاً في الكيف والكم من البعثة السابقة، كما أخذ في الاعتبار أن تكون البعثة ممثلة لعدد من المصالح البريطانية. فقد إقترح أن تمثل البعثة بممثل عن المندوب السامي البريطاني في مصر، وبممثل عن ملك الحجاز للمشاركة في المداولات التي ستجريها البعثة. كما اقترح أن يقوم الوكيل السياسي البريطاني في الكويت العقيد هاملتون بمرافقة البعثة لتمثيل المصالح السياسية لشيخ الكويت سالم الصباح.

وحيث إن المصالح العسكرية كانت هدفاً رئيساً للبعثة فقد اقترح أن يرافق البعثة ممثل متخصص في الجوانب العسكرية ليكتب تقريراً دقيقاً عن الأوضاع العسكرية المزمع دراستها .

ولتسهيل مهمة البعثة فقد تضمن الاقتراح كذلك أن تصحب البعثة بطبيب يقوم على رعاية أفراد البعثة من جانب ويقدم الخدمات الطبية لبعض الأفراد والزعامات التي ستمر بها البعثة من جانب آخر ، كما اقترح أن تصحب البعثة بجهاز لاسلكي متكامل لتسهيل أمر الرسائل المتبادلة بين البعثة والأجهزة البريطانية المختلفة .

ويبدو أن تلك المقترحات الطموحة لم تلق تجاوباً كافياً من السلطات البريطانية العليا خاصة أن بريطانيا كانت في تلك الفترة تخوض معمعة الحرب العالمية الأولى وتعيش أوج ويلاتها التي تجعل السلطات فيها تعيد ترتيب الأولويات العسكرية والسياسية بين حين وآخر وفق تطورات الحرب وسير معاركها .

وعلى العموم فقد كان للتجاوب النسبي أثر في نجاح تلك البعثة البريطانية التي انطلقت في اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر من عام ١٩١٧م ، وبعد تسعة أيام فقط من ورود الموافقة النهائية من السلطات البريطانية العليا بإقرار القيام بالبعثة إلى شبه الجزيرة العربية .

وكانت هذه البعثة البريطانية بأهدافها الطموحة ، على ما يبدو ، نقطة تحول جديدة في حياة فيلبي .

فقد وقع اختيار كوكس على مساعده الشخصي وأحد أبرز رجالاته في

العراق، فيلبي لتولي رئاسة تلك البعثة البريطانية التي كانت تهدف في المقام الأول إلى القيام بجولة مباحثات مع عدد من الزعامات العربية في الجزيرة العربية وتقريب وجهات النظر بما يخدم المصالح البريطانية فيها(١).

ومنذ ذلك الوقت انطلق فيلبي وأطلق لنفسه العنان ليقوم برحلته تلك إلى داخل شبه الجزيرة، لتكون تلك الرحلة مجرد بداية للعديد من الرحلات الرسمية المتتالية التي قام بها فيلبي في داخل الجزيرة العربية.

ويبدو أن المملكة العربية السعودية في الجزيرة العربية بحكامها وأهلها المسالمين والمحبين للخير قد استهووا فيلبي، حيث نراه بعد أن ترجل عن مهماته السياسية الرسمية في تلك المنطقة لصالح الحكومة البريطانية قد وطد علاقته بالملك عبد العزيز آل سعود - طيب الله ثراه - ، واتخذ من المملكة العربية السعودية له مقراً ومقاماً حيث قضى فيها معظم بقية حياته وفضل العيش فيها وحط فيها رحاله، ليتفرغ بعد ذلك للتجارة وللتاريخ والترحال بحثاً عن الجديد في عالم التاريخ والآثار(٢).

---

(١) يمكن الاطلاع على تفصيلات هذه البعثة من خلال التقرير الخاص بالبعثة الذي كتبه وقام الأستاذ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين بالتقديم له وترجمته.
انظر: سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، الصفحات ٧٣ - ٢٢٣.

(٢) عن حياة فيلبي في الجزيرة العربية يمكن الاطلاع على مؤلفه الخاص الذي اطلق عليه اسم (الأيام العربية) والمنشور باللغة الإنجليزية في لندن عام ١٩٤٨م.

PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN DAYS, LONDON, 1948.

أما عن علاقاته بالملك عبد العزيز، ومواقفه السياسية من بعض الأحداث في الجزيرة العربية وموقف المملكة العربية من قضية فلسطين، فيمكن الاطلاع على ما ذكره خير الدين الزركلي في كتابه شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز:
خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٣م، ج ٣ الصفحات ١١٣٤ - ١٣٣٨، ج ٤ الصفحات ١٣٥٨ - ١٣٦٤.

وقد ظهرت آثار تلك العلاقة الوطيدة بين فيلبي وشبه الجزيرة العربية وحكامها وأهلها بما سطره وأظهره فيلبي من مؤلفات ومقالات عديدة عن تاريخ تلك المنطقة وأهلها وآثارها على نحو ما سيأتي الحديث عنه في بقية صفحات هذه الدراسة .

فيلبي الرحالة والمؤرخ :

إن المتتبع لتاريخ وحياة فيلبي وآثاره يلحظ أنه كما برز في الجانب السياسي فقد برز كذلك في جانب التاريخ والآثار. وإن الكتاب الذي بين أيدينا لفيلبي ليس إلا نموذجاً واحداً من نتاج تاريخي غزير، ومؤلفات عديدة قام فيلبي بتأليفها ونشرها، جمع فيها بين التاريخ والآثار.

وتعتبر أبرز مؤلفات فيلبي التي تدور في فلك هذين الفنين المتلازمين، مرتبة بحسب تاريخ صدورها، ما يأتي :

١ - قلب الجزيرة العربية THE HEART OF ARABIA

وقد صدر الكتاب في لندن عام ١٩٢٢م، ولذلك يعد الكتاب من أقدم، بل إذا ما استبعدنا التقارير الرسمية التي نشرت لفيلبي، فربما يكون هذا الكتاب أقدم المؤلفات التي نشرت لفيلبي.

والكتاب مكون من جزءين الأول ٣٨٦ صفحة والثاني ٤٥٣ صفحة وفي هذا الكتاب بجزءيه جمع فيلبي بين التاريخ والجغرافيا والآثار من خلال ما أورده من معلومات عن المناطق المختلفة التي مر بها في بعض رحلاته التي قام بها في عدد من مناطق شرق ووسط وغربي الجزيرة العربية في الفترة قبيل نشر الكتاب [١].

٢ - الجزيرة العربية، ARABIA OF THE WAHHABIES

ونشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٢٨م. وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٤٣٣ صفحة تحدث المؤلف عن تاريخ الدولة السعودية في عصورها

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE HEART OF ARABIA, LONDON, 1922.

المختلفة بدءاً من تاريخ آل سعود في إمارة الدرعية والتطورات السياسية التي صاحبت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونصرة آل سعود لها وتأسيس الدولة السعودية الأولى نتيجة الحلف بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود، ثم يستمر في تتبع أخبار الدولة السعودية وتطوراتها في الدولة الأولى والدولة الثانية إلى أن يصل بالحديث إلى تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبد العزيز في مراحله المختلفة حتى زمن صدور الكتاب.

وركز فيلبي في الكتاب على علاقة الملك عبد العزيز بالإخوان في مناطق نجد، وكيف استطاع الملك عبد العزيز بحزمه وحكمته أن يتعامل مع تلك المعضلة الكبيرة التي واجهته جراء تعصبهم ومواقفهم المتشددة من المخترعات الحديثة[١].

والكتاب في الحقيقة يعد أصلاً لكثير من الأعمال التاريخية اللاحقة التي كتبها فيلبي فيما بعد عن تاريخ الدولة السعودية في مراحلها المختلفة، حيث يلحظ أنه كثيراً ما بنى كتبه اللاحقة على هذا الكتاب، ثم يضيف إلى الجديد منها ما يستجد من معلومات تاريخية بحكم امتداد الزمن التاريخي للكتب الجديدة أو بحكم المعلومات الجديدة التي يحصل عليها فيلبي من اطلاعه على بعض المصادر الجديدة التي لم يطلع عليها من قبل أو بحكم المعرفة التراكمية الجديدة التي اكتسبها من خلال بقائه مدة أطول في الجزيرة العربية.

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIA OF THE WAHHABIES, LONDON, 1928.

٣ – **الجزيرة العربية** ARABIA

ونشر هذا الكتاب في نيويورك عام ١٩٣٠م. وفي هذا الكتاب الذي بلغت عدد صفحاته ٣٨٧ صفحة تتبع فيلبي تاريخ آل سعود والدعوة السلفية في نجد منذ انطلاقتها إلى أن وصل بالأحداث القريبة من تاريخ نشر الكتاب المتعلقة بتاريخ الملك عبد العزيز وجهوده في تأسيس وتوحيد الدولة السعودية في طورها الثالث(١).

٤ – **الربع الخالي** THE EMPTY QUARTER

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٣م. وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٤٣٣ صفحة قدم فيلبي وصف وصفاً جغرافياً وآثارياً لرحلته المميزة التي قطعها عبر الربع الخالي والتي استغرقت حوالي ثلاثة أشهر، كاد فيلبي أن يفقد فيها حياته أكثر من مرة. وقد ألحق فيلبي كتابه هذا بمجموعة من الخرائط والصور والأشكال التي توضح المعالم والآثار التي عبر بها فيلبي خلال رحلته(٢).

٥ – **بنات سبأ: يوميات رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية**
SHEBA'DAUGHTERS: BEING A RECORD OF TRAVEL IN SOUTHREN ARABIA.

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٣٩م، وتبلغ صفحاته ٤٨٥ صفحة. وفيه كتب فيلبي وصفاً دقيقاً لأحداث الرحلة التي قام بها إلى جنوب الجزيرة العربية، ووصف المعالم التاريخية والآثار التي مر بها خلال رحلته. كما أعطى وصفاً للسكان المعاصرين وعاداتهم وتقاليدهم وأجناسهم من خلال

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIA, NEW YORK, 1930.
(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE EMPTY QUARTER, LONDON, 1933.

ما سجله في رحلته من انطباعات شخصية ومن خلال قراءاته التاريخية عن المنطقة(١).

٦ - **حاج في الجزيرة العربية** A PILGRIM IN ARABIA

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٤٦م، ومقارنة بغيره من مؤلفات فيلبي الأخرى يعد هذا الكتاب من أقصر مؤلفات فيلبي حيث بلغ ١٩٨ صفحة فقط.

وفيه تحدث فيلبي عن رحلته التي قام بها للحج بعد اعتناقه الإسلام عام ١٩٣١م، ووصف فيه الحج في تلك السنة والمشاعر المقدسة التي مر بها خلال رحلته في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، مع ذكر شيء من تاريخ تلك المشاعر والمساجد التاريخية التي تحدث فيها خلال الكتاب.

كما سجل فيلبي في الكتاب شيئاً من تاريخ بعض الأماكن الأخرى في الجزيرة العربية وبالذات الرياض. وطَعَّم فيلبي كتابه هذا ببعض الصور التي التقطها خلال تلك الفترة والتي تزيد من أهمية الانطباعات المكتوبة وتدعمها(٢).

٧ - **خلفية الإسلام** BACKGTOUND OF ISLAM

ونشر الكتاب في الاسكندرية عام ١٩٤٧م، وهو كذلك من الكتب القصيرة التي كتبها فيلبي، حيث بلغت صفحاته ١٥٢ صفحة فقط.

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, SHEBA'S DAUGHTERS: BEING A RECORD OF TRAVEL IN SOUTHREN ARABIA, LONDON, 1939.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, A PILGRIM IN ARABIA, LONDON, 1946.

وهو من الكتب التي جمع فيها بين التاريخ والآثار حيث سرد فيلبي في هذا الكتاب تاريخ خمسة قرون تاريخية سبقت قيام البعثة النبوية في مكة المكرمة.

واعتمد فيلبي في كتابه هذا على عدد ضخم من النقوش الأثرية التي عثر عليها خلال رحلاته في مناطق الجزيرة العربية والتي قام بدراستها وقراءة نصوصها وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ونشر جزء منها خلال دراسته التاريخية هذه عن الجزيرة العربية قبل الإسلام[١].

٨ - الأيام العربية ARABIAN DAYS

ونشر الكتاب في لندن عام ١٩٤٨م. وهذا الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية كتبها فيلبي عن نفسه.

ففي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته **٣٣٦** صفحة روى وكتب فيلبي قصة حياته منذ طفولته في بريطانيا إلى الفترة التي نشر فيها الكتاب والتي كان يعيش فيها شيئاً من أيامه الذهبية في الجزيرة العربية في كل رعاية خاصة من الملك عبد العزيز، رحمه الله[٢].

٩ - النجود العربية ARABIAN HIGH LANDS

ونشر الكتاب في عام ١٩٥٢م، وهو من الأعمال الميدانية الكبيرة التي جمع فيها فيلبي بين الدراسات التاريخية المعاصرة والدراسات الآثارية القديمة.

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, THE BACKGROUND OF ISLAM, ALEXANDRIA, EGYPT

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN DAYS, LONDON, 1948.

ففي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٧٧١ صفحة سجل فيلبي وصفاً تاريخياً وجغرافياً لمناطق جنوب غربي الجزيرة العربية ومرتفعاتها وسكانها وآثارها من واقع الرحلة الشخصية التي قام بها إلى تلك المناطق[١] .

١٠ – اليوبيل الذهبي للجزيرة العربية ARABIAN JUBILEE

وصدر هذا الكتاب في لندن بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٢م، وذلك باعتبار التاريخ الميلادي هو الأساس في حساب السنين منذ استرداد الرياض على يد الملك عبد العزيز وبداية رحلة التأسيس في عام ١٩٠٢م .

وفي هذا الكتاب البالغ عدد صفحاته ٢٨٠ صفحة سجل فيلبي ومن واقع مشاهداته وانطباعاته الشخصية ومن واقع صناعته لبعض الأحداث، تاريخ المملكة العربية السعودية عامة وعلاقاتها الخارجية مع بريطانيا ومع غيرها من البلدان والدول المجاورة، وتتبع فيلبي بشكل خاص تاريخ وتحركات المؤسس الملك عبد العزيز منذ انطلاقته في رحلة التأسيس إلى أن أكمل بناء الدولة، وانصرف لتطوير الأوضاع المختلفة فيها على مدى خمسين عاماً من عمر المملكة العربية السعودية[٢] .

وهذا الكتاب من الكتب القلائل لفيلبي التي ترجمت إلى اللغة العربية، وقام على ذلك الأستاذ مصطفى كمال فايد بمتابعة من الشيخ عبد الرؤوف

---

(١) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN HIGHLANDS, CORNELL UNIVERSITY PRESS, 1952.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN. B, ARABIAN JUBILEE, LONDON, 1952.

الصبان، ونشرت الترجمة العربية البالغ عدد صفحاتها ٣٨٥ صفحة في القاهرة عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م[١].

١١ - العربية السعودية SAUDI ARABIA

ونشر هذا الكتاب في لندن عام ١٩٥٥م وسنترك الحديث عنه لاحقاً حيث إنه هو الكتاب الذي بين أيدينا ترجمته.

١٢ - أربعون عاماً في القفار FORTY YEARS IN THE WILDERNESS

وفي هذا الكتاب الصادر في لندن عام ١٩٥٧م أعاد فيلبي نشر كثير مما نشره في كتبه السابقة عن حياته الشخصية ونشاطاته المختلفة في الجزيرة العربية، مع تتبع آخر لتاريخ المملكة العربية السعودية وتطور الأحداث فيها خلال الأربعين عاما هي الفترة ما بين عام ١٩١٧م أي منذ بدأ فيلبي نشاطاته في الجزيرة العربية إلى أن يقترب بالأحداث من عام ١٩٥٧م وهو تاريخ صدور الكتاب[٢].

وبالإضافة إلى المؤلفات التاريخية العامة التي نشرت لفيلبي يوجد عدد من المؤلفات التي لم تنشر والتي بقيت محفوظة في أوراق فيلبي الخاصة المحفوظة في كلية سانت انتوني في اكسفورد ST. ANTONY'S COLLEGE، وقد قامت الباحثة إليزابيث منرو بتتبع تلك الأوراق ثم قامت بعمل حصر وراقي لها وأوردت قائمة بأكثر من عشرة مؤلفات لم تنشر ألحقتها في نهاية دراستها القيمة عن حياة فيلبي[٣].

(١) عبد الله سنت جون فيلبي، الذكرى العربية الذهبية، ترجمة مصطفى كمال فايد، القاهرة مطبعة الاعتماد، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

(٢) PHILBY, HARRY, St JOHN B, FORTY YEARS IN THE WILDERNESS, LONDON, 1957.

(٣) ELIZABETH MONROE, OP. CIT, PP 308, 309.

وعلاوة على تلك المؤلفات المنشورة وغير المنشورة فقد سطر فيلبي عدداً من التقارير والمراسلات الرسمية التي كتبها فيلبي ورفعها إلى الجهات البريطانية من واقع بعض المهمات الرسمية التي كلف بها في شبه الجزيرة العربية .

وتعد التقارير التي كتبها فيلبي من المصادر التاريخية الأولية للمؤرخين للفترات التاريخية التي تغطيها تلك التقارير .

وتكتسب التقارير أهميتها من عدة جوانب منها :

أولاً : إن فيلبي قد كتب تلك التقارير من واقع خبرة ودراية هي نتاج مشاهدته للأحداث ، وجاءت من واقع مسؤوليته التي أتاحت له أن يكون قريباً من مطابخ قرارات وصناعة الأحداث التي شارك فيلبي في صناعة كثير منها .

ثانياً : إن تلك التقارير بها طابع التقارير البريطانية الرسمية التي تكتب عادة من قبل رجال الإدارة والسياسة والحرب البريطانيين والتي تستخدم بالدرجة الأولى للأغراض والشؤون الرسمية لصياغة وبناء السياسات والاستراتيجيات البريطانية في المنطقة اعتماداً على تلك التقارير وما شابهها من الوثائق الرسمية المتبادلة بين الأجهزة البريطانية المختلفة .

ولذلك فإن كُتّاب التقارير يحرصون دائماً على توخي الدقة فيما يكتبون من تقارير لعلمهم بأهمية وخطورة ما يبنى عليها من أمور تمس المصالح العليا لبلادهم .

وتحتفظ دور الوثائق البريطانية بعدد من التقارير الرسمية التي كتبها فيلبي خلال سنوات عمله في شبه الجزيرة والتي ينطبق عليها ما ذكرناه من أهمية .

ومن أبرز التقارير ما يعرف باسم: بعثة إلى نجد، وهو مؤرخ في ١٢ نوفمبر ١٩١٨م. وسجل فيه فيلبي وصفاً مفصلاً للمهمة الأولى التي قام بها إلى وسط الجزيرة العربية والتي تحدثنا عنها سابقاً في هذه الدراسة، والتي كانت تهدف إلى دراسة الأوضاع السياسية والعسكرية للقوى الموجودة في وسط الجزيرة العربية، وبالذات ابن سعود وابن رشيد والشريف، ومحاولة تقريب وجهات النظر بما يضمن استقرار واستمرار المصالح البريطانية في المنطقة.

وهذا التقرير هو التقرير الذي قام بترجمته والتقديم له تاريخياً والتعليق عليه الأستاذ الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين.

ونشر وطبع في مطابع العبيكان في الرياض عام ١٤١٨هـ بعنوان بعثة إلى نجد ١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧ - ١٩١٨م. وهو التقرير الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة فيما يتصل بتفصيلات البعثة الأولى التي قام بها فيلبي إلى داخل الجزيرة العربية، وكنا قد أشرنا إلى ذلك في موقعه من الدراسة سابقاً.

ويتصل بهذا التقرير، التقرير الذي كتبه الوكيل البريطاني في الكويت السيد هاملتون الذي رافق فيلبي في مهمته وكتب تقريراً مشابهاً لتقريره، بعنوان: يوميات رحلة هاملتون إلى نجد(١).

وهذا التقرير محفوظ في سجلات الوكالة البريطانية في الكويت في مكتب الهند في لندن تحت اسم:

DIARY OF COLONEL HAMILTON'S VISIT TO NAJD

1918: MISSION TO IBN SAUD 19/9/17 - 28/12/1918.

(١) I. O. R. R/15/5/104.

ومن التقارير الأخرى المشابهة بهذا التقرير، تقارير أخرى من إعداد فيلبي محفوظة في أرشيف مكتب الهند في لندن المعروف بـ :

INDIA OFFICE LIBRARY AND RECORDS

ومثال ذلك التقرير المحفوظ في أرشيفات الوكالة البريطانية في الكويت ومسجل بعنوان: بعثة إلى نجد، ٢ فبراير ١٩١٨ - ٢ نوفمبر ١٩٢٥(١).

PHILBY'S MISSION TO NAJD, 2/2/1918 - /11/1925.

وتقرير آخر يحمل عنوان :

بعثة فيلبي إلى ابن سعود بتاريخ ١٩ أبريل إلى ٢ أغسطس ١٩١٨، ويتعلق بالنزاع بين نجد والكويت بسبب ما يسمى بتجارة البر أو المسابلة بين البلدين، وموقف بريطانيا من ذلك النزاع (٢).

والتقرير محفوظ في الأرشيف البريطاني نفسه باسم :

PHILP'S MISSION TO IBN SA'UD ; FRICTION BETWEEN NAJD & KUWAIT BECAUS OF BRITSH BLOCKADE OF LAND TRADE, 19 APR - 2 AUG. 1918.

وبالإضافة إلى تلك المؤلفات والتقارير التي كتبها فيلبي، فقد كتب فيلبي عدداً كبيراً من المقالات والأبحاث التي نشرت في عدد من المجلات والدوريات التي كانت تصدر في تلك الفترة في بريطانيا وفي مصر وغيرها.

وقد قامت الباحثة إليزابيث مونرو كذلك بعمل حصر وراقي لأكثر من خمسين مقالة من كتابات فيلبي المختلفة، وألحقت قائمة بذلك في نهاية عملها عن حياة فيلبي(٣).

وصنفت مونرو القائمة وفق محاور الموضوعات التي تناولتها كتابات فيلبي، وكانت بحسب التصنيف الآتي : -

---

(١) I. O. R, R/15/5/66 , 62/16.

(٢) I. O. R, R/15/5/101 , 8/C.

(٣) ELIZABETH MONROE, OP, CIT, PP 309 - 312.

١ - مقالات عن رحلاته في صحراء الجزيرة العربية .
٢ - مقالات عن تطوير أو مناقشة لرحلات قام بها غيره .
٣ - مقالات عن التاريخ الحديث لشبه الحزيرة العربية .
٤ - مقالات عن العلاقات العربية الإنجليزية .
٥ - مقالات عن الإسلام .
٦ - مقالات عن الفترة ما قبل الإسلام .
٧ - مقالات لموضوعات متعددة .

محاور الكتاب :

يتكون الكتاب الذي بين أيدينا من أحد عشر فصلاً متوازنة إلى حد ما ، تناول المؤلف فيها تاريخ آل سعود منذ استقرارهم في الدرعية في أواسط القرن التاسع الهجري ومروراً بتأسيس إمارتهم فيها وتطورها إلى دولة بعد التحالف بين آل سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب في أواسط القرن الثاني عشر الهجري ، والتطور السياسي الذي شهدت الدولة في أطوارها الثلاثة إلى نهاية عهد مؤسس المملكة العربية السعودية ؛ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، طيب الله ثراه وغفر له ولوالديه .

وخصص المؤلف الفصل الأول من الكتاب للحديث عن تاريخ آل سعود وعلاقاتهم السياسية والإدارية بالتكتلات السياسية المتناثرة في وسط الجزيرة العربية منذ استقرارهم في الدرعية إلى الفترة قبيل قيام الدولة السعودية الأولى في منتصف القرن الثاني عشر الهجري .

أما الفصل الثاني فتحدث فيه المؤلف عن تاريخ الدولة في زمن مؤسسها الإمام محمد بن سعود وتتبع الأحداث منذ البداية إلى نهاية عهده ، رحمه الله في ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م .

وفي الفصل الثالث واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة السعودية في عهد أحد أبرز رجالاتها وهو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي امتد حكمه طويلاً إلى أن قتل، رحمه الله، غيلة وهو ساجداً يصلي صلاة العصر في الدرعية عام ١٢١٨هـ/ ١٩٠٣م.

وعلى النسق نفسه خصص المؤلف الفصل الرابع للحديث عن الإمام سعود بن عبد العزيز الذي واصلت الدولة السعودية في عهده اتساعها وتطورها واستقرارها، والذي في عهده كذلك بدأت معاناة الدولة من التدخل العثماني عن طريق القوات المصرية، واستمر المؤلف بسرد أحداث تلك الفترة في هذا الفصل إلى نهاية عهد الإمام سعود بن عبد العزيز بوفاته، رحمه الله، عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م.

وفي الفصل الخامس واصل المؤلف الحديث عن تاريخ الدولة وسير الأحداث فيها والضغوط المصرية في عهد الإمام عبد الله بن سعود الذي اضطر في النهاية للتسليم للقوات المصرية؛ بقيادة إبراهيم باشا. حيث أنهى المؤلف هذا الفصل بالحديث عن كيفية استسلام الإمام عبد الله وهدم الدرعية من قبل إبراهيم باشا في عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م، وبه انتهى فصل مهم في تاريخ آل سعود وانتهى طور من أطوارها التاريخية.

وبدأ المؤلف الفصل السادس من الكتاب بتتبع محاولة محمد بن مشاري ابن معمر تولى الزعامة في نجد وإقامة سلطة جديدة على إنقاض السلطة السعودية السابقة، ثم تتبع بعد ذلك الصراع السياسي والعسكري الذي دار بينه وبين مشاري بن سعود الذي نازعه السلطة، وكيف كان ذلك الصراع يصب في مصلحة الإمام تركي بن عبد الله بن الإمام محمد بن سعود الذي استطاع في النهاية أن يصل إلى سدة الحكم وأن يقيم دولة آل سعود راسخة وقوية في الجزيرة العربية من جديد.

ولذلك يرى كثير من المؤرخين أن الإمام تركي هو المؤسس الحقيقي للدولة السعودية الثانية، والذي استقر له الحكم بسيطرته على الرياض واتخاذها لأول مرة مقراً للدولة السعودية العائدة من جديد في عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م إلى أن قتل فيها، غيلة، رحمه الله، في أواخر عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م.

وخصص المولف الفصل السابع للحديث عن تاريخ الإمام فيصل بن تركي الذي استرد السلطة من بعد أربعين يوماً فقط من قتل والده، وكان ذلك في مطلع عام ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

وخلال هذا الفصل تتبع المؤلف تاريخ الإمام فيصل بفترتيه الأولى والثانية، كما ركز المؤلف الحديث على العلاقات الخارجية للدولة السعودية في عهد الإمام فيصل، إلا أنه لم يتحدث، كما يفترض عن رحلة المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل لويس بلي إلى الرياض رغم أهميتها التاريخية ورغم أنه بنفسه في نهاية الفصل قد أشار إلى استغرابه من عدم حديث المصادر المحلية عن الرحلة.

ولعل هذا مما يدعونا إلى القناعة بأن فيلبي قد وقع بالفعل أسيراً للمصادر المحلية التي تحدثت عن تاريخ تلك الفترة ولم يحاول الخروج عن الخط الذي سارت عليه، وهذا مما يؤخذ على مؤرخ مثل فيلبي يمتلك الخبرة والمعلومات التاريخية التي يفترض فيها أن تظهر في مثل هذه الموضوعات وخاصة أن الأمر يتصل بالعلاقات السعودية البريطانية التي خاض فيلبي غمارها، اللهم إلا إذا كان فيلبي قد ترك عن قصد الخوض في تفصيلات مثل تلك الرحلات كرحلة بلي وغيرها من الرحلات الرسمية المشابهة.

وفي الفصل الثامن تابع فيلبي الحديث عن تاريخ الدولة السعوية الثانية خلال الفترة التالية لحكم الإمام فيصل بن تركي، وتتبع في الفصل نفسه الصراعات التي دارت بين أبنائه وكيف أدت تلك الظروف إلى نهاية الدولة السعودية الثانية وظهور بعض القوى الجديدة على حسابها.

وفي الفصل التاسع يبدأ فيلبي الحديث عن مرحلة جديدة من تاريخ الدولة السعودية في عهد مؤسسها وباني وحدتها الملك عبد العزيز، طيب الله ثراه.

وخصّ فيلبي هذا الفصل عن عدد من موضوعات الوحدة السعودية، حيث بدأها بالحديث عن انطلاقة الملك عبد العزيز في مسيرة التوحيد الطويلة باسترداد الرياض في شوال من عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، ثم واصل الحديث عن ضم الملك عبد العزيز معظم مناطق نجد وضم المنطقة الشرقية وكيف وقف بقواته على أعتاب حائل ليدق المسمار الأخير في نعش ألد خصومه ابن رشيد.

ثم واصل فيلبي في الفصل الذي يليه بعنوان التوسع والاستقرار الحديث عن معارك التوحيد التي قام بها الملك عبد العزيز لضم بقية المناطق في نجد والحجاز وجنوب الجزيرة العربية إلى دولته التي أطلق عليها المملكة العربية السعودية بعد تلك الملحمة الوطنية الرائدة التي قام بها الملك عبد العزيز، رحمه الله.

وفي الفصل نفسه تتبع فيلبي علاقة الملك عبد العزيز ببعض أنصاره السابقين من الإخوان الذين تحول بعضهم، نتيجة تعصبهم ومواقفهم الغريبة من المستجدات الحديثة، ونتيجة إصرارهم على بعض مواقفهم السياسية

المحـرجـة للدولة مع بعض الدول الأخـرى المجـاورة إلى أعـداء، وكـيف استطاع الملك عبد العزيز بحكمته وحنكته السياسية وحزمه أن يجنب البلاد تلك العقبة الجديدة التي كادت أن تعصف بالوحدة الوطنية والاستقرار الذي عمل الملك عبد العزيز طويلاً من أجله.

وختم فيلبي كتابه بالفصل الحادي عشر الذي خصصه للحديث عن ما أسماه بعهد الرخاء، وهي المرحلة التي تلت مرحلة حروب الوحدة الوطنية وجهود الاستقرار التي خاضها الملك عبد العزيز في سبيل ذلك، وتتميز المرحلة الأخيرة بظهور بوادر الرخاء الاقتصادي التي بدأت المملكة العربية السعودية تنعم في ظلها الوافر خاصة بعد أن أنعم الله على البلاد بظهور النفط وتدفق إنتاجه على مستوى حسن من مستوى الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي كانت البلاد تعاني منها خاصة مع إصرار الملك عبد العزيز على المضي قدماً في خطة الإصلاحات الشاملة التي بدأها بمجرد استقرار الأوضاع السياسية والأمنية.

وبإيجاز يمكن القول إن الكتاب الذي بين أيدينا عبارة عن سجل موسوعي وموضوعي متسلسل للتاريخ السعودي بمراحله المتتالية بدءاً بتأسيس إمارة آل سعود في الدرعية وانتهاءً بنهاية عهد مؤسس الدولة السعودية الحديثة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراه.

ولعلنا لذلك نقول: إن الكتاب، وبدون مبالغة، أشبه ما يكون بقصة أو رواية مترابطة الأحداث شائقة السرد، تبدأ بتتبع أحداثها بالفصل الأول، وربما يضطر شوق المعرفة إلى متابعتها والاستمرار معها إلى الفصل الأخير.

أهمية الكتاب :

يعد الكتاب الذي بين أيدينا من المؤلفات المهمة والمصادر المعتبرة في التاريخ السعودي. وتأتي أهمية الكتاب في نظري من عاملين مهمين :

الأول : الخبرة والدراية التاريخية والسياسية التي تميز بها المؤلف، ومعاصرته، بل مشاركته في صناعة كثير من أحداث التاريخ السعودي الحديث.

الثاني : من حيث أهمية المحاور التي طرقها المؤلف خاصة في الفصول الأخيرة التي تتحدث عن جوانب التطور السياسي والإداري للمملكة العربية السعودية، والتي لم تنل حظها من المؤرخين.

وبالرغم مما ذكرته من أهمية عن الكتاب، فإنني أرى أن أستدرك وأقول، من جانب آخر، بأنني ومن خلال قراءتي المتأنية لهذا الكتاب وتصور نوعية القراء الذين سيطلعون عليه بطبعته الإنجليزية، وبطبعته المترجمة إلى العربية يبدو لي أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا يأتي في عداد الكتب التاريخية التي يصعب إعطاء حكم عام عليها من حيث الأهمية.

ففي أجزاء منه ربما لا يعطي الكتاب أي جديد لنوعية من القراء بإحدى اللغتين، وفي أجزاء أخرى قد يعدّ في غاية الأهمية لهؤلاء القراء أنفسهم، وربما كان العكس صحيحاً بالنسبة لبعض الأجزاء الأخرى من الكتاب وهكذا.

ويعود السبب في الوصول إلى هذه الحقيقة، في اعتقادي، إلى واحد أو أكثر من العوامل الآتية :

أولاً : أن الكتاب لا يختص بتاريخ فترة معينة من التاريخ السعودي أو بتاريخ شخصية من الشخصيات السياسية أو الاجتماعية أو غيرها، بل هو من الكتب التاريخية الشاملة للتاريخ السعودي منذ بداية تكوين الإمارة السعودية في نجد وتطورها إلى دولة، ثم تاريخ هذه الدولة في أطوارها التاريخية الثلاثة.

ولذلك فإن صفة المعاصرة للمؤلف، وهو هنا فيلبي، لا تنطبق إلا على الفصول الأخيرة من الكتاب، وبالتحديد فترة تاريخ الملك عبد العزيز.

وبمعنى آخر فإن أهمية الكتاب تبرز بشكل جلي في تاريخ هذه الفترة التي عاصر وعايش فيها المؤلف الأحداث، بل ربما شارك في صناعة الكثير من جوانبها.

ثانياً : ومن العوامل التي تجعل أهمية الكتاب متفاوتة نوعية القراء للكتاب، بحسب اللغة المطبوعة، فبالنسبة للقراء باللغة العربية فإني أعتقد جازماً أن الفصول الأولى من الكتاب، علاوة على ما ذكرناه سابقاً من حيث عدم أهميتها لعدم معاصرة فيلبي للأحداث، فإنها أيضاً ربما لا تضيف لهم جديداً لاعتماد فيلبي، في جلها على المصادر المحلية العربية المعروفة والمتداولة بيسر بين القراء العرب، مثل تواريخ ابن غنام وابن بشر وابن عيسى وابن ناصر.

ومن جانب آخر فإن تلك الأقسام الأولى تبدو في غاية الأهمية للقارئ الإنجليزي، أي في الطبعة الإنجليزية من الكتاب، حيث أتاح فيلبي، باعتماده على تلك المصادر المحلية العربية، للقارئ فرصة الاطلاع على محتويات تلك المصادر وبالتالي فرصة تتبع التاريخ المحلي للجزيرة العربية

من واقع مصادره المحلية العربية التي ربما لا تتاح له، وإن أتيحت له فربما وجد صعوبة في التعامل معها.

ثالثاً : ومن العوامل التي تقلل من أهمية الكتاب ما يؤخذ على مؤلفه من وقوعه أسيراً للمصادر المحلية التي استقى منها معلوماته في الفصول الأولى من الكتاب دون إعمال، في بعض المواقف، لقدراته العلمية والتاريخية المميزة التي يفترض فيها أن تجعل منه مؤرخاً قارئاً ومحللاً لتلك الأحداث أكثر من كونه ناقلاً لمحتوياتها من تلك المصادر.

ونستطيع لذلك أن نجمل القول عن أهمية الكتاب بإيجاز :

إن الكتاب في ترجمته العربية مهم في فصوله الأخيرة للقراء العرب لمعاصرة المؤلف للأحداث. وهو لغيرهم، وفي طبعته الإنجليزية، مهم في غالبية فصوله للمعاصرة عند المؤلف في فصوله الأخيرة، ولاعتماده على المصادر المحلية في أوائلها.

وأخيراً أختم حديثي عن الكتاب بالإشارة والتأكيد على أن الكتاب، مثله مثل غيره من المؤلفات التاريخية المختلفة يحمل ويمثل وجهة نظر مؤلفه، وليس بالضرورة أن تكون تلك الوجهة هي الرأي الذي نؤمن به أو نتبناه، فلكل مؤرخ الحق باتخاذ ما يراه أو يميل إليه من وجهات النظر، خاصة إذا كان الأمر مما يحتمل الاختلاف في وجهات النظر.

وحيث إن الهدف من ترجمة الكتاب ونشره باللغة العربية نقل وجهات النظر تلك كما رآها وسطرها المؤلف كاملة إلى القارئ العربي وتقريبها إليه

بأبسط صـورة دون تعـقـيـد فـقـد التـزمت بنهج علمي واضح بتـرك النص الأصلي دون تدخل، وللهـدف نفسـه فـقـد حـاولـت جـاهداً أن أحـصـر التـعليـقـات على بعض النقـاط في أضـيق نطاق كي لا تخـرج التـرجمـة عن أهدافها .

مرة أخرى أكرر شكري للقائمين على مكتبة العبيكان على جهودهم في نشر الكتاب متمنياً لك عزيزي القارئ وقتاً ممتعاً مع هذا الكتاب وغيره من المصادر التاريخية المهمة، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عمر بن صالح بن سليمان العُمري

الرياض - ربيع الآخر ١٤١٩هـ

من التمهيد

أسدل موت الملك عبد العزيز بن سعود في التاريخ من تشرين الثاني من عام ١٩٥٣ الستار على فصل مشرق من فصول العرب. وربما يأتي هذا الحدث في المرتبة الثانية من الأهمية بعد الفترة المكية التي ظهرت في القرن السابع عشر والتي شهدت فجر الإسلام كعنصر بارز في التطور الإنساني.

كما كان مقدر لمحمد ﷺ أن يكون رسولاً. كذلك كان للقدر دور في حياة عبد العزيز. كان قدر الرسول محمد ﷺ أن يعيد توجه التطلعات الروحانية ليس فقط لأبناء جلدته بل لشعوب عديدة أخرى تعيش وراء حدود شبه الجزيرة العربية. أما بالنسبة لـ «عبد العزيز بن سعود» فقد كان قدره أن يقود شعبه من مجاهل الضياع إلى أرض تزخر بالخيرات والرزق الوفير، مستخدماً لذلك الغرض نفسه السلاح الروحاني ليحقق السلام والنظام في جو تسوده الفوضى، وتتنازعه الأهواء وثقافة الجاهلية القديمة.

لم يكن الملك نفسه مفتوناً بالطرف الجديدة، لكن همومه ووهن جسده ومشاق الحياة التي عانى منها، أضعفت وبشكل تدريجي من قدرته على مقاومة تيار التطورات والابتكارات التي سرعان ما جرفت كل معالم الحضارة القديمة، ومهما يخبئ المستقبل للمملكة سيظل الملك عبد العزيز - الذي أرسى أسسها - واقفاً شامخاً في التاريخ كآخر - أو ربما كأعظم - شخصية بين عدد كبير من شخصيات القادة العرب الذين تتميز سمعتهم بإنجازاتهم الشخصية التي تحققت وسط ظروف الصحراء القاسية والحالمة على حد سواء، وهذا لا يعني أن هناك سبب يدعو لليأس من قدرات العرب في تحقيق التقدم والازدهار.

كان الملك عبد العزيز آخر (الوهابيين)[1]، وهذا الكتاب يعرض منجزاتهم وفقاً لتسلسلها الزمني والتاريخي. وها قد تبدل المناخ المادي والروحاني السائد في شبه الجزيرة العربية بشكل جذري، فلا يمكن لذلك التغيير إلا أن يكون تغييراً باقياً ومستمراً.

صُمم هذا الكتاب على أن يُنشر إبان حياة الملك عبد العزيز والذي يتم إهداؤه حالياً تخليداً لذكراه. إن «العربية السعودية» أضحت اليوم معروفة لدى كافة دول العالم، والتي في فترة ما اعترتها الشكوك بخصوص قدرة الملك عبد العزيز على حكم العرب في هذه المنطقة.

---

(١) يستخدم المؤلف اسم «الوهابية» مثل الكثير من المؤلفين الغربيين وغيرهم عند الحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والحركة التصحيحية التي قام بها ودعى إلى مبادئها. ويختلف الكُتّابُ عند إطلاق اسم «الوهابية» بين مغالط ومكابر ومضل وجاهل بحقيقة دعوة الشيخ.
ومن خلال قراءة الكتاب يبدو لي أن المؤلف حين يطلق «الوهابية» فهو يعرف حقيقتها وأهدافها وقصد من ذلك الإشارة إلى الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ وأتباعه ومؤيدوه وعلى رأسهم آل سعود. وحين يطلق لفظ «الوهابيون» فهو، يقصد أتباع الشيخ محمد ومن جاء بعدهم من الأجيال اللاحقة التي آمنت بالدعوة وتحمست لها. إلا أن المؤلف هنا - وعلى ما يبدو حين يستخدم هذا اللفظ، فهو يقصد فئة معينة من أتباع الشيخ والمؤمنين بدعوته من الأجيال اللاحقة بعده. وهم الفئة التي ترخى بمهمة التعصب لمبادئ الدعوة.
ولسنا هنا في مجال بيان حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا مجال بيان دعاوى المناوئين لدعوته وحكمته. ولذلك فقد آثرنا استبدال كلمة الوهابيين والوهابية بما يناسبها من معنى عند ورودها في ثنايا الكتاب دون التعليق على ذلك مرة أخرى.
أما من أراد أن يطلع على بعض ما كتب عن هذا الموضوع فيمكن أن ينظر في بعض المؤلفات الخاصة بهذا الباب ومن ذلك:
كتاب: تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية، من تأليف الدكتور محمد بن سعد الشويعر ونشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ط ٢، ١٤١٣هـ.
وكتاب: كتابات الرحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر، تأليف: لي ديفيد كوبر، ترجمة: الدكتور عب الله الوليعي، الرياض ١٤١٢هـ.
(المعلق)

احتوت صفحات هذا الكتاب على سرد المراحل الأولى للنضال والوقوف في وجه المصاعب والأعداد الضيقي الأفق والتفكير. وعليه جاء ضمن صفحات هذا الكتاب شرحاً عن مراحل التوسع الناجحة على نطاق دولي، وشرحاً لفترات التماسك، وتأخذ هذه الشروحات حيّزاً تاريخياً يمتد على مدى أربعين عاماً. يمكن القول، إنه على مدى تلك الحقبة من التاريخ، لم يرتكب الملك عبد العزيز أي خطأً، وما يؤكد على هذه الحقيقة شهادة السير / بيرسي كوكس. وإن عدم ارتكاب أي خطأ هو بحد ذاته إنجازاً مبهراً.

وعلى مدى بقية سنوات الحرب، قدمت أمريكا وبريطانيا مساعدات مالية سخية، ورغم ذلك فإن كل الأموال كانت تتضاءل أمام بعض المصروفات الهائلة في ظل تفاوت الأولويات عند بعض المسؤولين عن المصروفات. ثم بدأ النفط يتدفق بكميات قليلة لكنها مرضية، وجرف هذا التدفق على قلته حواجز كانت سائدة وأعراف قائمة. فهم الملك عبد العزيز أهمية المال، لكن ذلك لا يعني أنه كان يريد المال لإغناء ثروته الشخصية، إذ إنه لم يتخلى أبداً عن بساطة الأخلاق التي ترعرع عليها في شبابه. كان في أيام الفقر كريماً ومضيافاً، وكان إذا توفر العطاء يعطي بدون قيود، وكان يُحكم التشديد على مصادر ثروات البلاد ليرضي الطموح الذي لا ينتهي.

ويقول المؤلف: إنه بخصوص هذا الكتاب المطروح بين يدي القراء، فقد وجهت كل جهودي - كما فعل المؤرخ العربي ابن بشر - للبحث عن الحقيقة، فلم أكتب أي شيء لم أعتقد بأنه الحقيقة، كما أرجو ممن يجد خطأً في كتابي هذا أن يصفح عن زلتي، لندن: في ١ أيلول ١٩٥٤ H.S Tj. B. Philby لأن مَن يصفح عن زلة مسلم سيصفح الله عن زلالته ويغفر خطاياه.

صفحة بيضاء

الفصل الأول

الـدرعيـة، المنطلق

صفحة بيضاء

أملاك الدرعية

لم يمض على وفاة «تيمور لنك» سوى أقل من نصف قرن، عندما عاود فاتحو الأندلس احتلالهم لإسبانيا ولمدة نصف قرن آخر. . . وجاء ذلك قبل اكتشاف «كولومبوس» لأمريكا بخمسين عاماً. . . في تلك المرحلة انطلق في عام ١٤٤٦ أحد الأشخاص العاديين من القطيف أو ربما من ضواح تعرف باسم «الدرعية» في زيارة لابن عم له يدعى «ابن درع» الذي كان قد استقر منذ فترة طويلة في منطقة «منفوحة» جنوبي الرياض. كان «ابن درع» هذا زعيم مستوطني «الدروع» وهي الآن مجرد قرى صغيرة مهجورة في «الجزعة» وفي «هجر اليمامة»، وكان هذا الزعيم على ما يبدو ثرياً وله أملاك على طول وادي حنيفة تحتاج إلى عناية وتطوير. وعلى أي حال، قدّم «ابن درع» إلى زائره قطعتي «الغصيبة» و «المليبيد» اللتان تقعان على مسافة اثني عشر ميلاً في أعلى الوادي الكبير والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم «الدرعية» كذكرى لاسم القرية الأم الواقعة بالقرب من الخليج والتي ترعرع فيها مؤسسوها.

لم يعرف بالتأكيد فيما إذا كان الشخص الفعلي الذي تسلم هاتين القطعتين هو «مانع المريدي» الذي كان فعلاً أول من بدأ المراسلة مع ابن عمه من «الجزعة»، أو كان ابنه الذي يُطلق عليه اسم «ربيعة» على أي حال كان «ربيعة» نفسه هو الذي أرسى أسُس ازدهار البلدة الجديدة إذ واظب بشكل ملحوظ على تنميتها، كما أبدى توسعاً عدوانياً على حساب جيرانه. لكن

يتشرف «ربيعة» ووالده مانع في كونهما الأجداد الأوائل لسلالة «آل سعود» والمشار إليهما في الكتب التاريخية. سيطرت تلك العائلة وبشكل ملحوظ ورائع على الساحة في الصحراء العربية على مدى المائتي عام المنصرمة والتي شهدت العديد من الأحداث المتقلبة.

كان «سعود» الذي تسمى الأسرة باسمه والمؤسس الحقيقي للعائلة المالكة هو الحفيد الخامس لـ «مانع»، كما أن الملك الحالي للمملكة هو المنحدر مباشرة من سلالته مروراً بخمسة عشر جيلاً. إلى أن تمكنت تلك الأسرة من الوصول إلى الجيل السابع عشر بأعدادها التي تؤكد استمراريتها لأيام مديدة قادمة أنه لن يطول العمر لأي منا ليدرك أيام تلك الأجيال.

ولسبب ما، لم تذكره السجلات التاريخية للصحراء العربية، كان وادي حنيفة في منتصف القرن الخامس عشر محط أنظار العديد من الناس. كانت أملاك أصحابه في تلك الفترة تمتد على طول الوادي من منبعه في «الحيسية» مروراً بحدود منطقة الخرج، وكانت تلك الأملاك تحت سيطرة قبيلة «آل يزيد الحنيفيين». ويفترض أن هذه القبيلة وهبت القطعتين (المشار إليهما سابقاً) من أملاكها إلى «ابن درع» قبل زيارة «مانع» له. وحدث أنهم باعوا في عام ١٤٤٦ أملاك «العيينة» الشاسعة إلى رجل يدعى حسن بن طوق من ملهم الذي كان الجد الأكبر لأمراء «آل معمر».

كان نجم هؤلاء الأمراء آخذاً في الصعود في سماء الصحراء العربية إلى أن حد من صعوده وأخمده بريق قمر الدولة السعودية الذي كان آخذاً في الظهور والبروز، وكل ما تبقى لـ «آل يزيد» من أملاكهم في وادي حنيفة كان

مجرد أرض من الوادي في أعلى «غصيبة» التي تشتمل على بعض الأطيان إضافة إلى قرية الجبيلة ضمناً.

وكانت قرى «الوصيل» و«الناعمية» مراكز إقامتهم، لكن لم يكن مقدراً لهم حتى الاحتفاظ بهذه الأراضي، إذ بادر «ربيعة - مشتهياً لما لديهم من أملاك - بالقيام بأعمال عدائية ضدهم، وأسفرت تلك الأعمال عن انتصارات تحققت على أيدي ابنه «موسى» الذي قام بشكل عرضي وكاد ينجح في محاولة قتله، ضد والده الذي تمكن منه . . . فقام «ربيعة» - الذي أصيب بعدة جروح بالغة في جسده - بالهرب إلى «العيينة» وهناك تلقى حسن الضيافة والاستقبال من «حمد بن حسن بن طوق» الذي أصبح صديقاً له.

تشتت جماعة «آل يزيد» قبل انقضاض «موسى» عليهم وأسفر ذلك الغزو عن مقتل ثمانين من أتباعهم، ومنذ ذلك الحين لم يذكر لهم أي أثر يذكر في قصة وادي حنيفة.

وهكذا وعلى مدى جيلين تمكن المهاجرون من منطقة القطيف في أن يصبحوا أسياد تلك المنطقة التي سبق أن مُنح لهم حق اللجوء فيها. وأقل ما يمكن أن يُقال إنهم قوم يتمتعون بغرائز - لا أقول عدوانية - بل إصلاحية تقدمية، في حين أن الأساليب العنيفة والقوية التي استخدموها لتحقيق مآربهم كانت أساليب طبيعية إذا قورنت بالمقاييس السائدة في الصحراء العربية آنذاك.

ومع بدء القرن السادس عشر ومع تولي «إبراهيم» السلطة من والده «موسى» أصبحت هيمنة هذه الأسرة وتفوقها ظاهرة مؤثرة وفعالة في

الوادي باتجاه الجنوب حتى «الجبيلة» . كانت هذه المنطقة إضافة إلى الأراضي الواقعة إلى الشمال منها، وكذلك منطقة «حريملاء» الواقعة بين منحنيات مرتفعات «طويق» تابعة لأملاك سلالة «حسن بن طويق» الحاكمة والتي كان - كما يقال - يمثلها في ذلك الوقت «معمر بن حمد» الجد الأكبر لسلالة العيينة الحاكمة والذي تحمل الأسرة اسمه. ذلك بالرغم من أن الفراغ في كتاب «ابن بشر» يسبب لدينا بعض الشكوك حول هذه النقطة.

كانت هذه المناطق أكثر بقليل من مجرد أملاك وأطيان محلية تقع في شريط متواز على طول شواطئ الخليج العربي وضمن مقاطعة «الأعشى» المحاذية لإمارة «أجود بن زامل الجبري العامري» . وباستثناء هاتين الحالتين لم تكن في الصحراء العربية أية تجمعات سياسية منظمة، علماً بأنه كانت توجد قرى مستقلة تماماً ومجاورة لهذين التجمعين الأكثر طموحاً. ومثال على هذه القرى ذات الإدارة الذاتية كان هناك «حرمة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٣٦٨ و«المجمعة» التي يعود تأسيسها إلى عام ١٤٢٦، وفي تلك الحقبة كانت الرياض ومنفوحة واليمامة مجرد مناطق أو تجمعات مهمة في التركيبة السياسية للصحراء العربية، كما كان حال بعض تجمعات سدير. ناهيك عن مناطق «القصيم وجبل شمر» حيث تحتوي سجلات نشاطاتها المتوافرة لدينا على بعض الخلل في سرد الأحداث، علماً بأننا سنعثر على كامل الوثائق ووثائق أخرى، وفي الوقت المناسب ستدخل هذه الوثائق في ملحمة الدرعية على نمط شبيه بملحمة «هوميروس» الإغريقية.

وبالعردة إلى السياق الرئيسي من هذا السرد التاريخي الذي نحن معنيون به نجد أن «إبراهيم بن موسى» كان آمناً كحاكم لإمارته الصغيرة من غير تحد

من قبل أية قوة أجنبية، وعاملاً باضطراد على تلبية متطلبات تطلعاته في التوسع فيما وراء شريط حدود إمارته الضيق. قام أحد أبناءه وهو «عبدالرحمن» بتأسيس وتطوير منطقة «ضرماء» إذ كان قد قدر له أن يلعب دوراً بارزاً في الأحداث التاريخية المتلاحقة لتلك البقعة من الأرض، كما كان مقدراً له عن طريق الصدفة أن يعرف بشجاعة باسلة لم تجعله يتكل على أتباعه ممن يؤدون خدمات الأمن والحراسة له. أما ابنه الآخر «سيف» فهو الجد الأعلى لجماعة «أبو اليحيى» التي استوطنت في «أبا الكباش» شمال الدرعية، وهي اليوم منطقة أطلال يكتنفها الغموض وفيها متاريس واستحكامات ذات جدران متصدعة، كما فيها أبراج حصن قديم.

أما الابن الثالث: فكان «عبد الله» وهو الجد الأعلى لجماعة «الوطيب» وفروعها الأخرى والتي بقيت وحتى عصرنا هذا على شكل متشتت وغير لافت النظر. لكن ابنه الرابع «مرخان» يستحق مركز الصدارة بصفته ينبوع الحكم السعودي الذي تفجر عن ابنه الأصغر «مقرن» ومن ابن مقرن «محمد» الذي يعتبر والد سعود الأول.

إذا كان – على ما تبدو الحالة عليه – عبد الرحمن هو الابن الأكبر بين أبناء الأربعة، فإن هجرته واستقراره في منطقة «ضرماء» توازي تخليه عن حقوقه في منطقة الدرعية. وينطبق هذا أيضاً على سيف الذي أسس إمارته في منطقة «أبا الكباش»، التي لم تكن بعيدة عن العاصمة.

وفي تلك الفترة دخلت الاسرة في صراع وثارات وفي اعقاب تلك المرحلة من الصراع بين الإخوة وأحفادهم استطاع ربيعة بن فرحان أن يتولى الزعامة عليهم في الدرعية.

وفي مقالة تاريخية تدوّن حقيقة أن ربيعة قام برحلة حج إلى مكة بصحبة أخيه مقرن في عام ١٦٣٠ ، هناك إشارة إلى أنه كان يُطلق عليه اسم «أمير الدرعية» والجدير بالذكر هنا أيضا أنه في عام ١٦٣٠ (وبالتحديد في الثاني عشر من شهر نيسان) شهدت مدينة مكة المكرمة فيضاناً عظيماً دمر الكعبة، الأمر الذي استوجب هدمها وإعادة بناءها . لم يكن بالإمكان إنجاز ذلك لعمل في أقل من سبع سنوات، وأجل الاحتفال المهيب بمناسبة إعادة بناءها حتى موسم حج عام ١٦٣٦ الذي وقع في شهر آيار . والجدير بالذكر أن ذلك الفيضان أثناء إمارة الشريف «سعود بن إدريس بن حسين بن أبو نمي» .

وعلى ضوء التراخي والفتور الإيماني الذي كان مخيماً عند فجر الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر، تجدر الإشارة إلى الأهمية الدينية التي التزم بها سكان الصحراء العربية على مدى القرون الماضية . فعلى سبيل المثال تذكر إحدى الوثائق التاريخية بأنه في عام ١٥٠٦ توجهت قافلة حجاج ضخمة ضمت ثلاثين ألف حاج من الأحساء إلى مكة برعاية «أجود بن زامل» رئيس تلك الإمارة .

كان قد مضى على موت الموحّد والداعية الديني «ابن تيمية» حوالي قرنين - وبالتحديد في عام ١٣٣٧ - إلا أن تعاليمه بقيت تتأجج في الصحراء العربية . ويزودنا «ابن بشر» بقائمة من مشاهير رجال الدين الذين عاصروا «أجود بن زامل» وأدوا صلاة الميت على جثمان الشيخ «أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد» وكذلك دفنه في منطقة الجبيلة في عام ١٥٤١ . وكان الشيخ أحمد قد تشرب كل تعاليمه الدينية من هؤلاء المشايخ . علاوة على ذلك،

يشير «ابن بشر» أيضاً إلى موافقة السلطان «سليم» العلنية في عام ١٥١٧ على تعيين القاضي الحنبلي في القاهرة في منصب كبير القضاة بمصر، مؤكداً بأن كبير القضاة هذا وكان الشيخ «أحمد بن نجار» وهو آخر كبير للقضاة من أصل عربي صرف. . . وهو أنصاري من قبيلة بني نجار.

في هذه المرحلة من التاريخ كان الأتراك العثمانيون قد احتلوا مصر واستولوا على الخلافة فيها لكنهم لم يوجهوا اهتمامهم بعد إلى الصحراء العربية، بالرغم من أنهم كانوا على أعتابها ومشارفها. قاموا في العقد الأخير من القرن السادس عشر بغزو الأحساء واحتلالها، وظهر هناك «فتاح باشا» كأول حاكم عسكري بعد أن قمع الأتراك وأخمد سلالة «الأجود بن زامل الجبري العامري العقيلي القيسي» الحاكمة وليس هناك أي سجل تاريخي يذكر اسم آخر شخصية في هذه السلالة الحاكمة كما لا توجد سجلات تاريخية تتعلق بأسماء أسلافه وصولاً إلى «أجود» نفسه كما لا توجد سجلات تتعلق بأسلاف هذا الأخير باستثناء «زامل» المفترض أن يكون والده. هذا ولا تتوافر سجلات تاريخية تتعلق بطول الفترة التي حكمت بها هذه السلالة منطقة الأحساء. تمت تلك الأحداث في عام ١٥٩١، أما رحلة الحجيج التالية من الأحساء والتي تتوافر لدينا معلومات عنها، فقد حدثت بعد حوالي أربعين عاماً تحت إشراف «بكر بن علي باشا» الخليفة الأول «لفاتح باشا».

كان علي باشا نفسه الشخصية التي استضافت وبحفاوة لم يسبق لها مثيل شريف مكة «محسن بن حسين بن حسن» إضافة إلى أبناء عمه ظاوي وعبدالمطلب، بمناسبة زيارتهم إلى منطقة الهفوف ضمن حملة في أرجاء

الصحراء العربية.

في هذه الحقبة من التاريخ كانت الحجاز مستقلة تماماً وتتمتع بحكم الأشراف الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حكام مطلقي الصلاحية للمناطق التي تقع بعيداً عن الساحل والنائية عن المدن والتي كانوا يقومون بغزوها إما لأغراض تأديبية أو لغرض إعادة ملء خزائنهم كلما أوشكت أن تنضب. ويذكر «ابن بشر» أن أول غارة من هذا النوع حدثت في عام ١٥٧٨ عندما وصل الشريف «حسن أبو نمي» إلى الرياض على رأس جيش قوامه خمسون ألف شخص، وأمضى فيها وقتاً كبيراً يقتل وينهب، وقبل رحيله عنها عين شخص يدعى «محمد بن فضل» أميراً عليها نيابة عنه، كما ترك العديد من وجهاء الرياض في السجن لمدة عام. وعند إنقضاء العام أطلق سراحهم على شرط أن يدفعوا له الجزية السنوية. وبعد ثلاث سنوات قام هو نفسه بغزو منطقة نجد لكنه استهدف هذه المرة منطقة الخرج، فاحتل المناطق الرئيسية فيها كما احتل المراكز الاستراتيجية في سلسلة التلال المحيطة بها. وقبيل رحيله ترك في هذه المناطق ممثلين عنه ليتولوا شؤون تلك المقاطعات. بدأ رحيله عن تلك المناطق عائداً إلى دياره عندما تلقى أخباراً مفادها أن جماعة «بني خالد» الغزية كانت تعد العدة لمهاجمته والاستيلاء على ماشيته ووسائل تنقله، لكنه ألحق بجماعة البدو هذه خسائر فادحة وهزيمة نكراء لأنه كان متأهباً لها. حدث بعد هذه الواقعة مباشرة أن تمكن الأتراك من إخضاع جماعة بني خالد (كقبيلة من الأحساء) إلى حكمهم، وانتهى حكم «حسن بن أبو نمي» مع موته في مكة المكرمة، وخلفه على منصب أمير مكة ابنه «إدريس» الذي ناب عن أخوه «أبو طالب» في غزو نجد في عام ١٦٠٢.

وعند تبوئه السلطة أقرن «إدريس» معه أخوه «فهيد» وابن أخيه «محسن بن حسين» كوصيين على العرش، وأعفي «فهيد» في وقت لاحق من ذلك المنصب في حين بقي «محسن» متعاوناً مخلصاً لعمه إلى أن توفي العم في «ياطب» الواقعة في جبل شمر، بعد أن كان قد انضم على ما يبدو إلى حملة الغزو التي ترأسها «أبو طالب» كما أشرنا آنفاً.

قام «محسن» الرجل القوي في الأسرة باغتصاب الإمارة، وفي عام ١٦٠٦ أغار على نجد بقوة ترأسها هو شخصياً. وكانت قرية «القصب» في شعب العتك هدفه منذ ذلك الغزو، وتمكن من الاستيلاء عليها واقترف فيها العديد من الأعمال الوحشية.

في تلك الأثناء كان مناطق وسط الصحراء العربية لا تزال في حالة غليان يستقر بشكل مضطرب نوعاً ما ليأخذ شكل أنماط يمكن أن تستمر معهم حتى المرحلة الوهابية التي لا زال أمامها وقت طويل لتظهر على السطح.

قام الإخوة «من آل حنيحن» و «محمد» و «عبد الله» أبناء العاقر بطرد جماعة «العرينات» من قرية «سدير» في منطقة «البير»، وطوروا الحياة الزراعية هناك والتي في النهاية ورثها «حمد بن محمد» وبقيت سلالته تمتلك تلك المنطقة حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي عام ١٦٠٦ أسست أسرة «التميم» المستوطنات القروية بالقرب من «الحصون» القريبة من واحة جنوبية سدير وفي اتجاه مجرى الوادي مروراً بقلعة «القارة» المبنية على هضبة مرتفعة.

لم تحتل جماعة «الهزازنة» واحات «حريق ونعام» الواقعة في جنوب الخرج إلا في أواخر عام ١٦٣٠، وتوالى الملاك على قسم من واحات

الرياض المعروفة باسم «المقرن»، وذلك إثر مقتل كبار الشخصيات من أهم أسرة في تلك الجماعة وهم أبناء «مفرج بن ناصر». وكذلك إثر قيام أحد عناصر عشيرة «المديريس» باغتصاب زعامة تلك القبيلة واحتكاره المشيخة لنفسه.

مات في تلك الفترة الشريف «محسن» بعد الزيارة التي قام بها إلى الأحساء في عام ١٦٢٢، والتي سبق وأن أشرنا إليها وخلفه في الحكم ابن عمه «سعود بن إدريس» الذي سرعان ما أطيح به ليحل محله زيد ابن محسن وكان هذا الأخير قد تعرض لعاصفة سياسية حين أطاح به أيضا الشريف «نامي» في عام ١٦٣١. إلاأن زيداً وبعد فترة قصيرة استطاع أن يسترد الإمارة منه وأن يحتفظ بها إلى أن مات في عام ١٦٦٥.

أصبحت «نجد» الآن تستمتع بفترة راحة طويلة نسبياً بعيداً عن مطامع الأشراف، كما تحولت الاهتمامات في شؤونها لتتركز على نشاطات أمير «العيينة» «أحمد بن عبد الله بن معمر» الذي كان يسعى جاهداً من أجل التوسع. وفي عام ١٦٤٢ قام الأمير «أحمد بغزو منطقة «سدير» إلا أنه لم يحرز سوى انتصاراً طفيفا تجلى في الاستيلاء على قرية «أم حمار» في الطرف السفلي من واحدة «الحوطة». وبعد مضي أربع سنوات جلبت له السنون نهاية غير متوقعة... فداهمته المنية وهو في طريقه للحج في منطقة «المغاسل» المعروفة اليوم باسم «مركز السيل الكبير». في العام التالي (١٦٤٧) اغتيل ابنه كما اغتيل خلفه «ناصر» على أيدي ابن أخيه «دواس بن محمد» الذي اغتصب إمارة العيينة.

كانت تلك هي المرحلة التي حدد فيها الشريف «زيد بن محسن» نشاطاته

في الصحراء. قام الشريف «محمد الحريث» في عام ١٦٤٦ ونيابة عن الشريف «زيد» بزيارة «ثرمداء» وهناك ومن خلال لقاء تم بينه وبين أحد كبار المشايخ ويدعى الشيخ «محمد بن إسماعيل»، تمكن من طرد أي نوايا عدوانية كان من المحتمل أن يكنها في صدره. لكن في العالم التالي ترأس الشريف «زيد» بنفسه حملة غزو واسعة النطاق وتوجه بها إلى «نجد». وهناك كان عليه أن يقارع أولاً منطقة «روضة سدير» التي لقي زعيمها «محمد بن ماضي بن محمد بن ثاري»، كما اقترف المنتصرون هناك العديد من الأعمال الوحشية، وبعدها توجه «زيد» جنوباً باتجاه «بنبان» مموهاً بذلك تقدمه نحو الرياض. وفي طريق عودته إلى دياره عرج على «العيينة» وأجبرهم على أن يدفعوا مبالغ طائلة من المال، كما أخذ منهم عنوة حمولة (٣٠٠) جمل من القمح.

وفي هذه المرحلة كانت المصائب قد حلت على منطقة العيينة. فحدث بعد عام من هذا التاريخ وقبل مضي أقل من تسعة أشهر على حكم «دواس ابن محمد» للعيينة، أن أقدم «محمد بن حمد بن عبد الله» - وهو ابن عم «دواس» - على ذبح «دواس» نفسه واستولى على حكم المنطقة ونفى عنها «مهنا» أخو المذبوح »دواس»، وشمل ذلك النفي أيضاً عناصر أخرى من ذلك الفخذ من العائلة.

لم يكن مقدراً لمحمد أن يحكم طويلاً، إذ خلفه بعد وفاته في عام ١٦٦١ ابن عمه «عبد الله بن أحمد». تورط الحاكم الجديد في مشكلات مع أهل «البير» في «سدير» بسبب سرقته لجمالهم في إحدى الغزوات العادية، وفي محاولة منهم للأخذ بالثأر رتبوا كمائن لقوافل العيينة المحملة بالأقمشة

والبضائع الأخرى والقادمة من الشاطئ وانقضوا عليها وسلبوا حمولتها. وفي المقابل قاد «عبد الله بن أحمد» حملة تأديبية وسار إلى جانبه قاضي «العيينة» قاصداً تلقين أولئك القرويين درساً لن ينسوه، ولكن لحسن حظ هؤلاء القرويين حدث أن جماعة من قوات «عبد الله» المغيرة كانت تمكن وراء جدار استعداداً للانقضاض، إلا أن ذلك الجدار انهار عليهم ومُنُوا بخسائر جسيمة في الأرواح، الأمر الذي حول موضوع الغزو إلى موضوع مفاوضات لعب فيها القاضي دوراً بارزاً في التوصل إلى تسوية سليمة بين الأمير «عبد الله بن أحمد» والقرويين... يقال إن التسوية دارت حول موضوع إعادة القرويين لكافة البضائع والأملاك التي سرقوها.

الغريب في الأمر أنه تتوافر لدينا معلومات بسيطة جداً بخصوص التطورات التي حدثت في الدرعية خلال الفترة التي عقبت حملة الحج التي قام بها أمير الدرعية «ربيعة» في عام ١٦٣٠. وتتحدث المراجع التاريخية المتوفرة عن أحداث عام ١٦٥٤، فتشير تلك المراجع إلى أنه في تلك الفترة تورط ابن ربيعة الذي قام بالتواطؤ مع خلف ربيعة المدعو «وطبان» بقتل «مرخان بن مقرن» واغتصب إمارة «الغصيبة»(*). إن فترة هذه المرحلة قصيرة لكنها مهمة على الصعيد التاريخي، وعليه لعله يجاز لنا أن نعيد سير ترتيب الأحداث على الشكل التالي: من المحتمل أن يكون «وطبان» قد خلف والده في وقت ما وخلال فترة زمنية سبق أن أشرنا إليها، كما يمكن أن يكون قد واجه تحد من قبل ابن عمه «مرضان» الذي أطاح به في نهاية المطاف... ويقال إنه في عام ١٦٥٤ قام «وطبان» بقتل «مرخان» ليستعيد

(*) هجرة في إمارة تبوك بمنطقة ام لج.

مكانته كزعيم للدرعية .

وتقول بعض الروايات غير الموثقة أن «وطبان» فر من الدرعية خوفاً من الثأر للقتيل، وأن القاتل يقتل ولو بعد حين واستقر به المطاف في الزبير، ومع مرور الأيام أصبح حفيده «إبراهيم بن ثاقب» أميراً عليهم، في حين تمكن ابنه «محمد» الأكثر شهرة وحنكة سياسية أن يتبوأ مركزاً سياسياً لم يستسيغه الحاكم العثماني آنذاك. وفي عام ١٦٣٨ غرر به بأن يذهب إلى السرايا في البصرة وفعلاً ذهب هناك مع العديد من أقاربه وأتباعه وهناك لقي الجميع مصرعهم.

ومهما يكن الحال فإن لدينا أدلة تبرر افتراضنا بأن القتيل «مرخان بن مقرن» أو قاتله «وطبان» الذي استولى على الإمارة واختار بعد ذلك المنفى طوعاً، لم يكن ليخلفهما في إمارة الدرعية ابن مرخان بن وطبان، بل خلفهما «محمد بن مقرن» وهو أخو «مرخان» وهو بالتالي والد «سعود»، الذي يمكن أن يكون أول من تولى الحكم من سلالة عائلة آل سعود والتي تعود إلى سالف أجداد الملك الحالي للمملكة العربية السعودية .

وحوالي عام ١٦٥٤ وبالتحديد قبل ثلاثة قرون خلفه في رئاسة القبيلة «ناصر»، والمفترض أن يكون أكبر أبنائه وشقيقاً لسعود الذي أطلق عليه بالتأكيد في عام ١٦٧٣ اسم أمير الدرعية. وضمن سلسلة الحزائز والضغائن الدموية تم اغتيال «ناصر» وابن عمه «أحمد بن وطبان» على أيدي والد «أحمد بن وطبان» نفسه، ومن المحتمل أن يكون ذلك الاغتيال قد تم لمساعدة «أحمد بن مقرن»، وهناك ثمة سبب تدعو للاعتقاد بأن القاتل كان «فرحان بن وطبان» الذي كان على ما يبدو في تلك الفترة قد تمكن من اغتصاب كافة أملاك المنطقة، لكن سرعان ما قام أخوه «إبراهيم» باغتياله في عام ١٦٩٠ .

وحكم إبراهيم بدلاً عن أخيه حتى عام ١٦٩٤ وفي ذلك العام قام شخص يدعى «يحيى بن سلمة» باغتياله، ولا يعرف الكثير عن أصل هذا الشخص سوى أنه ابن رئيس قبيلة «ضفير» المدعو «سلمة بن سويط».

في هذه المرحلة ازدادت قصة مشاهير وأمراء الدرعية المعقدة تعقيداً. . . وإن ما زاد في تعقيدها هو أن «محمد بن مقرن» الذي دام حكمه حتى عام ١٦٥٤ لم ينته أجله إلا في عام ١٦٩٤. وباستطاعتنا أن نفترض بأنه تنازل عن الحكم، أونفترض أنه أطيح به ليتولى أخوه «ناصر» السلطة في وقت ما قبل حلول عام ١٦٧٣.

وبعدها عاش على مدى السنين المتقلبة التي امتدت لفترة حياة بعيدة عن الزعامة. كما يمكن القول أنه عاش حاملا لقب أمير بصفة اسمية على مدى أربعين عاماً كان أفراد الأسرة خلالها يتبادولن الحروب بينهم. إن أقل ما يمكن أن يذكر هنا أن ابنه «سعود» كان قد بلغ من العمر ثلاثين ربيعاً، وأن أول ظهور له على ساحة الصحراء العربية كان في عام ١٦٨٥ عندما كان برفقة «عبد الله بن معمر» أشهر أمراء «العيينة» على رأس حملة لغزو قرية «حريملاء». هذا وشارك في معركة تعرف في سنين نجد التاريخية باسم «يوم الكمين الأول» والتي قتل فيها ثلاثين رجلاً من المدافعين، ولم يكن «سعود» في تلك الموقعة قد بلغ سن العشرين. . . ومنطقياً يمكن القول أنه كان قد ولد في عام ١٦٦٥ وهو العام الأول لكارثة القحط والمجاعة التي ألمت بالصحراء العربية.

ولنعد إلى الوراء من النقطة التي توصلنا إليها ولحوالي قرن من الزمن، لنجد أن الأتراك قد استكملوا احتلالهم لبغداد في بداية القرن السابع عشر، لكنهم وجدوا أنفسهم في عام ١٦٢٢ مضطرين لمواجهة تحدي شاه إيران

«عباس الأول» الذي توجه إلى بغداد على رأس جيش عرمرم. في تلك الفترة كان السلطان التركي غاضباً على «الباشا بكر» الذي كان يشغل منصب الحاكم التركي، وكان قوياً لدرجة أنه تحدى أوامر الصدر الأعظم الصادرة بإقصائه عن منصبه. وجد «أحمد حفيظ باشا» الذي كان الصدر الأعظم قد أرسله ليحل محل «الباشا بكر» إن من الحكمة أن ينسحب عن ساحة تلك المواجهة. على أي حال كان من السهل على «شاه عباس» أن يغرر ببكر ويحمله على فتح بوابات المدينة له، وعرض عليه أن يبقيه في منصبه تحت الحماية الفارسية. كان «بكر» أول ضحية لفسوق جند الشاه الذين كانوا ينهبون ويسلبون المدينة دون رحمة أو هوادة، وكانوا يقتلون كل سُني يقع في أيديهم وخاصة العلماء، وكانوا يدمرون المساجد ويحرقون المكتبات. وتم حسب الأمور المرعية تعيين حاكماً قاسياً على المدينة، وذهبت كافة جهود الأتراك الرامية إلى تدارك الأوضاع أدراج الرياح إلى أن تمكن السلطان «مراد» من إعادة الاستيلاء على بغداد في عام ١٦٣٨.

وكما أشرنا آنفاً كان - في تلك الفترة - قد مضى على احتلال الأتراك لمقاطعة الأحساء حوالي نصف قرن، وبعد حوالي ثلاثين عاماً - أي في عام ١٦٦٧ - أحكم العثمانيون طوق حكمهم على الصحراء العربية، وذلك باحتلالهم «للبصرة» جاء ذلك الاحتلال على أيدي «مصطفى باشا» ونيابة عن السلطان «محمد بن إبراهيم بن أحمد».

لكن الحجاز - وبالرغم من الوصاية الاسمية لخلافة السلطان على الأماكن المقدسة - لم تلفت الاهتمام العسكري ولا السياسي لحكومة القسطنطينية. كان الشريف «زيد بن محسن» قد مات في عام ١٦٦٥ بعد فترة حكم له دامت لمدة أربعين عاماً. تولى الخلافة على الإمارة من بعده ابنه

«سعد» بعد عراك مع الشريف «حمود بن عبد الله». والجدير بالذكر هنا أن «زيد» كان قد اختار «حمود» ودربه ليكون خلفاً له لكونه ابن عم والده ولكونه على ما يبدو رجل ذو مواهب وكفاءات، فلم يكتف «زيد» بأن زوجه ابنته بل عهد إليه أيضا بصلاحيات إدارية واسعة، الأمر الذي لم يترك أدنى شك في أذهان الناس بأن ثمة ترتيبات كانت تُعد ليسلم «حمود» دوراً رئيسياً في الوقت المناسب، لكن يبدو أن «حمود» كان ينقصه الطموح الشخصي وبعد أول صدام له مع «سعد» قبل «حمود» ادعاءات «سعد» برحابة صدر.

عهد في عام ١٦٦٩ إلى الشريف «حمود» قيادة حملة عسكرية وتوجه بها إلى نجد، وهناك تعامل بنزاهة مع مختلف القبائل بما فيها قبائل عنزة ومطير وبني حسين (أو بني حرب؟) وكذلك مع عشائر «هتيم» في منطقة «عوازم» وهي آخر منطقة كويتية. كان جل غايته أن يصل «الظفير» وهو من مناطق الحدود العراقية الكويتية وسبق له أن سرق من «بدو صمدة Samda» عدد كبير من الجمال النفيسة. و«بدو صمدة» هي فخذ مستقل عن جماعة «الظفير». التقت هذه الجماعات مع جيش «حمود» الذي انضم إليه فيما بعد «سلمة بن صويط» كبير مشايخ «الظفير». وعندما رفض المهاجمون إجراء ترتيبات تتعلق بعودة الأملاك والتعويضات وفق العادات البدوية، حرض سلامة حمود على الهجوم وأسر الأعداء؛ إلا أن «حمود» لم يذعن لرأيه مما جعل «سلمة» يستكن إلى قبيلته والحنق يوغل في سدره معداً العدة لشن معركة ضدهم.

إن تصرف «صمدة» المريب عرض «عدوان» وعناصر أخرى من قوات «حمود» لوطأة هجوم « الظفير»، وفي تلك المعركة قُتل أخو حمود واثنين

من أبناء أخيه. انتصر رجال القبائل في تلك المعركة لكن بعد مضي وقت قصير قام الشريف «غالب بن زامل» بهجوم مضاد وأنزل في صفوف رجال القبائل خسائر جسيمة. استمرت حالات العداء بين الطرفين إلى أن قام الشريف «أحمد بن زيد» بإعداد ترتيبات السلام والمصالحة.

وبعد بضع سنوات قام شريف آخر يُعرف باسم «بركات» بقيادة حملة عسكرية ضد قبيلة «حرب» التي كان يتزعمها «أحمد بن رحمة بن مضيان»، ودارت معركة قتل فيها «أحمد بن مضيان» وعدد آخر من كبار رجال القبيلة، ذلك بالرغم من خنادق الاستحكام التي حُفرت لعرقلة خيالة الشريف «بركات». ولم تصد عنهم الخنادق أي شيء بل على العكس كانت بمثابة قبور محفورة توارت فيها جثثهم، كما أن قوات «بركات» أعملت في أرضهم الخراب والدمار والسلب والنهب. ويذكر أنه بعد عام من تلك الواقعة (١٦٧٤) توفي الشريف المشهور «عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المحجوب»، وشهد ذلك العام أيضاً وفاة الشريف «حمود» بطل معركة «الظفير»، كما توفي في ذات العام الشريف «أحمد بن محمد بن الحارث»، وهو فيلسوف كان شرفاء عصره البارزين يستشيرونه في كافة الأمور والقضايا. ويذكر أن «حسن باشا» سبق أن عينه أميراً على «مكة» إبان المشكلات التي حدثت بين «سعد» و«حمود» حول وفاة «زيد». وتمكن المتنافسون من تصفية خلافاتهم وتنازلوا عن مواقفهم لصالح «سعد» وذلك ليتخلصوا من شخصية كانوا يعتقدون أنها ستكون مرشحة من قبل الأتراك لحكم الحجاز، والواضح أن هذه هي أول إشارة نشير فيها إلى إقدامهم على منطقة الحجاز.

من الممكن أن يكون «حسن باشا» آنذاك والياً على « ذلك الإقليم، إلا أنه على الأرجح لم يكن أكثر من قائد للحملة العسكرية التركية. ومما يزيد من تعقيد الوضع بين أشراف الحجاز هو أنه في مذكرة فيها إشارة لعام ١٦٦٧ هناك إشارة إلى أن ولاية مكة كانت في ذلك الحين في أيدي أسرة «آل يزيد» وهي أسرة موالية لسلالة «أبو نمي» الحاكمة، كما أن «سعد» في تلك الفترة كان الشريف المتولي للحكم بينما كان «أحمد الحراث» في خدمته شاغلاً منصب «شريف نجد».

هذه أول إشارة محددة لادعاء أشراف مكة في ممارسة حكمهم على المناطق الصحراوية البعيدة عن السواحل والنائية عن المدن، علماً بأن الحالات العديدة والمؤرخة بخصوص تدخلاتهم في منطقة نجد لدليل كاف على وجهات نظرهم بهذا الخصوص.

ففي عام ١٦٧٦ قام الشريف «محمد الحراث» بغزو نجد وبمهاجمة قبيلة «فضل» وقتل زعيمها، وفي العام نفسه خاض شريف يقال له «الحارث» معركة كبيرة ضد «الظفير» في «الضلفعة» بالقرب من «البكيرية» الواقعة في منطقة القصيم، وكانت تلك المنطقة مسرح أحداث معركة مشهورة بين العرب والأتراك في عام ١٩٠٤.

وافقت «الظفير» التي هزمت في تلك المعركة على أن تدفع لمكة جزية سنوية كثمن للسلام، غير أنه من غير المحتمل أن يكون «أحمد الحراث» المشار إليه آنفاً شبيهاً لـ «أحمد بن محمد بن الحارث»، وأن «محمد الحراث» كان والده. والمعروف بالتحديد أن الوثائق التاريخية أشارت إلى «أحمد الحارث» على أنه كان شريفاً على مكة في عام ١٦٨٠ وكان وجهاء نجد

يقدمون لزيارته في مواسم الحج أو في نهاية شهر كانون الثاني : ومن بين هؤلاء الوجهاء كان «محمد بن ربيعة بن وطبان» وهو من منطقة الدرعية .

حدث صدفة في العام نفسه (ولا يعرف بالتحديد في أي شهر) أن مكة شهدت مرة ثانية فيضانات جارفة وصلت بسببها مياه الفيضانات إلى ارتفاع قفل باب الكعبة (أي على الأقل عشرة أقدام فوق سطح الأرض) . هذا ودمرت الفيضانات عدة منازل وقضت على العديد من الممتلكات في المدينة ناهيك عن غرق حوالي مائة شخص . وفي الواقع شهد المؤرخ «آل أسامة» حادثة الفيضانات تلك بأم عينه ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اسمه الكامل هو «عبد المالك بن حسين المكي الشافعي آل أسامة» مات في شهر كانون أول من عام ١٦٩٦ .

عند هذا القدر من السرد يتوجب علينا أن لا نغفل حدث آخر يتعلق بالمشكلات المتعاقبة لأشراف مكة ، فلدينا سجل أحداث تاريخية يتناول عام ١٦٩١ وبالتحديد فترة الولاية الثانية للشريف «سعد» وهو ابن «سعد بن زيد» . تصادفت فترة ولايته في أثناء حياة والده «سعد» ، لكن والده أقاله عن منصبه بعد فترة حكم له دامت لأقل من ستة أشهر ، واستأنف شؤون إدارة الإمارة بنفسه حتى عام ١٧٠٣ وفي ذلك العام تنازل عنها طوعاً . ويبدو أن أول مجيء لـ «سعد» إلى السلطة اشتمل على توقف قصير في فترة ولاية الشريف «محسن بن حسين» الذي - كما أشرنا سابقاً - داهمته المنية في عام ١٦٨٨ .

من الواضح أن منطقة مكة على مدى ربع قرن شهدت الكثير من

الاضطرابات السياسية إثر وفاة الشريف «زيد» الذي عاش ابنه «سعد» من بعده لمدة أربعين عاماً رافقتها عشرات السنوات كان الحكم خلالها خالياً من أي حاكم . . . فصلت تلك المرحلة أول فترة حكمه عن ثاني فترة له في الحكم. لكن وإن كان «سعد» طاعن في السن خلال فترة حكمه الثانية لإمارة مكة، لكنه كان سليم الجسم موقور الصحة على نحو مكنه من قيادة حملة خلال الأشهر الأولى من عام ١٦٩٤ جاءت عاقبة لغزو نجد، علماً بأنه لم يتمكن من إنجاز الكثير من التقدم بعد منطقة «الحمادة» الواقعة في الطرف الغربي من «طويق». وخلال موسم حج هذا العام نفسه وبالتحديد في شهر تموز حدث اصطدام بينه وبين الحجاج ووقعت مجابهة عنيفة دارت في شوارع مكة، حتى في الحرم نفسه. وبلغت الفوضى ذروتها لدرجة أن الشريف «عبد الله بن هاشم» وهو ينتمي إلى فخذ آخر من فخوذ هذه السلالة، أقدم على إجراء جذري إذ خلع «سعد» من منصبه وتولى حكم المدينة بشكل مؤقت بمساعدة الشريف «أحمد بن غالب» الذي كان قد رجع من منفاه في اليمن ليعيش حياة هادئة وسط أملاكه بمنطقة «ركاني» الواقعة في وادي فاطمة. لكن مع نهاية العام كان «سعد» قد نجح في العودة إلى مكة وبدأ عهد حكمه لها بعد أن نفى «عبد الله بن هاشم» ومواليه وأعوانه.

وفي العام التالي كان على رأس حملة عسكرية توجه بها إلى نجد هناك حاصر قرية «أشيقر» وأذاق أهلها من الضيق والعسر والشدة ما حدا بالقاضي الشيخ «أحمد بن محمد بن القصير» أن يصدر فتوى أجاز فيها الفطر طيلة شهر رمضان الذي تصادف مع شهر نيسان من ذلك العام، وذلك ليتمكن

الفلاحون من جني محاصيلهم ووضعها في صوامع أو مخازن الحبوب.

اقترح «سعد» الذي عجز عن إرهاب رجال الوشم العنيدين أن تدار مفاوضات فيما بينهم، كما أصر أن يقوم الشيخ «أحمد» المشار إليه سابقاً وكذلك صديقه الشيخ «حسن بن عبد الله أبو حسين» بدور المفاوضين في القرية، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح إلا أنه تم اعتقال الشيخين لدى وصولهما إلى خميته وأودعا السجن.

حدث في الدرعية وفي ذلك الوقت من السنة أن قام سلطان بن حمد القيسي (وهو من منطقة غير معروفة) باغتيال «إدريس بن وطبان» الذي على ما يبدو كان قد نجح في الدخول إلى حيز وجهاء الدرعية بعد مقتل أخيه «إبراهيم» في عام ١٦٩٤. وتفترض بعض المصادر التاريخية أن سلطان بن حمد القيسي من قبيلة «بني خالد» من منطقة الأحساء، وكان قد اغتصب الإمارة واحتفظ بها حتى عام ١٧٠٨ حيث استهدفته سكين أحد القتلة المأجورين، وخلف في الإمارة أخوه «عبد الله» الذي انتهت بمقتله في شهر آذار من عام ١٧٠٩ فترة الخمسة عشر عاما من السيطرة الخارجية على منطقة الدرعية. عادت الدرعية الآن إلى حظيرة السلالة الشرعية المتجسدة في شخص «موسى بن ربيعة بن وطبان». وفي هذا السياق تنقصنا معلومات عن الأحداث التي تعاقبت على هذه الأسرة على مدى العقد التالي. وكل ما هو معروف لدينا أنه في وقت ما قبل عام ١٧٢٠ تم إقالة «موسى» من منصبه ونفيه خارج الدرعية، وعليه تحولت ملكية الدرعية إلى سلالة «آل سعود» على أيدي «سعود بن محمد بن مقرن» المؤسس للسلالة الحاكمة بـ (آل سعود) التي تُعرف باسمه واستطاع بالرغم من عدة محن أن يحافظ على

سطوة عائلته الحاكمة وقيادتها للصحراء العربية، والتي استطاعت أن تبلغ ذروة مجدها في عصرنا هذا وعلى مدى عهد حكم طويل مجيد من قيادة الملك «عبد العزيز بن سعود».

حدث في عام ١٧٢١ وخلال فترة «سعود» للدرعية أن رُزق «محمد بن سعود» ولدا حمل اسم «عبد العزيز» ليكون اسمه شبيهاً لعبد العزيز الذائع الصيت. لم يكن مقدراً لسعود أن يرى تبرعم وتفتح زهور ذريته ولم يكن ليعلم أيضاً أن في العيينة، القرية المجاورة، يوجد طالب علم متحمس بلغ من العمر عشرين ربيعاً، وكان مقدراً له أن يلعب دور القائد المفكر والصديق لابنه ولحفيده اللذان تمكنا في يوم من الأيام أن يصعدا إلى أوج الشهرة والمجد، مستعينان بساعديه القويتين.

وُلد محمد بن عبد الوهاب في العيينة عام ١٧٠٣ ليدرك عندما حان الوقت أن لا كرامة لرسول في موطنه.

اجتمع «سعود» في يوم الحادي والعشرين من شهر حزيران من عام ١٧٢٥ في ليلة عيد الفطر مع والده وأعمامه وأجداده، وتقرر آنذاك أن يخلفه في حكم الدرعية «زيد بن مرخان بن وطبان» بصفته أكبر ممثلي فخذ تلك الأسرة وليس ابنه «محمد». وكان ذلك إجراء عادي يقتضيه نظام حق البكر في ولاية العهد وهو نظام متبع في الصحراء العربية... وبدا ظاهرياً أن أحداً لم يستاء أو يعترض على تلك الخلافة، لكن في حقيقة الأمر كان أخو سعود والمدعو «مقرن» يعتقدا بأنه كان أحق بتلك الخلافة واشتهى ذلك الشيء لنفسه، علماً بأنه أبدى اعترافاً على الصعيد الرسمي بولائه لتلك الخلافة. وفي أحد الفرص قام مقرن بدعوة «زيد» لزيارته ليؤكد على

تفهمهما للوضع، إلا أن «زيد» الذي شم رائحة الغدر رفض الدعوة وطلب أن يضمن «محمد بن سعود» و«مقرن بن عبد الله بن مقرن» (وهو ابن أخو محمد بن سعود وابن العم اللزم لمقرن بن مقرن) أمنه وسلامته. . . وكان ذلك الطلب بمثابة إقرار صارخ لسمعتهما ونزاهتهما. وأعطى كلاً منهما كلمة العهد بالوفاء وتم اللقاء بين «زيد» و«مقرن» في مجلس «مقرن»، لكن سرعان ما اتضح أن «مقرن» كان ينوي الغدر بضيفه ودون أية ضجة أو لغط انتفض الكفيلان الضامنان وأبديا انزعاجهما لعدم نزاهة مضيفهما، وهنا هرب «مقرن» من خلال أحد النوافذ واختبأ في الخزانة، وفيما بعد ألقي القبض عليه ونفذ فيه حكم الإعدام. وبقي «زيد» سيدا لموقف خيمت عليه أحداث مأساوية ترافقت مع آلام جسام لسلالة حاكمة مقدر لها أن تكون سلالة عظيمة.

لم يعش «زيد» في تلك الفترة طويلاً، إذ تعرضت مدينة العيينة خلال العام المنصرم لوباء الكوليرا القاتل الذي فتك بها وأودى بحياة القسم الأكبر من سكانها. وكان أمير البلاد الضحية الرئيسية لهذا الوباء، فقد خلفه بعد وفاته حفيده «محمد بن حمد» الملقب بـ«خرفاش» (المفأفأ أو المتأتأ). جاء عزل مدينة العيينة بسبب الوباء (التي لازالت إلى يومنا هذا من أعظم المدن ازدهاراً في قلب الصحراء)، ليثير طمع «زيد» الذي زحف إليها بعدد كبير من أهالي «كثير» ومعه عدد من قطاع الطرق. وعند وصوله إلى «عقربا» القريبة من «الجبيلة» تلقى من «خرفاش» رسالة استنكار لكن بأسلوب مؤدب، وعرض «خرفاش» على «زيد» في تلك الرسالة أن يعطيه كل ما يشاء دون أن يضعه أمام مشكلة سلب القرويين والبدو المعوزين. واقترح

عليه أن يجتمعا لمناقشة تلك المسألة. سار «زيد» إلى هناك وبرفقته أربعون رجلاً بما فيهم الأمين «محمد بن سعود». وهناك قام خدم «خرفاش» الذين كانوا قد انتشروا واختبأوا في أماكن معينة، بإطلاق النار على «زيد» لحظة جلوسه على كرسيه في غرفة الاستقبال وأردوه قتيلاً. على الفور لاذ «محمد» وجماعته في غرفة مجاورة وكانوا مستعدين للقتال حتى النهاية إذا اقتضت الضرورة. رفض «محمد» طلب «خرفاش» بالخروج من الغرفة وقال بأنهم لن يخرجوا ما لم تضمن السيدة «جوهرة» سلامتهم وعدم تحرش «خرفاش» وجماعته بهم. والجدير بالذكر أن السيدة «جوهرة» المشهورة هي ابنة الأمير الراحل «عبد الله بن معمر» المشهور وعليه فهي تكون عمة «خرفاش» وتمت الأمور على ذلك النحو وعاد «محمد بن سعود» ورجاله إلى الدرعية واستمر في حكمه لإمارة الدرعية حتى نهاية عام ١٧٢٦ أو كما يقال لبداية عام ١٧٢٧، واستمرت إمارته للدرعية دون أي تحدٍ حتى وافته المنية في عام ١٧٦٥.

في أعقاب بداية حكم متقلبة ومليئة بالأحداث، تمكنت سلالة آل سعود أخيراً من إرساء قواعد حكم ثابت: ولم يعد مكان لأعمال الثأر التي أودت بحياة العديد من الأجيال السابقة. وهنا يمكن القول أنه في هذه الفترة تم التخلص من آخر شخص كان يدعى أن له الحق في الاستيلاء على الحكم، وذلك الشخص هو «موسى بن ربيعة» الذي كان «سعود» قد نفاه ليعيش في مرابع «ابن معمر»، وجاءت وفاته إثر إصابته بعيار ناري من بندقية قديمة لفظ على إثرها آخر أنفاسه.

كوننا وصلنا إلى النقطة التي تبدأ معها قصة المملكة العربية السعودية،

يتوجب علينا أن نعود بخطانا لنراجع سجل منافسي آل سعود من أجل السيطرة على هذه المنطقة منذ القدم حتى وقتنا الحالي. ولعله من الملائم أن نبدأ من منطقة الحجاز حيث كان الشريف «سعد بن زيد» في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر أميراً على إمارة مكة. ونيابة عن «سعد» وفي عام ١٦٩٧ قام الشريف «سرور بن زيد» (الذي يقال بأنه كان أخ لزيد أو ابن أخيه) بشن غارة شاملة على مناطق نجد. وكان هدفه بالدرجة الأولى النيل من منطقة «سدير» التي كانت تتمتع باستقلال ثابت تشوبه أعمال شغب متكررة.

ارتكبت قوات «سرور» الفظائع في قرية وواحة «الروضة» وانطلقت منها إلى منطقة «جلاجل»، وهناك تمكن «سرور» من إلقاء القبض على أمير الروضية الهارب «ماضي بن جاسر». وعلى إثر تلك الأحداث تم إقصاء ثلاث عشائر من العشائر الأربع المؤسسة لإمارة «الروضة» ونفيهم إلى منطقة «أشيقر». إلا أن عشيرتين منهم عادتا بعد عامين بكامل قوتهما: كانت إحداهما عشيرة «آل أبو راجح» التي كان «ماضي بن جاسر» من أبرز رجالها. لم تتمكن هذه العشيرة من استعادة ممتلكاتها من الواحة فحسب، بل طردت أيضا عشيرة «آل أبو هلال» من هناك إثر معركة دارت في منطقة الداخلة التابعة لـ «فوزان بن زامل» زعيم «التميم» والذي ساند في تلك الموقعة «ماضي بن جاسر» وفي الفترة نفسها تقريباً قررت مجموعة من الأسر في «حوطة سدير» أن الظروف في موطنهم كانت مواتية وتسمح بعودتهم إلى مناطقهم بعد أن كانوا قد أبعدوا عنها وارتحلوا للعيش في «العيينة». لكن عند وصول هذه الأسر إلى منطقة «العودة» استغل السكان هناك بساطتهم وانقضوا عليهم وذبحوا العديد منهم يزخر تاريخ منطقة «سدير»

بمثل هذه الأحداث، وإن لدينا من المعلومات التي تتعلق بالتفاصيل الدقيقة عن هذه الأحداث مما يفوق كل ما يتوفر من معلومات عن أية منطقة أخرى. ومرد ذلك هو أن معظم المؤرخين والأدباء عن تلك الحقبة السعودية كانوا أصلاً من منطقة «سدير» نفسها أو من المناطق المجاورة والقريبة منها.

وبالعودة إلى نشاطات الشريف «سعد» الذي كا على ما يبدو حريصا على إبقاء سيطرته على المناطق الداخلية، نجد أنه في عام ١٦٩٩ وبالتحديد في مكة قام «سعد» باعتقال المئات من كبار شخصيات ورجال قبيلة «عنزة» وأردعهم السجن وشهدت السنتان المتتاليتان عقب هذه الحادثة عدة حملات تأديبية موجهة بالدرجة الأولى ضد «الظفير»، والمتميز فيها أنها شملت فئات أخرى من قبيلة بني حسين» (من حرب؟).

منيت «الظفير» في عام ١٧٠١ بخسارة جسيمة تجلت في موت زعيمها المشهور «سلمة بن مرشد بن صويط» الذي برز في أكثر من مناسبة عبر أحداث هذه القصة كعدو لأشراف مكة بكل ما في الكلمة من معنى. وفي عام ١٧٠٢ أصيبت مناطق الحجاز بمجاعة شديدة، لكن في بداية عام ١٧٠٣ تنازل الشريف «سعد بن زيد» بمحض إرادته عن الإمارة لابنه «سعد» الذي وجد نفسه وجهاً لوجه مع مزيد من المتاعب. زادت ظروف المجاعة وغلاء الأسعار من حدة الاضطرابات وانعدام الأمن، وأصبحت الأمور خطيرة لدرجة أن «سليمان باشا» المعروف باسم «باشا جدة» والممثل المباشرة للصدر الأعظم في مناطق الحرمين الشريفين، بدأ يدرس إقالة «سعد» وتعيين الشريف «عبد الكريم بن محمد بن يعلا» في مكانه. والجدير بالذكر أن «عبدالكريم» هو من أنسباء عائلة «سعد». على أي حال شعر «سعد»

بالأخطار المدبرة ضده فتصدى لها بأن رشح ابن أخيه «عبد المحسن بن أحمد بن زيد» ليتولى الإمارة من بعده، إلا أن «سليمان باشا» استمر على موقفه. وبعد مضي تسعة أيام فقط على وجود «عبد المحسن» في الإمارة قام «سليمان باشا» بإقالته وتعيين «عبد الكريم» الذي كان الأتراك قد رشحوه لذلك المنصب. حدث ذلك في الجزء الأخير من عام ١٧٠٤ ومباشرة بعد التغيير الذي طرأ على السلطة العثمانية، إذ أطيح بالسلطان «مصطفى بن إبراهيم» وعُيّن مكانه أخوه «أحمد».

تزامن تسلم الشريف «عبد الكريم» لإمارة مكة مع نفي الشريف «سعد» ووالده «سعد بن زيد» عنها. استمرت ظروف المجاعة آنذاك ولكن بمستوى أقل حدة من المستوى الذي كانت عليه سابقا. لم يبد النظام الجديد اهتمام كاف بشؤون ومصالح مناطق نجد، ويبدو أن «عبد الكريم» كان يواجه العديد من المشكلات المحلية التي استحوذت على تفكيره. إن حقيقة كونه مرشحاً من الجانب التركي نادراً ما خدمته أو عملت لصالحه. ففي عام ١٧١١ عاد الشريف سعد من منفاه متمتعاً بدعم قوي يمكنه من الإطاحة بـ «عبد الكريم» وإقصائه عن البلاد. وعلى ما يبدو جاءت تلك الرغبة مباركة ضمنياً من قبل الجانب التركي بدليل أن السلطان أصدر في الوقت المناسب فرماناً عيّن بمقتضاه «سعد» والياً على إمارة مكة. وهكذا استلم «سعد» الإمارة هناك للمرة الرابعة وبقي في حكمها دون أي إزعاجات حتى توفي في عام ١٧١٧، وخلفه من بعده الشريف «محسن بن عبد الله» الذي غزا نجد وهاجم عشائر «بني حسين» بالقرب من «المجمعة» في شتاء عام ١٧٢٦/ ١٧٢٧.

ظل وسط الصحراء العربية حتى هذه المرحلة بعيداً عن تفكير واهتمامات

الأشراف لمدة تزيد على ربع قرن، ويمكن أن يعزى ذلك ولو بشكل جزئي إلى تعاظم سيطرة وقبضة الأتراك على مناطق الحجاز. وكان الأشراف ودون شك منشغلين في حفظ النظام بشكل عام وفي التأكيد على سلامة طرق الحجاج من الاعتداءات التي كانت القبائل البدوية تقوم بها.

توالت الكثير من الأحداث على منطقة الحجاز أثناء البزوغ الحقيقي لفجر عصر آل سعود. ولو نجح الأتراك في فرض نفسهم على الأماكن الإسلامية المقدسة وفقاً لالتزامات «الخليفة السلطاني» الروحية والمعنوية، لكان الوضع في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية مختلفاً تماماً لم يحظ ذلك الجزء من شبه الجزيرة سوى باهتمامات إمبريالية ودنيوية مادية. علينا أن نعود أدراجنا إلى الوراء وبالتحديد إلى النقطة التي كان فيها «علي باشا» مسؤولاً عن إقليم «الأحساء» والذي كان الأتراك قد استولوا عليه بشكل جزئي. والهدف من تلك العودة هو تعقب مجريات الأحداث التي لم يُلاحظ فيها أي أثر لسيطرة الأتراك في الجزء الشرقي من الصحراء العربية، حيث أوجدوا محمية قوية من أبناء تلك المنطقة لتنافس «العيينة والدرعية» في السيطرة على أرجاء الصحراء العربية. أثبتت الدرعية نفسها على أنه الحصان الأقوى بين الأحصنة المتنافسة في سباق شاق وطويل.

بعد أن قام «بكر باشا» وهو ابن «علي باشا» عام ١٦٣٤ بالحج إلى مكة خمدت حدة الأحداث في الأحساء. كما أنه لم يكن هناك أية مؤثرات تدل على أن الاحتلال التركي للأحساء لا يمكن أن يكون إلا احتلالاً دائماً. فيما يخص شرقي الصحراء العربية قوى موقف الأتراك بشكل ملحوظ إثر

استرددادهم لبغداد من براثن الحكم النازي بقيادة السلطان «مراد» في عام ١٦٣٨ . تحسن الوضع بشكل ملحوظ خلال عهد حكم السلطان «محمد بن إبراهيم بن أحمد» إذ تمكن الأتراك من احتلال «البصرة» بقيادة «مصطفى باشا» عام ١٦٦٧ .

وبالرغم من تلك الانتصارات وصل الحكم العثماني في الأحساء بعد مضي عامين إلى نهاية عنيفة سارعت في إحداثها العشائر المحلية . دام الحكم العثماني هناك لأقل من ثمانية أعوام بقليل، ولم يتجدد حكم الأتراك لتلك المنطقة إلا بعد مضي ما يزيد عن قرن ونصف . والمعلوم أنه أثناء تلك الفترة تم تعيين «محمد باشا» في منصب والي الأحساء بدلاً من «علي باشا» وخلف «محمد باشا» في منصبه «عمر باشا» الذي كان آخر أربعة حكام تعاقبوا على فترة حكم الأتراك استمرت على مدى ثمانية وسبعون عاماً بمعدل فترة حكم لكل واحد منهم بلغت اثني عشر عاماً .

حدث خلال فترة حكم «عمر باشا» وبدعم من «مهنا الجبري» سليل أسرة «أجود بن زامل» التي كان الأتراك قد شردوها عام ١٥٩١ أن ثار «براك بن غرير» زعيم عشيرة بني خالد ضد «راشد بن مغيمس آل شبيب» أمير المنتفق وقتله . جاءت ثورته تلك بدعم من قبل ابن عمه «محمد بن حسين بن عثمان»، وكان «رشيد» على ما يبدو مجرد دمية تحكم ذلك الإقليم يحركها الحكام الأتراك كما يريدون . وبعد أن أشبع قوات رشيد المسلحة قتلاً وتنكلاً التفت «براك» إلى حامية تركية متمركزة في قلعة «الكوت» في الهفوف . . . وشن عليها هجوماً صاعقاً وقتل من قتل من الأتراك المدافعين عنها وهرب الناجون منهم خارج البلاد . وبعد مضي حوالي قرنين ونصف (كان في

وقتها الملك الراحل يشغل منصب حاكم نجد) حدثت دراما مشابهة للهجوم أعلاه ونتائج مشابهة له أيضاً : إذ قام حاكم نجد بوضع نهاية لآخر احتلال تركي في الأحساء، دام الاحتلال لفترة تزيد عن أربعين عاماً. وفي كلا الحدثين الدراميين كانت خطتا الهجومين جريئتين وقام بتنفيذهما رجال شجعان بقيادة ماهرة ضد عدو أعياه البعد الطويل عن بلده، كما أرهقه وجوده في مجاهل الصحراء، وأصبح منهكاً وغير قادر على إبداء أية مقاومة فعالة.

ولإعطاء تلك الشخصية حقها يمكن القول إن ذلك الشخص كان «براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة» من آل حميد زعيم «بني خالد» الذي كان في تلك الفترة أميراً على الأحساء. لم يكن «براك» ليقنع بأكاليل النصر، ففي العام الذي تلى انتصاراته وضع نفسه مجدداً في طريق الحرب. . . وجه هذه المرة ضربته ضد «الضفير» وبالتحديد ضد مناطق جنوب غرب «القصيم»، ومن المحتمل أن تكون منطقة «كيثان» هي التي شهدت الموقعة التي دارت بين «الضفير» و«الفصول». وفي طريق العودة مرّ «براك» بواحة »سدوس» ونهب رجال عشيرة «كثير».

فمن المشوق هنا أن نشير إلى أن أراضي «الضفير» تمتد غرباً لتصل إلى ما وراء حدودها الحالية المتصلة بشكل مباشر مع حدود العراق. هذا، وعلينا أيضاً أن نذكر أن قبيلة «الفضول» لم تعد موجودة في المنطقة الوسطى من الصحراء العربية كقبيلة منظمة، ومن المرجح أن تكون هجرتهم باتجاه الشرق قد بدأت في عام ١٦٧٤ عندما كان «نجد» تعاني من مجاعة وقحط شديدين. . . يشير البدو في حكاياتهم إلى تلك المجاعة باسم «الجرمان».

لكن شتاء عام ١٦٧٥ , ١٦٧٦ أحدث بعض التوازن حيث هطلت أمطار غزيرة وافرة، لكن ما قلب ميزان التعادل هو غزو الجراد بهذه المناطق والذي حدث في العام الذي تلى سنوات المطر. عُرف ذلك العام باسم «عام الجراد». حيث مات العديد من الناس بسبب التخمة من أكل الجراد. هاجم «براك» في هذه الفترة «الضفير» للمرة الثانية وأسر زعيمهم الشيخ «سلمة بن مرشد بن سويط». وفي العام التالي شن «براك» غارة ناجحة على بعض مناطق أهالي الدرعية، لكن يبدو أن هذه الهجمات كانت آخر مآثره.

توفي «براك» عام ١٦٨٢ وخلفه من بعده أخوه «محمد» الذي توج توليه الإمارة بغارة شنها على منطقة «اليمامة» في الخرج. وبعد أربع سنوات عاود الكرة وهاجم مناطق مجاورة لليمامة وبالتحديد أجزاء من «صبيح» في «الحائر» الواقعة في وادي «حنيفة»، واستهدفت غارته الثانية التي شنها في صيف عام ١٦٨٧ مواقع في منطقة «الحائر» و «المجمعة» بإقليم «سدير». هذا، وتورط في العام التالي بحرب مع «آل عثمان» زعماء منطقة الخرج، لكن لا يتوفر لدينا سجلات تاريخية تتحدث عن سير أحداث تلك المعارك.

لكن يقال إن ذلك العام كان عام خيرات كثرت فيه المراعي الخصبة وكثر الكمأ وظهرت موجات عديدة من الجراد مجدداً. ويقول البدو «إن الجراد يأكلنا ونحن نأكله». بيع صاع القمح في «سدير» بمحمدية أي ما يعادل مجيدية في آخر أوقات حكم الأتراك، في حين بيعت وزنة التمر في الدرعية بمائة أحمر (أي ليرة ذهبية تركية). وبالمناسبة نشير إلى أن السجلات التاريخية تذكر أنه في العام التالي أقام ثلاث قوافل متجهة إلى الحج مخيماتهم في منطقة «عنيزة»، الأمر الذي أسفر عن ارتقاء أسعار المواد

الغـذائيـة بشكـل جنوني . وكـان هؤلاء الحـجـاج من العـراق وبلاد فـارس والأحساء . وقد تعرضت قوافل الحجاج العراقيين في طريق العودة إلى غزو شنته جماعات من «الضفير» و«الفضول» قرب تنومة وسلبت كل أموال الحجاج وممتلكاتهم .

اجتاح الطاعون في عام ١٦٦٠ الأجزاء الجنوبية من العراق وفتك بأهلها ، ووصف ذلك الطاعون بأنه لا مثيل له على الإطلاق ، إذ أودى هذا الوباء بحياة عُشْر سكان البصرة التي هجرها أهلها إثر ذلك الوباء لعدة سنوات . وصل ذلك الوباء إلى بغداد واقتلع نسبة كبيرة من سكانها من جذورهم .

مات «محمد بن غدير» عام ١٦٩١ كما قتل ابن أخيه «ثنيان بن براك» في العام نفسه ، كما قُتل ، من جراء غارة أخرى تعرض لها ، مرشحان آخران كان متوقع لهما أن يفوزا بزعامة القبيلة . وعليه آلت أمور المشيخة إلى «سعود بن محمد بن حسين بن عثمان» الذي سبق أن تعاون مع «براك» في طرد الأتراك .

في هذه المرحلة بدأت الحكومة العثمانية بمواجهة مشكلات مع قبيلة «المنتفق» في العراق ، وفي عام ١٦٩٤ عيّن «مانع بن شبيب» نفسه سيداً على البصرة وعلى كافة النواحي المجاورة لها . كان «مانع» زعيم حركة تآلف القبائل ويفترض أنه جاء خلفاً لـ «راشد بن مغيمس آل شبيب» الذي فشل في إدارة الأحساء نيابة عن الأتراك . ومما لا شك فيه أن الأتراك آنذاك لم يضعوا تلك المنطقة تحت سيطرتهم المباشرة بسبب الدمار الذي لحق بها وبسبب الأوضاع الغير صحية السائدة فيها التي نجمت عن الطاعون . وعلى أي حال فإن خسارة الأتراك لمثل ذلك الحصن أو المتراس في شرقي البلاد لم ترق

لهم، ولهـذا لم يدم حكم زعـيم «المنتـفق» على تلك المنطقـة طويلاً، إذ تعـرضت البصـرة في عـام ١٧٩٦ لهـجـوم شنه «فـرج الـله بن مطلب» زعـيم عرب الأهواز في الحويزة. تمكن فرج من احتلال البصرة بدعم على ما يبدو من بلاد فـارس التي قدمت لـه العـون لتـأمين مـصـالحـهـا. وفي عـام ١٦٩٩ اسـتطاع الأتراك الفـرس أن يستـردوا وأن يبعـدوا من تلك المقـاطعـة وبذلك تمكنوا من السيطرة على منطقة استراتيجية هامة.

شـهد العـام الأول من القـرن الجـديد تحركـات قـام بهـا «سـعـدون» بدعـم من جماعات «الفضول» وعناصر من الحجاز: إذ خاض معركة ضد «الظفير» في منطقة «البتراء» وسط رمال «نفود السر».

في عـام ١٦٩٦ قـام «سلمـة بن صـويط» بغـزو مناطق الـفـضـول ثـم مناطق «سدير»؛ ولذلك فقـد عـانى سـجناً وحـصـاراً فـرضـهـمـا عليـه للمرة الثـانية شـريف «نجـد» لقيامه باعـتداء على «الفـضـول». ولـم يتـركـه «سـعـدون» ينعم بالسلام لفـترة طويلة. وفي مـجمل الأمر تكبـد «سلمة» أشنع الخـسـائر في مـواجـهـتين: كـانت الأولى مع «سـعـدون» وحلفـائه من زعـمـاء القـبـائل في مـوقـعـه «الصـالي»، وكـانـت الثـانية في منطقـة «البـتـراء». ويقـال إن «سلمـة» أصيب بـجروح في تلك الاشتباكـات وتوفي متـأثراً بـجراحه وهو في طريقـه إلى ديرته وتم دفنه في «الجبيلة».

تعرضت كافة المناطق على مدى السنتين أو الثلاث سنوات اللاحقة لقحط وشظف عـيش رافقـهـا خـمـود في نشـاطات بني خـالـد. لكن في عـام ١٧١٦ قضى «نجم بن عبيد الله» وهو حفيد «غرير» أشهر الصيف في «ثادق»، وفي

العام نفسه شن «دجين بن سعدون» غارة على «آل زارع» وسلب ممتلكاتهم . وفي العام نفسه أيضا قام «الظفير» بطرد «عنز» من مضاربهم الصيفية في منطقة «سدير» وطاردوهم واشتبكوا معهم في معركة «الخضار» الواقعة ضمن الحزام الرملي لـ «الدهناء» .

سقطت خيام الشريف «عبد العزيز» شريف نجد في أيدي الأعداء ، أثناء معركة كان يحارب فيها إلى جانب «عنزة» المدحورين . وفي الأشهر الأولى من عام ١٧٠٨ قام «سعدون» بنفسه بمرافقة قوافل الحجيج من الأحساء مروراً بأراضيه ، وخيم معهم في منطقة «ثادق» أثناء مرورهم بمنطقة طويق بمحاذات شعيب «العتك» الذي يفصل «سدير» عن «العارض» . ساءت سمعة حفيد آخر من أحفاد «غرير» ويدعى «عبد العزيز بن هزاع» إذ أقدم في ذلك الوقت على قتل «عبد الله بن عبد الرحمن بن إسماعين» ابن عم الشيخ «محمد بن عبد الله بن إسماعيل» ، وهو قاض سابق في «أشيقر» ، ولم يعرف سبب تلك الجريمة كما لم يُعرف ما ترتب عليها من أمور والجدير بالذكر أن هذا الحفيد توفي في عام ١٦٩٧ .

وفي عام ١٧٠٩ انتقلت الحرب الدائرة بين «سعدون بن غرير» و «الظفير» إلى مقاطعة «الهجرة» الواقعة ضمن الأراضي العراقية دون أن تسفر عن أية مكاسب تذكر لأي طرف . تميزت السنوات القليلة اللاحقة بهطول أمطار غزيرة ، وجلبت عواصف مدمرة من حبات البرد ، لكن نمت على إثرها مراعٍ خصبة وبيادر قمح وافرة ظهرت آثارها في هبوط خيّر في أسعار مستلزمات الحياة .

وفي عام ١٧١٤ تضامن «سعدون» مع «عبد الله بن معمر» من «العيينة» عناصر أخرى من «العارض» وشنوا حملة ضد مناطق «الخرج» . هوجمت

«اليمامة» وسُلبت أملاكها، إلا أن هجوماً معاكساً قام به البجادي بصحبة أربعة خيالة فقط كان كافياً لحمل الغزاة على التراجع. واستمر توالي الأيام دون أحداث تذكر باستثناء حدوث حالات قحط وأمراض وفيضانات ومواسم حصاد خيرة... شملت أحداث الفيضانات تلك على أحداث شتاء عام ١٧١٤/ ١٧١٥ التي شهدت صقيع قاس.

وفي عام ١٧٢١ عندما دخل «سعدون» نجد بالقوة وأمضى كل فصل الصيف فيها، حاصر بدو «كثير» في مناطقهم ضمن حدود «العارض» وأدخل كل ما يحتاجه من سلاح لحصار وضرب كل من «عقربا» و«العمارية» اللتان عانتا من مجاعة خانقة. وقامت قوات «سعدون» بسلب حقولهما وأشجار النخيل فيهما. استحكم «سعدون» الآن في منطقة «الدرعية» وسلب خيرات واحات النخيل فيها ودمر العديد من المنازل في قرية «الظهرة» وفي «السرعة» وفي «الملوي»، إلا أن قواته مُنيت أيضاً بخسائر جسيمة بسبب الهجمات التي كانت يشنها الناس المحاصرون للدفاع عن ممتلكاتهم. من المشوق أن نذكر هنا أنه في خضم هذه الأحداث شهد «عبد العزيز» العظيم [1] ضوء النهار الذي طل عليه من خلال نافذة عليها حديد مشبك في قلعة «طريف».

تحرك «سعدون» مرة ثانية باتجاه نجد في أوائل عام ١٧٢٣ وداهمته المنية في أحد المعسكرات التي شيدها في «الجندلية» على طريق رمال «الدهناء».

(١) المقصود هو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود (المعلق).

كان «سعدون» قد قاد قبيلته وأدار ملكه بذكاء لمدة تزيد على ثلاثين عاماً. كان من سوء حظ أبناء قبيلته أن تخلى «سعدون» عن زمام القيادة في لحظة كان فيها الصراع من أجل الزعامة على الصحراء العربية على وشك أن يبدأ. سبب موته اضطرابات وفوضى وانشقاق بين رجال قبيلته التي انقسمت إلى فرق يدعم كل فريق منها زعيماً يدعى الحق في قيادة القبيلة. . . والحقيقة لم يكن أي منهم جدير بحمل شعلة القيادة من بعده. وكان الصراع الحقيقي بين أبناء «سعدون» أنفسهم، وكان «دجين» و «مانع» من طرف و«علي» و«سليمان» وهما ولدي «محمد بن غرير» (الشخصية التي خلفت «سعدون» في حكم القبيلة) من طرف آخر. والجدير بالذكر أنهما كانا من جيل «سعدون» نفسه وأبناء عمه من الجيل الثاني. وبعد مهاترات وتشابك بالأيدي كما يحدث بين حين وآخر سيطر مجلس العقلاء على الجميع واختير «علي بن محمد» زعيماً لقبيلة «بني خالد»، في حين احتجز ابني «سعدون» كإجراء تحفظي وقائي. ولم يكن لذلك الترتيب أن يدوم طويلاً دون حدوث صدامات. وقبل انتهاء العام قام «دُجين» بمحاولة فاشلة استهدفت حياة «سليمان» وهو أخو الزعيم الجديد المنتخب، وعليه قام «سليمان» بهجوم انتامي على أحد رجال «دُجين» المخلصين له لكنه فشل في تحقيق أهدافه.

استمر القحط المدمر الذي كان قد بدأ في عام ١٧٢٢ بكافة كوارثه حتى هطلت أمطار عام ١٧٢٤/ ١٧٢٥. أنقذت أمطار ذلك العام الغزيرة الوضع هناك: ففي الحجاز على سبيل المثال كانت أسعار المواد الغذائية قد وصلت إلى مستويات غير معقولة، علاوة على أنه لم يكن هناك شيء يشترى

لدرجة أن الناس أصبحوا يأكلون الحمير الميتة ولحم الجيف. ولسوء الحظ خلفت الأمطار التي هطلت إثر هذا الجفاف الطويل نوعاً من الآفة الصفراء التي أوقعت الكثير من الضرر بالزرع والمحاصيل. إضافة إلى أن موجات الجراد والحشرات القافزة زادت الأمر سوءاً. وضرب وباء الكوليرا الحاد منطقة «العيينة» والقرى المجاورة لها وأودى بحياة عشر سكان هناك. ونزح عن تلك المناطق كل من كتبت له النجاة من ذلك الوباء. أودى ذلك الوباء أيضاً بحياة الأمير العظيم «عبد الله بن معمر» وكانت وفاته كارثة لم تستطع إمارته أن تتعافى منها قبل أن يجرفها تيار الوهابيين. إن ما كان بالفعل مصادفة متميزة هو أن الأحساء والعيينة الندان الرئيسيان للدرعية: فقدا قيادتهما الحكيمة التي تجلت في وفاة زعيميهما، إذ حدثت تلك الوفاة في فترة كانت الدرعية نفسها تمر بموجة من الصراعات الداخلية اشتد التنافس فيها على زعامة كان من الممكن لمن يحظى بها أن يضيف صفحة مجيدة إلى صفحات التاريخ الإسلامي، وأن يضع أسس سلالة حاكمة وإمبراطورية لم تشهد مثلها الصحراء العربية منذ عهد ملوك سبأ.

يبدو أن «دُجين» إثر فشله في النيل من «سليمان بن محمد» قد صرف النظر عن الأحساء بشكل مؤقت. لكن قبل انقضاء عام ١٧٢٦ أو ربما في بداية عام ١٧٢٧ كان «دُجين» قد حظي بالدعم الكافي من «الظفير» و«المنتفق» ليقوم بمحاولة أخرى لاسترداد عرش أبيه. كانت الهفوف محاصرة ومضى على حصارها فترة من الزمن وكان البدو ممن تحالفوا مع «دجين» يجوبون أرجاء البلاد يسلبون الأرزاق ويقتلون العباد في القرى وفي واحات النخيل. لكن «علي» كان يفوز بالعمليات العسكرية ولم يكن أبداً

في وضع ضعيف يمكن أي شخص من أن يلحق به الهزيمة على أي حال. انسحب الغزاة بعد أن تم التوصل إلى هدنة بين أبناء العم المتحاربين وبقي «علي» الحاكم على الأحساء، وبدأ «محمد» فترة حكمه للدرعية. وكما ذكرت سابقاً كان «محمد بن أحمد بن عبد الله بن معمر» الملقب بـ «خرفاش» معاصراً لهما في حكم «العيينة».

بقي الآن أن نختم هذه المقدمة لنصل إلى أيام فترة «محمد بن سعود ولإنجاز ذلك علينا أن نستمر في سرد قصة «العيينة» منذ أن تسلم «عبد الله ابن أحمد بن معمر» زعامة القبيلة في عام ١٦٦١ وحتى الزمن الحاضر. يبدو أن فترة حكمه التي دامت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً كانت فترة هادئة، ولم تذكر السجلات التاريخية سوى حادثة اندلاع الحرب بين «العيينة» و«حريملاء» في عام ١٦٨٤، حيث شهد «عبد الله» المرحلة الأولى فقط من تلك الحرب وداهمته المنية بعد ذلك. ولا يتوافر لدينا معلومات تاريخية عن وفاته التي لابد أن تكون قد حدثت في عام ١٦٨٥. وخلفه في الحكم ابن أخته الذي هو أيضاً ابن «محمد بن أحمد بن عبد الله» الأول ويدعى «عبد الله» أيضاً. تميزت فترة حكمه بأنها كانت طويلة انتهت كما أشرنا سابقاً بوباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦.

أصبحت العيينة خلال فترة حكمه قبلة أنظار الصحراء العربية، ويعود الفضل في ذلك للجهود التي بذلها لتطوير الإمكانيات الزراعية إلى أقصى حد ممكن وللمساكن التي أمنها للتعداد المتزايد للسكان. تحسنت مرافق الخدمات في المدينة، والحقيقة الملفتة للنظر أن والده «محمد بن حمد» كان لا زال على قيد الحياة، إذ تؤكد سجلات التاريخ إلى أنه ذهب إلى الحج في

العام الذي تسلم فيه ابنه الحكم. إن مثل هذه الحالات ليست شائعة في أي مكان آخر. لكن تفاجئك الأحداث في الصحراء العربية إذ نجد أنفسنا أمام حالة متميزة تتلخص في أن والد ملك راحل كتبت له الحياة ليعيش ما يزيد عن ربع قرن يشهد فيه فترة حكم ابنه.

كان شغله الشاغل على ما يبدو الحرب التي بدأها سلفه ضد «حريملاء»، ولهذا - ومباشرة بعد توليه الحكم - سار برفقة «سعود بن محمد» أمير الدرعية ليخوضا معركة «المهيريس» التي يشير إليها سكان تلك المنطقة في حكاياتهم باسم «الكمين الأول». ونظراً لأنه سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع فسنكتفي بالقول بأن أهالي «حريملاء» مُنوا بخسائر جسيمة، ومع ذلك لم تحدث أية محاولة للهجوم على «حريملاء» نفسها. وبعد فترة قصيرة قام فريق من «حريملاء» بمهاجمة «القرينة» التي تقع على مسافة بضعة أميال في نهاية الوادي واستولوا عليها، ولكن في العام التالي واجه أهالي «حريملاء» هجوماً آخر شنه عليهم زعيم العيينة الذي جر بالحيلة المدافعين عن «حريملاء» إلى كمين وقتل عدداً كبيراً منهم. وكان ذلك ما عرف بـ «الكمين الثاني».

لم تثنيهم هزيمتهم وخسائرهم عن إقدامهم، بل قام أهالي «حريملاء» بالتحالف مع أمير الدرعية «محمد بن مقرن» ومع أمير الخرج «زامل بن عثمان» لغزو «سدوس»، وتدمير قلعتها.

لكن إما في عام ١٦٨٨ أو عام ١٦٨٩ انتهت الحرب بين العيينة وحريملاء على إثر مفاوضات سلام تمت فيما بينهما. وفي هذه الفترة كان «عبد الله بن

معمر» مواظباً وعلى مدى خمسة عشر عاماً تقريباً في تركيز اهتمامه على تطوير منطقته. ولم يسمح لنفسه بدخول تيار الحروب حتى عام ١٧٠٣ حيث هاجم منطقة «القرينة» واحتلها. وفي العام التالي حول أنظاره إلى «ثادق» وهي منطقة رئيسية مهمة، لكن عندما وصل بقواته إلى «البير» حال بدو «عنزة» بينه وبين غايته وسلبوا العديد من حيواناته التي كان يستخدمها للتنقل.

تعرضت «العيينة» في منطقة وادي حنيفة لفيضانات جارفة دمرت في طريقها العديد من المنازل وخلفت الكثير من الضرر بالممتلكات.

نعمت «حريملاء» وعلى مدى عشرين عاماً بالأمن، ولذلك السبب التقت إليها «عبد الله بن معمر» في عام ١٧٠٩ وهاجمتها بقوة، كان المدافعون عنها من بدو قرى «العارض» و«الصبي»، ودار هناك قتال ضار اضطر «عبد الله» للتراجع عنها. أبدى أهالي حريملاء - كما حدث سابقاً - ردة فعل شديدة وهاجموا أتباع عبد الله في تلك المناطق وداهموا واحات ملحم واحتلوها. لم يهاجم «ابن معمر» حريملاء مرة أخرى إلا في عام ١٧١٦ حيث عاث خراباً في ممتلكات أهالي «زغيب»، وعندما عاود الهجوم عليها بعد مضي عامين قتل عشرة من رجالها واستولى على عدد كبير من الأغنام التي كانت ترعى في أراضيها.

وفي عام ١٧٢٥ قاد ابنة «إبراهيم» حملة تكشف عن غزو واحات «العمارية» المجاورة وبقي فيها بعد أن فرض الاستسلام على أهلها. وبعد بضعة أيام تعرض «عبد الله» نفسه لغزو من قبل جماعة بدو «كثير» في «العسيقة». قتل في تلك المواجهة عشرون من رجاله ووجد «عبد الله» نفسه

مضطراً للهرب بشكل عشوائي تاركاً البدو المنتصرين يحاصرون «إبراهيم» في منطقة العمارية. وكانت تلك آخر حملة قام بها «عبد الله بن معمر»، لكن يجب أن نعترف وفقاً لدلائل إنجازاته العسكرية التي تحققت على مدى أربعين عاماً أنه لا يمكننا أن نصنفه بين عظماء المحاربين في عصره. إن السمعة العظيمة التي تحلى بها تعاظمت بالدرجة الأولى بسبب الإنجازات الإدارية والخدمات المدنية التي قام بها، وإن حال «العيينة» التي تركها لخلفه من الحكام هناك تقف كنصب تذكاري يشهد على تلك الإنجازات.

وكما أشرنا سابقاً أودى وباء الكوليرا بحياته في نفس العام الذي يقال إن الوباء أودى أيضا بحياة ابنه «إبراهيم». وعليه انتقلت الزعامة إلى حفيده الذي كان عليه أن يواجه قوة «الدرعية» المتنامية. لم يكن «محمد خرفاش» من الطراز الذي يمكن أن يحمل على عاتقيه مثل هذه المهمة. وبغض النظر عن حادثة «زيد بن مرخان» التي كان «زيد» نفسه مسؤولاً عنها، يمكن القول أن ردة فعل «محمد خرفاش» تجاه المسؤوليات المترتبة على الزعامة لم تكن واعدة، فإن إقالته لجده القاضي «عبد الوهاب بن سليمان» والذي كان يثق به كمستشار وكصديق كان تخبطاً لم يكن بالإمكان إصلاحه.

صفحة بيضاء

الفصل الثاني

محمد بن سعود

صفحة بيضاء

محمد بن سعود

في الحقيقة إن ما يُعرف عن التطورات العسكرية والسياسية التي حصلت على مدى أول عقدين من فترة حكم «محمد بن سعود» هو قليل جداً. ويمثل هذان العقدان فترة ذات دلالة بالغة في تاريخ الجزيرة العربية، فكان هذان العقدان بمثابة فترة لم يكن العامل المسيطر فيها الرحلات التي كان يقوم بها الملوك والقادة، بل كانت فترة تبرعم فكرة المبدأ العقلاني التي تحولت على الفور لتصبح الفكرة الملهمة والشعار الذي تستخدمه الأجيال القادمة حتى المعاصرة لحث الناس على نصرة الحق.

ولد «محمد بن عبد الوهاب» في منطقة العيينة عام ١٧٠٣ وهو ابن الشيخ «سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد يزيد بن مشرف بن عمر بن مضر بن إدريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب»، الذي كان يشغل منصب قاضي « عبد الله بن معمر » والذي كان والده شيخ ذائع الصيت. وهكذا تعود أصالة وشجرة نسب مؤسس الحركة الوهابية إلى ستة عشر جيلاً أو على وجه التقريب إلى خمسة قرون، وإن بعض أجداده لا بد أن عرفوا واستمعوا لمواعظ «ابن تيمية» الشيخ الإسلامي المرموق الذي كان بمثابة المصدر الرئيسي الملهم لـ «محمد بن عبد الوهاب».

مات الجد الشيخ «سليمان» في زحمة العمل كقاضي للعيينة عام ١٦٦٨، وورث طعم وتقاليد أسرته المتدينة كما كان قد تشرب مبادئ الدين والقضاء من جده «محمد بن أحمد» وورّثهم بدورهم إلى أبنائه «عبد الوهاب» و«إبراهيم».

سبق له أن رافق «عبد الله الثاني ابن معمر» في حملته التي شنها ضد «البير» عام ١٦٦١، حيث - كما أشرنا سابقاً - لعب دوراً بارزاً في مفاوضات السلام بين الطرفين، لابد أن كان «محمد» ذو شخصية مرموقة خاصة حدث له أن عمل وأنجز رسالة بحث حول نقاط دينية محددة ومقنعة، لكنه مزقها عندما علم بأن هناك رسالة بحث حول نفس الموضوع سبق أن عمل عليها الشيخ «منصور البهوتي» الذي توفي عام ١٦٤٢. صنفه علماء الدين مع تلميذه الشيخ «محمد الخلوطي» في مصاف فقهاء المذهب الحنبلي.

من أبرز مشاهير تلاميذه الشيخ «أحمد بن محمد بن حسن بن سلطان القصير» الذي سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن حصار الشريف «سعد» لـ «أشيقر»، والتي شغل فيها الشيخ أحمد منصب القاضي، وتوفي عام ١٧٠٢.

كان أخوه وابنه (وكلاهما معروفان باسم «محمد» من بين ضحايا وباء الكوليرا الذي ضرب المنطقة عام ١٧٢٦ والذي يقال إنه انتشر إلى ما وراء أراضي طويق ووصل إلى منطقة الوشم.

لم نسمع عن والد «محمد» المدعو «عبد الوهاب» سوى ذكر عرضي جاء اسمه مقروناً بولادة ابنه المشهور. كما لا نعلم سوى حقيقة أنه كان تلميذاً يتلقى العلم على أيدي والده «سليمان». وبقي الأمر كذلك إلى أن أقاله «محمد خرفاش» من منصب قاضي العيينة عند توليه السلطة عام ١٧٢٦.

لو كان سنه مقبولاً لدراسة الأمور الدينية في أيام والده، لم يكن بالإمكان أن يخلف والده في ذلك المنصب قبل ثمانية وخمسين عاماً، ولم يكن بعيداً

جداً عن سن الثمانين عندما أعفي من منصبه. لم يكن النضوج الفكري المبكر عند الأولاد عاملاً عادلاً في الأوساط الدينية في تلك المنطقة وفي الدين الإسلامي بشكل عام، لكن يقال إن ظاهرة النضوج الفكري كانت بادية على ابن عبد الوهاب بشكل ملحوظ.

إثر إقالته من الشيخ «أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبدالله بن عبد الوهاب» الذي لم يكن من أسرته لا من قريب ولا من بعيد، هاجر واستقر في «حريملاء» ومات فيها وهو شيخ كبير عام ١٧٤٠. كان خلال آخر سنوات عمره يشجع منهج ابنه «محمد»، ويقال إنه توجب عليه في بعض الأحيان أن يحجم بعض الشيء من حماس الشباب الذي بلغ اندفاعه في إعلاء كلمة الله حدود التحفظ في مجتمع لم يكن قد نضج ليتحول عن أساليب العيش السهلة والسائدة آنذاك.

كان الدين الإسلامي دين كل شخص يحترم نفسه في قرى ومدن نجد، وكان ينظر إلى ممارسات الجهلاء في الدين بعين الشفقة، وكان يرثى لحالهم بدلاً من شجبهم وسخطهم. تجاهل من عرفوا بالمواقف المعتدلة أمور التساهل في الواجبات الدينية والعلاقات المحرمة، لكنهم لم يقروا مثل هذه التصرفات. ولم تكن المعتقدات الخرافية في مدى جدوى السحر والقرابين والتضحيات وقوة الأشجار والصخور وقوة سحر القبور في تحقيق رغبات البشر إلا مقياساً لجهل السامريين في مفهوم القداس، وذلك أمر كانت طائفة من اليهود في عهد المسيح (الفريسيين) تتجاهله أو تزدريه، إذ كانوا يعيشون في ترف أكد على حقيقته وضعهم المتميز عن وضع الآخرين. لكن «محمد بن عبد الوهاب» لم يكن يفكر على ذلك النحو، وكان للوضع المزري للعالم

من حوله أثراً سلبياً في نفسه، وكان يتمتع بشجاعة سلفه من البسطاء. مكنته تلك الشجاعة من مجابهة ذلك المجتمع من أجل الدفاع عن قضية سامية في نظره تتخطى كل الاعتبارات الأخرى، مثل: السلام، سهولة العيش، الشهرة، وما شابه ذلك. لكن العمل في درب هذا النضال تطلب الحكمة والتجربة، وليكتسب هاتين الميزتين قرر «محمد بن عبد الوهاب» الترحال. ولا نعرف كم كان عمره عندما قام برحلة خطط لها على صعيد طموح أكثر من كونه محتمل على صعيد التنفيذ.

قام بتلك الرحلة قبل إعفاء والده من منصبه في «العيينة»، ويقال إنه وصل إلى مكة قبل أن يبلغ سن العشرين. والمعروف أن التوجه إلى مكة كان خطوة تقليدية يجب أن يقوم بها من يفكر بالترحال على ذلك النحو. وصل إلى مكة في وقت ما قبل حلول عام ١٧٣٣، ومما يدل على ذكائه أنه زود نفسه بقائمة شملت مراكز العلم التي كان يأمل زيارتها، وذلك لأنه درس الفقه الإسلامي على أيدي والده واطلع بشكل جيد على تفسير القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول ﷺ، ويبدو أنه مكث هناك فترة لا بأس بها ليتلقى المزيد من العلم على أيدي الشيخ «عبد الله بن إبراهيم بن سيف» سليل إحدى الأسر الحاكمة في «المجمعة» والذي كان آنذاك يسكن في المدينة ويدرس فيها. دعى الشيخ تلميذه الصغير ليرى بنفسه الهدية التي كان الشيخ يعدها ليرسلها إلى مسقط رأسه «المجمعة». وقاده إلى غرفة مملوءة بالكتب، وهناك قال له: إن هذه هي هديتي إلى «المجمعة». وعن طريق الشيخ «عبد الله بن سيف» تعرف

«ابن عبد الوهاب» على شيخ علامة آخر مشهور يقال له «محمد حياة المدني» وأصبح «محمد بن عبد الوهاب» يحضر كافة دروسه.

عاد «محمد بن عبد الوهاب» من المدينة إلى نجد، ويقال إنه زار قريته (علماً بأن ذلك غير مؤكد في الوثائق التاريخية) قبل أن يتوجه إلى «البصرة» التي كان ينوي الذهاب منها باتجاه دمشق.

في البصرة بدأ «محمد بن عبد الوهاب» في جلب انتباه أناس ضمن دائرة أوسع من دائرة المدارس، فقد أصبح يتتلمذ على أيدي الشيخ «محمد المجموعي» الذي استطاع بفضل همته واجتهاده في اكتساب العلم أن يحظى باستحسانه. ولكن سرعان ما بدأ بعض سكان «البصرة» في إظهار امتعاضهم من آرائه المتطرفة، وبدأوا يضايقونه، وعندما سنحت الفرصة أبعدوه عن المدينة بشكل فظ وجلف، وكاد أن يموت من العطش وهو يجر قدميه تحت الشمس المحرقة متوجهاً إلى «الزبير». وبينما هو على تلك الحالة من الإعياء والعطش، مر به رجل طيب يجر وراءه حماره يدعى «أبو حميدان» فأركبه على حماره وأوصله إلى «الزبير».

بعد تلك المعاناة وبسبب فقدانه أوراقه الشخصية وكل متاعه ونقوده أثناء المتاعب التي أدت إلى طرده من «البصرة»، وجد نفسه مضطراً للتخلي عن فكرة السفر إلى سوريا. وعليه توجه إلى الأحساء حيث استضافه الشيخ «عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي» وتابع بعدها سفره متوجهاً إلى «حريملاء» وعاش فيها مع والده إلى أن وافته المنية كما أشرنا سابقاً.

في هذه المرحلة من عـمـره - أي في عـام ١٧٤٠ - زاد «مـحـمـد بن عـبدالوهـاب» من اندفـاعـه وبدأ عـمله جـهـراً كداعـيـة للأخلاق والنهضـة الروحانية. واستحسن العديد من الناس في «حريملاء» - من حيث المبدأ - طريقة وعظه، لكن كان عدد المقبلين على تطبيق آرائه حرفياً والالتزام بها في حياتهم الخاصة والعامة قليل جداً. فانقسم الناس في المدن والواحات إلى فريقين رئيسين كان يرأس كل فريق زعيم لا يعترف بزعامة الآخر. وشجعت هذه الحالة انعدام النظام، وما كان يصلح لطرف أو لفريق لم يكن بالضرورة ليـصلح للفـريق الآخـر. وإن مـا جـعل الوضع أكـثـر حـسـاسـيـة هو وجـود مجموعة من العبيد لدى إحدى هذين الفريقين، وكانت هذه المجموعة من العبيد المحررة أو «العتقاء» تعرف بـاسم «الحميـان» وهم من المزارعين الذين كـانوا يتـولـون شؤون الأعـمـال اليـدوية والري والتـعـشـيب في العـديد من واحات الصحراء العربية. وبسبب انغماسهم في الملذات أصر «محمد بن عبد الوهاب» على تطبيق أصول الدين بحذافيره عليهم. ولهذا طوقوا في إحدى الليالي منزله وهم يضمرون الشر له، إلا أن الجيران تدخلوا وأبعدهم عن داره.

وتمشياً مع نصيحة أصدقائه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقلع عن اندفاعه الذي لم يلق في تلك المرحلة من دعوته استحسانا، وعاد بعدها إلى «العيينة» التي كان يحكمها في ذلك الوقت «عثمان بن حمد بن معمر» الذي خلف أخاه «محمد» المعروف بـ «خرفاش». ليس لدينا معلومات تفيد عن كيفية وسبب ذلك التغيير في تعاقب الحكام، لكن «محمد بن عبد الوهاب» وجد أن الحاكم الجديد «عثمان بن معمر» أفضل بكثير من سلفه. لم يستقبله

أمير «العيينة» بالتشريف الذي يليق به فحسب، بل وجد «محمد بن عبدالوهاب» في الأمير طالباً ميالاً للتعلم ومستعداً لينهل من عمله، ولم يكن ليحظى بإطراء أكبر من الإطراء الذي حصل عليه من مجرد السلام على الشيخة «جوهرة» التي سبق أن تعرضنا لذكرها كضامن وكفيل لحسن تصرف ابن أخيها «خرفاش». وأصبح من الواضح أن «محمد ابن عبد الوهاب» قد بدأ الآن يرى ملامح النصر لقضية كرس حياته من أجلها دون عودة عنها، وأصبح يرى ذلك النصر على الصعيدين المادي والمعنوي. وفي أحد الأيام قال لعثمان: «إذا جاهدت في سبيل الواحد الأحد فسيأخذ الله بيدك ويمن عليك بمملكة نجد وعربها». وهكذا تمت الصفقة بين الأمير والداعية، وبدت المغامرة الكبيرة وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظام الحياة اليومية في العيينة. وانضم إلى الحركة الجديدة العديد من الناس المندفعين بحماسة ملحوظة.

لم يكن بالإمكان تجنب اختبار قوة واستقرار التركيبة الجديدة في ظل زخم الإجراءات التي لم تلقى استحسان العديد من الناس. قام أحد المأجورين بقطع بعض الأشجار التي كان بعض الجهلة يبجلونها ويعظمونها، وأنجز المأجور تلك المهمة بتكتم وحذر دون إثارة أي انفعال بين الناس. وبقيت هناك شجرة واحدة وهي الأكثر قدسية بالنسبة لهؤلاء الجهلاء وعليه قرر «محمد بن عبد الوهاب» أن يقطعها بنفسه، وعندما وصل إليها وجد راع جالس تحتها. قام الراعي ومنع «محمد» من الوصول إليها، إلا أن قطعة القماش التي قدمها محمد من ملابسه إلى ذلك الراعي هدأت من خاطره وترك «محمد» يعمل فأسه تقطيعاً بتلك الشجرة.

أصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» بالإخلاص والشجاعة تتسع، سرعان ما التحق به سبعون رجلاً بينهم العديد من أقوى رجال المنطقة، ومع ذلك بقي أمام «محمد بن عبد الوهاب» بعض العقبات الصعبة التي توجب عليه التغلب عليها. كان قبر «زيد بن عبد الوهاب» والمغطى بقبة والمبجل بالخرافات، غاية تستميل حماسة «محمد بن عبد الوهاب». حصل «محمد ابن عبد الوهاب» على إذن من «عثمان» لإزالة ذلك القبر. أصرّ «محمد بن عبد الوهاب» على عثمان أن يرافقه، وسار عثمان معه وبرفقته ستمائة رجل، واندفعت جموع الناس في «الجبيلة» لإيقافهم فما كان من عثمان إلا أن نشر قواته استعداداً للقتال. وعندما رأى القرويون ذلك تراجعوا، ولدى اقترابهم من المقام أو الضريح طلب «عثمان» ورجاله من «محمد بن عبدالوهاب» أن يعفيهم من هدم الضريح، فجاء «محمد بفأس وهدمه بنفسه.

توقع الناس الخرافيون البسطاء وهم على يقين أن مصيبة أو كارثة مروعة ستتم أثناء تلك الليلة بـ «محمد بن عبد الوهاب» العاق ومحطم الأصنام. لكن عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وهو بكامل صحته مستعداً لأي شجار أو مناظرة، بدأ الناس يشكون في حقيقة خرافاتهم. تلى ذلك الحدث قصة المرأة التي زنت، وهي قصة مشهورة اشتملت على اختبار لاذع لجدية الواعظ «محمد بن عبد الوهاب»، وعلى ما يبدو تعمد أعداؤه أن يبرزوا ذلك الحدث على ذلك النحو. وكانت تلك قضية حياة أو موت بالنسبة للمرأة أيضاً، ولم يكن «محمد بن عبد الوهاب» ليقتل امرأة ما لم تتوفر لديه قناعة بأن تلك هي إرادة الله. جرب «محمد بن عبد الوهاب» كل وسيلة استنبطها من عمله بالشريعة الإسلامية لينقذ الزانية من الحكم، إلا أن المرأة

كررت اعترافها ولأكثر من مرة بخطيئتها ورفضت أن تغير أية كلمة من أقوالها واعترافاتها. أن عزيمة محمد لم تثنه عن الاستمرار في محنته وإصدار حكماً بالموت على المرأة، ونفذ الحكم ورجمت المرأة وأصبحت سمعة «محمد بن عبد الوهاب» تملأ الآفاق.

شاعت أخبار هذه المرحلة في كل مخيم وقرية في الصحراء مسببة قنوط في بعض الأماكن وتخمينات مثيرة في أماكن أخرى. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أمير الأحساء «سليمان بن غرير» الذي كان قد خلف أخوه «علي»، سارع في إبداء تحفزه وغضبه حيال تلك الأحداث، وأرسل رسالة إلى «عثمان» احتج فيها على تصرفات «محمد بن عبد الوهاب» باعتباره كان تحت حمايته. وطالب بقتله قصاصاً لإمساكه المخصصات السنوية من المؤن والأموال التي كان من عادته أن يوصلها إلي العيينة وإلى تجمعات أخرى في المناطق الداخلية. لا يمكن اعتبار مثل هذه المخصصات على أنها جزية بأي شكل من الأشكال، لكنها كانت بطبيعتها بمثابة تأمين يضمن حقوق تجار المناطق الساحلية في المتاجرة مع مناطق الداخل، وبمثابة حماية لهم من التحرش بهم والاعتداء عليهم. وقد بلغت مخصصات العيينة (١٢٠٠) قطعة ذهبية (أحمر) إضافة إلى كميات مماثلة من المواد الغذائية والأقمشة التي تباع بالقطعة أو بالمتر.

بالرغم من نواياه الطيبة تجاه الحركة الوهابية الجديدة لم يكن باستطاعة «عثمان» أن يضحي بتلك الثروة من الدخل، كما أنه لم يكن في وضع يمكنه من مقارمة هجوم يشنه عليه أمير بني خالد. تضافرت هذه الأمور وطغت على نيته الطيبة تجاه الحركة الجديدة وتجاه مؤسسها. وجاء رده على مزاعم

ضـيـفـه على شكـل جـواب لاذع مفـاده أن لـيس لديه شيء يـخاف عـليـه من أعدائه طالما أنه يخاف الله ويضع كل ثقته بالله . ولكن بعد المزيد من الجدل والتبريرات قرر «عثمان» أن يتخلص من ضيفه غير مبال بأبعاد الأمور التي سيتخذها القادة في الأحساء وكون «محمد بن عبد الوهاب» قد أعطي خيار مصيره فاختار الدرعية وأرسل إلى هنا برفقة «فريج» وفرسانه . سار «محمد» في أسفل الوادي جاراً قدميه، ولم يكن بيده سوى مروحة يلطف بها حرارة عصر ذلك اليوم الحار . كان لدى «فريج» على أي حال أوامر بقتل «محمد ابن عبد الوهاب» عند وصولهم غار «يعقوب» - وهو مكان يضم قبر أحد الدراويش المتدينين - فترة وبني له هناك قبراً ذا قبة . لكن شجاعة «فريج» خانته عند وصولهم إلى ذلك المكان وعاد راجعاً إلى العيينة مع أصحابه تاركا «محمد» يتابع طريقه بمفرده باتجاه الدرعية .

وصل «محمد بن عبد الوهاب» إلى هناك في منتصف النهار ونزل في ضيافة «محمد بن سويلم العريني» في الطرف العلوي من الواحة . ولم يكن من السهل تهدئة مخاوف مضيفه فأكد له أن الله سيبارك عملهم ويحميهم من غضب «محمد بن سعود» . علم أصدقاؤه بوجوده في ديرتهم وقدموا سراً للسلام عليه والاستفادة من عمله، وبالتدريج بدأوا يدرسون الطرف والوسائل التي يمكن أن يؤمنوا بها حماية زعيمهم لضيفه . وأخيراً قرروا أن يستدرجوا عطف «موضي» زوجة «محمد بن سعود» . أعلمت «موضي» زوجها بالموضوع وأقنعته بالثروة الهائلة التي يسرتها العناية الإلهية له، وعليه تقرر أن يقوم الأمير بزيارة الداعية الإسلامي سيراً على الأقدام ليتسنى للناس رؤية الحفاوة التي قوبل بها «محمد بن عبد الوهاب» . واتفقوا أيضاً

على تشجيع الأمير في الترحاب بالداعية الذي كان يُنظر إليه على أنه صانع معجزات، ورحب به الأمير وقال له «أهلاً بك في ديرة خير من ديرتكم، وستحظى بكل التقدير والدعم من طرفنا». كان جواب الداعية (الذي يمكن أن نطلق عليه الآن اسم الشيخ): فلتطمئن بأن الله سيمن عليك بالعزة والكرامة لأن من يؤمن بالله وبدينه سيفوز بحكم هذه البلاد وشعبها: ذلك لأن الله هو الإله الواحد الذي دعت إليه كافة الرسل من أولهم إلى آخرهم». وإنه من المناسب هنا أن نذكر أسماء أهم الرسل الواردة أسمائهم في مقدمة ابن بشر والذين قادوا الأمم في كافة مراحل تطورها إلى فضل الله على عباده والمتجسدة في الدين الإسلامي، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويوسف، وموسى، وسليمان، وعيسى، ومحمد.

وهكذا التقى التحالف بين الأمير والشيخ في ذلك اليوم من عام ١٧٤٥، إلا أن «محمد بن سعود» طلب ضمانات من الشيخ تتعلق بنقطتين، إذ قال: أخشى إذا ساعدتكم وفزنا أنا وأنت بالعالم، ربما تتركني لتفتش عن مستقبلك في مكان آخر، وثانياً أن نظام بلدتي يعطيني الحق في نصيب من العائدات والمكاسب التي يحققها الرعية من الزراعة والتجارة وخلاف ذلك، فلن تطلب مني أن أمتنع عن جبي تلك العائدات! عندها أجاب الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» قائلاً: أما بالنسبة للموضوع الأول فلا اعتراض عندي عليه، ومن هذه اللحظة أضع يدي بيدك، وأما بخصوص الموضوع الثاني فلعل الله العزيز القدير يحقق لك انتصارات وفتوحات ويعوّض عليك بغنائم من الحروب أكثر بكثير من العائدات التي تحصل عليها

الآن. في تلك اللحظة شد الأمير على يدي الشيخ تبايعا بالولاء لدين الله ولرسوله، ووعد بأن يشن حرباً في سبيل الله.

في أعقاب ذلك انتقل الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من منزل «محمد ابن سويلم» إلى أعد له خصيصاً في المدينة، وبدأ الناس يأتون أفواجاً لسماع خطبه كما أن العديد من مؤيديه القدامى من منطقة «العيينة» هاجروا إلى «الدرعية» ليستنشقوا عبير الطهارة، حتى «عثمان بن معمر» كفّر عن أعماله بعد أن شاهد ما حدث في العاصمة المنافسة له، وخشي على نفسه من تلك التطورات، فسار في موكب تسوده حالة التوتر والاهتياج ومعه عدد كبير من أمراء ووجهاء العيينة لزيارة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منزله الجديد. وتوسلوا إليه بأن يعود معهم وعاهدوه بأن يعاملوه بشكل مشرف وأن يقدموا له الولاء في الدعم والمناصرة فكان جوابه: هذه المسألة ليست لي بل للأمير «محمد بن سعود» إذا رغب لي بأن أعود معكم عدت، لكن إذا أراد مني أن أبقى معه فسأبقى ولن أترك شخصاً صادقني من أجل صداقة شخص آخر. رحل «عثمان» إلى ديرته وهو مصاب بخيبة أمل.

أما بالنسبة للاجئين الذين تدفقوا إلى منطقة الدرعية فلم يحظوا بنتائج مادية يسعدوا بها لقاء المحاولة التي قاموا بها لتطهير أنفسهم والنجاة بها من النار. لم تكن الدرعية الولاية الفخمة التي كانت على أيام «ابن بشر» بل ضاقت مصادر خيراتها لدرجة أن من قدموا ليلتفوا حول الشيّخ «محمد» وجدوا أنفسهم مضطرين للبحث عن عمل في الليل من أجل كسب عيش ضيل. وكانت قلعة «طريف» محجوزة لأمراء آل سعود وخدمهم. سكن الشيخ وسط أشجار نخيل الوادي في ضواحي «البحيري» وبذلك تحولت

إلى مركز فكري وثقافي للمدينة، كما انتشرت الأسواق المتعددة على أطراف القناة التي تتجمع فيها المياه. والجدير بالذكر أنه كان هناك أسواق للرجال وأسواق لا يدخلها سوى النساء.

وهكذا تم التجسيد الواقعي لحركة الإصلاح الدينية التي كان يمكن أن يصل تموجها إلى أقصى حدود الصحراء العربية حتى إلى ما وراء تلك الحدود، كانت حلقات الدروس الدينية للشيخ «محمد بن عبد الوهاب» للأمير ولعامة الشعب على حد سواء، إذ كانوا جميعاً بحاجة إلى روحانية بسبب القنوط الذي عانى منه العرب خلال سنوات الجهل والإهمال. كانت الآثام عظام وكانت البسيطة منها سائدة في الأوساط الغنية والفقيرة على حد سواء: أهمل الناس الصلاة أو كان بعضهم يؤديها لكن بشكل روتيني ميكانيكي يفتقر إلى الحماسة؛ وكما توقف الناس منذ زمن طويل عن دفع الزكاة وتحول جمعها إلى عملية إجبارية.

كرس الشيخ جهده ونفسه لمعالجة هذه الأمور - بدأ بذلك - على صعيد نطاق كافة الإمارة، وبعد ذلك امتد نشاطه ليشمل مناطق وراء ذلك النطاق. ولم يلجأ الشيخ إلى القوة بل لجأ إلى أسلوب الإقناع. كان ينقصه المال فلجأ إلى الاقتراض وقدم له عن طيب خاطر ليساعد طلبته على الاستمرار في تحصيل العلم. ويقال إنه عند الاستيلاء على مدينة الرياض بعد عدة سنوات لاحقة، بلغ الدين المترتب عليه أربعون ألف محمدية، وذلك مبلغ كبير بالمقياس المالي لتلك الأيام. لكن تم تحصيل كل ديونه من حصته من الغنائم التي حصلوا عليها بعد ضم الرياض، وكذلك من حصته من الإتاوات التي كانت الدولة تجمعها.

في تلك المرحلة أصبحت فكرة الجهاد المقدس راسخة بحق في أذهان طلبته، إذ وجد العديد من طلابه أن فكرة الجهاد المقدس هي الجزء المستساغ في تعاليمه ونظراً لأنها كانت متمشية مع الممارسات الطبيعية للناس. تُقتطع خمس الغنائم لصالح الخزينة المركزية والتي كان الأمير والشيخ يستمدان مصروفاتهما منها لتغطية نفقاتهما ونفقات أعمال أخرى معينة. واستمر الأمير والشيخ يعملان بانسجام ووفاق تأمين وكأنهما روح في جسدين، ويقال إن الأمير «محمد بن سعود» وابنه وخليفته الأمير «عبد العزيز» لم يقدما على أي مشروع أو قرار دون موافقة ومباركة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». فلا يمكن أن يوجد أي مثيل لهذا الانسجام الذي دام على مدى نصف قرن، وإن وجد فإنه نادر. ومرت مكانة الشيخ في شؤون الدولة على ذلك النحو لمدة عام أو عامين، وعليه يجب - على الأقل - النظر للشيخ على أنه الشخصية التعاونية المؤسسة لتلك الدولة.

وعندما بدأ نمو الدولة يلقي بأعباء ثقيلة على كاهليه الآخذين في الكبر، نقل الشيخ مسؤولية تنفيذ الأمور السياسية والإدارة والمالية إلى الأمير «عبدالعزيز» الذي استمر في مشاورته في كافة القضايا.

بإمكاننا الآن أن نستعرض الوضع في نجد بعد أن ظهرت به في عام ١٧٤٥ حكومة جديدة. كما أشرنا سابقاً ظهر حاكمان جديدان أتيا إلى السلطة خلال الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، وهما بالتحديد «سليمان ابن محمد بن غرير» الذي كان حاكماً على الأحساء و«عثمان بن حمد بن معمر» الذي كان على العيينة.

والجدير بالذكر أن المنافسين الرئيسيين للدولة السعودية كانتا « الأحساء» و«العيينة» . وقد شهدت الفترة نفسها وبالتحديد على الجانب الجنوبي من الدرعية ظهور قوة جديدة سبق أن كانت تتململ على مدى بضع سنوات لتشكل أقوى عدو للدولة السعودية . وهنا لا بد أن نعود إلى الوراء قليلاً لنستعرض تعاظم أملاك الرياض، فتبدأ القصة بالواقع عام ١٦٨٢ في منطقة «منفوحة» عندما أقدم «دواس بن عبد الله بن شعلان» زعيم المدينة على ذبح زوار من عائلة «الجلاجل» قدموا إلى «منفوحة» من «سدير» لكن التاريخ الدقيق لهذه الحادثة غير متوافر لدينا؛ إلا أن تسلسل مجريات الأحداث واضحاً تماماً. وعندما مات «دواس» عام ١٧٢٦ خلفه ابنه «محمد» وهو الأكبر بين ستة من أبنائه. واجه «محمد» تحديات من قبل ابن عمه اللزم «عبد الله بن فارس» الذي تمكن من ذبحه ونفي كل إخوانه من منطقة «منفوحة» واستولى بنفسه على الزعامة فيها، ولجأ الإخوة الخمسة بما فيهم «دهام» إلى الرياض واحتموا فيها، وكانت الرياض في وقتها تحت حكم شخص يدعى «زيد بن موسى» . قويت شوكة الإخوة في المنفى (الرياض) . وحدث أن أقدم عبد يدعى «خميس» على قتل «زيد» واغتصب حكم الرياض لمدة ثلاث سنوات حدث في نهاية تلك الفترة أن أصيب بذعر بسبب إشاعة مفادها أن هناك ثمة خطة للإطاحة به، أدى به ذلك الذعر للهروب إلى منطقة «منفوحة» وهناك نفذ به حكم الإعدام. ولأن كرسي الحكم في الرياض أصبح شاغراً تولى «دهام بن دواس» الذي كانت أخته أرملة «زيد بن موسى» الحكم على المدينة بصفته الوصي على العرش نيابة عن ابن «زيد» الذي كان قاصر السن. وعندما استقر في الحكم وثبت أقدامه نفي الصبي

عن الرياض واغتصب الحكم والزعامة. وأمام حكم «دواس» الطويل لـ «منفوحة» - الذي لا نعرف متى بدأ بل نعرف فقط بأنه انتهى مع حكم خلفه «محمد» في عام ١٧٢٦ - ليس لدينا أي خيار إلا أن نرقب التطورات التي تحدثنا عنها أعلاه على مدى الأعوام ما بين ١٧٢٦ و ١٧٤٠. والمعلوم لدينا أن «دهام» مكّن نفسه في الحكم عام ١٧٤٠، وفي أقصر الاحتمالات يمكن القول أن فترة حكمه بدأت في حوالي عام ١٧٤٠.

ليس هناك سجلات تاريخية تدل على وقوع أي أعمال عدائية بين الرياض والدرعية خلال الفترة التي سبقت دخول الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» إلى الرياض. لكن حدث في بداية عام ١٧٤٦ أن قام «دهام» ومواطنون من الرياض تدعمهم فرقة من بدو « الظفير» بمهاجمة منفوحة. وهناك دار قتال شرس أسفر عن إصابات في كلا الطرفين دون تحقيق أي مكاسب لأي فريق. وقد استمر القتال إلى أن وصلت قوة إنقاذ من الدرعية بقيادة «عبد الله» ابن زعيم الدرعية. ولأن المهاجمين وقعوا وسط الاشتباكات الدائرة بين المواطنين وبين قوة الأنقاذ، حاولوا شق طريقهم واختراق صفوف قوة الإنقاذ. أصيب «دهام» في تلك الحادثة بجراح مرتين إلا أن حصانة أصيب بضربة قاتلة.

أصبح الآن «علي بن مزروع» - الذي يفترض أنه خلف «عبد الله بن فارس» في زعامة منفوحة - الحليف الطبيعي لابن سعود في نضاله الطويل الهادف لإخضاع زعيم الرياض. وسرعان ما استؤنفت الأعمال العدائية بين الطرفين مباشرة بعد حادثة منفوحة. أرسل «ابن سعود» قوة تحت جنح الظلام ليشق من خلالها طريقه إلى داخل منفوحة. وكانت في ذلك الوقت

تقع إلى الغـرب من مـدينة الرياض على تلة خلف حـزام النخـيل. نجح المهـاجمـون في الدخـول إلى منزل «ناصر بن معـمـر» ومنزل «تركي» أخـو «دهام»، لكنهـم لم يتمكنوا سـوى من أخذ عدد محدود من الجمال. بادر «دهام» في تلك الفترة إلى مهاجمة «العمارية» باعتبار أن زعيمها كان قد قتل وإن كانت جمالها مربوطة الأرجل (معقولة). وعند سماعه بهذا الخبر سارع «محمد» على عجل ونصب كمين للغزاة العائدين ورتب لشن هجوم عليهم من أحد أطراف الوادي. علم «دهام» بنوايا «محمد» وقرر أن يكمن له على الطريق إلى هناك، وحـدث أن اخـتـار «دهام» نفس المنطقـة التي اختـارها «محمد» لنصب فخه، وكانت النتيجة أن وقعت معركة حامية سقط فيها رجال من الطرفين. وسرعـان ما وقع بعد هذه الحادثة حادث آخر يعرف باسم «معركة الشيبان». دارت تلك الواقعة بجوار الرياض التي سار إليها «محمد بن سعود» وبصحبته «عثمان بن معمر» الذي كان قد انضم إلى تحالف الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وحكم الدرعية. وعندما وصلوا إلى الموقع المحدد قسموا القوات إلى مجموعتين: كان مقرر لإحداهما أن تهاجم أطراف الرياض في حين كان مقرر للثانية أن تبقى في مكانها لتتصدى لأي هجوم مفاجئ يمكن أن يقوم به المواطنون لحماية ممتلكاتهم. حدثت المعركة الرئيسية حول هضبة الوشام بالقرب من المدينة؛ وكما هي العادة أدى هجوم المرابطون من مكانهم إلى إجـبـار «دهام» ورجـاله على الهـرب للنجـاة بحياتهم. ولأنه كان من بين القتلى رجلين كبيرين في السن سميت المعركة «بالشّيّاب» نسبة لكبر سنهما.

كانت تقريباً معركة العبيد نسخة متكررة عن هذه المرحلة باستثناء واحد هو أن معظم القتلى في الجانب المدافع عن الرياض كانوا من العبيد. حدثت هذه الاشتراكات في حوالي نهاية عام ١٧٤٦ ، وفي أوائل العام التالي نقل «دهام» الحرب إلى الأراضي الوهابية، ولم ينسى أن يكرر التكتيك المألوف في نصب الكمائن.

اندفع سكان الدرعية بأعداد كبيرة شبيهة بأسراب الجراد للتصدي للغزاة الذين فروا في حالة اختلط فيها الحابل بالنابل قاصدين بذلك أن يوصلوا أهالي الدرعية إلى موقع الفخ. وحدثت النتيجة المألوفة لكنها جاءت على نحو مختلف تماماً، إذ قتل فيها اثنان من أبناء «محمد بن سعود» هما «فيصل» و «سعود». ورداً على ذلك شن «محمد» حملة مضادة على الرياض تدعمه قوات من «منفوحة» و «حريملاء» اللتان كانتا قد انضمتا إلى التحالف مع السعوديين. لم تشارك في تلك الحملة أية قوات من «العيينة». ولسوء حظه أن خائناً (كان بين صفوف قوات حريملاء) تسلل وذهب ليحذر «دهام» من الهجوم المعد ضده عند الفجر. ولعدم علمه بذلك شرع «محمد» في هجومه لكنه وجد المدافعين منتبهين ويقظين بشكل تام، ومن الصعب في مثل هذه الظروف اتخاذ أي قرارات، وانتهت تلك المعركة التي عرفت باسم «الدلقة» أو «الشراك» بالتراجع وسقوط العديد من الجرحى والقتلى في صفوف كلا الجانبين.

تجدد القتال مرة ثانية في العام التالي ١٧٤٨ إذ قاد «عثمان بن معمر» جيشاً ضم قوات من «الدرعية» و «العيينة» وقوات من «حريملاء» و«ضرما» وجميعها كانت قد دخلت في التحالف السعودي.

قاد «محمد بن عبد العزيز» قوات الدرعية وعمل تحت قيادة «عثمان» العليا. والجدير بالذكر هنا أن «محمد» قبل تلك الفترة بقليل كان قد تزوج من ابنة «عثمان». شن الهجوم الأول ضد «السيح» و «مقرن» وهما من ضواحي الرياض، وأوشكت القوات المهاجمة أن تستولي عليهما لولا أن نجدة قدمت من الرياض وأعادت التوازن.

قاتل الطرفان بضراوة إلا أن المتدينين الوهابيين أجبروا على التراجع في تلك المعركة التي عرفت باسم «البنية»، تاركين وراءهم خمسة وأربعين قتيلاً من قتلاهم وأغلبهم من فرقة «حريملاء». تكرر في نفس العام الهجوم بنفس القوة والشكل، لكن بدأ هذه المرة ضد منطقة «خريزة» المجاورة لمنطقة «السياح»، ولم يحقق نتائج تذكر. كان القائد في ذلك الهجوم «عثمان» وكان «عبد العزيز» تحت إمرته وكانت نفس التشكيلات العسكرية مسؤولة عن الحملة التي أرسلها «محمد» ضد «ثرمدا» في إقليم «الوشم». ونصب الفخ بالطريقة نفسها وألحقت الهزيمة النكراء بجماعة أهل المدينة الذين قدموا للقتال، حيث قتل منهم ما لا يقل عن سبعين رجلاً واختبأ الباقون في مزرعة فيها بيوت صغيرة تقع خارج البلدة. أصبحت هذه المزرعة بدون مدافعين فاندفع «عبد العزيز» لاحتلالها، إلا أن «عثمان» رفض السماح له بذلك وعليه أتهم بعدم ولائه للقضية. نقل عبدالعزيز» تصرف «عثمان» هذا إلى «محمد بن سعود» وإلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لكنهما على ما يبدو لم يتخذا أي تصرف من شأنه أن يصعد الموقف نظراً لأن «عثمان»، وفي أواخر ذلك العام ترأس حملة صغيرة وتوجه بها مرة ثانية إلى «ثرمدا»، ومنها توجه نحو «ثادق» وهناك قتل عدد قليل من الناس وأخذ بعض الخراف.

وفي عام ١٧٤٩ ترأس «محمد» بنفسه حملة ثانية قصد بها الرياض، وهاجم عند الفجر منطقة تعرف بـ «الحبونية» لكنه وجد أن السكان في ذلك الوقت كانوا مستعدين للقتال، وهناك تم تبادل العيارات النارية على مجال محدود، ووقعت بعض الإصابات. شهدت الأشهر الأولى من ذلك العام موجة برد قارس ألحق ضرراً بالغاً بالمحاصيل، وكانت بادرة قدوم أيام عجاف تعاقبت على تاريخ الصحراء العربية مراراً وتكراراً.

حدث في نهاية ذلك العام أيضاً أن احتجز «مسعود بن سعيد» أمير مكة حجاج «نجد»، ويقال إنه حجر عليهم في المحاجر الصحية وهناك مات الكثير منهم. بلغت في عام ١٧٥٠ الشكوك الخاصة بسلوك «عثمان بن معمر» الشرس مرحلة الذروة، وعقب صلاة الظهر من يوم الجمعة في شهر حزيران تم اغتيال «عثمان بن معمر» في الجامع الكبير بالعيينة: زعم بأن «عثمان» كان يجري مراسلات اتسمت بالخيانة مع «محمد بن عفالق» حاكم الأحساء. وبموجب تلك المراسلات تم التفاهم بين الاثنين على أن يتنصل «عثمان» من ولائه إلى الدولة السعودية وأن يتخذ إجراءات تضر بمصالحها. نفذت عملية الاغتيال تلك مجموعة من «العيينة» متعاطفة مع «محمد بن عبد الوهاب» والتي أسفت لرحيله عنها، وحُمّل «عثمان» وحده المسؤولية عن ذلك، وحسب رأي «ابن بشر» القائل بأنه «لا محاباة في الدين والدين لا يعصم المخطئين»، ونظرت الناس إلى عملية قتل أبو زوجة وريث عرش الدرعية الدرعية (الذي لم يبلغ ابنه آنذاك سوى عامين) على أنه إجراء جدير بالإطراء.

وفي العام نفسه قاد «محمد بن سعود» جيشه شخصياً في هجوم آخر ضد الرياض لكن لم تعرف نتيجته. وحدثت مجابهة بين رجال «محمد بن سعود» وفريق مدافع بالقرب من بئر «مروة» على قناة، وأطلق على تلك المجابهة اسم «البطيحة» أيضاً. تزامن مع هذه الحملة أن قام زعيم «العيينة» الجديد «مشاري بن إبراهيم بن معمر» ابن عم «عثمان» اللزم، بحملة أخرى كرر من خلالها الهجوم على «ثرمدا»، ورافقه في تلك الحملة «عبد العزيز» على رأس فرقة من الدرعية. ولكون سكان «ثرمدا» على علم سابق بتلك الغزوة، تمكنوا من جلب تعزيزات من «اثيثيه» ومن «مرات» المجاورين. وكان خطأهم أن خرجوا إلى العراء لقتال الوهابيين: ونفذ الكمين المعد لهم وحقق بعض النجاح الذي تجلى في إجبارهم على التقهقر إلى قريتهم. قام الغزاة في اللحظات الأخيرة وقبل العودة إلى ديارهم محملين بغنائم الحرب بسلب المزيد من خيرات القرية. وسقط في تلك المعركة «علي بن زامل» زعيم «العيينة» وعرفت تلك المعركة باسم «الوطية».

شن الوهابيون في نهاية العام أو في بداية عام ١٧٥١ هجوما آخراً على الرياض ومُنيوا بنكسة، علماً بأنهم تمكنوا من الوصول إلى منطقة «العودة» جنوب شرق الرياض لكنهم لقوا مقاومة عنيدة وصعبة تكبدوا فيها بعض القتلى وكان من بينهم «علي بن عيسى الدرع» وهو من أنساب آل سعود.

كان حديث الساعة في بداية عام ١٧٥١ هو ارتداد «ضرمة» عن الدعوة السلفية وكذلك ارتداد أحد الأفخاذ ذات النسب البعيد للأسرة المالكة. وكان ذلك الفخذ هو الفرع الأكبر الذي هاجر من «الدرعية» إلى «ضرمة» مع «عبد الرحمن بن إبراهيم» وهو الجد الثالث لـ «محمد بن سعود».

حدث في عام ١٦٨٤ أن قتل «محمد بن عبد الرحمن» على إثر مشكلات دينية بسيطة حدثت مع جيرانه، وأصبح على أحسن تقدير حفيدة «إبراهيم» (وليس ابنه كما ذكر ابن بشر)، حاملاً الراية مجابهة الحركة الوهابية، فقام بإعدام العديد من أشهر المؤيدين لتلك الحركة في منطقته بما فيهم «راشد العزازي» الذي تربطه عن طريق المصاهرة علاقة بفرع عائلة السيف التي أصبح في تلك الفترة بعض أفرادها يبحثون عن فرص للأخذ بالثأر. وبعد مضي بضعة أشهر فاجأوه في أحد الجوامع وذبحوه كما ذبحوا اثنين من أبنائه هم «هبدان» و«سلطان»، وعليه تم القضاء على هذا الفرع من الأسرة. وأثناء زيارة «عبد العزيز» إلى ضرما بينما كان في طريقه لغزو «الزلفي» أصدر أمراً بتعيين «عبد الله بن عبد الرحمن» (المريضي) أميراً جديداً عليها.

شهد شتاء عام ١٧٥١ عودة الخيرات بعد الجفاف والتلف الذي أصاب المحصول. وفي العام التالي قام «فيصل بن صويط» على رأس قوات متحالفة من «سدير» و«المنيخ» و «الزلفي» وأهالي «الوشم» بالهجوم على واحة «الرغبة» ودمروها دون هوادة، وشارك في ذلك الهجوم فريق كبير من «الظفير». ويقال: إن «فيصل بن الصويط» هو حفيد «سلمة» الذي سبق أن قلنا بأنه مات في عام ١٧٠١ علماً بأنه لا تتوافر أية معلومات عن الشخصية التي خلفته في الزعامة.

شهد العام نفسه موت الشيخ «محمد حياة السندي» الذي أشرنا إليه كواحد من الأساتذة الذين تتلمذ «محمد بن عبد الوهاب» على أيديهم خلال فترة إقامته المؤقتة في المدينة.

انحصرت الحملات العسكرية الوهابية خلال ذلك العام ضمن إطار ضيق، وتجلت في غارة بسيطة على الدلم وهي عاصمة الخرج، وانتهت باشتباك حدث ضمن قطاع العفجة(*) من وادي حنيفة. ذهبت محاولات أهالي الدلم في استرداد أغنامهم وإبلهم التي تم الاستيلاء عليها أدراج الرياح. وحدث هجوم صغير آخر على مخيمات البدو في «الدهيمان» لكنه ليس جدير بالاهتمام. لكن في وقت لاحق من ذلك العام أصبح لدى الوهابيين شيء مهم يستدعي أن يفكروا به، يبدو أن إجراءات التقشف بسبب التوزيع الجديد للمؤن قد أرهق «حريملاء» التي كان قاضيها آنذاك هو «سليمان» أخو الشيخ «محمد»، ولذلك انتفض الأهالي هناك ضد أميرهم «محمد بن عبد الله بن مبارك» وخلعوه وطردوه من بينهم وطلبوا من عمه «عدوان» وابنه «مبارك» كما طلبوا من أخيه «عثمان بن عبد الله» إضافة إلى كبار شخصيات البلد الرحيل معه والعيش كمنفيين في «الدرعية». وبعد فترة وجيزة اتخذوا قراراً غير حكيم وعادوا بناءً على دعوة وبموجب ضمانات وتطمين صدر عن أقاربهم من سلالة «آل حمد» في «حريملاء»، لكن سرعان ما جوبهوا بتحديات من قبل جماعة «الراشد» الذين انقضوا عليهم لسبب ما وقتلوا الأمير المخلوع «محمد» ومعه ثمانية من أتباعه. لكن «مبارك بن عدوان» نجا بحياته لتمكنه من الهرب إلى «الدرعية». وفي العام التالي انضم «مبارك» إلى «عبد العزيز بن محمد» في حملة تأديبية ضد أهالي «حريملاء». حدث خلال تلك الحملة قتال ضار وافقته أعمال سلب وتخريب للمحاصيل وواحات النخيل، دون أن يتحقق أي تقدم ملموس في إلحاق الهزيمة برجال القبائل المتمردين.

(*) تقع في منطقة الرياض بالقرب من وادي حنيفة.

قررت «منفوحة» في هذه المرحلة أن تنفصل عن التحالف الوهابي الديني وأن تعد العدة لمحاربته. وحدث في تلك الفترة أيضا أنه تم وبالقوة إحباط محاولة اللاجئين بالعودة إلى ديارهم وسط الظروف المتغيرة. أحبطت تلك المحاولة بالرغم من مساعدة أصدقائهم من «سدير» و«الوشم» والأقاليم الجنوبية. لم يتمكن الأمير على ما يبدو من إقناع الناس باعتناق الدعوة السلفية، وعلى العموم كان ذلك العام عام تراجع وتقهقر بالنسبة للدولة السعودية. تمخضت المشكلات التي كانت تعاني منها آنذاك جماعة «بني خالد» عن مولد شخصية بارزة على الساحة قدر لها على مدى السنوات التالية أن تكون شوكة في خاصرة الحكم الوهابي. فقد انتفضت جماعة «المهاشير» من القبيلة ضد «سليمان» الذي لجأ إلى «الخرج» طالباً النجاة. لكن «سليمان» مات هناك بعد فترة وجيزة من وصوله وخلفه في الزعامة «عريعر ين دجين» الذي احتفل بتسلمه السلطة بأن قتل «زعير بن عثمان» المنافس المحتمل له. و«زعير» هو الحفيد الثاني لـ «عريعر»، لكن فيما بعد ثار رجل ضده يدعي «حمادة» من جماعة «بني خالد» (ليس لسلالته ذكر في المصادر التاريخية). نجح حمادة في إجبار عريعر على النزوح عن المنطقة. لكن جماعة «حريملاء» شجعت عريعر على العودة. وفعلاً عاد «عريعر» وأجبر «حمادة» على الفرار باتجاه الشمال بدلاً من مجابهة حركة «عريعر» وأجبر «حمادة» على الفرار باتجاه الشمال بدلاً من مجابهة حركة كانت تتشكل وتختمر ضده. أصبح بإمكان عريعر الآن أن يعمل على تقوية مركزه. وفي تلك المرحلة قام أحد أبناء عمه ويدعى «عبد الله بن تركي» وهو ابن أخ سعدون الكبير بغزو «بني ظفير» في السبلة بالقرب من الزلفي،

وتمكن من دحرهم بسهولة وسلب كل أموالهم. والجدير بالذكر هنا أن «عريعر» هو ابن «دُجين» وعليه فهو يكون حفيد «سعدون».

بالرغم من فترة الراحة الطويلة من القتال ومن حقيقة أن الحركة التصحيحية كانت تمر بصعوبات جمة، إلا أن «دهام» بدأ يتعب من مقارعة الأحداث غير المواتية التي صمد أمامها حتى ذلك التاريخ، وفي نهاية عام ١٧٥٣ أو بداية العام التالي قرر أن ينضم إلى التحالف فأرسل رسولاً إلى «الدرعية» وحمله هدية فخمة تشتمل على الخيول والأسلحة كانت غايته منها أن يصل إلى هدفه وأن يؤكد لـ «محمد بن سعود» على ولائه له وللعقيدة الدينية التي أسهم في إنجاحها وازدهارها. هذا وطلب من «محمد بن سعود» أيضاً أن يرسل إلى الرياض مدرسي دين. واختار الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لهذا الغرض رجل يدعى «عيسى بن قاسم».

وهكذا دخلت الرياض في المجموعة الدينية وحل السلام لفترة من الزمن، وأثناء ذلك كانت «ضرما» تواجه موجة من المشكلات المتزايدة بسبب مقتل أربعة إخوة من عائلة «السياري» وهي فرع من سلالة «سيف بن إبراهيم» على أيدي الأمير الجديد «محمد بن عبد الله» (المريضي؟) الذي كان من المتزمتين الوهابيين وأحد أفراد أسرة «عبد الرحمن» المنتمية إلى الأسرة نفسها التي قضى أبناء عمومتهم من أسرة السيف على كل أفراد أسرتهم عندما ثاروا قبل بضع سنوات ضد الأمير «إبراهيم» وقتلوه مع اثنين من أبنائه. يبدو أنه لم يعد بالإمكان ضبط أبناء عم السيف بعد مأثرهم في قتل الأمير الحاكم، وأصبحوا يعربون جهراً عن معارضتهم للدعوة السلفية، بل أصبحوا يستبدون بالناس ويزدرون بالحكم القائم.

رفع الأمير هذا الوضع إلى السلطة في «الدرعية» وتدارس الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» مع الأمير «محمد بن سعود» هذه المسألة وقررا أن تطلق يد الأمير في هذه المسألة وأن يتصرف حال حدوث مشكلات جادة أو خطر حسب ما يراه مناسباً. وهكذا تشاور الأمير مع وجهاء البلد واتفقوا على اتخاذ إجراء يقطع دابر أعمال التحريض على الفتنة والعصيان بشكل نهائي. لكن حدث أن قام شخص من عائلة «الغفيلي» في شهر تشرين الثاني من العام نفسه، (كانت تربطه بطريقة ما علاقة مع عائلة «السيف»)، بمساعدة أمير «ثرمدا» المدعو «إبراهيم بن سليمان». هذا وقدم العون أيضا لجماعة «مرات» الذين كانوا يحاولون ضرب الدولة السعودية في «ضرما». شعر أمير «ضرما» بتلك الخطة فأرسل يطلب المساعدة من «الدرعية». ومن هناك انطلق منها «محمد بن سعود» لنجدته، وتزامن وصوله إلى »ضرمة» في الوقت الذي وصل فيه أصدقاء «الغفيلي» قادمين من الوشم. دار بين الطرفين اشتباك منيت جماعة «الغفيلي» على إثره بهزيمة نكراء وسقط منهم حوالي ستين رجلاً.

ركز «محمد بن سعود» في تلك الفترة اهتمامه على «حريملاء» وأرسل إليها في أوائل عام ١٧٥٥ «عبد العزيز» على رأس قوة من ٨٠٠ رجل. وصل «عبد العزيز» إلى هناك ليلاً وعسكر إلى الشرق من إحدى الواحات هناك ونشر قواته مشكلاً كمائن مزدوجة أشرف «عبد العزيز» بنفسه على كمين في شعب «عويجة» في حين كمن «مبارك بن عدوان» ومعه ٢٠٠ رجل في «الجزيع».

وفي الفجر زحفت القوة الرئيسية على المدينة التي خرج رجالها للقتال. فلم يكن انضمام الكمين الأول إلى المعركة كافياً لترجيح كفة المعركة، إلا أن قدوم الكمين الثاني الذي التف عليهم ليعزلهم عن المدينة شكل ثقلاً لم يكن بإمكان المدافعين الصمود أمامه، وتحول انسحابهم إلى حالة فوضى إذ سارع السكان إلى الاحتماء بأشجار النخيل وبأسوار الواحة، وسقط منهم أثناء سير المعركة حوالي مائة رجل. ولسبب ما توجه «عبد العزيز» إلى «الدرعية» تاركاً القادة المعاونين له يشرفون على سير القتال. وبعد مغادرته بقليل قام أحد هؤلاء القادة المساعدين وتمكنوا من دخول المدينة واحتلها بشكل فعلي. وعلى الفور رجع «عبد العزيز» ليشرف بنفسه على الوضع هناك وأعلن حماية وسلامة كل رجل ذا نوايا طيبة باستثناء أفراد جماعة الراشد لأنهم كانوا قد اقترفوا الجرائم وانتهكوا القانون المدني. سمح للوهابيين المنتصرين بسلب ونهب المنازل وواحات النخيل، وتم تعيين «مبارك بن عدوان» أميراً ليخلف ابن عمه المقتول، وتم استرداد «حريملاء» لنصرة الدعوة السلفية وحركتها في الرابع عشر من شهر آذار من عام ١٧٥٥. وفي ذروة الانتفاضة فر القاضي «سليمان بن عبد الوهاب» من ذلك المكان سيراً على الأقدام ووصل بسلام إلى «سدير».

وفي الرياض سرعان ما كان «دهام» قلقاً من السلام. كما تعب من مشكلات الحرب، وفي ذلك العام بادر بجولة ثانية من القتال ضد «الدرعية»، وساعده هذه المرة «محمد بن عبد الله بن فارس» الذي كان في وقتها أميراً على منطقة «منفوحة»، كما ساعده أيضاً «إبراهيم بن سليمان» زعيم «ثرمدا» الذي جمع حوله كل الساخطين على النظام من مناطق الوشم

وسدير وثادق وحريملاء . كما جمع حوله كل الأعداء الرئيسيين للدولة الناشئة، وكان أول أهداف هذا التحالف هو استرداد «حريملاء» من الحكم السعودي . ومن أجل تحقيق هذه الغاية تجمعت القوات التي تحت إمرتهم في قرية «الحسيان» وهو مصدر ماء في المنافذ العليا لوادي «حريملاء» . شن «مبارك بن عدوان» بما لديه من قوات جاهزة في تلك اللحظة هجوماً مضاداً واستمر في مناوشتهم إلى أن وصلت التعزيزات من «الدرعية» . وعند رؤية هذه التعزيزات انهارت قوات المتحالفين وأصيبوا بالذعر واختبأ بعض منهم في بيوت القرية ومكث بعضهم فيها لمدة خمسة أيام استطاع بعضهم خلال تلك الأيام الهرب تحت جنح الظلام في حين لاقى البعض الآخر حتفه . كان زعيم «ثادق» والمدعو «ساري بن يحيى» من بين الذين تمكنوا من الهرب . بلغت خسائر المتحالفين في هذه المعركة والتي أطلق عليها اسم «معركة الدار» ستون قتيلاً، ويقال إنها حدثت إما في شهر آب أو في شهر أيلول من عام ١٧٥٥ .

كان العام التالي عاماً هادئاً نسبياً باستثناء هجوم بسيط قام به «عبد العزيز» على «منفوحة» أما الحدث الآخر فكان قدوم وفد من قرية «القويعية» في مرتفعات «العارض» لزيارة أمير الدرعية والشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، وهناك أعربوا عن ولائهم لسلطة الدرعية .

شهد ذلك العام أمطار خير ومحاصيل وافرة ومراع خصبة لعبت جميعها دوراً في خفض عدد الغزوات والحروب، لكن شتاء عام ١٧٥٦ / ١٧٥٧ شهد معاودة الهجمات والغزوات، والتي بدأت بمعركة «سد الرشا» الذي

كان يحول مياه الفيضانات من وادي حنيفة إلى واحات النخيل في «منفوحة». وكان ذلك السد هدفاً استراتيجياً لـ «عبد العزيز» وعليه قام باحتلال بعض المنازل في حزام النخيل وشرع في تدمير السد الذي كان مبني من حجارة كبيرة مدعمة بمعاقل وحصون مستديرة الشكل بين مسافات محددة. وبينما كان منصب على هذا العمل قام «دهام» قادماً من الرياض بهجوم عليه ونشب قتال شرس مات فيه عشرة من الوهابيين وثلاثة من خصومهم.

قامت الآن جماعة من الوشم بزيادة زمام المنافسة. اشتملت منطقة الوشم على العاصمة «شقراء» التي كانت المركز الوحيد لثقل الدعوة السلفية. وكانت تلك الجماعة أول جماعة في «نجد» (طبعاً باستثناء الدرعية والعيينة) على المبادئ الجديدة. ولأن المناطق الأخرى الأقل عدداً من حيث السكان كانت معادية جداً للدولة السعودية فقد طلبت إمدادات ومساعدات من «سدير» و«منيخ» ليتمكنوا بها من غزو «شقراء». أسفر هجوم قام به فريق من «منيخ» عن صدام كانت نتائجه بشكل إجمالي لصالح المدافعين الذين غنموا بعض الخيول والجمال من أعدائهم. وفي هذه المرحلة خرج «عبد العزيز» من الدرعية ليشارك في النزاع، وفي الجولة الجديدة من القتال حقق رجال الدرعية الذين خرجوا - كالعادة - من مكانهم نتيجة حاسماً، وتراجع المتحالفون إلى «القراين» التي تبعد بضعة أميال عن العاصمة، وبلغت خسائرهم في ذلك الاشتباك سبعة عشر قتيلاً من بينهم وجهاء من منطقة «سدير». وبعد أن صد «عبد العزيز» الخطر عن «شقراء» عاد إلى الدرعية وبينما هو في الطريق هاجمه فريق من بدو «سبيع» بالقرب من آبار «الحسي» الواقعة على ممر الحيسية المؤدي إلى سهول «طويق». تمكن «عبد

العزيز» من هزيمة البدو وأسر زعيمهم «ابن فايز المليحي» الذي حرر نفسه بدفع فدية بلغت ٥٠٠ قطعة ذهبية.

في هذه المرحلة هاجم «عبد العزيز» الرياض، إذ قام تحت جنح الظلام بنصب كمين خارج البوابة الغربية، ولهذا السبب حظي ذلك الهجوم باسم «باب القبلي» وكانت تلك المعركة وإلى حد كبير مثل سابقاتها، إذ منيت جماعة الرياض ببعض الخسائر بسبب ذلك الكمين. في تلك الأثناء كان أمير ضرما «محمد بن عبد الله» في طريقه لمهاجمة الوشم، إلا أنه تعرض لهجوم شنه عليه فريق مغير من «صمدا» و«الظفير». لم يستطع أمير «ضرما» أن يصمد لفترة طويلة وسرعان ما هرب. تابع عبد العزيز طريقه بالتقدم نحو الوشم، وهاجم قرية «أشيقر» ومن هناك اتجه نحو «ثادق» التي حاصرها لبضعة أيام والحق خسائر كبيرة في المناطق المحيطة بها، وبعد وقوع بعض الإصابات في صفوف كلا الطرفين وكان «محمد بن دغيثر» من المصابين من جانب الجيش السعودي، سعى الناس من أجل السلام معلنين عن استعدادهم لقبول الدعوة السلفية وقبول سلطة «ابن سعود». عُيِّن في تلك الفترة «دخيل بن عبد الله بن سويلم» (وهو ابن عم أول شخص استقبل «محمد بن عبد الوهاب» في الدرعية) أميراً على «ثادق» وعُيِّن شخص آخر من العائلة نفسها في منصب القاضي ويدعى «حمد بن سويلم».

توجه «عبد العزيز» إلى «سدير» لمهاجمة مدينة «جلاجل» الهامة، وتركز القتال حول مناطق «العميري» إلى الشمال من المدينة، وبعدها تابع المسير نحو «الروضة». وهناك استدعى قضاة تلك المنطقة وقضاة الحوطة والداخلية، وطلب منهم أن يرافقوه إلى الدرعية، ولعله أراد من ذلك أن

يطلعوا الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عن الأمور الدينية والمادية المتهمين بها. وعرج في طريق عودته على «العودة» وأخذ اثنين من كبار رجالها كرهائن وهما «عثمان بن سعدون» و «منصور بن حمد» ليضمن بهما حياة «عبد الله بن سلطان» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب الأمير هناك. وبعد إقامة قصيرة في الدرعية سمح لهذين الاثنين بالعودة إلى ديرتهم بعد أن تعهدا بأن يكون سلوكهما طيباً. لكن بعد أن وصلا إلى «العودة» سرعان ما أقدما على قتل الأمير وشخصيتين كبيرتين هناك. اغتصب «عثمان بن سعدون» الإمارة، وعلى الفور أعلن عن رفضه للدعوة السلفية، وعلى أي حال يبدو أنه ضبط سلطته على المدينة واستمر في حكمها لعشر سنوات إلى أن قام أحد الأشخاص باغتياله.

أما في منطقة «الروضة» التي تصنف إلى جانب منطقة «جلاجل» كمنطقة رئيسية من مناطق «سدير»، فتم خلع الأمير «فوزان» (ابن جاسر؟) ابن ماضي الذي كان قد خلف عمه «محمد» بعد اغتياله في عام ١٧٤٥، كما نفي الأمير «فوزان» ليخلفه أخوه «عمير بن جاسر».

وفي فصل شتاء عام ١٧٥٧/ ١٧٥٨ كان الأمير «عبد العزيز» تواقاً إلى القتال، وكانت «ثرمدا» هدفه للمرة الثانية. وعليه أمضى تلك الليلة في نصب كمينه المعتاد في منطقة وادي جمال وتمكن من الدخول إلى واحة النخيل عن طريق فتح ثغرة في الجدار. رابطت قوته الرئيسية في تلك الواحة بانتظار الفجر لتشن الهجوم. لكن سمع أحد حرس المدينة أصواتاً غير عادية وهرع ليخبر الأمير «إبراهيم بن سليمان». على الفور قدر الأمير وأعد خطته وفقاً لذلك بانتظار الفجر، ووزع قواته إلى فريقين: أرسل فريقاً ليراقب

مخرج واحة النخيل في حين أرسل الفريق الثاني ليهاجم الكمين في داخل الواحة. ونشب القتال وقتل الأمير وابنه في تلك المعركة الضارية التي حارب فيها الطرفان بشكل مميت، لكن الوهابيين منوا أيضا بخسائر جسيمة، إذ قتل منهم ثلاثون رجلاً مقابل ثمانية رجال من فريق المدافعين. بعد تلك الواقعة سار «عبد العزيز» باتجاه مقاطعة «سدير» ودخل بلدتي «الحوطة» و«الجنوبية» دون معارضة من أهلهما، وكانت الرياض هدفه التالي فهاجمها خلال شهر رمضان وسقطت في يده في شهر آيار من عام ١٧٥٨. دارت معركة الاستيلاء على الرياض في واحة يطلق عليه اسم «أم العصافير»، وكان «تركي بن دواس» وهو أخو «دهام»، كما كان عدد من الشخصيات الرئيسية في الرياض من بين المصابين. تبع ذلك معركة «البنية» الثانية. وفي طريق عردته إلى الدرعية أصدر «عبد العزيز» أوامره ببناء قلعة «الغزوانة» في وادي حنيفة غرب الرياض لتكون نقطة انقضاض على الحملات المزعجة التي تستهدف البلدة وضواحيها. وتم إنجاز القلعة في سبعة أيام فقط لكن لم تشأ الأقدار لـ «محمد بن سعود» أن يساهم بسقوط «دهام» خلال السنوات السبع التي تبقت من عمره.

كانت المشكلات تستعر في «حريملاء» وكان الأمير الجديد «مبارك بن عدوان» قد بدأ في إعطاء نفسه قدراً أكبر من حجمه وبدأ يستخف بالوهابيين من بين رعيته، وسبب شكاوى هؤلاء الوهابيون خشية لدى أمير الدرعية من احتمال انشقاق تلك المنطقة عن الحكم أو الشريعة الجديدة. سبق لـ «مبارك» كما أشرنا أن رافق «عبد العزيز» في حملته ضد الرياض، وفي طريق عودة الحملة إلى الدرعية اقترح الشيخ «محمد» وجوب أن يبقى «مبارك» في

الدرعية ضيفاً عليها دون إجحاف بحقه في ممتلكاته في «حريملاء». اقترح «محمد» أيضاً أنه يجب أن يحل محله ابن عمه «حمد بن ناصر بن عدوان». وباعتبار أنه لم يكن لديه أي خيار سوى أن يطيع ما كان في الواقع أمراً فعمد إلى التظاهر بأنه قبل الدعوة طوعاً، ولم يلق أية معارضة لطلبه في زيارة شقيقته في العيينة التي كانت متزوجة من «حمد الطويل». وفعلاً ذهب إلى هناك ونادى بأعلى صوته مع قرع الطبل في الأسواق بأنه صاحب الحق في الإمارة، وسرعان ما التف حوله مؤيدوه الأوائل.

أغلق «حسن بن عبد الله بن عيدان» ونيابة عن الأمير الجديد المسؤول عن الحامية بوابة البلدة الرئيسية في وجه «مبارك» وجماعته، وخوفاً من أن يقوم «عبد العزيز» بتثبيت دعائم النظام والأمن هناك، فرَّ «مبارك» وكبار أتباعه إلى «الرغبة». ألقى أمير المنطقة القبض على واحد من أتباع «مبارك» ويدعى «علي الجريسيي» وقام بإعدامه، إلا أن «مبارك» تمكن من الهرب عن طريق قرية «الصفراء» وتوجه إلى «المجمعة» التي وافق حاكمها «حمد بن عثمان» وزعماء الحمرة من عائلة مدلج على دعمه ومساعدته. وعلى الفور انضم إلى صفوف المتمردين كلاً من «إبراهيم السليمان» أمير «ثرمدا» وكل قرى «الوشم» باستثناء «شقراء». يبدو أن حادثة «الرغبة» سبقت الهجوم على «ثرمدا» الذي حدث في شهر حزيران من عام ١٧٥٨. حيث تجمعت في ذلك التاريخ قوات التحالف المشتركة للتزود بالماء من «الفقير» القريبة من «رغبة»، وليراقبوا أيضاً التطورات وليعدوا خطة حملتهم. إلا أن أخبار وصول «عبد العزيز» على رأس قوة كبيرة إلى «حريملاء» حدت من حماستهم وعليه توجهوا إلى القسم الرئيسي من «رغبة» والمعروف بـ

«الجوى»، وهناك حاصروا «علي الجريسي» في القلعة الرئيسية وقتلوا واحداً من زعماء العرينات ويدعى «راضي بن مهنا بن عبيكة»، وقطعوا عدداً من أشجار النخيل. في تلك الأثناء كان معظم الناس متواجدين في الطرف الثاني من البلدة والذي يطلق عليه اسم «الحزم» ولذلك لم يفعلوا أي شيء لنجدة أميرهم المحتجز في القلعة. وعلى أي حال انسحب المهاجمون المرابطون حول القلعة لدى سماعهم بأن «عبد العزيز» كان قادماً على رأس قوته وهربوا تاركين جماعتهم في «الحزم» لمواجهة الزعيم السعودي الذي دمر المنازل وقدم واحات النخيل هناك إلى «الجريسي» كمكافأة على إخلاصه.

شهد خريف عام ١٧٥٨ وكذلك شتاء ذلك العام تحد جاد للحكم السعودي. تزعم ذلك التحدي زعيم الأحساء «عريعر بن دجينٍ» ووقف إلى جانبه رجال قبائل «بني خالد» ووجدوا أنصاراً لهم في العديد من مناطق «نجد» وبالتحديد في «الوشم» و«الرياض» إضافة إلى جماعة أخرى من «سدير» و«الخرج» وأماكن أخرى. تمركز «عريعر» بقواته المخيفة في «الجبيلة» بوادي حنيفة، وأسفر ذلك عن مصادمات وجد المعتدون أنفسهم مضطرين فيها إلى الانسحاب، وسارع سكان «ثادق» و«المحمل» بعد أن كانوا قد انضموا إلى القوات المعادية بعقد صلح مع الدرعية ووافقوا على أن يدفعوا تعويضاً يكفر عن عدم ولائهم، كما وافقوا على تجديد البيعة للحكم السعودي. وعليه أرسل رجل من الدرعية يدعى «ساري بن يحيى بن عبد الله ابن سلويم» ليحكم تلك المناطق وليضمن طاعتها وولائها للسلطة المركزية. وفي تلك الأثناء قام «عبد العزيز» بمهاجمة القرية المجاورة

«القصب» وأخضعها لحكمه تماماً وفرض على أناسها دفع فدية مقدارها ٣٠٠ قطعة ذهبية.

وفي عام ١٧٥٩ سار بقواته إلى منطقة الخرج ليؤدبها بسبب الدور الذي لعبته في تلك الحركة، وانقض على «الدلم» و«نعجان» وأنزل بهم بعض الإصابات وسلب العديد من أملاكهم. وفي طريق عودته إلى الدرعية وجد «عبد العزيز» نفسه يحارب «ثرمدا» وأسفر ذلك عن نتائج مماثلة للقتال مع «الدلم» و«نعجان». وبعدها هاجم أيضا «أشيقر» حيث كرر أسلوب نصب الكمائن ونجح فيه للغاية. انتهت حملات ذلك الموسم بالنجاح التام الذي تجلى في أن قام «عبد العزيز» بهجوم آخر على الخرج وعلى الدلم ونعجان وصادر منها عدداً من الجمال وأوقع بين سكانها خسائر كبيرة. وفي خطوة لممارسة السلطة الفعلية على العينية قرر الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» والأمير «محمد بن عبد العزيز» أن يخلعا «مشاري بن معمر» من منصب الإمارة وأن يعيّنا مكانه «سلطان بن محسن المعمري». وعليه توجه الشيخ بنفسه إلى العيينة ليشرف على تدمير قلعة العائلة. وكان ذلك مجرد عمل قصد به الرمز إلى اندماج أملاك وأطيان «العيينة» مع أملاك الدرعية، إن أسلوب الأمير الجديد علاوة على حقيقة أن اسمه لم يكن يدل بأنه في الواقع واحد من أفراد أسرة «المعمر» ليبرهن احتمال أنه كان واحداً من الأتباع أو حتى الخدم.

كان «عبد العزيز» في تلك الفترة نشطاً في حملاته وغزواته، فهاجم «منفوحة»، وغزا العسكر وهي جزء من «ظفير» في «الثرمانية» بالقرب من «رغبة»، وأغار على الوشم وهناك واجهته جماعة صغيرة من محاربي

«ثرمدا» ولكن هذه الجماعة فرت أمام قواته الفائقة العدد ولجأت إلى قرية في «الحريق» بالقرب من «القصب»، وطاردهم عبد العزيز وطلب منهم الاستسلام إلا أن القرويين البواسل هناك رفضوا أن يسلموا ضيوفهم وفضلوا أن ينقذوهم من أيدي السعوديين بدفع فدية بلغت ١٥٠٠ قطعة ذهبية .

إن موسم الغزو والحملات لعام ١٧٦٠/ ١٧٦١ دفع بـ «عبد العزيز» في كافة الاتجاهات، فكانت الحملة الأولى نحو «سدير» حيث جابه جماعة من «الروضة» اشتبك معها لفترة قصيرة وبشكل شرس دون تحقيق أية نتائج سياسية تذكر .

وبعد ذلك شن حملة على «الرياض» أصيب فيها «فهد» أحد أبناء «دواس» بجراح مميتة، وتبع ذلك غارة على «منفوحة» وغزو لبدو «سبيع» عند تجمع مياه «حفر العتش» وهناك استولى على ٨٠٠٠ جمل وعلى عدد كبير من الأملاك، وانتهى موسم الغزو ذلك بحملة ضد «الرياض» أسفرت عن خسائر وإصابات بين صفوف كلا الطرفين دون نتائج إضافية تذكر .

حدث في عام ١٧٦١ أن سقط «مبارك بن عدوان» الحاكم السابق لـ «حريملاء» ضحية لمرض الشلل . وشهد فصل خريف ذلك العام استئناف النشاطات العسكرية الاعتيادية التي كان يقوم بها الأمير «عبد العزيز» . شن «عبد العزيز» في ذلك اليوم على «منفوحة»، كما هاجم «نعجان» في الخرج والحق خسائر بها وأوقع بعض الإصابات في صفوف المدافعين . وتقريباً بعد ذلك مباشرة توجه إلى «الوشم» وهاجم «مرات» و«الفرع» فكانت النتيجة أن قرر أهالي الفرع أن ينضموا إلى الحركة الوهابية، وعليه أرسلوا بموافقة

أميرهم «منصور بن حمد بن إبراهيم بن حسين» مندوباً عنهم إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى الأمير «محمد» لمبايعته وأداء قسم الولاء للسلطة هناك. وكبرهان عملي على ولائهم أعلنوا الحرب على قرية «أشيقر» المجاورة، واستمرت الحرب بشكل متواصل لمدة سبع سنوات إلى أن تمكن الأمير «منصور» من الاستيلاء على أبراج الخصم الواقعة في الأطراف الجنوبية من الواحة والمتاخمة للجهة العليا من الفرع. وهكذا انتهت «أشيقر» بأن خضعت بشكل تام للحكم السعودي بعد نضال عنيف بلغ في مجمله عشرون عاماً.

استأنف «عبد العزيز» هجماته ضد «الرياض»، وتمكن في تلك الهجمات من قتل ثمانية من حراس ناحية «مقرن» وأصاب «شعلان بن دواس» وهو أحد أحفاد «دهام» بجراح. وبعدها التفت إلى «الوشم» وهاجم «أشيقر» مناصراً بذلك أهل «الفرعة» الذين بنوا - بالاتفاق مع أهلي «أشيقر» الموالين للدولة السعودية - حصناً أطلقوا عليه اسم «حليلة» ليحمي ظهورهم وبالتالي يكون نقطة تهديد للأعداء. كانت أمطار وفيضانات عام ١٧٦١/ ١٧٦٢ جيدة بشكل استثنائي وانتعشت كافة مناطق البلاد، إلا أن ثمة مرض عرف باسم «الدمغة» أو حمى الواحات الذي يصيب الدماغ انتشر في البلاد. أودى المرض بحياة العديد من الناس بمن فيهم شخصيات دينية هامة كما زاد غزو الجراد من متاعب الناس إذ خسروا كميات كبيرة من محاصيلهم الزراعية.

افتتح «عبد العزيز» موسم غزوات عام ١٧٦٢/ ١٦٧٣ بغارتين على «الرياض» لكن لم تكن نتائجهما أفضل من نتائج الغزوات السابقة. وبعدها التفت إلى مناطق «الأحساء» وهناك أقام معسكره في جوار «المطيرفي» ليقوم

بسلسلة من الهجمات في عدة اتجاهات. وتمكن كنتيجة لتلك الغزوات من جني الكثير من الغنائم ومخلفاً في صفوف الأعداء إصابات بلغت نسبياً حوالي سبعين إصابة. وبعد هجوم غير مثمر على بلدة «المبرز» توجه إلى «الدرعية» وفي الطريق إلى هناك مر بقافلة كبيرة بالقرب من منطقة «أرمة» محملة بمواد تموينية جلبتها من الشاطئ لأهالي الرياض وحرمه. استولى «عبد العزيز» على كافة البضائع المخصصة للرياض، إلا أنه ترك بضائع أهالي حرمه بسبب المعاهدة التي عقدوها مع سلطة الدرعية. في تلك المرحلة تخلت قرية «اثيثية» في منطقة «الوشم» عن ولائها للحكم السعودي وهاجمت معتنقي الدعوة السلفية في المناطق المجاورة. لكن على ما يبدو كان «عبد العزيز» مشغولاً بغارة شنها على أهالي «سبيع» بالقرب من «سيح الدبل»، ولم يستطع أن يتخذ إجراءً من شأنه أن يعيد المتمردين إلى جادة الصواب. ولعل ثمة حدث آخر هام جداً استحوذ على كل اهتمام الدعية ولم يجعلهم يهتمون بهذه القضية البسيطة نسبياً، وكان ذلك الحدث هو استسلام «دهام بن دواس» الذي على ما يبدو تعب من القتال الطويل، إذ أرسل وفداً مفاوضاً إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وإلى «محمد بن عبدالعزيز» وأرسل معهم كفارة لدفع الأذى والضرر بلغت ٢٠٠٠ قطعة ذهبية، وطلب السماح له بالدخول في ظل الدعوة السعودية ودعوتها السلفية، ووعد بأن يحترم قادة ذلك التحالف وأن يطيعهم.

نادراً ما يتوقف المؤرخون من نجد ليدونوا في سجلاتهم التاريخية هذا التطور أو هذا الحدث المذهل، كما أنهم لا يعقبوا عليه. ويبدو أنهم أكثر اهتماماً بنتائج واحدة من الحملات الوهابية التي كانت بالكاد متواترة وهي

حملة قام بها «عبد العزيز» ضد «جلاجل» البلدة الرئيسية في «سدير». دارت في تلك البلدة المناوشات الاعتيادية التي كانت تسفر عن إصابات وخسائر في المزارع، وعلى إثرها قرر زعيم «جلاجل» أن يستسلم للدولة الناشئة، وحذا بذلك حذوه العديد من المناطق والقرى في «سدير». وعندما كان «عبد العزيز» ماراً بـ «رغبة» في طريقه إلى الدرعية، وصلته أخبار مفادها أن جماعة «العجمان» كانت قد اعتدت على تجمع صغير لبدو «سبيع» إلى الغرب من نطاق طويق، فتابع «عبد العزيز» أثرهم ولحق بهم في سهل «حدبة القذلة» الواقع بين مرتفعات «أرشة» ونفوذ «سدير». وبالرغم من أنهم تفرقوا قبل أن يحتدم معهم في القتال، إلا أنه استطاع أن يقتل منهم سبعين رجلاً وأن يأسر حوالي مائة، واستولى أيضاً على حوالي أربعين فرساً من خيولهم.

كان فصل شتاء عام ١٧٦٤/ ١٧٦٥ موسماً حافلاً بالأعمال التي توجب على «عبد العزيز» - الذي لم يعرف التعب - أن يقوم بها. بدأت تلك الأعمال بغارة على منطقة «السعيد» وهي من مناطق «ظفير»، إذ رافقه في تلك الحملة الموجهة ضد «حمد المديهم» زعيم منطقة «السعيد» فرقة من الرياض بقيادة «دواس بن دهام».

هاجم «عبد العزيز» البدو في منطقة «حرب» وألحق بهم هزيمة منكرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً واستولى على كافة ممتلكاتهم، لكن توجب عليه في شهر تشرين أول من عام ١٧٦٤ أن يتعامل مع تطورات أكثر جدية، والتي نجمت وبشكل مباشر عن الانتصار الذي حققه على «عجمان» في «حدبة القذلة» في الربيع الماضي. حدث أن فر من نجا من تلك المعركة إلى «نجران» وهناك

تمكنوا بسهولة من إقناع القبائل المتوحشة من الانضمام إليهم لشن هجوم مضاد على الوهابيين والعمل على فك أسر رجال قبائلهم المسجونين لدى الوهابيين. كان زعيم «نجران» في ذلك الوقت رجل يدعى «حسان بن وهبةالله» الذي شملت سلطته قبائل «الوعيلا» و«اليام». حشد حسان من رجال تلك القبائل عدداً ضخماً من المحاربين وسار بهم للهجوم على «الدرعية»، وعند وصولهم قرية وواحة «حائر السبيع» في وادي حنيفة عملوا على محاصرة القرويين هناك. لكن في تلك الأثناء وصلتهم أخبار تقدم «عبدالعزيز» على رأس قوة كبيرة من مؤيديه وأنصاره، وعلى الفور انتشر النجرانيون لملاقاة العدو واحتدمت المعركة المستميتة وأسفرت عن هزيمة وإرباك وضرر لحقت جميعها بقوات «عبد العزيز» الذي هرب عاجزاً عن ضبط النفس. أنزل النجرانيون في صفوف «عبد العزيز» إصابات بالغة، وقتلوا من قوات عبدالعزيز حوالي ٥٠٠ رجل وأسروا العديد منهم. ويقال بأن الدرعية لوحدها وبموجب قائمة الموتى فقدت سبعة وسبعين رجلاً في حين مات من «منفوحة» سبعين رجلاً ومن الرياض خمسين. ومن بين الجماعات الأخرى التي تكبدت خسائر في الأرواح كانت جماعة «عرقة» حيث قتل منها ثلاثة وعشرون رجلاً، وجماعة «العيينة» وقتل منها ثمانية وعشرين، وجماعة «حريملاء» ستة عشر، وجماعة »ضرما» أربعة. وقتل من جماعة «ثادق» رجل واحد. ووقعت بقية الإصابات بين قوات البدو، وبلغ العدد الإجمالي للأسرى ٢٢٠ أسيراً.

وعندما وقف «عبد العزيز» ومن نجا من أهالي الدرعية أمام الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» لينقلوا له خبر الكارثة، هدأ الشيخ من نفسه بأن قرأ الآية التالية من القرآن: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلّون إذا كنتم مؤمنين﴾.

على أي حال توج ذلك التحدي للدعوة التصحيحية بالنصر وتحقق على أيدي شرذمة محتقرين ومنبوذين من «نجران» و «الأحساء» وكان بمثابة ضربة لمؤسسة الدعوة السلفية. جللت ظلال المأساة آخر أيام «محمد بن سعود» بالسواد، إذ بلغ به الكبر آنذاك نهاية مطاف أعماله المشرفة. إن ردة فعل السعوديين حيال هذا الوضع الخطر كانت مفاجئة للجميع، فبدلاً من أن يشمروا عن سواعدهم وينتقموا للهزيمة المؤلمة التي لحقت بهم، قرروا أن يتفاوضوا مع المنتصرين للتوصل إلى تسوية. فقد تطورت الأحداث ووصل النجرانيون إلى المناطق المجاورة للرياض في طريقهم إلى عاصمة الدولة السعودية.

استدعى الشيخ «محمد بن عبد الرهاب» زعيم الظفير «فيصل بن سهيل» ليقوم بدور الوسيط. وأسفرت المفاوضات التي جرت في واحة «المهاتة» الجميلة والتي كان «حسان بن هبة الله» ضارباً خيامه فيها عن تسوية اتفق فيها الطرفان على أساس تبادل كافة الأسرى، ويقال إن التسوية شملت أيضاً دفع تعويضات معينة. وعلى إثر تلك التسوية قام زعيم «نجران» بحل خيام معسكره وأقفر عائداً إلى دياره ناسياً على ما يبدو «عريعر» أمير جماعة «بني خالد» الذي كان قد اتفق معه على أن يوحدا قواتهما ويشنان هجوماً مدبراً على العاصمة السعودية. وعلى أي حال انتهت الحرب قبل أن يستعد «عريعر» للمشاركة بها. وبالرغم من أنه كان من غير المجدي الآن أن يستمر في قراره للهجوم على العاصمة السعودية دون حليفه القادم من منطقة الجنوب، إلا أنه ما لبث أن تقدم على رأس قوة كبيرة إلى منطقة مجاورة للدرعية وأطلق عليها النيران والقذائف التي سقطت بين واحات النخيل أثناء حدوث مناوشات كانت تتم على فترات متقطعة استمرت على مدى إقامته المؤقتة والتي بلغت ثلاثة أسابيع. غادر «عريعر» بعد ذلك راجعاً إلى

الأحساء مخلفاً وراءه حوالي أربعين قتيلاً من رجاله، في حين بلغت الخسائر والإصابات في صفوف أهالي الدرعية إلى اثني عشر إصابة.

وهكذا انتهت آخر حرب من حروب «محمد بن سعود» الذي وُوري جثمانه الثرى (في صيف عام ١٧٦٥) بعد عمر طويل مشرف في مقبرة الدرعية التي احتوت على قبور آبائه وأجداده.

عرفه شعبه بورعه وإنسانيته أكثر مما عرفه ببسالته وشجاعته، وفي الواقع كان آخر عهده في الحملات القتالية تلك الحملة التي شنها ضد الرياض في عام ١٧٥٠. وبعدها ترك قيادة القوات ليتولاها في بادئ الأمر أمير العيينة «عثمان ومشاري» وبعدها آلت حصراً لابنه ووريثه «عبد العزيز».

حظي «محمد بن سعود» مرتين باستسلام ألد أعدائه أمير الرياض «دهام» ومات وهو على يقين بأنه تمت تسوية أكبر مشكلات عصره بشكل نهائي، فلم يقم «دهام» وللمرة الثانية في طرح نية الدرعية عن عاتقه بشكل نهائي إلا بعد وفاته.

كانت مشكلة «نجران» الضربة القوية التي حدثت له في حياته. ربما كان الملك الطاعن في السن قد شعر بالقلق على مستقبل مملكته، علماً بأن الهزائم اللاحقة التي تعرضت لها جماعة «بني خالد» طمأنته على صحة وعافية القوة العسكرية الداعمة لقضيته، يعود الفضل في بزوغ الحركة التصحيحية إلى جهوده، كما يعود الفضل للقضية نفسها في اكتسابه واكتساب من خلفه من القادة لأوسمة الشهرة والشرف. ويمكن القول هنا وبكل صدق أنه لولا «محمد بن سعود» لما شهدت الدولة السعودية ودعوتها السلفية أيامها المجيدة. كان «محمد بن سعود» الشخصية التي مهدت الطريق أمام إحياء الدين الإسلامي.

الفصل الثالث

عبد العزيز بن سعود الأول

صفحة بيضاء

عبد العزيز بن سعود الأول

بعد وفاة والده لم تكن المسؤوليات الإدارية والعسكرية جديدة على إمام الدرعية الجديد الذي وقع على عاتقه كامل مسؤولية الحكم. برز «عبدالعزيز» أول ما برز كجندي شارك في حملتين ضد حاكم الرياض «دهام بن دواس» تمت بقيادة أمير العيينة ووالد زوجته «عثمان بن حمد بن معمر» عام ١٧٤٨. وولد في هذا العام نفسه أكبر أبنائه «سعود» الذي ترعرع ليصبح خليفته في الحكم. وفي عام ١٧٤٦ قاد أخوه «عبد الله بن محمد» قوة توجه بها لمساعدة «منفوحة» التي كانت قد تعرضت لهجوم وحوصرت من قبل «دهام» الذي تراجع بعد أن جرح مرتين وأصيب فرسه بضربة قاتلة. كانت تلك أول مجابهة بين الدرعية والرياض منذ فجر الحركة الوهابية في العام المنصرم. كانت تلك بداية حروب متعادلة ومتكافئة حدثت بين المنطقتين في نهاية فترة تولي «عبد العزيز» الحكم في الدرعية عام ١٧٦٥.

وبالمناسبة، وكما أشرنا سابقاً، تجدر الإشارة إلى أن العلاقة بينه وبين والد زوجته مرت بفترة برود إيان الحملة الثالثة ضد «ثرمدا» عام ١٧٤٨، والتي تم إجراء الهجوم عليها (بالرغم من احتجاج عبد العزيز) وسط ظروف تشير إلى تواطؤ أو فتور في قضية تبناها «عثمان» بمحض إرادته قبل عامين، وقد تبلورت هذه الشكوك عام ١٨٥٠ عندما تم اغتيال «عثمان» في أحد مساجد «العيينة» بعد صلاة الجمعة على يد رجال مقربين إليه وموثوق بهم.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح «عبد العزيز» مشغولاً بنشاطات عسكرية متواصلة موجهة نحو هدف أو آخر، علماً بأن معظمها كان موجه ضد حاكم

الرياض، ولم تمض فترة قصيرة حتي تنازل «محمد» الملك الطاعن في السن عن قيادة القوات السعودية لابنه «عبد العزيز».

نشد «دهام» ولأكثر من مرة السلام من السعوديين الذين كادت هجماتهم أن تجهز عليه. وحدث أيضا أن خرق «دهام» ولأكثر من مرة شروط أكثر من هدنة حصل عليها بسبب موافقته الرمزية على السلطة السعودية. وها هي الظروف مواتية تماماً لاختياره العام الذي تسلم فيه «عبد العزيز» السلطة ليزيح عن كاهله مجدداً نير الدرعية ويستأنف القتال والهجمات ضد «منفوحة» وبالتعاون مع «زيد بن زامل» حاكم «الدلم والخرج». هاجم «عبدالعزيز» الرياض وأحرز موطئ قدم في بعض أبراجها قبل أن يجبر على التراجع بفعل هجوم معاكس. في تلك الأثناء كان «عبد الله بن محمد» يشن هجوماً على حلفاء «دهام» من قبيلة «الصبي» وأحرز عليهم بعض التفوق، وأثناء ذلك الهجوم أيضاً أرسل «عبد العزيز» حملة ثانية لتعزيز الضغط على الرياض، إلا أنه تم إبعادها عن الرياض ومطاردتها بسهولة.

وهكذا تعاقب النزاع الذي رافقته حملات مزعجة تمت بين الحين والآخر تخلل ذلك النزاع غزوات من الدرعية ضد حلفاء «دهام» من البدو المقيمين في صحراء «العرمة» أو في واحة «حاير السبيع» في أطراف «منفوحة» عند نهاية وادي حنيفة.

وفي ربيع عام ١٧٧١ تمت مهاجمة قبيلة «سبيع» وحوصروا في بلدة «الحاير» واستمر الحصار إلى أن استسلموا وأقسموا يمين الولاء لزعيم الدرعية. ولم يكن لذلك الترتيب أن يستمر وسط الوضع السياسي السائد آنذاك، فتفاقمت المشكلات وبلغت ذروتها في خريف العام نفسه عندما

وصل «عبد العزيز» إلى بلدة «عرقة» وهو في طريقه لشن هجوم آخر ضد الرياض عقب هجمة قصيرة صغيرة، أخبره بعض عسسه عن قدوم «دهام» على رأس قوة من الفرسان والجمال لتهاجم القرية. وعندما شاهد «دهام قوة الدرعية سارع إلى التراجع، فطارده «عبد العزيز» في العديد من مناطق الصحراء، وتمت مطاردة اثنين من أبناء «دهام» وهما «دواس» و «سعدون» وألقي القبض عليهما وذبحا كما ذبح معهما في جوار بئر «فوارة» عدد كبير من أتباعها. وكان ذلك الحدث ضربة عنيفة لكبرياء وشهامة «دهام». وعندما أراد «عبد العزيز» اختبار قوته في أواخر ربيع عام ١٧٧٣ تمكن من الوصول من جديد إلى «عرقة. وهناك وصلت إليه أخبار هروب عدوه من الرياض. وعلى الفور واصل المسير ليصل إلى المدينة في عصر ذلك اليوم وليجدها عملياً خالية من سكانها.

تمكن «دهام بن دواس» من الهرب آخذاً معه نساءه وأولاده وحاشيته، لأنه أجرى ترتيباته سراً تحت جنح الظلام ولم يخبر أحداً بنواياه إلا بعد أن أصبح جاهزاً للرحيل، عندها قال: آه يا أهل الرياض، ها أنا أقاتل كل هذه السنوات ضد «ابن سعود» والآن قد تعبت من القتال وتخليت عنها لصالحه... من أراد أن يتبقى فليفعل ذلك، ومن لا يريد فليبقى في مكانه. تبعه معظم الناس ومنهم من خاف وهرب إلى الخرج تحت أشعة الشمس الحارقة ووسط حر صيف الصحراء الملتهب باعتبار أن ذلك حدث في منتصف حزيران، ولذا مات العديد منهم بسبب الجوع أو العطش.

دخل «عبد العزيز» المدينة المهجورة وأغلق جميع أبواب منازل المدينة خوفاً من سرقة محتوياتها، وأرسل قواته إلى مطاردة الفارين فنكلت بهم.

وعليه انتهى القتال الذي دام لمدة عشرين عاماً سقط خلالها حسب القائمة التقديرية حوالي ٤٠٠٠ رجل من كلا الطرفين، وكان منهم حوالي ٢٣٠٠ رجل من أتباع «دهام»، وظهر مثل شاع في «نجد» وعلى مدى سنوات عديدة لاحقة مفاده أنه عندما يقوم شخص بعمل أحمق تتم مقارنته مع هرول «دهام» من الرياض. لكن لا يستطيع المرء أن يقاوم الإحساس بأن «دهام» كان رجلاً ذو طابع بطولي، إذ كان مصراً مثيراً وبثبات على القتال من أجل حرية العرب، كما كان منافسوه من الدرعية مصرين على فرض شريعة الله لتحل محل ممارساتهم الوثنية. خاض «دهام» قضية خاسرة لكن الانهيار المفاجئ لمواقفه الدفاعية جاء بالدرجة الأولى إلى موت ولديه في كارثة مفاجئة وقعت في العام المنصرم، ولا بد أن يكون ذلك الحدث قد أتى على عقل رجل مسن أنهكته مشكلات ظهرت على مدى سنوات عمره. كان قد مضى على وجود «عبد العزيز» في السلطة عند وقوع ذلك الحدث حوالي ثماني سنوات، وهي مدة كانت أطول بقليل من مدة أقرانه من الزعماء في مناطق العرب.

وبغض النظر عن انشغاله المتواصل بقضية «دهام»، لم تشهد تلك السنوات سوى أحداث طفيفة لا تذكر: فتمت مهاجمة «ثرمدا» عام ١٧٦٦، لكن معركة «الصحن» حققت انتصاراً لم تدم أهميته لفترة طويلة. وشهدت السنوات اللاحقة سلسلة من الغزوات البسيطة كان أبرزها الحملة التي أعدت ضد واحة «العودة» في «سدير»، والتي قادها ابن أخ الإمام ويدعى «هذلول بن فيصل»، الذي كان والده قد قتل في معركة حدثت ضد «دهام» عام ١٧٤٧. ورافقه في تلك الحملة «سعود» الابن الأكبر لـ

«عبدالعزيز» الذي كان قد بلغ من العمر آنذاك تسعة عشر عاماً وكانت تلك أول تجربة له في حملة عسكرية من ذلك القبيل. وكان مع الحملة أيضاً بعض المبعدين من «العودة» والذين ينتمون إلى الأسرة الحاكمة للبلدة سابقاً، وكانوا يسعون إلى ترجيح أو استعادة زعامة قائدهم «منصور بن عبد الله بن حمد». تمكنت تلك الحملة وبسهولة من إلحاق الهزيمة بالمغتصب للسلطة، وتم ذبحه وعاد «منصور» حسب الأصول المرعية زعيماً للواحة.

حدث في هذا العام أيضاً أن انضمت أقاليم «الوشم وسدير» إلى سلطة الدولة السعودية، وأدوا يمين الولاء إلى «عبد العزيز» وإلى الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» الذي كان في ذلك الوقت (في الواقع منذ بداية حركته) قد أخذ وضعية لا يمكن تمييزها عن وضعية شريكه في الحكم، ويقال - وبالتحديد - إن «عبد العزيز» لم يتخذ أي إجراء دون مشاورة الشيخ «محمد بن عبدالوهاب». على أي حال ومع انضمام هاتين المنطقتين وتحالف «العيينة» و«منفوحة» تمكنت الحركة الوهابية من تحقيق تقدم ملحوظ في طريق التوسع الذي أوصل الحركة على مدى ثلاثة العقود اللاحقة إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه أحلام الأمير وأحلام الشيخ اللذان تظافرت جهودهما لإيجادها، وبالنسبة لهذه المرحلة فقد كان الهاجس الرئيسي للكيان السعودي هو التغلب على آثار المجاعة القاسية التي عرّفها التاريخ المحلي باسم «السقى» جفت خلال تلك المجاعة الآبار وارتفعت فيها تكلفة العيش، وأودى الجوع والمرض بحياة العديد من الأشخاص، في حين اضطر عددا آخر للهجرة من «نجد» والتوجه إلى «البصرة والزبير والكويت». وبعد فترة الجفاف هطل مطر غزير إلا أن أسراب الجراد حالت دون بذر حبوب الدخن ومحاصيل العلف المتعادة الناس عليها في مواسم الصيف.

مر «سعود» عام ١٧٦٨ بأول تجربة له في قيادة حملتين بشكل مستقل، سارت الأمور على ما يرام مع الحملة الأولى التي توجهت للنيل من الزلفي الواقعة في الحاضرة الحيوية من «القصيم»، في حين كان بداية الحملة الثانية (المعدة ضد منطقة «المرة» في الرمال الجنوبية) جيدة، إلا أنها انتهت بتراجع قوات «سعود» بسبب تعزيزات البدو التي وصلت لنجدة أصدقائهم. وهناك تعرضت قوات «سعود» لبعض الخسائر والإصابات، ومات في تلك الواقعة «ناصر بن عثمان بن معمر» الذي على ما يبدو كان من الممكن له أن يخلف «سلطان بن محسن المعمري» كزعيم على «العيينة» قبل بضع سنوات، ولا تتوافر لدينا معلومات موثّقة عن ذلك التغيير المحتمل.

على إثر هذه النكسة أرسل «سعود» للتدخل في المشكلات المحلية بالقصيم، وجاء ذلك الإجراء بناءً على طلب من «حمود الدريبي» حاكم «بريدة» الذي كان على عداء مع أهل «عنيزة» وحدثت معركة خارج إحدى بوابات «عنيزة» لم تسفر عن أية نتيجة معينة، لكن تكبد الفريقان بعض الخسائر، علماً بأن عبد الله بن حمد بن زامل (الذي كان حاكم البلدة آنذاك) كان من بين القتلى. وفي العام التالي وإثر الحملات التي قادها «عبد العزيز» شخصياً ضد «المجمعة» و «الهلالية» غرب عنيزة أعرب سكان «عنيزة» عن إذعانهم للحكم السعودي، لكن هذه الخطوة لم توقف استمرار المؤامرات المحلية فقد تمت الإطاحة بأمير بريدة «راشد الدريبي» وبعد عام طردته عائلة آل عليان من البلدة. كان «عبد العزيز» في تلك الفترة مشغولاً بغزو قام به وراء حدود الصحراء العربية بالمعنى الضيق للكلمة، واضعاً نصب عينيه «الظفير والمحمرة» التي يقطنها البدو على الحدود العراقية كهدف له. وفي

الطرف الآخر من الصحراء العربية كان «عبد العزيز» يجري مراسلات مع شريف مكة «أحمد بن سعيد» وبناءً على طلب هذا الأخير أرسل «عبدالعزيز» واحداً من كبار المشايخ ويدعى «عبد العزيز بن عبد الله بن حسين» ليشرح له مبادئ الدعوة السلفية. وفي الوقت الذي وصل فيه هذا الشيخ إلى هناك كان قد حصل تغيير في قيادة مكة، فقام أفراد من أسرة «أحمد» نفسه بالإطاحة بشريف مكة وعينوا مكانه ابن أخيه «سرور بن مساعد»، ولعله من غير المهم مناقشة تفاصيل هذا اللقاء الذي على ما يبدو أسفر عن إعلان صدر عن مشايخ مكة يدل على كامل رضاهم لعرض الشيخ لمبادئ الدعوة السلفية وهي مبادئ أسمى من النقد أو الاعتراض.

لم يكن «عبد العزيز» ليرتاح من عناء نضاله الطويل ضد «دهام» حتى برز أمامه خطر جديد وأفدح من خطر «دهام» جاء ذلك الخطر من جهة الشرق ومن المرجح أن يكون مصدر ذلك الخطر هو توغله غير المسوغ أو المبرر نحو الحدود العراقية. وخلال ربيع عام ١٧٧٤ سار «عريعر بن دجين» أمير الأحساء ورئيس قبيلة «بني خالد» بقواته نحو «القصيم» لمهاجمة «بريدة». تمكن «عريعر» من الاستيلاء عليها بعد حصار قصير ونهبها قبل أن ينسحب منها باتجاه وادي الرّمة متوجهاً نحو «الخيبة والنبقية» المجاورتين. وهناك قدمت إليه وفود مشجعة من عدة مناطق في «نجد» والتي على ما يبدو انبهرت باستيلائه السريع على «بريدة» كما انبهرت بضخامة وعدد قواته. وكان «عريعر بن دجين» يعد العدة لشن حملة ضد «الدرعية» والمناطق المجاورة لها، لكنه أصيب بمرض مفاجئ وداهمته المنية في شهر آيار، أي بعد شهر على انسحابه من «بريدة»، وخلفه في الحكم ابنه الأكبر «بطين» الذي كان عاجزاً عن ضبط القوات والسير بها من أجل تحقيق أهداف والده الراحل.

هذا، وبالرغم من الهبات السخية التي كان «عريعر» يوزعها من الأموال المخصصة للحملات، إلا أنه اضطر للرحيل إلى الأحساء. وهناك قام أخواه «دُجين وسعدون» بشنقه حتى الموت. خلفه «دُجين» في الحكم لكنه توفي بعد ذلك بفترة وجيزة، ويقال إنه مات مسموماً بسم دسه له أخوه «سعدون» الذي أصبح أخيراً أميراً على الأحساء وزعيماً للقبيلة.

في تلك الأثناء استمر «سعود بن عبد العزيز» في غزواته، وكانت أولاً باتجاه «الخرج» بعد ذلك ضد «الزلفي» لكن دون تحقيق نتائج مؤثرة، بالرغم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تنتشر في كلا الاتجاهين. أرسل أهالي «الحريق» وأهالي «عام» وأهالي منطقة «المجمعة» وفوداً لتعلن عن ولائهم للنظام الحديد، لكن لم يصدر عن «الخرج» أية تصرفات تجعلها تسير باتجاه ذلك التحالف، إلا أنه بعد الزيارة التفقدية الثانية التي قام بها «عبد العزيز» عام ١٧٧٥ تآمر «زيد بن زامل» زعيم «الدلم» مع زعيم «وادي الدواسر» المدعو «هويل» من الوداعين إضافة إلى زعماء آخرين من المناطق الجنوبية على أن يطلبوا المساعدة من قبائل «نجران» لدرء وصد اعتداء سلطة «الدرعية» عليهم. ولتحقيق هذه الغاية جمعوا مبالغ طائلة من المال ليوزعوها على زعماء القبائل المعنيين. وفي الوقت المناسب تحولوا إلى جيش جرار مؤلف من سكان الواحات ومن قبائل «يام» وساروا إلى «العارض». انضمت إليهم فيما بعد قوات من «الدواسر والخرج» ووصل المتحالفون إلى «حاير السبيع» وهناك عاثوا فساداً في واحات النخيل وقتلوا حوالي أربعين من المدافعين عنها وواصلوا سيرهم نحو «ضرما» وهناك وبين واحات النخيل جُوبهوا بمقاومة عنيدة ومنوا بخسائر جسيمة وأجبروا أخيراً على

الخروج منها بالقوة. في تلك الأثناء قرر المتحالفون التخلي عن حملتهم والعودة إلى ديارهم. وفي الوقت نفسه اضطر «زيد بن مشاري بن زامل» الذي ترك عرضة للهجوم، لعقد صلح مع «الدرعية» والدخول في التحالف مع السلطة الدرعية. كان «سعود» في تلك الأثناء مشغولاً في حملة استهدفت «بريدة»، تمكن من إجبارها على الاستسلام وفرض «عبد الله بن حسن» من «العيينة» أميراً جديداً عليها. من الممكن أن يكون هذا الأمير الجديد قد حل محل «راشد الدريبي» الذي سبق وأن طرد من البلدة، لكن يبدو أنه عاد وتسلم زمام الأمور بعد فترة وجيزة من ذلك.

في أوائل ١٧٧٦ قام أهالي الأحساء الأصليون، وفي مقدمتهم مواطنون من الهفوف، بمحاولة غير ناجحة استهدفت التخلص من سطوة «بني خالد» وزعيمهم «سعدون». وفي الوقت نفسه تعاظمت قوة الحركة الوهابية بانضمام «الزلفي ومنيخ المجمعة» إليها، علماً بأن زعيم «الدلم» ندم على تصرفه السابق وأقدم على ذبح أحد الشخصيات الحماسية المؤيدة للدولة السعودية. اتخذ «عبد العزيز» إجراءً فورياً لضبط الوضع هناك، الأمر الذي حدى بـ «زيد» إلى الهروب وأعفي عنه فيما بعد لاستسلامه وخضوعه للدرعية، لكنه لم ينصب على الإمارة التي أعطيت إلى «سليمان بن عفيصان». في هذه الفترة أعربت بلدة «اليمامة» المجاورة عن خضوعها وإذعانها للدولة السعودية، علماً بأن زعمائهم كانوا على اتصالات مع عناصر ساخطة متمردة في «الدلم» كانت تعمل على تحدي الحركة التصحيحية. كان «زيد بن زامل» زعيم ذلك العصيان المسلح الذي أجبر «ابن عفيصان» على الخروج من «الدلم» آخذاً معه أفضل الحاميات المخلصة

له. استعاد «زيد» الإمارة ورتب مع «حسن الدلم» زعيم «اليمامة»، وخطط للقيام بثورة عارمة في الإقليم وتم ذلك الترتيب أثناء غياب «عبد العزيز» لغزو «المرة» مجدداً. وفي الوقت الذي تجمع فيه البدو لصد الغزاة، كان «عبد العزيز» قد استولى على عدد كبير من جمالهم التي كانت في المرعى. تمكن البدو من إجبار قوات الدولة السعودية على التقهقر إلى مضايق «عقبة الضيقة» في مرتفعات «محيرك الصفا» وهناك أنزلوا بها خسائر فادحة في الرجال والجمال، وكان بين القتلى أمير بريدة «عبد الله بن حسن العليان» الذي لم يمضي على تعيينه في ذلك المنصب إلا فترة وجيزة.

توجب على «عبد العزيز» في تلك الفترة أن يتعامل مع مشكلة الخرج، وعليه أرسل «سعود» إلى ذلك الإقليم لاستكشاف أوّليّ ولتحري الوضع في منطقة اليمامة. وهناك تصادم «سعود» مع الجماعات المسلحة المحلية التي كانت عائدة من حملة استكشاف أو من غزو. احتدم بين الطرفين في منطقة يقال لها «مجرى السهبا» قتال شرس وانسحب الفريقان كل إلى ديرته بشكل يحفظ ماء وجهيهما. أرسل «عبد العزيز» منادياً ينادي بضرورة جمع كل جنده للقيام بمحاولة جادة لتسوية مشكلة الخرج بشكل نهائي. وعندما أصبحت الحملة جاهزة للبدء في مهمتها احتج أمير حرمه «عثمان المدلجي» لدى الإمام وقال بأن إمارته بحاجة إلى تُلقّن درساً مفيداً أكثر من حاجة الخرج إلى ذلك الدرس، ذلك لأن أهالي منطقته كانوا قد خرجوا عن طوعه وبدأوا يهزأون بشكل علني بمبادئ الدين الإسلامي، ولم يعد في وضع يمكنه من ممارسة صلاحياته كحاكم في تلك المنطقة. ناشد عثمان السلطات في الدرعية على أن يرسلوا فرقة قوية على الفور للتعامل مع الوضع في

«حرمة» وطلب أن تساق بعض الرهائن إلى «الدرعية» لضمان حسن سلوك البلدة مستقبلاً. استجاب «عبد العزيز» لمناشدته وأرسل أخاه «عبد الله بن محمد» ليعالج المشكلة هناك.

قاد عبد الله جيشه عن طريق ممر «الحيسية» وسهول «الحمادة» ليعطي بذلك انطباعا بأنه كان متوجهاً إلى «القصيم» ومن ثمّ أقفل راجعاً عن طريق أخدود «الغاط» باتجاه السهل ووصل إلى نقطة الهدف تحت جنح الظلام ليقوم بالتوزيع الضروري لقواته داخل وخارج البلدة استعداداً للهجوم في وقت الفجر.

كان الناس في تلك الأثناء ينعمون بنوم هادئ إلى أن عكرت الطلقات التي أطلقت بوقت واحد من قبل كل رجل يحمل سلاح صفو أحلامهم. ولم تكن هناك على ما يبدو أية إمكانية للمقاومة، كما لم يكن هناك مجال للهروب لذا هرع الناس إلى «عبد الله» ليستفسروا عن سبب تلك الأحداث، فطمأنهم بأنه لا داعي للخوف وقال بأن أميرهم اشتكى للإمام عن سلوكهم غير المتدين وعن تصرفاتهم الثورية ضده. لذلك كان من الضروري أن يزور البلدة وأن يدعو أربعة من قادتهم للتوجه إلى «الدرعية» كرهائن لضمان حسن تصرف الأهالي مستقبلاً، وأضاف أنه إذا قبل الأربعة بما فيهم «عثمان» القدوم معه بهدوء فستسير الأمور على ما يرام وستنصرف الحملة. وتم تركيب كل شيء بهدوء دون حدوث أية إصابات، وأدى الأهالي مجدداً قسم الولاء للحكم السعودي، ورافق «عبد الله» أربعة أشخاص متوقع منهم أن يعكروا صفو الأمن، وتوجهوا إلى «الدرعية» ليبقوا هناك كضيوف على الإمام. استأنف الإمام عملياته ضد «الخرج»

وأوكلها هذه المرة لـ «عبد الله بن محمد» الذي لم يقم سوى بمناوشات مبهمة حول منطقة «الدلم».

قبل أن تعود إلى «حرمه» أعمال التحريض على الفتنة والعصيان خطط زعمائها مع «حمد بن عثمان التويجري» أمير «المجمعة» لاغتيال أميرهم «عثمان بن عبد الله» واعتقال أصدقائه المتدينين من «المجمعة» الذين اعتادوا أن يزوروه للتباحث في أمور الدين. كما خططوا لأخذهم كرهائن ليوازوا بهم كفة زعمائهم الأربعة المحتجزين كرهائن في «الدرعية». سار الجزء الأول من الخطة بشكل حسن، ووصل المتدينون كعادتهم وجلسوا في قاعة الاستقبال، وأرسل وراء «عثمان» الذي كان في أحد واحات النخيل التابعة له. وفي طريقه إلى البيت كمن له أخوه «خضير» وقتله وقام ابن عم لهم يدعى «عثمان بن إبراهيم» باعتقال الضيوف المتدينين وربط أيديهم وأرجلهم وأغلق عليهم أبواب قاعة الاستقبال. إلا أن الجزء الثاني من الخطة والذي يشتمل على احتلال «المجمعة» بالتواطئ مع أميرها، فشل بسبب حادثة تميزت بالفضول وقعت عندما وصلت القوة المرسلة من «حرمه» إلى «المجمعة». فقد حدث بالصدفة أن كان قائد الحركة واقفاً خارج بوابة قلعته ومعه عدد من اتباع الدولة السعودية المحترمين الذي استشعروا عند رؤية الرجال المسلحين يتجهون نحوهم رائحة مكيدة ما، فسارعوا بالدخول إلى القلعة ومعهم الأمير وأوصدوا الأبواب. وفي هذه الظروف، لم يكن بإمكان الأمير أن يخدع نفسه ويستجيب لنداء أصدقائه في الخارج، فسارع الأهالي في تلك الأثناء إلى اتخاذ مواقعهم، وعاد الغزاة أصحاب الخطة إلى ديارهم فاشلين.

توجه ابن الأمير على عجل إلى «الدرعية» لينقل الأخبار، وجاء «سعود» على جناح السرعة ليعالج الوضع هناك. وبعد بضعة أيام من الحصار والقتال المتقطع استسلمت «حرمه» ووافقت على تسليم سجناء «المجمعة». ومما يستدعي الدهشة أن «سعود» وعد بأن إطلاق سراح رهائن «حرمه» المحتجزين في «الدرعية». وعندما أرسل في طلب أمراء «المجمعة» و«جلاجل» الذين كانوا عملياً أناس بسطاء ناهيك عن أنه كانت هناك شكوك قوية حول مشاركتهم في خطة مصممة لتنفذ أكثر بكثير مما تم تنفيذه. ويمكن أن يكون ذلك الإقليم على حالة أفضل بكثير لو تم استبعادهم، وفعلاً تم إقصاء الأميرين عن ديرتهما ومعهم أسرهم ومؤنهم وأبعدا إلى «القصيم وشقراء» على التوالي. وفيما بعد وجدوا أيضاً أنه من الأفضل نقل «سويّد» أمير «جلاجل» المخلوع إلى منطقة أكثر أمناً في «الدرعية».

عُين «ناصر بن إبراهيم» (أخو أحد قاتلي «عثمان») أميرا على «حرمه» ووضع إقليم «سدير» برمته، وكذلك إقليم «منيح» بما فيها المجمعة وحرمة «عبد الله بن جلاجل» الذي كان من أقرباء «السويّد» وجُعلت «جلاجل» مقراً للقيادة.

وهكذا عاد «سعود» إلى ديرته وأصبح «عبد العزيز» مجدداً متفرغاً في معالجة الوضع في «الخرج»، وعليه سار إلى «الدلم» في الوقت الذي كان فيه «زيد بن زامل» في «اليمامة». باشر «عبد العزيز» بالهجوم بشكل مندفع وحدثت اشتباكات خارج البلدة نفسها، وسارع «زيد» على عجل بجمع قوة لنجدة إخوته أبناء البلدة وكونه وجد الطريق إلى البلدة مسدوداً بسبب المعارك، ألقى بقواته في هجوم على معسكر الوهابيين الذي صادف أن كان «عبد العزيز» بنفسه موجوداً فيه ومعه المؤونة والجمال الخاصة بالحملة. قاوم

«عبد العزيز» الهجوم بضراوة وخسر المدافعون حوالي عشرين رجلاً إضافة إلى عدد من الجمال وذلك قبل أن تدرك القوة الرئيسية في البلدة ما كان يحدث في مؤخرتها. أوقف الغزو على البلدة في الحال وأخلت القوات البلدة لتتوجه لنجدة المعسكر. استغل «زيد» الهدوء الذي سبق العاصفة ودخل البلدة، وسحب «عبد العزيز» أثناء ذلك قواته إلى واحة «نعجان» المجاورة. حيث الحق بها خسائر قبل أن يعود مرة أخرى منتصراً إلى الدرعية.

وفي ربيع عام ١٧٧٨ قدم «سعدون بن عريعر» أمير الأحساء إلى الخرج ليتفاوض مع «زيد بن زامل» وحلفائه من أجل التوصل إلى التحالف ضد الحكم الوهابي. ولسبب ما لم تشرحه المصادر التاريخية قرر أن يتوصل إلى تفاهم مع «عبد العزيز» الذي سرعان ما وافق على اقتراح للتوصل إلى معاهدة سلام.

لم يعقد في الواقع أي لقاء فعلي بين الزعيمين المتنافسين، إلا أن «سعدون» مر في منطقة «بنبان»(*) وهو في طريقه إلى مناطق مياه «مليدة»(**) الواقعة بالقرب من «مجزل». وسواء كان ذلك نقضاً لمعاهدة السلام أم لم يكن، بدا «سعدون» متوتراً حيال احتمال قيام «الدرعية» بهجوم ما عليه، وقرر على عجل العودة إلى الأحساء بالرغم من قيظ شمس الصحراء في شهري حزيران وتموز. وفعلاً أودى ذلك الحر بحياة العديد من ماشيته من الغنم والجمال. وفي بداية العام التالي ١٧٧٩ حدث تآمر بين أهالي «حرمه والزلفي» استهدف الترتيب لهجوم على «المجمعة» التي أصبحت في تلك المرحلة تحت سلطة الدولة السعودية وتضم حامية من

(*) من قرى الرياض، وفيه إمارة تبيعها موارد للبادية من إمارات.

(**) مليداء واحة بالقصيم وبها جرت معركة مشهورة بين الملك عبدالعزيز وبين محمد ابن الرشي سنة ١٣٠٨هـ.

قـواتهـا. قـام أهـالي «حـرمـه» بالخطوة الأولى واحـتلوا الأبراج المطلة على واحات أشجار النخيل الشاسعة حول البلدة. وهبت الزلفي بكامل قوتها لمساعدتهم، وبعدها وصل «سعدون» إلى الموقع على رأس جيش مروّع.

في حين تمركز أهالي المجمعة في بلدتهم وقلعتهم لمقاومة الحصار، جال المهاجمون وصالوا في واحات النخيل، وقطعوا الأشجار وتركوا جمالهم وماشيتهم ترعى في محاصيل الأهالي. كان أمل الأهالي الوحيد هو وصول النجدة من الدرعية، لكن سرعان ما تضاءل ذلك الأمل ووصل إلى حد إرسال رسالة إلى «سعدون» يقترحون عليه عقد هدنة من أجل إجراء مفاوضات تتعلق باستسلامهم، في تلك الأثناء علم الأهالي بأن «حسن بن مشاري بن سعود» كان على رأس قوة من الدرعية في منطقة «جلاجل» التي كانت في ذلك الوقت عاصمة الإقليم، وكان يعد العدة لإنقاذ المجمعة. أرسلت قوة صغيرة لكنها مشكلة من رجال أشداء في محاولة لاختراق خطوط العدو والدخول إلى القلعة تحت جنح الظلام، ويبدو أن تلك القوة تمكنت من التسلل دون أن يشعر بها أحد، وأسدلوا الحبال من أسطحة القلعة لتساعد جماعتهم على الدخول. فقد الأعداء المحاصرين للبلدة شجاعتهم، وكان أول من تخلى عن الاستمرار في تلك الخطة بدو «بني خالد»، إذ ضجروا وسأموا من الجلوس الذي حرم جمالهم من مراعيها الطبيعية، كما أن جماعة «الزلفي» قررت أيضاً الرحيل إلى ديرتها تاركين «حرمة» وحيدة في القتال ضد جارتها.

كان «عبد العزيز» قد أرسل أخاه «عبد الله» لإنقاذها، وبعد فترة قصيرة انضم إليه «سعود» على رأس قوة كبيرة لمحاصرة «حرمة»، ودارت رحى

الحرب ضد المعتدين الذين تعرضوا للهجوم المتواصل بشكل يومي إلى أن أجبروا على التراجع إلى قلعتهم وتمت محاصرتهم. وعندما نشدوا السلام أمر «سعود» بإقصاء وإبعاد كل من أثبت أنه شارك في زعزعة الأمن، وأصر أيضاً على نقل كل محاصيل واحات النخيل إلى خزانة الدرعية. كما أمر عبد العزيز ابنه سعوداً بهدم أسوار حرمه وتدمير تحصيناتها للقضاء على محاولات زعزعة الأمن في المستقبل.

ومباشرة بعد هذه الفترة، شن السعوديون حملتين لمعاقبة وتأديب «الزلفي» على الدور الذي قامت به في تلك الأحداث. قاد الحملة الأولى الأمير «سعود» وقاد الحملة الثانية الأمير «عبد الله بن محمد»، وفي كلتا الحملتين حدثت اشتباكات لم تسفر عن نتائج قيمة. وفي طريق عودته إلى الدرعية وبالتحديد في منطقة «رغبة»، سمح «عبدالله» لقواته من «سدير» و «الوشم» أن يذهبوا إلى منازلهم للراحة. وعندما وصلت باقي القوات إلى ابار «حفر العتش» هاجمها «سعدون بن عريعر» على رأس قوة كبيرة من «بني خالد» وأنزل بالقوات السعودية المنهكة خسائر كبيرة وإصابات في الأفراد، وجرح في تلك الاشتباكات قائدي فصيلي «الوشم وسدير» اللذان لم يذهبا في إجازة، بل بقيا مع «عبد الله» لزيارة الإمام «محمد بن عبد الوهاب». ويبدو أن «عبد الله» كان من بين القلائل الذين تمكنوا من الهرب، واستمر «سعدون» في طريقه لغزو جزء من مناطق «سبيع» إلا أنه وجد أن فصيلاً من «ضرما» كان مخيماً في نفس مشارب المياه، ودارت معركة مُنيت فيها قوات «سعدون» بالهزيمة ووقع أحد شيوخ الأمير «سعدون بن خالد» في أيدي رجال «ضرما» الذين لم يطلقوا سراحه إلا بفدية بلغت

٣٠٠٠ قطعة ذهبية .

وبعدها شنت قبائل السبيع غارة على جماعة «الظفير» التي كانت معسكرة في منطقة «صفوان» على الحدود العراقية، واستولوا على ٤٠٠٠ من جمالهم، وسارت فصائل من الدرعية مرة ثانية لغزو «الخرج» وتوغلوا فيها إلى أن وصلوا إلى «الحوطة» وقاموا بجولة من المناوشات الغير مجدية . وفي تلك الأثناء كانت فصائل من القوات السعودية تهاجم مناطق الزلفي، التي خضع أهلها أخيراً للحكم السعودي الذي على ما يبدو أصبح مستقراً وراسخاً امتداداً من القصيم في الشمال حتى الخرج في الجنوب، ومن الدهناء شرقاً إلى عتيبة وحرب غرباً . ولم تكن تلك المناطق خاضعة كلياً إلى أشراف مكة بل كانت القبائل تحكم نفسها بنفسها .

كان تأرجح بعض الوحدات السعودية بين التمسك بالمبادئ الجديدة والارتداد عنها على مدى تلك السنوات تجسيداً للروح السائدة في ذلك العصر سواءً ذلك في المناطق المستقرة أو في مناطق البدو . فكانت طبيعة العربي الكارهة والنافرة لأي نمط من أنماط الانضباط تواجه وبشكل مضطرد تحد من قبل الحركة الدينية الوهابية التي ارتكزت على مبادئ يخضع فيها الفرد وحقوقه خضوعاً كاملاً لمصلحة السلطة . فقبل الناس هذه المبادئ على نطاق واسع إلا أنهم كانوا يخلون بها أكثر مما كانوا يمارسونها أو يتعقدون بها .

لم يكن لأي شخص أن يدرك هذه الحقيقة أكثر مما أدركها «محمد بن عبدالوهاب»؛ ومنذ بدء دعوته أدرك الحاجة إلى قوة فعالة تستطيع أن تجعل كلمة الله سائدة ومسيطرة على عادات مجتمع شبه وثني في تلك الصحراء العربية . ويمكن الضعف الرئيسي في الحركة الوهابية في حقيقة أن البدو

الذين كانوا دائماً على استعداد للمشاركة في الغزوات التي تحقق عائدات جيدة من الغنائم، لم يدركوا معنى الجانب الروحي لهذه الحركة، في حين كانت المنافسات المحلية في القرى والبلدان العامل الحاسم في موضوع الاختيار بين الالتزام بالمبادئ الجديدة أو رفضها وعدم الالتزام بها. لا يمكن للمرء في خضم التطورات السياسية لتلك الفترة أن يستشعر أخوة الرجل الصالح التي أصبحت فيما بعد المرتكز الأساسي لحركة الإخوان التي شهدها القرن العشرين.

كان عام ١٧٨١ عام قلق وعدم استقرار امتدت من إقليم فرعي في الجنوب إلى مضارب القبائل على الحدود العراقية. ومرة ثانية أصبحت «الخرج» الهاجس الرئيسي لحاكم الدرعية، التي توسعت في الغزوات حتى وصلت إلى مناطق «الحوطة» و «الحريق». وبعد أن انتهى من الهجوم على «الدلم» التف «سعود» إلى جهة الشرق وهناك بنى قلعة «البدع» بالقرب من «السلمية» ووضع بداخلها حامية من الجند تحت إمرة «محمد بن غشيان»، لمراقبة نشاطات زعيم اليمامة «حسن بن راشد» في منطقة «البجادي». وعلى أي حال مات هذا الزعيم في ذلك العام، كما قتل أخوه في المناوشات التي دارت حول البلدة.

ناشد أهالي الدلم «سعدون بن عريعر» لمساعدتهم في القضاء على هذا الموقع الخطر المتقدم للقوة السعودية، لكن القوة السعودية تمكنت وبسهولة من صد موقع «البدع. «سعدون» يبحث عن مراع جديدة في مناطق الشمال، وبعد أن قام «عبد العزيز» شخصياً بغزو «الحوطة» وجني ثمار الاشتباكات المتقطعة، التفت مجدداً إلى «الدلم» ليكيل لها بنفس المكيال من الضربات والهزائم.

تحول مركز الجذب الآن إلى الشمال حيث هاجم «سعدون» وحلفاؤه من جماعة عنزة (مجموعة حبلان) «الدهامشة» الذين كان يتزعمهم «مجلد بن فواز» وتمكنوا من دحرهم. خرجت في تلك الأثناء قبيلة «الظفير» بكل قوتها تحارب مختلف تجمعات القبائل التي ضربت خيامها في منطقة «مليدة» المجاورة، وانطلق «سعود» من موقعه لمواجهتهم لكن عظم تعداد قواتهم جعل «سعود» يحجم عن مداهمتهم بشكل مباشر، وتراجع إلى منطقة «تمير» بانتظار وصول التعزيزات التي طلبها. وبعد وصول التعزيزات تقدم بقواته نحو «الظفير» وألحق بذلك التجمع هزيمة نكراء، واستولى على كل محتويات معسكرهم وعلى أعداد كبيرة من ماشيتهم التي كان من بينها ١٧٠٠٠ رأس غنم وخمسة آلاف جمل وخمسة عشر فرساً.

كان قدر الانتفاضة في منطقة «القصيم» يغلي على نار هادئة، ومع بداية عام ١٧٨٢ كان أهالي تلك المنطقة مستعدين لانتفاضة جماعية ضد زعماء الدرعية في عقر ديارهم، وهناك لقي عدد من الشخصيات البارزة من القادة القادة السعوديين في المنطقة مصرعهم، ومن بينهم «منصور» و«ثنيان» من عائلة «أبا الخيل». طلب الثائرون من «سعدون بن عريعر» المساعدة، فما كان منه إلا أن قدم على رأس قوة كبيرة تضم إلى جانب قوته الرئيسية من قبيلة «بني خالد» أعداداً كبيرة من «الظفير» و «شمير». وقف «سعدون» بقواته على مشارف «بريدة» وبدا أن كل أهالي «القصيم» كانوا مؤيدين للثائرين باستثناء «بريدة» و«الرس» و«تنومة». وبالطبع كانت «بريدة» الينبوع الرئيسي لكل المخلصين للدولة السعودية. وكان أميرها «حجيلان بن حمد العليان» الذي كان قد خلف «عبد الله بن حسن» بعد موته في أحد العمليات

ضد منطقة «الخرج». وخلال الحصار الذي أسفر عنه ذلك الموقف والذي دام لمدة أربعة أشهر، اتهم فرد من عائلة «العليان» بالتواطؤ مع العدو، وقام «حجيلان» شخصياً بذبحه.

حظي هذا التصرف برضا الأهالي، وأدرك «سعدون» أن الحصار يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، لذلك تخلى عن ذلك الموقف وسار بقواته عن طريق «الزلفي» باتجاه «مبايض» وعسكر هناك ليعيد ترتيب قواته، وانضمت إليه تعزيزات قوية من عدة اتجاهات، إذ سارع زعماء «سدير» المنفيين من «الزبير» ومناطق أخرى بالانضمام إليه، وشكلت فرقة «الخرج» التي تزعمها «زيد بن زامل» مصدر قوته الرئيسية. وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كان جيش «سعدون» مستعداً للمعارك، وتقرر أن تقوم تلك القوات بأول هجوم لها ضد بلدة «الروضة» التي كان زعماؤها المنفيون ضمن قوات «سعدون». فتوجه هؤلاء الزعماء تدعمهم فرقة قوية من الجيش إلى «الروضة» وتمكنوا تحت جنح الظلام من احتلالها بسهولة، ووافقت حامية سعودية (كانت متمركزة في القلعة الكبيرة) في صباح اليوم على الاستسلام والرحيل مقابل ضمانات بعدم التحرش بها أثناء الانسحاب.

قرر «سعدون» أن يقيم مقر قيادته في «الروضة» خلال فترة كانت الحاجة فيها ماسة لاستقرار الأوضاع في ظل حكم «آل الماضي» الذي تمت استعادته. تركهم «سعدون» يدبرون أنفسهم ورحل عنهم، في حين انسحبت الفصائل الأخرى كل إلى ديرته.

كان «سعود بن عبد العزيز» في تلك الأثناء معسكراً في «ثادق» يراقب التطورات: وما أن غادر «سعدون» الروضة إلا أن أرسل «سعود» عناصر من

قواته لتهاجمها : فأوكلت العمليات الأولية إلى فرق قروية من «سدير» نفسها ومنها رجال أشداء من «العارض» و «الوشم» وفي تلك العمليات قتل الأمير «عون بن مانع» وخلفه أخوه «عثيل»، واستؤنف القتال بنفس الأسلوب المتقطع إلى أن قام «سعود» على رأس قوة أساسية من جيشه بممارسة المزيد من الضغط على المدافعين، وتمكن من احتلال واحات النخيل والحاق خسائر بها، ومع تتالي الأحداث بقيت قلعة واحدة تحت سيطرة «عقيل». وتحت هذه الظروف وجد «عقيل» نفسه مضطراً لمناشدة السلام الذي تمت الموافقة عليه لكن وفق شروط قاسية وهي : طلب منه دفع مبلغ كبير من المال كتعويض وعفو عن الجرائم، كما تم نفي وإبعاد عائلة «الماضي» وأتباعها عن المنطقة. وبعد احتلاله «الروضة» شرع «سعود» في تقصي أحوال القرى المجاورة التي شك بأنها كانت تقدم العون للثائرين من عائلة «الماضي» بما فيها قريتي «الداخلة» و«الفرعة». عاد «سعود» إلى ديرته ليعد العدة لنشاطات العام القادم. أوصلته تلك المشاركات بعيداً عن ديرته فوصل «المستجدة» وهناك أغار على جماعة من «مطير».

وفي حوالي نفس الفترة من ربيع عام ١٧٨٣ سار «يزيد بن زامل» ليغزو جماعة من «سبيع» في مكان ما من الصحراء، وفي طريق عودته جابهته دورية كانت بقيادة «سليمان بن عفيصان» وكان «عبد العزيز» قد أرسلها من «الدرعية» لتحمي طريق القوافل. وحدثت مناوشات بين الطرفين وأصاب عيار ناري طائش «زيد» فقتله على الفور. أفجعت هذه الحادثة كل أتباعه الذين خسروا عشرة رجال في تلك الواقعة، استردت تلك الدورية الجمال

التي كانت جماعة «زيد» قد أخذتها من قبيلة «سبيع» وأعادوا إلى أصحابها. أصبح «ابن زيد» المدعو «براك» أميراً على «الدلم» وسرعان ما رتب أموره مع أهل اليمامة لمهاجمة منفوحة، نجم عن تلك الترتيبات المناوشات المعتادة التي لم تسفر عن إصابات بالغة في أي من رجال الجانبين. غزا «سعود» في تلك الفترة الأحساء، وفي طريق عودته إلى ديرته بعد أن حقق غزواً ناجحاً ضد «العيون»، قرر أن يقوم بهجوم على اليمامة، وفي الواقع ومن حسن حظه أنه وجد عدداً كبيراً من أهالي اليمامة مخيمون بالصحراء، وعلى الفور قام بهجوم لم تصمد أمامه أهالي اليمامة وهربوا في حالة فوضى. لم يخسر «سعود» في تلك المواجهة أكثر من ثمانية رجال. توجه «سعود» بعد ذلك إلى «القصيم» ليقوم بمناوشات حول «عنيزة»، لكنه سرعان ما عاد إلى ديرته لأنه لم يفضل أن تمكث قواته الكبيرة العدد بشكل مكشوف في العراء. وبسبب عدم هطول الأمطار في نهاية عام ١٧٨٣ أوشكت كافة مناطق «نجد» أن تموت بسبب الجفاف الشديد. قدر لذلك الجفاف أن يستمر وبشكل قاس حتى عام ١٧٨٦، ورافق ذلك ندرة في الطعام وارتفاع في الأسعار وكثير من الأمراض.

ومع نهاية عام ١٧٨٤ أو بداية العام التالي قاد «سعود» حملة ضد مناطق «الخرج». وعندما وصلته أخبار قافلة غنية محملة بالمواد الغذائية وكانت متوجهة إلى «الحوطة»، أصدر أوامره بأن يعد لها كمين في موارد المياه بمنطقة «الثليمة» الواقعة في الصحراء على مسافة اثني عشر ميلاً من «اليمامة». نفدت مياه القافلة التي كان يحرسها حوالي ٣٠٠ محارب، وما أن شاهدوا

أشجار النخيل في الواحات الصغيرة حتى تدافع حراسها في المقدمة وأسرعوا نحو الواحات على الفور قضى رجال «سعود» على هؤلاء الرجال، لكن القافلة توقفت عند سماع الطلقات النارية واستعد حراسها للدفاع عنها. على أي حال كانت القافلة فريسة سهلة بالرغم من الدفاع المستميت الذي قام به حراس القافلة، إذ سقط منهم حوالي النصف بما فيهم «زامل» وهو أحد أبناء «زيد» الذائع الصيت. فر الناجون من الموت تاركين القافلة والبضائع الثمينة إلى الأعداء. وكأن هذه الحادثة لم تكن مأساوية بشكل مؤثر على أهالي «الخرج» الذين كانوا يعيشون حالة قحط ومجاعة، إذ تعكر صفو الأمن في «الدلم» بسبب اغتيال الأمير الجديد «براك» على أيدي اثنين من أبناء عمومته. التجأ هذان الاثنان إلى «الدرعية»، وعليه خلفه «تركي» في الإمارة وهو ابن آخر من أبناء «زيد»، لكنه لم يحتفظ بالإمارة لوقت طويل لأن «سعود» هاجم «الدلم» في نهاية شهر تشرين أول من عام ١٧٨٥، وبعد معارك ضارية تمكن من دحر المدافعين وإجبارهم على التراجع ضمن حدود البلدة. وأخيراً استولى عليها بهجوم عاصف. تمكن «سعود» من قتل «تركي» وعَيّن في مكانه «سليمان بن عفيصان» أميراً على المنطقة، وبهذا الشكل تم إخضاع واحداً من المعاقل الرئيسية المعارضة للحركة الوهابية. وسارعت بقية بلدان ذلك الإقليم إلى الإعلان عن ولائها للعقيدة الوهابية الجديدة. لكن سبق تلك التطورات أن قدم قادة «وادي الدواسر» إلى «الدرعية» ليعربوا عن اعترافهم بالسلطة السعودية الجديدة. وعليه يمكن القول إن ذلك العام شهد توسعاً حقيقياً امتد جنوب الدولة السعودية.

سبب الجفاف انتشار مرض الجرب بين الجمال في «نجد» على نحو خطر، كما سبب إصابات في مناطق البدو وفي القرى والمدن. كانت الحيوانات المستخدمة في القوافل عند بدء رحلتها تبدو في حالة جيدة لكنها كانت تسقط فجأة وتموت تحت نير حمولتها. جاءت الأمطار الموسمية في عام ١٧٨٥/ ١٧٨٦ وعند بوادر ثمار تلك الأمطار وظهور المحاصيل في الربيع، نزلت الأسعار بشكل سريع وازدهرت الصحراء مرة ثانية، لكن لم تخفف تلك الحالة من صراع القبائل الدائم، إذ تآمر فريقان من جماعة «بني خالد» مع اثنين من الأسرة الحاكمة للقبيلة وهما «عبد المحسن بن سرداح العبيد الله» و «دويحس بن عريعر» بقصد الثورة ضد حكم «سعدون». استجاب «ثويني بن عبد الله» زعيم «المنتفق» لمناشدتهم وقدم المساعدة لهم. وهكذا واجهت القوات المتحالفة «سعدون» بقوة ضاربة ودام القتال الضاري لعدة أيام بعدها أدرك «سعدون» أن هزيمته واقعة لا محالة، ولذلك فر مع أتباعه إلى «الدرعية» وهناك أحسن «عبد العزيز» استقباله وعامله بعز يليق بعدو شجاع. اغتصب «دويحس» مكان «سعدون» في قبيلة «بني خالد»، وباشر «عبد المحسن» اليد اليمنى لـ «دويحس» بإدارة بعض الأعمال الخاصة بسيادة القبيلة.

كان «سعود» منشغلاً بالإشراف على حملة توجه بها لغزو جماعة من «قحطان» في الجنوب، وكان «حجيلان بن حمد» أمير منطقة القصيم ينظم حملة أخرى لغزو «جبل شمر»، ويفترض أن «عبد العزيز» كان قد وافق على ذلك، والجدير بالذكر هنا أنه لم يسبق لـ «عبد العزيز» أن قام بأي تحرك في ذلك الاتجاه.

قام «حجيلان» بالاستيلاء على قافلة كبيرة محملة بالأقمشة والبضائع كانت قادمة من العراق في طريقها إلى «حائل»، وسارع بالعودة إلى ديرته محملاً بالغنائم قبل أن تُنظم أية جهة حملة لمطاردته. لكن الانتقام كان قادماً على الطريق، ففي شهر تشرين الأول من العام التالي قاد زعيم المنتفق والمدعو «ثويني» قوة عسكرية قوية وسار بها باتجاه «القصيم؛ وكانت تلك القوة مجهزة بحمولة ٧٠٠ جمل من المواد الحربية مثل: المسدسات والبنادق التي تشعل بالفتيل، والذخائر والطلقات الضرورية لكافة الأسلحة. ولدى وصوله إلى «تنومة» سارع في حصارها لبضعة أيام، وأضعف وسائل وامكانيات الدفاع عنها بقصفها بالمدفعية إلى أن تيقن من نتيجة الإغارة عليها وتحقيق النصر. وعليه داهم القرية بهجوم عاصف وأحدث فيها أعمال ذبح عشوائية وسلب كل ممتلكاتها، وقتل من أهلها ما لا يقل عن ١٧٠ رجلاً ولم يهرب إلا القليل بعد ذلك توجه «ثويني» إلى «بريدة» التي لم يقدم على نهبها لأنه تلقى أخباراً تفيد بحدوث مشكلات في ديرته. حملته تلك الأخبار على العودة بشكل فوري. وفي تلك الأثناء كان «عبد المحسن» الوصي على إمارة الأحساء في طريقه على رأس قوة كبيرة ليساعد «ثويني» في معاركه بمنطقة القصيم، لكنه هو أيضاً تخلى عن تلك المهمة لدى سماعه أن «ثويني» كان قد انسحب.

وصل «ثويني» إلى «الزبير» وهناك تقدم حاكم البصرة لزيارته، لكن ما إن وصل الحاكم حتى أطبق «ثويني» عليه واستولى على كل ماشيته بعدها توجه إلى البصرة بنفسه واحتل المباني الحكومية فيها وتقلد دور الحاكم في المدينة. جمع «ثويني» وجهاء البصرة لمشاورتهم بخصوص المستقبل، وتم الاتفاق

على إرسال رسالة إلى السلطان في القسطنطينية (استانبول) يطلبون فيها موافقته على تعيين «ثويني» والياً على إقليم البصرة. وقد أصيب المندوب بالذعر بسبب تصرف وزراء السلطان غير الملائم، فهرب تحت جنح الليل. ومن المحتمل أنه تم إرسال تعليمات رسمية إلى والي بغداد «سليمان باشا» لاتخاذ كل الخطوات اللازمة لإعادة الوضع في البصرة على حاله. وعليه أشرف «سليمان باشا» بنفسه على قيادة الحملة التأديبية التي توجهت إلى البصرة في خريف عام ١٧٨٧. كان «ثويني» في تلك الفترة يجمع قواته لمقاومة الغزو العثماني. ترك أخاه «حبيب» يتولى شؤون البصرة وتوجه إلى قناة الفضيلية بالقرب من سوق «الشيوخ» لملاقاة العثمانيين، وهناك منيت قواته بهزيمة نكراء، إلا أنه تمكن من الفرار إلى «الجهرة» بالقرب من الكويت ومن هناك انضم إلى قبيلة «بني خالد» في «الصمان».

أصبح «حمود بن ثامر» الآن زعيماً لجماعة المنتفق، وأصبح «الآغا مصطفى» حاكماً على البصرة. كرر «حجيلان» غاراته على «جبل شمر»، وكانت تلك الغارات عنيفة لدرجة أن أهالي حائل أعلنوا خضوعهم للحكم السعودي الذي اكتسب بهذا الإقرار توسعاً آخر شمل حكمه المناطق التي يديرها.

توجه «سعود» إلى منطقة القصيم للتعامل مع عنيزة التي كانت تشهد بعض المشكلات نظراً لأن زعيمها كان من أفراد عشيرة «الراشد»، وكان «يحيى بن علي» قد خلف «عبد الله بن أحمد» من عائلة الزامل، والذي كان عام ١٧٦٨ قد عُين أميراً لكنه قتل في العام نفسه خلال الحملات التي شارك فيها في منطقة الخرج. والجدير بالذكر أن «يحيى بن علي» وهو ابن أخت «عبد الله بن حمد». كان قد تمكن من البقاء في الإمارة حتى عام ١٧٨٨

بمساعدة أحد مغتصبي السلطة من عائلة «الراشد» قام «سعود» في ذلك العام بحملة ضد تلك المنطقة. وعلى إثر الانتصار الذي حققته تلك الحملة تم إقصاء المغتصب للزعامة مع أسرته عن الحكم، ونفي من المنطقة وردت الإمارة إلى عائلة «الزامل» المتمثلة في شخصية أحد أبناء «يحيى» المدعو «عبد الله». وتم هذا التغيير وأصبح ساري المفعول دون أية معارضة للقرار الذي اتخذه «سعود» بذلك الخصوص.

تزامن ذلك مع غزوة قام بها «سليمان بن عفيصان» للمناطق الشرقية، إذ أنزل بأهالي «قطر» خسائر جسيمة. وبعد أن انتهى من ذلك التفت إلى مناطق الأحساء وهناك عزل قرية «الجشة» وتعامل معها بشكل جذري وقتل العديد من أهلها بحد السيف. سار بعد ذلك بقواته نحو ميناء «العقير» الذي أضرم فيه النار بعد أن نهب منه كل البضائع والسلع الموجودة في المستودعات.

من أبرز أحداث هذا العام كان قرار «عبد العزيز» الذي بلغ من العمر في هذه المرحلة ٦٥ عاماً، تقرر أن يتخذ ترتيبات محددة يؤكد من خلالها ضوابط تولي السلطة من بعده. إن المكانة العسكرية والإنجازات البارزة في المجالات الإدارية، جعلت من «سعود» الشخصية المرجحة لأن تحكم مستقبلاً الدولة التي كبرت وتعاظمت من حيث المناطق المحيطة بالدرعية، لكن من المشوق أن نشير هنا إلى أن «محمد بن عبد الوهاب» وبصفته ممثل السلطة الدينية وبموجب منزلته كإمام، أصدر أوامره لكافة المناطق والمحافظات بالاعتراف بـ«سعود» كحاكم عليها في المستقبل. لم تقم لهذه المناسبة أية احتفالات رسمية خاصة، إلا أن أداء البيعة من قبل الأهالي في حضرة أمرائهم وحضرة سلطات أخرى مخولة بإدارة أمورهم، ألزمت

الجميع ومنذ تلك اللحظة بأن يقدموا جلّ خدماتهم وبإخلاص للأمير «سعود» وذلك ليس فقط بصفته إماماً عليهم بل بصفته وريثاً للحكم بشكل فعلي عليهم، وله الحق في احترامهم له وطاعته بنفس القدر الذي كانوا يحترمون ويطيعون فيه والده. ولا بد أن يكون هذا الإجراء موغل في القدم، إذ كان يمارسه ملوك سبأ حين يشركون واحداً وفي بعض الأحيان اثنان من إخوانهم وأخواتهم في الحكم معهم، وذلك ليس فقط بصفتهم أمراء ورثة للحكم، بل كانوا يطلقون عليهم اسم ملوك أيضاً.

أما في منطقة الحكم السعودي فكان يشار للحاكم إلى جانب كونه إمام المسلمين بلقب «الشيوخ» (في صيغة الجمع)، في حين كان الشخص الآخر المخول الحق بهذا اللقب هو الأمير الوصي على العرش أو الأمير المعترف به كوريث للعرش. ومن أحد المحاسن في هذا الترتيب التقليدي هو أن النظام يتحاشى أو يتفادى أية حاجة لإجراءات غير مسوغة للتنازل عن الحكم من قبل ملك حاكم، كما يؤكد استمرارية السلطة السيادية في الدولة في حال عجز الحاكم عن الاستمرار في الحكم أو أنه مات.

ومباشرة بعد توليه منصب ولي العهد أمضى «سعود» بقضاء شتاء عام ١٧٨٨/ ١٧٨٩ في سلسلة من الغارات والغزوات التي تمت جميعها في المناطق الشرقية والمناطق الشمالية الشرقية. كانت كل حملاته مركزة وبشكل عام على ممارسة المزيد من الضغوط على أمراء «بني خالد» في الأحساء. ففي منطقة «الصمان» واجه «سعود» كامل زخم قوات «بني خالد» لكنه انسحب دون أن يبدي أية محاولة جادة في الاشتباك معهم، وجاء ذلك الانسحاب بعد يومين من استعراض القوى والمناوشات الخفيفة. واشتبك

بعد ذلك بجماعة «ثويني» في نفس المنطقة، وكان معهم اللاجئون من جماعة «المنتفق» الذين هربوا معه من العراق بعد كارثة «سوق الشيوخ»، لكن «سعود» هذه المرة هاجمهم وأجبر جماعة «المنتفق» على الفرار واستولى على معسكرهم وكل الأمتعة والمعدات التي بداخله. وبعد ذلك هاجم مجموعة من القرى الصغيرة في صحراء «الطاف» واستولى على كل مخزونهم من الحبوب. تابع المسير لمسافات بعيدة حملته على مهاجمة مجموعة أخرى من «المنتفق» كانت في منطقة «الروضتين» بالقرب من «صفوان» على الحدود العراقية، وسلب كل ما احتواه معسكرهم وكل ما احتوته خيامهم، إضافة إلى ممتلكاتهم. رجع «سعود» قافلا إلى مشارب «الوفرة» وهناك واجه فريقاً من قبيلة «بني خالد» وألحق به هزيمة وقتل منهم حوالي ٩٠ رجلاً. وعاود بعد ذلك المسير باتجاه واحة «الأحساء» وهناك قام ببعض المناوشات حول بلدة «المبرز» دون تحقيق أهداف جوهرية، لكنه هاجم قرية «الفضول» التي تقع بالجوار من تلك المنطقة واحتلها وقتل من أهلها حوالي ٣٠٠ رجلاً.

وفي الخريف التالي عاود حملاته وضغوطه على الأحساء، وكان جيشه هذه المرة إضافة إلى قواته النظامية من «العارض» ومن المناطق المجاورة للدرعية، يضم فرقة من قبيلة الظفير وعناصر من قبيلة «بني خالد» بزعامة «زيد بن عريعر» الذي كان قد أبعد عن القبيلة مع أتباعه إثر ثورتهم ضد «سعدون». توجه «سعود» بهذه القوة مستهدفاً القوة الرئيسية لقبيلة «بني خالد» التي كانت تعسكر بالقرب من تل ومورد ماء «غريمل» الذي لا يبعد كثيراً عن الواحة الرئيسية في الأحساء. كان معسكرهم تحت إمرة «دويحس ابن عريعر» وإمرة خاله «عبد المحسن» الوصي على الحكم، فداهمهم

«سعـود» على الفـور . قـاتل الفـريقـان بشكـل مستـميت إلى أن تـوصل «بنو خـالد» إلى مرحلة لم يستطيعـوا الاستمرار فيـها فتفرقـوا وانهـزمـوا ، وأثناء الفـرار تمكنت خيالة «سعـود» مـن قتل العـديد منهم تاركين وراءهـم ماشيتـهم وكل ممتلكاتهم . ويقال بأن «عبد المحسن» و «دويحس» فرا إلى «المنتفق» لذا قرر «سعود» أن يعين «زيد بن عريعر» رئيساً للقبيلة .

وفي خريف عـام ١٧٩٠ ظهر خطر حـقيـقي هـدد بشكل جدي استـقرار الحكم السعودي . قدم ذلك الخطر من الغرب حيث كان الـشريف «غالب بن مـسعـود» الذي خلف أخـاه «سرور» في إمـارة مكة بعـد وفـاته وفي عـام ١٧٨٨ ، يخطط لغزو «نجد» . أعلن «غـالب» بوضـوح أن هدفه كـان إسقـاط الدرعية نفسها ووضع نهاية للحركـة الاصلاحية . فأرسل أخاه «عبد العزيز» على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل معـهم عشرين مـدفعاً . انضم إليـه وهو في طريقـة إلى هناك بدو الـحـجـاز ورجـال من «شـمـر» و «مطيـر» وعناصر أخـرى من قبائل «نجد» . وعند وصـول هذه الحشـود إلى مـقاطعـة «السر» قامت المدفعية التركية (العثمانية) بتطويق ودك منطقة «قـصر بسام» - وهي قرية صـغيرة محـصنة- ، إلا أن الحامية الصـغيرة التي قـيل بأن عـدد رجـالهـا بلغ ثلاثين رجلاً ، صـمـدت ببـسالـة ضـد كل أشكـال الهـجـوم التي فـرضت عليـهـا . وبعـد بضعـة أيام مـن القـصف قـر ر «غـالب» الذي كـان يدير العـمليات بنفسـه ، أن يلتـحق بالقـوة الرئيـسيـة التي كـانت تحت إمـرة أخيـه في «شـقـراء» التي كانـت في أعالي «نجد» ، وقـد تعـرضت تلك البلدة الهـامـة إلى قـصـف عنيـف ، كـمـا تمت عـدة مـحـاولات لـلاستيـلاء عليـها بهـجـوم عـاصـف ، إلا أن جميع هذه المحاولات التي استهدفت الاستيلاء عليها أو إجبارها على

الاستسلام باءت بالفشل. وبعد مضي شهر من المحاولات غير المثمرة رفع «غالب» الحصار الذي كلفه حوالي خمسين رجلاً من رجاله، وأقلع عن أية فكرة أخرى تتعلق بالسيطرة على «نجد». وبعد أن أدرك البدو فشل محاولته انشقت قبائلهم عن قوات «غالب» التي كانت قد انضمت إليها على أمل الحصول على غنائم سهلة، وترك «غالب» يقود المجموعة الرئيسية من قواته وهي في طريق عودتها إلى مكة دون تحقيق أية مكاسب.

قام «سعود» على رأس قوة كبيرة بالهجوم على البدو الذين تحالفوا مع الشريف «غالب». والجدير بالذكر أن «سعود» - على ما يبدو - كان يحتفظ بالقسم الأكبر من قواته في حالة احتياط تحسباً لأي طوارئ أو تهديد مباشر يمكن أن يحدث ضد الدرعية. وسرعان ما سمعوا بأخبار الحملة. انسحب البدو من «نجد» وكان الوقت آنذاك قد دخل في صيف عام ١٧٩١ حيث وصلت جماعات «شمر» و «مطير» إلى موارد مياه «العدوة» إلى الجنوب من «حائل». وفي الثلاثين من شهر آب (اغسطس) دارت معركة «العدوة»، وهناك التف «سعود» عليهم، وقاتل البدو بإصرار وعناد إلا أنهم مُنيوا بالهزيمة وأجبروا على الفرار تاركين وراءهم غنائم ثمينة استولى عليها رجال «سعود». خسرت تلك الجماعات أيضاً عدداً من قادتهم، لكن بعد ذلك بوقت قصير - وبعد أن جمعوا تعزيزات جديدة من الرجال الذين لم يشاركوا في تلك المعركة - عادوا لمهاجمة قوات «سعود» الذي كان لا يزال موجوداً في «عدوة» يوزع غنائم الحرب حسب العادة.

جابه السعوديون تحدي رجال القبائل، وقتل واحد من زعماء «شمر» وهو يحاول الانقضاض على «سعود» في خيمته الخاصة. تفرق المهاجمون

ولاذوا بالفرار وطاردتهم فرسان السعوديين واستمروا في مطارتهم لمدة ملحقين بهم خسائر بشرية ومادية كبيرة.

وفي شهر كانون ثاني (يناير) من عام ١٧٩٢ عاد «سعود» مرة ثانية إلى درب الحرب فتوجه إلى إقليم الأحساء، وهناك استولى بهجوم عاصف على «سيهات» و «العنق»، وقتل حوالي ٤٠٠ من أهل البلدتين، واستولى على كميات كبيرة من الغنائم. وأخيراً وافقوا على عقد صلح وسلام لقاء دفع فدية بلغت ٥٠٠ جمل. في تلك الفترة تمكن «زيد بن عريعر» الذي كان قد عينه زعيماً على قبيلة «بني خالد» بعد معركة «غريمل» من التغرير بـ «عبدالمحسن» وحمله على العودة بعد أن قدم له ضمانات وتعهدات بأن يعامل بكرم، لكنه ذبحه بكل برودة أعصاب في الهواء الطلق أمام حشد من الناس.

وبناءً على أوامر تلقاها من الإمام، قام زعيم قبيلة قحطان «هادي بن قرملة» بمهاجمة جماعة «مطير» المتجمعة بالقرب من آبار «جنية» في أهالي نجد، وتوجه «سليمان بن عفيصان» لغزو «قطر» وفي طريقه إلى هناك اشتبك مع مجموعة مسلحة من القطريين ودحرهم في موقعة دارت في الصحراء. بعد النشاطات التي قام بها في منطقة «القطيف» توجه «سعود» بنفسه إلى «جبل شمر» وغزا تجمعاً كبيراً لرجال قبائل «حرب» و «مطير» حول موارد مياه «شقراء»، واستولى على غنائم كبيرة شملت ٨٠٠٠ جمل وعدد من الخيول الأصلية.

وقع أبرز أحداث ذلك العام خلال فصل الصيف، حيث انتقل «محمد بن عبد الوهاب» في العشرين من تموز (يوليو) إلى جوار ربه (رحمه الله)، مات بعد حوالي نصف قرن من التفاني في خدمة الحركة الوهابية التي أسس

أول ركائزها، وفي خذمة الأمراء الذين تعاونوا معه من أجل دفعها وتقدمها إلى مستوى أدخل إلى قلبه الرضى التام في أواخر عمره. لكن لم يكن مقدراً له أن يعيش ليشهد أرض الميعاد في تبرعمها وامتداد أطرافها إلى أقصى حدود الصحراء العربية. وفي سياق الإشارة إلى حادثة وفاته، يخبرنا «ابن بشر» أن «محمد ابن عبد الوهاب» عاش اثنين وتسعين عاماً، إلا أنه في وثائق تاريخية أخرى عن حياة «محمد بن عبد الوهاب» يشير إلى أن تاريخ ميلاده كان في عام ١١١٥هـ (السابع عشر من شهر آيار من عام ١٧٠٣ وإلى الخامس من آيار من عام ١٧٠٤م). وبالرغم من هذه المعطيات يمكن القول أنه بلغ من العمر عند وفاته ٩٣ سنة.

بدت على «محمد بن عبد الوهاب» في آخر أيامه السمنة وثقل الحركة لضخامته، وكان لا بد أن يعتمد على رجلين يسندانه من كل طرف ليصل إلى المسجد، ويستشهد «ابن بشر» بعبارة ذكرها المؤرخ المشهور «حسين بن غنام» في مرثاة شعرية نظمت على شرفه: إلا أن أفضل صرح قائم في ذاكرته هو ذكرى الدولة التي أوجدها من خلال فوضى كانت سائدة في الصحراء العربية واستمرت إلى هذا اليوم بالرغم من كل تقلبات الظروف التي عانت منها الصحراء على مدى أكثر من قرنين.

ويشهد الجميع أنه علاوة على أن «محمد بن عبد الوهاب» ترأس مجلس التعاون بتميز، فقد قام أيضاً بنشاط قوي فعّال في إدارة الشؤون العسكرية والنشاطات السياسية المكرسة لخدمة دين الله. إن الانسجام التام الذي خيم على مدى خمسين عاماً تقريباً على النضال المتواصل بينه وبين أول زعيمين للدولة السعودية، لهو في الواقع أفضل مقياس لعبقريته الفذة ولإخلاصهما

الحقيقي للقضية المشتركة التي تتجاوز نقاط ضعف الجنس البشري وطموحاته التي سادت في عالم تكثر فيه الضغائن، إذ تمكنا من العيش والعمل مع بعضهما البعض.

شهد الخريف والشتاء اللذان عقبا موت الشيخ العظيم تطورات هامة في إقليم «الأحساء» حيث اتخذت جماعة «بني خالد» بتحريض من قبل «براك ابن عبد المحسن» موقفاً عدائياً من «زيد بن عريعر» وأطاحوا به. وما إن نُصب «براك» من قبل أتباعه زعيماً على القبيلة، حتى سارع في قيادة حملة شملت كل رجال القبيلة للغارة على مناطق آبار «لصافة». وفي الطريق إلى هناك هاجم جماعة من «سبيع» وسلب منهم الكثير من ممتلكاتهم. وفي غضون ذلك قدم «سعود» بكامل قوات المحاربين الوهابيين إلى الصحراء الشرقية للنيل من «بني خالد» الذين كانوا في ذلك الوقت في منطقة «الجهرة» بالقرب من الكويت. وبالقرب من «لصافة» تقفى «سعود» أثرهم الذي أوصله إلى موارد المياه. وهناك وجد أنهم كانوا قد غادروها للتو، فأقام معسكره هناك وتوقع عودتهم إلى موارد المياه نفسها أو إلى موارد مجاورة، وأرسل «سعود» قوات لتحتل آبار «اللهبة» (الهبة؟) و «كارة»، لكن جماعة «بني خالد» عادت إلى آبار «لصافة» ووجدوا أن «سعود» قد استولى عليها كما وجدوا أن فرسانة والمحاربين على الجمال كانوا على أهبة الاستعداد للقتال. دارت معركة هناك دامت لمدة ساعة تقريباً انهارت جماعة «بني خالد» وفر رجالها في حالة فوضى واضطراب، فطاردتهم فرسان «سعود» دون هوادة وعادوا ومعهم الكثير من الغنائم. قدرت الخسائر التي مني بها رجال «بني خالد» ما بين ألف إلى ألفي قتيل. هذا وغنمت قوات السعوديين

ما لا يقل عن ٢٠٠ فرس، إضافة إلى عدد آخر من الماشية.

تمكن «براك» على ظهر فهرسه مع جماعة صغيرة معه من الهرب وتوجهوا إلى «المنتفق» قرب الحدود العراقية. أصيب أهالي «الهفوف» بالذعر لدى سماعهم أخبار هزيمة «بني خالد».

كان «سعود» يسير في ذلك الاتجاه لكنه توقف عند آبار «الردينية» في إقليم طاف لبضعة أيام. تلقى خلالها مبادرات من مدن «الأحساء» أعربوا فيها عن رغبتهم في المثول بين يديه والإعراب له عن الطاعة والولاء. احتفلوا به لدى وصوله إلى «عين نجم» ينبوع المياه الساخنة، وهناك أرسل «سعود» فرقة لتهدم كل القبور ذات القباء والقبور والأماكن التي يرتادها الشيعة. أمضى «سعود» في تلك المنطقة شهراً من الزمان عمل خلاله على إقامة الركائز الأساسية للإحياء الفكري عند الناس الجهلة. وشمل ذلك الإصلاح بناء المساجد والمدارس وتعيين المدرسين الأكفاء لشرح المبادئ الأساسية في الإسلام وفي عقيدة التوحيد. عَيّن «سعود» أيضاً رجلاً يدعى «محمد الحاملي» في منصب أمير الإمارة باعتبار أنه كان شاغراً آنذاك وجعل المقر الرئيسي للإمارة في قلعة «كوت». وباعتبار أنه كانت حاجة لعدد من الرسميين، عَيّن «سعود» عدداً منهم في دوائر حكومية مختلفة، كما وضع حاميات عسكرية في القلاع وفي مراكز الحراسة الأخرى.

حل «سعود» خيام معسكره وسار بجنده نحو مشارب مياه «النطع» الموجودة في إقليم «طاف» وهناك نزل للاستراحة المؤقتة ولترعى جماله وخيوله في مراعيها الخضراء، وهناك أيضاً وصلته أخبار عن حدوث مشكلات جادة في منطقة «الهفوف»، وعلم أن الأهالي هناك ثاروا ضد

النظام الجديد وقتلوا حوالي ثلاثين شخصاً بما فيهم الحاكم وبعض الرسميين وكل المدرسين الذين تم تعيينهم مؤخراً لتدريس أصول الدين. ويُقال إن القتلة جَرّوا أجساد قتلاهم في الشوارع ومثلوا بهم على أعين الناس، ولم يبقى من الإدارة الحكومية التي عينها «سعود» سوى حامية في قلعة «حصار» كانت تحت إمرة «محمد بن غشيان» الذي - بعد أن صمد لفترة قصيرة - فر تحت جنح الظلام ليلتحق بقوات «سعود» في معسكره الحالي. قرر «سعود» على ضوء هذه الأخبار أن يعود - وفي الحال - إلى الدرعية، واستمر «زيد ابن عريعر» في حكمه المتقطع للأحساء على مدى تلك الفترة.

حدث أنه في حوالي نفس الفترة أصيب الحكم السعودي بكارثة وفاة «سليمان بن عفيصان» أمير منطقة «الخرج» الذي دامت فترة إمارته لمدة ست سنوات. وقبل وفاته كان «عبد العزيز» و «سعود» يعتمدان عليه في حملات عسكرية كانت تتطلب قيادة شجاعة.

أصبح «سعود» في خريف عام ١٧٩٣ مستعداً ولديه خطط للتعامل مع ثورة «الأحساء. سار «سعود» إليها ضاربة من جيشه، وكانت قرية «الشقيق» هدفه الأول إذ استولى عليها بهجوم صاعق بعد أن حاصرها لمدة يومين وقتل بعضاً من أهلها في حين فر البعض الآخر. اجتمع أهالي القرى المجاورة الواقعة في الجزء الشمالي من الواحة في منطقة تدعى «القرين» للدفاع عن أنفسهم، ولكن قوات «سعود» حاصرت تلك المنطقة تماماً كما حاصرت قرية «المطرفى»، ودام الحصار إلى أن اضطر أهالي كلتا المنطقتين إلى دفع نصف أملاكهم مقابل فك الحصار. عاد «سعود» بعدها إلى منطقة «المبرز» المجاورة، وهي المنطقة الثانية من حيث الأهمية بعد «الهفوف». قام «زيد بن

عـريعر» بمهـاجمة قوات «سعود» لكن السعـوديين تمكنوا من دحر قـواته ومن مطارتهم حتى العاصـمة. هاجم سعود القلعة البعيدة عن مقر القيادة والتي كـانت بها جماعة من «المبرز». أسفر ذلك الهجوم عن قتل مائة رجل من رجـالهـا. هذا، وتعـرضت قرية «البتـاليـة» أيضـاً إلى هجـوم مماثل، توجـه «سعـود» على إثره شرقـاً لمهاجمـة بلدة «الجبيل». وفي الوقت نفسـه وجه سعـود رعايا ومن البادية بالقيام بأعمال حربية في بعض الاتجاهات الأخرى لانزال أكبر قدر من الخسائر في صفوف العدو. عقاباً لأعمالهم السابقة.

واستمرت حملة الذعر هذه لبضعة أيام، لكن أهالي «الأحساء» اختاروا «براك بن عبد المحسن» ليذهب إلى «عبد العزيز» ويطلب منه العفو، ويعرب له عن ولائهم وطاعته له في المستقبل. ووافق الإمام على مناشدتهم وطلب من ««عود» العـودة إلى الدرعية تاركاً «براك» يرتب من أجل وضع اللـمسات الأخيرة لـهذه المعاهدة التي دخل فيها كطرف نيابة عن أهالي ذلك الإقليم. لكن أهالي الهفـوف لم يتوبوا وتصدوا لمحاولة دخوله إلى ديرتهم. علماً بأن أهالي «المبرز» لم يعرضوا دخوله إلى بلدتهم، وفي تلك الأثناء كـانت قوات «زيد» وأبناء عـمومـه «عـريعـر» ترابط في «الجشـة» و «الجفـر» القـريبـتين من الأطراف الشرقـية لتلك الواحة، وبعـد قتـال مرير دار بين الفـئات المتنافسة ظهرت سطوة «براك» في القتال وانطلق «زيد» متوجهاً بقواته نحو «المنتفق»، وتولى «براك» السلطة كحاكم ممثل للسلطة السعودية في الدرعية، واعترف بحكمه كافة أهالي ذلك الإقليم.

وهكذا انتـهت استـقـلاليـة إقليم الأحـسـاء الـذي كـان تحت ظل أمـراء «آل عـريعـر» وهم من سلالة «آل حـميـد» الذين دام حكمـهم على تلك المنطقـة لمدة ١٢٤ عـامــاً، أي من عـام ١٦٦٩ عندما قام «بـراك بن عـريعـر» الجـد الأول

لـ «سعدون» و «زيد» بالاستيلاء على ذلك الإقليم وتحريره من الأتراك الذين تمكنوا بعد فترة وجيزة من استعادته. حدث ذلك عندما قامت قوة تركية عام ١٥٩٢ بقيادة «فاتح باشا» بإلحاق الهزيمة بحكام عائلة «الأجود بن زامل العميري الجبري القيسي»، وأصبح «فاتح باشا» أول والي تركي على تلك المنطقة. ويذكر المؤرخ «ابن بشر» أسماء ثلاثة ولاة تولوا الحكم من بعده هناك كان من بينهم: «عمر باشا» الذي هزمه «آل حميد». ويضيف «ابن بشر» قوله إن حكم الأتراك استمر لحوالي ثلاثين عاماً، وإذا كانت التواريخ التي أوردها «ابن بشر» حقيقية فيمكن القول إن حكم الأتراك (العثمانيين) لتلك المنطقة دام لمدة ٧٨ عاماً وتلك بالطبع هي فترة طويلة جداً من الصعب أن يغطيها أربعة ولاة أتراك فقط! لكن ربما يكون ذلك ممكناً إلا أن الاحتمال الآخر هو أنه يمكن أن يكون قد حدث خطأ في كتابة الرقم، فبدلاً من كتابة «ثلاثون» كتب الرقم «ثمانون». على أي حال تحول إقليم «الأحساء» في تلك الفترة إلى مقاطعة تابعة للحكم السعودي، الذي امتد عليه لمدة ٨٠ عاماً قبل أن يعود مرة ثانية ليصبح تحت سيطرة الحكم العثماني عام ١٨٧١. ومن جديد استمر الحكم التركي (العثماني) لهذا الإقليم لمدة ٤٢ عاماً، أي حتى عام ١٩١٣ وأخيراً تحول في ذلك العام ليصبح خاضعاً للحكم الوهابي. يعتبر هذا الإقليم من أغنى المناطق التابعة للسيادة السعودية.

وبالرغم من حملة «الأحساء» هذه جاءت في مقدمة أحداث موسم شتاء عام ١٧٩٣/ ١٧٩٤ الشديد البرودة، والتي أسفرت عن نتائج فاقت بكثير كل نتائج الغزوات التي قام بها السعوديون في تلك الفترة، إلا أنهم صعدوا أعمالهم العسكرية وأرسلوا تلك الحملة في كافة الاتجاهات، ومن بين تلك

الأعمال العسكرية كانت حملة ضخمة تقدر قوتها بألف رجل و٦٠٠ جمل، إذ قادها «عبد الله بن محمد بن معيقل» وهو من بلدة «شقراء» ووصل بها إلى مشارف سهول «ركبة» على حدود الحجاز. وهناك اشتبك مع «عتيبة» بالقرب من «بغاث» أو «برث» إلا أنهم أوقعوا بين صفوفه بعض الخسائر وصدوه عن مواقعهم.

وفي موقعة أخرى حيث كانت القوات السعودية أيضاً تحت قيادة «محمد ابن معيقل» نفسه، تمكن الوهابيون من التغلب على بني حجر» دار ذلك الاشتباك في سهول «حزم الراقي» الواقعة بين مرتفعات «ضنيب» وآبار «الثيل»، وفيه فاز السعوديون بغنائم كثيرة وقتلوا زعيم القبيلة «ناصر بن مشاري». وفي حملة أخرى تحت قيادة «إبراهيم بن عفيصان» أمير «الخرج» وابن أو أخو «سليمان» توجه السعوديون أولاً إلى «قطر» وهناك نهبوا بلدة «الحويلة» الواقعة على البحر والتي يعمل أهلها بالصيد، وبعدها توجهوا إلى «الكويت» وتمكنوا من صد هجوم معاكس قام به أهلها نتيجة كمين نصبوه لهم ولم يدخلوا المدينة. ومن أكثر هذه الحملات أهمية كانت حملة شكلت فصائلها - بتوجيهات من «عبد العزيز» - من مقاتلي «الوشم» و«القصيم» وجبل «شمر»، وكان يقود كل فصيل قائد من نفس منطقة المقاتلين، وكان كافة القادة يأتمرون بأوامر القيادة العليا لـ «محمد بن معيقل». كان الهدف من تلك الحملة التوجه شمالاً والتوغل إلى مسافات أبعد مما توصل إليه الجيش السعودي. فكانت منطقة «الجوف» النقطة المستهدفة لهذه الحملة التي عرفت في ذلك الوقت باسم «دومة الجندل» وهي منطقة تقع على أطراف الصحراء السورية. تمكنت هذه القوات من احتلال ثلاثة بلدان في تلك

الواحة، وأما باقي القرى والأماكن وبما فيها «قصر مارد» وهي القلعة الرئيسية في «الجوف»، فقد حوصرت إلى أن استسلم أهلها وانتموا إلى الدعوة السلفية وأقسموا يمين الولاء للحكم السعودي.

يمكن القول أن هذه الأحداث وقعت إما شتاء أو في الأشهر الأولى من ربيع عام ١٧٩٤ وهو العام الذي مات فيه شيخ الدرعية «سليمان بن عبدالوهاب»، وجاء موته بعد عامين من موت أخيه الأكثر شهرة.

قام «سعود» في الأشهر الأخيرة من هذا العام بغزو «ظفير» في مقاطعة «الهجرة» على الحدود العراقية، وعاد منها إلى الدرعية في شهر شباط من عام ١٧٩٥ ومعه الكثير من الغنائم، وبعد عودته أعد العدة لغزو الحجاز.

وفي شهر آيار خاض «سعود» معركة ضد «تربة» مستخدماً الأسلوب المعتاد في غزو المناطق الزراعية خارج المدن وشن مناوشات متقطعة. قتل في تلك المناوشات «محمد بن عيسى بن غشيان» وهو واحد من أبرز قادته. وباعتبار أن القتال لم يتحول من المناوشات إلى مرحلة الاشتباك الفعلي، سرعان ما وافق «سعود» على إيقاف القتال. جاء ذلك بعد أن قبض فدية وتعويضات لقاء ذلك. يبدو أن حر الصيف حد من إصرار «آل سعود» على المغامرة، إذ كان من الواضح أن قادة الدرعية كانوا يفكرون أيضاً في توسيع نطاق عملياتهم، وكانوا يفكرون بعدة طرق لتحقيق تلك الغاية خاصة أنهم تمكنوا من الوصول حتى حدود «سوريا» و «العراق».

اعتقد «غالب بن مسعود» شريف مكة أن الحملة التي شنها «سعود» ضد «تربة» ما كانت إلا انطلاقة باتجاه مواقعه، ولذلك قام على الفور بترتيب حملة لغزو «نجد» بالرغم من حر ذلك الصيف. كان هدف الشريف «فهيد»

الذي قاد تلك الحملة القضاء على قبيلة «قحطان» التي يتزعمها «هادي بن قرملة». وعليه أقام معسكره في موارد مياه «ماسل» التي تبعد حوالي خمسين ميلاً إلى الجنوب من «الدوادمي»، وبعد قتال عنيف تمكن فيه من هزيمة قبيلة قحطان وأنزل بهم خسائر جسيمة واستولى على عشرة آلاف جمل. كادت نساؤهم وأطفالهم الذين تركوهم خلفهم أن يموتوا من العطش لولا أن العناية الإلهية أرسلت عليهم مطراً من السماء روى ظمأهم.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الشريف تنسحب محملة بالغنائم، كان «محمد بن معيقل» يشن هجوماً ناجحاً على «عتبة» في منطقة «مرات» الواقعة في «حرة القشب» البركانية. وحدث بعد فترة قصيرة أن قدم «سعود» إلى المنطقة نفسها لغزو تجمعات «مطير» و «عتيبة». كان «غالب» مرة ثانية يعد العدة لشن غزوة على نطاق واسع ضد «نجد» انطلقت حملته تلك من «مكة» (إما في شهر كانون الثاني أو شهر شباط من عام ١٧٩٦) بقيادة الشريف «ناصر بن يحيى» متوجهة نحو مرتفعات الصحراء العربية. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات أرسل «عبد العزيز» توجيهاته إلى «محمد بن ربيعان» زعيم «عتيبة» وإلى «فيصل الدويش» زعيم جماعة «مطير» وإلى قبائل «السهول» و «سبيع» و «الدواسر» و «عجمان» وأمرهم بأن يلتفوا حول «هادي بن قرملة» الذي كان في ذلك الوقت القائد الأعلى للقوات المدافعة. كانت في ذلك الوقت قوات «هادي» منتشرة حول مشارب مياه «الجمنية»(*) على شكل رقم ٨ بدءاً من ممر «النير» حتى ممر طريق

(*) من قرى رفحا بمنطقة الحدود الشمالية، وفيها مركز.

القوافل بين نجد والحجاز. وعند وصول قوات الشريف «ناصر» الضخمة والمجهزة ببعض المدافع، احتدمت المعركة وتكبد الطرفان خسائر جسيمة واستمرت المعارك إلى أن قامت مجموعة فرسان من قوات «هادي بن قرملة» بترجيح كفة القتال لصالحها. بعدها تفرقت قوات الشريف وفرت من أرض المعركة، وطاردها فرسان نجد وقتلوا منها حوالي ٣٠٠ رجل، وأخذوا أعداداً كبيرة من الغنائم اشتلمت على خيام «ناصر» وبنادقه. كان «عبد العزيز» قد أرسل «محمد بن معيقل» لتسانده إذا دعت الحاجة، إلا أنهم وصلوا في الوقت المناسب لمطاردة فلول القوات المعادية التي أبعدوها حتى حدود منطقة «القنصلية» بالقرب من «الخرمة»، وتمكنوا من قتل حوالي أربعين شخصاً من الرجال الفارين وأخذوا المزيد من الغنائم منهم.

كان «ابن هادي» المدعو «مبارك» في تلك الأثناء يقود حملة باتجاه حدود اليمن، واشتبك هناك مع قبائل نجران وتغلب عليها ملحقاً بها خسائر مادية. بدت كافة مناطق الصحراء العربية وكأنها في حمأة نشاطات عدائية عسكرية وكان السعوديون أثناءها يقاتلون بدافع حماس ديني متزايد، لكن حدث في شهر نيسان أن وصلت إلى القيادة السعودية أخبار عن حدوث بعض المشكلات في الأحساء، والتي تتلخص في أن «براك بن عبد المحسن» قام بتحريض شخصيات بارزة من بين الأهالي وأغواهم بالانضمام إليه وذلك في محاولة للخروج عن الحكم السعودي. رفضت قبيلة «سياسب» التي كانت تقيم في المنطقة الساحلية بالقرب من القطيف الانضمام إلى حركته وناشدت سلطات الدرعية في تقديم العون إليها، وعليه تم إرسال «إبراهيم بن عفيصان» لمعالجة تلك الانتفاضة. تمكنت جماعة «سياسب» بمساعدة من

جماعة «المبرز» (التي رفضت أيضاً الانضمام إلى ذلك التحالف) من تطويق مناطق الانتفاضة، واستسلم بعض المتمردين بمن فيهم «صالح بن نجار» أحد زعماء تلك الفتنة حتى قبل وصول قوات «ابن عفيصان» في حين أصر البعض الآخر على القتال. تمكنت قوات «ابن عفيصان» من محاصرتهم ولبضعة أيام في عدة مناطق من الهفوف إلى أن طالبوا في نهاية المطاف بوقف القتال. وافق «ابن عفيصان» على ذلك شريطة أن يتوجه زعماء الفتنة إلى الدرعية ويعربوا عن خضوعهم التام له شخصياً.

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) كان «سعود» قد توجه إلى الوشم ليشرف على حشود قوات الجيش لشن حملة على «الأحساء». ولدى وصوله إلى «الرقيقة» ضرب معسكراً لجيشه وبقي هناك لأكثر من شهر. لم يقم خلال ذلك الشهر إلا بعمليات تطهير لبقايا قوات العدو وإعادة ترتيب القضايا الإدارية. وكانت تقع بعض الاشتبكات المتفرقة لكن لم يتمكن المتمردون من تحقيق أي تقدم، واستسلم عدد كبير من الأهالي بعد أن أدركوا أن المكابرة والاسترسال في العناد لن يفيدهم بشيء هذا، وقد قام سعود بقتل ونفي المتسببين في الحوادث السابقة، كما دمر تحصينات المدينة قطعاً لدابر الفساد فيها. كما أمر «سعود» شخصاً يدعى «نجم بن دهينم» من «الهفوف» بإلقاء القبض على كل شخص اتهم باقتراف الفظائع أثناء الانتفاضة. والجدير بالذكر أنه عندما قرر «سعود» العودة إلى الدرعية عين «نجم» حاكماً على الأحساء، وساق معه عدداً كبيراً من الرهائن. تمكن «براك» من الهرب إما خلال إجراءات توقيف المجرمين أو بعد الانتهاء منها، ويقال إنه هرب عن طريق «المنتفق» التي كانت تعاني خلال الجزء الأخير من

ذلك العام من تفشي العديد من المشكلات. كان «ثويني» الذي مُني قبل بضعة سنوات بهزيمة على أيدي «سعود» في مناطق «بني خالد» قد هرب أيضاً إلى «صفوان» وجمع حوله عدداً كبيراً من أبناء قبيلته. قام «حمود بن ثامر» الأمير الجديد بمهاجمة «ثويني» وأتباعه وتمكن من دحرهم، إلا أن «ثويني» تمكن مجدداً من الهرب عن طريق «شط العرب» ولجأ إلى جماعة «كعب».

حاول هناك – وبالتحديد في عام ١٧٨٩ – أن يحظى بمساعدة «زيد بن عريعر» لمعاودة القتال، إلا أن «زيداً» لم يستجب لمحاولاته فتوجه إلى الدرعية طالباً حماية «عبد العزيز» ومكث هناك بعض الوقت. وبعد فترة من الزمن تمكن من الهرب إلى الكويت ومنها توجه إلى بغداد ليلقي بنفسه تحت رحمة «سليمان باشا» الذي هزأه أمام الناس في «سوق الشيوخ» وبعدها عفا عنه وسمح له بالبقاء في بغداد. تمكن من الفوز بالحظوة عند «سليمان باشا» على أمل أن الباشا سيقوم في يوم من الأيام بإعادة تنصيبه زعيماً على «المنتفق». ولتحقيق ذلك الغرض حاول جاهداً إقناع الباشا بأنه إذا استعاد زعامته على «المنتفق» سيكون في موضع يمكنه من تحقيق طموحه في إخضاع «نجد» لسلطة الصدر رالأعظم. صدق «سليمان باشا» مزاعم «ثويني» وزوده بالسلاح والرجال وأرسله خلال ذلك العام ليستعيد زعامته على «المنتفق» التي أقيل منها «حمود» وفقاً لذلك الاتفاق. وما لم يمضي وقت قصير على تولي «ثويني» للزعامة هناك حتى قام بحشد القوات لتنفيذ المهمة التي ألزم نفسه بها. وبمساعدة رجال قبيلته له الذين كانت تدعمهم فرق من البصرة والزبير، استطاع «ثويني» حشد كامل القوات في «ظفير». وهناك وجد أن

قبيلة «بني خالد» كانت مستعدة تماماً للانضمام إليه تحت قيادة الهارب «براك»، فحشد كامل قوة جيشه في الجهرة وبقي هناك لمدة ثلاثة أشهر ليتمم خططه ومعداته اللازمة للقيام بذلك الغزو المدروس بعناية، وانضمت القوات التركية القادمة عبر البحر عن طريق البصرة إلى قواته، في حين حملت باقي القوات بالسفن وسارت بشكل مواز لسير قواته البرية المتجهة إلى «القطيف». والجدير بالذكر أنه كان مقرراً أن تكون «القطيف» قاعدة لعملياته التي تستهدف الأحساء.

أصدر «عبد العزيز» أوامره بحشد كل القوات المتمرسة المحلية للتصدي إلى ذلك التهديد، كما عَيّن «محمد بن معيقل» في منصب القائد العام لتلك القوات. وعندما حان الوقت المناسب غادرت كافة تلك القوات الدرعية باتجاه مشارب منطقة «قرية» في مقاطعة «طاف». وأصدر «عبد العزيز» أوامره أيضاً لكل القبائل البدوية بالتحرك بكل أمتعتهم وحتى أسرهم وماشيتهم باتجاه ديرة «بني خالد»، وأمرهم باحتلال الآبار هناك والدفاع عنها ضد أي هجوم أو غزو.

إضافة إلى هذه الترتيبات تقدم «سعود» على رأس مجموعة قوية من حرسه الخاص والذين هم من رجال «العارض» ومن رجال المناطق الوسطى وعسكر في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من الدهناء؛ ثم تحرك من هناك باتجاه «حفر العتش» واستراح فيها لمدة شهرين.

تقدم «ثويني» نحو مقاطعة «طاف» وتراجع السعوديون المتواجدون في منطقة «قرية» إلى أن وصلوا جنوباً إلى موارد مياه «جودة» و «أم ربيع».

أرسل «سعود» قوة من حرسه الخاص بقيادة «حسن بن مشاري» لدعم موقف «محمد بن معيقل» وليكون بالتالي ستاراً يحمي جماعات البدو. أدخلت التحركات التي قام بها «ثويني» باتجاه آبار «شباك» الرعب في قلوب الأهالي هناك، وعند تلك المرحلة من تطور الأحداث تدخلت العناية الإلهية إذ قام أحد العبيد باغتيال «ثويني» عندما كان يراقب انتشار قواته وماشيته حول مصادر المياه. وعلى الفور قام رجال «ثويني» بذبح ذلك العبد وحجبوا لفترة من الزمان أخبار مصرع «ثويني» عن الجيش لمنع حدوث الذعر في صفوفه. إثر ذلك الحدث تم تعيين «ناصر» أخو «ثويني» زعيماً على القبيلة خلفاً لأخيه، إلا أن «براك» الذي كان على اتصال سري مع «حسن بن مشاري» الذي لم يكن مسروراً لتعامله مع زغيم «المنتفق»، قرر أن الوقت قد حان ليغير موقفه ويناصر الطرف الآخر. أحدث تراجع قبيلة «بني خالد» وسحب دعمهم رعباً في صفوف القوات الغازية التي سارعت في التراجع، وعليه قامت القوات السعوديون بمطاردتها حتى ضواحي مدينة الكويت ومشارفها، واستولى السعوديون على معسكر وسلاح وذخيرة فلول تلك القوات، كما جمعوا الكثير من الغنائم أثناء مطاردتهم لقوات «المنتفق».

تمت هذه الأحداث مع نهاية شهر حزيران من عام ١٧٩٧ . وبعد أن وزع سعود» الغنائم في أرض المعركة توجه بقواته إلى «الهفوف» ليحظى مجدداً بتأكيد الأهالي هناك على ولائهم للحكم السعودي. وأثناء استراحته القصيرة هناك والتي حدثت في أوائل الخريف، هطلت الأمطار الموسمية بغزارة في معظم مناطق «نجد» وعلى نحو غير مألوف. دمرت فيضانات شعيب «عجيمي» بلدة «الدلم»، كما سقطت على «حريملاء» حبات ثلج

(برد) عنيفة أحدثت أضراراً جسيمة في واحات النخيل والمحاصيل، وتسببت في انهيار العديد من المنازل والأسوار. حدث أيضاً - إما خلال صيف العام نفسه أو خلال صيف العام التالي - فيضان عنيف خلف دماراً في مناطق «الحوطة» و «وادي حنيفة»، علاوة على الدرعية نفسها تكبدت خسائر كبيرة، وكذلك تكبدتها منطقة العيينة.

لم توقف العوامل الطبيعية تلك الغزوات، فحدث أن قام زعيم «الدواسر» بغزو قبيلة «شهران» الحجازية القريبة من «بيشة»، كما قام «محمد بن معيقل» بغزو جزيرة «العمير» في الخليج العربي والتي كانت أول منطقة عبر البحار تنضم إلى الحكم السعودي على حساب «البحرين».

إثر موت «ثويني» جدد «سليمان باشا» تعيين «حمود بن ثامر» كزعيم على منطقة «المنتفق»، وذلك كخطوة أولى ضمن سلسلة من خططه الهادفة لاستئناف أعماله العدائية ضد السعوديين في تلك الأثناء تولى الشريف «غالب» عجلة استمرار الغزوات وقام بحملة ضد «القحطانيين» الذين كانوا متجمعين قرب مصادر المياه في «العقيلان»(*) شمال «بيشة»، لكن قواته التي عجزت عن التقدم إلى موارد المياه وأنهك العطش قواها، وأصبحت فريسة سهلة للبدو الذين انقضوا عليهم وأوقعوا بينهم خسائر فادحة. تبع هذه الحادثة هجوم شنه زعيم الدواسر «ربيع بن زيد» ضد واحة «بيشة»، فدفع بقواته بشراسة لدرجة أن الأهالي هناك أعلنوا استسلامهم وخضوعهم له لكن سرعان ما تعرضت قوات «ربيع» لهجوم مضاد شنه عليه الشريف «فهيد بن عبد الله» الذي كان «غالب» قد أرسله على رأس فرقة قوية لذلك

(*) واد فيه مياه شمال غرب القصيم، بقرب الغما.

(**) من موارد العقاليه من مطير، بمنطقة عفيف، في إمارة الرياض.

الغـرض، إلا أن قـوات «ربيع» تمكنت من دحرها واستسلمت رغم غـياب القوات السعودية المساندة. بعد ذلك هاجم «فهيد» في طريق عودته منطقة «رنية» لكنه لم يحرز سوى انتصار محدود، وهاجم «هادي بن قرملة البقوم» في منطقة «تربة» المجاورة، وفتح عليها جبهتين من اتجاهين اثنين.

حدثت هذه العمليات مع نهاية عام ١٧٩٧ وبداية عام ١٧٩٨، وفي تلك الفترة كان «عبد العزيز» قد أرسل قوة من «الأحساء» لمهاجمة الكويت. تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على عدد كبير من الجمال التي كانت ترعى في المراعي، كما تمكنت من صد هجوم قامت به حامية موجودة هناك وأوقعت بها خسائر جسيمة، علماً بأن المهاجمين فشلوا في إحراز أي مستقر لهم في المدينة.

وفي الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية أرسل «حمود بن ربيعان» زعيم قبيلة «عتيبة» رسولاً إلى «عبد العزيز» يعرض عليه استسلام وخضوع القبيلة إلى الحكم السعودي. والجدير بالذكر أن قبيلة «عتيبة» لم تكن حتى يومنا هذا تحت قيادة الحجاز. على أي حال عرض الرسول على «عبدالعزيز» استعداد القبيلة لدفع تعويض عن المخالفات والانتهاكات التي اقترفوها في الماضي، وفعلاً تم ترتيب أمر هذا الولاء حسب الأصول إلا أن انشقاق قبيلة «عتيبة» أثار حفيظة غالب ودفعه على التحرك، فما كان منه إلا أن قاد حملة بنفسه بمهاجمة «هادي بن قرملة» زعيم قبيلة «قحطان». وبعد معركة في الصحراء أصيبت فيها قوات «هادي» أثناء تبادل الهجمات بخسائر كبيرة اضطرته للتراجع إلى منطقة «رانيه» في حين استمرت قوات «غالب» التي كانت معسكرة في «القنصلية» بهجومها العشوائي المتفكك على الواحة دون

أن تسفر جهودها عن أية نتائج قيمة. في تلك الأثناء أخذت أسهم السعودية ترتفع في المناطق الغربية، كما أن انشقاق «البقوم» وانضمامها إلى المعسكر السعودي جاء بمثابة صفعة عنيفة أخرى في وجه «غالب».

غير «عبد العزيز» وجهة غزواته وأصبح يتجه شمالاً. فأرسل «حجيلان ابن حمد» أمير «بريدة» لغزو «الشرارات» على الحدود السورية. حقق ذلك الغزو نتائج باهرة فاستطاعت القوات السعودية قتل حوالي ١٢٠ رجلاً من رجال تلك القبائل، كما جمعت غنائم ضخمة تم توزيعها بين خزينة الدولة السعودية والجنود المنتصرين. وفي العام نفسه قاد «سعود» قوة ضخمة وتوجه بها إلى الحدود العراقية، وأول ما غزا هناك كان «سوق الشيوخ»، وبعدها غزا «السماوة» وهناك اشتبك مع تجمعات بدوية قوية وبالتحديد من بدو «شمر» و «الظفير»، ودارت معركة بين القوات السعودية وقبائل البدو بقيادة «مطلق بن محمد» زعيم «الجرباء» بالقرب من آبار «الأبيض» وقتل في تلك المعركة «مطلق» وتمكنت القوات السعودية من الاستيلاء على معسكرات البدو وعلى كافة محتوياتها، لكنها تكبدت خسائر فادحة إذ سقط من بين قتلاها «براك ابن عبد المحسن»، وكانت تلك نهاية حياته المفعمة بالأحداث المتقلبة.

بينما كان «سعود» منشغلاً بغزواته في شرق البلاد، كان الشريف «غالب» يقود قوات كبيرة مدعومة بقوات مصرية ومغربية لمهاجمة الواحات الجنوبية الغربية. وبالرغم من قطع العديد من أشجار النخيل والمناوشات العنيفة التي قامت بها قواته خلال استراحتها التي دامت ثلاثة أسابيع، إلا أنه فشل في إضعاف قوة المدافعين. وعليه توجه إلى «بيشة» وهناك تمكنت قواته

(بتشجيع وتغاضي من قبل جماعات صديقة له) من التغلب على كل الواحة وإخضاعها له، وساعده في ذلك الهجوم وتستر عليه «جنينة» و «روشان» الشخصيتان الرئيسيتان في جانب السعوديين.

وكما يشير المؤرخون عاد «غالب» مزهواً بنفسه مسروراً بما أنجزه، وتوجه في طريق عودته إلى «الخرمة» وأقام معسكراً هناك انتشرت فيه جحافل قواته. وفي تلك الأثناء غارت عليه قوة كبيرة من قوات الدولة السعودية بقيادة «هادي بن قرملة»، واجتاح ذلك الهجوم العنيف كل ما كان أمامه، فما كان من قوات «غالب» إلا أن انهارت وتفرقت ولاذت بالفرار تاركة كل ما في المعسكر من غنائم إلى السعوديين الذين طاردوهم دون هوادة وأوقعوا بينهم العديد من القتلى وسلبوا كل ممتلكاتهم، وبلغ عدد القتلى بين رجال «غالب» ١٢٢٠ قتيلاً بما فيهم الشريف «مسعود بن يحيى بن بركات» وابن أخيه «هزاع»، وعدد آخر من كبار الزعماء. هذا وخسرت القوات العثمانية والمصرية والمغربية التي كانت تقاتل إلى جانب قواته ما يزيد على ٦٠٠ رجل. علاوة على ذلك استولى السعوديون على رواتبهم التي كان من المفروض أن توزع عليهم في صباح اليوم التالي.

وفي سياق عرضه للأحداث يتحول المؤرخ «ابن بشر» ليحدثنا عن أحداث مثيرة تتعلق بالاحتلال الفرنسي عام ١٧٨٩ لكل من مصر وفلسطين، ويزودنا بوصف مؤثر لمعركة «الفدان» ووصف آخر عن وصول الأسطول البريطاني الذي يقول بأنه حصل على صورة مصغرة له من سجلات الطائف التي وجدها عند احتلال «عثمان المضايفي» لها. لكن تلك القضية لا تعنينا كثيراً لما نحن بصدد أحداث الصحراء العربية. إن استمرار

الحروب الطائفية في الصحراء والتجاهل التام وعدم الإكتراث بما يحدث في العالم من أحداث (كان من الممكن أن تنتشر لتصل إلى الصحراء العربية وإلى الأماكن المقدسة فيها) ليؤكد على منحى الصحراء العربية عن تلك الأحداث باستثناء الانتصارات التي حققها البريطانيون على قوات نابليون التي توجت بانتصارها على الهند. وحسب ما يقول «ابن بشر» نقل رجل من «بني حرب» أخبار معركة الفدان إلى مكة وكان ذلك الرجل الشخص الوحيد الذي كتبت له الحياة من بين مجموعة من رجال عشيرته التي كانت تحارب إلى جانب الأتراك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن رجلاً ادعى أنه شاهد «نابليون» في معركة الفدان عام ١٧٩٩ وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، وأخبر الملك «حسين» الذي كان آنذاك ملكاً على الحجاز بقصة معركة الفدان.

وبعد انقضاء صيف العام نفسه والذي هزم فيه «غالب» في منطقة «الخرمة» خلال شهر آذار من عام ١٧٩٨، كلف «عبد العزيز» زعيم قبيلة «الدواسر» والمدعو «ربيع بن زيد» بشن هجوم على «بيشة». قاد «ربيع» قوة تشتمل على عناصر من قبيلة قحطان وأغار على القرى الصغيرة حول الواحة، واستولى على بعضها بهجوم عاصف واستسلم بعضها الآخر، واستمر الهجوم إلى أن استسلمت «روشان» وأعربت عن ولائها لـ «سالم بن محمد بن شكبان» الذي كان «عبد العزيز» قد عيّنه أميراً جديداً على كافة تلك المنطقة. لكن مع بداية العام القادم أعد «سليمان باشا» والي العراق جيشاً كبيراً ضم عناصر نظامية عدد من البدو، وزوده بعدد من المدافع وبحوالي ١٨ ألف فارس وذلك لغزو الأحساء.

سارع أهالي «الهفوف» و «المبرز» وقرى الواحة هناك إلى الاستسلام لـ

«علي كيخا» قائد ذلك الجيش، إلا أن الحامية العسكرية في «الهفوف» والحامية العسكرية في «قصر «صاهود» بالمبرز والتي كانت تحت إمرة «إبراهيم بن سليمان بن عفيصان» و «ماجد بن سليمان» من ثادق واجهتا الغزاة الذين بدأوا هجومهم بمهاجمة منطقة «المبرز».

مارس «علي كيخيا» (ولمدة استمرت من بداية شهر شباط وحتى بداية شهر نيسان (ابريل) من عام ١٧٩٩) كافة الأساليب المتبعة في فرض الحصار، وذلك للنيل من حامية «ماجد» المؤلفة من حوالي مائة رجل. كرر هجماته على أسوارها إلا أنه لم يتمكن منها، وعندما وصلت أخبار تقدم «سعود» لتخفيف الضغط عن حامية «ماجد» والقادة الآخرين، قرر «علي كيخيا» أن يرفع الحصار ويغادر تلك المنطقة، لكن قبل مغادرته أقدم على حرق كافة المعدات التي استخدمها في الحصار، كما دفن ذخيرته في رمال الصحراء.

وعندما سمع «سعود» بهذه التطورات سارع إلى منطقة «ثاج» ليعترض مسير قوات العدو التي توقفت لتعيد ترتيب أوضاعها ولتستعد للمعركة التي حدثت في وقت لاحق بمنطقة آبار «شباك». وبعد عدة أيام من المناوشات العشوائية المتقطعة من قبل الجانبين، اقترح «علي كيخيا» إمكانية التوصل إلى هدنة. وافق «سعود» على ذلك الاقتراح كما وافق على عدم التحرش بالقوات التركية أثناء عودتها إلى ديرتها. وتوجه «سعود» بنفسه إلى «الأحساء» ليشرف على إعادة بناء القلاع والمراكز الدفاعية الأخرى في تلك المنطقة، وعَيّن «سليمان بن محمد بن ماجد» أميراً عليها، وتجدر الإشارة إلى أن سليمان هو والد بطل معركة «المبرز». لم يصل «سعود» إلى الدرعية

إلا في منتصف الصيف هناك وصلته أخبار نجاح حملة الحج التي قام بها فريق من «الوشم» و «القصيم» بقيادة أمير «شقراء» الذي كان برفقة كلاً من «علي» و «إبراهيم» ابنا المرحوم الشيخ «محمد بن عبد الوهاب». والذين ساهموا في إنجاح هذه الحملة كان حقيقة أن «غالب» وبعد هزيمته في «الخرمة» كان قد أرسل رسالة إلى «عبد العزيز» وعده فيها بتوخي السلام بين الطرفين، كما وجه دعوة إلى القائد السعودي ناشده فيها السماح لرعاياه بالتوجه إلى الحج كما كان الحال في السابق.

شجعت هذه التجربة التي خلت من الأحداث والمشكلات، السعوديين على معاودة الحج في شهر نيسان من العام التالي، لكنها تمت على نطاق أوسع من ذلك بكثير، إذ قام «سعود» بأول رحلة حج له شارك فيها زعماء «نجد» ونساؤهم وأطفالهم، وسارت أمور تلك الحملة على ما يرام واستقبل «غالب» الأمير «سعود» بكل الحفاوة والتكريم ودعاه للعودة في حج العام القادم بصحبة والده. يبدو أن الطرفين قد تجاوزا خلافاتهما إلى الأبد، علماً بأن لديهما كل الأسباب الدينية والدنيوية التي تجعل كل فريق يكره الآخر، وعلى أي حال وبعد مضي اثني عشر شهراً انطلق «عبد العزيز» من الدرعية وكان عمره آنذاك ثمانون عاماً، وبعد مسير دام لمدة سبعة أيام شارك فيه ابنه الأمير «سعود» وعدد كبير من أهالي الدرعية، شعر «عبد العزيز» لدى وصول القافلة إلى «الدوادمي» بوعكة صحية، وقرر أن يعود إلى الدرعية وكلف ابنه «سعود» بأن يحج نيابة عنه (ويهب الحجة له).

ومرة ثانية حظي الأمير «سعود» بكل الحفارة والترحيب من قبل شريف مكة. وفي هذه المرة قدّم الأمير «سعود» مبلغ كبير من المال إضافة إلى الهدايا

وطلب توزيعها على فقراء الحرمين، ثم عاد إلى الدرعية هو مسرور جداً بعلاقات الصداقة التي تبدو قد ترسخت جذورها بين جيرانه من الناحية الغربية.

استمر تعليق أو تعطيل العمليات العسكرية لمدة عامين: أو على الأقل يمكن القول أنه لا توجد وثائق تاريخية تدل على حدوثها - ويبدو أن الهدنة التي اقترحها «غالب» قد طبقت ضمنياً على كافة الجبهات. لكن يبدو أن «سعود» أخيراً كسر طوق هذا السلام وأعد حملة خلال شتاء عام ١٨٠١/ ١٨٠٢ واتجه بها نحو الحدود العراقية، وبعد المناوشات المعتادة والمتقطعة والغير هادفة ضد «المنتفق» و «الظفير» وجد نفسه في شهر آيار من عام ١٨٠٢ أمام مدينة «كربلاء» المتميزة دينياً بالنسبة للشيعة. وبعد أن حاصرها لفترة وجيزة شن عليها هجوماً عاصفاً وقضى على المظاهر الشركية التي كانت تعلو القبور وسويت قبابها بالأرض وفق تعاليم الدين الإسلامي وحمل فيها من مجوهات وبعد ذلك عاد سعود إلى موارد مياه الأبيض بالقرب من «الماوة» وهناك عسكر «سعود» ليحصي الغنائم وليوزعها وفق الأسلوب التقليدي المعروف. عاد بعد ذلك إلى الدرعية ليتلقى تهاني والده وتهاني أهالي الدرعية على نجاحه في أول ضربة شجاعة جاءت لتخدم حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التصحيحية والتي وجهها «سعود» ضد نظام كان في نظر اتباع الشيخ تجسيداً حياً للشرك. كانت تلك وبالتأكيد عملية وصلت أصداؤها إلى مسافات أبعد من حدود الطائفة الشيعية، لكنها ربما كانت بداية انطلاقة ثورة ضد قادة دعوة الشيخ محمد وبالفعل أسفرت عن نتائج مفجعة بالنسبة للحكم السعودي. وسرعان ما تمت ممارسة المنهج

الذي استخدم ضد «كربلاء» في المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز. وكانت تلك الممارسة مقدمة لبدء موجة أعمال الانتقام، إذ قام أحد ضحايا الأعمال التي وقعت في «كربلاء» بتوجيه أول انتقاماً لما لحق بمقدسات الشيعة في كربلاء.

وعند حوالي منتصف شهر آيار من عام ١٨٠١ كان حاكم مسقط «سلطان ابن أحمد بن سعيد» يعد حملة بحرية ضخمة. توجه سلطان بتلك الحملة ضد جزر البحرين التي لم يواجه أية صعوبة في نزعها من أيدي زعماء آل خليفة «العتوب» الذين كانوا قبل حوالي نصف قرن قد استولوا عليها من فارس.

ناشد زعيم آل خليفة السلطة في الدرعية أن تقدم له المساعدة لاسترداد تلك الجزر، وبعد نضال عنيد تم طرد الغزاة من الجزر وتكبدوا خسارة في الأرواح بلغت ألفي رجل.

وإذا رجعنا إلى المجرى الرئيسي لأحداث الدولة السعودية والتي تمت عام ١٨٠٢ وإلى الفترة التي شهدت موت زعيم عتيبة «حمود بن ربيعان»، إضافة إلى موت «سليمان باشا» المروع والذي خلفه «علي كيخيا» كوالي على بغداد، نجد أنه حدث ترد في العلاقات بين الدرعية ومكة. ويعود سبب ذلك التردي إلى حادثة لا يمكن أن يلام بسببها أي من الشخصيات الرئيسية من كلا الجانبين، علماً بأن النتائج الي ترتبت على ذلك الحدث زعزعت الانفراج الهش في العلاقة بين الطرفين والذي برز إلى حيز الوجود إثر هزيمة «غالب» في منطقة «الخرمة». قام «غالب» ولأسباب مجهولة بعزل كبير وزرائه «عثمان بن عبد الرحمن المضايفي الذي توجه إثر ذلك إلى

الدرعية ليقدم خدماته وولائه للدولة السعودية. وبعد أن استقبله «عبد العزيز» وكذلك «سعود» بالترحاب كحليف واعد، رجع «عثمان» إلى ديرته «العبيلة» الواقعة عند سهول مرتفعات الطائف، وهناك سرح كافة بدو الحجاز من الخدمة في صفوف «غالب». جمع حوله نواة جيش يمكن أن يساعد فيه أي عمليات عسكرية يمكن أن يقوم بها الوهابيون ضد سيده السابق.

قام «غالب» بمبادرة الهجوم على «العبيلة»، إذ قاد قوة ضخمة تشتمل على أعتى القوات النظامية، إلا أنه فشل في التأثير على المتمردين وتراجع إلى الطائف ليعيد تجميع قواته، وفي أعقاب ذلك تلقى «عثمان» استجابة رائعة لطلبه في تأمين تعزيزات تساعده على الهجوم على قوات الشريف، إذ قدم «سالم بن شكبان» لنجدته على رأس فرقة من «بيشة»، كما تقدم من مناطق «تربة» «مسلط بن قطنان» على رأس قوة من «سبيع» المستوطنين في مناطق «البقوم». وكان «هادي بن قرملة» في المقدمة على رأس محاربين من قحطان ومن العتبان. زحف «عثمان» بقواته نحو الطائف التي كان «غالب» قد عززها وحصنها للدفاع عنها، إلا أن منظر الأعداد الضخمة التي احتشدت ضده أملت عليه التراجع ولذلك سحب قواته النظامية إلى مناطق آمنة في مكة، تاركاً مدينة الطائف تحت رحمة أعدائه الذين احتلوا دون أية مقاومة عملية.

وعندما وصلت أخبار هذه التطورات المرضية إلى «سعود» استدعى كافة القوات السعودية من القبائل والحضر، وتقدم بها إلى «السبلة» بالقرب من

«الزلفي» وهناك بقي لفترة قصيرة ليرتب قواته. تابع بعد ذلك مسيره ووصل إلى مشارف الحجاز في نهاية شهر آذار من عام ١٨٠٣ وعسكر بقواته بالقرب من آبار «عشيرة» في وادي «العقيق». مكنه ذلك الموقع من السيطرة على الممرات الجبلية المؤدية إلى سهول مكة. وكانت تلك فترة يؤدي المسلمون فيها فريضة الحج، وكان الحجاج من سوريا ومصر والمغرب، إضافة إلى الحجاج المرافقين لسلطان مسقط متجمعين في مكة أيضاً. وكانوا بالطبع مسلحين وبإمكانهم صد أي غزو عليهم. أبدوا في البداية استعداداً لشن هجوم وقائي إلا أن مجالسهم اختلفت في الرأي، وأخيراً قرروا العودة إلى ديارهم طالما أن الطرق الساحلية كانت لا تزال مفتوحة أمامهم.

أصاب الذعر «غالب» وسحب قواته النظامية من مكة وتراجع بها إلى «جدة» وأخذ معه كل ممتلكاته ومخزونه من المؤن.

حل «سعود» معسكره وتوجه بقواته إلى منطقة «السيل الكبير» وهناك اغتسل السعوديون وأحرموا استعداداً لدخول شعائر مكة. وبالفعل دخلوا مكة دون أية مصادمات وأعلن «سعود» عفواً عاماً عن الأهالي ووزع الهبات والصدقات السخية على الناس قاطبة وبدون استثناء، وأدى رجاله شعائر العمرة. وبعد ذلك مباشرة نشر «سعود» قواته من أجل المهمة التي كان يعتقد أنه مُثاب عليها وهي البحث عن القباب التي بنيت فوق قبور الأبطال والبطلات في صدر الإسلام والعمل على إزالتها.

استمر السعوديون في هذا العمل لعدة أسابيع، لدرجة أن أي بناء مخالف في الشكل للتعاليم الإسلامية تعرض أيضاً للزوال وتحول إلى أنقاض.

كان «غالب» في تلك الفترة يحاول كسب الوقت لتعزيز مواقعه حول «جدة»، والتالي ليتسنى له تحميل كل ما هو ثمين من ممتلكاته على السفن الراسية في الميناء لتكون جاهزة إذا اقتضت الضرورة. وكان أيضاً يرسل الرسل إلى «سعود» ويقترح إجراء تسوية ودية لخلافاتهم، لكن «سعود» بعد أن عين «عبد المنعم بن مساعد» أميراً على مكة (وهو أخ لغالب)، تقدم بقواته نحو «جدة» على أمل الاستيلاء عليها بهجوم عاصف، لكنه بعد أن وجد أن التحصينات حول «جدة» كانت قوية للغاية ولا يمكن مهاجمتها بشكل مباشر نظراً لأن غالب كان قد بنى حولها سوراً وحفر حوله خندقاً من الماء، قرر أن يرجع إلى «مكة». وفي مكة وضع في كل حصن من خصونها حاميات عسكرية قوية وبعدها رجع إلى «نجد» في منتصف صيف عام ١٨٠٣، وبقي في الدرعية دون القيام بأي نشاطات عسكرية.

إن الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء «جدة» لم يترك للسعوديين الكثير من العمل الذي يجب إنجازه ليتم به إنهاء الإنجازات الباهرة التي حققها «عبد العزيز» خلال فترة حكم له زادت على ٣٨ سنة. علاوة على تلك الفترة المليئة بالأعمال النشطة والتي امتدت لأكثر من نصف قرن كان خلال السنوات الأولى منها الساعد الأيمن لوالده في كل حملاته وغزواته المحلية التي أرست الأسس التي توجب عليه أن يبني عليها صرح إمبراطوريته الخاص به.

بلغ «عبد العزيز» في هذه الفترة سن الثانية والثمانين عاماً، لكن المرض الذي أصابه قبل عامين ومنعه من تحقيق أمنيته في حج بيت الله كان مؤثراً

على تردي صحته في آخر أيامه. ويقال إنه في آخر أيامه أصيب بسكتة دماغية وكان الناس يدعون له ربهم بالشفاء، وكانوا يوزعون الصدقات بسخاء وجود على كافة الفقراء في المدن والقرى التابعة لحكمه. وعلى أي حال لم يكن مقدراً لحكمه أن يدوم لفترة أطول من ذلك، علماً بأن الطريقة التي انتهى بها حكمه كانت غير متوقعة ومأساوية: حدث أن كان «عبدالعزيز» في وسط الصف الأول من المصلين الذين كانوا يؤدون صلاة العصر إما في اليوم الثاني (أو الثالث أو الرابع) من شهر تشرين أول (اكتوبر) في المسجد الكبير في «طريف» والتي تعتبر قلعة الدرعية، إذ قام أحد الغرباء والذي اعترف بأنه كان من «الدراويش» بالهجوم على «عبد العزيز» أثناء السجود. كان ذلك الرجل جالساً في الصف الثالث من صفوف المصلين ومباشرة خلف «عبد العزيز»، وفجأة ألقى بنفسه على «عبد العزيز» وطعنه بسكين في ظهره نفذت إلى معدته، وكان أخوه «عبد الله» ساجداً في تلك اللحظة بجانبه، وحاول ذلك الرجل قتل «عبد الله» أيضاً فأصابه بجرح بليغ إلا أن عبد الله شهر سيفه بسرعة وضرب ذلك الرجل وهرع باقي المصلين وأجهزوا عليه. أصيب الناس في المسجد بالذعر إلا أن سرعان ما عاد الهدوء إلى المسجد عندما علم الناس حقيقة الأمر. أرسل رسول إلى «سعود» الذي كان في حينها في واحة «مشيرفة» وتم استدعاؤه إلى الدرعية. كان «عبد العزيز» فاقداً للوعي لكنه على قيد الحياة إلى قلعته، لكنه لم يعش طويلاً وفارق الحياة بعد حين.

لم يكن بالإمكان رد الحياة إلى الميت، كما أن القاتل كان قد نفذ فعلته.

ولدى وصوله إلى مسرح الجريمة تولى «سعود» زمام الأمور وأخذ يعزي الناس بفقدان الزعيم العظيم ويطلب منهم الهدوء والحرص على واجباتهم تجاه الدين الإسلامي، وبعد ذلك وفي المكان نفسه جدد الموالون المخلصون له البيعة والولاء بمناسبة تعيينه وريثاً للعرش.

يعتقد أن المقصود من محاولة الاغتيال تلك كان شخص الأمير «سعود» ويقال إن ذلك انتقاماً من الأعمال التي قام بها في «كربلاء» وهي موطن القاتل. والمقولة الأخرى وهي الأقل احتمالاً أن القاتل كان من أكراد «العمارية» التي تقع بالقرب من «الموصل» ويدعى «عثمان»، ويقال بأن الدافع وراء إقدامه على ذلك العمل غير معروف باستثناء فرضية مفادها أنه قبض مبلغاً من المال ليقوم بذلك العمل لعدم توافر أي سبب ديني آخر يدفعه إلى القيام به، وذلك لكونه سني وليس من الشيعة.

وفي معرض نعيه لـ «عبد العزيز» ينظم «ابن بشر» قصيدة بدوية ملحمية يصور فيها ظروف وأحوال نجد خلال فترة حكمه. ونادراً ما ضمنت الحملات والغزوات التي حدثت خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر تنفيذ البيانات التي صدرت عن «عبد العزيز» بخصوص الأمان المطلق حيال مفاجآت الزمن والتأمين على الممتلكات في كافة أرجاء مملكته، وخاصة المترامية الأطراف منها حيث كان من الممكن أن تترك الجمال والخيول ترعى دون حراسة أو بحراسة رجل واحد. ومما لا شك فيه أن هدف «عبد العزيز» و «سعود» تجسد في العمل بشكل دؤوب لا يعرف الكلل من أجل تحقيق مثل تلك المثل، لكن كان مقدراً لتلك المثل أن تكون من نصيب

الأجيال التالية المقدر لها أن تعمل على تحقيقها في الصحراء العربية. هذا ولا غبار على الإطلاق في مدى ورع وإحسان «عبد العزيز»، لكنه عاش عمره في عالم مليء بالشر، كما أن المهمة التي كلف نفسه بها وهي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كانت تتطلب ذراعاً قوية لتحمي وتدافع عن الضعفاء ضد الأقوياء. كان يضع تلك المهمة نُصَب عينيه دون تردد أو خوف، في حين كان صبره على ثورة المتمرين ضد سلطته (حتى تحت أحلك الظروف) بارزاً ومتميزاً مثل تميز نجاحه في اللجوء إلى القوة في ترويض أشرس الرجال وإخضاعهم إلى سلطته. كان الناس يدفعون الجزية له باستمرار تحت طائلة فرض عقوبات جوهرية في حال تأخرهم أو تهربهم من دفعها، كما أن الناس كانوا يلبون دعوته (سواء في القرى أو في القبائل) للانضمام إلى القوات المقاتلة التي كان من حق الدولة تأمينها لخدمة الأغراض العسكرية... لبى الناس الدعوة تحت طائلة فرض عقوبات على المتخلفين.

لم يزودنا المؤرخ «ابن بشر» بتفاصيل كاملة عن المصادر والموارد الاقتصادية للدولة في أيام «عبد العزيز»، لكنه زودنا فقط ببعض المعلومات عن هذا الموضوع، وذلك ليوضح الوسائل التي كانت متبعة في تمويل احتياجات الحكومة. فعلى سبيل المثال يقول «ابن بشر» إنه في سنة من السنوات وصلت أموال الجزية التي دفعتها قبيلة «مطير» إلى ٣٠ ألف ريال (أي حوالي ثلاثة آلاف جنيه استرليني من الذهب)، وحدث أنه في العام نفسه دفع البدو إلى الخزينة المركزية مبلغاً قدره ٤٠ ألف ريال، ودفعت قبيلة «هتيم» الأقل شأناً مبلغاً وصل إلى سبعة آلاف ريال. وبالإضافة إلى هذه

الضرائب النظامية التي كانت تُفرض على الماشية وواحات النخيل والمحاصيل الأخرى (والتي لا تتوافر لدينا معلومات عنها)، فقد جلبت الحملات العسكرية المتكررة والتي كانت السلطة السعودية تنظمها مبالغ كبيرة إلى خزينة الدولة. وكان لخزينة الدولة الحق في خمس غنائم الحرب. ولهذا يبدو أن الدولة الوهابية كانت في حالة جيدة لكن متواضعة لذلك، لأن نفقات المؤسسات والمنشآت الدينية والتربوية كانت تمتص نسبة كبيرة من عائدات الدولة، ناهيك عن أعمال ونفقات الصدقات والتبرعات الخيرية. وعلاوة على ذلك كان من الصعب تجنب التكاليف المترتبة على كرم الضيافة. ظل نمط الحكم وإدارة شؤون الناس والذي جاء وريث ظروف وأحوال سادت في الصحراء العربية على مدى قرون عديدة سبقت الحكم السعودية، على الحالة التي كانت متبعة في منتصف القرن الثامن عشر... واستمر حتى يومنا هذا، لكن لا بد من أن تطرأ بعض التعديلات على كافة جوانب هذا النمط نظراً لتدفق الخيرات التي تميزت بها الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

كان الناس يفهمون وببساطة أن ليس لديهم أي سبب اقتصادي يدعو إلى عدم الرضا على حكامهم، إذ تعرضوا في الماضي لكوارث طبيعية مثل المجاعة والجراد ووباء الطاعون. أدرك الناس أيضاً أن حكامهم كانوا يرقون إلى سدة الحكم أو كانت تتم الإطاحة بهم نتيجة أسباب شخصية وليس نتيجة أسباب اقتصادية. ولا تزال بعض معالم الأسلوب القديم سائدة بالرغم من التحديث الذي طرأ على ظروف الحياة، ومثال ذلك التزام الدولة بتقديم الخدمات المالية الغير عائدة بالربح عليها والمتعلقة بالخدمات الدينية وأعمال الصدقات وكرم الضيافة.

ولا تزال السلطة المركزية كما كانت في السابق مركزة في شخص الحاكم الذي كان مطلق الحرية في اختيار الأشخاص الذي يسيرون أمور مختلف دوائر الدولة وعلى أعلى المستويات، ولم يطرأ على ذلك النظام سوى تعديلات بسيطة لوحظت على صعيد الأمور التي كان من صلاحية القاضي والحاكم التصرف فيها (تماماً كما كانت الحال في أيام «عبد العزيز» الأول) والتي تستعبد تدخل الرسميين القائمين على جمع الأموال والإشراف على عائدات الدولة الواجب تحصيلها من مصادر ومناطق مختلفة.

وعليه فإن لمحة سريعة عن الإطار الإقليمي الذي استنبطه «عبد العزيز» للتعامل مع الاحتياجات الإدارية لإمبراطوريته، والذي أخذ شكله النهائي خلال فترة حكمه، تزودنا بملخص واف عن تفاصيل سجل النشاطات التي قام بها «عبد العزيز» والتي تعرضنا لها في هذا الفصل من الكتاب. وعليه جاء نظام الأقاليم وترتيبات مهام كبار الرسميين في الحكومة التي آلت من بعده إلى ابنه «سعود» على الشكل التالي:

اسم الإقليم	اسم الحاكم	اسم القاضي
عسير تهامة	عبد الوهاب أبو نقطة	–
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفي	–
عُمان	صقر بن راشد من رأس الخيمة	–
الأحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	–
القطيف	أحمد بن غانم	–
الزبارة والبحرين	سليمان بن خليفة	–
وادي الدواسر	ربيع بن زيد الدوسري	سعيد بن حجي (الحوطة)
الخرج	إبراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
المحمل	ساري بن يحيى بن سويلم	–
الوشم	عبد الله بن حمد بن غيهب	عبد العزيز بن عبد الله الحسيني
سدير	عبد الله بن جلاجل	حمد بن رشيد العريني
القصيم	حجيلان بن حمد (بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي	–
الدرعية	–	حسين بن محمد بن عبد الوهاب
الإقليم التابع للإمام	–	عبد الرحمن بن خميس
المجمعة منيخ	تحت حكم سدير	محمد بن عثمان بن شبانة
الحوطة، الحريق، الأفلاج	تابعة للخرج	سعيد بن حجي (الحوطة)
بيشة	سالم بن شبكان	–
رنيه	مسلط بن قطنان	–
تربة	حمد بن يحيى	–

ملاحظة : الفراغات التي يشار إليها بخط (–) تدل على أنه لا يوجد شخص يشغل ذلك المنصب بشكل دائم. وعادة كان مثل ذلك المنصب يشغل من قبل القاضي الذي يتم إرساله من قبل القيادة العليا لمدة عام أو نحوه.

الفصل الرابع

سعود الثانى « ابن سعود »

صفحة بيضاء

سعود الثاني « ابن سعود »

كان عمر الأمير «سعود» خمسة وخمسون عاما، عند تولي الحكم في الدرعية وكان جده الأكبر يدعى بهذا الاسم، وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على السلالة الحاكمة قبل عهد الحركة الوهابية. كان الأمير «سعود» على اطلاع مباشر بالتوجيهات العليا لشؤون الدولة في عهد حكم والده، وبدأ اطلاعه على تلك الشؤون منذ أن نودي ورياً للعرش في عام ١٧٨٨، واستمر اطلاعه على شؤون الدولة لمدة خمسة عشر عاماً، وله سجل حافل بالأعمال العسكرية التي غطت فترة دامت ٣٦ عاماً كان أولها مراسة وحنكته في الحملة العسكرية الناجحة ضد «عودة سدير» والتي كانت تحت قيادة ابن عمه اللزم «هذلول بن فيصل بن محمد» عام ١٧٦٧. ومنذ ذلك التاريخ وفي معظم الأوقات كان «سعود» قائداً للقوات التي بعث بها والده لأغراض متعددة على مدى فترة حكمه. وهكذا كانت له خبرة رائعة في خوض الحروب وفي إدارة شؤون الدولة التي آلت جميعها إليه ليتمم ما بدأه والده، فشهدت فترة حكمه ذروة إنجازات الحركة الوهابية.

وها هو «سعود» مجدداً يمتطي صهوة حصانه متوجهاً خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٠٤ شمالاً نحو «تنومة» في إقليم «القصيم». وهناك حشد رجال قبائله ومحاربيه من تلك المنطقة استعداداً لحملة فصل الربيع. مكث «سعود» هناك حتى نهاية شهر آذار واحتفل بأيام عيد الأضحى المبارك، وبعد انتهاء فترة العيد أعلن بشكل مفاجئ عن قراره بالعودة إلى الدرعية، وعليه سمح لكل الفرق العسكرية من مناطق الشمال بما فيها فرقة «الظفير» بالراحة وبالذهاب إلى ديارهم، لكن قاد بقية قواته متجهاً جنوباً

إلى الدرعيـة . ونظراً لحقيـقة أنه كـان أمـام فرقة «الظفـير» سفر طويـل قبل الوصـول إلى ديارهم على الحدود العراقية ، وحقيقـة أنه سبق وأن نشر خبر عـودته إلى «الدرعية» فقـد قـام فـجأة وغير وجهته وانطلق بقـواته بالسرعة القصوى إلى «البصرة» ، وعندما وصل إلى المناطق المجاورة لها اشتبك مع فرقة من خيالة «المنتفق» كـانت إمرة «منصور بن ثامر» . تمكن من دحرها ومن أسر قـائدها «منصور» وأرسله إلى أحد السجون في الدرعية وبقي فيه لمدة أربع سنوات . وإثر هذه الـواقعة عرج «سعود» بقـواته على «الزبير» وأرسل جماعة من قبائل البدو الرحل لتهديد المناطق المحيطة بالبصرة لكن السكان أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ولم يغادروا تلك المناطق . صعد «سعود» من حشود قواته لتعزيز الحصار على «البصرة» ، وقام خلال فترة الحصار بإزالة القباب المبنية فوق القبور في المقابر الواقعة وراء جدران المدينة ، وهدم كل المجسمات المقدسة هناك بما فيها مزاري «الحسن» و«طلحة» اللذان لم يعاد ترميمهما إلا بعد سقوط الدرعية . هاجم «سعود» في تلك الفترة أيضاً قلعة «الدريهمية» ودمرها وقتل كافة رجال الحامية العسكرية التي كانت بداخلها . وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر كافة الجنود والرماة على مدافعه بإطلاق النيـران دفعـة واحدة . أدخل دوي الطلقات الرعب في قلوب أهالي المدينة المحاصرة ، إلا أنهم لم يظهروا أية بوادر ضعف . وبعد حصار غير مجد دام لمدة اثنى عشر يوماً ، أمر «سعود» قواته بالتراجع والعودة إلى الدرعية . لكن قـبل عـودته أمـر جنده بجـمع المحـاصـيل ، التي كـانت في ذلك الـوقت قـد نضجت وعلى وشك الجني ، وأخذها جميعها لنفسه .

وعند تلك الفترة تقريباً كان سلطان مسقط والمدعو «سلطان بن أحمد بن سعيد» قد قتل في اشتباك بحري مع عرب «القواسم»[1] من منطقة «رأس الخيمة» وخلفه في الحكم أخوه «بدر». وجد «سعود» آنذاك أنه من الضروري إعادة النظر في بعض الترتيبات الإدارية التي كان والده قد أقرها في بعض الأقاليم، وعليه أمر بنقل «إبراهيم بن عفيصان» من «الخرج» إلى «الأحساء» ليحل محل «سليمان بن محمد بن ماجد» الذي قرر «سعود» إقالته من منصبه.

لكن لعله من أبرز التطورات التي شهدها ذلك العام، والتي تركت أثراً على مستقبل الصحراء العربية، كان مجيء «محمد علي باشا» إلى السلطة في مصر. لم يكن في تلك الفترة سوى قائداً للقوات التركية هناك. لكن بسبب انزعاجه من حادثة تافهة تتعلق بإيقاف أو التأخير في توصيل المؤن والرواتب إلى القوات العثمانية، قام بقتل «محمد باشا» حاكم مصر آنذاك ومزاولة مهام الحكم من بعده إلى أن يأتي إقرار بذلك الوضع من الصدر الأعظم، وفعلاً أقر الصدر الأعظم سلطة «محمد باشا» كحاكم على مصر وثبته في الحكم.

وفي ربيع عام ١٨٠٥ ووسط تقارير مفادها أن الناس في «الظفير» أصبحت تتساهل في الأمور والواجبات الدينية، وأنها أصبحت تشارك بعض القبائل في الهجمات على القبائل التابعة للدولة السعودية، قرر «سعود» ترتيب وإعداد حملة تأديب واسعة. وعند وصوله إلى منطقة «لينة»

(١) وصف القواسم بالقرصنة تهمة بريطانية روجوا لها تبريراً لتدخلاتهم وفرض نفوذهم في الخليج (المعلق).

في الجانب العراقي من صحراء «الدهناء» حيث كانت جماعة «الظفير» معسكرة هناك، وطلب الأمير «سعود» كما هي العادة من تلك الجماعة الانضمام إلى قواته، لكن لم تستجب إلى ندائه سوى فرقة صغيرة كانت تحت إمرة زعيمها «مسلط بن شويش بن عفنان». وعندما علق «سعود» على قلة عدد أفراد القوة التي لبت النداء وذبح زعيم القبيلة، رد «مسلط» قائلاً: إن باقي رجال القبيلة لم يعودوا يعترفوا بسلطة «سعود» عليهم وأنهم ينوون مهاجمة قبيلة «مطير» منتهكين بذلك الوعود التي قطعوها على أنفسهم للأمير «سعود» الذي قام قبل فترة قصيرة بالتدخل وتسوية الخلاف فيما بينهما. تحرك «سعود» بقواته نحو الحدود العراقية، لكنه غيّر وجهته فجأة وعاد ليلقي بكامل ثقل قوته على معسكر «الظفير» وتمكن في ذلك الهجوم من قتل عدد كبير منهم، وفر العدد الآخر هائماً على وجهه في الصحراء، كما استولى على كافة ممتلكاتهم التي شملت غنائم طائلة من الجمال والغنم والخيول والخيام والمؤن ومعدات في المعسكرات.

عاد «سعود» بعد ذلك الغزو إلى الزلفي وهناك وزع غنائم الحرب على المقاتلين. اتضح فيما بعد أنه كان في حوزة جماعة «الظفير» عدد كبير من الجمال والأغنام العائدة ملكيتها إلى عدة جماعات من قرى «سدير»، لذلك قام «سعود» بإعادة هذه الجمال والأغنام إلى أصحابها بناءً على ما قدم له من أدلة وبراهين مقنعة.

حوّل «سعود» بعد ذلك اهتمامه إلى مناطق الحجاز، وهناك شيد قلعة في وادي فاطمة وعززها بحامية عسكرية لممارسة الضغوط على «غالب»، إضافة إلى أن قلعة السعوديين في «زيمه» الواقعة في وادي اليمانية عند النقطة

التي تشرف على مدخل وادي فاطمة، كانت أيضاً مستهدفة. تلقى «عبدالوهاب أبو نقطة» أمير تهامة عسير أوامر بالتوجه إلى «جدة» بكل ما لديه من قوات متواجدة في تلك المنطقة. بلغ تعداد تلك القوة ٦٠٠٠ رجل وعسكر بهم في منطقة سعدية» القريبة من الساحل، والتي تبعد مسيرة يوم ونصف على ظهر الجمال.

تجلت ردة فعل «غالب» بأن قام على الفور بالتوجه بقوة ضخمة (يقال إن تعداد رجالها بلغ عشرة آلاف رجل) لمهاجمة «أبو نقطة» مستبقة وصول أية تعزيزات إضافية له. وفي الطريق اصطدمت قوات «غالب» مع قوة من «عسير» قوامها أربعون رجلاً تمكنوا من القضاء عليهم عن بكرة أبيهم؛ إلا أن منازلة قوات أبو نقطة كانت أمراً مختلفاً تماماً، إذ تمكنت قوات أبو نقطة من دحر قوات «غالب» وإجبارها على الفرار مخلفة ورائها كل ممتلكاتها وعدد معسكراتها وأسلحتها وذخائرها ومدافعها، وسقطت جميعها غنيمة في أيدي رجال أبو نقطة، ويقال إن عدد الأسلحة الخفيفة وبنادق الفتيل (الدك) بلغ ٢٥٠٠ قطعة، وبلغ عدد القتلى من رجال «غالب» ٦٠٠ قتيلاً معظمهم من الأتراك (العثمانيين). فر «غالب» إلى مكة وعاد «أبو نقطة» إلى ديرته (بلده) جذلاً مسروراً، علماً بأنه لم يصل إلى «جدة» التي كانت في الأصل النقطة المستهدفة لحملته. وبالمناسبة نقول هنا إن «ابن بشر» لم يشر إلى وجود «غالب» في مكة، لكن تدل كتبه التاريخية على آخر ما عُلم عن «غالب» أنه كان في «جدة» عندما عاد «سعود» إلى «نجد» بعد أن انتهى من تثبيت حاميات عسكرية في قلاع مكة. يقال أيضا بأنه ذهب فيما بعد إلى مكة، وليس لدينا علم فيما إذا استمرت الحامية السعودية في التمركز بتلك القلاع أم لا.

في تلك الفترة كانت كافة المناطق في الصحراء العربية على أعتاب موجة قحط ومجاعة، ويعزو الناس - ومنذ القدم - نقمة تلك المجاعة إلى اغتيال الإمام «عبد العزيز». بدأ جفاف موسم شتاء عام ١٨٠٤/ ١٨٠٥ واستمر لمدة ست سنوات (ويقول بعض الكبار في السن إنها استمرت لمدة تسع سنوات). عانى الناس خلال تلك الفترة وفي كافة مناطق الصحراء العربية من شظف العيش الذي تجلى بأحلك حالاته في مناطق الحجاز. ويعود السبب في ذلك إلى قطع السعوديين اتصالاتهم مع تلك المناطق التي كان الأشراف الأتراك آنذاك يحكمونها.

وصلت الأسعار في تلك الفترة إلى مستويات خيالية لا يمكن تصورها، وشملت كافة مستلزمات الحياة لدرجة أن الناس بدأت تأكل لحم الحمير ولحم الجيف والكلاب، ووصل سعر كيلو الزبدة إلى أربعة ريالات أو اثني عشر شلن من الجنيه البريطاني. ويقول المؤرخ «ابن بشر» إن المناطق الأفضل حالاً نسبياً والتي تواجدت في الدرعية والمناطق المحيطة بها، كانت تُقارن - من باب المباهاة والتفاخر - بالبصرة والأحساء، وذلك يعني أن الناس هناك كان بإمكانهم الحصول على التموينات والإمدادات من خارج حدود الصحراء العربية.

وفي فصل الخريف من ذلك العام قرر «سعود» أن يكثف ضغوطه على «غالب» فأرسل أوامره إلى «عبد الوهاب» وإلى «سالم بن شبكان» وإلى «عثمان المضايفي» للإعداد لحملة كبيرة جداً الهدف منها الهجوم على مكة والمناطق المحيطة بها. كما أمر أن تبقى القوات هناك لحين وصول قوافل الحج من دمشق، والتي كان ممنوعاً دخولها إلى مكة إذا كانت مسلحة. وجد

«غالب» نفسه عاجزاً عن مقاومة مثل تلك القوات الضخمة، ولذلك بدأ يعمل وعلى الفور من أجل التوصل إلى اتفاقيات سلام، ووعد بأن يتوجه شخصياً إلى الدرعية بعد انقضاء موسم الحج ليقدم الطاعة والولاء للحكم السعودي. وافق القادة السعوديين على طروحات «غالب» ودخلت قوافل الحجيج إلى مكة دون أية ممانعات، كما أدى «عبد الوهاب» و «عثمان» فريضة الحج بأنفسهم.

اجتمع بعد ذلك «عثمان» بـ «غالب» وقدم له «غالب» الهدايا القيمة، فما كان من «عثمان» إلا أن سحب قواته وقفل راجعاً إلى ديرته، ولم يقتصر ذلك على «عثمان» فحسب، بل قام «سالم بن شبكان» الذي أصيب بمرض خلال وجوده في مكة، بفعل الشيء نفسه، إلا أنه مات بعد فترة قصيرة من وصوله إلى «بيشة» وخلفه ابنه «فهد» في الحكم. استمر «غالب» في مراسلة الأمير «سعود» وتوصلا إلى عقد سلام بينهما على أساس أن يعرب «غالب» عن كامل ولائه وطاعته لنصرة الحركة الدينية، وعليه تم رفع المقاطعة والحصار وعادت المياه إلى مجاريها مرة ثانية، وأصبح باستطاعة مكة والحجاز أن تتواصل مع مصادر المؤن والتموينات من المناطق الداخلية، وهبطت الأسعار إلى مستويات معقولة وسارت الأمور على ما يرام.

لكن على ما يبدو لم تكن نوايا «غالب» سليمة، فوصلت أخبار إلى الدرعية عن تطورات في الأمور بلغت حد نقض التفاهم الذي تم التوصل إليه. وبموجب مزاعم مفادها أنه بناءً على أوامر تلقاها «عبد الله باشا العظم» أمير الحج من الصدر الأعظم، تم إبقاء بعض القوات التركية (العثمانية) والمغربية في منطقة الحجاز ولم يسمح لها بالعودة مع الحملة السورية التي رافقتها في القدوم إلى مكة.

ومن بين الملاحظات التي سُجلت ضد «غالب» تحصينه لأسوار «جدة» وحفر خنادق خلف تلك الأسوار وملئها بالماء. وبدأ الناس أيضاً يعترضون على منع «غالب» للأجانب بمن فيهم الزوار القادمين من مناطق «نجد» من الدخول إلى تلك المناطق، ومن بين المآخذ عليه أيضاً أنه كان يقضي معظم وقته في «جدة»، وعلى ضوء هذه المعطيات أصبح من الواضح أنه لا بد من مجابهته في الوقت المناسب. إلا أن الأمير «سعود» كان مشغولاً بقضايا أخرى وبالتحديد قضايا لها علاقة بالمناطق الحدودية مع العراق، خاصة أن «سعود» لم يعد ليثق ببدو «الظفير» الذين قاموا بالتعاون مع أصدقائهم باقتراف أعمال السطو والسرقة بحق الجماعات السعودية المعسكرة في مناطقهم. والأمر الملفت للنظر أنه وقع الخيار على «منصور بن ثامر» ليقود حملة للقضاء على تلك العناصر الغوغائية المتجمعة على الحدود العراقية، وجدير بالذكر أن «منصور» كان في تلك الفترة لا يزال من الناحية العملية أسير حرب في أحد سجون الدرعية. قرر «سعود» أن تكون قيادة تلك الحملة مناصفة بينه وبين «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة. وتوجه الاثنان بالحملة باتجاه «الظفير» وبالقرب من «حفر الباطن» شاهد قادة الحملة مجموعة غزو تقدر بمائة وعشرة رجال ترد مياه «الفليج»، فهاجمهم السعوديون وقتلوا منهم مائة وتمكن عشرة من الهرب.

ظهرت وبخطى متوازية مع هذه الأحداث تطورات بارزة على الساحة في المدينة، ونتيجة لهذه التطورات أعرب الناس عن خضوعهم للحكم السعودي، وفعلاً وافقوا على هدم كافة القباب المبنية فوق القبور وإزالة كافة المزارات في المناطق المجاورة. يذكر «ابن بشر» أن هذه التطورات بدأت في

عام ١٢٢٠ هجري وبالتحديد قبل عقد الصلح الذي تم مع «غالب» خلال موسم حج ذلك العام، وباعتبار أن هذا العام الهجري بدأ في الأول من نيسان ١٨٠٥ وانتهى في عشرين آذار ١٨٠٦، وكانت أيام الحج بين ٢٨ شباط وحتى الثالث من آذار، فبإمكاننا أن نفترض أن خضوع أهالي المدينة إلى الحكم السعودي جاء خلال أوائل صيف عام ١٨٠٥، وجاء الصلح مع «غالب» في أوائل شباط من العام التالي. ومهما تكن حقيقة الوضع فيعود أصل سقوط المدينة إلى الزيارة التي قام بها رجلان من «حرب» إلى الأمير «سعود»، وهما «بادي» و«بديع». وهذان الرجلان هما ابنا «بدوي بن مضيان» الذي وجد نفسه مفتوناً بعقيدة التوحيد. طلب هذان الرجلان من «سعود» أن يرسل معهما شيخاً ينورهم بتعاليم الدين وبمبادئ عقيدة التوحيد، فأرسل «سعود» معهم الشيخ «عثمان بن عبد المحسن أبو حسين»، ونتيجة لذلك تبنت هذه الجماعة موقفاً متشدداً من الحكم في المدينة، واتخذوا من مناطق «عوالي» مقراً قوياً لهم. وبناءً على أوامر تلقوها من الأمير «سعود» قاموا ببناء «قلعة» لهم وحصنوها وجهزوها، وانضم إليهم أهالي «قباء» وبدأوا يضايقون أهالي المدينة.

يقول «ابن بشر» في هذا السياق إنهم تمكنوا من عزل أهالي المدينة عن العالم الخارجي لعدة سنوات. هذا وعزز الأمير «سعود» مؤسستهم الدينية التربوية بأن فوض قاضي «الرس» الشيخ «قرناس بن عبد الرحمن» بأن يقوم بزيارتهم مرة كل عام. تعب أهالي المدينة من الحصار وبدأوا في مراسلة «سعود» وانتهى بهم الأمر كما أشرنا سابقاً إلى دخولهم في طاعته.

كان «سعود» منهمكاً في أعمال عدائية على الحدود العراقية، إذ قاد من هناك حملة لمهاجمة «مشهد» في «النجف»، ولم يكن من السهل اقتحام الأسوار القوية المدعمة بخنادق مملوءة بالماء، لذلك اكتفى المقاتلون السعوديون بتبادل نيران المدفعية على نحو متقطع، وبقي المدافعون متحصنين في أبراجهم وحصونهم، وسقط من بين المهاجمين عدد من القتلى. توجه «سعود» بقواته نحو «الهندية» و «هيلة» وهناك دارت المناوشات التي لم تفضي إلى نتيجة مقبولة، وبدا واضحاً أن الاستمرار في المناوشات على ذلك النحو لن يجدي في تحقيق نتائج قيمة، لذلك توجه «سعود» بقواته جنوباً نحو «السماوة» وهناك غزا أطراف المدينة ومزارعها وألحق بالمنطقة أضراراً أخرى خلال المناوشات المتقطعة. وفي طريق عودته إلى «الدرعية» حاول النيل من أهالي «الزبير» إلا أنه لم يحقق الكثير من المكاسب.

سبَّب تطور الأحداث التي وصلت أخبارها من أقصي الصحراء العربية (في بداية عام ١٨٠٦ أو أواخر عام ١٨٠٥) قلقاً للدولة السعودية: ففي مسقط ثار ولدا «سلطان بن أحمد بن سعيد» الذي كان قد قتل على أيدي «القواسم» ضد عمهم «بدر» الذي خلف أبويهما في السلطة، وتمكن الولدان من قتل عمهم «بدر» كما تمكن أحدهما وهو «سعيد بن سلطان» من اغتصاب الحكم. وفي منطقة «اليمن وتهامة» قرر زعيم ميناء الحديدة ومنطقة ديرة «بيت الفقيه» أن ينضم إلى الدولة السعودية، وهكذا أوجدت الدولة السعودية لها أول قدم في «اليمن» دون أن تقوم بأية مبادرة أو جهد، علماً بأن العرب في كافة أنحاء العالم العربي كانوا يدرسون ويتمعنون بدقة في

محاسن ومساوئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية. كان للأمير «سعود» تطلعات لضم نجران، فما كان منه في نفس ذلك العام إلا أن أصدر أوامره إلى «عبدالوهاب أبو نقطة» وإلى أميري «بيشة» و «وادي الدواسر» بأن ينضما إلى قوات «عبيدة» و «سنجان» من قبائل قحطان في الجنوب، وإلى جماعة «الوادعي» في شمال اليمن وبالتالي يقوموا بهجوم مدروس على «نجران» والمناطق المجاورة لها. ولتحقيق تلك الغاية تم حشد قوة تقدر بـ ٣٠ ألف رجل، إلا أن إنجازاتها لم تكن متكافئة مع قوتها وكثرة عددها: ففي الواقع لم تتمكن تلك القوة من الوصول إلى مشارف «نجران» لأن القوات المدافعة تمكنت من صد تقدمها في منطقة «بدر» وهي مقر قيادة جماعة «المكرمي» وهي جماعة إخوان من الشيعة أو من الطائفة الإسماعيلية. تكبد القوات السعودية هناك خسائر فاقت الخسائر التي تكبدها المدافعون. أمر «أبو نقطة» رجاله ببناء قلعة مواجهة لقلاع «المكرمي» المحصنة، وعزز تلك القلعة بحامية قوية على مستوى ذلك الحدث.

أجبرت نتائج ضم الحديدة إمام صنعاء على إرسال حملة عسكرية لاستردادها، وبعد حصار قصير تم فعلاً الاستيلاء عليها وعين ابن المشاكس «صالح» أميراً عليها. وفي تلك الفترة كان «صالح» موجوداً في منطقة «بيت الفقيه» فنظم حملة للهجوم على «زبيد» وتمكن بعد أن صمدت قلعتها القوية أمام هجومه من الاستيلاء عليها وعلى ممتلكاتها. ووفق ما هو مقرر ومتبع أرسل «صالح» إلى الخزينة السعودية حصة الحكم السعودي من الغنائم ووزع باقي الغنائم بين جنوده قبل أن يعود إلى ديرته.

وعلى ما يبدو حققت الدعوة السلفية بعض التأثير النفسي على أهالي اليمن في تهامة. كان الشافعيون منهم يكنون قليلاً من الحب للجماعات الزيدية التي كانت تعيش في المناطق المرتفعة. بلغ تعداد القوة التي أعدها «صالح» للهجوم على «الزيديين» حوالي «ثلاثة آلاف رجل بالرغم من وجود جيش الإمام الذي كان مرابطاً في السهول الساحلية للبحر الأحمر. والجدير بالذكر هنا أن «بديع بن بداوي» بطل مرحلة المدينة هذه لم يعش طويلاً بعد هذا النصر، إذ سقط في العام نفسه ضحية مرض الجدري وحل محله كزعيم على قبيلة «حرب» أخوه «بادي». وبعد ذلك بفترة قصيرة توجب على «بادي» أن يرحب بأول زيارة يقوم بها «سعود» إلى تلك المنطقة التي كان له ولأخيه دوراً بارزاً في ضمها إلى الحكم السعودي.

قرر «سعود» أن يحج للمرة الثالثة لكنه أدرك أنه من الممكن أن تنشب بعض المتاعب بسبب تصرف «غالب» المريب والمشبوه، خاصة إذا قرر الصدر الأعظم أن يرسل قوات قوية من الأتراك والجنود النظاميين لترافق حملة الحج من سوريا. ولهذا قرر اتخاذ بعض الاحتياطات وأطلع «أبونقطة» وبعض القادة الموثوق بهم على نيته في أداء فريضة الحج لذلك العام. أخبرهم بذلك الأمر قبل فترة طويلة من موسم الحج، أي مع نهاية شهر رمضان أو خلال الأسبوع الأول من كانون الأول عام ١٨٠٦. ولم يغادر «سعود» الدرعية إلا عند حوالي نهاية كانون الثاني، علماً بأن الحج كان من الممكن أن يبدأ في الثامن عشر من شباط ١٨٠٧ بدأت تظهر بوادر خطته المحكمة إذ تجمعت في المدينة حشود لاستبقاله اشتملت على قوات من «عسير» و «بيشة» و «رنية» وعلى رأس كل قوة وقف أميرها، وكان «عثمان

المضايفي» على رأس فرقة من سكان المناطق المرتفعة في «الطائف» إضافة إلى مجموعات أخرى من الحجاز والتي ألحقت بها فيما بعد قوات من «القصيم» بقيادة «حجيلان بن حمد» وقوات من «جبل شمر» بقيادة أميرها «محمد بن عبد المحسن بن علي» وفرقة «الوشم» التي انضمت إلى قافلة «سعود» بكامل قواتها من قبيلة «حرب» تحت زعامة «مسعود بن مضيان» و«جابر بن جبارة». قرر «سعود» أن تكون «المدينة» مكان ملتقى قواته ليقودهم من هناك وفي الوقت المناسب إلى «مكة» لأداء فريضة الحج. لكنه وقبل الشروع برحلته أرسل رسولاً إلى قادته في «المدينة» يطلعهم على تعليماته المشددة بعدم السماح للمحمل الذي يقل الحجاج من سوريا بالدخول إلى «المدينة» أو مواصلة السير إلى «مكة». وبناءً على هذه الأوامر وعند اقتراب الحملة السورية من الأماكن المقدسة، قام فريق بإخبار أمير الحملة «عبد الله الأدهم»، وبشكل لبق بأنه لن يسمح له بمواصلة المسير وطلب منه العودة مع رعاياه، وفعلاً عاد بالحملة لكن بعد احتجاج شديد اللهجة، وعاد معه إلى دمشق الحجاج الذين وصلوا إلى تلك المنطقة بعد عناء مسير خمسة أسابيع دون أن يحظوا حتى بالنظر إلى «المدينة» ناهيك عن رؤيتهم « لمكة ».

لكن الأمير «سعود» أكد – وبدون أدنى شك – أن مكة والمدينة كانتا تحت مسؤوليته وليستا تحت مسؤولية «السلطان». وبعد أن أجبرت القوات التابعة «لسعود» الحملة السورية على العودة إلى دمشق، أقامت معسكراً لها استعداداً للانضمام إلى قوات «سعود» التي انطلقت من الدرعية وبطريق مباشر قاصدة «مكة». أدى «سعود» ورجاله فرائض الحج وسط خليط من

الخشوع لله وعنفوان باد في عيون الرجال، وتلك كانت سمات الأوائل من السعوديين. ومن قصر «البياضية» الواقع على مداخل مكة والذي اتخذ منه «سعود» مقراً لقواته، وزعت الصدقات بشكل سخي. قدم «غالب» إلى ذلك القصر ليتشرف بالسلام على الأمير «سعود» وليجدد عهد الولاء الذي أساء إليه - تقريباً - طيلة مدة تزيد عن عامين. توجهت كافة القوات التركية المتواجدة في مكة والمناطق المجاورة لها إلى «جدة»، وكان الشغل الشاغل لـ «سعود» في تلك المرحلة أن يكسو «الكعبة» قبل مغادرته مكة بالرداء الجميل المطرز بخيوط الحرير الحمراء والذي كان قد جلبه معه لهذا الغرض. وهكذا أنهى سسعود» رابع حجة له قبل أن يتوجه إلى «المدينة» لزيارة[١] قبر الرسول محمد ﷺ.

وفي بداية شهر آذار من عام ١٨٠٧ غادر سعود مكة متوجهاً إلى المدينة وهناك كان همه الأول تقوية المواقع الدفاعية فيها والمواقع الدفاعية عن الواحة هناك ضد أي هجوم يمكن أن تقوم به القوات التركية لاسترداد المدينة. وعليه عمل على ترميم وإصلاح كافة القلاع المتهدمة، ووضع بها حاميات عسكرية وجعلها تحت القيادة العامة لرجل يدعى «حمد بن سالم» من قبيلة عتيبة. هذا وسرح «سعود» القاضي التركي (العثماني) القيِّم على مسجد الرسول، كما سرح عدداً من المشكوك بولائهم له وعين مكانهم شخصيات وهابية اشتملت على تعيين رجل من الدرعية في منصب رئيس دائرة عائدات الدولة هناك.

---

(١) الزيارة للمسجد النبوي الشريف والسلام على رسول الله ﷺ ولم يتوجه إلى المدينة بقصد زيارة القبر فقط كما يذكر فيلبي «المراجع».

وبعد أن جلس في «المدينة» فترة لم تحددها المصادر التاريخية، أمر سعود بتسريح فرق الجيش وعاد خلال فترة الصيف إلى الدرعية. حدثت في تلك الفترة (أي عند قرابة نهاية شهر حزيران) ثورة في قصر الصدر الأعظم باستانبول أسفرت عن عزل السلطان «سالم بن أحمد» وعين مكانه ابن أخيه «مصطفى بن عبد الحميد». وفي العام التالي نظمت مجموعة من كبار الرسميين ثورة مضادة استهدفت إعادة تنصيب «سالم» في الحكم، وكان «سالم» في تلك الفترة لا يزال نزيل السجن. وبناءً على توصيات مستشاري «مصطفى باشا» حُكم على «سالم» بالإعدام، فأبدى «يوسف باشا» زعيم تلك الحركة ردة فعل عنيفة حيال ذلك القرار، ونجح في إقالة «مصطفى باشا» وتنصيب أخاه الأصغر «محمد بن عبد الحميد» مكانه على العرش. ويقول «ابن بشر» في هذا السياق إن حكم «محمد بن عبد الحميد» استمر حتى عام ١٢٥١ هجري المصادف لعام ١٨٣٥/ ١٨٣٦ ميلادي، وهذا يدل على أنه بدأ الحكم في بداية عهد الملك فيصل أو قبل عهده بقليل. وعند حديثه عن موت السلطان «محمد» لم يعقب «ابن بشر» ويصحح هذه الملاحظة.

وبالمناسبة يمكن القول إن السلطان «سالم» وقبل إقالته من منصبه، كان قد أقال «عبدالله العظم» من منصبه كحاكم لسوريا، ويفترض أنه أقاله بسبب انسحابه الجبان من المدينة، وعين مكانه شخص يدعى «يوسف الكنج» كحاكم لسوريا. وفي العراق أيضاً جاءت خاتمة أحد أعداء «نجد» والمدعو «علي كيخيا» على أيدي بعض خدمه إذ أقدموا على قتله. والجدير بالذكر هنا أن «كيخيا» كان قد خلف «سليمان باشا» كوالي على «بغداد». وتولى

من بعده الحكم هناك شخص آخر يدعى أيضاً «سليمان» فأصدر حكماً بقتل أولئك الخدم وبقي في السلطة في انتظار فرمان من الصدر الأعظم يؤكد مشروعيته كوالي على بغداد.

استمر الجفاف والقحط في النيل من كافة مناطق «نجد» على مدى العام، لكن في نهاية العام هطل المطر وتمكن الأهالي من بذر بذور محاصيلهم ليخففوا قليلاً من عناء الكارثة التي ألمت بهم، وبالرغم من ذلك الوضع قام «سعود» بالحج للمرة الخامسة وصحب معه كالمعتاد حاشيته الضخمة، ووصل إلى هناك ووجد «غالب» وقد تأقلم تماماً مع الوضع وأصبح ودود وصديق حميم إلى أقصى درجة يمكن أن تخطر على بال، وبعد أن مضى في مكة فترة ثلاثة أسابيع تقريباً كان خلالها مهتماً بالعبادة وأداء فريضة الحج وتوزيع الصدقات بشكل سخي، وإكساء «الكعبة» بثوبها الباهظ الثمن، شرع «سعود» بزيارة «المدينة» وأمضى هناك بضعة أيام تفقد خلالها كافة الفروع الإدارية وصرف الكثير من اهتمامه للعديد من القلاع والحاميات العسكرية الموجودة فيها والتي وضعها جميعاً آنذاك تحت قيادة «عبد الله بن مزروع» ينتمي إلى أسرة عريقة من «منفوحة». ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه لم يشارك في رحلة الحج التي قام بها «سعود» ذلك العام أي شخص غريب سواء أكان ذلك من سوريا أو من أي مكان آخر.

ومع حلول شهر حزيران أصبح «سعود» مستعداً للغزو من جديد، فحشد قواته لشن هجوم على جبهات العراق، وكانت «كربلاء» أو أهدافه. سبق له أن استولى عليها وبسهولة إثر هجوم عاصف، لكنها الآن أصبحت محاطة بسور ضخم يمتد إلى مسافات شاسعة! هاجم «سعود» المدينة ونشر حول

أطرافها مجموعاته المقاتلة، إلا أنه سرعان ما أدرك أن القوات والإمكانات المتوافرة لديه لم تكن كافية لتحقيق ذلك الغرض، لذلك سحب «سعود» قواته وتوجه بها نحو «اثيثية» التي فر أهلها إلى المرتفعات المجاورة تاركين قراهم تحت رحمته. أقنعهم «سعود» بالعودة إلى ديارهم ووعدهم بعدم التحرش بهم وعدم المساس بممتلكاتهم باستثناء خيولهم التي بلغ تعدادها حوالي مائة فرس. بعد ذلك غزا «المنتفق» الواقعة بجوار قناة «مجاورة» و «سوق الشيوخ» لكن دون أن يحقق مكاسب كبيرة. وبعدها توجه إلى «البصرة» و «الزبير» وهناك أغار على ضواحيهما ملحقاً بها خسائر منوعة.

عاد «سعود» من هذه الحملة غير الناجحة تماماً، لكنه سرعان ما بدأ يعد العدة للقيام بالحج للمرة السادسة، وفعلاً رتب أمور ذلك الحج بنفس النمط الذي اتبعه في رحلات الحج السابقة، وكرس اهتمامه هذه المرة لأمور دينية هامة لم يتمكن الناس البسطاء من أهل مكة آنذاك من استيعابها: فقد جال شوارع المدينة رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمنعوا الناس من تدخين السجائر في المناطق العامة، وليحثهم على الصلاة في المسجد الحرام بعد سماع الأذان. واظب «غالب» على العناية بسيده وتبادل معه الهدايا الثمينة وأكد له على الاحترام والثقة المتبادلة. وألبست «الكعبة» حلة أجمل وأبهى من سابق كسائها، وكما كان الحال في العام الماضي لم تأت إلى الحج أية حملة من سوريا أو مصر أو العراق أو المغرب، باستثناء عدد صغير جداً من المغاربة الذين أتوا إلى الحج بعد أن تلقوا ضمانات بعدم التحرش بهم. وعاد «سعود» إلى الدرعية بعد أن أمضى في مناطق الحج ثلاثة أسابيع، ولم

يذهب خلالها إلى زيارة «المدينة» إلا أنه أرسل حاميات من الجند لتحل محل الحاميات التي خدمت فيها على مدى عام ونيف.

ولدى وصوله إلى الدرعية أرسل «سعود» حملة صغيرة إلى «عمان» وأرسل معها جماعة من الوعاظ والمتفقهين في الدين ليغرسوا في أذهان أهالي مناطق «عُمان» مبادئ التوحيد وليديروا الوضع هناك. قام الحكام المحليون وهم «قيس بن أحمد بن الإمام» من منطقة «صحار» وابن أخته «سعيد بن سلطان» من «مسقط» بحركة عكرت صفو الأمن في المنطقة الواقعة تحت سيطرة السعوديين والتي كان يزحف للاعتداء عليها جيش قوامه عشرة آلاف رجل. كان الأمير الحاكم لذلك الإقليم رجل يدعى «سلطان بن صقر بن رشيد» من «رأس الخيمة». سارع هذا الأمير وحشد قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لمواجهة الغزو، وتقابل الفريقان في منطقة تدعى «خورفكان» وهي تقع بين عاصمة السلطان وبين مقاطعة «البطنة» قتل في ذلك الاحتدام الدامي «قيس» كما تم دحر جيشه، وقتل العديد من رجاله في حين أغرق الأعداء قسماً آخر من رجاله في البحر أثناء محاولتهم الهرب. بلغ العدد الإجمالي للقتلى أربعة آلاف رجل. أرسل «ابن قيس» مبعوثين واحد إلى السلطان «ابن صقر» والآخر إلى الأمير «سعود». وناشد من خلال مبعوثيه إيقاف القتال والتوصل إلى سلام، وأعلن عن استعداده واستعداد أتباعه في اعتناق العقيدة والدخول في الطاعة. حظيت مناشدته بالقبول وسرعان ما حذا «سعيد بن سلطان» حذوه، وكانت النتيجة أن كل أهالي «عمان» خضعوا لحكم «سعود»: وقام «سلطان بن صقر» على الفور بتوزيع غنائم الحرب ولم ينسى أن يقدم خمس الغنائم إلى ممثلي «سعود» ليقوموا بدورهم بإرسالها إلى الدرعية.

استمرت المجاعة والقحط في إنزال الكوارث في كافة أجزاء الصحراء العربية، كما ارتفعت أسعار كافة مستلزمات الحياة، وجاءت الكوليرا لتزيد من مآسي الناس فأودت بحياة العديد منهم.

حدث كسوف للشمس عند حوالي الثامن عشر من شهر تشرين ثاني ١٨٠٨، وفي شهر كانون الثاني مات قاضي الأحساء المشهور «محمد بن سلطان العوسجي»، واستمر وباء الكوليرا حتى منتصف صيف عام ١٨٠٩ وبلغ أشده في منطقة الدرعية والمناطق المجاورة لها. وهناك كان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو أربعين شخصاً في اليوم الواحد، ومن بين الذين لقوا حتفهم كان قاضي الدرعية «حسين بن محمد بن عبد الوهاب» الذي خلفه ابنه «علي» ليواصل المسيرة على نهج أبيه وأجداده. وفي ذروة ذلك الوباء أصدر «سعود» (الذي لم ينسى أبداً الإرادة الإلهية في مثل هذه الأحداث) بياناً طلب فيه من الأهالي التجمع للتفكير عن خطاياهم ولطلب الغفران من الله، وذكر في ذلك البيان عدة قضايا تستوجب الإصلاح، واختتم بيانه بدعاء إلى الله بأن يرفع عن شعبه المؤمن شر ذلك الوباء. ويقال إنه عندما قرأ هذا البيان على جموع المصلين في جامع الدرعية، بدأ الوباء بالتلاشي تدريجياً. الضحية الأخرى التي استهدفها الوباء كانت ابن أخو «سعود» الأمير «سعود بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود» كما قضى الوباء على أربعة أشخاص آخرين من عائلة أمراء العيينة.

وعند حوالي منتصف عام ١٨٠٩ شن «سليمان باشا»، وهو ابن أخو والي بغداد، حملة قوية قصد بها تأديب «الظفير» و «عنزة»، وأقام معسكره داخل الصحراء العراقية.

كانت قبائل «الظفير» تحت إمرأة «شويش» الذي سبق أن أشرنا إلى اسم ابنه في سياق هذه القصة. وكانت قبائل «عنزة» تحت إمرة «دوري بن شعلان» واستمرت القبائل في تبادل الهجمات لعدة أيام وعندما شعروا بأنهم كانوا على وشك أن يهزموا قرروا أن يقوموا بمحاولة يائسة لإنقاذ أنفسهم، فشنوا هجوماً عنيفاً تمكنوا به من تفريق القوات العراقية وإجبارها على الهرب. هذا وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات، إلا أن رجال القبائل تمكنوا من السيطرة على أرض المعركة وعادوا إلى مرتفعات نجد يحملون معهم كل الغنائم التي استولوا عليها.

هبت عاصفة غير عادية في منتصف شهر تموز وجلبت معها الأمطار التي هطلت ضمن نطاق مناطق «طويق» وعلى امتداد ٤٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، منهية بذلك الجفاف الذي دام لفترة طويلة. واستمر هطول المطر لعدة أيام وسالت على إثره السيول في معظم وديان المنطقة، ونضجت ثمار أشجار النخيل. أدى ذلك الخبر إلى هبوط الأسعار وبدأت كافة نواحي البلاد بالانتعاش تدريجياً.

كان «سعود» منشغلاً في مشكلات «تهامة عسير»: كان شريف منطقة «أبو عريش» والمدعو «حمود أبو مسمار» وهو من أبناء شريف مكة «أحمد ابن أبو نمي» يتشاجر مع «عبد الوهاب أبو نقطة» وهو الأمير السعودي على كافة مناطق تهامة. ومنذ أن أعلن «حمود» التزامه بمبادئ دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب قام رجال الدولة بجمع الأموال المفروضة على موانئ مقاطعته بما فيها مقاطعة «جيزان»، وفي تلك الأثناء كان ابن «حمود» يقضي زيارة طويلة في الدرعية عند الأمير «سعود».

واستمرت الأمور على هذه الحالة لفترة من الزمن إلى أن نشب سوء تفاهم بين «حمود» و «أبو نقطة». ونتيجة لهذا الحدث استدعى «سعود» الأطراف المعنية ليجتمع بهم في الدرعية، وخلال ذلك الاجتماع حدثت مشادات كلامية حادة، زادت من صعوبة التوصل إلى تسوية لتلك المشكلة. وفي محاولة لسبر مدى ولاء «حمود» أرسل «سعود» تعليمات إليه أمره فيها بمهاجمة «صنعاء» عاصمة اليمن، لكن «حمود» تجاهل تلك الأوامر.

أصبح من الواضح الآن أن «حمود» قد بدأ تمرده ضد «سعود»، وعليه بدأ «سعود» في حشد قواته من كافة مناطق الصحراء العربية أن بلغ تعداد ما جمعه من القوات لقمع ذلك التمرد خمسون ألفاً. فوض «سعود» زعيم قبيلة عتيبة المدعو «غصاب» ووضع برفقته فرقة قوية من الخيالة وخوله حق ممارسة سلطته في كافة المناطق التي شهدت ذلك التمرد، وطلب منه أن لا يتدخل في شؤون إدارة منطقة «أبو نقطة» الذي أبقى في يده زمام السلطة على الإقليم وقيادة القوة المتواجدة فيه والمؤلفة من عناصر محاربة من كل مناطق «جيزان» (امتداداً من الطائف وجنوباً حتى خميس مشيط)، إضافة إلى عناصر من جماعات بدو «قحطان» و «عبيدة» وقبائل أخرى. ولمقاومة هذه الحشود تمكن «أبو مسمار» من جمع قوة كبيرة من مناطق مرتفعات «اليمن» بما فيها قبائل «حاشد» و«بكيل»، إضافة إلى عناصر أخرى «حمدانية» وعناصر من «نجران» وبدو «يام» و «دهم». وبعد أن شكل حاميات قوية ووضعها في كافة القلاع في تلك المنطقة، تقدم «أبو مسمار» بالجزء الأكبر من جيشه لمهاجمة القوات السعودية التي كانت متجمعة في وادي «بيشة»، فداهم «حمود» القوات السعودية قبل أن تتاح لها فرصة

الانتشار، وقصد بهجومه وعلى وجه التحديد قوات «عسير» التي كانت تحت إمرة «عبد الوهاب أبو نقطة»، ودارت معركة تقاتل فيها الطرفان وأسفرت عن مقتل «أبو نقطة» وعدد كبير من رجاله. تحركت الفرق السعودية الأخرى بكامل عدتها وعتادها وقيادتها لمقاتلة «حمود»، تمكن الجيش السعودي من دحر قواته وأجبروها على الفرار بشكل مخز ومشين، وطاردوهم وسلبوا كل ممتلكاتهم.

انطلق «حمود» والفرسان المرافقة له يسابقون الريح والخوف من أعدائهم يملأ قلوبهم، ولم يتوقفوا إلا بعد أن وصلوا إلى قلاع «أبو عريش»، في حين استمرت القوات السعودية الظافرة في الطواف حول أطراف منطقة «صبيا» والحقوا بها خسائر كبيرة. استسلمت قلعة «صبيا» الضخمة دون قتال قام «غصاب» وعلى الفور بوضع حامية فيها، كما أرسل قواته في كل اتجاه لاخضاعها وتدمير تحصيناتها. كانت بعض القوارب التابعة للقوات السعودية راسية في البحر، فحملوها بما غنموه من محتويات مستودعات الجمارك في «جيزان» والتي اشتملت بالدرجة الأولى على القهوة. خلف «عبد الوهاب أبو نقطة» في منصب إمارة «تهامة عسير» ابن عمه «نامي ابن شعيب».

كان «سعود» في تلك الأثناء يستعد لمعاودة زيارة «مكة» لأداء فريضة الحج للمرة السابعة، وصادف موسم حج ذلك العام في منتصف شهر كانون الثاني من عام ١٨١٠، وقرر «سعود» أن يحتفل بذلك الحدث في أرقى مظاهر الاحتفلات الرسمية. فشجع كل رجال القبائل الرحل والقبائل المستقرة بالقدوم إلى الحج مع عوائلهم. ورافقه في ذلك الحج ابنتاه وعدد

كبير من صاحبات السمو من عائلة «مقرن» وتمت مراسم الحج واحتفلاتها وبدون حدوث أية مشكلات تذكر، ولم تشارك في موسم ذلك الحج أية حملات أجنبية سبق لها أن زادت من تعداد الحجاج في مشاعر الحج. استمرت العلاقة بين «سعود» و «غالب» بنقاء ودون أية مشكلات تعكر صفوها. وبعد أن استبدل «سعود» القوات المرابطة في الحاميات الموجودة حول «مكة» بقوات أخرى بقصد إراحتها، غادر «سعود» الأماكن المقدسة في بداية شهر شباط قاصداً الدرعية.

في تلك الفترة بلغت المشكلات في «عجمان» ذروتها، إذ أعلن «سعيد ابن سلطان» تخليه عن ولائه للحكم في الدرعية، واستدعى القوات البريطانية لمهاجمة معاقل السعوديين في «رأس الخيمة». سلط البريطانيون المبرقات الشمسية التي في حوزتهم وجعلوها تعكس أشعة الشمس على الأكواخ في منطقة «رأس الخيمة» مما تسبب في اشتعال النيران فيها، فاضطر «سلطان بن صقر» ورجاله إلى التراجع داخل مناطق الصحراء ونزلت البحرية البريطانية وأكملت تدمير القرية، لكن سرعان ما أعاد الأهالي بناءها إثر انسحاب تلك القوات منها. وعند وصول هذه الأخبار إلى الدرعية، قام «سعود» على الفور بإرسال «عبد الله بن مزروع» على رأس قوة من «نجد» لاحتلال «البريمي» وإنشأ مقراً رئيسياً للقوات السعودية فيها، كما أرسل «مطلق المطيري» على رأس قوة تشرف على تجنيد أهالي «عُمان» وتدريبهم على شن حرب ضد زعيم مسقط المتمرد. ركز «مطلق» عملياته الأساسية على طول شريط واحات نخيل «الباطنة» الواقعة بمحاذاة الساحل بين «رأس الخيمة» و «مسقط»، وبالتحديد وجهها ضد مدينة «صحار» التي تعتبر معقل «عزان بن قيس» الذي كان قد خلف والده الذي قتل في أحد الهجمات

السعودية على مناطقهم. وفعلاً تم الاستيلاء على العديد من القرى كما تم جمع العديد من الغنائم وتمكنت القوات السعودية أيضاً من قتل حوالي ٥٠٠ رجل من رجال «عزان» في معارك دامت طيلة فصلي الخريف والشتاء لعام ١٨٠٩ حتى بوادر ربيع العام التالي. لم يهاجم السعوديون «مسقط» بالذات في حين صدت «صحار» كل المحاولات السعودية العاصفة التي استهدفت الاستيلاء عليها. واستسلمت باقي المناطق إلى «مطلق» ودخلت مجدداً في الحظيرة السعودية.

ومما تزامن مع هذه الأحداث هو أن «سعود» وجد نفسه مضطراً حيال تصرفات حكام «آل خليفة» للبحرين و«الزبارة» أن يرسل حملة للتعامل مع تصرفاتهم المريبة قبل التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج.

كان «محمد بن معيقل» قائداً على تلك الحملة، لكن الأمير «سعود» أرسل له فيما بعد تعزيزات تحت إمرة «عبد الله بن عفيصان» ابن «إبراهيم» الذي كان في وقتها أميراً على «الأحساء». بقيت تلك القوات في منطقة «الزيارة» لمدة أربعة شهور دون أن تقوم بأي عمل عسكري. وبعد عودة «سعود» من موسم حج ذلك العام قامت تلك القوات المشتركة أو بالأحرى هددت بالقيام بهجوم عنيف ما لم يوافق زعماء «آل خليفة» على السير معهم إلى الدرعية. وكان من بين كبار الذين قدموا إلى عاصمة «سعود» زعيم البحرين والزبارة الاسمي «سليمان بن أحمد بن خليفة» وأخوه «عبدالله» وعمهما «عبد الله بن خليفة»، ومعهم كافة أبنائهم. استقبلهم «سعود» بخطبة رنانة تتعلق بظلم وجور الأساليب التي كانوا يتبعونها، وأمر بإيقاف الزعماء الثلاثة لكنه سمح لأبنائهم وأتباعهم بالعودة على شرط أن يسلّموا

كل ما يملكونه في البحرين والزبارة من خيول وجمال ومعدات عسكرية أخرى إلى القوات السعودية. أصدر «سعود» أوامره إلى «فهد بن سليمان بن عفيصان» وطلب منه أن يتولى زمام الأمور في تلك الجزر، كما طلب منه أن يعين شخصاً ليكون مسؤولاً عن جمع العائدات.

قام أبناء زعماء «آل خليفة» وبسبب عدم ارتياحهم للتحول الجديد الذي شعروا من خلاله بأنهم مجرد مواطنين عاديين في ديرة كانوا يحكمونها، بأن هربوا خلسة كل نسائهم وثروتهم من الذهب، وحملوها على قوارب يقال لها «الدحو» كانت موجودة في ميناء «الزبارة» وهربوا بها جميعاً إلى «مسقط». حدث بالصدفة أن كان عدد من السفن البريطانية موجودة في ذلك الوقت في ميناء «مسقط»، وعلى الفور تم تنظيم حملة بحرية ضخمة للتوجه إلى «الزبارة». وبعد أن تمكنت السفن البريطانية من الحامية السعودية ومن المواقع العسكرية التابعة لها، واصلت سيرها نحو «البحرين» وبعد أن استسلم «فهد» وفق شروط معينة تمكنت من محاصرة قواته التي كانت في قلعة «المنامة» ليومين متتاليين، وتم احتجاز «فهد» وستة عشر من رجاله كرهائن مقابل إطلاق سراح مشايخ «آل خليفة» الموقوفين في الدرعية وأطلق البريطانيون سراح باقي القوات السعودية.

كان «سعود» في تلك الفترة منهمكاً في حملة انطلق بها نحو الشمال، وعندما عاد وسمع أخبار آخر التطورات في البحرين، عرض عليه مشايخ «آل خليفة» المحتجزون اقتراحاً قالوا فيه إنه مقابل أن يقسموا يمين الولاء للأمير «سعود» فإنهم يطلبون إطلاق سراحهم والسماح لهم بالعودة إلى «الزبارة» لمناقشة المشكلة مع أبنائهم وأصدقائهم على أساس قبولهم للحكم

السعودي، وإذا نجحوا في ذلك كان خيراً وإن لم ينجحوا فسيعودوا إلى السجن في الدرعية. وافق «سعود» على هذا الاقتراح وأرسل معهم مرافقين، إلا إن مشايخ «آل خليفة» فشلوا في إقناع أبنائهم وأصدقائهم في جدوى ذلك الاقتراح، وعادوا إلى الأسر في الدرعية، وفي تلك الأثناء أطلق البريطانيون سراح «فهد بن عفيصان» ورجاله الأسرى.

وصل «سعود» في حملته نحو الشمال كما سبق وذكرنا آنفاً، لكن ليس فقط إلى حدود «سوريا» بل توغل بها لمسافة أدخلت الرعب في قلوب سكان «دمشق»، وشاهد «سعود» ولأول مرة منظر الثلج على قمة جبل «حرمون». وفي الواقع اختلط الأمر من الناحية الجغرافية على المؤرخ «ابن بشر»، لكن القمة الجبلية المغطاة بالثلوج بالقرب من «نابلس» كما ذكر «ابن بشر»، والتي احتمت خلفها القبائل التي استهدفها «سعود»، لا يمكن أن تكون سوى سلسلة جبال «القلمون». في شهر آيار استهدف «سعود» تجمعات قبائل بدو من سوريا يعتقد أنها كانت في منخفض منطقة «نفرة الشام». وصلت إلى هذه التجمعات أخبار تحركات «سعود» الأمر الذي حدا بها أن تحل مضاربها وترحل إلى مضارب «الدوخي بن سُمير» زعيم عشيرة «أولاد علي من عنزة» في منطقة «الغور»، والمقصود بها إما «سهل البقاع» بين لبنان وسوريا أو وادي الأردن. على أي حال أخذ «سعود» يحوم بقواته حول سهول «حوران» ملحقاً خسائر مادية في المزارع المحيطة بها في مناطق «المزيريب» و «بصرة اسكيشام»(*)، وهرب الناس من منازلهم

(١) بصرة اسكيشام: هي بصرى الشام سابقاً وحالياً درعا على الحدود السورية الأردنية.

وقراهم عند سماعهم عن زحف القوات السعودية . قامت القوات السعودية بمحاولة الهجوم على قلعة «المزيريب» لكن سرعان ما تخلت عن تلك الفكرة، وسحب «سعود» قواته وتوجه بها إلى منطقة «البصرة» في حوران ومكث هناك لفترة قصيرة قبل أن يعود إلى ديرته محملاً بالغنائم التي استولى عليها . تمخض هذا الحادث عن عزل حاكم دمشق السيد «يوسف» وعُين مكانه «سليمان باشا» الذي كان حاكماً على «صور» وصدرت إليه الأوامر بمصادرة كافة أملاك سلفه «يوسف» .

ونتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في أعقاب العاصفة التي هبت في شهر تموز من عام ١٨٠٩ تحسنت الأوضاع بشكل سريع . فبسبب الجفاف الطويل الذي سبق هطول الأمطار وصل سعد كل أربعة صاعات من القمح ريال واحد، إلا أن سعر الصاعات إثر سقوط المطر أصبح نصف ريال ، واستمر سعرها في التحسن إلى أن أصبح الناس في شتاء عام ١٩١٠ يشترون ١٣ صاعاً بريال واحد، كما أصبحوا يشترون ٣٧ وزنة من التمر بريال واحد بينما كانوا يشترون بالريال الواحد في بداية الفترة نفسها عشرة وزنات ونصف الوزنة. لكن لم تبدو بشائر سلام دائم للحكم السعودي في الصحراء العربية، إذ طلت بوادر المشكلات في شهر آب في مناطق «تهامة عسير» حيث بدأ «حمد أبو مسمار» - بعد أن تعافى من هزيمته في «وادي بيشة» - يعد العدة للحرب . كلف «عثمان المضايفي» بالتعامل مع تلك المشكلة واشتبكت قواته مع قوات «حمد أبو مسمار» في مكان يقال له «الوهلة». مني «أبو مسمار» بهزيمة أخرى وقتل من رجاله حوالي ٢٥٠ رجلاً. وفي نفي ذلك الوقت كان «نامي بن شعيب» حاكم «تهامة عسير»

الجديد يعد العدة للتوغل في مناطق «تهامة اليمن»، وتوجه بحملته واستولى بهجوم عاصف على «اللجنة» بعد أن حاصرها لفترة قصيرة، واستولى على كافة البضائع والأشياء الثمينة التي وجدها في مستودعات الجمارك وفي متاجر التجار. ويقال إن ألف رجل لقوا حتفهم في هذه المعارك التي انتهت بعد أن التهمت النيران كافة أرجاء المدينة. تابع «نامي» تقدمه نحو «الحديدة» بجيش بلغ تعداده عشرون ألف رجل، ووصلت أخبار تقدم هذا الجيش إلى أهالي «الحديدة» فما كان منهم إلا أن حملوا كل ما غلا ثمنه وخف حمله على قواربهم وأبحروا بها في البحر. وبهذه الحالة كان من السهل على «نامي» الاستيلاء على المدينة، والحاق خسائر بشرية ومادية بأهلها. لكن السعوديين لم يقوموا بأية محاولة جادة لإقامة إدارة محلية، سواءً في «الحديدة» أو في «اللحية» لأن غاية الحملة على ما يبدو كانت جمع أكبر عدد ممكن من الغنائم.

لم تتعدى المشكلات في بغداد النطاق المحلي، ولو تؤثر على مصالح الصحراء العربية، علماً بأن «ابن بشر» يسرد الكثير عن تلك المشكلات، لكن يكفي أن نذكر بأن «سليمان باشا» والي بغداد الذي صدرت إليه الأوامر بأن يحول عائدات العديد من السنوات المتراكمة إلى الصدر الأعظم، تعرضت لهجوم شنه عليه زعيم الأكراد « عبد الرحمن باشا» وقتله واحتل المدينة وسلب أموالها بمناصرة واليها «عبد الله باشا» الذي كان ألعوبة في يده. أرسل السلطان جيشاً لتأديبه ومعاقبته على تجاوزاته، وطلب من شاه «إيران» أن يساعده بأن يشن هجوماً على «كردستان»، وفعلاً قام شاه «إيران» بالهجوم وضم «كردستان» إلى مملكته بعد هروب «عبدالرحمن».

وفي نهاية شهر كانون الأول من عام ١٨١٠ قدم «سعود» مجدداً إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الثامنة وكان المؤرخ «ابن يشر» شاهد عيان فيها. وحدث في نفس ذلك الشهر أن توفي سلفه مؤرخ نجد «حسين بن غنام الإحسائي»، ولعله من الملفت للنظر أن «ابن بشر» لم يشر في رثائه له إلى مؤلفاته التاريخية التي استقى منها وبحرية الكثير من الأخبار والمعلومات.

على أي حال قدم لنا «ابن بشر» صورة جميلة عن العاهل السعودي وهو في زي الإحرام يمتطي جمله وسط حشود كبيرة في مسجد «نمرة» لتستمع إلى الخطبة التي أدلى بها «سعود» حول معنى وأهداف الحج، كما استعرض في خطبته تلك الأمن والرفاهية التي تتمتع بها مناطق الصحراء العربية بفضل رحمة الله ودين الإسلام، واختتم خطبته قائلاً إن من غير المسموح لأي شخص أن يحمل السلاح في مكة المكرمة، ولا يجوز لأي امرأة أن تتباهى بحليها تحت طائلة التعرض لأقسى العقوبات، وهنا اقترب منه «غالب» وهو على ظهر جواده وبجانبه واحد من أتباعه، وترجل الاثنان وعانقا الأمير السعودي أمام حشود الحجاج - عدو الماضي وحليف اليوم - وأخذا مكانهما في الصف الأول لأداء صلاة الظهر استعداداً لإتمام مناسك الحج في عرفة، «إذ إن الحج عرفة». ويشهد «ابن بشر» على حقيقة أنه بعد ذلك لم يجرؤ أي شخص من ذلك الحشد من الحجاج على التدخين في شوارع مكة كانت تلك الشوارع تخلو تماماً من الناس عندما يرفع المؤذن الأذان للصلاة. ومن أفضل مناطق الحرم المحببة للإمام «سعود» كانت منطقة على سطح بناء فوق بئر «زمزم» تقع مباشرة أمام الكعبة. وفي تلك المناسبة أمر سعود بإزالة القبة التي كانت تغطي مقام إبراهيم وهو الحجر الذي كان

إبراهيم يقف عليه أثناء بناء الكعبة، وذلك لكي يتمكن الحجاج من النظر مباشرة ومشاهدة ذلك المقام الديني المقدس، ويصف «ابن بشر» هذا المقام بقوله إنه كان حجر مربع في قسمه العلوي يبلغ طوله حوالي ثمانية عشر بوصة ومطلي بالذهب أو البرونز في قسمه العلوي، وتبدو آثار قدميه الطاهرتين ظاهرتين تحت ذلك الغطاء وهي تعلو سطح الحجر بعرض يبلغ حوالي أربعة أصابع حدث أن مات خلال تلك الأيام أحد كبار مشايخ «نجد» ويقال له الشيخ «أحمد بن ناصر بن عثمان بن معمر» الذي تتلمذ على يد الشيخ «حسين بن غنام». ومن بين الذين شاركوا في حملة الحج هذه أيضاً كان الشيخ «سليمان بن عبد الله». ومن بين الذين شاركوا في حملة الحج هذه أيضاً كان الشيخ «سليمان بن عد الله» وهو حفيد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» ومن بين الطلبة البارزين عند ذلك المؤرخ.

عاد «سعود» إلى الدرعية ووجد أمامه أزمة محلية في أن ثلاثة من أبنائه وهم: تركي وناصر وسعد كانوا قد فروا من الدرعية وذهبوا إلى «عُمان» بحثاً عن مغامرات أو عن مجالات أكبر مما كان والدهم قد سمح لهم. سبق أن حصل بعض الجدال حول هذا الموضوع بين «سعود» وأبنائه قبل توجهه في حملة الحج تلك، وكان الأبناء الثلاثة قد طلبوا الإذن منه بالانضمام إلى الجيش في «عُمان» إلا أن «سعود» كان مقتنعاً بأن ما كانوا يتمتعون به كان كثيراً، وعليه رفض أن يغادر أبناءه الدرعية. وعلى أي حال فإنهم فعلوا ذلك دون موافقة والدهم وغادروا أثناء غيابه وأخذوا معهم أتباعهم، وبعد وصولهم إلى هناك بقليل وبالتحديد إلى «رأس الخيمة» خططت جماعة من «بني الباطنة» ومن «صحار» لمهاجمتهم ليلاً وقتلهم. ونفذت تلك الجماعة

الهجوم إلا أنهم لقوا مقاومة باسلة من قبل أبناء «سعود» ورجاله، وأجبروا على التراجع بعد أن تكبد الطرفان بعض الخسائر.

إثر هذه الحادثة، وصلت إلى «مطلق المطيري» قائد القوات المتواجدة في البريمي عدة رسائل قام على إثرها بضم قواته إلى قوات الأمراء الثلاثة، وتولى «تركي» أكبر الأمراء منصب قيادة كافة القوات. وأسفر ذلك الترتيب عن حملة نظامية جديدة سرعان ما هاجمت منطقة «مطرح» على الساحل والقريبة من «مسقط»، وتمكن السعوديون من الاستيلاء عليها. هذا وانتشرت قوات «تركي» في كافة أراضي «عمان» بدءاً من «الظاهرة» ومروراً بـ «الباطنة» باتجاه «صور» و «جعلان». وكانت الأوامر الصادرة إلى القوات السعودية تتلخص كسب الغنائم وفرض النفوذ دون احتلال المناطق، إلا أن «سعود» استاء من الأعمال التي كانوا يقومون بها، أرسل فرقة مؤلفة من أربعين رجلاً إلى «البريمي» وأمرها باحتلال القلعة هناك وأخذ مكان الحامية الموجودة فيها بقيادة «ابن مزروع». كما أمرها بعدم السماح للأبناء المتمردين بالدخول إليها، ووجه في الوقت نفسه أوامره إلى «مطلق المطيري» بأن يجلي قواته عن منطقة «عُمان» وأن لا يترك ولا حتى رجل واحد خلفه هناك.

بدأ الأمراء الشباب يشعرون بالعواقب الوخيمة التي جلبتها عليهم نزواتهم، ورفض «سعود» أن يصغي إلى التوسط والشفاعة لهم وأصر على أن يستسلموا له دون شروط. وعلى أساس هذا الإصرار رافقوا «مطلق» مع قواته المنسحبة باتجاه «الأحساء» إلا أنهم رفضوا التقدم إلى أبعد من ذلك لخوفهم من مواجهة غضب والدهم. لكن في النهاية وافق «سعود» على العفو عنهم وعادوا لوالدهم في الدرعية ليحظوا منه بكل دلائل وعلامات

الغضب وعدم السرور لتصرفهم الطائش وغير المسؤول. حدث أن سقط ناصر مريضاً ومات على إثر ذلك المرض بعد شهرين، لكن «سعود» لم يحزن على وفاته ولم يشارك في جنازته. وجد «سعود» نفسه الآن مضطراً لمعالجة العاقبة التي نجمت عن عملهم الطائش وعن مغامرتهم التي أسفرت في نهاية المطاف عن نفور واشمئزاز الناس من تصرفاتهم.

خرجت قبيلة «بني ياس» من منطقة «الظاهرة» في تمرد مكشوف، فما كان من «سعود» إلا أن فوض «عبد العزيز بن غردقة» من منطقة الأحساء بمعالجة تلك المسألة. وصل «ابن غردقة» إلى «الظاهرة» في شهر آيار من عام ١٨١١ وعلى الفور اشتبك مع «بني ياس»، إلا أن القوات السعودية منيت بهزيمة شديدة وقتل قائدها أيضا. أصبح من الواضح الآن أن «عُمان» وصلت إلى مرحلة التخلي عن اعتمادها على الدرعية.

تم مجدداً تعيين «مطلق المطيري» في مركزه القديم، وذلك لمراقبة تطورات الأحداث. كانت «عُمان» آنذاك في حالة فوضى، وفي نهاية العام أو أوائل عام ١٨١٢ وبالتحديد في شهر كانون الثاني قام حاكم مسقط «سعيد بن سلطان» - بعد أن طلب نجدة من إيران - بأن جهز جيشاً بلغ تعداد أفراده ثلاثة آلاف جندي - وهاجم المناطق الخاضعة للسعوديين. وهناك بدأ يجول بقواته حولها وشرع في أعمال السلب العشوائية، وتمكن من الاستيلاء على مركز «إسماعيل» الذي يعتبر مقر قيادة عائلة «الجبري». إلا أن «مطلق» أحكم قبضته على حركة التمرد واشتبكت قواته مع قوات حاكم مسقط في منطقة بين مراكز «إسماعيل» و «البريمي». رجحت كفة قوة جيش «مطلق» وفرت قوات جيش مسقط أمامه وطاردتهم القوات السعودية بالصياح والهتاف ملحقة بها

خسائر كبيرة في الأرواح وفي العتاد حيث. كانت الغنائم التي جمعتها القوات السعودية كثيرة جداً واشتملت على المدافع العشرة التي كانت بحوزة جيش مسقط، فأرسل «مطلق» تلك المدافع إلى الدرعية كما أرسل معها حصة الخزينة الوهابية من الغنائم. استغرقت تلك العمليات أكثر من عام بدأ من زيارة الأمراء الثلاثة إلى «عُمان».

يبدو ظاهرياً على الأقل أن الوضع كان مستقراً في كافة أرجاء تلك المنطقة باستثناء بعض القرى التي كان ممثلون عن «آل سعود» يمارسون فيها سلطاتهم الفعلية.

وعند عودته من مكة في عام ١٨١١ سمح «سعود» لزعماء «آل خليفة» الذين كانوا لا يزالون في السجن لديه بالعودة إلى ديارهم شريطة أن يقبلوا بسلطته وبحكمه على كافة مناطقهم. تزامنت عودتهم مع حدوث اشتباك بحري بالقرب من الجزر البحرينية دار بين سفن «إبراهيم بن عفيصان» التي تدعمها قوات «رحمة بن جابر العذبي» من منطقة «خور حسن»، وكذلك قوات «أبو حسين» من الهولة بالقرب من الشواطئ القطرية، وبين أبناء زعماء «آل خليفة» الذين كانوا محتجزين في الدرعية.

احتدمت المعارك بقوة، ويبدو أنها انتهت دون نتيجة محددة، علماً بأن القوات البحرينية تكبدت الكثير من الخسائر، واشتعلت النيران في بعض القوارب وتفجرت حمولتها من الذخائر وغرقت، وخسر كل طرف بفعل هذه الحرائق والتفجيرات حوالي سبع سفن، وبلغ عدد القتلى من الجانب البحريني ألف رجل ماتوا ما بين قتيل وغريق ومحروق، وكان من بين القتلى «راشد بن عبد الله بن خليفة»؛ وبلغ عدد القتلى بين صفوف

السعوديين مائتي رجل بمن فيهم زعيم قبيلة «الهولة».

قرر العثمانيون في صيف هذا العام محاولة استعادة مناطق الحجاز من أيدي السعوديين، ولذلك بدأوا في إعداد العدة على نطاق واسع، وأرسلت القوات العثمانية لدعم الفرق التي كانت متوجهة إلى سوريا ومصر. وتم أيضاً إرسال كميات كبيرة من مستلزمات الحرب بما فيها المدافع، ومدافع الهاون وما شابهها إلى «علي باشا» الذي عين في منصب القائد العام للحملة. لم تواجه القوة العسكرية التي أرسلت عن طريق البحر أية صعوبات في احتلال ميناء «ينبع»، وتوجهت القوات الرئيسية العثمانية التي كانت تحت إمرة «أحمد طوسون باشا» (ابن محد علي) براً وبحراً وبلغ تعداد تلك القوة حوالي أربعة عشر ألف جندي تركي ومغربي. حدث أن هرب أمير «ينبع» إلى المدينة فما كان من الأمير «سعود» إلا أن أرسل منادين إلى الشرق والغرب لحشد كل الطاقات لمقاوة الغزو العثماني. ووضع القوات السعودية تحت إمرة ابنه «عبدالله» الذي ظهر في تلك المرحلة على ساحة الصحراء العربية للمرة الأولى. تمركز «عبد الله» بقواته في منطقة «الخيف» وهي أضيق المناطق في «وادي الصفرا» والواقعة على بعد نصف المسافة بين «المدينة» والساحل، وانتظر هناك وصول القوات العثمانية المعادية. شملت قوته على حوالي ثمانية عشر ألف من أقوى المقاتلين من بينهم حوالي ٨٠٠ فارس من فرقة رجال «الوشم» ورجال قبائل «حرب»، وكانت تلك الفرقة تحت إمرة «مسعود بن مضيان»، ووضع «عبد الله» فرقة «مسعود» هذه في أحد أطراف الوادي كقوة احتياطية تتصدى للقوات التركية في حال قدمت من ذلك الصوب. لكن تقدمت القوات التركية عبر الطريق الرئيسي للوادي

مروراً بواحة «الحمراء» وهي أقرب نقطة على طريق القوافل القادمة من «ينبع»، فأرسل «عبد الله» قواته المتقدمة لمواجهتهم لكن القوات التركية أجبرت قواته على التراجع. انتشرت القوات التركية في مواقع معينة استعداداً لمهاجمة القوة الرئيسية في جيش «عبد الله»، وقرر «عبد الله» أن يدفع بفرقة الخيالة التي كان يقودها أخوه «فيصل» وزعيم قبيلة مطير «حباب بن قويسان». احتدم القتال بين فرقة الخيالة والقوات التركية وتكبد الطرفان الكثير من الخسائر، لكن البدو في القوات السعودية وقبل بدء الاشتباك مع القوات التركية أصيبوا بالجبن، وهربوا تاركين المقاتلين السعوديين الحارسين للسلطة يتصدون لهجمات القوات التركية، واستمر هذا الوضع لمدة ثلاثة أيام بعدها أمر «عبد الله» قوته الاحتياطية بمهاجمة حاصرة جيش الأتراك. غير ذلك الهجوم القوي مجرى أحداث ذلك اليوم واضطرت القوات السعودية والمغربية إلى الهرب تاركين وراءهم كل معداتهم بما فيها المدافع السبعة، فطاردتهم القوات الوهابية إلى أسفل الوادي، ووصل الناجون من الأتراك إلى شاطئ «بريكة» واختبأوا في السفن الراسية في «المكلا». قتل من الأتراك حوالي أربعة آلاف رجل وقتل من القوات السعودية حوالي ستمائة رجل كان من بينهم الأمير «مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود» كما قتل عدد من كبار القادة المشهورين مثل «هادي بن قرملة» من قبيلة قحطان. حدثت معركة «الخيف» خلال النصف الأول من شهر كانون الأول عام ١٨١١، وكان السعوديون أول من ضحى في نضال استمر على مدى سبع سنوات من القتال والمعارك.

وبينما كانت القوات التركية في ملاذها تضمد جراحها، قاد «عبد الله»

وبجـرأة تامـة كل قـواته وسـار بهم في طريق الحج مـاراً بمنطقـة «بدر» التي شـهدت إحدى انتصارات الرسول محمد ﷺ على قريش قبل حوالي اثني عشر قرناً. توجه بتلك القوات نحو مكة وهناك قابل والده الذي كان يؤدي فريضة الحج للمرة الثامنة، ووهب ثمار ذلك النصر لله سبحانه وتعالى.

رافق الملك «سعود» في حملة الحج تلك عدد من المقاتلين الذين لم يكن تعدادهم أقل من تعداد جيش ابنه في أرض المعركة وبعد انقضاء شعائر الحج أعطيت بعض تلك القوات فترة راحة في حين تمت إعادة انتشار بعضهم الآخر في منطقة «المدينة» استعداداً لمجابهة أي وضع يمكن أن ينجم بسبب تواجد قوات العدو في منطقة الساحل. لم يتشجع الشريف «غالب» بفعل صلة النسب بينه وبين منقذيه من براثن القوة التركية أن ينضم إلى صفوف القوات السعودية أو أن يبدي القليل من مشاعر الود والاحترام القائمة بينه وبين «سعود» على مدى العديد من السنوات. على أي حال انقضت شعائر الحج وسط مظاهر العظمة والأبهة ولم تشارك فيها هذه المرة أيضا أية حملات خارجية، كما انتهت بدون أي حدث يجدر ذكره. رافق «عبد الله» والده في طريق عودته إلى الدرعية ووصلوا بقواتهم إلى هناك في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨١٢.

كان «محمد علي باشا» يدرس الوضع بجدية وعناية ويفكر في ترميم الوضع الناجم عن هزيمة ابنه في منطقة «الخيف». بدأت التعزيزات تنصب على منطقة «ينبع» وكانت جميعها تحت إمرة «أحمد بن نبارات» الملقب بـ «بونابرت»، وعليه بذلت كافة الجهود الرامية إلى تماسك القبائل هناك،

وانضمت إلى تلك القبائل قبيلة «جهينة» من منطقة «ينبع»، كما انضمت إليها العشائر الجبلية من «حرب». تمكن الأتراك من احتلال واحة «ينبع النخل» في المناطق الداخلية وأصبح «وادي الصفا» مكشوفاً أمامهم، فتقدمت قوات الأعداء نحو «المدينة» ووصلتها وطوقتها في منتصف شهر تشرين أول. كانت أوضاع إحدى الحاميات السعودية سيئة بسبب عدة إشكال من الأمراض التي أصابت جنودها. وبعد قصف الأتراك للمدينة اضطر السكان إلى فتح أبوابها أمام العدو الذي أجبر عدة حاميات في عدد من القلاع (التي قاومت ببسالة) على الاستسلام.

وعند حلول منتصف شهر تشرين الثاني كانت كل «المدينة» قد أصبحت في قبضة الأتراك. وعلى ما يبدو لم يبدي «سعود» أي جهود لدرء هذه الكارثة. تمكن الأتراك من قتل أكثر من نصف رجال الحاميات التي تركها «سعود» خلفه بعد آخر حج قام به. وأصبحت القوات التركية تسيطر بشكل تام على مناطق الحجاز وعلى طول الشريط الذي يربط «ينبع» بالمدينة. نظرت السلطة السعودية إلى هذا الوضع على أنه وضع خطير للغاية، لكن كان هم «سعود» بالدرجة الأولى التخطيط للقيام برحلة حج أخرى إلى مكة، وكانت تلك الحجة التاسعة والأخيرة له. ومن بين الترتيبات التي أعدها لذلك الغرض حدث أن أرسل «سعود» ابنه «عبد الله» على رأس قوة كبيرة ليتفحص المواقع الدفاعية في منطقة مكة، وأمضى «عبد الله» في معسكر نصبه بالقرب من «وادي فاطمة» بعض الوقت دون حدوث أية مشكلات. وعند وصول والده مع قواته إلى ضواحي مكة انضم «عبد الله» إلى تلك وساروا جميعاً لأداء شعائر الحج وسط الاحتفالات التي شهدتها مواسم الأعوام السابقة.

ومع بداية شهر كانون الثاني عام ١٨١٣ انطلق «سعود» بقواته عائداً إلى الدرعية تاركاً خلفه جزءًا كبيراً من قواته التي جاءت معه للدفاع عن مكة، وأمر ابنه «عبد الله» أن يعسكر بقواته في «وادي المار» وهو الجزء الأوسط من «وادي فاطمة» الذي يشطر الطريق إلى المدينة إلى شطرين. وبالرغم من أن «غالب» أبدى كل الود ومشاعر الصداقة التي كان يبديها في الأعوام السابقة، إلا أن «سعود» اتخذ احتياطاته وجعل «غالب» يجدد يمين الولاء والإخلاص وأن يقسم بكل ما هو مقدس بأنه لن يخونه. وكانت آخر هدية قدمها «سعود» إلى مكة الرداء الأسود الذي ألبسه للكعبة.

وبعد مغادرة «سعود» مكة بفترة قصيرة بدأت القوات التركية المتواجدة في «المدينة» و «ينبع» بالزحف على مكة، وما إن وصلت أخبار ذلك الزحف إلى «غالب» حتى سارع إلى تغيير موقفه، وقد تنبه «سعود» لذلك التغيير في الموقف وأمر الحاميات السعودية بالانضمام إلى القوة الرئيسية للدولة، وزحف بقواته إلى الممرات التي تربط جبال الحجاز مع صحاري نجد الشاسعة، وتقدم باتجاه منطقة «عبيلة» عند سفوح مرتفعات الطائف، ومن هناك أرسل «عثمان المضايفي» إلى مقر القيادة في الطائف وأمره بالدفاع عن تحصيناتها مهما كلف الثمن وعاد «عبد الله» إلى منطقة «الخرمة». ويعلق «ابن بشر» بشكل غريب قائلاً إن أعمال الشغب والاضطرابات أحاقت بالمسلمين بسبب خطاياهم وبسبب غضب شديد من الله عليهم - نسأل الله لنا العفو والعافية - على حد تعبير «ابن بشر». بدا خوف «عثمان المضايفي» يظهر تحسباً من غضب ومما قد ينزل بهم من عقاب، وما إن وصل إلى «الطائف» حتى جمع أبناءه ونساءه وبعضاً من خيوله وهرب (قبل أن ينضم

كما هو مقرر إلى قوات عبد الله) في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٣م.

دخلت قوات «طوسون» مكة دون أية مقاومة. استقبلها «غالب» بالأحضان وبكل الترحيب، وبعد بضعة أيام تمكنت القوات التركية من احتلال الطائف وسارعت كل القبائل التي كانت تسكن المرتفعات هناك إلى الانحناء للحكم الجديد. لكن الواحات الغربية أبقت على ولائها لحكم «سعود»، كما حافظت قبائل المرتفعات في الجنوب وفي مناطق «تهامة عسير» على ولائها له أيضاً.

لم يعد حكم «سعود» قائماً على أساس وطيد، وأصبح محفوفاً بالمخاطر ومتقلقلاً، وأدرك «سعود» أنه لا يمكن لشيء أن يعدل من كفة الميزان سوى ردة فعل قوية يجابه بها الغزو التركي الذي تعززت قوته بسبب سيطرته على مناطق الحجاز. وعلى الفور انطلق «سعود» شخصياً على رأس قوة ضاربة جمعها من كافة مناطق نجد سواء من البدو الرحل أو من الحضر، واتجه بها نحو «الحناكية» وهي واحة هامة تقع على الطريق الرئيسي بين المدينة والقصيم، وكانت القلعة هناك تحت سيطرة القوات التركية بقيادة «عثمان كاشف» كما كان مناصروه من قبيلة «حرب» يسيطرون على آبار المياه هناك، وعند مشاهدة القوات السعودية فر «عثمان كاشف» واختبأ بين الصخور البركانية في منطقة «الحرة» والممتدة إلى مسافة تصل إلى «المدينة» تاركاً وراءه خيامه وكل معدات معسكره.

تقدم «سعود» بقواته وحاصر القوات النظامية الموجودة في القلعة، لكن بعد قتال بسيط طلبت تلك القوات وقف القتال وسمح لها «سعود» بالرحيل

شريطة أن لا تتوجه إلى «المدينة» بل ترحل مباشرة إلى العراق ومن هناك قام أمير «جبل شمر» ورجاله المقاتلين بمرافقتهم وفق ما اقتضت الظروف. تقدم «سعود» بعد ذلك على رأس قواته إلى «المدينة» وقام خلال زحفه بالاشتباك مع بعض التجمعات البدوية، وواصل المسير إلى أن واجه بالقرب من «جبل أحد» مجموعة كانت خليط من الخيالة الأتراك والبدو على ظهور الجمال. تمكن «سعود» من هزيمتهم واستمر في مطارتهم إلى أن احتموا بأسوار «المدينة»، وبعد ذلك جاب أطراف «المدينة» استعداداً للانقضاض عليها، ووصل في تطوافه لوادي «الحسي» ومن هناك انحدر بقواته باتجاه وادي الصفرا وغنم أثناء الانحدار كل ما كان في طريقة. وبعدها اتجه جنوباً نحو الجبال والمناطق البركانية إلى أن وصل «السويرقية» وهناك استسلم الأهالي ووافقوا على التنازل عن نصف غلتهم من التمور التي كانوا يعملون على جمعها طيلة شهر آب.

مكث «سعود» بعض الوقت في المناطق المجاورة ليوزع غنائم الحرب ويراقب تطورات الأمور، وفي تلك الأثناء كلف «طوسون» (مصطفى باشا) بتنظيم حملة للهجوم على «تربة» حيث كانت قوات تركية تحاصر حامية سعودية. وبعد مضي يومين على ذلك الحصار وصلت قوات من «بيشة» ومن مناطق أخرى لتساند الحامية السعودية، وفي الوقت الذي كانت فيه القوات السعودية مشتبكة مع القوات التركية حول تلك الحامية، قامت مجموعة احتياطية من القوات السعودية بالالتفاف على معسكر الأتراك واستولت عليه وأجبرت القوات المدافعة عن ذلك المعسكر على الفرار، عندها سحب «مصطفى باشا» قواته وسار بها نحو الطائف وهناك اشتبك مع

القوات التي حشدها «عثمان المضايفي» لمهاجمة عدة قلاع صغيرة. والجدير بالذكر أن العرب كانوا قد استولوا على العديد منها وتوجهوا نحو واحة «بسال» المترامية الأطراف والتي يوجد فيها عدد من الحاميات المحصنة التابعة لجماعات «الشفرة». وبعد أن استولى «عثمان» على هذه الأماكن قام الشريف «غالب» على رأس حامية من القوات التركية النظامية بمهاجمته. وبعد حصار دام لعدة أيام تمكن «غالب» بهجوم عاصف من الاستيلاء على هذه الأماكن وذبح كل من كان يدافع عنها بحد السيف، لكن تمكن «عثمان» من الهرب فقامت مجموعة من رعيان عتيبة بتقفي أثره وهاجمته في منطقة يقال لها صحراء «الحزم» وأسرته وسلمته إلى الشريف «غالب» الذي حظي في نهاية المطاف برأس وزيره السابق وأمر بإعدامه.

كان «سعود» في تلك الفترة قد رجع إلى الدرعية بعد أن قام بجولة استكشاف للمناطق القريبة من «المدينة» و «السوريقية». وهناك وجد نفسه مضطراً للتعامل مع المشكلات التي ظهرت في مقاطعة «عُمان». نصب «سعود» مجدداً «مطلق المطيري» قائداً على القوات السعودية في تلك المنطقة، فقام «مطلق» بمهاجمة «جعلان» في أقصى جنوب «البريمي» وفاز بالكثير من غنائم الحرب، لكن قبائل تلك المناطق جمعت قواتها لمطاردته فما كان منه إلا أن واجهها وخسر تلك المعركة وقتل فيها. وقبل أن يحاول «سعود» القيام بأي عمل لإعادة الأمور إلى طبيعتها ظهرت أمامه أزمة جديدة في المناطق الغربية توجب عليه التعامل معها.

قرر «محمد علي باشا» في شهر تشرين الأول عام ١٨١٣ أن يرافق المحمل الذي كان يقل الحجاج المصريين المتوجهين إلى مكة للمرة الأولى منذ

عـدة سنوات. ودخل «مـحـمـد علي باشـا» مكة في ظل الظروف والأحـوال المواتية لذلك الحدث التاريخي، وبدأت قواته بالاستيلاء على كافة القلاع والمراكز الدفاعية القوية في المدينة. ومثل «غالب» بين يدي «محـمـد علي باشا» وقدم له كل ضمانات الولاء إلى جانب الهدايا الثمينة، وبادله «محمد علي» نفس حفاوة الاستقبال ومَنَّ عليه بالهدايا وشكره على الخدمات التي قدمها للأتراك. لكن بعد أن استتب الحكم والإجراءات الأمنية في المدينة الأم، قام «محـمـد علي» في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٨١٣ باعتقال «غالب» وطرد أسرته من قلعة «أجياد» التي كانت تشرف على الحرم المكي، وسجن أبناءه الاثنين وصادر كل ثروته الطائلة وعين مكانه أخاه «سرور بن يحيى بن سرور» أميراً على مكة. وفي فترة لاحقة أمر «محمد علي» بنقل «غالب» وولديه «عبد الله وحسين» إلى مصر ومن هناك رحلوا جميعاً بموجب فرمان من الصدر الأعظم إلى «سولنيكا» ليعيشوا تحت إقامة جبرية مكرمين تصرف لهم رواتب تغطي احتياجاتهم. وأمر الصدر الأعظم أيضاً بإعادة بعض ممتلكاتهم إليهم، وبقي «غالب» في ذلك المنفى إلى أن مات عام ١٨١٦ متأثراً بوباء الطاعون.

بعد أن قام محمد علي بكل الترتيبات الإدارية الضرورية للسيطرة الفعلية على مناطق الحجاز، بدأ يتطلع إلى مسافات بعيدة عن الحجاز تصل إلى مناطق نجد التي فكر في الاستيلاء عليها. فر العديد من أشراف مكة إلى المناطق الجبلية هرباً من التعرض لغضب الباشا ونزواته وتحرشاته بهم، لكن «محمد علي» استثنى من بين أولئك الأشراف الشريف «راجح» الذي كانت

له خبرة كبيرة في أمور الصحراء، واعتمد علية كأداة مناسبة لإغواء باقي العرب بالوقوف إلى جانب قواته، وربما كان من المحتمل أن يعينه أميراً على مكة بدلاً من أخيه «غالب»، لكن لم تكن لدى «راجح» رغبة في خدمة الأتراك. حدث في أحد الأيام أن هرب «راجح» من مكة وانضم إلى القوات السعودية في «تربة»، وقام شريف آخر يدعى «يحيى بن سرور» بنفس العمل والتحق بالقوات السعودية في منطقة «تهامة»، فأرسلت القيادة التركية «طوسون» على رأس قوة لتحسم الأمر مع قوات الحامية الموجودة في «تربة»، وبعد بضعة أيام من القصف المدفعي والمناوشات قرر «طوسون» التراجع عن الواحة، وبهذا سجلت نهاية ذلك العام توقفاً في الأعمال العسكرية التي على ما يبدو لم يكن بالإمكان الاستمرار بها. وربما تجدر الإشارة بشكل عابر إلى أن هذا العام المأساوي الذي شهدته فترة حكم «سعود» والمصادف في ١٢٢٨ هجري، جاء مطابقاً لامتداد العام الميلادي ١٨١٣ إذ كانت بدايتهما في الرابع من شهر كانون الثاني ونهايتهما في الثالث والعشرون من شهر كانون أول.

شهدت الأشهر الأولى من عام ١٨١٤ عمليات عسكرية غير حاسمة حدثت في مناطق «تهامة» بالقرب من القنفذة وحول «الحناكية»، لكن اجتياح الأسراب الكثيفة من الجراد لمنطقة نجد أحدثت بين الأهالي مخاوف وذعر فاقا المخاوف والتهديدات التي سببتها قوات الغزو التركي المتواجدة على مسافات بعيدة عن نجد.

ووري جثمان الأمير «سعود» التراب إلى جانب قبور آبائه وأجداده في

الأول من شهر آيار عام ١٨١٤ ، تاركاً لابنه «عبد الله» مهمة الدفاع عن المملكة وعن الدعوة السلفية التي قدم من أجل التوسع بها أكثر ما يمكن أن تصل إليه مخيلة مؤسسيها الأصليون . ومختصر القول إن «سعوداً» كان رجلاً مسلماً قوياً وسلفياً شجاعاً ومحارباً باسلاً ، وملكاً عظيماً بمقياس منهج الأيام الخوالي والأزمنة الغابرة المنصرمة .

الفصل الخامس

عبد الله الأول ابن سعود

صفحة بيضاء

عبد الله الأول ابن سعود

في بداية عام ١٨١٤ وبعد فشل الحملة التي قام بها «أحمد طوسون» لإخضاع واحة «تربة» خلال فصل شتاء ذلك العام، كان «محمد علي باشا» شخصياً يشرف على عمليات الهدف منها استقرار الأوضاع في مناطق الحجاز وفي مناطق أخرى على ساحل البحر الأحمر.

قامت قوات تركية مساندة نقلت من مصر عبد البحر الأحمر بالاستيلاء على ميناء «القنفذة» الواقع جنوب «جدة»، وقام «طامي بن شعيب» زعيم قبائل عسير بمهاجمة المعسكر المصري وأجبر القوات القادمة من مصر على الفرار والعودة إلى قواربها. تمكن الناجون منهم من التوجه إلى «جدة» تاركين كل مستلزمات معسكرهم غنيمة في أيدي العرب. كلف «طوسون» في تلك الأثناء بقيادة حامية كانت في منطقة الطائف ليشرف على المناطق الصحراوية بين «الطائف» و «تربة». وفضل الشريف «راجح» الانضمام إلى القوات السعودية في «تربة» على أن يثق بتملق الوالي التركي ممثل الصدر الأعظم في «مصر» الذي فكر في استخدام نفوذه لصرف أنظار القبائل عن الهدف الرئيسي لعدوهم.

والأمر الآخر المشابه لهذا الحدث هو أن الشريف «يحيى بن سرور» غادر مكة تحت ذريعة مهاجمة القبائل المعادية للمصريين، وتمكن بتلك الذريعة من الهرب والوصول إلى مناطق «تهامة عسير».

إن ما أحدث تغييراً مفاجئاً في هزيمة «تربة» كانت المقاومة الناجحة التي أبداها مقاتلو قبيلة «حرب» في شهر كانون الثاني بمنطقة «الحناكية» ضد

الهجموم الذي شنته قوات من «القصيم» و «حائل». والجدير بالذكر أن تلك القبيلة كانت مقربة من العثمانيين. لكن حدثت في الشهر نفسه موقعة دارت بالقرب من «سفينة» وفيها تمكنت قوات الأمير «عبد الله بن سعود» من إلحاق هزيمة نكراء بأبناء قبيلة حرب. كانت تلك الموقعة والعملية أكثر من مجرد غزوة من النوع التقليدي إذ كان هدفها وبدون شك تحذير البدو من التعاون مع قوات العدو. لم يغرى ذلك الانتصار «عبد الله» للبقاء في المناطق التي تحتلها القوات المعادية، فتوجه بقواته عائداً إلى ديرته وعند وصوله إلى آبار «خانوقة» بالقرب من «الدوادمي» وصلته أخبار وفاة والده.

أصبحت الآن مسؤولية الدفاع عن أرض أجداده ضد العدو القوي والعنيد ملقاة على عاتقه تحمل تلك المسؤولية خلال فترة حكمه التي لم يقدر لها أن تدوم لفترة طويلة لكنها كانت مملوءة بالقلاقل والمحن. ودلت الأعمال التي قام بها على أنه لم تكن لديه النية في ترك المبادرة كلياً في أيدي أعدائه.

على أية حال تابع «عبد الله» المسير بقواته باتجاه الدرعية، وقبل الوصول إلى هناك ليستمع إلى قسم الولاء لحكمه وله شخصياً، أمر زعيم عتيبة «غضاب» بترك الحملة والتوجه إلى «تربة» ليقود كافة التشكيلات العسكرية العاملة هناك، إذ أصبحت «تربة» الآن منطقة أساسية ورئيسية في الدفاع عن حكمه.

وفي شهر أيلول كان «عبد الله» شخصياً على رأس قوة كبيرة من «نجد». توجه بها إلى «الرس» وأقام هناك مقراً رئيسياً لقوته وأغار على مناطق مختلفة لقبيلة المطير وهي قبيلة اتخذت موقفاً حيادياً تجاه القوات المصرية. وأما في شهر تشرين الثاني فتوجه بقواته من جديد نحو مناطق الحجاز لمنازلة قبيلة «حرب» في المنطقة البركانية التابعة لجبل غراب، ومنها عاد إلى منطقة

القصيم ليقضي فترة راحة طويلة قبل أن يعود أخيراً إلى الدرعية في شهر شباط من عام ١٨١٥ . وفي ذلك التاريخ أرسل أخاه «فيصل» على رأس قوة ليتولى قيادة «تربة» وليشرف على سير العمليات في تلك الجبهات، وسرعان ما انضم إليه «طامي بن شعيب» بتعزيزات قوية تقدر بعشرين ألف رجل، جاءت معظمها من جبال تهامة والحجاز. تحركت جموع القوات التي بلغ تعدادها الآن ثلاثين ألف رجل عن طريق مشارب «غزيل» في وادي تربة باتجاه «بسال» وهناك اشتبكت مع القوات المصرية وحاصرتها وانتهى الحصار بفوز السعوديين. لكن في صباح اليوم التالي وصلت تعزيزات إلى القوات المعادية - يفترض أن طوسون أرسلها إليهم - وهاجمت القوات السعودية وتمكنت من دحرها، علماً بأن قوات «فيصل» بقيت في مواقعها وانسحبت في نظام تام باتجاه «تربة» دون أن تطاردها القوات المصرية. قصد «فيصل» من خطة تراجع قواته إلى «تربة» أن يعيد ترتيب جيشه استعداداً لجولة جديدة ضد العدو.

تلاشت قوات «طامي» وحشود البدو التي كانت معه داخل الصحراء، وعندما علم «فيصل» بقدوم القوات المصرية قام على الفور بإخلاء «تربة» وتوجه بقواته جنوباً نحو «رنية» وهناك سرح حلفاءه من القبائل المحلية قبل عودته إلى «نجد».

أصبحت «تربة» الآن تحت سيطرة «محمد علي باشا» الذي تولى قيادة القوات مباشرة بعد معركة «بسال». زحف «محمد علي باشا» بقواته نحو «بيشة» و «طوالة» وقمع في طريقه كافة أشكال المقاومة. وأثناء تقدمه عمل على تنظيم شؤون الحكم في تلك المناطق. أطلق الأتراك يد الشريف

«راجح» وأرسلوه لاحتلال «رنية» ونهب ممتلكاتها بسبب دعمها ومساندتها للقوات السعودية.

استمر «محمد علي» في التقدم جنوباً ليحتل «خميس مشيط» وليحتل واحات «وادي شهران»، وقد أبدت قبائل «شهران» و «الربيضه» وباقي المناطق هناك استسلامها لـ «محمد علي»، إلا أن جماعة «الطامي» والعشائر التي كانت تقطن المناطق المرتفعة هناك قاومت القوات الغازية التي كانت تحاول شق طرقها في أعالي الجبال.

تم تعزيز مستوطنة «طلحة» التي تجثم في ممر «شعار» على الطريق بين «أبها» و «القنفذة»، وجهزت بمعدات ومقاتلين ووضعت تحت إمرة «حوان» بينما تراجع «طامي» بقواته إلى مرتفعات «بني مغيض» ليدير من هناك أعمال حرب العصابات. لم يواجه «محمد علي» سوى قليل من المتاعب في السيطرة على «طلحة»، وتمكن من تدمير استحكاماتها قبل أن ينزل بقواته باتجاه وادي «طيه» متقدماً نحو «محايل» و «القنفذة». هذا وغادر «طامي» المناطق الجبلية متوجهاً إلى معاقل تهامة في «المسلية»، ومن هناك غرره أصدقاؤه بالتوجه إلى «صبيا» عاصمة تهامة قاصدين خداعه، وهناك تم اعتقال «طامي» وتسليمه إلى «محمد علي» الذي أمر بترحيله إلى مصر وتم إعدامه هناك شنقاً.

وصلت إلى «محمد علي» في «القنفذة» أخبار المشكلات التي كانت تدور بين المماليك وحكومته، وعليه قرر في الحال العودة إلى مصر تاركاً أمر إدارة العمليات المستقبلية إلى «طوسون» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة» يحضر لشن حملة ضد «نجد».

كانت الأخبار التي نقلها إلى «طوسون» بعض العناصر المستاءة والساخطة في منطقة «الرس» و «الخبراء» مشجعة لـ «طوسون» وجعلته يصدر أوامره إلى القوات الموجودة في «الحناكية» بالتحرك إلى «القصيم». وعليه تمكنت القوات التركية من السيطرة على بلدتي «الرس» و «الخبراء» دون أية مقاومة، كما تمكنت من احتلال القلاع والمستوطنات الصغيرة في المناطق المجاورة لهما، علماً بأن القرى والمدن في وسط القصيم وفي الجبهات الشرقية من ذلك الإقليم، بقيت على ولائها للحركة الوهابية وفي مقارعة القوات المصرية التركية، إلى أن تمكن «عبد الله» من حشد قواته من كافة مناطق «نجد» وقدم لنجدة مناطق وسط وشرق «القصيم».

وفي منتصف شهر نيسان من عام ١٨١٥ غادر «عبد الله» الدرعية متوجهاً إلى «المذنب» المكان المتفق عليه للقاء القوات، وتحرك من هناك متوجهاً إلى «رويضة» بالقرب من «الرس». واكتفى المصريون هناك بإطلاق نيران المدفعية عن بعد، لكن «عبد الله» سار بقواته نحو جماعة «حرب» ورجال عشائر «مطير» التي كانت متجمعة حول آبار «بصيري» باتجاه الغرب، وفي طريقه إلى هناك وصلته أخبار مفادها أن «طوسون» كان قد وصل على رأس قوة كبيرة إلى «داث» في طريقه إلى «الرس»، وعلى الفور توجه «عبد الله» إلى هناك على أمل أن يفاجئ العدو عند موارد المياه، لكن «أحمد طوسون» الذي كان قد توقع من «عبد الله» أن يقوم بذلك التحرك، تابع مسيرة مباشرة إلى منطقة «الرس». أرسل «عبد الله» فرقة رجال «القصيم» لمقاومة أي تقدم محتمل لقوات العدو، وعاد هو بنفسه إلى خطته الأولى وهاجم تجمع القبائل في بصيري. وبعد أن وجه ضربة ناجحة ضدهم وصلته أخبار أن قوة

تركية أخرى كانت قد وصلت إلى قلعة وآبار «البعجة» القريبة منه، وكان عليه التحرك لملاقاتها. وتمكنت القوات السعودية بقيادة من النيل من تلك القوة التي بلغ تعدادها اثني عشر ألف رجلاً، واختبأ رجالها في البيوت إلا أنه داهمهم كما داهم الحامية التي كانت هناك وقتل كافة رجالها. عاد «عبد الله» بعد ذلك إلى قاعدته في المذنب وقام «طوسون» الذي كان مسيطراً على «الرس» و «الخبراء» باقتحام موقع متقدم في «الشبيبية» بالقرب من «عنيزة» واستولى عليه. وكان «طوسون» ينوي احتلال «عنيزة» عندما تحين الفرصة وتحويلها إلى مقر رئيسي لقواته، وعلى أي حال سبقه «عبد الله» في الوصول إليها وجعل منها قاعدة لحملاته ولغزواته المتكررة ضد القوات المصرية وحلفائها من البدو. كان الوضع العام للقوات المصرية وحلفائهم المتواجدين في منطقة محاطة بأعدائهم سيئاً، إضافة إلى أن جماعات من منطقة «الرس» سارعت في التفكير عن التسرع في استسلامها لـ «طوسون» وقامت بهجوم احتلت على إثره قلاع «الشنانة» لتستفيد منها قوات الأمير «عبد الله».
سحب «عبد الله» القوات المتقدمة والموجودة في منطقة «الشبيبية» وسار بقواته خارج «عنيزة» باتجاه آبار «الحجناوي» وعسكر هناك لمدة شهرين قام خلالهما بممارسة الهجمات المتوالية على مواقع «طوسون».

هذا ولم يعرف السبب المباشر للتطور الذي حدث لاحقاً في الأحداث، إذ يعزوه بعض المؤرخين إلى وضع «طوسون» المضطرب في وسط الصحراء، والبعض الآخر يعزوه إلى الأحداث التي حصلت في «مصر» مؤخراً أو إلى صحته المتردية. فحدث أن أحد الضباط الأتراك كان يرافقه دليلان واحد من جماعة «حرب» والآخر من جماعة «مطير» وكان ذلك

الضابط في طريقه إلى «طوسون»، فاعترضت سبيله دورية من القوات السعودية واقتادته إلى معسكر «عبد الله»، وحيث أبلغ الضابط التركي «عبد الله» بأنه كان يحمل رسالة إلى «طوسون» من والده الذي يأمره في تلك الرسالة بالتوصل إلى صلح وسلام والعودة إلى مصر. أحسن «عبد الله» استضافة الضابط التركي وسمح له بالذهاب إلى «طوسون»، وسرعان ما توصل القائدان إلى اتفاق سلام يفضي أولاً إلى إنهاء الأعمال العدائية فيما بينهما، وثانياً إلى إنهاء التدخل التركي في شؤون نجد، وثالثاً حرية التجارة بين الصحراء العربية وجيرانها والتأكيد على سلامة وحرية رحلات الحج لكافة الجماعات المسلمة المعنية. وعليه غادرت القوات المصرية «الرس» متوجهة إلى «المدينة» في منتصف شهر تموز من عام ١٨١٥، ورافق «طوسون» مبعوثان على مستوى رفيع من الجانب السعودي وحملا معهما رسالة من «عبد الله» إلى «محمد علي» والتي موجبها أصبحت الهدنة سارية المفعول. وفي نهاية شهر أيلول عام ١٨١٧ توفي «طوسوون» في مصر بعد أن سجل فشلاً في حملته ضد الصحراء العربية، وقبل هذا التاريخ بشهر تقريباً كان الشريف «غالب بن مساعد» (الذي نفاه محمد علي من مكة قبل بضع سنوات) قد مات أيضاً في «سالونيكا».

يبدو أن «عبد الله» قد أعد حملته ضد «طوسون» بقوة ومهارة كبيرتين حافظ على العناصر الهشة التي كانت بين قواته وأبقاها تحت أنظاره، كما شجع إرادة الأهالي في مناطق «القصيم» ورفع معنوياتهم في مواجهة الاعتداء المصري على حقوقهم وممتلكاتهم، وجلى ذلك في تكفير أهالي «الرس» عن سوء تصرفهم. وحقيقة أن مبادرة «محمد علي» شخصياً في

إلغاء الغزو ضد مناطق «نجد» جاءت بمثابة انتصار معنوي للقوات السعودية. وبرزت نتائج هذا النصر المعنوي أيضاً في المقاومة الرفيعة المستوى التي أبدتها مناطق ومدن «نجد» والتي أشاد بها «إبراهيم باشا». شعر «عبد الله» بأنه يستحق فترة استراحة يقضيها في الدرعية، علماً بأنه كان على يقين من أن هناك حاجة ماسة لمواجهة بعض الجماعات سواء من البدو الرحل أو من الحضر، لأن عدم ولائهم المفضوح قد تجاوز الحد وأصبح من الصعب تجاوزه أو الصفح عنه. ومع حلول نهاية العام كان «عبد الله» قد انتهى من تجميع قواته في «القصيم» سبق وأن استدعاها من كل حدب وصوب من مملكته: وكان قد جمعها من «عُمان» و«وادي الدواسر» و «الأحساء» و«جبل شمر» وحتى من «الجوف» في أقصى الشمال، ناهيك عن الفرق التي جمعها من الدرعية ومن مناطق «القصيم» نفسها، وكانت منطقتا «الخبراء» و«البكيرية» أول المناطق التي استهدفها، فدمر الآبار فيها باعتبارها مصدراً من مصادر الضرر مستقبلاً، وبعد ذلك سار بقواته غرباً بحثاً عن تجمعات قبائل «حرب» و «مطير»، ووصل إلى آبار «الأعلام» بالقرب من «الحناكية» واستمر في تقدمه جنوباً نحو موارد مياه «حرة الكشب»، وبعدها رجع باتجاه الدرعية عن طريق «الدفينة». حاول في تلك المرحلة إخفاء الإعياء الذي أصاب قواته نظراً لأن القبائل كانت منتشرة في الصحراء تحاول تجنب الاحتكاك مع قواته. قام أهالي تلك المناطق بتدمير أو ردم العديد من الآبار التي يمكن لأي قوة غازية أن تستفيد منها. وتمكنت قوات «عبد الله» من أسر أمير «الرس» واثنين من كبار الشخصيات فيها، واقتادوهم إلى الدرعية كرهائن. أحدث هذا التصرف بعض الاستياء بين أهالي «القصيم»، فقامت بعض العناصر

المستاءة وغير الموالية بإرسال رسائل إلى «محمد علي باشا» الذي كان في ذلك الوقت مستعداً لاستئناف نشاطاته في الصحراء العربية .

وبعد وفاة «طوسون» وقع اختيار «محمد علي» على ابنه «إبراهيم» ليقود حملته العسكرية ، لكن الرسل والهدايا التي أرسلها «عبد الله» إلى الوالي (والتي طلب فيها تجديد الهدنة أو التأكيد عليها) لم تلقى نفس الترحيب الذي لاقته في السابق ، وعليه استمرت الترتيبات الخاصة بالحملة العسكرية ضد الصحراء العربية ، ووصل «إبراهيم» بقواته الضخمة إلى «المدينة» ، وكان ذلك إما في شهر تشرين الأول أو في شهر تشرين الثاني عام ١٨١٦ . وأقام إبراهيم في «الحناكية» مركزاً دفاعياً متقدماً ليبدأ في طي الصحراء العربية متقدماً نحو جوهرتها الدرعية ، وقد أسفرت الهجمات التي شنها على مواقع البدو عن إجبارهم على التحالف معه في مغامرته التي كان على وشك الخوض فيها ، وكانت الجماعات الرئيسية (التي تمكن من حشدها لمساندة قواته) من قبائل «حرب» و «مطير» ، علماً بأن بعض العناصر من العتيبية ومن «عنزة» (الدهاشمة) انضمت إليه أيضاً .

وبالتدريج توسع «إبراهيم» بغاراته شرقاً إلي أن وصل إلى مشارف القصيم عند مرتفعات «إبانات» . بدأ «عبد الله» بإعداد ترتيباته لمجابهة خطر ذلك الغزو فأصدر أوامره إلى فرق «الوشم» و «سدير» بالانضمام إلى قوات «حجيلان بن حمد» زعيم منطقة القصيم التي كانت قد اتخذت مواقعها في منطقة «غميل» بين «بريدة و «الخبراء» ومضى على وجودها هناك أربعة أشهر وبقيت دون عمل إلى أن قدم «عبد الله» إلى «الرس» في شهر آذار من عام ١٨١٧ على رأس قوة كبيرة وهناك استدعى «حجيلان» وقواته ، وتوجه

بجموع تلك القوات على طول وادي «الرمة» إلى أن وصل آبار «علم» على أمل أن يداهم حلفاء «إبراهيم باشا» من البدو في تلك المنطقة، لكنه وجد أن أولئك البدو كانوا قد انسحبوا إلى «الحناكية» وعليه عاد عبدالله» بقواته إلى «مكن»(*) و«النجخ»(**) ليراقب تطور الأوضاع. وهناك وصلت إليه أخبار مفادها أن قوة تركية بقيادة «علي عزان» ترافقها قوة من البدو كانت في طريقها إلى آبار سالموية» والتي تبعد مسير يومين جنوب شرق «الحناكية».

وعلى الفور سار «عبد الله» بقواته داهمهم بهجوم مفاجئ في صباح الأول من آيار (مايو) وطاردهم إلى أن وصل على مسافة تقع ضمن المدى المجدي لنيران المدفعية التركية، وهناك عسكر «عبد الله» في موقع مقابل لمعسكر العدو إلا أن مدافع العثمانيين أوقعت الكثير من الإصابات بين صفوفه وأدى الفشل في محاولته احتلال تلك الآبار إلى هروب قواته بشكل غير منظم. وهكذا سيطرت القوات المصرية على أرض المعركة وعلى آبار المياه. تمكن «عبد الله» مع فريق من فرسانه من الهروب أيضاً والعودة إلى «نجد» تاركاً هناك كل المعدات الثقيلة ومنها عاد إلى «عنيزة» عن طريق «الخبراء».

عزز «إبراهيم» ذلك النصر بأن تقدم بقواته من «الحناكية» باتجاه «المويه» جاراً معه كامل معداته، ومن هناك استمر في تقدمه نحو «القصيم» إذ وصل إلى مشارف «الرس» في التاسع من تموز ووجد أن «عبد الله» كان قد أرسل لهم تعزيزات لتحول دون تفكيرهم بالاستسلام للأتراك. قاوم الأهالي هناك بكل عزيمة وإصرار الحصار الذي فرضه «إبراهيم» عليهم، إلا أن كفة

(*) مكن من قرى الجائزة في إمارة منطقة مكة المكرمة.

(**) نجخ هي هجرة من هجر العونه بمنطقة الحسو في إمارة المدينة المنورة.

المعركة رجحت لصالح قوات «إبراهيم» التي لم تترك مدافعها وألغامها وآلية الحصار التي فرضها على الناس أية فرصه للراحة (لا في الليل ولا في النهار) . كان السكان أثناء الليل يسدون الفجوات التي استطاعت قوات إبراهيم ومدافعه إحداثها في النهار، كما كان الأهالي المحاصرون يرسلون بفرق لتبطل الألغام التي زرعها المهاجمون، ويبدو أن المصريين استخدموا أنواعاً من القذائف كانت تنفجر إلى شظايا عندما تسقط داخل التحصينات التي أقامها الأهالي . ومع استمرار المعارك على مدى بضعة أيام، وبغياب أي أمل في انفراج الحصار، أرسل الأهالي رسائل إلى «عبد الله» الذي كان لا يزال في «عنيزة» لكنه عاجز عن التدخل بشكل مباشر، وناشدوه في التدخل بشكل سريع، أو كبديل عن ذلك ناشدوه أن يسمح لهم بالتفاوض مع العدو . في تلك الأثناء وصلت إلى القوات المهاجمة تعزيزات ومؤن ضخمة من مصر وأصبح المدافعون في وضع يائس . وبعد أربعة أشهر من الحصار أجبروا على الاستسلام، ووافق «إبراهيم» على استسلامهم وقدم لهم شروطاً سخية في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ١٨١٧، وسمح لهم بالخروج من معاقلهم مع كافة أسلحتهم ومعداتهم للالتحاق بقوات «عبد الله» في «عنيزة» . بلغ تعداد القتلى بين صفوفهم سبعين رجلاً في حين ذكرت تقديرات المؤرخين بأن عدد القتلى بين صفوف القوات المصرية وصل إلى ٦٠٠ قتيل .

بعد أن أمضى «عبد الله» عيد الأضحى في عنيزة، وفي عشية سقوط «الرس» بدأ «عبد الله» مجدداً في إعداد الترتيبات اللازمة للدفاع عن المدينة وعن قلاعها ضد تقدم قوات «إبراهيم» . وضع الحامية العسكرية التي كانت

تحت إمرة ابن عمه اللزم «محمد بن حسن بن مشاري بن سعود» في قلعة «صفا» الحيوية تحت إمرة «إبراهيم» أخو «محمد»، وزودها بالعتاد والسلاح والمؤن، ووضعها وتوجه بعد ذلك إلى «بريدة» وراقب تطور الأوضاع وأدرك أن أفضل عمل يمكن أن يقوم به هو إنهاك القوات المصرية بالحصار الطويل بدلاً من منازلتهم بأسلوب حرب العصابات المتبع تقليداً في حروب العرب. تحرك «إبراهيم باشا» على الفور بقواته نحو «عنيزة» التي استسلم أهلها في الحال، أما قلعة «صفا» فأبدت مقاومة باسلة، إلا أن قذيفة انفجرت في مستودع البارود داخل القلعة وأحدثت فتحات كبيرة في جدرانها. اضطر «محمد» حيال سقوط «عنيزة» وسقوط القوات المدافعة عن القلعة إلى طلب وقف إطلاق النار، وقبل «إبراهيم» الطلب وكان متساهلاً في شروط الاستسلام، وسُمح للحامية التي كانت تدافع عن القلعة بالرحيل مع ممتلكاتها وأسلحتها، وطلب من رجالها التفرق والذهاب كل إلى بيته.

سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك، وهرع «عبد الله» عائداً إلى الدرعية لينظم قواته لتصد هجوم الأتراك القادم على الدرعية. وفي طريقه إلى هناك توقف في «شقراء» ليشجع أهلها على مقاومة الغزاة بكل ما يملكون من قوة، وطلب أمير شقراء «أحمد بن يحيى بن غيهب» من الأهالي تجهيز الخنادق المحيطة بالمدينة والتي سبق أن استخدموها في صد قوات «طوسون» قبل سنتين، وكان العمل فيها قد توقف بسبب الهدنة التي توصلوا إليها في ذلك الوقت استجابة لذلك الموقف جلب الأهالي الكثير من المؤن إلى داخل المدينة تحسباً لحصار طويل، وتم جمع تلك المؤن

والمعدات الأخرى عن طريق جبايتها بالقوة من أثرياء المدينة، وقاموا أيضاً بقطع سعف أشجار النخيل لكي لا تشب فيها نيران القذائف.

وبعد أن انتهى «إبراهيم باشا» من الترتيبات الأمنية في «عنيزة» توجه إلى «بريدة» التي استسلم أميرها «حجيلان» والأهالي هناك دون مقاومة، وهكذا سقطت كافة مناطق القصيم في أيدي الأتراك بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من انهيار المقاومة الباسلة لأهالي «الرس»، وعليه كان الطريق مفتوحاً أمام «إبراهيم باشا» لمتابعة المسير جنوباً، وفعلاً توجه إلى «المذنب» وأخذ معه ابن حجيلان واثنين من وجهاء «بريدة» كرهائن، ومن هناك توجه إلى «أشيقر» و «الفرعة»، واستسلم أهالي هذه المناطق لدى وصول قوات «إبراهيم باشا» إلى بوابات قراهم. اتخذ «إبراهيم باشا» من «أشيقر» قاعدة لقواته، وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨١٨ توجه لاستطلاع «شقراء» والمناطق المحيطة بها وليرسم خطة مهاجمة المدينة التي كان يدرك أنها ستبدي مقاومة باسلة خلف تحصياتها القوية. وفي اليوم التالي بدأ هجومه من مواقع إلى الشمال والشرق من الواحة، ودارت معارك عنيفة بين الواحات وخارجها تكبد الأتراك فيها إصابات كثيرة، إلا أن التعزيزات وصلت لمساندتهم وتم إجبار المدافعين على التراجع إلى داخل المدينة وأصيب أميرهم بجراح بالغة.

نشر «إبراهيم باشا» فرق المدفعية لتدك جدران المدينة من موقع على هضبة في الجانب الشمالي، ووصل دوي قصف مدافعه ليس فقط إلى «سدير» و«المجمعة» القريبتين، بل وصل حتى سهول «العرمة». تراجع الأهالي خلف أسوار المدينة واقتربت مدافع «إبراهيم باشا» من أحياء المدينة وتم قطع

العديد من أشجار النخيل المحيطة بها، إلا أن السكان تصدوا للهجوم بإصرار وقاوموا العدو من خلف كل جدار أو بناء منهار، وبرزوا من مواقع حول خندق المدينة الذي أمن لهم قدراً لا بأس به من الحماية، واستمر الأهالي في رفض طلب «الباشا» منهم الاستسلام ولو كان ذلك وفق شروط مشرفة، إلا أن مجريات الأمور لم تكن لصالحهم، ففي العاشر من شهر نيسان استسلم الأهالي وسقطت «شقراء». ويعني سقوطها استسلام باقي مناطق «الوشم». فأرسل «إبراهيم باشا» قوة تحت إمرة «رشوان آغا» لإخضاع منطقة «سدير» و«المجمعة»، ولم يواجه «رشوان» سوى مقاومة بسيطة إن لم تكن معدومة. تفادت «حريملاء» و«المحمل» سطوة القوات التركية - المصرية وأبلغت «إبراهيم باشا» عن استسلامها له خلال فترة استراحته في «شقراء» التي دامت شهراً تقريباً.

خلال تلك الفترة كان «الباشا» مشغولاً بالإشراف على هدم ما تبقى من الأسوار، ومشغولاً في ردم الخنادق. تعاظمت الشكوك المتعلقة باحتمال عدم الولاء للباشا بعد رحيله. غذت تلك الشكوك في ذهن الباشا بعض الجماعات التي لها مصلحة في هذه الشائعات، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن عامل الأمير الجريح وعدداً آخر من وجهاء معاملة جلفة وتمكن من إقناع الناس بالتهم التي ألصقت بهم. وعلى أي حال أخذ «إبراهيم باشا» معه عشرة من أهالي البلدة كرهائن وتوجه بهم أخيراً إلى «ضرما».

توقع «عبد الله» أن يقوم «إبراهيم باشا» بتلك الحركة، فما كان منه إلا أن أرسل إلى «ضرما» تعزيزات بقيادة ابن عمه «سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود» وأرسل معه «ابن عفيصان» و«محمد العميري».

وفي العشرين من شهر شباط وعندما وصلت قوات «إبراهيم باشا» إلى المناطق المجاورة لضرما، أدرك أن المدينة كانت على علم مسبق بقدومه وكانت مسلحة لمقاومة هجومه، فأمر قواته بالتمركز في واحة «المزاحمية» التي تقع على مسافة عدة أميال إلى الشرق من «ضرما». صف مدافعه وجهز معدات الحصار ليدك أسوار المدينة وفق خططه العسكرية التي أصبحت الآن معروفة للجميع، وبعد أن أضعف من مقاومة المدينة دفع بقواته في محاولة للاستيلاء عليها، إلا أن المدافعين البواسل صدوهم وقتلوا منهم حوالي ٦٠٠ رجل. بعدها بدأوا في ترميم الفتحات في أسوارهم التي صمدت في وجه نيران المدافع، فوجه «إبراهيم باشا» مدفعيته إلى مكان آخر من التحصينات حيث كان «متعب بن عفيصان» ورجاله يتصدون للقصف ببسالة، إلا أنهم سمعوا منادياً ينادي أن الأتراك تمكنوا من التسلل خلف صفوفهم وأصبحت المدينة مكشوفة وتحت رحمتهم، فتوقف «متعب» ورجاله عن القتال وقام رجال «الباشا» بمطاردتهم داخل شوارع المدينة. زاد المطر الذي كان ينهمر بغزارة والبر الشديد من معاناة الجميع، واستمرت المعارك في الشوارع إلى ما بعد الشمس. في تلك الأثناء تمكن «محمد العميري» مع فرقة بسيطة من «ثادق» من اختراق صفوف العدو والهرب، بعدها قام المصريون بنهب المدينة وذبح كل شخص يشاهدونه في الشارع.

لاذ «سعود بن عبد الله» ومعه حوالي مائة رجل إلى أحد القلاع في المدينة، لكنهم استسلموا في وقت لاحق وفق شروط مشرفة سمح لهم «إبراهيم باشا» بموجبها بالمغادرة إلى الدرعية بسلام.

هرب معظم أهالي المدينة إلى الصحراء وبدأ «إبراهيم باشا» بجمع غنائم الحرب، وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أنه جمع أيضاً النساء والأطفال (الذين

بلغ عددهم ٣٠٠٠) وأرسل معهم فرقة لتؤمن وصولهم إلى الدرعية دون أن يصابوا بأي أذى أو أن يتحرش بهم أحد.

وهكذا وبعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من بدء هجوم قوات «إبراهيم باشا» عليها سقطت «ضرما» المعروفة بأنها من أقوى مدن نجد بعد «الدرعية». يقال إن عدد القتلى من بين رجالها البالغ تعدادهم ١٢٠٠ رجل وصل إلى ٨٠٠ رجل، كما مات عدد مشابه من التعزيزات التي وصلت لنجدتهم.

وبعد أن نهبت قوات «إبراهيم باشا» المدينة انسحبت استعداداً للمرحلة الأخيرة من الحملة التي كلفه بها والده. فسار «إبراهيم باشا» بقواته في ممر «الحيسية» المحاذي لوادي «حنيفة» ومر «بالعيينة» و «الجبيلة» وأخيراً عسكر في واحات «الملقى» التي تبعد عن الدرعية حوالي مسير ساعة على ظهر الجمال. ومن هناك قام بنفسه بجولة استطلاع ووصل إلى منطقة «العلب» عند مدخل الواحة. رافقه في جولة الاستطلاع تلك عدد من ضباطه ومعهم المدافع. سارت تلك القوة في الوادي، في حين كانت فرقة الخيالة تسير على طول المرتفعات في أعلى ضفة الوادي. وبعد مناوشات عنيفة مع المواقع المتقدمة لقوات «عبد الله» عاد «إبراهيم باشا» إلى «الملقى» ليكمل ترتيباته للمعركة التي بدأت في اليوم التالي المصادف للحادي عشر من شهر آذار عام ١٨١٨.

في الوقت الذي كانت فيه المناطق والمدن والقرى في «نجد» تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام زحف الغزاة، كانت هناك عناصر ترفض وباستمرار فكرة العيش بسلام تحت الحكم الأجنبي الكافر. تجمعت هذه العناصر واحتشدت

في المواقع الدفاعية بالمدينة وزودها «عبد الله» بكل ما تحتاجه لمواجهة متطلبات الوضع .

تقع الدرعية في الوادي العميق الذي يطلق عليه اسم «وادي حنيفة» والذي يبلغ متوسط عرضه حوالي ٥٠٠ ياردة ويمتد على طول أربعة أميال من الشمال إلى الجنوب، وتقع علي جانبيه واحات النخيل الكثيفة وتطل على ضفتيه صخور انكسارية بطول مائة قدم، ويقع في حنايا هذا الوادي عدد من القرى والبلدان الصغيرة، وفي أعالي هذه القرى وعلى حافة الصخور في الضفة اليمنى من الوادي تجثم قلعة «طريف» . وكانت هناك قصول عائلة «سعود» والمنازل الفخمة الكبيرة التي كان يعيش فيها أتباعهم، إضافة إلى عدد من المساجد وأماكن الترفيه المتعارف عليها في المدن العربية . وكان هناك أيضاً أخدود عميق يفصل القلعة عن الضفة اليمنى، أما في الطرف الآخر فكانت تنتشر الأكواخ المتواضعة والبيوت التي كان يعيش فيها الحرفيون وطبقات اجتماعية أخرى .

وخارج هذه الضاحية كان هناك سور تعلوه الأبراج والتحصينات الصغيرة وكان ذلك السور يمتد من أسفل الوادي باتجاه الشرق ليطوق المساحة الكبرى منه، وكان هناك سور مشابه إلا أنه أكبر من السور بكثير ويمتد بشكل مقوس قليلاً على طول الصخور المطلة على الوادي من الشرقية، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى قلب الواحة إلا عبر مجرى الوادي من الشمال والجنوب . وكانت آثار أقدام الجمال من أعلى الصخور

حتى بطن الواحة تظهر بين الحين والآخر، لكن من أبرز طرق الجمال هذه كان خط السير الممتد من تلك الواحة باتجاه الرياض.

تلك هي المنطقة التي ستكون مسرح أحداث المواجهة بين العثمانيين والدولة السعودية الأولى. ففي الحادي عشر من شهر آذار تحرك «إبراهيم باشا» بكامل قواته في أسفل الوادي وكانت فرق الخيالة التابعة له منتشرة على كلا الجانبين، وتقدم في مسيرته هذه ليتخذ من منطقة «العلب» مقراً رئيسياً لقواته. وتصدت لقوات «الباشا» في الوادي القوة الرئيسية التي تضم فرسان الدرعية ومقاتلين من مناطق أخرى من «نجد»، وكان جميعها تحت إمرة أخوه «عبد الله» الثلاثة وهم: فيصل، وإبراهيم، وفهد، ولم يكن لدى القوات السعودية سوى ثلاثة مدافع يجابهون بها مدفعية العدو القوية.

وكان على يمينهم باتجاه الشمال الشرقي قوات أخرى من الدرعية تحت إمرة أخوين آخرين هما: سعد، وتركي، وكانت تلك القوة تحمي مدخل «شعيب المغيصبة»، وبالقرب منهم كانت فرقة «منفوحة» بقيادة زعيمها «عبدالله بن مزروع».

وبين خط الدفاع هذا وقوات العدو شكل «تركي بن عبد الله الهزاني» قوة متقدمة مؤلفة من رجال «الحريق» ومن جماعات أخرى، وكانت مهمتها الدفاع عن بوابة «سمحان» في الطريق الشمالي من القلعة.

اتخذ «عبد الله» موقعه داخل أسوار القلعة ومعه بعض المدافع الثقيلة، وكان «فهد بن عبد الله بن عبد العزيز» (ابن عم عبد الله اللزم) يرابط للدفاع عن قرية «قري عمران» الواقعة بجوار واحة «الرفيعة»، وكانت معه قوة من

الدرعية وسدير ومعهم بعض المدافع أيضاً.

شكلت كافة هذه المواقع الخط الدفاعي الأول المجابة لتشكيلات العدو المشابهة للتشكيلات السعودية، وكان خلف هذا الخط مباشرة في الجانب الأيمن من الواحة مواقع واستحكامات تمركز فيها عدد من الرجال الكبار في السن والأهالي الغير مؤهلين لتحمل وطأة المعركة لكنهم كانوا قادرين على الدفاع عن مواقعهم عند الضرورة. وتحسباً من أن يقوم العدو بحركة التفافية من المناطق الصحراوية في أسفل الواحة، قام «سعود بن عبد الله بن عبدالعزيز» وهو أيضاً ابن عم «عبد الله» اللزم بالتمركز في منطقة «قرين» الواقعة على رابية صغيرة.

رابط «عبد الله بن عبد العزيز» على رأس قوة من عناصر مختلطة في قلعة «سمحة» الواقعة إما على الضفة اليمنى أو الغربية من الوادي ومباشرة أمام خط الدفاع، وكان إلى جانبه أخ آخر له يدعى «عمير». وكان هذا الأخير يغطي مدخل شعيب الحريقة. وامتداداً لنفس الخط الدفاعي كان أخ ثالث لـ «عبد الله» ويدعى «حسن» يرابط بقواته التي انتشرت لتتصل بقوات «تركي» و «زيد» ابنا «عبد الله بن محمد» اللذان كان يقودان فرقة أخرى من الدرعية، وكان «فرج الحربي» وهو عبد سابق من عبيد «سعود الكبير» على رأس فرقة من العبيد مهمتها حماية قوات «تركي» و «زيد». أما في أعالي الشعيب فكان «فهد بن تركي» المشار إليه أعلاه وابن عمه «محمد بن حسن بن مشاري» اللذان سبق أن أشرنا إليهما كقائدين لقلعة «الصفا» في عنيزة. وخلف هذه المواقف وعلى الضفة العربية أيضاً رابط «مشاري» (أخو عبدالله» في «مصلى العيد» الواقع في منطقة الجرف خلف ضاحية المدينة التي سبق أن

أشرنا إليها. وفي المرتبة الثانية جاءت ضفاف «شعيب الصفا» التي رابط فيها «سعود بن عبد الله بن محمد» لمنع أية محاولة هجوم يقوم بها العدو من الخلف، وكما سبق أن أشرنا آنفاً كان هذا الأمير أيضاً يغطي مؤخرة مواقع الضفة اليسرى من الشعيب.

وفور وصوله إلى منطقة «سد العلب» بادر «إبراهيم باشا» بالهجوم على الخط الأمامي للقوات السعودية، واندلعت المعارك بضراوة دون توقف على مدى عشرة أيام دون تحقيق مكاسب لأي طرف علماً بأن اشتباكين حدثا بالسلاح الأبيض عند مدخلي شعيب «المغيصبة» وشعيب «الحريقة» على ضفتي الوادي. بادر الوهابيون في كلا هذين الاشتباكين بالقتال والهجوم. وإثر هذه الاشتباكات قرر «إبراهيم باشا» إيقاف ذلك القتال والتوجه بمهاجمة المواقع الدفاعية للقوات السعودية في وادي «غبيرة» شمالاً. وفعلاً بدأ بالهجوم عند الفجر ودفع بالعديد من التعزيزات ليشغل المدافعون بها. وفي تلك الأثناء أمر فرقة الخيالة (التي كان قد خبأها في الوديان أو الوهاد طيلة الليلة السابقة) بمهاجمة القوات السعودية من الخلف. فاجأ ذلك الهجوم القوات السعودية وجعلها تتقهقر بشكل غير منظم متجهة إلى أسفل الوادي، الأمر الذي أسفر عن موت العديد منهم بمن فيهم أول قتلى من أسرة«آل سعود» الحاكمة، وهم: فهد بن تركي ومحمد بن حسن بن مشاري إضافة إلى« «حسين» زعيم قبيلة «الهزاني». تجمع الذين نجوا من الموت وحاولوا الوصول إلى القلعة التي فشل الأتراك في التأثير عليها، وأسفر الاكتئاب والغم الذي خلفته كارثة الدرعية هذه عن انشقاق بعض العناصر ذوي الحماسة الفاترة عن الدعوة السلفية وحاولوا التملق للباشا وكسب رضاه عن طريق تزويده ببعض المعلومات عن الوضع في الدرعية.

وبعد فترة وجيزة من انتصاره في موقعه «غبيرة» أرسل «إبراهيم باشا» فرقة الخيالة ومعها بعض المشاة التي سحبها من المواقع المحصنة بالخنادق في الوادي إلى «علي عزان» قائد القوات التركية على الضفة اليمنى من الوادي، وأمره بمهاجمة السعوديين في قلعة «سمحة» كما أمر قواته في الضفة الغربية بتصعيد الهجمات العنيفة ضد القوات السعودية المواجهة لهم لمنع سحب أي مجموعة أو فرقة مشاركة في إسناد الهدف الرئيسي من الهجوم، وفتح «إبراهيم باشا» نيران مدافعه على القلعة والمناطق المجاورة لها في الوادي إلى أن حول معظم التحصينات هناك إلى أنقاض. وعليه وجد «عبد الله بن عبدالعزيز» نفسه مضطراً للانسحاب عن ذلك الموقع والتراجع إلى الخط الخلفي المعزز بالخنادق. في تلك الأثناء شن «علي عزان» هجوماً على القلعة التي كان «عمر» (أخو عبد الله) مستحكماً فيها يصد أي هجوم عليها بالرغم من القصف العنيف الذي تعرض له. لكن في النهاية تمكنت القوات التركية التي هاجمته من الخلف والتي سبق أن احتلت قلعة «سمحة» من هزيمته.

تشتت مقاتلو «عمر» وهربوا إلى جنوب الوادي وهي المنطقة التي كان «إبراهيم باشا» يشن هجوماً رئيسياً فيها ضد المواقع الرئيسية لـ «فيصل بن سعود» استمر «فيصل» في مقاومة الهجوم بضراوة إلى أن أمر «علي عزان فرقة الفرسان والمشاة التي كانت تحت تصرفه بالمسير عبر شعيبي «حريقة» و«غبيرة» باتجاه الوادي، وهناك اتخذت من واحات النخيل هناك معسكراً لها ومكثت فيه إلى أن تخلى «عمر بن سعود» عن موقعه. وبعدها تحركت هذه القوة إلى خلف مواقع «فيصل» وتمكنت إثر قتال شرس من دحر قواته التي تركت خلفها معظم أسلحتها ومدافعها، كما أن القوات السعودية التي كانت ترابط في المواقع على كلتا ضفتي الوادي انهارت وهربت مذعورة.

لم يتوقف تقهقر القوات السعودية حتى نجح «فيصل» وأخوه «سعد» في تجميع الرجال في واحة «السلماني» والتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم وردوها على أعقابها وأوقعوا فيها الكثير من الخسائر. لم تقم القوات السعودية بأية محاولة لاستعادة مواقعها بل تمركزت في المواقع التي توقفت فيها لإقامة خط دفاعي عن طريق ربط مختلف بخنادق وحواجز عبر امتداد عرض الوادي في تلك المنطقة.

عزز أبناء «عبد الله» الثلاثة فيصل وتركي وفهد أمكنتهم في هذا الجزء من الوادي، ووقف إلى جانبهم عمهم «عبد الله بن عبد العزيز» وعلى يسارهم تمركزت قوات أخيهم «إبراهيم» لتغطي الضفة اليمنى من الوادي. وفي صحن القلعة التي تقع خلف موقع «إبراهيم» رابط «سعد بن عبد الله» بقوات ضخمة ومدفعية قوية تطل على مساحة واسعة من الوادي وتشرف أيضاً على المعركة. ورابط في أعلى الوادي وعلى ضفاف شعيب غبيرة «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» وابنه «فيصل». الجدير بالذكر هنا أن ذلك كان أول ظهور لـ «فيصل» على مسرح الأحداث وقدر له أن يلعب على ذلك المسرح دوراً بارزاً دام لفترة تزيد على ثلاثين عاماً.

سيطرت قوات «عمر» و «حسن» (أخوي عبد الله) مع فرقة حربية بقيادة المحارب «فرج الحربي» على جزء من منطقة «شعيب بليدة». ورابطت بين هذا الخط الدفاعي وبين «شعيب ختلة» قوة أخرى بقيادة أخ لـ «عبد الله» يدعى «عبد الرحمن». وفي منطقة مصلى العيد رابط «مشاري بن سعود» الأخ الأكبر لـ «عبد الله». أعدت هذه المواقع لتكون كل واحد منها مقابلة لموقع من مواقع القوات التركية. استمر توارد المحاربين وحشدهم فيها ليلاً

نهاراً دون توقف. أما بالنسبة للمواقع في أسفل الوادي (والتي سبق أن أشرنا إليها)، فتم تعزيزها بشكل طفيف للاستفادة منها وقت الحاجة، ولم تكن معنية بالتطورات الرئيسية في المعركة. وأما المنطقة الواقعة في «سلماني» وعلى الضفة اليسرى من الوادي فقد أوكل الدفاع عنها لـ «عبد الله ابن مزروع» من «منفوحة» ولـ «عبد الله بن إبراهيم بن حسن المشاري». وحقيقة الأمر أن قوات «مشاري» كانت ترابط في مكان مرتفع من «النضيرة» وفي قمة الرابية أو الهضبة هناك كانت تجثم قلعة صغيرة مبنية من الحجارة وداخلها حامية بقيادة «سديد اللوح» من منطقة «المحمل» تشكل إحدى مراكز الدفاع الرئيسية، وبين هذه النقطة والخط الممتد حتى شعيب «القليقل» رابطت قوات «سعد بن سعود» (أخو عبد الله أيضاً)، وسيطر على منطقة الشعيب نفسه الأخوان الدغيثر (إبراهيم وعلي)، ورابط «عبد الله» بنفسه ومعه قادة المشايخ بقواتهم عند بوابتي «سمحان» و «الظهرة»، وجلسوا في خيامهم بالقرب من بطارية المدافع الثقيلة.

نقل «إبراهيم باشا» مقر القيادة إلى وهاد «قري قصير» في الجانب الشمالي القريب من البلدة، في حين أخذت قوات «علي عزان» مواقعها على طول الضفة اليمنى من الوادي المواجهة للقلعة من جهة الغرب، واندلعت المعركة بنفس قوة المعركة السابقة واستمر الصدام في الليل والنهار وتخللتها اشتباكات بالسلاح الأبيض وقعت بين الحين والآخر لتنوع من طراز القصف المدفعي المتواصل. وبشكل عام يمكن القول أن المدافعين تفوقوا في الاشتباكات المتلاحمة، لكل القوات التركية تفوقت بكثرة العدد وكان بإمكانها سد الثغرات التي نجمت عن الإصابات البالغة التي تعرضت

لها قواتها. أضف إلى ذلك أن القوات التركية كانت تتلقى وباستمرار تعزيزات ومؤن تصلها من منطقة «المدينة». في حين عانت القوات السعودية المدافعة من تناقص في عد الرجال وتناقص في العتاد.

تصاعدت وتيرة المعارك في عدد من مراكز الدفاع الحيوية مثل واحة «السلماني» وأطلال قلعة «سمحة» وأماكن أخرى في «شعيب بليدة» على الضفة اليمنى من الوادي، وفي «شعيب قليقل» على الجانب الأيسر منه.

طوقت فرقة الخيالة العثمانية المدينة بمهاجمة قرية «عرقة» التي تقع على مسافة بضعة أميال جنوب الدرعية، وتمكنت من الاستيلاء على البلدة وقامت بتدميرها وهرب من كتبت لهم النجاة من أهلها عبر الوادي إلى العاصمة. تمكن «عبد الله» من استعادة القرية في موسم جمع ثمار التمر ليزود مخازنه منه. رد «الباشا» على ذلك بهجوم على حامية السعوديين بمساعدة من أمير الرياض «ناصر العائذي» وعناصر من «منفوحة» ومن قرى أخرى من «نجد» كانت قد تحالفت مع العدو التركي.

وفي النهاية استسلمت «عرقة» وتراجعت الحامية السعودية التي كانت تدافع عنها إلى الدرعية، لكن خلال هذه المعارك تكبدت قوات «إبراهيم باشا» كارثة فادحة تجلت في أن أحد مستودعات الذخيرة انفجر ودمر كميات كبيرة من المعدات الحربية كما تسبب في وفاة العديد من الجنود الأتراك في المناطق المجاورة للانفجار، هذا إضافة إلى الذعر الشديد الذي أصاب الناس بسبب دوي الانفجار. استغل السعوديون هذا الظرف وهجموا على القوات التركية لكن بدون جدوى. وفي محاولة منه للتعويض عن خسارته، أرسل الباشا فرقاً في كافة أرجاء البلاد وأمرها

بمصادرة وجمع كل الذخائر وكل الأموال التي تقع عليها أيديها لخدمة أغراضه العسكرية. في تلك الأثناء نظم الأتراك في العراق وفي أماكن أخرى قوافل لتواصل إمداد الحملات التركية بالمؤن والمعدات. وهكذا بدأت القوة التركية تزداد يوماً بعد يوم وبدأت تتكرر حالات الفرار من صفوف المدافعين عن الدرعية إلى أن قام «غصاب» زعيم قبيلة عتيبة بالالتحاق بالقوات التركية وقدم للباشا معلومات هامة ونصائح تتعلق بطبيعة الأوامر والروتين الذي كانت تنتهجه القوات السعودية المدافعة. والجدير بالذكر هنا أن «غصاب» كان يشغل منصب قائد قوات الخيالة الدفاعية، وكان يعتمد عليه كواحد من أقوى أنصار أسرة «آل سعود» الحاكمة.

وفي شهر نيسان عام ١٨١٨ منيت الدولة السعودية بخسارة فادحة تجلت في مصرع «فيصل» (أخو عبد الله) الذي قتل إما برصاصة طائشة أو برصاصة قناص من مسافة بعيدة أثناء قيامه بجولة تفقد لمقر قيادته. خلفه في منصبه أخوه «تركي» واستمرت جولات المعارك المنهكة دون توقف: إذ إنها كانت تخمد في منطقة لتشتعل من جديد في منطقة أخرى. فبعد المعارك التي دارت في «شعيب ختلة» و «قري عمران» نشب اشتباك عنيف حول واحة «الرفيعة» حيث شن الأخوان «دغيثر» وأتباعهم هجوماً على مواقع مدافع العدو، إلا أن القوات التركية تمكنت من صدهم وأنزلت بهم العديد من القتلى من بينهم شقيقين من عائلة «الدغيثر». دارت معركة أخرى في الموقع نفسه كنتيجة للهجوم الذي شنته قوة تركية كبيرة على تحصينات السعوديين. تمكن «فهد بن عبد الله» في تلك المعركة من دحر القوة المصرية التي كانت مع القوة التركية المهاجمة وطاردها، إلا أنه قتل عندما تصدت له القوات التركية

أثناء تلك المطاردة. واصل السعوديون في الدرعية هجماتهم على القوات التركية واندلعت المعركة من فجر ذلك النهار حتى الظهيرة دون تحقيق أية مكاسب لأي فريق، وبدأت القوات الوهابية المدافعة تشعر بلسعات الجوع واحتمال حدوث المجاعة، إذ نفد مخزون التموين لديهم ووصل سعر القمح إلى أرقام لا يمكن تصورها، وحمل الغلاء العديد من الناس إلى هجر الدرعية، فبدا جلياً أن الوقت كان يمضي بسرعة ولم يكن لصالح «عبد الله» وجماعته.

وفي الخامس من شهر تشرين الأول قامت قوات «الباشا» ومن كافة الاتجاهات بغارة على المواقع الدفاعية للدرعية، وأرسل «الباشا» ولأول مرة قوة مجهزة ببعض المدافع إلى نهاية الطرف الجنوبي من الواحة لترويع المراكز الدفاعية الضعيفة هناك، كما أمر قوة كبيرة بقيادة «علي عزان» بأن ترابط على الضفة اليمنى من الوادي مشكلة بذلك تهديداً للقلعة من جهة الغرب. أمر «الباشا» بالبدء في هجوم قوي على مواقع الضفة اليسرى ليجر أكبر عدد من المدافعين في ذلك الاتجاه، و كان «علي عزان» في تلك الأثناء قد نشر قواته عند الفجر للهجوم على الموقع الذي يرابط فيه «عبدالرحمن» (أخو عبد الله) والذي يقع في أعلى واحة «المشيرفة».

وجد «علي عزان» أن القوات السعودية كانت قد هجرت ذلك الموقع، وعليه دخل بقواته إلى الواحة وشرع في إحداث فتحات في سورها، وأمر قواته بالانتظار ليحين دورها في الانضمام إلى القوات التركية في الهجوم الذي احتدم على كلا ضفتي الوادي. أبدى المدافعون مقاومة باسلة في صد الوحدات التركية المواجهة لمواقعهم، لدرجة أنهم انشغلوا عن مراقبة ما كان

يجري خلفهم. وأخيراً باغتتهم قوات «المشيرفة» بهجوم من الخلف واضطروا للهروب من خنادقهم فطاردتهم القوات التركية (العثمانية) واختبأوا في منازلهم المنتشرة حول الوادي، وأوصدوا أبواب بيوتهم وأخذوا مواقعهم على الجدران للتصدي للقوات التركية التي كانت تطاردهم. هذا واختبأ «سعد بن عبد الله» ومعه عدد من وجهاء الدرعية في قلعة جدة في «الطريف»، فما كان من «إبراهيم باشا» إلا أن وجه نيران مدافعه عليها. كان «عبد الله» ومرافقوه إلى تلك اللحظة لا يزالون صامدين في مواقعهم بين البوابتين وكان أهالي القرى يقاومون القوات التركية بشجاعة وسط وضع فلتت فيه زمام الأمور وأصبح ميئوساً منه.

أدرك «عبد الله» الذي كان أخوه قد قتل في مواجهة سابقة أن كل شيء قد ضاع، ولذلك تراجع إلى مقر إقامته في «الطريف» تاركاً كل مدافعه ومعداته العسكرية غنيمة سهلة للأتراك عند بوابتي القلعة. ذهب وفد من السعوديين بقيادة كل من «عبد الله بن عبد العزيز» (عم عبد الله) والشيخ علي (أحد أبناء محمد بن عبد الوهاب الكبير) وناشدوا «إبراهيم باشا» السلام.

وافق «إبراهيم باشا» على وقف القتال في قرى الوادي ولم يوافق على إيقافه على منطقة القلعة أو الحصن. وقال بأنه لن يوقف القتال في القلعة ما لم يستسلم «عبد الله» دون أية شروط. وفي التاسع من شهر أيلول عام ١٨١٨ توصلت قرى الوادي في تلك الواحة إلى هدنة منفصلة ودارت حول الحصن معارك ضارية، وقصف الأتراك بيت ضيافة «آل سعود» في بوابة «سمحان» التي اتخذها «عبد الله» مقراً لقيادة قواته منذ اليوم الأول للمعارك. وإثر ذلك القصف أخرج «عبد الله» مدافعه من القصر ووضعها

في المسجد لشن آخر هجوم ساندته فيه أعداد كبيرة من الأهالي المخلصين. صمد «عبد الله» ورجاله رغم كل الصعاب الجامحة لمدة يومين في قتال يائس، وأخيراً قرر أن يستسلم في الحادي عشر من أيلول. دام نضال «عبدالله» ضد الأتراك لمدة ستة أشهر واجه خلالها كل قوة الصدر الأعظم ومصادر ثرواته وقوته، إضافة إلى قوته وقوات مندوبه السامي في مصر. وأخيراً تم التوصل إلى سلام مشروط بتوجه «عبد الله» شخصياً إلى القسطنطينية ليمثل أمام الصدر الأعظم ويسمع بنفسه حكمه عليه. وبعد يومين غادر «عبد الله» حصنه تحت حراسة قوة كبيرة بقيادة «رشوان آغا» و«علي دويدار» واقتادوه إلى القسطنطينية عن طريق «مصر» وهناك أصدر الصدر الأعظم أمره بإعدامه.

كلفت الحملة التي شنها «إبراهيم باشا» على الدولة السعودية اثني عشر ألف قتيل من القوات التركية، ويقدر عدد الذين قتلوا في المعارك ضد الدرعية بحوالي عشرة آلاف تركي، لكن كان ذلك العدد من القتلى بمثابة ثمن بخس لمثل ذلك النصر، الذي تحقق للإمبراطورية العثمانية. بدت السلطة السعودية من حيث الجوهر وكأنها مبعثرة إلى الأبد لولا أن الإدارة العسكرية التي ظهرت لاحقاً على الساحة بددت كافة المكاسب التي حققتها حملة «إبراهيم باشا». ولدت تلك الإدارة العسكرية التركية في المناطق العربية التي هيمنت عليها روح السخط وعدم الرضا عند جماهير أعربت عن ولائها لأمراء «آل سعود» الذين نجو من تلك المعارك. كان العديد من هؤلاء الأمراء قد تمكنوا من مغادرة الدرعية قبل وقوع الكارثة الكبرى. أخذ الأتراك عدداً آخر منهم كأسرى حرب إلى «مصر»، ومن هناك تمكن عدداً

منهم في الوقت المناسب من العودة إلى الصحراء العربية ليقوموا بواجبهم في خدمة بلدهم. وكان من بين الذين هربوا قبل وقوع الكارثة «سعود بن عبد الله بن محمد» (ابن عم عبد الله اللزم الذي كان قد نحي عن السلطة). وحيال ذلك الهروب أمر «إبراهيم باشا» فرقة الخيالة بمطاردته وتمكنت منه وقتلته، إلا أن أخاه «تركي» تمكن من الفرار وقدر له أن يلعب دوراً بارزاً في استعادة هيبة وسمعة «آل سعود» خلال فترة السنوات العشر التي تميزت بالفوضى إبان الاحتلال التركي (العثماني). رافق «تركي» في غياهب الصحراء أخوه «زيد» والذي كان ابنه المدعو «فيصل بن زيد» من بين أعضاء أسرة «آل سعود» الذين أمر «إبراهيم باشا» بترحيلهم إلى مصر. هذا ويقدر العدد الإجمالي للقتلى بين المدافعين السعوديين بحوالي ألف وثلاثمائة قتيل بما فيهم ثلاثة من أشقاء «عبد الله» وثمانية أفراد من عائلة «آل سعود». وبالمناسبة نشير هنا إلى أنه لا يقل عن عشرة من أشقاء «عبد الله» إضافة إلى واحد من أبنائه الثلاثة كانوا قد شاركوا في الدفاع عن العاصمة السعودية خلال فترة الحصار التي دامت لمدة ستة أشهر. وكان نصيب أسرة «آل معمر» من القتلى - وهي أسرة أمراء «العيينة» سابقاً - خمسة عشر قتيلاً سجلت أسماؤهم في سجل الشرف. وقتل من عائلة «الدغيثر» ستة رجل، وسقط من كل فرقة جاءت من تلك النواحي لتشارك في المعارك عدد كبير من الرجال الذين أضيفت أسماؤهم إلى سجل الشهداء.

وفي الواقع انهارت الدولة السعودية وهي تقاتل حتى آخر رجل، لكن كان مقدراً لها أن تنهض من بين أشلاء الاضطرابات التي جاءت كنتيجة لزوالها المؤقت.

وحسب ما هو مدون في السجلات التاريخية يمكن القول إن «إبراهيم باشا» عامل أعضاء أسرة «آل سعود» بالحفاوة اللائق بهم وبمكانتهم الاجتماعية، لكنه لم يعامل العديد من أنصار عائلة «آل سعود» بنفس الحفاوة والتكريم، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين كانوا ينتمون إلى جماعة المشايخ (المطاوعة)، فأعدم بعضهم رمياً بالرصاص، في حين ربط بعضهم الآخر عند فوهات المدافع التي مزقت أجسادهم إلى أشلاء. هذا كما أقدم جنود «إبراهيم باشا» على ضرب وتعذيب قاضي المدينة «أحمد الحنبلي» الذي كان في ذلك الوقت موجوداً في الدرعية، وقلعوا كل أسنانه من فمه، وألحقوا الخزي بـ «سليمان بن عبد الله» (حفيد محمد بن عبدالوهاب) إذ أجبروه على سماع أنغام القيتارة قبل جره إلى أحد المقابر وقتله هناك رمياً بالرصاص. لكن تمكن حفيد آخر من أحفاد «محمد بن عبدالوهاب» ويدعى «علي بن حسين» من الهرب إلى «قطر» ومن ثم إلى «عُمان» خشية أن يتعرض لحدث مماثل لذلك الحدث، وبعد بضع سنوات عاد علي من هناك ليخدم تحت إمرة الأمير «تركي».

دام عهد الإرهاب الذي مارسه «إبراهيم باشا» لمدة تسعة أشهر بدءاً من سقوط الدرعية التي أقدم على تدميرها كليا بناءً على أوامر صدرت إليه مباشرة من «محمد علي باشا» في شهر حزيران عام ١٩١٩. وهكذا اختتم «إبراهيم باشا» بتدميره الدرعية النصر الذي حققه عن جدارة بفضل عناده وقدراته المنظمة وتكتيكه العسكري البارع وحنكته السياسية.

الفصل السادس

تركى بن سعود

صفحة بيضاء

تركي بن سعود

إن انهيـار الدولة السعـودية الأولى التي كـانت ترتكز على وازع ديني وخلقي أكسبها احترام الناس، وأسفر وبشكل طبيعي لكن بتسارع مفاجئ عن تراخ في قواعد السلوك الديني التي كان لها الفضل الكبير في انتشال العرب من الحالة الهمجية التي سيطرت عليهم قبل ظهور دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب.

عاودت مظاهر التشيع الديني والتشاحن والتنافس بين القبائل تجتاح كافة مناطق الجزيرة العربية. كانت تلك المظاهر تتم إما بتستر علني أو غير علني من قبل زعمائها الجدد الذين لم يكونوا بأي شكل من الأشكال مهتمين بتحسين أحوال معيشة الأهالي أو إعادة بناء الاقتصاد الذي دمرته الحرب، بل على العكس من ذلك كان جل هم وغاية «إبراهيم باشا» المباشرة دب الرعب في قلوب الأهالي وابتزازهم بالقوة من كل الممتلكات التي تساهم بتموين قواته في مواقعها المنتشرة في كل مكان. وفي الوقت نفسه تعمدت قواته أن تدمر كل الوسائل والإمكانات المحلية التي يمكن أن تستخدم ضد حكم الأتراك المستبد. لم تعد الناس تسمع لصوت العقل ناهيك عن عدم سماعها لصوت الدين، وأصبح التنقل بين قرية وأخرى أمر خطير جداً. كما لم يعد بإمكان الوجهاء في المدن التنقل دون حراسة ترافقهم، وأصبحت النميمة والاتهامات الكاذبة الخبز اليومي للناس. ومن خلال تعامل المصريين مع ضحاياهم المشدوهين لم يجد الأتراك أية صعوبة في الاستيلاء على ممتلكاتهم وغلال محاصيلهم وتسخيرها لخدمة الجيش. هذا ودمروا كل الأسوار والأبنية التي من المحتمل تساعد في مقاومة الابتزاز

والأعمال الوحشية الأخرى التي كانوا يقترفونها .

ونظراً لهذا الجور المفروض على مصادر الأرزاق المحلية، وللتدمير الذي طال واحات النخيل وجني المحاصيل أثناء الحرب وبعدها، فقد خيمت المجاعة على الجزيرة العربية . يمكن أن يكون من الصعب تصديق القصة التي تقول إن القوات المصرية بدأت تأكل العشب من شدة الجوع، لكن ما هو أكثر احتمالاً للتصديق أن ضحايا الجنود المصريون أنفسهم كانوا يأكلون العشب . ولم تشر أية وثيقة تاريخية إلى وجود أمر إداري يهدف لتحسين حصة الأهالي أو زيادة إنتاج المناطق المحلية، ناهيك عن انعدام أي قرار يهدف إلى تحسين الأوضاع الأمنية للأهالي في هذه المناطق، وذلك بدءاً من سقوط الدرعية حتى رحيل الحاميات المصرية عن مناطق الجزيرة العربية . إنه من المحتمل جداً أن يكون ذلك الإهمال بالواجب وأن تكون تلك اللامبالاة بأمور الناس جزءاً متعمداً من سياسة «محمد علي» الذي كان مهيئاً نفسياً لترك الصحراء العربية تعاني من فوضى مستوطنة فيها . لم يكن ليكترث بها طالما أنها لن تتعدى وبشكل جدي على الأقاليم المتاخمة للبحر الأحمر والتي كانت بالغة الأهمية بالنسبة لمصالح الإمبراطورية العثمانية . هذا ولم يكن بإمكان «محمد علي باشا» أو أي شخص آخر أن يتصور بأن الدولة السعودية ستبرز من جديد (وفي أقل من عقد من الزمن) متحدية الفوضى التي تركها ابنه فيها .

الحقيقة أن «إبراهيم باشا» راودته فكرة الوصول بالحكم التركي (العثماني) إلى الخليج وبعد سقوط الدرعية مباشرة قام الأخوان «ماجد» و «محمد» (من أسرة ابن عريعر الرئيسية في قبيلة بني خالد، واللذان كان حاكماً على منطقة الأحساء) بمحاولة نجحا فيها جزئياً لاستعادة سطوتهم

وحكمهم. فاعترفت «الهفوف» و«القطيف» بحكمهم، إلا أن استقلالهما لم يدم لفترة طويلة ذلك لأن «إبراهيم باشا» أرسل قوة صغيرة تحت إمرة «محمد كاشف» لجمع كل الأموال والممتلكات الخاصة بأسرة «آل سعود» ومؤيديهم، الأمر الذي حمل أسرة «عريعر» التي كانت تدعي وتطالب بالحكم على الهرب، وهرب معهم زعيم قبيلة «سبيع». بعدها سيطر الأتراك على الأحساء وبقوا فيها إلى حين قرر «إبراهيم باشا» الجلاء عن الصحراء العربية.

اقترف الأتراك في تلك الفظائع بحق كل من كان له علاقة بـ «آل سعود» والدعوة السلفية. وكان قرار الجلاء عن الصحراء العربية (الذي يقال بأن محمد علي باشا نفسه اتخذه) ذا أهمية بالغة لبريطانيا العظمى التي كانت قواتها مشغولة خلال العقدين الماضيين في إيجاد سلسلة مترابطة من الممتلكات الخاضعة للإمبراطورية البريطانية. وبعد مضي قرن ونصف توسعت القوات البريطانية في أنشطتها ووصلت المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية، وليس هناك علاقة تذكر بين تفاصيل أحداث النشاطات البريطانية في منطقة شبه الجزيرة العربية وتاريخ الأحداث المحلية للصحراء العربية، لكنه من الصعب التصديق أنه كان الهدف من نزول قوات بريطانية كبيرة في «القطيف» (والتي جاءت إما قبل أو بعد احتلال قوات «محمد كاشف») مجرد إعراب عن التعاون بين البريطانيين والأتراك. والجدير بالذكر هنا أن احتلال قوات «محمد كاشف» لتلك المنطقة جاء على لسان بعض السكان، لكن لم يؤكد أي مصدر رسمي حدوث ذلك الاحتلال.

كان تمركز الأتراك على شاطئ «الأحساء» بمثابة تحد غير مباشر للموقع

البريطاني في منطقة الخليج الموقع الاستراتيجي المهم للعثمانيين. ومن ناحية أخرى كان من المهم بالنسبة للبريطانيين أن يتحققوا من نوايا «إبراهيم باشا» ونوايا والده بخصوص المناطق الواقعة على شواطئ الخليج. والواضح أن الرحلة التاريخية التي قام بها الكابتن «سادلير» عبر الصحراء العربية في صيف عام ١٨١٩ كانت قد أعدت أصلاً لتخدم ذلك الغرض، وعليه فلا يوجد تفسير لسبب فقدان القوات البريطانية لفرصة احتلال كافة مناطق ذلك الساحل الخليجي وصولاً إلى الكويت (التي لم تكن على أهمية كبيرة من ذلك الوقت). وإذا كانت القوات البريطانية فعلاً موجودة في منطقة «القطيف» فليس أمامنا إلا أن نعتبر أن ضياع تلك الفرصة كان مجرد غموض يصعب تفسيره، كما يمكن من وجهة النظر البريطانية أن ننظر إلى عودة «ماجد بن عريعر» وأخيه إلى الأحساء على أنها مجرد اتفاق مُرضٍ يرتكز على تطورات محتملة للوضع هناك، لكن في الواقع لم يتبلور ذلك الاتفاق.

وبعد وصول أوامر «محمد علي باشا» القاضية بتدمير الدرعية وإجلاء كافة القوات التركية وإنزال الدمار في الأسوار والتحصينات والقرى والمدن، بدأ «إبراهيم باشا» بتجميع القوات التركية المتناثرة وسار بها نحو «ضرما» ومن هناك اتجه نحو عاصمة الدرعية وتوقف فيها للاستراحة لمدة تسعة أشهر. قام «إبراهيم باشا» خلال الأشهر التي قضاها في «ضرما» بشن عدة غارات على «سبيع» و «عجمان» و «عنزة»، وكانت تلك الغارات أكثر من مجرد حملات غزو لجمع ونهب المؤن. حدث أن نجا «إبراهيم باشا» بصعوبة من محاولة لطعنه بخنجر، إذ نفذ الخنجر من بنطاله وغرز في سرج

الحصان وأصيب الحصان بجرح بليغ .

تابع «إبراهيم باشا» المسير بقواته إلى «القصيم» في طريقه إلى المدينة ووصل مع مرور الوقت إلى هناك ومعه «حجيلان» حاكم الإقليم الذي وافته المنية في المدينة عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وفي تلك الأثناء يبدو أن أغاوات الباشا «إبراهيم» ارتكبوا أعمالاً وحشية استهدفت القضاء على الشخصيات البارزة التي يمكن أن تعمل على بناء ذلك البلد المدمر . وقبل النزوح عن مواقعهم للانضمام إلى قوات «إبراهيم باشا» قام هؤلاء «الأغاوات» باعتقال أمير حائل «محمد بن عبد المحسن بن علي» وأخيه «علي» ، كما اعتقلوا أمير عنيزة «عبد الله بن راشد» وقتلوهم بوحشية بالغة . عانت أسرة «العفيصان» في «الدلم» على أيدي الآغا «حسين جوخدار» من الويلات ما هو أسوأ من الفظائع التي تعرض لها الأمراء أعلاه . قام «حسين جوخدار» - الذي قطع رحلته إلى الحوطة وعاد إلى الدلم - بذبح ثلاثة من قادتها وصادر كافة ممتلكاتهم . وفي جوار الدرعية أيضاً قام الأتراك بقتل العالم الديني «علي بن عبد الله» أحد أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» . ولم تكن المكائد وأعمال الإجرام والاقتتال المميت بين القبائل (والتي برزت جميعها إثر رحيل قوات «إبراهيم باشا» عن مناطق في القصيم مثل «بريدة» و «حريملاء» وأماكن أخرى)، سوى جزر من الرعب في خضم كبير من الأحداث التي سرعان ما بدأت تظهر وسط حالة فوضى عارمة .

سبق أن أشرنا إلى عودة الأخوين «عريعر» إلى مركزهم التقليدي في الأحساء التي استقر الوضع فيها بعد قيامها بقتل زعيم قبيلة «السياسب» . لم يكن من المعقول أن يكتفوا باستعادة سطوة أسرتهم، خاصة أن كرسي

العرش في الدرعية قد أصبح شاغراً ومدعاة للتنافس. كان المنافس لهم الأكثر خطورة عليهم عائلة أمراء «العيينة» الذين تكشفت طموحاتها منذ أن انضموا إلى السيادة السعودية. كان «محمد بن مشاري بن معمر» زعيم العائلة موجوداً في الدرعية طيلة فترة الحصار، ولم يغادرها إلى «العيينة» إلا بعد أن دمرها «إبراهيم باشا».

وفي شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٨١٩ سار «ابن معمر» بقواته إلى الدرعية ونصب نفسه إماماً فيها وحاكماً على كافة مناطق نجد بدلاً من أمراء «آل سعود». كما بدأ في حشد الدعم والتأييد لمطلبه ومكانته الجديدة. لم يحظ «ابن معمر» سوى بتأييد متواضع من مناطق محددة اتخذت موقفاً ودياً منه. وفعلاً بادر «ابن معمر» في إصلاح أنقاض المدينة، لكن جهوده الرامية إلى استعادة الرفاهية في المناطق التابعة لسلطته اصطدمت وتعثرت بجفاف موسم الشتاء وكذلك بالمجاعة التي نجمت عنه، ذلك إذا قورنت بالأمطار غير الاعتيادية والفيضانات التي شهدها العام المنصرم (١٨١٩).

وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر المعارضة لسلطته، وخاصة من قبل أهالي الرياض وحريملاء والخرج، فطلب هؤلاء الأهالي العون من «ماجد بن عريعر» لطرد «ابن معمر» قبل أن تتثبت قدماه في الحكم. قامت هذه القوات المتحالفة بمهاجمة «منفوحة» الحليف الرئيسي لابن معمر، إلا أن ذلك الاشتباك انتعى بهدنة قام «ابن معمر» على إثرها بإرضاء «ماجد» بالهدايا كما طمأنه بأنه ليس لديه أية نوايا في تحدي سلطته على مناطق الأحساء، وأبلغه بأنه كان يحكم مناطق «نجد» باسم السلطان العثماني. يمكن أن تكون مثل هذه الاتفاقية قد تمت ضمنياً في المحادثات التي دارت بين

«ابن معمر» و «إبراهيم باشا» الذي تعامل معه وفق اعتبارات ودية. على أي حال وبغض النظر عن ردة فعل «ماجد» للهدايا والتطمينات التي عرضها عليه «ابن معمر»، فيمكن القول إن البدو حسموا المسألة وعاد «ماجد» إلى ديرته محبطاً وخائب الأمل. تمكن «ابن معمر» من توسيع وتعزيز نفوذه في المناطق المجاورة التي استغل أهلها حقيقة ارتفاع الأسعار في الدرعية، فكانوا يرسلون القوافل إليها لبيع منتجاتهم وتحقيق الربح لأنفسهم.

ظلت الرياض وحريملاء والخرج ممتنعة عن الاعتراف بحكمه، وكانت «حريملاء» على ما يبدو متزعمة حركة الانشقاق تلك. ولم يكن هناك شيء يوازي عداء «حريملاء» لـ «ابن معمر» سوى الظهور المفاجئ لـ «تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود» الذي قدم من الصحراء مع أخيه «زيد» وحظيا بكل الولاء والدعم من أهالي «حريملاء». طلب «فيصل» من أهالي «حريملاء» ومن «تركي» التدخل نيابة عنه كما وعدهم «تركي» بأن يقدم لهم الدعم الفعّال إذا قرروا أن ينظموا انتفاضة ضد الزعيم المحلي «حمد بن راشد». وهكذا أرسل «ابن معمر» ابنه «مشاري» و «زيد» (أخو تركي) على رأس قوة (انضمت إليها خلال المسير قوات من «المحمل» و «سدير»). تمكنت تلك القوات من محاصرة القلعة التي كان «ابن راشد» مستحكماً فيها، وبعد مضي أسبوع على الحصار استسلم «ابن راشد» وفق شروط معينة واقتادوه إلى الدرعية. سرّع احتلال «حريملاء» في خضوع عدد من القرى والمدن في العارض والوشم وسدير، وإعلانها عن ولائها للنظام الجديد.

استُكملت تلك التطورات في بداية شهر آذار عام ١٨٢٠، إلا أنه في نهاية ذلك الشهر تعرض موقف «ابن معمر» لهزة عنيفة استدعت وصول

«مشاري بن سعود» المفاجئ إلى الدرعية. والجدير بالذكر هنا أن «مشاري» هو أحد العديد من إخوة عاثر الحظ «عبد الله»، وأنه بإمكانه المطالبة بولاء الأهالي له بصفته الوريث الشرعي لأمجاد أسرة «آل سعود» الحاكمة.

كان «مشاري» قد تمكن من الإفلات من القوة التي رافقته إلى منفاه في «مصر». وفي المنطقة ما بين «المدينة» و «ينبع» تمكن من الهرب وعاد إلى «القصيم». وفي «الزلفي» و «ثرمدا» تمكن من حشد الدعم الكافي لاستعادة سلطة آبائه. وكان طبيعياً أن يشعر «ابن معمر» بالمضايقة إلا أنه أحجم عن القيام بأي عمل عدائي مكشوف، بل على العكس أعرب عن ولائه للإمام الجديد. وهلت على «مشاري» وفود من الرياض وحريملاء والمحمل وسدير لتبارك له بسلامة الوصول ولتهنئته بالمنصب الجديد. إن أفضل المكاسب التي فاز بها «مشاري» في تلك الفترة كانت انضمام «تركي بن عبد الله» إلى صفه، كما انضم إليه أيضاً عمه «عمر» وأبناؤه الثلاثة، واثنان من أفخاذ عائلة «مشاري» وهما «حسن بن محمد» و «مشاري بن ناصر»، وكانوا جميعاً قد هربوا من الدرعية قبل سقوطها.

كان هم «مشاري» الأول إخضاع إقليم «الخرج» المتمرد، وقد أبدت منطقتا «السلمية» و «اليمامة» بعض المقاومة في البداية لكنهما سرعان ما استسلمتا، وقام «مشاري» أمير تلك المنطقة بخلع «البجادي» من منصبه. تجاوبت «الدلم» بكياسة ملحوظة وعاد «مشاري» إلى الدرعية ليجد أن «ابن معمر» كان قد توجه إلى «سدوس» للراحة بحُجة المرض.

كانت تلك ذريعة أخفى «ابن معمر» وراءها دوافعه الحقيقية في قيادة ثورة ضد «مشاري». رحب زعيم «حريملاء» بخطته ودعاه للقدوم إلى المدينة التي

حولها إلى مقر رئيسي وبدأ منها بحشد قوة لذلك الغرض. هناك تم تشكيل تلك القوة في معظمها من رجال قبائل «مطير» بزعامة «فيصل الدويش» وانضمت إليها قوات أخرى محلية وشنوا هجوماً مباغتاً على العاصمة ودخلوها دون مقاومة تذكر وساروا مباشرة إلى قصر «مشاري». ألقوا القبض على «مشاري» وأودعوه السجن، لكن «ابن معمر» سلم القيادة هناك إلى ابنه وتوجه على رأس قوة إلى الرياض لاعتقال «تركي بن عبد الله» وشخصيات أخرى من عائلة «آل سعود»، وقد هرب «تركي» وجماعته عند سماعهم خبر قدوم «ابن معمر» الذي دخل الرياض دون مقاومة، كما سارع الأهالي إلى الاستسلام له. وانتهت فترة حكم «مشاري» القصيرة وحكم «ابن معمر» تلك المناطق من جديد، لكن هذه المرة باعتراف الأتراك بحكمه، وسارع «ابن معمر» بإبلاغ «عبود باشا» الذي كان قد وصل إلى «عنيزة» على رأس قوة تركية بأنه لم يكن يحكم لصالح السلطات العثمانية فحسب، بل كان ينوي أيضاً تسليم «مشاري» إلى السلطات التركية في اللحظة المناسبة.

كان «تركي بن عبد الله» قد توجه في تلك الفترة مع عدد من أتباعه إلى «ضرما» لأمر شخصي خاص. ووصل ذلك الخبر إلى «ابن معمر» فما كان منه إلا أن أرسل ابنه «مشاري» (الذي كان قد عيّنه حاكماً على الرياض) على رأس قوة لاعتقال «تركي».

استطاع تركي أن يمسك بمشاري وأودعه كأسير عند أهالي «ضرما» واستحكم في أحد قلاع المدينة ليحمي نفسه من خطر مباشر. وكان «تركي» من تلك القلعة يشن غارات ليلية تمكن في إحداها من الاستيلاء على منزل

فيه عدد من المقربين من «معمر» وأتباعه، وبقي «تركي» في «ضرما» يتلقى الدعم من قبيلة «سبيع» ومن مناطق أخرى في الجنوب.

وفي شهر آذار من عام ١٨٢٠ توجه «تركي» إلى الدرعية، وبمساعدة الأهالي هناك تمكن من القبض على «محمد بن معمر»، كما تمكن في وقت لاحق من القبض على ابنه «مشاري» في الرياض، ووعد بأن يطلق سراحهما مقابل إطلاق سراح «مشاري بن سعود» الذي كان لا يزال سجيناً في «سدوس». لكن أهالي القرية خافوا من الإذعان لأوامر «ابن معمر» باعتبار أن قوة تركية كانت قد وصلت للتو إلى ديارهم يرافقها «فيصل الدويش»، لهذا سلموا «مشاري بن سعود» إلى القوات التركية تنفيذاً للوعد الذي قطعه «ابن معمر» على نفسه للأتراك. وعلى الفور قام «تركي» بقتل «ابن معمر» وابنه «مشاري». توفي «مشاري بن سعود» بعد فترة قصيرة من وصوله إلى عنيزة ولا يوجد ما يدل على أن «عبود آغا» كان في أي حال من الأحوال مسؤولاً عن وفاته.

قامت القوات التركية تدعمها جماعة «فيصل الدويش» بهجوم فاشل على الرياض، وبعد ذلك قاموا باستعراض قواتهم في الشمال والجنوب إذ فرضوا إتاوة باهظة على أهالي «ثادق» و «سدير» و «الوشم». هذا ومارست قوات «عبود آغا» نفس التصرف في مناطق «القصيم». وبعودة الأتراك عادت الفوضى كما تجددت الأعمال العدائية المميتة بين العديد من المناطق. ومما زاد من تردي الأوضاع الاقتصادية أن زحفت أفواج الجراد على تلك المناطق. وخلال فصل شتاء عام ١٨٢٠/ ١٨٢١ تم تعزيز القوات التركية المحتلة بقوات أخرى بقيادة «حسين بيه» الذي تسلم زمام قيادة القوات

التركية في «نجد». لكن سرعان ما توجه «حسين بيه» بقواته نحو «الوشم» من هناك أرسل قوة بقيادة «عبود آغا» لمهاجمة الرياض. اشتملت تلك القوة على عناصر مشتركة من الأتراك ومن قرى محلية وقبائل جندها الأتراك بين صفوفهم. شملت تلك العناصر شخصيات هامة كان «ابن معمر» قد نفاها عن «الرياض» و «حريملاء».

استعد «تركي» لمقاومة الهجوم لكن أهالي الرياض لم يعد لديهم جلد على المزيد من القتال، الأمر الذي مكّن «عبود» من دخول المدينة دون مقاومة. تراجع «تركي» بقواته إلى حصن الدرعية ومعه حوالي «سبعين» من أتباعه ليقاوموا الحصار المتوقع، إلا أن التيار كان أقوى من إمكاناته. هرب «تركي» ليلاً بمفرده تاركاً رجاله ليستسلموا في صباح اليوم التالي، فقام الأتراك بذبحهم جميعا ببرودة أعصاب باستثناء «عمر بن عبد العزيز» وثلاثة من أبنائه إذ أرسلوا إلى مصر للعيش مع أقربائهم في المنفى.

ظهر «حسين بيه» على خشبة الأحداث وفرض إتاوة بالغة على أهالي الرياض و «منفوحة»، كما أجبر جماعة «ابن عمر» في الدرعية على مغادرتها، وعلى الفور اقتادتهم القوات التركية إلى «ثرمداء» وهناك تظاهر القائد العسكري لتلك المنطقة ويدعى «خليل آغا» بحسن استقبالهم ووعدهم بأن يعطيهم أراضاً في المناطق التي يختارون الاستقرار فيها. وبناءً على أوامر تلقاها من «حسين بيه» لدى عودته من الرياض قام «خليل آغا» عندما حانت الفرصة باعتقالهم وإعدام العديد منهم وتدمير ممتلكاتهم أو مصادرة ما تبقى منها وكانت تلك بداية عهد إرهابه وترويعه للأهالي في منطقة «نجد»، إذ قامت القوات التركية المرابطة في القصيم، وسدير،

والمحمل، والوشم ومناطق أخرى بسلب ونهب وإعدام الأهالي، لدرجة أن عدداً كبيراً من الناس هربوا إلى الصحراء تاركين ممتلكاتهم ليدمرها الجنود الأتراك. لم تسلم حتى النساء والأطفال من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها القوات التركية. ومع رحيل «حسين بيه» في نهاية ذلك العام كادت قصة القتل والتدمير التي كان الأتراك يمارسونها في كل مكان من «نجد» أن تنتهي، لكنه خلّف وراءه صراعات داخلية مميتة ألحقت الدمار بتلك المناطق وخاصة مناطق «سدير» و «المجمعة» (التي كانت تكثر فيها أعمال الشغب والاضطرابات)، ومناطق «العارض» و «القصيم». وتُوجت مشاهد الرعب التي شهدها ذلك العام باندلاع وباء الكوليرا الخبيث والذي جاء من الهند واجتاح الصحراء العربية مروراً بالخليج العربي والعراق.

تصدرت منطقة «سدير» قائمة القلائل والاضطرابات التي تميز بها عام ١٨٢١/ ١٨٢٢، وحدث في «منفوحة» و «بريدة» أيضاً أعمال قلائل واضطرابات مماثلة، لكن من أهم أحداث ذلك العام وصول القائد التركي الجديد «حسن أبو ظاهر» إلى منطقة «الرس»، الذي ادعى بأنه قدم ليخضع البدو ويسخرهم لخدمة أهالي المدن. وبسبب إطلاقه لسراح العديد من الرهائن الذين كان سلفه التركي قد أمر باحتجازهم في قلعة «ثرمدا»، فقد أعرب الأهالي هناك عن شكرهم وامتنانهم لذلك التصرف. وأرسل أهالي «القصيم» ما يؤكد ولاؤهم له، وأعرب أهالي «المجمعة» وأهالي قرى «سدير» عن ولائهم له أيضاً. لكن إرساله حملة تحت إمرة «موسى كاشف» إلى كل من «المجمعة» و «سدير» لجلب الإتاوة التي اعتاد الناس عليها، أحدثت نوعاً من التذمر الأمر الذي حذا بالجنود الأتراك أن يسلكوا أساليب

أكثر عنفاً ليجبروا الناس على احترام رغباتهم.

قام الأتراك بسلب ونهب العديد من القرى، كما أقدموا على قتل كبار الشخصيات فيها، وفي غارة قادها «موسى كاشف» ضد «السهول» لقي «موسى» مصرعه في وقت كان أخوه «إبراهيم» متوجهاً إلى «الوشم» و«الرياض» اللتان اتخذ منهما مقراً لقيادته، وامتدت سطوة موسى كاشف جنوباً حتى مناطق «الخرج».

قام «حسين بيه» نفسه بالهجوم على «جبل شمر» وأمر الأهالي هناك بدفع الإتاوة المستحقة عليهم منذ رحيل قوات «إبراهيم باشا». وبعد أن تجاوبوا مع المطلب الأول فرض المزيد من المطالب عليهم.

وكعقوبة على المقاومة التي أبداها أهالي «معكال» كعقوبة على رفضهم دفع الإتاوة، أقدم الأتراك على قتل معظم الأهالي، علماً بأنهم استسلموا بعد حصار دام لفترة قصيرة. وفي الفترة نفسها تقريباً قاد «إبراهيم» في الجنوب قوة كبيرة وغار بها على قبيلة «سبيع» المجاورة لمنطقة «الحاير»، إلا أن رجال تلك القبيلة دافعوا عن أنفسهم ببسالة وتمكنوا من دحر القوات التركية وحلفائها من أهالي الرياض ومن مناطق أخرى. وقد قتل في تلك المعركة «إبراهيم» وقتل معه ثلاثمائة من الجنود الأتراك، لكن تمكن زعيم منطقة الرياض «ناصر العائذي» من الهرب إلا أنهم تقفوا أثره وذبحوه في المغارة التي كان مختبئاً فيها.

وبعد أن ترك الرياض احتجب «تركي بن عبد الله» في منطقة «الحوطة» بعيداً عن الأنظار، وفي تلك الفترة كانت القوات التركية مشغولة في جمع الإتاوات وفي إرسال الحملات التأديبية ضد القوى والقبائل الحرون

المتمردة. وفي عام ١٨٢٣ وخلال شهر رمضان المبارك ظهر «تركي» من مخبأه ومعه ثلاثون رجلاً من أتباعه وتوجه بهم إلى قرية «عرقة» في وادي حنيفة بين الدرعية والرياض، وهناك مكث لفترة من الزمن ليستطلع الأوضاع وليجس النبض. وكان أول من رحب به وقدم له الدعم زعيم منطقة «شقراء» المدعو «حمد بن يحيى بن غيهب». أرسل «تركي» ابن عمه «مشاري بن ناصر بن سعود» إلى سويّد زعيم «جلاجل» (الذي حدث أن اصطدم في العام الماضي مع الأتراك)، وناشده أن ينضم إليه بأكبر عدد من الرجال المسلحين. وبعد وصول هذه القوة التي أتت استجابة للمناشدة رفع «تركي» من جاهزية الثورة ضد الأتراك وسار بقوته إلى الرياض التي كانت تحت رحمة الحامية التركية بقيادة «أبو علي الهلولي المغربي». وعلى أي حال فشلت محاولة «تركي» تلك وأصيب «سويّد» ورجاله بالجبن وفروا عائدين إلى ديارهم تاركين «تركي» يتصدى للأتراك مع نفر قليل من أنصاره. بادر الأتراك وأنصارهم بالهجوم على «تركي» وحاصروه مع رجاله في منطقة «عرقة» لكنهم لم ينالوا منه، واستمرت الأعمال العدائية بين الطرفين حتى حلول شهر أيلول حيث قام تركي (بعد أن ترك قوة صغيرة في عرقة) بمهاجمة قرية «ضرما» الحيوية واستولى عليها بشجاعة وبسالة فردية استهوت مخيلة العرب جميعاً.

في تلك الأثناء بدأ «حسن أبو ظاهر» (الذي كان قد رجع من حملته ضد حائل) يواجه مشكلات في «القصيم» بسبب استياء الأهالي من الإتاوة التي كان يفرضها على أرزاقهم، كما أن إقدامه على سجن حاكم «عنيزة» الموالي للأتراك والمدعو «عبد الله الجامع» وعدد آخر من وجهاء المنطقة، شجع

الناس على الثورة ضده وإجباره على الاستسلام وفق شروط وافق بموجبها على سحب قواته (بما فيها قواته في «ثرمدا») والتوجه بها إلى «المدينة». وعلى أي حال قد ترك ورائة فرقة صغيرة في قلعة «الصفا» في «عنيزة» لكنها سرعان ما استسلمت وخرجت من تلك المنطقة تتبع آثاره. ولم يبق من الحاميات التركية سوى الحاميات الموجودة في «الرياض» و «منفوحة» والتي كانت تتعرض لأعمال عدائية من قبل الأهالي في هاتين المنطقتين.

بدا «ماجد بن عريعر» مستقراً مسيطراً على الوضع في إقليم «الأحساء» الذي لم يكن لدى الأتراك أية نية في دخوله، وكان أمام «تركي» العديد من المشكلات الملحة التي استوجب عليه التفكير فيها أكثر من التفكير في مستقبل أقاليم الخليج. واجه «ماجد» وتقريباً في نفي هذه الفترة تحد من قبل «فيصل الدويش» الذي كان يقود قوة ضمت عناصر من رجال قبائل «مطير» و «العجمان» وهو حليف قديم للأتراك. نشبت معركة بين الاثنين في منطقة «الرضمة» في سهول «العرمة» وانتهت بهزيمة نكراء منيت بها قبيلة «بني خالد»، لكن «فيصل» لم يكن في وضع يمكنه من متابعة الانتصار الذي حققه.

اندلعت مشكلة كبيرة للمرة الثانية في إقليم «سدير»، لكن تفاصيل تلك المشكلة أقل أهمية من حقيقة أن «تركي بن عبد الله» غادر «ضرما» في شهر تموز متوجها إلى «ثادق» ليتدخل في تلك القضية. هناك لاقت مناشدته للأطراف المتناحرة للتوقف عن الاقتتال لخير وسعادة الجميع استجابة طيبة ونتيجة فورية، إذ سارع زعماء القرى والمدن في منطقة «سدير» بإعلان

ولائهم للأمير «تركي».

سار الأمير «تركي» على رأس قوة حشد رجالها من أهالي «المحمل» نحو «جلاجل» التي كانت تعتبر بؤرة كل المشكلات، لكن الأهالي هناك لم يجابهوه بل رحبوا به وأعربوا عن ولائهم له.

تردد أهالي «المجمعة» في البداية في الالتزام ودعم موقف «تركي»، لكنهم أعادوا النظر في موقفهم عندما قدم إليهم بقوة كبيرة ليفرض عليهم الحصار. أقال «تركي» زعيم «سدير» والذي كان يدعى «مزيد» وعين مكانه «محمد بن صقر» وهو من وجهاء منطقة «العمارية»، ووضع تحت إمرته حامية لتدافع عن القلعة الموجودة هناك. وسارع الناس مجدداً لأداء يمين الولاء إلى «تركي» وإن لم يكن هو حفيد من سليل مباشر لـ «آل سعود» حكام «نجد» الأوائل. مكث «تركي» في «المجمعة» حوالي شهر عمل خلاله على إعادة ترتيب الأمور الإدارية للإقليم والمناطق المجاورة له، وأثناء وجوده هناك قام أهالي «الغاط» و «الزلفي» و «شقراء» وقرى أخرى من منطقة «الوشم» بإرسال ممثلين عنهم لمبايعته.

وهناك وجد «تركي» الخيام ومعدات المعسكرات التي خلفها الأتراك ورائهم بعد آخر حملة لهم على تلك المنطقة، فصادرها جميعها، وما إن نظم قوة مناسبة جمعها من الرجال المحليين حتى سار بها إلى «حريملاء» التي لم تبد أي تحفظ في دخولها ضمن معسكر «آل سعود» للمرة الثانية. وعندما أصبحت قوته مستعدة للهجوم وبعد أن جهزت سلالم التسلق على الأسوار، بعث الأمير «تركي» بتحذير إلى أمير حريملاء «حمد بن راشد» قال فيه إنه إذا لم يخرج من البلدة ويبايعه قبل اختفاء القمر فسيقتحم «تركي» مع

قوته البلدة ويقابله في ساحتها الرئيسية. استسلم «حمد» لكن «تركي» عامله بكل الحفاوة والتكريم وثبته في منصبه أميراً على «حريملاء» ولم يصب ممتلكاته وممتلكات أسرته بأي أذى. وهكذا انضمت قوات «حريملاء» إلى قوات الأمير «تركي» الذي قادها جميعها في غزو لمنطقة «منفوحة» التي استسلمت «منفوحة» دون مقاومة، إذ خرج أميرها شخصياً ليعرب عن استسلامه. تمكنت قوات الأمير «تركي» من طرد الحامية التركية التي انضمت إلى القوات التركية في الرياض. وفي شهر آب من عام ١٨٣٤ أصبحت الرياض الهدف المباشر الذي يستحوذ على كل اهتمام الأمير «تركي».

هاجم الأمير «تركي» الرياض إلا أن «حمد العائذي» الذي تسلم زمام الإمارة إثر موت أخيه الأمير «ناصر» في «الحائر» لم يكن راغباً في الاستسلام، فدار قتال حول المدينة ووقعت إصابات بين الطرفين، فأمر «تركي» قواته بأن تجمع جني واحات النخيل لتستفيد منه، وفعلاً جمعت ثمار أشجار النخيل تحت أنظار الحامية العسكرية المعادية التي لم تستطع أن تحرك ساكناً، وحاصر «تركي» البلدة لمدة شهر تقريباً ورفع الحصار عنها عند ظهور «فيصل الدويش» على رأس قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت قد قدمت لتدعم الحامية العسكرية هناك. وعليه تراجع «تركي» بقواته نحو «عرقة» لكن ليعود ويفرض على الرياض حصاراً أشد وأعتى من الحصار السابق، والجدير بالذكر أن بدو «مطير» رحلوا بعد أن مكثوا في جوار الرياض لفترة قصيرة.

ومع مرور الأيام طلب القائد التركي التوصل إلى سلام بين الفريقين

المتحاربين، وتم ترتيب شروط الاستسلام على أساس أن تغادر القوات التركية بشكل نهائي إلى «المدينة». بعدها تم تعيين «مشاري بن ناصر» حاكماً على منطقة الرياض، وسار «تركي» على رأس قوة متوجهاً إلى «ثرمدا» و«شقراء» ليتأكد من أن القوات التركية لن تفكر في البقاء في تلك المنطقة بشكل يخالف تعهدهم بالجلاء عنها. وبينما كان في «شقراء» تسلم الأمير «تركي» رسائل كما قدم إليه المبعوثون من «عنيزة» ومن باقي مناطق «القصيم» ليعربوا عن ولائهم له. وعندما اجتازت القوات التركية منطقة «الوشم» في طريقها إلى «المدينة» عاد «تركي» إلى الرياض التي أصبحت منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة «نجد».

وأثناء سقوط الرياض كان أهالي «الحوطة» و «الحريق» قد أرسلوا وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم للنظام الجديد، ومع انضمام وتماسك «القصيم» و«الوشم» وجد «تركي» نفسه مسيطراً على كافة مناطق «نجد» باستثناء إقليم «الخرج». وعلى أي حال لم يكن «تركي» على عجلة ليتعامل مع بعض الأشخاص الذين نادراً ما يمكنهم أن يلحقوا الأذى به، فتريث حتى عام ١٨٢٥، وبعدها أخضع إقليم «الخرج» لسلطته. أبدى أمير الدلم «زقم بن زامل» بعض المقاومة، ولكن سرعان ما استسلم لقاء أن يضمن سلامته وسلامة أتباعه. تم ترتيب هذا الاتفاق وبسهولة واستولى الأمير «تركي» على القلعة وأخذ كل معداتها الحربية، وأرسل زقم إلى الرياض ليعيش ضيفاً على السلطة هناك. هذا وخضعت «السلمية» و«اليمامة» دون أية مقاومة جادة، وأصبح بإمكان الأمير «تركي» أن يعود وبحرية إلى عاصمته الجديدة مع علمه الأكيد بأن كافة مناطق «نجد» قد تحررت من السيطرة

الأجنبية وعادت إلى التحالف السعودي. وبعد فترة وجيزة من وصوله إلى «عرقة» تمكن الأمير «تركي» من تأمين قدر كاف من الموارد المادية، ويعود الفضل الكبير في نجاحه التام وبفترة قصيرة في ذلك الأمر إلى شخصيته القوية التي شملت على جاذبية أخاذة وعلى سلطة نافذة، ناهيك عن هالة البطولة التي جسدتها شجاعته في أذهان الناس. ويقال بأن الإمام «سعود» كان يتمنى لو أن يرث «تركي» الحكم من بعده، إلا أن «تركي» لم يرغب في ذلك لأنه كان دائما مخلصاً لـ «عبد الله»، كما أن الكل كان يعترف بأن «تركي» كان روح وشريان الدفاع عن الدرعية. كما كان مستعداً للتعاون مع ابن معمر ومشاري بما يخدم مصلحة البلاد، ويعود الفضل جزئياً في نجاحه في مهمته إلى سياسة العنف والتعسف التي مارسها الأتراك في البلاد بدلاً من تسيسها. كما يعود الفضل في ذلك أيضاً إلى تعب وملل أهالي «نجد» من الفوضى والاضطراب اللتان تقبلهما الأهالي في بداية الأمر فقط ليستريحوا قليلاً من الانضباط الذي فرضه عليهم النظام التركي.

يمكن اعتبار أن عهد حكم الأمير «تركي» بدأ مع وصوله إلى «عرقة» في شهر آيار من عام ١٨٣٢، وبدأت سلطته بشكل فعّال حقاً من استسلام الحامية التركية في شهر تشرين الأول من عام ١٨٣٢، في الرياض، إذ بدأ الأمير «تركي برنامج إصلاح اقتران باسمه واشتمل على ترميم الأسوار وبناء القصر والمسجد الكبير وقفت جميعها كمعالم هندسية رئيسية في عاصمته إلى أن هدمت في عام ١٩٥٠ ليشاد مكانها صروح حديثة أكبر وأوسع. وإلى جانب هذه النشاطات انشغل الأمير «تركي» في تنظيم الأمور الإدارية بالمناطق والأقاليم التابعة لسلطته، فعين حكاماً وقضاة ممن يعتمد عليهم في

تطبيق الشريعة وحفظ السلام دون خوف أو محاباة: فعين على إقليم الخرج «عمر بن عفيصان» الذي ذبح الأتراك عدداً كبيراً من عائلته في «الدلم» أثناء انسحابهم النهائي منها.

كان هروب «عبد الرحمن بن مشاري بن سعود» من مصر ووصوله إلى الرياض، بمثابة سبب وجيه لتعيينه أميراً من عائلة «آل سعود» على بلدة «منفوحة»، والحدث الهام الآخر كان ظهور الشيخ «عبد الرحمن بن حسن» (حفيد محمد بن عبد الوهاب) والذي عينه «تركي» في منصب قاضي الرياض وبقي في ذلك المنصب لعدة سنوات إلى أن تقاسمه أخيراً مع ابنه وتلميذه «عبد اللطيف»، فكان للوالد والابن دوراً كبيراً في استتباب الدين كعنصر فعال في حياة العرب، علماً بأن الدعوة الدينية لحركة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لم تصل إلى مستويات التعصب والغلو. إن ما ساهم في استعادة سلطة وحكم «آل سعود» (خلال عهد تركي وفيصل) كان باعثا سياسياً بقدر كونه دافعاً دينياً، علماً بأن الأسس الدينية لتوجهاتهم السياسية لم تكن محجوبة تماماً. لم تسيطر الفورة والنشاط الديني على حياة العرب بشكل تام إلا في العقد الثاني للقرن العشرين في عهد الدولة السعودية الحديثة.

لم يكن هناك ما يجعل الأمير «تركي» يسارع في تلك المرحلة في توسيع حدود مملكته، لذا تريث حتى شتاء عام ١٨٢٦/ ١٨٢٧ حيث نظم حملة لمحاربة قبيلة «بني خالد» التي كانت قد عبرت صحراء «الدهناء» واستقرت بجوار آبار «حفر العتش». كلف «مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن

مشاري بن سعود» بقيادة تلك الحملة، ويقول «ابن بشر» بأن مشاري هذا هو ابن عم «تركي» وأنه أصيب بجرح في مواجهة دارت بينه وبين البدو لكنه ألحق بهم هزيمة تامة.

تميز هذا العام بالجفاف والقحط والمجاعة التي تسببت في موت العديد من الناس في إقليم «القصيم» و «سدير». عين «تركي» في ذلك العام حاكماً جديداً على إقليم «سدير» ويدعى «محمد بن عبد الله» وهو من «ضرما». والأبرز أيضا بين أحداث ذلك العام كان موت «رحمة بن جابر» من رجالات الخليج المشهورين في أحد الاشتباكات البحرية التي حدثت ضمن سياق حملة قادها ضده الأمير «ماجد بن عريعر» والتي ساعده فيها بشكل ملحوظ حكام «البحرين» و «القطيف». تولى ابنه «بشر» مهمة قيادة دفة الأمور في مقر القيادة بالدمام، إلا أنه سرعان ما حوصر وأجبر على الاستسلام. كان «رحمة» صديقاً وحليفاً مثالياً لعائلة «آل سعود» كان ذلك قبل أن تحل بهم مصيبة الدرعية، لذلك جاءت وفاته لتقوي شوكة «ماجد» كحاكم على إقليم الأحساء.

كان للغارات العابرة المتقطعة في «الوشم» وفي أماكن أخرى دوراً في تقلب برنامج إعادة البناء الذي نهجه الأمير تركي والذي كان يمكن أن يسير بشكل مستقر لولا تلك الغارات. وباءت أيضاً الآمال المعقودة على جني محصول وافر نتيجة الأمطار الغزيرة التي هطلت في خريف عام ١٨٢٩ بالفشل بسبب سقوط مطر متواصل طيلة شهر نيسان حيث أدت مساهه المتجمعة في أماكن الحصاد إلى تعفن الحبوب والتبن، كما أن ثمار النخيل

التي نضجت خلال ذلك الصيف أصيبت بحشرة أتلفت كافة المحصول .

استمرت هذه الظروف الزراعية غير المواتية على مدى العام التالي لكن على مستوى أخف . توجب على الأمير «تركي» في ذلك العام ووسط تلك الظروف أن يواجه قبيلة «بني خالد» التي تعدت على حدود مملكته . كما توجب عليه أيضاً في تلك الفترة التصدي للاعتداء الذي قامت به جماعة «العجمان» بالقرب من «بنبان» (أو ربما يقال له ممر بنبان) . يصف المؤرخ التاريخي المختص بشؤون «نجد» ذلك العام على أنه عام أخبار طيبة وخيرات وكأن ساحة تلك المنطقة بدت - على الأغلب - خالية من الأحداث .

الحق يقال إن الزيارة التي قام بها حاكم «جبل شمر» المدعو «عيسى بن علي» إلى الرياض ليعلن البيعة للأمير «تركي» وليضع إقليمه تحت تصرفه شكلت تطوراً هاماً عى صعيد الأحداث . كما أن عودة ابن تركي الأكبر والمدعو «فيصل» إلى الرياض بعد أن هرب من الأسر في مصر ، لم تكن مجرد حدث محلي سار بل كانت بشرى خير لمستقبل الأسرة الحاكمة ولمستقبل البلد ككل .

تطلبت المشكلات المحلية التي حصلت في «القصيم» تدخل الأمير «تركي» بشكل فوري ، فاستدعى قادة الأقاليم وقدموا إلى الرياض ليجددوا البيعة والولاء والطاعة . وفي ذلك الحدث أعفى الأمير «تركي» حاكم بريدة «محمد العلي الشاعر» من منصبه وعين في مكانه «عبد العزيز بن محمد بن عبد الله» . وفي ربيع ذلك العام شن «تركي» حملة غزو على جماعة «مطير» والعناصر المؤيدة لهم من قبيلة «بني خالد» ، وداهمهم في ممر الصمان وألحق

بهم هزيمة نكراء، وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأت تصل إليه الوفود من القبائل المقيمة في وسط نجد مثل (سبيع، السهول، العجمان، مطير، قحطان) لتعرب عن ولائها ودعمها الكامل لنظامه. تعاظم استقرار ونفوذ نظام الأمير «تركي» بوصول وفد أهالي «عُمان» الذي ناشد الأمير «تركي» في تقديم الدعم لهم ضد أعدائهم وطلب منه أن يرسل لهم جيشاً وأن يعين عليهم حاكماً وقاضياً. واستجابة منه لهذا المطلب أرسل «عمر بن محمد بن عفيصان» على رأس حملة قوية بشكل كاف لتشرف على تنصيب «عبد الله بن مسعود» (من القويعية) كحاكم على ذلك الإقليم، على أن تكون «البريمي» مقراً لقيادته. كما أرسل الشيخ «محمد بن عبد العزيز العوسجي» ليتسلم منصب القاضي هناك، ولدى وصولهم إلى هناك خرجت الوفود من الظاهرة (أو من المناطق الواقعة خلف ساحل القرصان)، كما جاءت جماعات من الباطنة من المناطق الساحلية العمانية لترحب بهم ولتعرب عن ولائها لحكم الأمير «تركي».

في تلك الأثناء استدعى الأمير «تركي» الذي كان يرافقه ابنه «فيصل» العشائر من مناطق شاسعة بدءًا من وادي الدواسر في الجنوب وباتجاه الوشم وسدير ليعرض عليه خطط مواجهة موسمي الخريف والشتاء، ويبدو أنه قصد من تلك التظاهرة إظهار التضامن فيما بينهم أكثر من إظهار أي سبب آخر، فعين منطقة الوشم لتكون مكان ملتقى القوات، لكن بسبب اندلاع وباء الكوليرا هناك، سرعان ما قرر أن يكون الملتقى في مرتفعات طويق. تفشى هذا الوباء بين الجنود ومات منهم العديد في معسكر «المجمعة» لكن الوباء لم يصل إلى المدينة.

أرسل الأمير «تركي» ابنه «فيصل» في غارة شنها على ناحية من نواحي «عنزة»، إلا أن رجال القبائل هناك غافلوه وتمكنوا من الهرب، مكث «تركي» في «المجمعة» لمدة شهر عمل خلاله على ترتيب أمور الإقليم، فأقال حاكم سدير المدعو «ابن عبد الله» من منصبه وعين مكانه «أحمد بن ناصر الصانع».

مر صيف عام ١٨٣٩ بدون أحداث، لكن الأمير «تركي» أرسل في خريف ذلك العام «محمد بن عفيصان» على رأس حملة لغزو «الأحساء». ويدل على ذلك نية الأمير «تركي» في إحكام قبضته على حكم «العريعر» في ذلك الإقليم، لكن في حقيقة الأمر قام الأخوان «محمد وماجد العريعر» بالمبادرة بإعلان الحرب على «تركي»، وحشدوا لذلك الغرض قوة كبيرة في منطقة «الصمان»، وعلى الفور قام الأمير «تركي» بتجميع رجال العشائر ووضعها تحت إمرة «فيصل» لمواجهة ذلك الخطر، ودارت معركة شرسة ومتوازنة حول موارد مياه «عقلة» القريبة من سبخات «خفيسات المهماري». استمرت المعركة بدءاً من حوالي منتصف شهر شباط حتى الرابع والعشرين منه والذي صادف اليوم الأول من رمضان الذي قتل فيه «ماجد بن عريعر». وبعد أن أصبح «فيصل» واثقاً من الانتصار أطلع والده على الأخبار الجيدة، فما كان منه إلاأن سار بتعزيزات قوية ووصل إلى هناك في منتصف شهر آذار، حيث تجددت المعركة بضراوة وشراسة من قبل الفريقين إلا أن قوات الأمير «تركي» بدأت في التفوق التدريجي إلى أن قامت في الثامن والعشرين من شهر آذار بشن هجوم بكامل قوتها على مواقع العدو الذي أسفر تراجعه عن هزيمة نكراء في صفوف العريعر وفرار قسم منهم وكان من بين الفارين محمد بن عريعر واتباعه.

إلا أن رجال قبيلة «مطير» الذين كانوا يراقبون تطور أحداث المعركة قرروا الانسحاب قبل أن يقوم «تركي» بهجومه الكبير، الأمر الذي ساهم في تحقيق الفوز لصالح قوات الأمير «تركي».

وبعد مضي أسبوعين سار «تركي» وابنه «فيصل» بالجيش نحو «الأحساء» وكانا قد أرسلا رسلا ليبلغوا القادة هناك بالاستسلام ويطلبون من القبائل والقوى مبايعة الأمير «تركي». استسلم العديد من القبائل والقرى، إلا أن «محمد بن عريعر» وأقربائه وأتباعه سارعوا في تعزيز قلاعهم استعداداً للمقاومة، وعند ظهور أول قوات الأمير «تركي» لاذ العديد من زعماء قبيلة «بني خالد» بالفرار. كانت قوات «تركي» قد استولت على بلدة «الهفوف» دون مقاومة وأقامت مقراً لقيادتها على هضبة «أبو غنيمة»، عندها قدم رجال الدين والمدن والقرى المختلفة إلى مقر قيادة الأمير «تركي» ليعربوا عن استسلامهم وليقسموا يمين الولاء له، وفي تلك الأثناء كان «محمد» يرابط في قلعة «القط» الكبيرة في الزاوية الشمالية الغربية من «الهفوف»، وعندما طلب منه الأمير «تركي» أن يستسلم وفق شروط مشرفة هلل بأعلى صوته، وأخذ إقليم «الأحساء» مرة ثانية مكانته في الدولة السعودية.

مكث «تركي» وابنه «فيصل» في تلك المنطقة لفترة شهر ونصف قاما خلالها بترتيب الأمور وتلبية الاحتياجات الدينية للأهالي الذين تم دعوتهم إلى طاعة الله وشكره على نعمه وإلى أداء الصلاة في المساجد بانتظام، كما طلب منهم بشكل عاجل الالتزام بنمط القيادة الدينية المتبعة في مذهب أهل السنة والجماعة.

عين «عمر بن عفيصان» حاكماً على ذلك الإقليم وأسندت شؤون الأمور

الدينية فيه إلى الشيخ «عبد الله الوهيبي». هطلت في ذلك العام أمطار غزيرة وجاءت مواسم خيرة ومحاصيل وافرة، وهبطت الأسعار لتختم عام شهد العديد من الإنجازات الكبيرة. لم تسجل السجلات التاريخية بـ «نجد» أية أحداث بارزة إلا بعد حلول عام ١٨٣٠.

ومع نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٨٣١ كان الأمير «تركي» يعد لحملة يغزو فيها «حفر الباطن» على الحدود العراقية. وعليه هدأت الأمور وسار بقواته نحو «الصبيحية» في أراضي الكويت، ومكث هناك لفترة طويلة قدم له خلالها زعيم الكويت «جابر بن عبد الله بن الصباح» الهدايا كما قدمت القبائل هناك بمبايعته. وأثناء إقامته هناك وصلته أخبار مزعجة من الرياض، فتحرك من هناك على الفور ليتأكد بنفسه من صحتها.

مما سيبقي في الذاكرة أنه قبل بضع سنوات من تعيين «تركي» لابن عمه «مشاري بن عبد الرحمن» حاكماً على «منفوحة»، ومن المحتمل أن يكون «تركي» قد أرسل نفس هذا الشخص «مشاري» على رأس حملة ضد قبيلة «بنى خالد» في «حفر العتش»، ويبدو أن مشاري بن عبدالرحمن استغل الفرصة للبدء في تنفيذ تطلعاته بالتمرد على تركي في تنفيذ تطلعاته بالتمرد على تركي ولذلك توجه شمالاً للبحث عن مؤيدين له في حركته الأمية الوصول إلى الحكم.

وفي منطقة «المستوى» جابهه أحد زعماء قبيلة «مطير» وصد تقدمه، وإثر ذلك التمس العون من جماعات مختلفة في منطقة «القصيم» إلا أنه لم يفلح ذلك، وبعدها ناشد شريف مكة المدعو «محمد بن عون» لكنه لم يكن مهتماً

بمعارضته للأمير «تركي». غادر «مشاري» مكة يائساً وهو يدرك أن أهالي «نجد» ليسوا مهتمين فعلاً بالتمرد على الأمير «تركي»، وعليه قرر العودة إلى الرياض وإلقاء نفسه تحت رحمة عمه. استقبله عمه بلطف وقدم له نزلاً ليقيم فيه بالقرب من القلعة، ويحدد المؤرخ «ابن بشر» تاريخ عودة «مشاري» وعفو الأمير «تركي» عنه بقوله إن ذلك حدث في نهاية شهر آيار من عام ١٨٣٢، وإذا كان ذلك التاريخ صحيحاً فيجب علينا أن نفترض أن «مشاري» مكث في مكة لفترة طويلة جداً من ذلك العام، ولم يترك أي أثر يذكر على تاريخ «نجد» المعاصر.

وفي شهر حزيران من عام ١٨٣١ قاد «فيصل» حملة قوية وتوجه بها إلى أعالي «نجد» لغزو عتيبة، والحق بها هزيمة كبيرة بالقرب من آبار «طلال». وفي تلك الحالة من الفوضى عاد رجال القبائل ومعهم تعزيزات من تجمعات قبائل «مطير» التي كانت تقضي الصيف في المناطق المجاورة، فدارت الدائرة على المنتصرين إلا أن «فيصل» وفرقة الحرس الخاصة به غطت انسحاب قواته وتراجعها باتجاه «القويعية» وهي تحمل معها غنائم أول معركة. اشتملت تلك الغنائم على نحو ثلاثة آلاف جمل.

سبق هذا الحدث - وبالتحديد في الجزء الأول من شهر آيار (مايو) - أن هبت عاصفة هوجاء عنيفة اجتاحت معظم مناطق «نجد» وخلفت الكثير من الضرر والخراب في واحات النخيل، علماً بأن السجلات التاريخية تشير إلى أن الضرر لحق بأشجار النخيل الصغيرة وأن جذوع الأشجار الطويلة قاومت عنف الريح وبالتالي تعرضت للقليل من الأضرار. صادف موسم حج هذا

العـام في نفس هـذه الفتـرة (أي حـوالي نهـاية نفس هـذا الشهـر)، وتعـرض الحـجـاج إلى الإصـابة بـوبـاء الكوليرا ومـات الآلاف منهـم ومن مـرافقيـهم، وبالمناسبة نقـول إن المؤرخ «ابن بشر» يسرد عدداً من الظواهر الفلكية وأخرى لها علاقة بالظواهر الجوية التي سبقت هذه الأحداث، ولهذا يبدو وكأنه يتنبأ بحـدوث وباء يسـمى «الطاعـون الدبلي» الذي ضـرب مناطق العـراق والكويت، إلا أنه ولمدة عام كامل (بدءًا من شهر آب عام ١٨٣٢) بقي خارج مناطق «نجد». ومن بين الظواهر التي ذكرت أعلاه كانت الظواهر التالية:

١ - ظهـور الألـوان السـاطعـة والمزركشـة في السمـاء وكـأن نور القمـر سطع بشدة خلال الليالي الخمس الأواخر من شهر صفر (المصادف لأي يوم من الأيام بين الخامس والعاشر من شهر آب).

٢ - كـانت الشـمس عند حـوالي نهـاية شـهر آب أو بداية أيلول تشرق باللون الأخضر.

٣ - ظهـور أضـواء الشفق القطبي الشمـالي خـلال الليـالي الأولى من شـهر أيلول، الأمـر الذي حـمل الناس على الاعتـقـاد بأن الشـمس لم تغـرب بعد.

وأخيراً وعند نهاية شهر أيلول أو مع بداية شهر تشرين الأول، ظهر اقتران الكواكب الخـمس (الشـمس والقـمـر، والمريخ، وزحل وعطارد) ضـمن مجموعة نجوم برج الأسد.

أمضى الأمير «تركي» فصل ربيع عام ١٨٣٢ في صحراء «عرقة» دون أن يستحوذ على فكره أي شيء معين باستثناء بعض التقارير التي كانت تصل

إليه بين الحين والآخر والتي تفيد بعدم دفع بعض القبائل ما يترتب عليها من الجبايات. تطلب ذلك الأمر إعداد حملة لإجبارها على الدفع، فأرسل «تركي» في أواخر الصيف أو بداية الخريف ابنه «فيصل» ليؤنب ويوبخ إحدى عشائر «عنزة» التي كانت ترعى إبلها في الدهناء، إلا أنهم تمكنوا من الفرار بعد أن وصلتهم أخبار تقدم قوات «فيصل» باتجاههم. توقف «فيصل» للاستراحة بقواته في «المجمعة» وهناك جلب إلى صفوفه بعض المقاتلين ونظم قوة لغزو «عُمان» لتكون تحت قيادة «عمر ابن محمد بن عفيصان» ولا تتوافر في السجلات التاريخية أية تفاصيل عن تلك الحملة. وبعدها عاد «فيصل» إلى الرياض.

قاد الأمير «تركي» حملة ضد إقليم «الأحساء»، واستغل زعيم «المرة» هذا الظرف وأعلن استسلامه إلى الأمير «تركي»، وعندما سمع «فلاح بن حثلين من العجمان» بذلك استسلم بدون شروط، عرّج «تركي» بعد ذلك على منطقة القطيف وهناك قابله الأهالي بالهدايا وبايعوه على الولاء له، وأمضى بعد ذلك شهراً في منطقة «الهفوف» قبل أن يقفل راجعاً إلى الرياض. توقف «تركي» في طريق عودته عند موارد مياه «وثيلان» إلى الغرب من الدهناء ليعقد مجلس قبلي تحدث خلاله عن رأيه حول مفهوم الحكومة الجيدة، وعندما طلب منه أمير «بريدة» أن يكون أكثر دقة أو أن يوضح التلميحات التي أشار فيها إلى تقصير القادة أجاب الأمير «تركي» قائلاً: «في الواقع قصدت بأن أوجه كلامي إليك شخصياً وإلى أمثالك، إذا كنت تظن بأنك فتحت البلاد بقوة سيفك فاعلم بأنها فتحت بسيف الإسلام، وأن سيف الإسلام دافع عنها ووحدها تحت زعيم واحد».

فُض الاجتماع وسط مزاج دل على تهجم وخضوع لرجل قوي قادر - كما كان يعرف الجميع - على أن ينتقل من مجرد الضوابط إلى حيز التصرف الفعلي وذلك لإخماد أي فساد على أي مستوى كان. أكد الجميع على ولائهم وانصياعهم لرغباته، إلا أن الضرورة التي استدعت أن يتحدث الأمير «تركي» بهذه اللهجة الواضحة في مثل ذلك الوقت وبالتحديد بعد أن استعاد أمجاد الإمبراطورية التي خسرها «عبد الله»، لتدل على أن هناك الكثير من الأعمال التي كان يتوجب على «تركي» القيام بها ليعدل حمولة سفينة الحكم ويجعلها تسير بشكل متوازن.

دلت الأحداث بوضوح على أنه لم يكن أمام الأمير «تركي» كحاكم على البلاد أي خيار آخر، إذ مهدت الحزازات الشخصية المتعصبة البائرة بين القبائل والقرى الطريق أمام ظهور حركات التمرد كما حرضت على الفتن والعصيان، وإن موت «فيصل الدويش» مباشرة بعد هذا اللقاء أضعف زعامة قبيلة «مطير» القوية والغير مستقرة، والتي تولى زمام الحكم فيها ابن فيصل المدعو «محمد المكني».

إن عودة «مشاري» التي حدثت في هذه الأثناء كما أشرنا سابقاً كانت مسألة أكثر جدية، إلا أن الخطوات التي اتخذها «تركي» للترحيب به وإعداد كل الترتيبات من أجل راحته، كان لها دور في فض معظم التعقيدات التي كان من الممكن أن تنجم بسبب وجوده في «نجد». وبسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت تحسنت الأوضاع الاقتصادية لدرجة كبيرة، وذلك بالرغم من موجة البرد الشديد التي طغت على المنطقة خلال شتاء عام ١٨٣٢/ ١٨٣٣، ويقال إن الماء كان يتجمد أثناء رفعه من الآبار، كما أن أشجار النخيل

تضررت كثيراً بسبب الصقيع، إلا أن الأثر المباشر للبرد على تلك الأشجار لم يظهر إلا مع حلول موسم جني الثمار في فصلي الصيف التاليين.

أنهت الأحداث التي في منطقة «الزبير» و «البصرة» و «تهامة اليمن» حالة الهدوء النسبي التي سادت في المناطق الخاضعة لحكم الأمير «تركي»، فقد تعكر صفو الأمن فعلياً هناك في صيف وخريف عام ١٨٣٣ بسبب المعركة التي طال مداها في منطقة «المربع» بمنطقة السر والتي كان أبطالها الرئيسيون قبيلتي «عنزة» و «مطير» وإلى جانبهم حلفاؤهم الذين تجمعوا على الأغلب من قبائل البدو في الصحراء. ولسبب ما أحجم الأمير «تركي» عن أي تدخل بين القبيلتين، وانتهى القتلى بينهما إلى هزيمة عنزة والمتحالفين معها. ويشير «ابن بشر» هنا إلى أنه من المحتمل أن الأمير «تركي» كان منشغلاً بمشكلة «مشاري»، لكن «ابن بشر» يطرح في نفس الوقت تفسيراً آخراً يمكن أن يكون أكثر احتمالاً وهو أن موقفه السلبي نجم عن قلقه حول استقرار الوضع في إقليم «الأحساء» والذي وصلته منه أخبار مفادها أن ثمة مشكلة كانت تتقد في منطقة «القطيف».

كانت الحرب قد اندلعت هناك بين جماعة «جزيرة آل عمر» وحاكم القطيف «عبد الله بن غانم»، الأمر الذي أدى إلى قطع طرق التموين من الميناء. نظم الأمير «تركي» مجموعة من قواته وضع «فيصل» أميراً عليها وأمره بالتوجه بها لإقالة بعض منسوبيه أو أتباعه، وأثناء تقدمه بتلك القوة على طول منطقة آبار «الرمحية» الواقعة عند أطراف الدهناء، قام بمهاجمة جماعة ضايقته بكثرة مطالبها فهزمها وهربت إلى قلعة الدمام التي كانت تابعة لحاكم البحرين، فطاردهم «فيصل» حتى وصل إلى «سيهات» وهناك

أعد الترتيبات اللازمة لمحاصرة الحامية المعادية، واستولى في تلك الفترة أيضاً على جزر «تاروت» و «الدارين» ووضع فيها حاميات مقاتلة. لكن نشاطاته تعرقلت بسبب الأخبار السيئة التي وصلته من الرياض والتي مفادها أن عناصر موالية لـ «مشاري بن عبد الرحمن» قامت باغتيال والده عند خروجه من أحد المساجد بعد أداء صلاة الجمعة، وأن «مشاري» قد احتل القلعة وأجبر الأهالي في العاصمة على الاعتراف به حاكماً عليهم.

وقعت تلك الكارثة قبل بضعة أيام من تاريخ العاشر من آيار عام ١٨٣٤، واحتفظ «فيصل» بتلك الأخبار لنفسه وفك الحصار عن «سيهات» وأخذ معه «عبد الله بن غانم» إلى الهفوف، وهناك جمع قادة قواته بما فيهم حاكم الأحساء «عمر بن عفيصان» وأمير حائل «عبد الله بن علي بن رشيد» الذي كان قد أنشأ معه صداقة حميمة منذ اللحظة التي قدم فيها إلى الرياض لمبايعة الأمير ستركي». ومن بين الشخصيات الأخرى التي كان يعتمد عليها بشكل مطلق كان حاكم بريدة «عبد العزيز بن محمد بن عبدالله بن حسن»، و «حمد بن غيهب» من «شقراء»، و «تركي الهزاني» من «الحريق». وبعد أن أطلعهم على الأخبار التي تلقاها تشاور معهم في الأمر ووافقوا بالإجماع على ضرورة القيام بعمل فوري لاستعادة الرياض ومعاقبة ذلك الدجال الأفّاك، وأقسموا جميعاً يمين الولاء للأمير «فيصل» على أن يكون حاكمهم وإمامهم المؤمن، ووضع «ابن عفيصان» كل الأموال والمستودعات بكل محتوياتها تحت تصرف الأمير «فيصل».

أعدت الترتيبات للقيام بهجوم مبكر، وفي العاشر من شهر حزيران من عام ١٨٣٤ وصلت قوات الأمير «فيصل» إلى جوار الرياض، وعلى ما يبدو

لم يكن لدى «مشاري» معلومات عن ذلك التحرك، لكن رجاله كانوا يحرسون كل الأسوار والأبراج حول الرياض. أرسل «فيصل» مجموعات لتفتح فجوة تدخل منها قواته إلى المدينة وتحتل المباني حول القلعة. سهلت المجموعات التي كانت تحرس الأسوار دخول هذه القوة، وعلى الفور بدأت قوات «فيصل» في قصف القلعة التي كانت مزودة بالمؤن والسلاح لمواجهة أي حصار، إلا أن فرار مجموعة تقدر بـ ١٤٠ رجلاً من رجال قبيلة «سبيع» أضعف الحامية. وبعد أن أحكم فيصل ورجاله الحصار تمكن فريق من مقاتلي الأمير فيصل من التسلق، ووصلوا إلى أسطحة القلعة وانتشروا يبحثون عن «مشاري» وأعوانه، وأخيراً وجدوهم وأخرجوهم من مخابئهم وذبحوهم جميعاً. تدفق أهالي الرياض ليبايعوا «فيصل» حاكماً جديداً عليهم. وحدث ذلك في الثامن عشر من شهر حزيران عام ١٨٣٤، أي بعد حوالي أربعين يوماً من اغتيال الأمير «تركي» الذي امتد عهد حكمه لإحدى عشر عاماً بالضبط وذلك بدءًا من تاريخ وصوله إلى «عرقة».

صفحة بيضاء

الفصل السابع

فيصل بن سعود

صفحة بيضاء

فيصل بن سعود

كانت فترة حكم الإمام «تركي» القصيرة الأجل على درجة بالغة من الأهمية في استعادة بعض أملاك الحكم السعودي واستعادة هيبة أسرة «آل سعود»، وكان باستطاعة الأمير «تركي» على الأقل أن يعيد إصلاح الأسس التي نهضت عليها الدولة والأسرة الحاكمة (على مدى نصف قرن قبل حلول كارثة الدرعية)، والتي تعاظمت إلى أن أصبحت إمبراطورية لم تعرف الصحراء العربية مثيلاً لها منذ العهود التي سبقت ظهور الدين الإسلامي، وكان بإمكان «آل سعود» على هذه الأسس - كما صنعوا بالفعل - أن ينهضوا من جديد ليأخذوا مكانتهم في عالم معاصر. تجاوزت تلك النهضة أحلام وتوقعات الإمام «تركي» ومعاصريه، وفي مضمار هذا التطور واستعادة الأمجاد كان لا بد من التعصر أحياناً والتقدم أحياناً أخرى، إلا أنه من العدل أن نقول إنه لولا صبر ومثابرة الإمام «تركي» في إعادة بناء الأنقاض التي ورثها من آبائه لما حظيت المملكة العربية السعودية على عهد ابن حفيده بما هي عليه.

إذا كان قدر لأي إنسان أن يقوم بذلك الدور لكان ذلك الإنسان هو الإمام «تركي». إذ ألبس عند ولادته اللون الأرجواني وهو لون يرمز للسلطة والمنزلة الرفيعة دون أن يتوقع له أي أحد أنه سيصبح حاكماً، إلا أن الوضع الملح للبلاد وحاجتها إلى قائد يتولى قيادتها، فرضت عليه أن يتسلم زمام الحكم في وقت فشل فيه أشخاص آخرون في كل محاولاتهم ومنصبهم للفوز بالحكم ومن بينهم أشخاص كان الإمام «تركي» بنفسه راغباً في خدمتهم.

لا بد أن الإمام «تركي» كان طاعناً في السن عندما نالت يد الغدر منه، إذ لا تتوافر أية معلومات تاريخية تحدد تاريخ ولادته والذي لا يمكن إلا أن يقدر تقديراً، وما هو موثق في السجلات التاريخية أن الإمام «تركي» لعب دوراً جديراً بالاعتبار - كما لعبه العديد من أبناء أسرة آل سعود - في الدفاع عن الدرعية ضد مطامع «إبراهيم باشا»، كما أن الدور الذي قام به ابنه «فهد» الذي قتل أثناء المعارك جدير بالاعتبار أيضاً، ولا ننسى دور ابنه الآخر الأمير «فيصل» الذي خلف أباه في الحكم وشارك في تلك المعارك. والجدير بالذكر هنا أن ثلاثة من إخوانه وهم: زيد ومحمد وسعود شاركوا أيضاً في الدفاع عن عاصمتهم، واستشهد محمد وسعود وهما يناضلان في ساحات المعارك.

والحقيقة أنه ليس للإمام «تركي» أي ذكر في النشاطات والأعمال التي قام بها الإمام «عبد العزيز الأول» و «سعود الأول»، غير أن السجلات التاريخية تشير فقط إلى أنه كان من بين أبناء والده «عبد الله بن محمد» وكان يحضر مع أولاده وباستمرار كل جلسات ومحافل «سعود». ويعود أول ظهور له في تاريخ الأحداث السعودية إلى عام ١٧٤٦ عندما شارك في حملة لفك الحصار عن «منفوحة» المحاصرة من قبل «دهام بن دواس» حاكم منطقة الرياض آنذاك. ومنذ ذلك التاريخ تكرر ذكر اسمه كقائد لعدة حملات قام بها نيابة عن والده «محمد» وعن أخيه المشهور «عبد العزيز الأول»، وقد استمرت أعماله تلك حتى عام ١٨٠٣، حيث كان في مسجد «طريف» يصلي صلاة الجمعة إلى جانب أخيه «عبد العزيز الأول» فقام أحد رجال

الشيعة المتعصبين باغتياله انتقاماً لانتهاك قدسية «كربلاء»[1]. ونعرف حق المعرفة أنه عاش كامل فترة حكم ابن أخيه «سعود» التي دامت لمدة إحدى عشر عاماً. وبالرغم من أن تاريخ وفاته غير مذكور في أية وثيقة تاريخية، لكن لا بد أن وفاته حدثت قبل عام ١٨١٤ ولنقل في عام ١٨١٢، وبذلك نعطيه فترة ستة وستين عاما من تاريخ حملة عام ١٧٤٦، إذ من المعقول أن نفترض أيضاً أن عمره في تلك الحملة كان على الأقل عشرين عاماً، وعليه يمكن أن يكون قد وصل سن السادسة والثمانين عندما داهمته المنية. وبناءً على هذا التحليل يمكن القول إن أخاه «عبد العزيز الأول» ولد في عام ١٧٢١ وأن ابنه الأكبر وريثه في الحكم «سعود» ولد في عام ١٧٤٨، عليه يمكن القول أن «عبد العزيز» بلغ من العمر ٨٢ عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٠٣، وكان عمر «سعود» عندما تولى السلطة من بعده ستة وستين عاماً وكان قد بلغ من العمر عند وفاته ستة وستين عاماً، وليس هناك فرق كبير في السن بين أبناء العم «سعود» و «تركي»، إذ لم يكن عمر «تركي» أقل من ثمانين عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٣٤.

من المعلوم أن ابنه الأكبر ووريثه في الحكم «فيصل» كان قد شارك في معارك الدرعية، والمعروف عنه أيضاً أنه رافق الأمير «سعود» في حملته التي شنها عام ١٨٠٣ والتي أسفرت عن ضم «مكة»، ولم يكن عمر «فيصل» في تلك الحملة أكثر من خمسة عشر عاماً، ولهذا يمكن القول إنه كان في

(١) المقصود بالقدسية قدسية خاصة عند الشيعة فقط. أما الإمام عبد العزيز ورجاله فهم حين قاموا أعمالهم في كربلاء كانوا يرون أن ما في كربلاء من قباب على القبور وغير ذلك إنما هو من المظاهر الشركية التي يجب العمل على إزالتها وتصحيح المعتقدات من الإيمان والتعلق بها (المعلق).

الأربعينيات من عمره عندما تولى الحكم، وكان قد تجاوز السبعين عندما مات في عام ١٨٦٥ . إن التعمير أو طول عمر حكام «آل سعود» هو في الواقع ظاهرة متميزة، إذ غطت على مدى فترة ٣٠٠ عام ثمانية أجيال من تلك العائلة بدءًا من مولد «محمد بن مقرن» الذي حدث تقريباً عام ١٦٤٠ . والجدير بالذكر أن «محمد بن مقرن» هو والد «سعود» الذي تسمى الأسرة تبعاً لاسمه، وتفصل فترة مائة عام بين مولد «سعود» وبين موت أكبر أبنائه ووريثه «محمد»، وهناك فترة تزيد على مائة عام انقضت بين تاريخ مولد والد الملك الراحل «عبد الرحمن» والتي حدثت عام ١٨٥٠ ووفاته (أي الملك عبدالعزيز» عام ١٩٥٣ .

لم يتمكن الأمير «تركي» من الوصول إلى الحدود الإقليمية التي فتحها وخسرها سلفه، إذ لم يكن مقدراً لمنطقة الحجاز أن تعود إلى الحظيرة السعودية إلا بعد مضي قرن من الزمن تقريباً .

ومن الناحية الأخرى تمكنت أسرة «آل سعود» من إخضاع إقليم «الأحساء» كما استعاد الحكم السعودي سلطته على منطقة «عُمان» التي لم تخسرها أسرة «آل سعود» بشكل كامل في أي وقت من الأوقات . كان «جبل شمر» و «وادي الدواسر» يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للمنطقة الوسطى، بينما كانت الواحات في المناطق الغربية (بيشة، ورنيه، والخرمة، وتربة وخيبر وتيماء) مرتبطة بحكم «آل سعود» بروابط ليست على نفس القدر من القوة. تمكن الأمير «تركي» ضمن هذه الحدود من أن يوجد الأمن والنظام على نحو ملحوظ في مناطق القبائل ومناطق الحضر على حد سواء . وعمل ذلك بالرغم من أن القصائد الشعرية التي نظمها المؤرخون في وصف

الأحوال السائدة في زمن حكمه قللت من تقدير الأصول والموجودات التي آلت إلى الأمير «فيصل».

تقدم الوثائق التاريخية الأمير «فيصل» على أنه رجل متدين يميل للزهد والتعبد والجد، كما تقدمه لنا على أنه مطلع ومتمكن من الأمور الدينية وحافظ للقرآن عن ظهر قلب، إذ كان يقضي الليل في التعبد والصلاة والتهجد طالباً العون من الله على مصاعب هذه الحياة.

ويعلق المؤرخ «ابن بشر» على صفات الأمير «فيصل» بقوله إنه عانى مشكلات ومصائب في حياته، كما واجه من الأخطار ما يمكن أن يوقع الكآبة واليأس في نفس أي إنسان تقي عالم، ناهيك عن الأمراء والحكام. لقد بدا من الواضح ومنذ اللحظة الأولى لتسلمه زمام الحكم أن فترة حكمه ستكون هادئة ومزدهرة، ولم يكن هناك أدنى شك في أن إخلاصه للدين الإسلامي ولبلاده ولشعبه لم يكن أقل من إخلاص والده لهذه الأمور.

عندما عاد «فيصل» إلى «نجد» عام ١٨٢٨ كان قد قضى في سجن الأتراك (العثمانيين) في مصر سنوات عدة. ويمكن النظر إلى حقيقة هروبه من السجن ليلتحق بوالده على أنها ظاهرة إصرار وعزيمة زرعت في نفسه حب المحافظة على بلاده حرة من أي سيطرة أجنبية أو تدخل خارجي. كان «فيصل» خلال السنوات الست التي تلت ذلك الحدث ساعد والده الأيمن في إعادة بناء واستقرار الحكم إذ لعب دوراً هاماً في استعادة إقليم «الأحساء» الذي اعتمد اقتصاد البلد عليه لدرجة كبيرة، ولم يسفر توليه المفاجئ للسلطة عن أي انقطاع في إنجاز الأمور الملقاة على عاتقه، ومع ذلك لم يكن مقدراً له أن ينعم بفترة حكم خالية من الأحداث.

لم تحدث المشكلات في السنوات الأخيرة من حياة فيصل إلا في الجزء الأخير من عام ١٨٣٤ عندما تسلم زمام الحكم واستهل فترة حكمه بمؤتمر دام عل مدى شهر كامل عقده في الرياض وشارك فيه كبار رجال الدين في الحكم. بما فيهم اثنان من أحفاد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وهما «علي وعبد الرحمن»، وكلاهما ابني «حسين». كان «محمد» في تلك الفترة قاضي «الحوطة» في حين كان «عبد الوهاب» قاضي «الخرج»، وتبع ذلك المؤتمر سلسلة من زيارات التهنئة التي قام بها وجهاء الأهالي من عدة مناطق ليبايعوا الأمير «فيصل» وليعربوا عن ولائهم له. وبعد انقضاء هذه الرسميات أرسل «فيصل» جباة الزكاة إلى كل مكان في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها، وأمرهم بجمعها لصالح خزينة الدولة.

نقل أحد جباة الزكاة الذي كان الأمير «فيصل» قد أرسله إلى الجنوب أخبار النزاعات الداخلية في «وادي الدواسر» وفي منطقة «الأفلاج»، و على الفور أرسل الأمير «فيصل» حملة عسكرية إلى هناك ليستعيد النظام والاستقرار إلى تلك المناطق. وتصادف في تلك الأثناء أيضا أن قام «فيصل» وهو في طريقه إلى معسكره بالقرب من «الطوير» بتأديب مجموعة من قبائل «الدواسر» كانت تقضي فترة الشتاء في صحراء «العرمة». حدد «فيصل» ذلك المعسكر ليكون نقطة لقاء تتجمع فيه فرق القبائل والأهالي المشاركة في قواته الإقليمية. توجه بعد ذلك لقضاء فترة استراحة طويلة في منطقة «الشعراء» الواقعة في أعالي «نجد»، وهناك ركز اهتمامه على احتياجات الأهالي الدينية، وأمرهم بحضور دروس التوعية الدينية بعد صلاة العصر من كل يوم؛ ولم يجعله ذلك يهمل احتياجات خزينة الدولة من الأمور

الدنيوية، لذلك حث جباة الزكاة على العمل بجد والمثابرة على جمعها.

وفي حلول عام ١٨٣٥ يبدر أن «فيصل» جلب بعض المتاعب لنفسه من جراء اتخاذه قراراً بمكافأة صديقه الحميم «عبد الله بن علي بن رشيد» الذي كان يعتبر من المؤيدين البواسل الذين أسهموا في إخماد فتنة «مشاري»، إذ قرر تعيينه حاكماً على «جبل شمر» على حساب «صالح بن عبد المحسن بن علي» الذي كان يمثل في ذلك الوقت السلالة الحاكمة في منطقة «حائل».

أرسل الأمير «فيصل» مع «عبد الله بن رشيد» أحد كبار المشايخ ليفقه الناس هناك بالمبادئ السليمة للعقيدة الإسلامية، وبعد عدة أشهر من رحيله نشبت المشكلات في منطقة «حائل» وبدأت بين جماعات من المصلين في مسجدين رئيسيين بعد صلاة الجمعة إثر شجار عنيف دار بينهم وبين رجال الزعيم الجديد الذي أرسله «فيصل» كحاكم على تلك المنطقة، وانتهت تلك المشكلات بهروب الحاكم المخلوع وكل أسرته إلى «القصيم». وصلت هذه الأخبار إلى «فيصل» فأرسل أوامره إلى سلطات «القصيم» باعتقال كل الفارين، فنفذت سلطات «القصيم» ذلك الأمر، في حين تمكن البعض الآخر من الهروب إلى «الدمينة»، وبقي «عبد الله» زعيماً على منطقة «جبل شمر» دون منازع وتابع للدولة السعودية، وقد تبعه في لعب الدور نفسه (مع مرور الزمن) اثنان من أبنائه، لكن ابنه الثالث ويدعى «محمد» كان مقدراً له ليس الاستقلال الكلي عن الرياض فحسب، بل صهر الحكم السعودي ضمن بوتقته الشخصية حتى نهاية ذلك القرن.

في تلك الأثناء كانت القوات التركية في منطقة الحجاز تحت إمرة «أحمد باشا»، وبدعم من قبل شريف مكة «محمد بن عون» حاولوا إخضاع إقليم

«عسير» لسيطرتهم، إلا أن أعمال الابتزاز والاغتصاب للأملاك التي كان يمارسها الجيش التركي (العثماني) الكبير الذي أرسل لذلك الغرض ولدت ردة فعل قوية بين قبائل مناطق عسير، الأمر الذي جعلهم يتحدوا ويهاجموا الأتراك ويوقعوا فيهم هزيمة نكراء، ولم يفلت من القوات التركية (العثمانية) سوى قوة صغيرة تمكنت من الهرب إلى مكة وكان من بينها «الباشا» وشريف تلك المنطقة. وفي صيف عام ١٨٣٥ استدعى «محمد باشا» كلاً من الباشا والشريف إلى مصر ووضع الشريف في السجن. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قام بذلك إما بسبب فشلهما أو لأنه شك في أن الشريف لم يكن يقوم بدور التابع المخلص للحكم العثماني.

أرسل زعماء مناطق «عسير» الكثير من الغنائم التي استولوا عليها من القوات التركية (العثمانية) إلى الأمير «فيصل» لتكون دليلاً لتضامنهم مع قضيته. ومما لا شك فيه أن «محمد علي» خطط في تلك الأثناء لمحاسبة الأمير «فيصل»، فأرسل إليه «دوسري بن عبد الوهاب أبو نقطة» الذي كان سجيناً في مصر منذ «أيام الدرعية»، وطلب منه أن يخبر الأمير «فيصل» بأن عليه أن يدفع الجزية إلى «محمد علي باشا». رد «فيصل» على ذلك بأن أرسل إلى «أحمد باشا» في مكة هدايا قيمة حملها إليه أخوه «جلوي» الذي لم يبلغ من العمر في ذلك الوقت سوى خمسة أو ستة عشر عاماً، وذلك لأنه ولد خلال وجود والده في المنفى بعد هربه من الدرعية. مكث «جلوي» في مكة ليؤدي فريضة الحج في شهر نيسان من عام ١٨٣٦ وعاد إلى أخيه «فيصل» الذي كان يخيم في معسكره الربيعي في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من «الدهناء». وكان «فيصل» مشغولاً في جمع الزكاة وإحلال الأمن والأمان

والنظام في الصحراء، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد استقبل أبناء شيخ البحرين «عبد الله بن خليفة» في ذلك المكان نظراً لأنه سبق له أن زار ساحل الخليج ليحظى بمبايعة حكام «القطيف» و«سيهات» له.

وعند عودته إلى الرياض أرسل أحد عبيده إلى «القصيم» بصفة رسمية لجمع الزكاة من قبائل «عنزة»، كما أرسل - بناءً على طلب كبار زعماء «القصيم» - أحد كبار علماء الدين ويدعى «عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين» ليسد حاجة أهالي «القصيم» الدينية والروحانية. مكث «أبو بطين» هناك لفترة قصيرة إلا أن مهمته كانت ناجحة لدرجة أن أهالي «عنيزة» أصروا على أن يحضر عائلته وأن يستقر بينهم بشكل دائم. وبالمناسبة يجدر القول أن موسم شتاء عام ١٨٣٥/ ١٨٣٦ كان جافاً ولم يشهد أية أمطار، وطغت على العام الجديد موجة جفاف نجمت عنها زيادة في أسعار المواد الغذائية. وأسفرت تلك التطورات عن نزوح أعداد كبيرة من الأهالي إلى «البصرة» و«الزبير». ويشير المؤرخ «ابن بشر» وبشكل فيه الكثير من التدقيق، إلى ظهور مذنب بشكل واضح في مجرى الدب الأكبر، واستمر ظهوره لمدة خمسة أو ستة أسابيع تلت اليوم التاسع من شهر تشرين الأول، كنذير شؤم على الجفاف الذي أصاب البلاد بسبب العقوبة الناجمة عن اغتيال وقتل الأمير «تركي». ويقول المؤرخ أيضاً إن جفاف مماثل ضرب البلاد بعد اغتيال الأمير «عبد العزيز»[١].

---

(١) عند الرجوع إلى ما ذكره ابن بشر عن هذه الأحداث لم نجد ما يؤكد كلام فيلبي وتأويلاته التي أقل ما يمكن أن يقال سوء فهم لما ذكره ابن بشر وتحميل أخباره ما لا تحتمل من التأويلات التي كان ابن بشر بعيداً عنها خاصة قد عرف ابن بشر بحسن المعتقد وعاش وأرخ بين دعوة قامت على مبادئ تصحيح المعتقدات مما علق بها من البدع والخرافات (المعلق).

وفي أواخر عام ١٨٣٦ أو في بداية العام التالي، وصل «محمد علي باشا» إلى «ينبع» بصحبة «إسماعيل آغا» الذي كان قائداً للقوات التركية التي تقدر بألفي رجل. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى فيصل أرسل أحد رجاله إلى «إسماعيل باشا» وحمله الهدايا وطلب من ذلك الرجل أن ينقل إليه أخبار ونوايا «إسماعيل باشا». إن أخبار تقدم «إسماعيل باشا» إلى «الحناكية» عن طريق «المدينة»، إضافة إلى النصيحة التي تلقاها من «عبد الله بن رشيد» وزعماء آخرين كانوا في ذلك الوقت في الرياض، جعلت فيصلاً يقرر أن يسبق تقدم القوات التركية ويسارع في احتلال «القصيم» خوفاً من أن يجد الأهالي أنفسهم حيال وصول قوات «إسماعيل باشا» مضطرين للاستسلام. وبعد أن حشد كل قواته لملاقاة «إسماعيل باشا» في مكان حدده في الشمال، غادر «فيصل» الرياض متوجهاً إلى «الصريف» عن طريق «الخفيسة»، وهناك وصلته أخبار مفادها أن قوات «إسماعيل باشا» ومعها «خالد» قد وصلت إلى «الرس». عندها تحرك باتجاه «عنيزة» حيث انضمت إليه قوات «عنيزة» وقوات «بريدة» كل بقيادة أميره، وسار نحو «رياض الخبراء» التي لا تبعد كثيراً عن «الرس». وبعد مناوشات متقطعة غير هادفة، وبعد رفض أهالي «الشنانة» السماح لقوة أرسلها الأمير «فيصل» بالدخول إلى منطقتها (لأن أميرها كان قد ذهب بالفعل إلى إسماعيل باشا لعقد صلح معه)، اختلفت الآراء وأسفرت عن قراره بالتراجع إلى «عنيزة». ومنها عاد «فيصل» مع قواته إلى الرياض، وعلى ما يبدو تخلى عن أية فكرة لمقاومة احتلال العدو لمنطقة «القصيم».

وحتى في الرياض فقد كان مقدراً لـ «فيصل» أن يفتح عينيه على الحقيقة،

وأن يتحرر من الوهم، إذ وجد الأهالي هناك في مزاج عكر وغير مستعدين للوقوف إلى جانبه، وذلك إما بسبب فشله في التصدي للأتراك في «القصيم»، أو بسبب نجاح أصدقاء «خالد» وأعوانه في حشد الرأي العام الجماهيري ضده، ويبدو أن هذا السبب هو الأكثر احتمالاً. ولذلك قرر البقاء في عاصمته لفترة كافية لجمع كل ما هو موجود من السلاح والمؤن والمال في القلعة، وبعدها توجه بما تبقى من قواته نحو «الخرج» ومكث فيها عشرة أيام ثم تابع المسير إلى «الأحساء» ووصلها مع بداية شهر آيار من عام ١٨٣٧. قدم له «عمر بن عفيصان» الدعم والولاء الكاملين، وبقي هناك حتى منتصف شهر تموز. عمل خلال تلك الفترة على تنظيم جنود في صفوف قواته كان معظمهم من قبائل «مطير» و «العجمان» و «سبيع» و «السهول»، ومن أبناء مدن وقرى «الأحساء» الذين لم تكن لديهم الرغبة في لقاء الأتراك في منطقتهم.

تقدم في تلك الأثناء «إسماعيل آغا» بقواته باتجاه «عنيزة»، إذ لقي هناك مقاومة بسيطة استسلم الأهالي على إثرها، وتبع سقوط «عنيزة» استسلام «بريدة» دون مقاومة، ومن ثم استسلمت باقي مناطق الإقليم. حول «إسماعيل آغا» بعد هذا الانتصار وجهته إلى «حائل» فهرب منها «عبد الله بن رشيد» تاركاً الساحة مهيأة لتنصيب «عيسى بن علي» كحاكم على المنطقة بالأصالة عن«خالد بن سعود». وقام وفد من الرياض بزيارة «خالد» في «عنيزة» ليبايعوه الولاء ويتعهدوا له بولاء كافة مناطق «نجد». وباستثناء «الخرج» و«الفرع» أرسل زعماء هاتين المنطقتين رسالة إلى «خالد بن سعود»

عبروا فيها عن رغبتهم في قبوله أميراً شريطة أن يحكم «نجد» بنفسه ولا يترك الحكم للأتراك. تلقى «خالد بن سعود» رسالتهم عندما وصل إلى الرياض برفقة «إسماعيل آغا» في بداية شهر آيار.

أصر «إسماعيل آغا» على معاقبة أولئك القادة على صفقاتهم، وفي بداية شهر تموز (يوليو) سار «إسماعيل وخالد» بقوة مشكلة من الأتراك والعرب تقدر بسبعة آلاف رجل، وتوجها بها جنوباً بعد أن صفوا حسابهم مع جماعة «المحمل» وانتهوا من قضايا أخرى. وأثناء المسير انضم إلى قواتهما حاكم منطقة «الخرج» المدعو «فهد بن عفيصان»، لكن الأهالي في مناطق «الحوطة» و «الحريق» وباقي مناطق وادي «الفرع» قرروا مقاومة الأتراك بكل ما يملكون. شجعهم على موقفهم ذلك ثلاثة من أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» وواحد من أبناء أحفاده، وكان هؤلاء الثلاثة من قادة المشايخ في الرياض، وكانوا قد هربوا منها إلى «الحوطة» قبل وصول القوات التركية.

أبدى القرويون في وجه القوات الغازية مقاومة رائعة، وأسفرت المعركة الباسلة عن إلحاق هزيمة ساحقة بالعدو وتكبد فيها إصابات بالغة حدثت في أرض المعركة وفي المطاردة التي تمت في الصحراء، ناهيك عن خسران القوات المعادية لمدفعيتها وأمتعتها ومؤنها. وعليه فر «خالد» و «إسماعيل» إلى الرياض ومعهم مجموعة صغيرة من بقايا الفرسان، وفي أثناء الليل فر «فهد بن عفيصان» (الذي كان قد التحق بالمعتدين وهم في الطريق إلى هناك). طارد القرويون القوات التركية الفارة وقتلوا أكبر عدد منهم.

وعندما سمع الأمير «فيصل» بأخبار هزيمة العدو أتى بقواته من «الأحساء» إلى «الدلم» وانضمت إليه هناك قوات من «الخرج»، كما

التحقت بقواته أعداد كبيرة من «الحوطة» و«الحريق». وقبل أن يتوجه بتلك القوة نحو الجنوب كان «إسماعيل باشا» قد ترك فرقة من الجنود الأتراك والمغاربة في الرياض، وعندما وصل «فيصل» إلى قرية «المصانع» الواقعة جنوب «منفوحة» التي تكثر فيها واحات النخيل، اعترض «خالد» سبيله بمجموعة قوية من الأتراك ومن أهالي الرياض لكن «فيصل» تمكن من إلحاق الهزيمة به بسبب دفعه لقواته الاحتياطية في قلب المعركة. أغفلت قوات «فيصل» الطريق المؤدية إلى الرياض، فما كان من «خالد» إلا أن اختبأ في «منفوحة». والواقع كان بإمكان «خالد» أن يؤمن هروبه إلى العاصمة لو أنه كان فعلاً في وسط المعركة في «المصانع»، والدليل على ذلك أنه لم يكن بين الذين استسلموا لقوات «فيصل» إثر الحصار القصير لمنطقة «منفوحة». والجدير بالذكر أنه بعد ذلك الحصار أعرب أهالي «منفوحة» عن ولائهم للأمير فيصل، والذي قام بمحاصرة الرياض واحتلال كافة الواحات المحيطة بها. بقي «خالد وإسماعيل» متحصنين داخل المدينة المسورة. بدأ ذلك الحصار في السابع من شهر أيلول عام ١٨٣٧ شددت قوات فيصل الحصار لدرجة أن الشح بدأ يبدو على ضروريات الحياة هناك. وبسبب الجوع بدأ المحاصرون يذبحون كل ما توفر لديهم من حيوانات داخل المدينة، إلى أن بدأوا يأكلون خيول المقاتلين، وارتفع سعر القهوة وأصبح سعر الصاع الواحد ثمانية عشر ريالاً. واستمر الحصار حتى الخامس من تشرين الأول حيث قرر «فيصل» وكبار مستشاريه شن هجوم كبير على المدينة، فقامت قوات «فيصل» بنصب سلالم التسلق في عدة نقاط حول أسوار المدينة، وأوشك المهاجمون على وضع قدم لهم في بعض المتاريس، إلا أن المدافعين

تمكنوا وبمحاولة مستميتة من إحباط الهجوم.

وفي العاشر من شهر تشرين الأول (اكتوبر) قدمت قوة كبيرة من رجال قبائل «سبيع» و «قحطان» لتخفيف حدة الحصار عن المدينة. وفي عشية ذلك اليوم وتحت جنح الظلام رفع «فيصل» الحصار عن «منفوحة»، وتراجع بقواته. وبعد مرور خمسة أيام تم خلالها تبادل الرسائل للتوصل إلى تسوية سليمة للقتال، التقى الأمير «فيصل» مع «خالد» في منطقة محايدة بين المدينتين، وتحاورا لمدة ثلاث ساعات دون التوصل إلى نتيجة ذلك لأنه لم يكن هناك أي أمل في حل مشكلة وجود الأتراك التي كان «خالد» ملتزماً بها بشكل لا سبيل للخلاص منه. ولم يكن الأمير «تركي» وكذلك كبار قادته ولا حتى أهالي «نجد» ليقروا بتجديد وعودة الاحتلال التركي (العثماني)، ولذلك احتدم القتال من جديد علماً بأن انسحاب «فيصل» كان قد مكن أعوان «خالد» من إدخال الخراف ومواد التموين الأخرى إلى الحامية، وبالرغم من المحاولة التي قام بها «فيصل» للحيلولة دون دخول تلك التموينات. شارف شهر تشرين ثاني على الانتهاء وبدأ تقريباً شهر رمضان، وحدثت في تلك الفترة بعض المناوشات المتفرقة حيث تمكنت قافلة من الوصول إلى الرياض قادمة من «القصيم» بالرغم من محاولات قوات «فيصل» اعتراض سبيل تقدمها. ولم تكن تلك القافلة محملة فقط برواتب القوات التركية، بل جلبت لهم أيضاً أخباراً سارة عن وصول «خورشيد باشا» إلى «القصيم» ومعه تعزيزات لدعم «إسماعيل باشا» و «خالد».

وفي الثالث من شهر كانون الثاني عام ١٨٣٨ برزت مشكلة كيفية المسارعة في وصول القوات التركية إلى الرياض والتي كانت قد توقفت في «القصيم»

تحسباً من اعتراض قوات «فيصل» لها ومهاجمتها. وعليه تقرر إرسال أحد الأشخاص ويدعى «الصيفي» ومعه بعض الجمال إلى تلك القوة يرافقه في حراستها ضابط تركي، ولكن عندما وصلا إلى «القصيم» وجدا أن الأتراك ينوون التملق للأمير «فيصل» بدلاً من محاربته، ولتحقيق هذه الغاية قام «خورشيد باشا» يرافقه الشريف «عبد الله» (من ينبع) الذي كان مفوضاً بزيارة الأمير «فيصل»، وحمل إليه الهدايا المقرونة بالعبارات اللطيفة، ووعده بأن تثبت القوات التركية حكمه على مناطق «نجد». ظلت تلك التعزيزات مع «خورشيد باشا» في «القصيم»، لكن الشريف «عبد الله» سارع إلى مقابلة «فيصل»، وفي حقيقة الأمر أغراه في أن يتخلى عن مقاتلة قوات خالد، ويفترض أنه قام بذلك على أمل أن الأتراك سيوفون بما التزموا به عندما تحين الفرصة. وهكذا جمع الأمير «فيصل» كل محتويات مخازنه وذخيرته من المناطق المجاورة للرياض، وأرسل حلفاءه من رجال القبائل للراحة في بيوتهم، ومن ثم توجه إلى «الخرج». وبعد أن جلس الأمير «فيصل» في «الدلم» يستمتع بضيافة عائلة «العفيصان» وحوله قوة كبيرة من المناطق الجنوبية كفيلة بأن تدافع عن نفسها، فكر في جس نوايا الأتراك فأرسل في الرابع والعشرين من شهر شباط أخاه «جلوي» إلى «خورشيد باشا» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة»، وأرسل معه الهدايا والرسائل الودية.

في تلك الأثناء اتخذ الأمير «فيصل» كل الإجراءات الضرورية ليأمن جانب كل مناطق الجنوب بما فيها «عُمان» و «الأحساء» و «وادي الدواسر»، وبدأ نجم سعده بتحسين في مناطق الشمال، إذ نجحت محاولة «ابن رشيد» في استعادة «حائل» من سلطة «عيسى بن علي» الذي كان الأتراك قد نصبوه حاكماً عليها.

كانت البلاد بدءاً من شمال «الخرج» تقف إلى جانب «خالد» وكانت الوفود من مناطق «المحمل» و «ضرما» قد قدمت لتعرب عن دعمها له . قام «خالد» بإرسال رجاله لجمع الجزية من مناطق البلاد التي كانت لا تزال تعاني ضراوة الجفاف والمجاعة التي سبق أن أشرنا إليها .

وبعد فترة من الزمن وصلت التعزيزات التركية من «القصيم» تحت قيادة «الملا سليمان» الذي كان قد عاد في تلك الفترة من مصر والذي كان مرشحاً ليحل محل «إسماعيل آغا» فأرسل «أحمد السديري» إلى إقليم «سدير» ومعه فرقة من الخيالة الأتراك ليتسلم منصب حاكم إقليم «سدير»، وزوده بأوامر لجمع ليس فقط الجزية المستحقة للحكومة التركية، بل أيضاً التعويضات الناجمة عن الدور الذي قام به القادة الإقليميون خلال الحصار الأخير لمدينة الرياض . على أي حال كان بمقدور «أحمد» أن يلطف من حدة الريح التركية لتتناسب مع بلد أنهكته المجاعة[١] .

ومع أواخر شهر آيار وصل «خورشيد باشا» يرافقه «جلوي» إلى «عنيزة» واستقبلهم الأهالي والقبائل هناك بالترحاب والحفاوة والتكريم وأعربوا عن ولائهم لهما . مكث «خورشيد باشا» في «عنيزة» لمدة خمسة أشهر عمل خلالها على ترتيب أمور ذلك الإقليم، كما كان خلال تلك الفترة يستقبل زواره، وكان أبرز من قدم لزيارته «عبد الله بن رشيد» الذي أكد له

(١) كان الأمير أحمد السديري في غاية النبل والتدبير ولم ينجرف مع التيار حيث يذكر ابن بشر في أحداث عام ١٢٥٤هـ أن إماراته من أسباب الرفع عنهم عن رجالهم وأموالهم وذلك من حسن سيرته ولم يزل يدافع عنهم ويرى العسكر أحوالهم وأنهم في غاية الضعف من شدة الغلاء والقحط ويحض العسكر على الرفق بهم . . ج ٢ ، ص١٧٦ ، ١٧٧ (المعلق) .

«خورشيد» على حكمه لـ «حائل» وحمله بالعديد من الهدايا قبل رحيله. ومن الشخصيات الهامة الأخرى التي قدمت لزيارة «خورشيد باشا» أيضاً كان زعيم قبيلة مطير «محمد الدويش».

بدأت الآن تتكشف خطة «خورشيد باشا» لاحتلال الصحراء العربية بشكل دائم، واقترنت تلك اللحظة بصدام حتمي واقع لا محالة مع قوات الأمير «فيصل». كان «جلوي» في حقيقة الأمر سجيناً لدى مضيفه، فوجد نفسه مضطراً للجوء إلى الحيلة ليخلص نفسه من الأسر، فطلب إذناً لزيارة «بريدة» ومُنح ذلك الإذن ومن هناك هرب والتحق بقوات أخيه في «الخرج». كان «خورشيد باشا» في تلك الفترة مشغولاً في تجهيز قلعته في «الصفا» بمنطقة «عنيزة»، وعند حوالي منتصف شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٨٣٨ وقبل أن يغادر بقواته جنوباً متوجهاً إلى «الوشم» قرر ترك حامية عسكرية فيها تحسباً لوقوع المشكلات، وفي تلك الفترة انضمت إليه قوات «خالد» وقوات «العارض» لمهاجمة «الخرج». وصلت القوات المتحالفة هذه إلى «نعجان» في آخر يوم من شهر تشرين الأول ووجدت أن كافة الأهالي هناك كانوا قد انضموا إلى قوات «فيصل» في «الدلم»، ودارت معركة عرفت باسم «معركة الخراب» وهي عبارة عن بقايا أطلال مستوطنة قديمة أنشأ فيها «خورشيد باشا» مقراً لقواته. قامت قوات «فيصل» بهجمات ضد قوات «خورشيد باشا» إلا أنها لم تتمكن من التغلب عليها، وبعد أن حصن «فيصل» أسوار المدينة وحفر خندقاً حولها وأقام تحصيناً حول جميع مصادر المساه وراء الأسوار، حشد قواته للتصدي لهجوم العدو، واحتدمت المعركة بشراسة في عدة محاور وبالتحديد حول قلعة «هينة» التي كانت

مسرحاً لكر وفر كلا الجانبين، واستمرت المعركة إلى أن تمكن الأتراك أخيراً من الاستيلاء عليها وبالتالي السيطرة على مصادر المياه.

عند هذه المرحلة من تطور الأحداث، وصل «عمر بن عفيصان» إلى بلدة «السلمية» على رأس قوة كبيرة من «الأحساء» وأرسل برسالة إلى «فيصل» يقترح فيها أن تقوم الحامية بهجوم قوي على القوات التركية (العثمانية)، وأن تقوم قواته بمهاجمتها من المؤخرة. وفعلاً حدثت تلك المعركة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني واستمرت من الفجر حتى منتصف النهار. وبعد النكسة التي منيت بها القوات التركية (اكتوبر) في بداية الأمر، حشد الأتراك (العثمانيون) قواتهم من جديد وأجبروا قوات «ابن عفيصان» على فك الاشتباك والتراجع.

وفي الثاني من شهر كانون الأول المصادف للرابع عشر من شهر رمضان، احتلت قوات خورشيد «زميقة» واستولت على مستودعات المؤن، وبعد حوالي عشرة أيام أرسلت مجموعة الهاربين من «الحوطة» مندوباً إلى «خورشيد باشا» يطلبون منه السلام والعفو لهم ولكافة جماعاتهم التي تحارب بين صفوف قوات «فيصل» في «الدلم»، وعلى الفور وافق «خورشيد» على طلبهم. فما كان من فيصل إلا أن أرسل رسولاً إلى «خورشيد» يطلب منه عفواً عاماً عن تلك الحامية، وعاد المرسول وأخبر فيصلاً بأن «خورشيد» كان مستعداً للموافقة على ذلك الطلب شريطة أن يسلم «فيصل» نفسه للقوات التركية ويذهب معها إلى مصر لينضم إلى باقي أفراد عائلة «آل سعود» المقيمة هناك.

وبناءً على ذلك القرار لم تكن هناك حاجة للجوء إلى السلاح، وعليه سلم «فيصل» نفسه للقوات التركية بعد أن ضمن أن حياة وممتلكات أولئك الذين حاربوا معه بإخلاص كانت آمنة. وعند حوالي العشرين من شهر كانون أول من عام ١٨٣٨ بدأت رحلة «فيصل» إلى مصر بحراسة قوة تركية تحت إمرة «حسين اليازجي»، وسار معه إلى الأسر أخوه «جلوي» وكذلك ولداه «عبد الله ومحمد» (كان ابنه سعود صغيراً جداً لم يُرحَّل). ذهب في رحلة الأسر تلك أيضاً عمه «عبدالله بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد» المعروف بلقبه «صنيتان»، وعند وصوله إلى القاهرة قدم له سكن. أمضى «فيصل» هناك معظم أوقات الليل والنهار في العبادة، ويقال بأن المرضى من الناس كانوا يأتون إليه للشفاء عن طريق قراءته عليهم آيات من القرآن (الرُّقية).

أما بالنسبة لـ «عمر بن عفيصان» فإن حماسه وتأييده الشديدين لقضية «فيصل» جعلاه لا يثق بعرض العفو العام الذي تلقاه من «خورشيد باشا»، ولجأ لفترة من الزمن إلى البحرين قبل أن يستقر به المطاف أخيراً في «الكويت». على أي حال كان قبل هروبه قد نصح جماعته بالتوجه إلى الرياض لأداء يمين الولاء لإمامهم الجديد الذي أصبح الآن المرشح دون منازع ليكون سيد كافة مناطق «نجد» وبدعم من الخديوي في مصر ومن ممثليه المحليين. لقد بلغت فترة حكم «فيصل» أربع سنوات ونصف، وتمتع قبل ذلك بعشر سنوات من الحرية قبل أن يدخل في مرحلة الأسر الثانية.

نُقل «أحمد السديري» من إقليم «سدير» إلى إقليم «الأحساء» الحيوي الذي لم ينسى أهله الجرائم البشعة التي ارتكبتها قوات «إبراهيم باشا»،

وكان الغرض من ذلك التعيين إظهار الاحتلال الجديد بمظهر أقل خشونة وبصبغة ألطف؛ إلا أن ذلك التغيير في المزاج لم يدم إلا لفترة قصيرة، وما أن هدأ «أحمد» من مخاوف الأهالي ورتب لإدارة الإقليم (بما فيه منطقة القطيف)، حتى نقله الأتراك (العثمانيون) ليتسلم مهام إدارة عائدات الدولة، وعينوا في مكانه شخص تركي يدعى «محمد أفندي» الذي أصبح تعسفه وتشدده على كل لسان. استمر «محمد أفندي» في تلك الإدارة إلى أن قام رجل مجهول بقتله أثناء عودته من منابع «عين نجم» الساخنة التي كان الناس يقصدونها للعلاج.

أرسل «خورشيد باشا» شخص آخر (يدعى أيضاً محمد أفندي) ليخلف «محمد أفندي» السابق في منصبه. استمر هذا الحاكم الجديد على نهج السياسة التعسفية التي نهجها سلفه، ولم ترق هذه الإجراءات إلى «أحمد السديري» لذلك منحه الأتراك إجازة من العمل نصبوا مكانه «عيسى ابن علي بن فايز» كتعويض عن حكمه الذي خسره في منطقة «حائل». وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٨٣٩ قام شخص بقتل «محمد أفندي» الأخير هذا، وفي الشهر التالي خلف «عيسى بن علي» «أحمد السديري» في منصبه.

كان «خورشيد باشا» مشغولاً في إقليم «الخرج» بتدمير تحصينات «الدلم» وتعزيز حامية «السلمية» بالقوات التي أوكلت إليها مهمة الإشراف على محاصيل مشاريع شبكة الري التي كانت تعتمد على ينابيع مناطق «السيح». هذا وفرض على أهالي «الحوطة» وأهالي وادي «الفرع» أن يقدموا للقوات

التركية (العثمانية) الحبوب والتمور، وفي طريق عودته من الخرج إلى الرياض أرسل بتعليماته إلى «حسن المعاون» المسؤول عن حامية «ثرمدا» وطلب منه أن ينظم حملة على نطاق واسع لتقدير المحاصيل والعائدات التي يمكن جبايتها من كافة مناطق «نجد» بدءاً من «القصيم» وحتى «الأحساء». وفي شهر آيار (مايو) من عام ١٨٣٩ نقل «خورشيد باشا» مقر قيادته من الرياض إلى «ثرمدا» وهناك بنى قلعة كبيرة تستوعب كل قوات حاميته، ومنها هناك فرض على كافة القرى والمناطق بأن تقديم نصف محاصيلها للقوات التركية بغض النظر عن حقيقة أن حالات المجاعة التي شهدها العام المنصرم كانت لا تزال تخيم بثقلها عليهم.

يقال إنه إما في شهرآذار (مارس) أو في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٨٣٩ تلقى «خورشيد باشا» أخبار وفاة السلطان «محمود بن السلطان عبد العزيز»، كما وصله خبر مفاده أن ابن السلطان «محمود» المدعو «عبد المجيد» خلف أباه في السلطة. وبعد حوالي عام من ذلك التاريخ وبعد أن كان قد استقر في منطقة «ثرمدا» تلقى أوامر من مصر تستوجب عودته المباشرة إلى هناك ومعه أكبر عدد من قواته. وحيال هذه الأوامر كان همه الأكبر جمع الجمال لنقل قواته ومعداته إلى «المدينة»، وعليه تفاوتت ردود فعل القبائل لمطالبة هذه، إلا أن «عبد الله بن رشيد» أرسل له حوالي سبعمائة دابة من مناطق «شمر» لتلبي احتياجاته الملحة لنقل القسم الأكبر من قواته، ولم يفعل «عبد الله ابن رشيد» ذلك إلا ليسارع في رحيل القوات التركية (العثمانية) عن الصحراء العربية. وبينما كان في انتظار وصول هذه الدواب، قام «خورشيد باشا» بمساعدة «خالد» الذي كان قد انضم إليه في

«ثرمدا» بتنظيم حملة ضد قبيلة «شمر» في صحراء «البياض» الواقعة إلى الجنوب من «الخرج»، لكن لم تكتب لتلك الحملة النجاح إلا أنه من أبرز سماتها أن «خالد» الذي قاد تلك الحملة التأديبية صحب برفقته «عبد الله بن ثنيان»، وبذلك قدم له أول فرصة للظهور في سجل أحداث صحراء «نجد». والجدير بالذكر أن «عبد الله بن ثنيان» هو من أبناء عمومة «خالد»، كان جده الأول «ثنيان» الأخ اللزم لجد «خالد» الأول والمدعو «محمد»، وهذا الأخير هو أول إمام سعودي.

وفي شهر نيسان من عام ١٨٤٠ أحدث «خورشيد باشا» تغييراً في منصب حاكم الأحساء، إذ عين في ذلك المنصب «حمد بن مبارك» (من منطقة «حريملاء»). ويفترض أن يكون ذلك التعيين خلفاً للراحل «محمد أفندي»، إلا أنه بعد مضي عام قام «خالد» باستدعاء «حمد» ونصب مكانه «موسى الحملي» أحد كبار زعماء قبيلة «بني خالد»، كما عين زعيماً آخراً من تلك القبيلة هو عبد الرحمن بن مانع في منصب رئيس دائرة الجبايات بدلاً من «عيسى بن علي» الذي وافته المنية في ذلك الوقت. حدث ذلك التغيير بالطبع بعد رحيل «خورشيد باشا» بعد أن جمع كل قواته من «شقراء» و«الزلفي»، والذي صادف في شهر آيار من ذلك العام. وبعد فترة وصل «خورشيد باشا» إلى «الشنانة» وهناك أعد آخر الترتيبات المتعلقة برحيله، وفي منتصف شهر تموز انضمت قوات حامية «ثرمدا» إلى قواته. وهكذا أصبحا مناطق «نجد» خالية من القوات التركية باستثناء بعض الجيوب الصغيرة التي تركها في «ضرما» و «الرياض» وبعض المناطق الأخرى، والتي لم يتجاوز عدد أفراد كل واحدة منها العشرين رجلاً.

وعند حوالي نهاية شهر تموز تم استدعاء «خالد» إلى «الشنانة» ليقابل «خورشيد باشا» للمرة الأخيرة، وفي طريق عودته إلى الرياض توقف في «عنيزة» و «بريدة» ومن هناك سار خلفه أميرا هاتين المنطقتين. وفي «شقراء» تقابل مع «عبد الله بن رشيد» الذي كان في طريقه لزيارة «خورشيد باشا». وفي شهر تشرين الأول المصادف لشهر رمضان أرسل في استدعاء كل قواته وطلب تجمعها في الرياض دون أي هدف محدد سوى أنه أراد أن يتيقن من مكانته في مختلف الأقاليم التي لم يعد بإمكانه أن يعتمد فيها على الدعم التركي ضد حكام تلك المناطق الذين فتر حماسهم ودعمهم للأتراك، وبناءً عليه تقدمت عشائر «سدير» بكامل قواتها يتقدمها «محمد السديري» حاكم الإقليم ومعه والده «أحمد» الذي كان «خورشيد باشا» قد أقاله من منصبه في «الأحساء». استغل «خالد» هذا التجمع ليحقق في الشكاوى الخاصة بأعمال الابتزاز وسوء المعاملة التي يتلقاها أبناء إقليم «سدير» ومختلف الحكام المحليين. أسفر ذلك التحقيق عن طرد كل المعنيين بتلك التصرفات من مناصبهم، كما تم تعيين حاكم جديد على الإقليم يدعى «عبد الله الحصيّن» ولتحقيق أغراض الحملة المعدة للنيل من جماعات قبيلة «قحطان»، كلف «عبد العزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) بقيادة القوات السديرية، بينما كلف «عمر بن عفيصان» بتولي القيادة العامة لكافة الوحدات.

والجدير بالذكر هنا أن «عمر بن عفيصان» بعد أن ذهب طوعاً للمنفى في الكويت، عاد الآن إلى الرياض ليتصالح ويسوي الأمور مع «خالد». كان أهالي «نجد» يشكون في سلوك «خالد» بسبب خضوعه وتبعيته المكشوفة

للأتراك، إلا أن رحيل «خورشيد باشا» ورحيل معظم قوات الاحتلال التركي، ساهما في إزالة هذه الوصمة عن «خالد» ولم يكن هناك ما ينبئ بأن حكم «خالد» لم يكن سوى حكماً دائماً.

سرعان ما تعرض موقف «خالد» للتحدي من قبل أحد المدعين، ففي إقليمي «القصيم» و «جبل شمر» دارت حرب بين حاكم «حائل» وحاكم «بريدة» وكان لها أبعادها، لكن الحكومة المركزية لم تبدي أية محاولة للتدخل بين الفريقين، ولنتناول هذا الحدث بالتفصيل علينا أولاً أن نشير إلى أن أمير حائل «عبد الله بن رشيد» وأمير بريدة «عبد العزيز بن محمد» كانا على عداء منذ بضع سنوات. على أي حال نقل بعض المسؤولين أخبار الاقتتال بين هذين الأميرين إلى «خالد» إثر عودته من «شنانة»، وعند عودة هؤلاء المسؤولين كل إلى منطقته وقعت حادثة بسيطة نسبياً كان لها دور في استهلال الأعمال العدائية: فقامت مجموعة من «عنيزة» بالإغارة على مجموعة من «شمر» تابعة لابن «طوالة» وسرقت أعداداً كبيرة من الجمال، لكن «عبد الله بن رشيد» تصدى لجماعة «عنيزة». الواضح أن جماعة «عنيزة» كانت الجماعة المعتدية، إلا أن حاكم «بريدة» بادر في الإعداد لتأديب فريق «حائل» وأجرى مشاورات مع حاكم «عنيزة» ومع زعماء قبائل «القصيم» لتنظيم هجوم مضاد على نطاق واسع ضد «حائل»، وتمت الموافقة على هذه الخطة وقاد كل من حاكم «بريدة» وحاكم «عنيزة» قوة مقاتلة كبيرة تضم مقاتلين من مدن وقرى «القصيم»، إضافة إلى بدو من مناطق عدة من «عنيزة». تجمعت كل هذه القوات في «بقيعا» وسارت لتغزو منطقة «شمر»، وفعلاً نجحوا في هزيمتهم وأخذوا الكثير من الغنائم منهم. اقترح حاكم

«عنيزة» المدعو «يحيى بن سليمان» على القادة الآخرين أن يكتفوا بما كسبوه من الغنائم، وأن يعودوا إلى ديارهم، إلا أن زعيم «بريدة» أقسم بأن لا يثنيه شيء ويحمله على العودة حتى يقاتل «ابن رشيد» في عقر داره، ولذلك تابعت الحملة مسيرها ووصلت القوات المتحالفة إلى قرى «بقعا» والآبار المحيطة بها والتي تقع نوعاً ما إلى الشرق من «حائل»، وعلى الفور أرسل «ابن رشيد» أخاه «عبيد» على رأس قوة من الفرسان لمهاجمة رجال قبائل «عنيزة» عند موارد مياه «ساعدة» التي لا تبعد كثيراً عن «بقعا»، فقام «عبيد» بهجوم عند الفجر توالت بعده اشتباكات ضارية تأرجحت خلالها كفة الغلبة بين الأطراف المتحاربة. في تلك الأثناء تقدم «يحيى» بقوة صغيرة سيراً على الأقدام لنجدة أصدقائه في «بقعا»، وفي الوقت الذي وصلت فيه قوة «يحيى» إلى هناك للمشاركة في القتال، ظهر «ابن رشيد» على رأس قوة كبيرة كان قد تبع بها أخاه لدعمه عند الضرورة. كان للهجوم الذي شنه «ابن رشيد» أثر حاسم في ترجيح كفة القتال، إذ تمكنت قواته من إلحاق الهزيمة برجال قبائل «عنيزة». شاهد «عبد العزيز» كما شاهدت قوات «بريدة» تلك الهزيمة فما كان منهم إلا أن هربوا من «بقعا» آخذين معهم جمالهم وجمال «يحيى» أيضاً.

صمد «يحيى» ورجاله في القتال وقاتلوه بضراوة، لكن بسبب عدم تمكنهم من الوصول إلى موارد المياه، فسرعان ما شعروا بحدة العطش خاصة أن الشمس بدأت تتوسط كبد السماء. تمكنت قوات «ابن رشيد» من قتل معظم رجال «يحيى» وتمكنوا أيضاً من أسر «يحيى» نفسه الذي طلب منهم أن يأخذوه إلى خيمة «ابن رشيد». وهناك أوشكت عرى الصداقة

القديمة أن تخدمه إلى حد كبير لو لا أن أحد أبناء «عبد الله بن رشيد» وصل في تلك اللحظة وقال أن «عبيد» لقي مصرعه في القتلى. كان وقع ذلك الخبر عنيفاً على «عبد الله» فما كان منه إلا أن أمر بذبح «يحيى» بكل برودة أعصاب، وسرعان ما ندم «عبد الله بن رشيد» على تسرعه في قتل «يحيى» لأنه اكتشف بأن «عبيد» لم يقتل بل كان على قيد الحياة.

تذكر الوثائق التاريخية أن عدد القتلى من قوات «بريدة» بلغ سبعين رجلاً، في حين بلغ عدد قتلى قوة «عنيزة» ثمانين رجلاً، ناهيك عن ذكر خسائر أهل القرى وخسائر البدو. والجدير بالذكر هنا أن التعداد الإجمالي لتلك القوة بلغ ألف ومائتي رجل، وقد غنمت قوات «ابن رشيد» من تلك المعركة الكثير من الغنائم.

رجع «عبد الله» (أخو يحيى الذي كان في تلك الفترة يقوم بزيارة إلى خالد في الرياض) إلى «عنيزة» ليشغل منصب الحاكم هناك، واتفق مع عدد آخر من قادة «عنيزة» على الطرق والأساليب التي يجب أن ينهجوها للانتقام من الهزيمة التي لحقت بهم مؤخراً. ولم يمض وقت طويل حتى جهزوا قوة تقدر بأربعة آلاف رجل وساروا بها إلى «حائل»، وبلغ بهم المسير حتى «الكهفة» وهناك ولأسباب غير معروفة تخلى المقاتلون عن الحملة وتفرقت القوات. ومن المحتمل أن تكون التطورات الخطيرة التي حدثت في الرياض والتي كان لا بد من التعامل معها السبب المباشر الذي أفضى إلى هذه الكارثة المفاجئة. ذلك باعتبار أنه أصبح من الواضح لدى «عبد العزيز» أن الاتحاد الذي أصبح الآن ممكناً بين «الرياض وحائل» كان أقوى من الإمكانات المتاحة لاستثارة أية تصادم.

ربما كان لدى «خالد» أسباب وجيهة تدعوه لإبقاء ابن عمه «عبد الله بن ثنيان» تحت إشرافه المباشر، كما سبق أن رأينا أنه أخذه معه في حملته ضد «شمر». وفي شهر تموز من عام ١٨٤٠ طلب من «عبد الله» أن يرافقه لزيارة «خورشيد باشا» في «الشنانة»، ولم يقبل اعتذاره في عدم الذهاب معه لأسباب صحية، كما أنه لم يقبل أن يتركه خلفه في العاصمة، وعلى أي حال تمكن «عبد الله» من التسلل والهرب من القافلة ولجأ إلى «عيسى بن محمد» زعيم قبيلة «المنتفق» على الحدود العراقية. وبعد أن رجع «خالد» من «الشنانة» أرسل يؤكد له بأن ليس هناك أي شيء يدعوه للخوف، وبذلك استجاب «عبد الله» إلى «خالد». ومن معسكر قريب من الرياض أرسل «عبد الله» رسولاً إلى الرياض ليعلن عن قرب وصوله وليستكشف الطريق، وعاد هذا الرسول إلى «عبد الله» بأخبار غير سارة وبفعلها قرر «عبد الله» الهرب إلى «حائر سبيع» في وادي حنيفة وهناك قدم عليه زعيم قبيلة سبيع «راشد بن جفران» المساعدة نظراً لقرابة المصاهرة بينهما. بعد ذلك عمل «عبد الله» على جلب المساعدة من منطقة «الحوطة» ومنطقة «الحريق» لدعم سياسته الرامية إلى التخلص من السيطرة التركية ومن الاحتلال التركي، وكان للجوئه إلى قبيلة «سبيع» ونفوذ مشايخ تلك القبيلة أثراً في النجاح الذي حققه. لم تسفر محاولة «خالد» في استرضائه من خلال توسط وجهاء قبيلة «السبيع» سوى في توضيح موقفه، إذ أعلن على الملأ عن نيته في القتال، وبناءً على ذلك التصريح استنفر «خالد» قواته وجمع مقاتليه من كافة المناطق. ولم تكن ردود الفعل لندائه مشجعة بشكل كاف، فطلب من أهالي الرياض الانضمام إلى حملة مقترحة لمحاربة «عبد الله بن ثنيان»، ترك

«خالد» حامية من الجنود الأتراك والمغاربة، إضافة إلى عدد من أتباعه في القلعة تحت إمرة «حمد بن عياف» (بصفته أمير المدينة)، وأيضاً تحت إمرة «عمر بن عفيصان» كقائد عام لتلك القوات، وبعدها تمكن من التسلل والهرب إلى «الأحساء». حدث ذلك عند بداية شهر تشرين الأول عام ١٨٤١، وكان ذلك الحدث نهاية فترة حكم «خالد» التي دامت لأقل من ثلاث سنوات. وبعد هروبه فر مؤيدوه من حوله تدريجياً، وبسبب أخبار التطورات السيئة التي حدثت في الرياض هرب «خالد» مجدداً من «الهفوف» وتوجه إلى «الدمام»، ومن هناك سار نحو الكويت ومن ثم إلى «القصيم» لينتهي به المطاف في «مكة» ليجد ملاذاً آمناً له. وبعد مضي عشرين عاماً داهمته المنية هناك.

بعد أن رفع «عبد الله» من مستوى المجابهة وأصبح متأكداً من دعم قبيلة «سبيع» والمناطق الجنوبية له، تبنى أساليب وخطط مشابهة للأساليب التي نهجها الأمير «تركي» في محاولته لاستعادة السلطة، فتحرك بقواته في أول الأمر إلى «ضرما» حيث كانت هناك حامية تركية صغيرة رفضت في البداية مناشدته إياها الاستسلام، علماً بأن بلدة «المزاحمية» المجاورة للحامية رحبت به واعترفت بقيادته. وبعد قتال وحصار داما لفترة قصيرة وافقت الحامية التركية على الرحيل بسلام للانضمام إلى أبناء جلدتهم في منطقة «ثرمدا»، وبعدها احتل «عبد الله» البلدة. اتخذ أهالي «حريملاء» سياسة الحياد حيال إصراره على الحصول على دعم الأهالي له، إلا أن أهالي «العمارية» و«أبا الكباش» أرسلوا إليه متطوعين وسار «عبد الله» بهم مع قواته إلى «عرقة» وتمكن من الاستيلاء عليها بغارة عنيفة رغم المقاومة التي

واجهته من الحامية المرابطة فيها بقيادة «حمد بن عياف»، وبعد ذلك الانتصار اعترف أهالي «منفوحة» بقيادته الأمر الذي شجعه على التوجه بقواته إليها .

كان أهالي الرياض ومنذ فترة طويلة يناشدون «خالد» أن يقدم لهم العون الفوري، لذلك ألحت جماعة أهالي الرياض (التي كانت ترافق «خالد» خلال وجوده في «الهفوف») على «خالد» إما أن يرسل قوة لنجدة أهل الرياض أو أن يسمح لهم بالعودة إليها والاستسلام للغاضبين. وافق خالد على إرسال قوة مشكلة من ثلاثمائة جمل وسرعان ما اشتبكت في قتال وهجمات متقطعة دارت حول منطقة «منفوحة»، وساندتها في تلك الاشتباكات الحامية الموجودة في الرياض. وعند عودة تلك الحامية من منفوحة إلى الرياض تحت جنح الظلام تبعها سراً «ابن ثنيان» ومعه عدد من رجاله. سهلت جماعة من أصدقائه دخوله إلى الرياض عبر حي «دخنة» وجاء ذلك التسلل في الوقت الذي كانت فيه القوات والأهالي تحتفل بالأغاني والأهازيج لنيلهم من الأعداء حول منطقة «منفوحة». وفجأة ظهر «عبد الله بن ثنيان» (الذي كان يتحلى ببعض الصفات العسكرية التي كان يتحلى بها الأمير «تركي») وسط المحتفلين شاهراً سيفه، وأبلى بلاءً حسناً في القتال الذي نشب بينهم، وتراجع المغاربة إلى القلعة وأوصدوا الأبواب في وجه قوات «عبد الله بن ثنيان» ورجاله، كان «عبد الله بن ثنيان» قد وزع رجاله في عدة مواقع من المدينة، واتخذ من منزل حاكم الرياض «حمد بن عياف» مقراً لقواته، ولذا بدأ كبار رجالات المدينة في القدوم إليه ليعربوا له عن اعترافهم بقيادته لهم، ومن بين الذين قدموا إليه في مقره ذلك ليقسموا له يمين الولاء والطاعة كان «عمر بن عفيصان».

عرض «ابن ثنيان» على القوات المغربية والتركية (العثمانية) الموجودة في

القلعة الاستسلام لقاء شروط مشرفة، فوافقت تلك القوات عليها مقابل أن تجلوا عن مناطق الرياض برمتها. وفي صباح اليوم التالي وإثر سماع بعض العيارات النارية من جهة الحامية التركية، وضع «عبد الله» عدداً من رجاله في المنازل المجاورة تحسباً لقيام الأتراك بهجوم، إلا أنهم قرروا قبول شروطه وخرجت القوات التركية رتلاً واحداً من المدينة.

وهكذا أصبح «عبد الله بن ثنيان» حاكم «نجد» دون منازع، وقدمت الوفود المعتادة إلى الرياض لتؤكد له على ولائها، وأوضح لهم بأنه ليس على استعداد لتحمل أو قبول أي تمرد في مناطقهم.

أمر «ابن ثنيان» أهالي «المجمعة» بإعادة بناء قلعتهم التي كانت قد دمرت بموجب أوامر «خالد»، وأمر باعتقال أربعة من قادتهم والاحتفاظ بهم كرهائن لحين تنفيذ أوامره. هذا وعين «ابن ثنيان» على الإقليم حاكماً جديداً يدعى «عبد العزيز بن مشاري بن عياف».

حان الآن دور أهالي وادي الدواسر ليدفعوا ثمن خطاياهم، فأصدر «ابن ثنيان» أمراً بإقالة حاكم وادي الدواسر المدعو «محمد بن جلاجل»، كما أقال عدداً من كبار الشخصيات من مناصبهم، وعين «عبد الرحمن بن عبيكان» حاكماً على ذلك الإقليم.

وفي بداية عام ١٨٤٢ أرسل «ابن ثنيان» (عبد الله بن بتال المطيري) وهو من عائلة محاربة مشهورة لاحتلال إقليم «الأحساء»، وبعد أن حقق نصراً في مهمته أرسل «ابن ثنيان» (عمر بن عفيصان) إلى هناك ليتسلم مهام منصب الحاكم فيها وبعد أن مارس مهام مركزه في مقر قيادته القديم في قصر

«الكوت» بالهفوف أمر «عمر بن عفيصان» كافة وجهاء الإقليم بالذهاب إلى الرياض ليقدموا الإجلال والاحترام لسيدهم الجديد. وهناك أمر بتوقيف أربعة منهم كرهائن لضمان حسن تصرف البقية ولحسن تصرف كافة أهالي الإقليم على حد سواء. وكان لا بد من معالجة الأوضاع في المناطق الساحلية التابعة للقطيف، ومما زاد من تعقيد المشكلات هناك وجود مصالح مكتسبة للأسرة الحاكمة في البحرين، وعليه استدعى «ابن ثنيان» في شهر حزيران كافة القوات وتجمعت عند آبار «الرمحية» و «رماح» في منطقة «العرمة»، وهناك وعند حوالي منتصف شهر تموز أقام مقر قيادته. ومن ذلك المقر أرسل قوة تحت أمرة أحد العبيد ويدعى «بلال بن سالم الحرق» لاحتلال «القطيف»، كما أمر «عمر بن عفيصان» بالتوجه إلى هناك ليتولى زمام الأمور، ،ناب عن «ابن عفيصان» خلال غيابه عن «الأحساء» ابن عمه «فهد ابن عبد الله بن عفيصان».

وفي تلك المرحلة من تطور الأحداث التاريخية كانت البحرين تعاني من غليان ضروس احتدمت فيه الاصطدامات بين الحكام ومنهم «محمد بن خليفة» الذي ثار ضد عمه «عبد الله». وبصفته الحاكم آنذاك طلب «عبد الله» العون من قبيلة «المرة» التي استجابت لطلبه وتحركت لتسلب وتنهب كافة مناطق ومدن الجزيرة. وباعتبار أن «محمد» لم يتمكن من تحقيق هدفه في الفوز بالحكم على البحرين، وهرب والتجأ إلى «ابن ثنيان» في «الرمحية»، وفي نفس تلك؛ الفترة تمكن حاكم «سيهات» المسجون من الهرب من السجن وفر إلى البحرين.

عين «ابن ثنيان» (أحمد السديري) أميراً على «القطيف» وعلى المناطق التابعة لها، وعاد «عمر بن عفيصان» إلى منصبه الحقيقي في «الهفوف»، وهكذا انتهى «ابن ثنيان» من ترتيب أمور أقاليم المنطقة الشرقية وعاد إلى الرياض وأمر بإعطاء إجازات لكافة عناصر وحداته المقاتلة وقدم لهم الهدايا، وحاول أيضاً إرضاء السلطات التركية فأرسل أيضاً الهدايا إلى «عمر باشا» حاكم مكة، كما حمل «محمد بن جلاجل» الهدايا وطلب منه أن يوصلها إلى «محمد بن عون». وتجدر الإشارة هنا إلى أنه استكمل احتلال كافة مناطق «الأحساء» بأن أرسل قوة للاستيلاء على ميناء «العقير» الذي كان لا يزال تحت سيطرة السلطات البحرينية.

وخلال الأسبوعين الأولين من شهر تشرين الثاني (المصادفين للجزء الأخير من شهر رمضان) هطلت أمطار غزيرة على كافة مناطق «نجد» وأنهت الجفاف الذي دام لمدة تسع سنوات، أي منذ اغتيال الأمير «تركي». سببت تلك الأمطار الفيضانات التي دفعت أمامها مياه غزيرة سالت في كافة الأودية الرئيسية وبالتحديد في أودية منطقة «سدير» التي لم تعرف الفيضانات منذ أربعة عشر عاماً. ألحقت تلك الفيضانات الكثير من الضرر في واحات النخيل وفي المحاصيل التي كانت على وشك الحصاد في تلك الفترة، إلا أن كافة مناطق البلاد نعمت في وقت لاحق بالمراعي الخيرة الوفيرة، وبالمحاصيل التي انتعشت إثر توقف الأمطار. وكان من الطبيعي وعلى ضوء الأحداث التي تبعت مباشرة الأمطار الموسمية لذلك الشتاء، أن ينظر الناس إليها على أنها نذير خير على الصعيد السياسي.

ففي شهر شباط من عام ١٨٤٣ تمكن «فيصل» ومعه ابنه «عبد الله» وابن عمه «عبد الله البراهيم» وأخاه «جلوي» من الهرب من القلعة في القاهرة التي كانت الحراسة مشددة عليها. تمكنوا من الهرب بعد أن تدلوا على حبال من أعلى الصخور التي بلغ ارتفاعها ما يزيد على مائة قدم، وكانت بعض الجمال في انتظارهم لتحملهم خارج مصر، وكل ما نقل إلينا عن طريق مؤرخي تاريخ «نجد» عن تلك الفترة الدرامية أنهم واصلوا المسير حتى جبل «شمر» وهناك كان «عبد الله بن رشيد» الصديق القديم للأمير «فيصل» ومرافقه الحميم في استقبالهم. وضع «عبد الله بن رشيد» كل إمكاناته وكل قواته تحت تصرف الأمير «فيصل» وجماعته دون أي تحفظ، وأرسلت الرسل إلى كافة أرجاء المناطق وإلى كافة قادة القبائل لتقديم ولائهم ودعمهم للأمير «فيصل». أعرب كافة أصدقاء «عبد الله بن ثنيان» عن ضرورة إعلان الجهاد المقدس، كما نصحوه بحشد كل القوات لمجابهة الخطر القادم على أمل أن يردع تولي الأمير «فيصل» لمقعد القيادة الناس عن إلقاء أنفسهم في أحضان منافسيه. وبعد فترة وجيزة تبين أن الأمير «فيصل» كان قادراً على حشد العديد من الناس لمناصرة قضيته، فأرسل «ابن ثنيان» أمير «ضرما» إلى الأمير «فيصل» وأرسل معه الهدايا. وفي نفس الوقت تحرك بقواته عن طريق «الخفس» باتجاه «سدير» وأجرى اتصالاً من هناك مع أمير «بريدة» الذي توقع أن يكون من أكثر المتحمسين لمناصرته نظراً للعداء الشديد القائم بينه وبين «ابن رشيد»، وفي طريق عودته إلى «بريدة» تلقى تأكيدات من أمير «بريدة» أكد له فيها على ولائه ودعمه له. أحدث هذا التطور بعض الإرباك في

منطقة «عنيزة» حيث جمع حاكمها «عبد الله بن سليمان بن زامل» وجهاء المنطقة لينظر ويتدارس معهم في أمر الإجراء المناسب الذي يجب اتخاذه. وكان قرارهم بالإجماع تقديم الدعم للأمير «فيصل»، وأرسلوا، «عبدالعزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) ليبلغه بذلك وليوجه إليه الدعوة بالقدوم إلى «عنيرة». كان فيصل في تلك الأثناء قد توجه جنوباً وتمكن «عبدالعزيز» من مقابلته في منطقة «الكهفة» ومن هناك توجها إلى «عنيزة».

سار «جلوي» (أخو الأمير «فيصل») و «عبد الله بن رشيد» بقوة شكلاها من قوة الأمير «فيصل» وتوجها لزيارة زعيم قبيلة «مطير» المدعو «محمد بن فيصل الدويش» في معسكره بسهل «الحمادة» وعندما سمع «ابن ثنيان» بخطط الأعداء غادر «بريدة» وانطلق مسرعاً لينصب كميناً للأمير «فيصل» على الطريق المؤدي إلى «عنيزة»، لكن الأمير «فيصل» كان قد سلك طريق موارب آخر، وكانت الأهازيج والأغاني التي استقبل بها الأمير «فيصل» في «عنيزة» أول الأخبار التي وصلت إلى «ابن ثنيان» بخصوص وصول «فيصل» إلى هناك. وبسبب خيبة أمله في فقدان تلك الفرصة، عاد «ابن ثنيان» إلى «بريدة» ليجد أن أعداداً كبيرة من أتباعه وخاصته من منطقة «سدير» والمناطق الأخرى، قد انشقت عنه والتحقت بالأمير فيصل، وعليه أمر قواته بالاستعداد للتحرك باتجاه «عنيزة»، لكنه ولسبب ما وجه سير القوات باتجاه «المذنب» ومن هناك تابع المسير بصعوبة تحسباً من أي هجوم يمكن أن يشنه عليه «جلوي» ورجال قبائل «مطير». أدركت قوات «جلوي ومطير» مؤخرة قوات «ابن ثنيان» الشاردة في منطقة «الوشم»، وفي الطريق

فر العديد من رجال قوات «ابن ثنيان» وعادوا إلى ديارهم، واستمرت قوات «جلوي» وحلفاؤه من رجال قبيلة «مطير» بالتقدم شرقاً للاستيلاء على واحات «ثادق» الرئيسية الهامة والممتدة على طول الطريق من الرياض حتى «سدير». ولأن «عبد الله بن إبراهيم» كان في مهمة لاحتلال «سدير» باسم «فيصل، وصلت إلى «فيصل» رسائل مفادها أن الطريق أصبح سالكاً وممهداً لتقدم قواته نحو الرياض.

كان «ابن ثنيان» في تلك الفترة مشغولاً في أعداد ترتيبات للدفاع عن الرياض، وشرع في توزيع الحاميات والمقاتلين على مختلف الأبراج والقلاع الواقعة على السور الدائري. تحرك «فيصل» في شهر نيسان من «عنيزة» إلى «شقراء» ومن هناك توجه إلى «حريملاء» حيث انضمت إليه قوات «جلوي» جاء إليه زعماء منطقة «سدير» ليقدموا له يمين الولاء. مكث الأمير «فيصل» هناك لفترة من الزمن أرسل خلالها رسالة إلى «عبد الله بن ثنيان» اقترح عليه فيها تسوية سلمية للنزاع الدائر بينهما لتجنب سفك وإراقة الدماء، وعرض عليه أيضاً شروطاً سخية لتحقيق تلك التسوية، وعرض عليه أنه سيحظى بحصانة تامة وأن بإمكانه أن يتوجه برجاله وممتلكاته وأسلحته إلى أي مكان يختاره في «نجد» أو في أية منطقة أخرى دون أي تحرش أو اعتداء يمكن أن يقع عليه. إضافة إلى ذلك وعده بأن يحصل على هبة مالية سنوية تكفي لتغطية كافة احتياجاته. رفض «ابن ثنيان» هذ العرض وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً محتوماً، وعليه تحرك «فيصل» بقواته نحو «سدوس» ومن هناك بعث برسالة إلى أمير «منفوحة» أصر فيها على ضرورة أن يقدم أمير

«منفوحة» دعمه لقوات الأمير «فيصل»، واقترح في تلك الرسالة أن تكون «منفوحة» قاعدة العمليات العسكرية كما كانت أثناء الحصار الذي فرضه «فيصل» على «خالد» قبل خمس سنوات.

وبعد بضعة أيام من وصوله إلى هناك، امتنع الأمير «فيصل» عن القيام بأي أعمال عدائية ضد الرياض، وأجرى خلال تلك الأيام اتصالات سرية مع كبار قادة الأهالي في الرياض، وفي الثاني والعشرين من شهر آيار أرسل «جلوي» على رأس قوة صغيرة من المقاتلين البواسل وأمره بالدخول إلى المدينة عن طريق بوابة «دخنة» التي كان من المقرر أن يفتحها لهم بعض المتحالفين مع الأمير «فيصل». لكن حدث في تلك الأثناء أن كان «ابن ثنيان» يقوم بجولة تفقد في المدينة، وفي تلك الأثناء تلقى أخبار دخول قوات «جلوي» إليها. عندها عاد مسرعاً إلى القلعة لكن قوات «جلوي» كانت قد تمكنت من احتلال العديد من المنازل المجاورة وتمركزت فيها، وكان بإمكان مدفعية «ابن ثنيان» في القلعة أن تنال من تلك المنازل، لكن الأمير «فيصل» دخل بنفسه على رأس قوة من رجاله إلى المدينة، ودارت الاشتباكات بين الطرفين لمدة ثلاثة أسابيع على الشكل المتقطع المعتاد. علمت قوات «فيصل» في تلك الأثناء أن هناك خطة للنيل من حياة الأمير «فيصل» فتمكنت من إحباطها وإفشالها.

وفي الحادي عشر من شهر تموز أرسل «عبد الله بن ثنيان» رسالة إلى «عبيد ابن رشيد» يقترح فيها أن يقوم بالتوسط للتوصل إلى تسوية سلمية، لكن عندما قدم «عبيد» إلى «عبد الله بن ثنيان» لمناقشة تلك المسألة معه اتضح أن ليس هناك أساس للتوصل لأي اتفاق، الأمر الذي أسفر عن توقف المفاوضات.

وبعد مضي يوم أو يومين غادر «ابن ثنيان» القلعة لأسباب لم تعرف، وفي الطريق تمكنت قوات «فيصل» من التعرف عليه واعتقاله، وأجبر على المثول أمام الأمير فيصل. وصادر «فيصل» كل ممتلكاته وأصدر عفواً عاماً على كل أتباعه وأطلق سراح الذين كان «ابن ثنيان» قد أودعهم في السجن ورد إليهم كل ما كان قد أخذ من ممتلكاتهم. هرع أهالي الرياض ليباركوا لـ «فيصل» بعودته إلى الحكم بعد انقطاع دام لأقل من خمس سنوات. وأول عمل قام به «فيصل» كان إعادة النظر في الترتيبات التي فرضها «ابن ثنيان» على «الأحساء» وعلى «وادي الدواسر»، إذ عين «عبد الله بن بتال المطيري» أميراً على «الأحساء»، وعين «ابن عثيمين» أميراً على «وادي الدواسر»، وأمر بإعطاء إجازة لكافة القوات التي ساعدته في استرداد الحكم وسمح لهم بالذهاب إلى أسرهم. وانتهت مشكلة «عبد الله بن ثنيان» بموته في الثالث عشر من تموز من عام ١٨٤٣. أدى «فيصل» بنفسه صلاة الميت على جثمان «عبد الله بن ثنيان» وسار في جنازته إلى المقبرة لدفنه.

رحبت السماء بعودة الأمير «فيصل» إلى «نجد»، وذلك بظهور مذنب في السماء من جهة الغرب، وفي اليوم الثاني من شهر آذار عام ١٨٤٣. وبقي ذلك المذنب ظاهراً للعيان حتى نهاية ذلك الشهر. يقارن المؤرخ «ابن بشر» ظهور هذا المذنب بظاهرة مشابهة حدثت في السادس عشر من شهر كانون أول من عام ١٦١٨، وصادق على صحة ذلك الشيخ «مرعي بن يوسف الحنبلي»، علماً بأن تلك الظاهرة لم تكن متزامنة مع أي حدث بارز يتعلق بنشاطات الإنسان على الأرض. تناول المؤرخ «ابن بشر» السنوات العشر الأولى فقط من الفترة الثانية من حكم الأمير «فيصل»، إذ اختتم سرد

الأحداث التي كان في صددها حتى شهر آيار عام ١٨٥٤ دون أن يذكر سبب توقفه عند ذلك التاريخ، والجدير بالذكر أن «ابن بشر» عاش حتى تاريخ الخامس عشر من شهر آب عام ١٨٧٣، ولا بد أنه كان شاهد عيان لكافة الأحداث التي وقعت خلال فترة حكم الأمير «فيصل»، كما شهد الأمور التي حدثت على أعقابها مباشرة. ولا يسعنا إلا أن نأسف لتوقفه عند الأحداث التي حصلت خلال فترة حكم الأمير «فيصل».

وللحصول على معلومات تتعلق بتلك الأمور (أى اعتباراً من عام ١٨٥١ وما بعد) كان علينا أن نعتمد على المحلل التاريخي المدعو «إبراهيم بن صالح ابن إبراهيم بن عيسى» الذي ولد عام ١٨٥٤ في قرية «أشيقر» بإقليم «الوشم»، وفيما يتعلق بروايته وسرده التاريخي جاءت الاعتبارات السياسية لتقطع تسلسل سرد أحداث روايته حتى من النقطة التي بدأ عندها، ولتعكس معرفته الشخصية بالأحداث وحمكمه المتعقل عليها.

يمكن النظر إلى الفترة الثانية من عهد حكم «فيصل» ومن أوجه عدة على أنها عتبة أو بدء للتاريخ الحديث أو المعاصر للصحراء العربية. وحسب ما هو متوفر انسحبت كلياً إلى مناطق «الحجاز» خلال فترة حكم «ابن ثنيان» القصيرة، لذلك لم تكن هناك أية قوى أحنبية كان يتوجب على الأمير «فيصل» التعامل معها. سرعان ما استعادت «نجد» صبغة الحياة الطبيعية الخاصة بها، وكانت تلك مرادفة لحياة الأمن والرخاء والانسجام التي كان نعيمها شيئا نادراً أو منقطعا حتى عهد قريب، ولم يشر إليها الأمير «فيصل» إلا نادراً في قصائده الرعوية الطنانة الطويلة التي تلاها على مسامع أتباعه

بعد أن اعتلى سدة الحكم. كانت تلك القصائد في مضمونها دينية، وهي دون شك كانت ثمرة تأملاته الطويلة خلال فترة سجنه في مصر، حيث كان عزاؤه الوحيد في محنته تلك ثقته الكبيرة والأكيدة بالله سبحانه وتعالى. أحب كتاباته تلك أحب أن يلفت نظر القراء إلى أهمية أن الورع ومخافة الله هما من الركائز الأساسية للحياة السعيدة، وإن الأساس في الإيمان هو الاعتقاد بوحدانية الخالق التي منها تنبثق مستوجبات الصلاة، في حين أن الزكاة هي رافد طبيعي من مستلزمات الصلاة بما فيها دفع ما يتوجب على الفرد المؤمن لخزينة الدولة، كما أن من واجب كل مسلم مؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. هذا وضمن كتاباته بعض المتقطفات من مصار قديمة غير محددة مفادها أن ركائز الإسلام هي عشرة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، وأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله والتكافل والتضامن بين المسلمين، وإطاعة الحاكم، والإحسان للفقراء والمحتاجين... وهذه النقطة الأخيرة أضافها إلى القائمة بعد تفكير لاحق. ناشد أبناء جلدته أن لا يسيروا في خطى الأشرار، وأن يرجو الخلاص والرحمة من الله لأن الأماني في هذه الدنيا ما هي إلا رأسمال خاسر. هذا وكان الأمير «فيصل» يأمر الحكام والقضاة بقراءة هذه الوصايا في الخطب بالمساجد، وأمرهم أيضاً أن يعاودوا قراءتها مرة كل شهرين. وإضافة إلى هذه النصائح والحرص الذي كان يتوخاه في اختيار مسؤولين ترقى سمعتهم فوق الشك والطعن ليتولوا المناصب في مختلف مناطق البلاد، يمكن القول

إنه لم تكن لديه أية آليات محددة يستخدمها للربط بين الحماس الديني وبين النشاطات الدنيوية للدولة كما فعل أسلافه وأجداده ضمن أطر منظومة الدعوة الدينية. كانت الترتيبات العسكرية التي قام بها ترتيبات إدارية، كما أن كافة الأطراف المعنية بالأمور العسكرية كانت متفهمة لما يجري، وكان يتم حشد القوات والجند بناءً على سجلات توضح التزامات كل بلدة وقرية وقبيلة بواجبها في تقديم الرجال والجمال والخيول التي تتطلبها مختلف أنواع الاستعدادات العسكرية. ومن حيث المبدأ كانت الدولة هي المسؤولة عن توفير السلاح والذخيرة عند الحاجة، وكان يتوجب على القوات التي يتم استدعائها أن تحضر معها الجمال (وكانت النسبة في بعض الحالات تستدعي أن يقدم كل رجلين جملاً واحداً) وإلا توجب عليها أن تشارك سيراً على الأقدام. وكانت الدولة بدورها تقدم للفرسان تشجيعات وإغراءات خاصة، وفي الحقيقة كان يدفع نصيب معين لكل رجل محارب من الأشياء التي يفوز بها خلال الحروب، بمعنى أن خمس غنائم الحرب كانت تخصص لخزينة الدولة ويوزع الباقي على القوات بنسبة حصة لكل مقاتل على جمل أو مقاتل من المشاة، وتدفع حصتين لكل فارس. اقتضى برنامج الحياة الطبيعية في «نجد» إقامة معسكر موسمي خلال فترة الشتاء أو فترة الربيع من كل عام، كما اقتضت الخلود إلى فترة راحة خلال أشهر الصيف، علماً بأننا نتفاجأ أحياناً لكثرة النشاطات العسكرية التي كانت تمتد حتى فصل الصيف الحار أو إنها كانت تبدأ في أحوال غير مواتية.

أما بخصوص حال الحملات التأديبية ضد القبائل فيعود سبب القيام بها

في أوقات معينة إلى أن القبائل كانت تنتشر - وخاصة في مواسم الأمطار الخيرة - في مناطق مختلفة من الصحراء، لكنها كانت في فصل الصيف تتجمع بالقرب من الآبار لتوفر مياه الشرب إلى جمالها وقطعانها التي كانت بحاجة إلى الماء بشكل متكرر. أما بخصوص العمليات العسكرية التي كانوا يشنونها ضد الأتراك (العثمانيين)، كانوا يأخذون تأثير عوامل الطقس بعين الاعتبار، وكانوا يعتبرون حرارة الطقس عامل يخدم ويسهل حملاتهم العسكرية.

يمكن أن يكون تاريخ أحداث السنوات الثمانية الأولى من الفترة الثانية لحكم الأمير «فيصل» ملخص في سلسلة من الأحداث التي تعطي صورة أكثر شمولية عن الوضع في «نجد» خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر. فقد تناول المؤرخ «ابن بشر» بعض هذه الأحداث بالإسهاب والتفصيل، وكان ينظر إليها من وجهة نظر شاهد عيان. لكن يمكن القول في المقام الأول إن الأمير «فيصل» انشغل بشكل طفيف بالتأثيرات الخارجية على حكمه. كانت الحالة الوحيدة التي تعرض فيها لمحاولة اعتداء من طرف أجنبي في شهر نيسان من عام ١٨٤٧ هي عندما سار «محمد بن عون» شريف مكة بقواته مستهدفاً «القصيم». ويعود سبب تلك الحملة إلى أن جماعة من إقليم «القصيم» (رغبت طوعاً أن تعيش في الحجاز) اقترحت على الشريف «ابن عون» فكرة أنه إذا هاجم «نجد» لصالح «خالد بن سعود» الذي كان في ذلك الوقت لاجئاً أيضاً في مكة، فإن الأمير «فيصل» لن يقاوم احتلاله لمناطق «نجد» أو أنه على الأقل لن يجد الدعم الكافي من القبائل المحلية لمقاومة قوات الشريف بشكل جدي. وسارت الأمور في البداية على

الأقل لصالح القوات الغازية التي كان يرافقها «خالد» ومعه فرقة من القوات التركية، حيث استسلم أهالي «القصيم» إلى الشريف دون أن يبدوا أية مقاومة. والجدير بالذكر أن هؤلاء الأهالي كانوا قد اتخذوا موقفاً حيادياً حيال فكرة الاستقلال، لكن تحت شكل ما من أشكال الحماية التركية. وكانوا يكنون وبشكل خاص الضغينة لـ «عبد الله بن رشيد» الذي كان دعمه وولاؤه للأمير «فيصل» مكشوفاً وشائناً حسب رأيهم. علاوة على ذلك سارع زعماء القبائل ومن بينهم قبيلة «مطير» إلى الارتماء في أحضان قوات الشريف الغازية.

إلا أن ردة فعل الأمير فيصل حيال هذه التطورات جاءت أبعد مما تكهن به أعوان الشريف «محمد بن عون»: فأرسل ابنه «عبد الله» على رأس قوة نظمها على عجل من أهالي المناطق الوسطى والجنوبية إلى منطقة «المجمعة» ليحمي مناطق «سدير» و «طويق» ضد أي تقدم يمكن أن تقوم به قوات العدو. وعندما علم الشريف «محمد بن عون» بذلك أرسل رسولاً إلى الأمير «فيصل» ليؤكد له على حسن نواياه، فرد الأمير «فيصل» على الشريف بالطريقة والأسلوب التقليديين بأن أرسل إليه أخاه «عبد الله بن تركي» وحمله بالهدايا، لكن «ابن عون» رفض الهدايا بناءً على نصيحة أسداها إليه أشخاص مغرضون كانت رغبتهم الجامحة إذكاء نار الصراع بين الطرفين. قد قدم الشريف «ابن عون» هدايا شخصية قيمة لـ «عبد الله بن تركي» وطلب منه أن يخبر أخاه بأن عليه أن يأتي إليه شخصياً.

وبعد أن قطع «عبد الله بن تركي» مسافة وأصبح في مأمن من مطاردة قوات الشريف له، أعاد الهدايا إلى الشريف «ابن عون»، وأرسل إليه رسالة

نجد. وعندما وصل إلى «شقراء» أرسل ليعلم الأمير «فيصل» بما جرى معه، وبقي هناك بانتظار الأوامر من «فيصل». فسر الأمير «فيصل» سلوك الشريف «ابن عون» على أنه إعلان حرب، ولذلك انطلق إلى «شقراء» على رأس قوة كان قد جمعها أثناء وجوده في الرياض تحسباً للحاجة، وبعث بتعليماته إلى ابنه في «المجمعة» وأمره بالتوجه بقواته إلى نقطة التجمع. تنبه الشريف «ابن عون» لخطورة الموقف وأرسل رسولاً إلى الأمير «فيصل» الذي كان في تلك الأثناء قد وصل إلى قرية «شمس» على مشارف مقاطعة «الوشم ليبلغه باقتراحه في عقد سلام ومصالحة. وافق فيصل على هذا الطرح بشرط أن يتخلى الشريف «ابن عون» عن أي مطلب في الحكم بمنطقة «القصيم» أو في مناطق قبائل «نجد»، وكمبادرة لتلطيف الجو بين الطرفين أرسل الأمير «فيصل» إلى الشريف بعض الهدايا القيمة إضافة إلى مبلغ كبير من المال لكن الشريف «ابن عون» قدمه إلى الأتراك على أنه جزية جمعها من بعض أتباعه. على أي حال رحل الشريف «ابن عون» بقواته عن «القصيم» في شهرحزيران، وأثناء رحيله أغار على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «حيد»، وعلى ما يبدو سمح للجنود الأتراك بأن يأخذوا معهم بعض الناس من أصل تركي. كان الأمير «فيصل» في الوقت المناسب يشن غارة على تجمع لجماعة «شمر» وعلى بعض البدو الذين كانوا حول موارد مياه «البنة» بالقرب من «القويعية»، وعاد «فيصل» بعدها إلى ديرته وأعطى الجنود إجازة للراحة في بيوتهم.

حدثت المجابهة الوحيدة الثانية مع طرف أجنبي خلال السنوات الأولى من حكم الأمير «فيصل» إذ اشتملت على أعمال عدائية تمت على نطاق

محدود بينه وبين «آل خليفة» حكام البحرين. ففي عام ١٨٤٣ قاد الأمير «فيصل» قواته باتجاه شواطئ الخليج وبالتحديد في جوار «القطيف»، وشن غارات ناجحة على قبائل «المناصير» و «المرة» و «بني هاجر»، وبعدها التفت إلى «الدمام» التي كانت تحت سيطرة جماعات بحرينية بزعامة «عبد الله بن خليفة» وهو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في البحرين. وبعد حصار دام لأقل من أسبوع استسلم المدافعون عن «الدمام» بدون أية شروط واستولى الأمير «فيصل» على كافة المؤن والذخائر التي كانت في القلعة، ووضع فيها حامية تقدر بمائة رجل وزودها بكميات كبيرة من العتاد والمؤن لمقاومة أية محاولة يمكن أن يقوم بها البحرينيون لاستعادة القلعة. في تلك الأثناء دارت معركة بين جماعة «العجمان» و«سبيع» من ناحية وبين جماعة «مطير» تحت زعامة «محمد الدويش» من ناحية أخرى. تمكنت جماعة «العجمان» و«سبيع» من إلحاق الهزيمة المنكرة بجماعة «محمد الدويش» الذي لجأ إلى «الدمام» ليطلب من الأمير «فيصل» أن يعوضه عن الخسائر التي تكبدتها قواته علماً بأن جماعة «مطير» كانت هي المعتدية باعتبار أن الاشتباك حدث في أراضي قبيلة «بني خالد». وعلى أي حال وبدافع الجود والكرم قام الأمير «فيصل» بتعويض «محمد الدويش» عن جزء كبير من خسارته وخسارة رجاله، ودفع له التعويضات من ممتلكات الدولة التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً من قلعة «الدمام». سار الأمير «فيصل» بعد ذلك إلى «الهفوف» وجلس فيها فترة طويلة وكانت الوفود خلال تلك الفترة تأتي إليه من أماكن بعيدة وصلت حتى من منطقة عُمان، وأثناء إقامته هناك قام بترتيبات لإرساء إدارة ناجحة في منطقة الخليج، إذ عين «أحمد السديري» على إمارة «الأحساء» كما عين

«عبد الله بن سعد المداوي» حاكماً على «القطيف».

ومع بداية صيف عام ١٨٤٤ وإثر عودة «فيصل» إلى الرياض قام الأمير «فيصل» بإرسال حملة إلى «عُمان» تحت قيادة «عبد الله بن بتال المطيري» الذي رافقه فيها الشيخ «ناصر بن علي العريني» الذي كان في تلك الفترة قد عين قاض على «البريمي».

وفي العام التالي تسلم «عبد الله المطيري» قيادة القوات الإقليمية في منطقة «الأحساء» التي كانت تحت إمرة «أحمد السديري». وعند نهاية عام ١٨٤٧ أرسل الأمير «فيصل» حملة أخرى إلى «عُمان» بقيادة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة») وزوده بتعليمات مفادها أن عليه أن يرسخ أقدامه في منطقة البريمي. وأرسل معه حامية عسكرية كانت مرابطة في منطقة «الأحساء». ومباشرة بعد تلك المرحلة اندلعت المشكلات في تلك المنطقة بسبب المكائد بين زعماء القبائل المحليين، وهنا وجد الأمير «فيصل» نفسه مضطراً لأن يرسل حملة أخرى قادها «سعد بن مطلق المطيري» وهو ابن عم «عبد الله بن بتال». قام رجل يدعى «ابن طحنون» وكان الرأس المدبر لتعكير الأمن هناك بأن حشد مؤيديه وخطط لنصب كمين لتلك الحملة وهي في الطريق إلى هناك؛ فما كان من بعض الزعماء والموالين للأمير «فيصل» هنا مثل سلطان بن حثد حاكم الشارقة ومكتوم من دبي إلا أن أرسلوا رسولاً إلى قائد الحملة لينبهوه عن أمر ذلك الكمين، ولسوء الحظ لم يتمكن ذلك الرسول من لقاء تلك القافلة فوقعت وبشكل مباشر في شباك الكمين، وعلى الفور نشبت معركة ضروس بين الطرفين وتمكن رجال «ابن طحنون» من إلحاق هزيمة نكراء برجال تلك القافلة، ولقي عدد منهم مسيره من هناك

حتى «الشارقة». وبعد هذه المعركة التي أطلق عليها اسم «معركة العنيقة أو كثبان الرمال»، خطط «سعد المطيري» وأتباعه لشن هجوم على منطقة البريمي، وتمكنوا من الاستيلاء على قلعة «ابن طحنون» وعلى كافة المواقع الرئيسية في تلك الواحة، واستعادوا كل الغنائم التي استولى عليها «ابن طحنون» بسبب ذلك الكمين. وكان لا بد من معاقبة «سعد المطيري» على ارتكابه هذه الكارثة، فقام الأمير «فيصل» في شهر تشرين ثاني من عام ١٨٤٩ بإعفائه من منصبه كقائد للقوات.

سيتضح فيما بعد أن مناطق ساحل الخليج استحوذت خلال هذه السنوات على الجزء الكبير من تفكير الأمير «فيصل»، إذ كان هناك حاجة ماسة للتنبه من احتمال قيام بعض العناصر بالإخلال بالأمن بدءًا من مناطق «البريمي» في الجنوب إلى مناطق «القطيف وبني خالد» في الشمال. اقترفت جماعة «العجمان» في نهاية عام ١٨٤٢ بقيادة «فلاح بن حثلين» عملاً مروّعاً بأن هاجمت قافلة للحجاج كانت مارة بإقليم «الأحساء» ومتوجهة إلى مكة، على الرغم من أن القافلة كانت برفقة «حزام بن حثلين» بصفته دليلاً لها وضامن لسلامتها، وبالتالي هو أحد أبناء أسرة «فلاح» نفسه.

توجه الأمير «فيصل» بنفسه إلى «حريملاء» التي كان من المقرر أن تكون مقر تجمع قواته بما فيها قوة رجال «حائل» التي كانت تحت إمرة «متعب بن عبد الله بن رشيد» الابن الثاني للصديق القديم للأمير «فيصل». وأثناء مسيرة عبر منطقة «القضيمة» قرر «فيصل» أن يقيم مقراً لقيادة قواته في منطقة «مجزل» على الطرف الشرقي من منطقة «طويق»، وهناك قدمت إليه جماعات كبيرة من قبيلة «العجمان» المعتدية وأعلنت عن رغبتها في

الانشقاق كلياً عن جماعة «فلاح بن حثلين»، وعليه منحهم «فيصل» السلامة شريطة أن يجلوا كلياً عن مناطق قبيلة «بني خالد» التي كان «ابن حثلين» قد تمركز فيها استعداداً للقتال. صدرت الأوامر إلى جماعة «مطير» بقيادة «حميدي بن فيصل الدويش» لاحتلال منخفض «السر»، وهرب «فلاح» لينضم إلى زعيم قبيلة قحطان «محمد بن هادي بن قزملة» في معسكره بمنطقة «خفس»، لكنه عندما سمع بقدوم قوات الأمير «فيصل» لمهاجمته فر إلى «مليبة» التابعة لقبيلة «مطير» وطلب اللجوء إليهم والدعم منهم، إلا أن «منديل بن غنيمان» زعيم تلك الجماعة رفض طلبه وأرسل يستشير رئيسه «حميدي الدويش» بذلك الخصوص، فما كان من «حميدي» إلا أن توجه شخصياً إلى هناك ووضع «فلاح» تحت الحماية لحين انتهاء المفاوضات مع الأمير «فيصل» بخصوص مستقبله. أصر «فيصل» على أن يعاقب «فلاح» على الغارة التي شنها على قافلة الحجاج فأرسل مع «حميدي» قوة لاعتقاله، وفعلاً نقل «فلاح» كأسير إلى «الهفوف» وتم تسليمه إلى «أحمد السديري» الذي أمر بقتله. هذا وتم اعتقال كبار الذين شاركوا معه في الغارة على تلك القافلة وفي اعتداءات أخرى مثل قطع الطرق والسرقات. وكان من المعتقلين «مشعان بن هذال» و «هادي بن مذواد» وأعدموا جميعاً، واستسلمت القبيلة بأسرها إلى الأمير «فيصل» وأجبرت على إعادة كل الغنائم التي سلبتها. وبالمناسبة يشير «ابن بشر» إلى أنه حظي شخصياً بشرف المثول أمام الأمير «فيصل في معسكره في «مجزل» أثناء عمليات استرداد الغنائم. وفي إشارته تلك يقدم لنا «ابن بشر» صورة حية عن الأعمال الروتينية لمجلس الأمير «فيصل» من أداء مستمر للصلاة

والخطب والمواعظ التي كان الهدف منها إراحة أعصاب المحاربين.

ومع وصول الحملة التأديبية هذه إلى نهاية ناجحة في أواخر عام ١٨٤٦، أصبحت الأجواء الآن مهيئة للشروع في محاولة جادة لتسوية الحسابات مع حكام البحرين، لأن نشاطاتهم وادعاءاتهم بحقهم في حكم مناطق مختلفة ممتدة إلى داخل الصحراء العربية (والتي يمكن أن يحققوها رغم أنها غير معقولة) أصبحت مصدر إزعاج واضطرابات في المنطقة. وبسبب الاحتلال الأجنبي السابق لمناطق مختلفة من الصحراء العربية، لم يجد الأمير «فيصل» نفسه مستعداً للاهتمام مرة أخرى بالمناطق الشرقية إلا في أواخر عام ١٨٥٠. وفي ذلك العام استدعى الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» الذي كان في «شقراء» يراقب تطور الأوضاع في «القصيم»، وطلب منه أن ينضم إلى قواته في الناحية الغربية من صحراء الدهناء. وهناك التقت تجمعت القوات وقادها الأمير «فيصل» إلى إقليم «الأحساء» وعرج في الطريق على موارد مياه النحيبية» وعسكر بقواته في «الحليوين» الواقعة بين الواحة الرئيسية هناك و«القطيف». وهناك انضمت إلى قواته جماعات من «الأحساء والقطيف» وفرق من قبائل «بني خالد وبني هاجر والمرة» ومقاتلين من فخذ قبيلة «العجمان» الموالية له بزعامة «حزام بن حثلين». كانت نية الأمير «فيصل» من حيث المبدأ معالجة الوضع في البحرين بسبب المشكلات الداخلية في تلك الجزر وبسبب عدم دفعهم الزكاة المفروضة عليهم. ورفض الأمير «فيصل» المحاولة التي قام بها حكام «آل خليفة» والتي استهدفت تهدئة غضبه، وسار بقواته باتجاه شبه جزيرة قطر وأقام معسكره هناك في منطقة يقال لها «عريق السلوي»، وكان يهدف احتلال قلعة «البدع» الواقعة في

ميناء «الدوحة» والتي كان يسيطر عليها أخو شيخ البحرين المدعو «علي بن خليفة»، وكان شيخ البحرين قد زود (وبسخاء) الحامية في تلك القلعة بالمؤن والذخيرة لمواجهة أية مشكلة. أمر «فيصل» ابنه «عبد الله» بأن يضرب حصاراً حول القلعة، لكن «علي بن خليفة» سبقه إلى استخدام القوارب الشراعية التي كانت تحت تصرفه في الميناء. وبادر بالهرب من الحامية تاركا الأهالي يواجهون الحصار. استسلم الأهالي في بلدة «الدوحة» لـ «عبد الله» الذي استولى بقليل من الجهد على أكبر مخازن المؤن فيها، ناهيك عن طرد وترحيل جماعة «آل خليفة» من آخر معقل لهم على الساحل. لم يكتف الأمير «فيصل» بذلك الإنجاز، بل تحرك بقواته باتجاه آبار «المسيمر» القريبة من الساحل، وهناك وجد ما لا يقل عن ثلاثمائة قارب فقام بتجهيزها استعداداً لهجوم بحري على البحرين بعينها. وضع الأمير «فيصل» تلك القوة تحت إمرة اثنين من أبناء «عبد الله بن خليفة» المنفيان عن البحرين واللذان كان برفقته في تلك الحملة. ناشد زعيم البحرين أمير أبو ظبي «سعيد بن طحنون» أن يقدم له المساعدة (سبق أن أشرنا إليه كبطل لمعركة «عنيف»)، وسرعان ما لبى «ابن طحنون» المناشدة وتوجه بقوة بحرية كبيرة للتدخل في ذلك الصراع، وعندما اقترب من قطر بدا وكأنه فقد الشجاعة على الاستمرار في التقدم، وأرسل رسالة إلى الأمير «فيصل» اقترح فيها إجراء محادثات للتوصل إلى سلام دائم بينه وبين عائلة «آل خليفة» أصر الأمير «فيصل» على أن يمثل «ابن طحنون» بين يديه شخصياً، وفعلاً تم ذلك بضمانات شخصية قدمها «أحمد السديري» وتعهد بموجبها بأن يكفل سلامته، وبعد محادثات تمت بين الطرفين وافق الأمير فيصل على عقد سلام

مع حكام البحرين شريطة أن يدفعوا الجزية المترتبة عليهم، علماً بأنه لم يشدد كثيراً على وجوب أن يدفعوا له ضمانات بعدم الاعتداء وتعويضات عن المهام والاستعدادات التي قام بها. وهكذا تمت تسوية الأمور بشكل يرضي الجميع دون إراقة قطرة دم واحدة من بدء الحملة حتى نهايتها.

صادفت عودة «فيصل» عبر كثبان الصحراء صيفاً إما في شهر حزيران أو شهر تموز أو تموز من عام ١٨٥١، وكان من الممكن أن يموت العديد من أفراد جيشه بسبب حرارة الشمس لولا أن المطر وبشكل غير اعتيادي هطل بغزارة وسارت على إثره السيول في كافة أودية «الأحساء». ومن بين الهواجس التي شغلت فكر الأمير «فيصل» وأخرت إتمام التسوية السليمة مع حكام البحرين، هو الوضع في «القصيم» الذي ظهر إثر الغزو الفاشل الذي قام به الشريف «ابن عون» عام ١٨٤٧. فسامح الأمير «فيصل» زعماء منطقة «القصيم» وغفر لهم الدور الذي قام به في ذلك الحدث، إلا أنه كانت لديه بعض الشكوك بما يضمره بعضهم من عدم الولاء له. أما بخصوص موضوع أمير «عنيزة» (إبراهيم بن سليمان بن زامل) فاستغلت جماعات معادية الشكوك لدى الأمير «فيصل» وقامت بأعمال عدائية في نفس المدينة نجم عنها أن قرر الأمير «فيصل» عزل الأمير «إبراهيم بن زامل» وعين مكانه «ناصر بن عبد الرحمن السحيمي».

عين الحاكم الجديد أخاه «مطلق الضرير» قائداً على القلعة الكبيرة، ووضع فيها حامية من الجنود تحت إمرته، لكن الأهالي قبلوا في الظاهر على الأقل الحاكم الجديد. لم يكن ابن أخو الأمير «إبراهيم بن زامل» والمدعو «عبد الله بن يحيى بن سليمان» ورفاقه ليذعنوا لذلك الاستخفاف بأسرتهم،

ففي إحدى الليالي قام أتباعهم بالهجوم على «ناصر السحيمي» وأطلقوا عليه ثلاثة عيارات نارية أصابته إحداها بجرح بليغ. أدرك «عبد الله بن يحيى» أن الحراسة حول القلعة كانت مشددة للغاية، فهرب إلى «بريدة» وطلب حماية أميرها «عبد العزيز آل محمد»، الذي أرسل بدوره إلى الأمير «فيصل» يطلعه على ذلك التطور، وحاول تبرير الجريمة على أنها استجابة للتصرف الاستفزازي الذي قامت به جماعة «السحيمي». على أي حال أصر الأمير «فيصل» على أن يرسل «عبد الله» إلى الرياض، وفعلاً بقي هناك قيد انتهاء التحقيق في تلك المسألة.

حدث أيضاً أن قام أتباع «ضرير» بأن أنزلوا ضرباً مبرحاً بأحد أتباع عائلة «الزامل» ومات على إثره. وبعد أن شُفي «ناصر» من إصابته أقدم على قتل «إبراهيم بن سليمان بن زامل»، وتمكن أخو «إبراهيم» من الفرار إلى «المذنب». وحيال هذا الحدث أصدر الأمير «فيصل» أمراً يقضي بأن يحضر «السحيمي» إلى الرياض ويحاكم وفق مقتضيات الشرع وأمرته المحكمة بدفع الفدية المتبعة في حالات القتل وجرح الأشخاص. خشي الأمير «فيصل» أن تؤدي الأعمال العدائية بين الإخوة المسلمين إلى مزيد من التعقيدات، وربما إلى مناشدة شريف مكة للتدخل، فما كان منه إلا أن أقال «السحيمي» من منصبه وأرسل «عبد الله المداوي» (حاكم «القطيف» السابق) ليتسلم زمام الحكم في «عنيزة».

بعد أن رفض «مطلق الضرير» أن يجلي قواته عن القلعة، تقدم «عبد الله المداوي» بقواته إلى «بريدة»، وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى الرياض قام «السحيمي» بإقناع الأمير «فيصل» بأن الطريقة الوحيدة لإنهاء

المشكلة في «عنيزة» هي أن يعيد تعيينه في منصبه السابق، وأن يدعمه بقوة عسكرية ترابط عند حدود «القصيم» الجنوبية. وصل «السحيمي» إلى «عنيزة» ووجد أن أهاليها كانوا في حالة تمرد وعلى استعداد لتحدي سلطة الأمير «فيصل»، فما كان منه إلا أن وقف إلى جانبهم. لكن كان الجميع يشعرون بأن فرصتهم بالنصر كانت ضئيلة جداً ما لم يقنعوا كافة مناطق الإقليم وبالتحديد أمير بريدة «عبد العزيز الحميد» بالانضمام إلى صفوفهم. وعليه عرضوا على أمير «بريدة» أن يقود قوات المنطقة ووافق «عبد العزيز الحميد» على ذلك شريطة أن لا يفتر الحماس ويتراجع الناس عن موقفهم إذا سبق السيف العذل، وقرروا الثورة ضد الأمير «فيصل».

وعند حوالي بداية شهر نيسان (ابريل) عام ١٨٤٩ تحرك الأمير «فيصل» من الرياض على رأس قواته وكان معه ابناه «عبد الله» و «محمد»، وانضم إليه ابنه الثالث (الذي كان قد عينه أميراً على «الخرج» عام ١٨٤٧) بقواته وهو في الطريق إلى هناك رافقه في تلك الحملة أيضاً أخاه «جلوي» والشيخ «عبداللطيف» (وهو من أحفاد محمد بن عبد الوهاب)، وبقي «عبد الله بن تركي» (أخو الأمير «فيصل») في الرياض بصفته نائباً عنه في الحكم. سار الأمير «فيصل» بقواته على طريق «بنبان» و «الحسي» ومكث فيهما بعض الوقت ليرتب قواته، وهناك وصلته أخبار تؤكد تمرد أهالي «القصيم» عليه. تابع «فيصل» مسيره باتجاه «سدير» و «المجمعة»، وزار في تلك المرحلة من المسير المؤرخ «ابن بشر» الذي في سياق سرده للأحداث بأنه كان من بين الأشخاص العديدين كانوا في خيمة الأمير «فيصل» بعد صلاة العصر، ويضيف بأن أحد المشايخ قام هناك بقراءة مقطع من موضوع التوحيد بقلم

«محمد بن عبد الوهاب» وكان ذلك المقطع يتعلق بموضوع «الكفر».

وفي اليوم التالي سار الأمير «فيصل» بقواته من «المجمعة» باتجاه «الجرنية» في سهل «الحمادة» ومن هناك مر بـ «أشقير» وكذلك بـ «سدير»، وقضى بعض الوقت في «ساجر» قبل أن يتابع مسيره باتجاه «المذنب». وصل المذنب ومنها أرسل بقوة كبيرة تحت إمرة «محمد بن أحمد السديري» (حاكم منطقة «سدير» لاحتلال واحة «العوشزية» التي تقع على مسافة قصيرة من «عنيزة»، بعد ذلك أرسل الأمير «فيصل» إنذاراً إلى أهالي «القصيم» يحذرهم فيه من الاستمرار في تمردهم، فما كان منهم إلا أن أرسلوا إليه أحد وجهاء «بريدة» المدعو «مهنا بن صالح» ليناقش الوضع معه.

بدا «فيصل»متفائلاً من أن الأمور يمكن أن تسوى دون إراقة الدماء، لكن بعد رحيل «مهنا» ليطلع المتردين على ما دار بينه وبين الأمير «فيصل»، وصلت أخبار إلى «فيصل» مفادها أن بدواً من «الدهامشة» من «عنزة» في «الطرفية» الواقعة إلى الشرق من «بريدة» قد احتشدوا، فأرسل الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» على رأس قوة كبيرة للإغارة عليهم، وحذره من عدم التورط في أي أعمال عدائية ضد أي فرد من أهالي «القصيم»، وذلك لأنه سبق له أن حمل «منها» رسالة وعدهم فيها بعدم التحرش بهم. وعليه سمح رجال «عبد الله» لقافلة كانت متوجهة إلى «بريدة» بأن تمر بسلام. وصل خبر الحملة التي يقودها «عبد الله» إلى «الطرفية» الأمر الذي حمل جماعة من عرب «الدهامشة» على الفرار، إلا أن قوات «عبد الله» طاردتهم وأنزلت بهم الويلات، وتمكن فريق منهم من الوصول إلى «عنزة» ونبهوا الأهالي هناك عن الخطر القادم إليهم.

تمكن «عبد العزيز الحميد» وبسهولة من إقناع أتباعه بأن الفرصة المتاحة لنيل الحرية من سلطة الأمير «فيصل» لن تتكرر، وعليه بدأ يأخذ مواقعه على كثبان رمال منطقة «اليتيمة» الواقعة بين «الشماسية» و «الطعمية» في مجرى وادي «الرّمة»، وتقدر قوته تلك بألف وخمسمائة رجل. وفي تلك الأثناء أرسل «عبد الله» رسالة من «الطرفية» إلى والده يبلغه فيها بالهزيمة التي ألحقها بعرب «الدهامشة»، إلا أن الشخص الذي كان يحمل الرسالة شاهد آثار قوات كبيرة متجهة شرقاً، فعاد بالرسالة إلى «عبد الله» ليخبره بما شاهد. أشار مستشاروه عليه بأن يترك بينه وبين المتمردين مسافة طويلة أثناء توجهه بقواته إلى الأمير «فيصل»، إلا أن «عبد الله» أصر على مداهمتهم بالرغم من تفوقهم عليه في العدد، وأمر يدفع بالجمال والأغنام التي تم الاستيلاء عليها من عرب «الدهامشة» باتجاه مواقع العدو لتكون بمثابة ستار لقوة الفرسان الضاربة، وفعلاً تمكنوا بهجومهم العنيف من حسم الموضوع والانتصار عليهم في نفس ذلك الموقع. حيث تراجع المتمردون لكن سرعان ما بدأوا في الفرار عن بكرة أبيهم. هرب «عبد العزيز الحميد» لينجو بحياته ولجأ إلى قلعة «الطعمية» ومن هناك توجه إلى «عنيزة» بعد أن علم بأن «عبد الله» توقف عن مطاردة الجماعات الفارة وعاد إلى «المذنب». سبقته أخبار ذلك النصر إلى والده لتخفف من قلقه، علماً بأنه قد أمر بإرسال بعض التعزيزات لنجدته. كانت قوات «فيصل» تحتفل بذلك النصر بالأغاني والرقصات والأهازيج، إلا أن أمرهم بالكف عن ذلك والقيام بالصلاة والشكر لله على رحمته بالعباد.

نعت كل قرية في «القصيم» عملياً موت بطل من أبطالها، لكن فرقة المقاتلين من «بريدة» تكبدت العدد الأكبر من القتلى والجرى، إذ بلغ عدد

القتلى من بريدة حوالي مائة قتيل.

دخل «عبد العزيز» عنيزة يتبختر على صهوة جواده وهو يردد الأهازيج مع أتباعه ليشجع المقاتلين على الاستمرار في القتال، إلا أنه سرعان ما أدرك أن الويلات التي ألمت بالأهالي كانت كبيرة وكانوا على استعداد للاستسلام للأمير «فيصل»، ولذلك توجه إلى «بريدة». لجأ «السحيمي» إلى «طلال بن رشيد» الذي كان في ذلك الوقت في «قرارة» يستعد لتقديم الدعم إلى «فيصل» ضد المتمردين. وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن «طلال» كان قد خلف والده «عبد الله بن رشيد» أميراً على «حائل»، وكان والده قد توفي في شهر آيار من عام ١٨٤٧ أثناء غزو الشريف لمنطقة «القصيم».

عقد أهالي «عنيزة» اجتماعاً» ليقرروا الإجراء المستقبلي الذي يتوجب عليهم أن يقوموا به، وطلبوا من القاضي «عبد الله أبو بطين» أن يتدخل ويلتمس لهم العفو من الأمير «فيصل»، فوافق «فيصل» على ذلك بنفور لكن مقابل شرط واحد وهو أن يضمن «محمد بن عبد الرحمن بن البسام» رئيس أحد العائلات النبيلة في البلدة أي نكوص عن الاتفاق يمكن أن ينجم من طرفهم.

تم ترتيب الأمور بسهولة ودخل «فيصل» عنيزة ليقدم الأهالي له الطاعة، وبالتالي ليصفح عنهم عدم ولائهم وتمردهم في ذلك الإقليم. بعدها أرسل الأمير «فيصل» رسالة إلى «عبد العزيز الحميد» يخيره بين السلم والحرب، وكان «عبد العزيز الحميد» قد قرر الهرب إلا أن أقاربه ووجهاء «بريدة» أقنعوه بأن يدعهم يتشفعون له عند «فيصل»، وبعد مناقشات وتدخل من قبل شخصيات كبيرة في المنطقة وافق الأمير «فيصل» على أن يصفح عما

كان وقرر أن يعينه حاكماً على المدينة، ولكن حرصاً منه بأن لا تقع أحداث مماثلة في المستقبل في بيئة غير مستقرة ولا يمكن الاعتماد عليها، قرر الأمير «فيصل» أن يعين «جلوي» (أخو عبد العزيز الحميد) حاكماً عاماً على كل الإقليم، وأن يكون المقر الرئيسي للقوات في القلعة الكبيرة في «عنيزة». وكان عبد العزيز الحميد أول أجنبي وأمير يشغل منصب احتجز هناك ليشغله أحد الوجهاء المحليين. وبالمناسبة فإن صاحب المنصب الحالي كان الجد الأول لـ «عبد الله بن مساعد» الذي احتجزه بدوره عمه المشهور والمعروف باسم «عبد الله بن جلوي» ومن قبله والده «عبد العزيز بن مساعد» الحاكم الحالي لـ «حائل»، وهكذا أدخل الأمير «فيصل» نظاماً إدارياً جديداً طبق بشكل متقطع وعلى فترة تزيد على مائة عام.

وبعد توقف للاستراحة في «عنيزة» دام لمدة شهر، عاد الأمير «فيصل» إلى الرياض وقابل في طريقه إلى هناك «طلال بن رشيد» في منطقة «المذنب». وفي شتاء العام التالي ١٨٤٩/ ١٨٥٠ انشغل الأمير «فيصل» مجدداً بحملة أعدها للإغارة على تجمع لرجال قبائل «عتيبة» في منطقة «جراب» في الشمال، ووصلت أخبار الحملة التي كان يعدها الأمير «فيصل» إلى قبيلة «عتيبة»، فما كان منهم إلا أن تراجعوا إلى منطقة «قبة» وانضموا إلى قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت متجمعة هناك، وعند اقتراب قوات الأمير «فيصل» منهم تقدم زعماء وقادة «الدويش» وقدموا لـ «فيصل» الهدايا وحصلوا على عفو عام منه عن كل الأعمال التي قاموا بها في الماضي. بعدها توجه الأمير «فيصل» نحو «القصيم» وعند موارد مياه «أبا الدور» شمالاً انضمت إليه قوات «القصيم» التي كانت تحت إمرة «جلوي»، وبسبب

هذه التحركات بدا الذعر على أمير بريدة «عبد العزيز» ولم يتمكن من السيطرة على أعصابه ففر مع أبنائه إلى «مكة» تاركاً وراءه نساءه وكل ممتلكاته الشخصية وصل «فيصل» إلى «بريدة» وجمع كل ممتلكات الحاكم الفار وأخذ معه أيضاً ما بقي من أعضاء أسرته، وعين أخا الحاكم الفار المدعو «عبدالمحسن الحميد» حاكماً على «بريدة»، وبعد ذلك عاد إلى الرياض.

استقبل شريف مكة الحاكم الفار «عبد العزيز» بالكثير من التعاطف والود ومشاعر الصداقة، لكن سرعان ما تغيرت مشاهره تجاهه عندما أدرك أن الهدايا البسيطة التي قدمها الهارب «عبد العزيز» كانت كل ما يملكه في هذه الدنيا، وبدأ يراسل الأمير «فيصل» بخصوص ضيفه الغير مرغوب فيه. وطلب «عبد العزيز» من الشريف المساعدة، إلا أن الشريف أجابه بأن الجنود الذين تحت إمرته لا يذهبون للقتال ما لم يدفع لهم مقدماً.

في هذه الأثناء - أي عند حوالي نهاية شهر تشرين الأول عام ١٨٥٠ - انطلق «عبد العزيز بن فيصل» بقوة كبيرة من الرياض تعاظم تعدادها بسبب القوات التي التحقت بها أثناء المسير، وتوجه بها وجهة الحجاز في حملة قتالية شاملة. وفي الطريق استراح لفترة من الزمن في «القويعية» واستمر بعدها للبحث عن معسكرات زعيم قبيلة عتيبة «مرزوق الهيضل» وأثناء مروره بجوار آبار «الشبكة» وموارد مياه «مصلب» في مرتفعات «النير» التف «عبد العزيز بن فيصل» على «الحنايج» وأوشك أن ينال من طريدته عند آبار «ثعل» بمنطقة «الحزم»، إلا أنهم سبقوه بمغادرتها قبل وصوله بقليل لعلمهم بتقدمه، وانضموا إلى قوات «ابن ربيعان» أحد مشاهير زعماء قبيلة «العتيبة» في منطقة «نفي» طالبين منه الحماية.

سبب تقدم قوات «عبد العزيز بن فيصل» إلى الحجاز وبلوغها منطقة «حرة الكشب» الذعر بين الأهالي هناك، وخشي شريف مكة أن يؤدي وجود «عبد الله المحمد» هناك إلى إذكاء نار المشكلات، ولذلك بدأ يصعب الأمور على الأمير الهارب، فأدرك الأمير الفار «عبد الله المحمد» أن توقعاته في أن يقدم له شريف مكة الدعم لم تعد في محلها، فطلب من الشريف أن يتوسط له لدى الأمير «فيصل» ليصفح عنه وليسمح له بالعودة إلى «بريدة». كان الأمير «فيصل» في ذلك الوقت في المنطقة الشرقية على سواحل الخليج يعالج المشكلات المتعلقة بجماعة البحرين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأمير «فيصل» كان رجلاً شفوقاً رحيماً فوق العادة، صبوراً على الأذى. وعلى أي حال فقد قبل «فيصل» شفاعة شريف مكة شريطة أن يأتي «عبدالعزيز الحميد» إلى «عنيزة» ويلتحق بالحملة التي كان يعدها «جلوي» للتحرك باتجاه «سلوى» دعماً للعمليات العسكرية التي كان «فيصل» يقوم بها. وفعلاً وصل «عبد العزيز المحمد» إلى معسكر الأمير «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٥١، وبعد أن اعترف بكل أخطائه وأعرب عن ندمه على كافة الجرائم التي اقترفها بحق سمو الأمير، صفح «فيصل» عنه ونصبه من جديد حاكماً على «بريدة».

وفي بداية العام التالي انتشرت الشائعات بأن «عباس بن طوسون» حفيد «محمد علي باشا» والذي كان في ذلك الوقت معيناً في منصب الخديوي على مصر، كان يعد العدة لغزو مناطق «نجد» مجدداً. والحقيقة أنه بسبب تواجد «عبد الله بن فيصل» ومعه القوات السعودية في المناطق المجاورة لمشارف الحجاز، تم إرسال أعداد كبيرة من القوات التركية (العثمانية) إلى

«المدينة». كانت الاشتباكات التي دارت بعد وصول هذه القوات من النوع المتقطع الاعتيادي، علماً بأن أبعاد أحد الاشتباكات التي حدثت في شهر آيار من ذلك العام وصلت حتى منطقة «الدفنية». وكإجراء احتياطي حشد الأمير «فيصل قواته وسار بها باتجاه «المجمعة». وفي شهر تموز تسربت بعض الأخبار التي تقول بأن «عباس بن طوسون» كان قد بعث بجيش كبير إلى إقليم «عسير» وأصدر أمراً إلى القوات في «المدينة» بالانضمام إلى ذلك الجيش لتنفيذ العمليات المزمع القيام بها في تلك المنطقة. وحيال هذه التطورات عم الهدوء مناطق «نجد». وبعد أن انتهى الأمير «فيصل» من الإغارة على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «أم الجماجم» أثناء عودته إلى الرياض، أصدر أمراً بإعطاء القوات استراحة للذهاب إلى أسرهم.

لم يتوجس الأتراك خيراً من حملتهم للنيل من قبائل «عسير»، فسارع زعيم هذه القبائل «عيضة بن مرعي» وربط قضيته بقضية الأمير «فيصل»، فأرسل إليه مندوباً يبلغه بالأخبار السارة ويقدم له الهدايا التي تمثل حصة الأمير «فيصل» من الغنائم، لكن مشاغل الأمير «فيصل» بأمور المنطقة الشرقية لم تدعه يفكر في أمور الحجاز حتى لو أنه كان راغباً في الاهتمام بها.

قضى الأمير «فيصل» جزءاً من شتاء عام ١٨٥٢/ ١٨٥٣ في الصحراء، وشن من معسكره في «رماح» خلال تلك الفترة غارة على جماعات قبيلة «مطير» في منطقة «الوفرة»، وكان الأمير «فيصل» قد عهد إلى «عبد الله» مهمة التعامل مع جماعات من قبيلة «المرة» كانت تعكر صفو الأمن في منطقة «الأحساء». حدث أيضاً أن تمكن «عبد الله» من الاستيلاء على قافلة

كانت محملة بالبضائع الثمينة قادمة من «العقير» في طريقها إلى «الهفوف» وأوقع بين رجالها العديد من الإصابات والخسائر في الأرواح، وذلك أثناء توقفها في معسكر «النعيرية». تقدم «عبد الله» بعد ذلك إلى منطقة «سلوى» وهناك أغار على جماعة «النعيم» القطرية، كما أغار على جماعات من قبيلة «بني هاجر» وجماعات «المناصير» التي كانت تشاركها في نشاطاتها، وهزمهم جميعاً واستولى على الغنائم منهم. أذن «عبد الله» بعد ذلك لفريق من قواته بالتمتع بفترة راحة، في حين سار ببقية القوة إلى «عُمان» ليثبت نفسه وليتأكد من أن الأمور في ذلك الإقليم كان على ما يرام، خاصة أنه تلقى أخباراً عن وجود نزاعات داخلية كانت تحدث هناك بشكل متقطع، ولم يرجع «عبد الله» من حملته تلك إلا في شهر أيلول عام ١٨٥٣. وصلت في هذا التاريخ (أو ربما في بداية العام التالي) إلى الرياض أخبار اغتيال «عباس باشا» في مصر، وعلم في الرياض أيضا أن عمه «سعيد باشا» ابن «محمد علي» كان قد عين في منصب الخديوي على مصر.

حدث في منطقة «القصيم» وبالتحديد في شهر آيار من عام ١٨٥٤ تفجر جديد للمشكلات واستحوذت على كل اهتمام الإمام «فيصل». تمرد أهالي «عنيزة» على «جلوي» وطردوه من المدينة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «بريدة» وبعد فترة قصيرة تبعه الشيخ المشهور «عبد الله بن عبد الرحمن أبو طين» الذي اشمئز من الشقاق والنزاعات المزمنة الناجمة عن مركزه الديني.

ونتيجة لتلك الأحداث تمكن «عبد الله بن يحيى بن سليمان» وأسرته فرع

من أسرة [1] السليم من السيطرة وحكم عنيزة، وعندما علم الأمير «فيصل» بتصرفه حشد جيشه وأرسل قوة كبيرة تحت إمرة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة» إلى «بريدة»، وأمره أن يحاصر «عنيزة» وأن يعزلها عن بقية العالم. وفي نهاية شهر آب أرسل الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» إلى «شقراء» وأمر الوحدات المقاتلة هناك بالانضمام إليه، وبعد مضي حوالي أسبوع من الزمن شن «عبد الله» غارة قوية على قرى وادي «الرمة» وعلى واحات النخيل التي يمتلكها أهالي «عنيزة»، واستولى على كل ممتلكاتهم وماشيتهم، وقتل حوالي عشرة رجال من الأهالي، وفي تلك الأثناء تدخلت قوة من «عنيزة» ودارت اشتباكات حامية أجبرت «عبد الله» على التراجع إلى «العوشزية» ومن هناك توجه إلى «الربيعية» التي اتخذ منها مقراً لقواته بشكل مؤقت. وفي تلك المنطقة انضم إليه «طلال بن رشيد» ومعه قواته من «حائل».

بدأ «عبد الله» في هذه المرحلة يناور لمهاجمة «عنيزة» بالذات، لكن المناوشات الملازمة لمثل هذه الحالة تعاظمت لدرجة أن «عبد الله السليمان» قرر السعي من أجل السلام فأرسل إلى الأمير فيصل يناشده الصفح والسماح، لكن الأمير «فيصل» أصر على أن يأتي «عبد الله السليمان»

(١) يقول ابن عيسى في عقد الدرر «وتأمر في عنيزة عبد الله بن يحيى بن سليم وسليم لقب على سليمان بن يحيى بن علي بن عبد الله بن زامل. فأولاد سليمان بن يحيى بن علي المذكور وأولاده هم المعروفون بآل سليم رؤساء بلد عنيزة».
انظر إبراهيم بن صالح بن عيسى، عقد الدرر، فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، منشورات مكتبة النهضة في الرياض، ط ١٣٧٣هـ ١٩٥٣، ص ١٥.
(المعلق)

شخصياً إلى الرياض فقدم عبد الله إلى الرياض وسرعان ما صفح عنه زلاته حتى إنه وافق أن يبقيه حاكماً على «عنيزة». على أي حال أصدر الأمير «فيصل» أمراً إلى «عبد الله» بالعودة بقواته، ورافقه في طريق العودة إلى الرياض «جلوي» في حين استمر معهم في المسير الشيخ «أبو بطين» إلى أن وصل إلى بلدته «شقراء». حدث ذلك في شهر كانون الثاني عام ١٨٥٥، وبعدها نعمت مناطق «نجد» بهدوء لمدة حوالي سنتين دون أية أحداث. ويذكر المؤرخ «ابن عيسى» أنه لم يحدث شيء يذكر سوى أن الأمطار الموسمية استمرت في الهطول بغزارة، ويقول «ابن عيسى» أيضاً إن القوات التركية بقيادة «مصطفى باشا» سيطرت على المشكلات التي أثارتها قبيلة «المنتفق» في العراق والتي نجمت بسبب سلوك تخريبي قام به بعض أعضاء عائلة «سعدون» الذين حاولوا أن ينفردوا بزعامة القبيلة.

وفي شتاء عام ١٨٥٦/ ١٨٥٧ أغار «عبد الله بن فيصل» على «عنزة وعتيبة» في مناطق مختلفة من أرجاء الصحراء، وبعد مرور عام قام فريق من جماعة «البرية» من قبيلة «المطير» بمهاجمة تجمع لقبيلة «عنزة» عند موارد مياه «الداث» واستولت على قطعانهم وماشيتهم. وحدث في هذا الشتاء أيضا أن توفي زعيم قبيلة «مطير» المدعو «الحميدي بن فيصل بن وطبان الدويش»، وفي نهاية آذار من عام ١٨٥٧ توفي شريف مكة «محمد بن عون» عن عمر يناهز السبعين عاماً، وخلفه في منصبه ابنه الأكبر «عبد الله». حدث أيضاً أن اشتبكت قبيلتا «عتيبة وحرب» في مرتفعات «ساق» إلى الشمال من «القصيم»، ومنيت قبيلة عتيبة بالهزيمة، وفي وقت لاحق من ذلك العام تكبدت قبيلة «عتيبة» أيضا خسائر جسيمة نتيجة الغارة التي شنها عليها

«عبدالله بن فيصل» والتي وصل بها إلى منطقة «البقوم» غرباً ومنطقة «سبيع» القريبة من «تربة» و «الخرمة»، لكن الحدث الهام الذي وقع في ذلك العام كـان انتشـار وباء الطاعـون الذي دخل مناطق «نجد» عن طريق البـحـرين والأحساء، وأودى بحياة الكثير من الناس.

لن ننسى أنه خلال التمرد الذي شهدته منطقة «القصيم» عام ١٨٤٧ فر الرأسان المدبران لهذا التمرد والمدعوان «عبد العزيز المحمد» و «ناصر السحيمي» إلى «بريدة»، وسبق أن أشرنا إلى الأعمال التي قام بها «عبدالعزيز المحمد» وانتهينا إلى أن عينه الأمير «فيصل» من جديد في منصبه القديم، وكل ما نعلمه عن «السحيمي» منذ هروبه إلى «بريدة» هو أنه قتل خلال فصل شتاء عام ١٨٥٨ وسط ظروف ت تخدمنا في شرح الحزازات والعداءات بين الأسر الحاكمة في المناطق الرئيسية بوسط الصحراء العربية في تلك الأيام.

هاجر جد «ناصر» مع ابنه «عبد الرحمن» من «أشيقر» في منطقة «الوشم» ليستقروا في «عنيزة» مع عائلة من «سبيع» تعرف باسم «آل بكر» والتي كانت لها مزاعم وذرائع للفوز بالسلطة على «عنيزة» التي كان يحكمها في تلك الفترة «آل سليم» أو «سليمان». كان «يحيى بن سليم أو سليمان» أميراً على المنطقة، حينما قدمت عائلة «البكر» الدعم لناصر السحيمي على أنه المرشح الأكثر ملاءمة لتسلم الحكم. وصلت الأمور إلى مرحلة جدية للغاية فاضطر «يحيى» إلى مناقشة الوضع مع ذلك المطالب بالسلطة فعرض عليه بسخاء الخيار بين الفوز بالإمارة أو العيش طوعاً في المنفى، وتفاهما على أنه في حال وقع اختياره على الإمارة فإن «يحيى» يجب أن يرحل عن المدينة. قال

«يحيى» بأن ذلك كان الإجراء المتبع في أيام الفوضى التي شاعت في الدرعية قبل انتفاضة الأمير «تركي» وإخضاع مناطق «نجد» لحكمه. وباعتبار أن «ناصر» كان يتمتع بخصال طيبة كريمة قدر تلك التضحية التي بدرت عن «يحيى» في سبيل السلام والمجتمع، وسارع بالإعلان بأن «يحيى» سيكون - إن شاء الله - الحاكم الشرعي، كما أعرب عن ولائه له، وهكذا لم يطرأ تغيير على ترتيبات الحكم في «عنيزة».

وعندما قتل «يحيى» في «بقعاء» عام ١٨٤١ خلفه في الحكم أخوه «عبدالله بن سليم»، وقتل هذا الأخير أيضاً في معركة دارت بينهم وبين «ابن رشيد» عام ١٨٤٥ وآل الحكم من بعده إلى أخيهم الثالث «إبراهيم بن سليم»، لكن بعد مضي ثلاث سنوات على تسلمه الإمارة أقاله الأمير «فيصل» وعين مكانه «ناصر السحيمي» بناءً على اقتراح «إبراهيم بن سليم» نفسه.

أذكى هذا التطور نار الضغينة والعداء القديم بين الأسر، وحاول كل من «عبد الله» (ابن يحيى) و «زامل» (ابن عبد الله) اغتيال «ناصر» في شوارع عنيزة، كما حاولا احتلال القلعة التي كان «مطلق الضرير» (أو ناصر) مسيطراً عليها، إلا أنهما فشلا في تلك المحاولة، وقام «زامل» بضرب أحد أتباع عائلة «السليم» حتى الموت، وعندما شفي «ناصر» من الإصابة التي تعرض لها بسبب محاولة الاغتيال تلك، أقدم على ذبح «إبراهيم بن سليم». لا نعلم فيما إذا كان «ناصر» قد رجع إلى «عنيزة» خلال فترة حكم «جلوي»، لكن من المؤكد أنه كان يعيش هناك كفرد عادي ومعه أخوه «مطلق». تصادف أن تواجدا هناك عندما كان «عبد الله بن يحيى» أميراً على

عنيزة، أي مع نهاية عام ١٨٥٨ . والجدير بالذكر أن «عبد الله بن يحيى» كان قد اغتصب الإمارة إثر الانتفاضة التي قام بها ضد «جلوي» وأقر «فيصل» ذلك الوضع وثبته فيها . في أحد أيام ذلك الشتاء كان «ناصر» قد قام برحلة باتجاه «الهلالية» الواقعة في أعالي وادي «الرمة» ليتفقد أحوال خيول الاستيلاد والسباق التي كان يربيها في مزرعته هناك، فتعقبه «عبد الله» ومعه أبناء عمومته «زامل بن عبد الله وحمدان بن إبراهيم» وهاجموه وقتلوه انتقاماً لاغتياله «إبراهيم بن سليم» . فر أخوه «إبرهيم» والمدعو «مطلق» إلى ديرته «أشيقر» وبقي فيها إلى أن مات عام ١٨٦١ دون أن يحاول الانتقام لمقتل أخيه، كما أن ذلك الحدث لم يشجع أيضاً الأمير «فيصل» على اتخاذ أي إجراء .

انزعج الأمير «فيصل» من تصرف عدوه القديم «عبد العزيز المحمد» أمير «بريدة» والذي كان قد أكرمه ووجبه في أكثر من مناسبة، وفي شهر شباط من عام ١٨٥٩ استدعاه إلى الرياض، وبعد أن فاتحه بحيثيات سوء تصرفاته، أمر بإيقافه وإيقاف اثنين من أبنائه كانا قد رافقاه في القدوم إلى الرياض، ثم أمر الأمير «فيصل» أن يعين «عبد الله بن عدوان» أميراً على منطقة «بريدة» بدلاً من «عبد العزيز الحميد» .

والجدير بالذكر أن «عبد الله بن عدوان» هو من أسرة العليان التي تربطها قرابة بعيدة مع أسرة «عبد العزيز الحميد» ، وعلى أي حال قامت مجموعة من أسرة «عبد الله بن عدوان» في شهر أيلول من العام نفسه باغتياله، وخلف «عبد الله بن عدوان» في منصب الإمارة شخص يشك بأنه شريك في خطة الاغتيال تلك، إلا أن الأمير «فيصل» ألقى القبض عليه وزج به في

زنزانة أحد القلاع. والغريب في الأمر أن «فيصل» عين أحد الذين شاركوا في عملية الاغتيال وهو «محمد بن غانم» ليحل محل الغرور «عبد الله بن عدوان» كحاكم على «بريدة». شجعت الشائعات التي دارت حول احتمال حدوث مشكلات في «بريدة» السجين «عبد العزيز الحميد» على أن يعرض خدماته على الأمير فيصل ليضع الأمور في «بريدة» في نصابها، وبطريقة ما قبل الأمير «فيصل» عرضه ذلك، وفي شهر كانون الأول عام ١٨٥٩ نصبه من جديد حاكماً على «بريدة» بدلاً من «ابن غانم».

وفي شهر آذار من العام نفسه كان الأمير «فيصل» يستجم في معسكره الربيعي المفضل بمنطقة «رماح»، وهناك أرسل ابن «عبد الله» للإغارة على جماعة «البرية» من قبيلة «مطير» لأنها كانت قد أساءت التصرف في بعض الأمور الطبيعية. وعليه داهمتهم قوات فيصل في منطقة «دخنة» جنوب القصيم وعاملتهم بخشونة، لكن بعد أن اعتذروا عن سوء تصرفهم وأعربوا عن ولائهم للأمير «فيصل» سمح لهم الأمير «عبد الله» بالرحيل عن تلك المنطقة. وفي الطريق وعندما اقتربوا من آبار «الشبيكية» داهمتهم جماعة من قبيلة «قحطان» وأنزلت بهم المزيد من الخسائر، كما قتلت عدداً من الشخصيات الرئيسية منهم. ارتكبت جماعة «قحطان» المنتصرة خطيئة عدم زيارة الأمير «عبد الله» الذي استاء من تصرفهم وأمر بسجن عدد كبير من رجالهم، وصادر كل خيولهم التي قدرت بحوالي ١٤٠ فرساً، وطلب منهم دفع غرامة نقدية وعينية. قدم الأمير «فيصل» جزءاً من تلك الغرامة إلى جماعة «البرية» فديه عن الرجال الذين سقطوا منها.

وفي شهر آذار من العام التالي (١٨٦٠) جاء دور «العجمان» لتتلقى

غضب الأمير «فيصل» بسبب إغارتهم على ماشيته وجماله في إحدى المراعي. وكان زعيم قبيلة «العجمان» أثناء تلك الإغارة شخص يدعى «راكان بن حثلين» الذي خلف والده «فلاح» بعد أن قتل في «الهفوف» إثر الغارة الكبيرة التي شنها على أحد قوافل الحجاج. والجدير بالذكر أن الأمير «فيصل» ثبت «راكان» في الإمارة بعد أن قدم الضمانات والتعهدات المشددة بأن لا تقوم قبيلته بمثل تلك الانتهاكات، لكن إثر هذه الغارة التي تمت بموافقته الشخصية، فر «راكان» إلى «الصبيحية» الواقعة في الأراضي الكويتية، فما كان من الأمير «فيصل» إلا أن أعلن الجهاد وكلف «عبد الله» بقيادة القوات وأنزل العقوبة بهم.

تجمعت القوات السعودية عند آبار «الدجاني» ومن سار بها «عبد الله» إلى «الوافرا» وهاجم جماعات «العجمان» ليلاً على حين غرة وألحق بهم هزيمة فادحة واستولى على معظم ممتلكاتهم، وطاردت قواته الفارين حتى «الصبيحة» التي داهمها هي أيضا وفلول الفارين أمامه تتسارع للجوء إلى قوات «راكان» المعسكرة في منطقة «الجهرا» بالقرب من مدينة الكويت. نظم «عبد الله» قواته من جديد بالقرب من «ملح» التي قرر زعماء «العجمان» فيها مهاجمته وبالأسلوب الصحراوي التقليدي، أي بمعنى أن تتقدم قواتهم سبعة جمال يحمل كل واحد منها فتاة من أجمل نساء القبيلة، وذلك تشجيعاً لرجال قبيلتها وحثهم على الدفاع عن شرف وعرض القبيلة. ودارت المعركة في الثالث من نيسان عام ١٨٦٠ وقاتل الفريقان بضرواة وشجاعة وعزيمة، لكن رجال قبيلة «العجمان» لم تكن نداً لقوات «عبد الله»، وعندما بدأت كفة الميزان تميل لصالح قوات «عبدالله» تفرق مقاتلوا

العـجـمـان وفروا في حـالة فـوضى واضطراب ولجـأوا إلى الكويت للنجـاة بأرواحهم .

توجه «عبد الله» بقواته إلى «الجهرا» ليحتل معسكر أعدائه وليوزع الغنائم بالطريقـة المعتادة، وتذكر بعض الوثائق التاريخية أن جماعـة «العـجـمان» خسروا سبعمائة قتيل . سر أهل «العراق» بأخبار انتصارات «عبد الله» كما سر بها أهالي «الرياض»، ذلك لأن الغارات التي شنها رجال «العجمان» على «الزبير» وعلى المناطق المجاورة «للبصرة» والتي تكررت مؤخراً سببت القلق لدى المسؤولين العرب والأتراك . أرسل والي «البصرة» كما أرسل أمير «الزبير»[1] وفودا إلى الأمير «عبد الله» وحملوهم الهدايا القيمة له مع التهاني القلبية بالإنجازات التي حققها .

استُقبل «عبد الله» استقبالاً شعبياً حافلاً بطولياً يليق به كالأبطال لدى عودته إلى الرياض، وكان قادة «العجمان» (الذين هزموا لكنهم لم يسحقوا تماماً) يتشاورون بخصوص ما يمكن أن يفعلوه مستقبلاً، وكان يدركون بأنه لا يمكنهم لوحدهم مواجهة حشود قوات «نجد»، لذلك قرروا أن يتحالفوا مع «المنتفق» لشن غزوات متواصلة على نطاق واسع، فقاموا خلال فصل خريف ذلك العام بشن غزوات وهجمات متكررة أنهكت مناطق «البصرة» و «الزبير» و «الكويت»، الأمر الذي اضطر معه «حبيب باشا» والي «البصرة» أن يفرض أمير «الزبير» بأن يجمع أكبر قوة ممكنة للتصدي لأعمال

---

(١) كان أمير الزبير في ذلك الوقت هو سليمان بن عبد الرزاق بن زهير .

انظر : ابن عيسى، عقد الدرر، ص ٣٤ . (المعلق)

جماعات «العجمان». وقام «حبيب باشا» بنفسه بتقديم الأموال الضرورية والأسلحة والذخائر والمواد التموينية اللازمة لتجنيد القوات واستمرارها في القتال على أرض المعركة.

كانت أول خطوة قام بها قادة «العجمان» وخلفاؤهم هي غزو واحات نخيل شط العرب ومصادرة تمور ذلك الموسم للاستفادة منها في حملتهم المزمعة ضد «نجد». تقدمت قوات «الزبير» تدعمها القوات التركية والقوات التي تم تنظيمها من قبائل «نجد» ضد قبائل «عجمان» وأجبروها على التراجع من واحات النخيل والهروب باتجاه الصحراء. طاردتها القوات المهاجمة واشتبكت معها وتمكنت من هزيمتها وأجبرتها على التراجع مجدداً باتجاه «الجهرا» و «كويبدة» و «كابدة». ثم بدأ «حبيب باشا» يسعى إلى الانتقام من «المنتفق» الذين كانت لديهم أملاك كثيرة في ولايات البصرة، وهددهم بمصادرة أراضيهم وواحات نخيلهم، فدب الذعر بسبب هذا التهديد في قلب زعيمهم «ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون» وأرسل إلى الوالي رسالة ألقي فيها اللوم على جماعات «العجمان» حيال النشاطات والأعمال التي حدثت مؤخراً، وبرر في تلك الرسالة تصرف رجال قبيلته بقوله إنه غرر بهم في علاقتهم مع رجال «العجمان» الذين أوهموهم بالحصول على مراع لمواشيهم في مناطق «نجد». وبعد تبادل لعدد من الرسائل وافق «الباشا» على أن لا ينفذ تهديده ضد «المنتفق»، ولذلك تضاءل عدد جماعات «المنتفق» التي تدعم بشكل تام وكامل رجال قبائل «عجمان» إلى أن انتصر على عدد بسيط من رجال القبيلة الذين كانوا يخيمون إلى جانب الفارين من قبائل

---

(١) من قرى رماح في إمارة الرياض، وأيضاً توجد حفنه في هجر النفعه بمنطقة إمارة الدوادمي.

«العجمان» في المناطق المجاورة «للجهرا» .

وعندما سمع الأمير «فيصل» بنوايا المتمردين وحلفائهم في الهجوم على «الكويت» ومناطق «نجد» نفسها ، أعلن الجهاد المقدس للمرة الثانية وحشد المقاتلين من القرى والمناطق عند موارد مياه «الحفنة»(*) في مجرى «العرمة» . وصل «فيصل» إلى هناك في أواخر شهر آذار عام ١٨٦١ ليتولى تلك القوات . تحرك «عبد الله» بتلك القوة عن طريق «الوفرة» حيث انضمت إلى قواته جماعات مقاتلة من «مطير» و «بني هاجر» ، وتابع المسير ووصل إلى «الجهرا» ومن هناك شن هجوماً عند الفجر على خصومه المتحالفين ، ومرة ثاني منيت قوات «العجمان» بالهزيمة المحققة وطارتهم حتى بلغوا مياه البحر وجرفهم المد العالي أثناء رجوعه إلى البحر . دارت تلك المعركة في شهر رمضان ، كما دارت معركة «الوفرة» التي حدثت قبل عام من تاريخ هذه المعركة ، واستولت قوات الأمير «عبد الله» على الكثير من الغنائم ، وسر أهالي «البصرة» و «الزبير» من الانتصار الذي حققته القوات السعودية وأعربوا عن تقديرهم لبسالة الأمير «عبد الله» بأن قدموا له الهدايا التي تليق بالأمراء .

وبالمناسبة نقول إن «محمد بن فيصل» الذي رافق أخاه «عبد الله» في تلك الحملة أبلى بلاءً حسناً في طريق العودة إلى الرياض ، إذ تمكن من قتل «حمدي بن سقيان» زعيم قبيلة «مطير» البارز ، وذلك في الغارة التي شنها «عبد الله» على جماعات من قبيلة «مطير» كانت تخيم في منطقة «المنسف» بالقرب من «الزلفي» . كان ذلك الحدث مجرد مقدمة أو تمهيد لغزو «لقصيم» وفعلاً توجه «عبد الله» بقواته إلى هناك وأقام معسكره في منطقة

«روضـة الربيـعي»، وأحـدث تقـدم هـذه القـوة الكبيـرة الرعب في قلب «عبـدالعزيز المحـمد» حـاكم «بريدة» فـهرب مذعـوراً إلى «عنيزة» مع أبنائه الثلاثة ومعه مجموعة من خدمة وعدداً من أتباعه، لكنه لم يلقى أي ترحيب في «عنيزة»، الأمر الذي اضطره إلى مواصلة الهروب باتجاه «مكة». وعندما علم «عبد الله» بهروبه إلى «مكة» أرسل على الفور قوة بقيادة أخيه «محـمد» لمطاردة «عـبد العـزيز المحـمد»، وتمكنت تلك القـوة من اللحـاق به عند آبار «الشقيقة» فقامت بذبحه وذبح أبنائه الثلاثة وذبح أحد أبناء عمومته، إضافة إلى عبـدين من عبـيدة الخاصين. هـذا وسمحـوا للباقين ممن كـانوا برفقـته بالتوجه حسب وجهتهم بسلام. توجه في تلك الأثناء الأمير «عبد الله» إلى «بريدة» لينصب عليها حاكماً جديداً يدعى «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة منفوحة). والجدير بالذكر أن الحاكم الجديد سبق أن كان قائد الحملة التي نظمت ضد القصيم بعد أن تم خلع «جلوي» عـام ١٨٥٤، كما أنه كـان الشخص الذي أشرف على تدمير قصور «عبد العزيز» وأبناؤه.

عندما سمح الأمير «فيصل» لعبد العزيز الحميد بأن يتولى منصب حاكم بريدة، كان «فيصل» قد احتجز واحداً من أبناء «عبد العزيز المحمد» كرهينة في الرياض لضمان حسن سلوكه. وتجدر الإشارة أيضاً أن ابن «عبد العزيز المحمد» كان مرافقاً لـ «عبد الله» في حملته التي شنها ضد «العجمان»، وكان معه أيضاً في الربيعية حين قتل والده وإخوانه، وبقي مع تلك القوة في طريق عـودتها إلى الرياض إلا أنه انسل وهرب قبل وصولها إلى الرياض، لكن القوات السعودية طارته وأسرته في الصحراء وأرسلته إلى أحد السجون في القطيف، وبقي هناك إلى أن داهمته المنية، وانتهى بموته «فخذ» من أفخاذ

أسرة معروفة وعريقة، إلا أن ذلك الفخذ كان يتميز بالغدر وعدم الولاء. والجدير بالذكر أن أمراء «آل سعود» عاملوا هذه الأسرة بكل تقدير واحترام، لكنها كثيراً ما خانت تلك المعاملة الحسنة.

قام «طلال بن رشيد» بزيارة «عبد الله» أثناء إقامته في «بريدة»، علماً بأنه لم يسبق له أن شارك في الحملة ضد قبائل «العجمان»، إلا أنه الآن قد أحضر معه عدداً من المقاتلين ربما تستدعي الحاجة في «القصيم» إليهم. ولا بد أن تكون الإهانة التي لحقت بعدوه القديم في «بريدة» قد أثلجت صدره، لكن ولاء منطقته للحكومة المركزية تقف على النقيض تماماً من جيشان الخيانة المتواترة التي تحدث في «القصيم». لم ينقضي عام ١٨٦١ حتى عاد ميدان التناحر في الصحراء العربية إلى المخاض من جديد، فكانت وفاة أمير منطقة الأحساء «أحمد السدير» في بداية هذا العام خسارة فادحة للأمير «فيصل» الذي تقدم به العمر. خلف «أحمد السديري» في منصبه وبشكل مؤقت ابنه «محمد بن أحمد» الذي كانت له خبرة سابقة بذلك الإقليم، إلا أن الأحداث في منطقة «القصيم» اقتضت بتعيينه أميراً على «بريدة». وعند حوالي نهاية عام ١٨٦٣ وبسبب إلحاح أهالي «الأحساء» وافق «فيصل» على أن يرسل «محمد بن أحمد السديري» إلى «الأحساء» مرة أخرى كأمير فعلي على ذلك الإقليم.

وفي شهر شباط من عام ١٨٦٢ ولسبب غير معروف تمرد أهالي «عنيزة» ومن المحتمل أن يعزى سبب ذلك التمرد إلى السياسة التي نهجها «عبدالرحمن بن إبراهيم» الذي كان قد عين حاكماً على بريدة. وكانت ردة فعل الأمير «فيصل» الفورية على ذلك التمرد أن أعطى البدو الحرية المطلقة

في مهاجمة وسلب خيرات «عنيزة» والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الأثناء نظم «فيصل» قوة ليقودها «صالح بن شلهوب» باتجاه «بريدة» لمساعدة «عبدالرحمن بن إبراهيم» في العمليات التي كان يقوم بها ضد المتمردين في المدن. وفي شهر نيسان تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على أعداد كبيرة من الجمال والأغنام التي كانت ترعى في مراعي عنيزة والمناطق المجاورة لها، إلا أن أهالي «عنيزة» أبدوا كل ما يمكنهم من مقاومة وتمكنوا في هجماتهم المتكررة من أن يوقفوا هجوم قوات «صالح بن شلهوب». وفي حوالي تلك الفترة وبالتحديد في شهر آيار عاد «محمد بن غانم» من «المدينة» إلى «القصيم». والجدير بالذكر أن «محمد بن غانم» هذا هو أحد الذين شاركوا في اغتيال «عبد الله بن عدوان» وأيضاً اغتيال الذي خلفه في الحكم لفترة قصيرة على إمارة «بريدة»، وعلى ما يبدو كان «محمد بن غانم» خلال فترة حكم «ابن عدوان» يعيش طوعاً في المنفى بعيداً عن «بريدة». وكونه من أبناء عائلة «العليان» التي تطمح إلى الحكم أو إمارة «بريدة»، تحالف «محمد بن غانم» مع المتمردين من مدينة «عنيزة» وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة لهم، وبالفعل تمكنوا تحت جنح الظلام من التسلل إلى المدينة، إلا أنهم فشلوا في تحقيق أي تقدم في هجومهم على القلعة التي كان «ابن إبراهيم» مستحكماً فيها تدعمه قوات «صالح بن شلهوب». وفشلوا أيضاً في اقتحام معاقل عائلة «أبا الخيل» المحصنة. وعندما علم أهالي «بريدة» بأمر ما كان يجري هرعوا إلى الشوارع وصدوا الغزاة وأنزلوا بهم خسائر فادحة.

إثر ذلك الحدث أرسل الأمير «فيصل» تعزيزات قوية إلى «بريدة» للمساعدة في ممارسة الضغط على «عنيزة» علماً بأن أهالي «عنيزة» هم مَن

بادر في مهاجمة المدافعين وإلحاق الهزيمة بهم في ديرتهم القريبة من واحات نخيل «رواق»، وكان من بين الذين أصيبوا بإصابات مميتة «عبد الله بن عبدالعزيز الدغيثر» القائد المكلف بقيادة التعزيزات التي وصلت مؤخراً بأمر من الأمير «فيصل».

إن فشل «ابن إبراهيم» المتكرر في ضبط المتمردين والسيطرة عليهم أثار حنق وغضب الأمير «فيصل» فاستدعاه ووبخه وأمر بمصادرة كل ممتلكاته في «بريدة»، وعلى إثر ذلك بقي «صالح بن شلهوب» قائداً على القوة العسكرية هناك.

وبعد استراحة الصيف التي استمرت فيها الأزمات دون قيام أي فريق بنشاطات مجدية، قرر الأمير «فيصل» اتخاذ إجراءات أكثر حدة وصرامة. ففي فصل الخريف حشد قواته من جديد وأرسلها إلى «القصيم» تحت قيادة ابنه «محمد»، وانضمت إلى تلك القوة جماعات ليست فقط من «سدير» و«الوشم»، بل من جماعات أخرى كبيرة من قوات «حائل» تحت قيادة «عبيد بن رشيد» الذي كان يرافقه ابن أخيه «محمد بن عبد الله» الشخص الذي كان قدره أن يصبح شخصية بارزة في الصحراء العربية.

انطلقت هذه القوات الكبيرة التي كانت متجمعة في «بريدة» باتجاه مواقع العدو في «عنيزة»، إلا أنها اشتبكت مع قوة متقدمة من المتمردين في منطقة وادي «الرّمة» التي تشكل تقريباً نقطة الحدود بين أراضي «عنيزة» وأراضي «بريدة»، وهناك هزم المتمردين ومنيوا ببعض الخسائر، وعسكر «محمد» بقواته في وادي «الرّمة» وأخذ يشرف على قواته وهي تقطع أشجار النخيل في الواحات، لكن حدث في العاشر من كانون الأول أن قام الأهالي بهجوم

مضاد على قوات «محمد» ودارت معركة شرسة تمكن الأهالي فيها من طرد قوات «محمد» من الواحات وأجبروها على العودة إلى خيامها بالقرب من «الجسر»، لكن المطر الغزير الذي هطل في تلك الأثناء أصاب البارود الذي كان بحوزتهم بالرطوبة ومنعهم أيضا من حمل الغنائم إلى بيوتهم. وهنا قامت قوات «محمد» بهجوم مضاد قوي وأوقعت خسائر جسيمة في الأرواح بين الأهالي تقدر بأربعمائة قتيل، وهرب من كتبت له الحياة. وتقوقع المتمردون في ديارهم وانضمت إلى قوات «محمد» تعزيزات زادت من قوته، وكانت تلك التعزيزات تحت إمرة «طلال بن رشيد» التي أتت من «حائل» بكامل عدتها. إضافة إلى ذلك أرسل «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٦٣ ابنه «عبد الله» على رأس قوات من «الأحساء» وإلى جانبها قوات احتياطية من مناطق أخرى، وأرسل معه بعض الأسلحة والمدافع وأصبحت عنيزة الآن محاصرة كلياً، وتعرضت يوماً بعد يوم لقصف متواصل وعنيف إلى أن بدأ المحاصرون يستغيثون طلباً للسلام.

والحقيقة أن «فيصل» كان قد أعلم ابنه «عبد الله» بأن يقبل أية مبادرة استسلام يقوم بها المتمردون، شريطة أن يسلم الأمير «عبد الله بن يحيى» نفسه ويأتي طائعاً إلى الرياض ليعرب عن استسلامه وخضوعه شخصياً لـ «فيصل». وعلى هذا الأساس تمت ترتيبات السلام ووقف الأمير المتمرد بين يدي «فيصل» يطلب منه العفو والسماح، وفعلاً صفح عنه «فيصل» وسمح له بالعودة إلى ديرته وأسند إلى «محمد السديري» منصب أمير «بريدة» وعينه حاكماً عاماً على كل مناطق «القصيم». لكن وكما أشرنا آنفاً، لم يمضي وقت طويل حتى قام الأمير «فيصل» باستدعاء «محمد

السديري» وعينه أميراً على الأحساء، وكلف «سليمان الراشد» (وهو أحد أبناء عائلة العليان) بأن يكون أميراً على إمارة «بريدة»، لكن هذا التعيين أحدث المزيد من المشكلات في البلدة، إذ سرعان ما قام «فيصل» بعزل «سليمان» من منصبه وعين مكانه «مهنا الصالح» وهو من أسرة «أبا الخيل» لأسرة «سليمان الرشيد».

وفي الجزء الأخير من عام ١٨٦٣ مات الخديوي «سعيد باشا» في مصر وخلفه في ذلك المنصب «إسماعيل باشا» وهو أيضاً أحد أبناء «محمد علي الباشا الكبير». شهدت فترة حكم «إسماعيل باشا» أعمال شق قناة السويس، إضافة إلى متغيرات أخرى مهمة فتحت الأبواب أمام احتلال البلاد. وحدث أيضاً في الفترة نفسها أن مات أحد كبار مشايخ قبيلة عتيبة والمدعو «تركي بن حميد». وفي خريف عام ١٨٦٤ كان «عبد الله» في طريقه إلى الحرب في إقليم «الأحساء» حيث أغار على العديد من القبائل، وبالصدفة داهم تجمعاً لرجال قبائل «العجمان» وألحق بهم خسائر فادحة. تلت فترة تمرد «عنيزة» فترة هدوء وسلام نسبي دامت لمدة اثني عشر شهراً، حدث خلالها أن توفي الشيخ المشهور «عبد الله أبو بطين» (المولود في روضة سدير في نوفمبر من عام ١٧٧٩). بلغ الشيخ «عبد الله» (عند وفاته في بلدة شقراء) خمسة وثمانون عاماً، وأول منصب ديني تسلمه الشيخ «عبد الله» كان منصب قاضي الطائف الذي كان قد عينه فيه الإمام سعود عام ١٨٠٥ بعد فتحه لمناطق الحجاز. وإثر طرد «جلوي» من «عنيزة» تقاعد الشيخ «عبدالله» في عام ١٨٥٥ بعد أن مارس سنوات عديدة من العمل في ذلك

المنصب، وعاش حياته الخاصة إلى أن وافته المنية.

إنه من الملفت للنظر أن المؤرخ «ابن عيسى» لم يذكر شيئاً عن الزيارة التي قام بها في الخليج المقيم البريطاني الكولونيل «لويس بيللي» إلى الرياض عام ١٨٦٥[١]. ففي الربيع من ذلك العام قدم بيللي إلى الرياض لإجراء محادثات مع الأمير «فيصل». هذا وليس من الغريب أن يلزم «ابن عيسى» الصمت حيال الزيارة التي قام بها «وليام غيفورد بلغريف» قبل عامين من ذلك إلى العاصمة السعودية (الرياض)، لقد كان من المثير أن نعرف بعض الشيء عن ردود فعل السعوديين لمثل تلك اللقاءات فيما لو تحدث عنها ابن عيسى. ولعل أبرز الآثار التي أسفرت عن الزيارة التي قام بها «لويس بيللي» توقيع اتفاق عربي وإنجليزي لم يعثر لنصه المخطوط على أي أثر في أرشيف ديوان السلطة السعودية. وقد وقعت تلك الاتفاقية خلال السنة الأخيرة من فترة حكم الإمام «فيصل».

كما سجل بيللي من خلال رحلته رصداً دقيقاً للأحوال التي كانت سائدة في أواخر أيام «فيصل» حيث أوكل «فيصل» ولعدة سنوات إلى ابنه «عبد الله» مهام الأمور الحيوية، وخاصة مهمة توجيه العمليات العسكرية التي كانت قائمة بشكل مستمر خلال فترة حكمه. وكان في بعض الأحيان يشرك ابنه الثاني «محمد» في بعض المهام التي يوكلها إلى «عبد الله»، علماً بأنه كان يبقي السلطة العليا في يده ويبدو أنه لم يخطر على باله أبداً أن يفكر في التخلي عن

(١) يمكن الاطلاع على ترجمة لبيللي مع بيان لرحلته وأغراضها ومسيرتها من خلال التقرير المفصل الذي كتبه بيللي عن رحلته وقام بإلقائه ونشره في عدد من المنتديات العلمية البريطانية، وقد ترجم التقرير (أو الرحلة) من قبل الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ والدكتور عويضة بن شريك الجهني ونشرته جامعة الملك سعود عام ١٤١١هـ. (المعلق).

العرش . وعلى أي حال يبدو وبوضوح أن صحته كانت تتردى خلال السنوات الأخيرة من عمره، واستمر الأمر كذلك إلى أن داهمته المنية في الثاني من شهر كانون الأول عام ١٨٦٥ . توفي الأمير «فيصل» بعد فترة حكم دامت ٣١ عاماً تخللتها فترة خمس سنوات كانت البلاد خلالها خالية من حكم أو سلطة فعلية حين كان الأمير «فيصل» خلالها أسيراً في مصر .

الفصل الثامن

أبناء سعود

عبد الله الثانى و سعود الثالث

صفحة بيضاء

أبناء سعود
عبد الله الثاني وسعود الثالث

تلت وفاة الإمام «فيصل» والتي حدثت في اليوم الثاني من شهر كانون (ديسمبر) الأول من عام ١٨٦٥ ، حقبة شهدت خلافات واقتتال كان آخرها قد أثر في أسرة آل سعود الحاكمة؛ وأدى إلى انهيارها مؤقتا حدث ذلك خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

اتضح من خلال الزيارة التي قام بها الكولونيل «لويس بيللي» (البريطاني المقيم في الخليج) والتي حدثت في شهر آذار (مارس) من عام ١٨٦٥ ، أن صحة الإمام فيصل كانت آخذة في التدهور، ولذلك قام الأمير «فيصل» وبشكل رسمي في شهر حزيران من العام نفسه بتعيين ابنه «عبد الله» وريثاً للعرش، وبموجب تلك الصفة القانونية مارس «عبد الله» الحكم الفعلي للدولة السعودية. هذا وسبق له أن كان - وعلى مدى عشرين عاماً - الساعد الأيمن لوالده في الأمور الإدارية والعسكرية على حد سواء. ولم يحظى أخوه «سعود» بانتباه المحليين من مؤرخي تلك الفترة إلى أن مات والدهما وهي الفترة التي أبدى «سعود» فيها ولمدة قصيرة غيرته وعدائه لأخيه «عبد الله».

لم يكن الذكاء المتبلد والفضائل المتمرسة عند الحاكم الجديد نداً لعدم الشعور بالمسؤولية واللامبالاة الصادرة عن أخيه المدعي الأحقية في تسلم الحكم، لقد جلب التوتر والنفور السائد بينهما الدمار لبيت الأسرة السعودية وخلفه أطلالاً ودماراً .

كان أول عمل قام به «عبد الله» بعد أن اعتلى العرش هو أنه بنى لنفسه قصراً محصناً عرف باسم «المصمك»، وجعله إلى الشمال الشرقي من قلعة الأمير «تركي» القديمة التي كان الأمير «فيصل» قد احتلها ووسعها لتتوافق مع احتياجاته، ومنها كان يدير شؤون استعادة الأمجاد السعودية، إلى أن هدمت في السنوات الأخيرة ليشاد في مكانها قصراً يناسب متطلبات العصر الحديث.

سار «عبد الله» بقواته في فصل الربيع ليغير على قبيلة «الظفير» على الحدود العراقية، لكنه لم يحقق سوى مكاسب بسيطة تجلت في الاستيلاء على بعض الجمال والأغنام وتحول اهتمامه بعد ذلك إلى قضايا أكثر أهمية. وعلى ما يبدو كان «سعود» يعتقد بأنه من الحكمة أن ينأى بنفسه عن أخيه، فانشق بمعسكره وتوجه وجهة إقليم «عسير» في السلسلة الجبلية الواقعة غربي الصحراء العربية ليحظى بمساعدة زعيم تلك المنطقة «محمد بن عائض» وليحقق بالتالي غايته في استلام سدة الحكم، وعلى الفور أرسل «عبد الله» مندوباً عنه إلى «أبها» ليحذر حاكمها من أي تعاطف أو تعاون مع أخيه، كما أمر ذلك المبعوث أن يطلب من «سعود» العودة إلى الرياض مع ضمان سلامته وعدم المساس بحياته، وقد رفض سعود تلك الدعوة علاوة على ذلك لم يخظى بالدعم الذي نشده من زعيم تلك المنطقة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «المكرمي» زعيم قبائل «نجران»، ولقي هناك حظاً أفضل إذ كان لقرابة النسب وعلاقاته الزيجية وقرابته من ناحية الأم مع قبيلة «العجمان» في «الأحساء» دوراً في دعم مكانته. وسرعان ما وجد «سعود» نفسه قائداً لقوة مخيفة من البدو توجه بها باتجاه منطقة «السليل»، وعندما وصل إلى هناك وعده زعيم «السليل» بتقديم الدعم له.

وهكذا أصبحت الساحة مهيأة لأول محاولة لاستعراض القوة بين الأخوين: فسارع «عبد الله» بأن أرسل أخاه الآخر «محمد» باتجاه الجنوب على رأس قوة شكلها من رجال قبائل بلدان «نجد». ظلت بقية مناطق «وادي الدواسر» على ولائها للأمير «عبد الله» لكن سعود بادر بالهجوم واشتبك الطرفان في منطقة يقال لها «المعتلا»، وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات إلا أن النصر أخيراً كان من نصيب أنصار «عبد الله». أصيب «سعود» في تلك المعركة بجراح بليغة لكنه تمكن من الهرب من أرض المعركة ولجأ إلى قبيلة «المرة» في الصحراء، ومكث هناك إلى أن شفي من جراحه ومن ثم توجه إلى «البريمي» في نهاية عام ١٨٦٦ واستقر أخيراً في «عُمان» كضيف على «تركي السديري» الحاكم السعودي على تلك المنطقة، ودارت الأيام ومكث هناك لمدة أربع سنوات شعر في نهايتها بأنه أصبح بإمكانه أن يعكر صفو الأمن الذي كان ينعم به أخوه «عبد الله». حدث وبالتحديد في عام ١٨٦٩ أقدم أحد الأشخاص على قتل الأمير «تركي» في «الشارقة» بينما كان يحاول حشد الدعم المحلي لسلطان «مسقط» المخلوع «سالم بن ثويني»، وفي تلك الأثناء أيضاً حدث أن طلب أهالي «البريمي» من «عزان بن قيس» الذي اغتصب الحكم في كل من «مسقط» و «عُمان» أن يأتي ويحتل واحتهم لأنهم لم يرتاحوا لحكم الأمير «تركي» المتشدد. وسواء أثر تغيير هذه الأحداث على خطط «سعود» أم لم يؤثر، فقد قام «سعود» في العام التالي بزيارة إلى البحرين وهناك تلقى الدعم من حكامها من «آل خليفة» للهجوم على «قطر»، لكن باء ذلك الهجوم بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية التي وضعها «عبد الله» هناك.

وعاد «سعود» إلى البحرين وشمر عن ساعديه للقيام بمغامرة أكثر جدية خلال فصل الخريف المقبل. وفعلاً حدثت تلك المغامرة إثر مراسلات دارت بينه وبين قبيلة «العجمان» أنزل على إثرها قواته على شواطئ «العقير» وتقدم بها باتجاه واحة «الأحساء». تمكنت قواته وبسهولة من احتلال البلدان والواحات التي في الجوار وفرض حصاراً على الأحساء بعد أن الحق هزيمة بقوات عبدالله. على أي حال قاومت عاصمة الإقليم «الهفوف» ببسالة طيلة أيام الحصار التي استمرت أربعين يوماً، كان خلالها الأمير «عبد الله» موجوداً في الرياض يجمع قواته ليخفف الحصار عنها، وعليه أرسل أخاه «محمد» على رأس هذه القوة إلا أن «سعود» قرر أن يجابهه في الصحراء واحتل موارد مياه «جودة» الحيوية قبل أن يصل «محمد» إليها. وفي اليوم الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٧٠ وبإصرار على الفوز من قبل الفريقين، دارت معركة «جودة» وسقط الكثير من الجرحى والقتلى من الطرفين، إلا أن جماعة «سعود» حققت نصراً مبيناً على قوات «محمد»، ووقع «محمد» في تلك المعركة أسيراً وأرسل كسجين إلى «القطيف» واحتجز هناك، فاستسلمت «الأحساء» دون حدوث المزيد من الاضطرابات، وأصبح «سعود» سيد كل مناطق شرقي الصحراء العربية ومسيطراً على كل طرق الإمدادات والتموين المؤدية إلي الرياض.

وخلال الفترة التي نصب فيها «سعود» نفسه حاكماً على «البريمي» حدث تطورات مهمة في مناطق «نجد»، إذ قام «عبد الله» إثر معركة «المعتلا» بتوجيه نشاطاته ضد أولئك الذين ساندوا أخاه في التمرد، وأرسل عمه «عبدالله بن تركي» على رأس قوة إلى «الأحساء» لتأديب قبيلة «عجمان»،

كما أقال حاكمها الإقليمي «محمد السديري» (الأخ الأكبر لتركي في منطقة البريمي) من منصبه وعين مكانه «ناصر بن جبر الخالدي». وبعد ذلك بفترة وجيزة نظم حملة على نطاق واسع وأرسلها إلى «وادي الدواسر» لتأديب الذين خانوا العهد معه في تلك المنطقة. تولى «عبد الله» بنفسه قيادة تلك الحملة وبقي حول تلك المنطقة لمدة شهرين ليستعيد سلطته عليها. ولدى عودته إلى عاصمته استحوذت الأحداث التي وقعت في «جبل شمر» على جل اهتمامه، فبالرغم من أنها كانت في حقيقة الأمر مستقلة إلا أنها لم تقدم سوى الخدمات اللفظية الشفوية لعائلة «آل سعود» الحاكمة.

حدث في عام ١٨٦٦ أن انتحر الأمير «طلال بن عبد الله» الذي أصيب بمرض عقلي وخلفه في الحكم أخاه «متعب». وبعد مضي عامين قام أبناء الأمير طلال بقتل «متعب» في بلدة «حائل» واستلم بعد ذلك «بندر بن طلال» منصب أمير الإمارة فيها. وأثناء تلك التطورات كان أخ آخر لـ «طلال» يدعى «محمد بن عبد الله» موجوداً في الرياض يقوم بزيارة إلى الإمام «عبد الله» ورأى «محمد» هذا أنه من الحكمة أن يبقى في الرياض لفترة من الزمن ليراقب تطورات الوضع في «حائل». قام في العام التالي «بندر» بنفسه بزيارة الرياض ليقدم تقديره واحترامه للإمام، وليقنع عمه بالعودة معه مع ضمان أن يعامل بكل احترام وكرم وحسن ضيافة. كان بيت عائلة «آل رشيد» على أعتاب كارثة مروعة تتكشف عن بداية عهد حكم تصدره أحد أبرز أبنائها والذي هو من دون شك من أعظم رجال تاريخ الصحراء العربية.

يتوقف المؤرخ المعني بسرد أحداث «نجد» عند عام ١٨٦٩ ويتحول

للتحدث عن البدء في حفر قناة السويس التي انتهت حسب ما ورد في وثائقه التاريخية عام ١٨٧٤[1]. ويعلق المؤرخ على هذه الحفريات بقوله. إن المتعهدين بهذه الأعمال كانوا الفرنسيون والبريطانيون وكان معهم الخديوي «إسماعيل باشا». وبعد أن انتهى المتعهدون من عمليات الحفر فرضوا رسوما ثابتة على السفن التي تمر بالقناة يتم تحديدها تبعاً لحمولة كل سفينة. وفيما يتعلق بعملية وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، يمكن القول إن «هارون الرشيد» فكر في ذلك المشروع منذ زمن طويل وذلك لتسهيل العمليات التي كان يقوم بها ضد البيزنطيين، لكن حدث أن حذره «يحيى البرمكي» من أنه إذا فعل ذلك سيمنع الفرنجة المسلمين من الوصول إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة، وعليه أحجب عن تلك الفكرة وألغي المشروع، إلا أن سياسات الدول العظمى في القرن العشرين كانت أكثر دهاءً ومكراً من ذلك.

كانت هزيمة «جودة» بمثابة كارثة لـ «عبد الله» وللعربية السعودية في نهاية المطاف. إذ تجلت ردة فعل «عبد الله» في أنه توقع أن يزحف «سعود» بقواته إلى الرياض، الأمر الذي حمله على الفرار بتهور وعجلة قاصداً اللجوء إلى «حائل» لحماية نفسه. وأثناء استراحته في الطريق إلى هناك أرسل «عبد الله» مندوبا إلى الباشا التركي في بغداد ومندوبا إلى الباشا في البصرة وطلب منهما تقديم العون الفوري ليتصدى إلى تمرد أخيه عليه. وحدث أن قدم زعيم قبيلة «قحطان» المدعو «محمد بن هادي بن قرملة» لزيارته في معسكر

---

(١) افتتحت قناة السويس في عام ١٨٩٩ في عهد الخديوي إسماعيل، وكان ذلك في احتفال عام حضره امبراطور فرنسا نابليون الثالث وزوجته الأميرة نوره أوجبنى.

استراحته. وكان هذا الزعيم قبل أن يقدم إلى معسكر «عبد الله» قد زار «سعود» وشعر بالإهانة بسبب الاستقبال الفاتر الذي استقبله به. عرض «محمد بن قرملة» خدماته على «عبد الله» فما كان من «عبد الله» إلا أن سارع بدافع اليأس بالترحيب بتلك الخدمات، وعليه غير خطته وعاد إلى الرياض ووصلها في وقت مناسب مما جعل «سعود» يعدل عن نيته في التحرك بقواته باتجاهها.

لم يدم ذلك الهدوء لفترة طويلة علاوة على أن المجاعة التي قدر لها أن تستمر لمدة عامين زادت من الهلع والفوضى العامة في الصحراء العربية، وبالرغم من أن الناس الجياع بدأوا يأكلون لحم الحيوانات، إلا أن ذلك لم يمنع موت العديد منهم بسبب الجوع. وفي شهر نيسان من عام ١٨٧١ تحرك «سعود» بقواته باتجاه الرياض، إلا أن «عبد الله» هرب مجدداً جنوباً باتجاه مناطق قبيلة «قحطان»، لكنه قبل هربه كان قد أرسل قوة كبيرة وزودها بالمؤن والسلاح والذخائر لتقابله في تلك المناطق إلا أن هذه المؤن والعتاد والأسلحة وقعت غنيمة في يد «سعود» الذي هاجمها في منطقة «الجزعة» التي تقع على مسافة ترى بالعين من الرياض، وإثر ذلك الحدث دخل «سعود» الرياض دون مقاومة وعاثت قواته فيها سلباً ونهباً، كما سلبت العديد من البلدان المجاورة لها، وأصبح «سعود» سيد «نجد» سواء على نحو شرعي أو غير شرعي، ولبى وجهاء البلدان والمدن والقبائل استدعاؤه لهم وقدموا إليه وأقسموا يمين الولاء والطاعة له.

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) أصبح «سعود» جاهزاً ليصول في أرض المعركة ويجول على رأس قوات كبيرة من البدو ورجال المدن، فشرع في

مطاردة «عبد الله» وحلفائه من قبيلة «بني قحطان» الذين كانوا يخيمون بالقرب من موارد مياه «الأنجل» لكنهم رحلوا عنها باتجاه واحة «البرة» بعد أن مر بها «سعود» في طريقه لاحتلال إقليم «الوشم» الذي كان مهماً بالنسبة إليه. ترك «سعود» عمه «عبد الله بن تركي» ليتولى أمور «شقراء» ورجع ليواجه أعداءه في واحة «البرة»، وهناك مني «عبد الله» بهزيمة منكرة وهرب هو وحلفاؤه إلى «الرويضة» في منطقة العارض، ومن هناك تمكن من الوصول إلى «الأحساء» لينضم إلى الحملة العسكرية التركية التي كانت تحت إمرة «فاروق باشا». كانت تلك الحملة العسكرية قد بدأت سيرها من البصرة في شهر حزيران، ووصلت إلى «الهفوف» عن طريق «القطيف»، وفي تلك الفترة كان «محمد» ابن فيصل» قد تحرر من السجن كما تم تسريح الحاكم الذي عينه «سعود»، وصرح الأتراك بأنهم قدموا إلى هناك بناءً على طلب «عبد الله» لمساعدته ضد التمرد الذي قام به أخاه «سعود»، لكنهم في حقيقة الأمر قدموا للبقاء في تلك المنطقة، كما أنهم أخذوا «عبد الله» أسيراً بالرغم من المعاملة الكريمة والتشريف الذي أبدوه له في البداية.

ومما لا ريب فيه أن أخبار وصولهم إلى «الأحساء» هي التي استدعت رجوع «سعود» إلى الرياض بعد معركة واحة «البرة»، لكن الأهالي لم ينسوا قسوة معاملته لهم التي لم يكن ليمضي عليها سوى بضعة أشهر، كما أن وجود الأتراك على مسافة ليست ببعيدة منهم شجعهم على الانتفاضة ضده. جاءت تلك الانتفاضة بعد أن أمر «سعود» بإعطاء الجنود الذين حاربوا معه في واحة «البرة» استراحة لفترة قصيرة، استغل الأهالي ذلك الظرف وحاصروه في القلعة لعدة أيام واستمر الحصار إلى أن قبل إنذار

الأهالي له بالرحيل عن الرياض مع أتباعه، ووعدوه بأن يؤمنوا لهم سلامة الانسحاب. وفعلاً سار «سعود» مع جماعته باتجاه «الدلم» وهي عاصمة إقليم «الخرج»، وبقي عمه «عبد الله بن تركي» حاكماً على الرياض.

لم يكن «سعود» لينوي البقاء عاطلاً عن القتال، فتوجه إلى «الأحساء» ووصل إلى هناك مع جماعته في شهر أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وشرع في أعمال السلب والنهب إلى أن تنبه الأتراك إلى الأعمال التي كان يقوم بها وألحقوا به هزيمة نكراء في معركة «الخويرة» التي حضرها أخوه «عبد الله» بنفسه. وعلى أي حال وبعد مرور فترة قصيرة عن هذه المعركة جاء دور «عبد الله» ليشك في نوايا حتى من كان يؤمن الحماية له، وبعد بضعة أيام من معركة «الخويرة» وصلت إلى «العقير» تعزيزات كبيرة للقوات التركية الموجودة في «الأحساء» وهناك أطلعه أحد الضباط عن وجود خطة تهدف لاعتقاله وترحيله ومن معه من أفراد عائلة «آل سعود» لتمهيد الطريق أمام عملية ضم «الأحساء» للإمبراطورية العثمانية. كانت تلك الخطة منسجمة تماماً مع سياسة «مدحت باشا» المتطرفة والخاصة بالعالم العربي، لكن المحللين مخطئون في القول إن الرجل الكبير أتى بنفسه على رأس تلك التعزيزات ليتأكد من تنفيذ ما كان يصبو إليه. ومهما تكن حقيقة الأمر فإن «عبد الله» أدرك الآن أنه كان في فخ يصعب الهرب منه، إلا أنه تمكن ومعه أخوه وابنه بفضل حيلة محبوكة تماماً من أن يروغ عن أنظار حراسه خلال نزهة كانوا يقومون بها في عصر أحد الأيام. وبعد عناء سفر وترحال في

الليل والنهار وسلوك دروب لم يطرقها أحد من قبل، تمكنوا من الوصول إلى الرياض ووجدوا أنفسهم وسط ترحاب وتهليل الأهالي بهم. كان قد مضى على هروبه من العاصمة أقل من نصف عام إثر معركة «جودة»، وكانت رحى الأيام والظروف قد دارت على أخيه بسبب تعاقب الأحداث التي لم يستفد منها والتي كان قد أعد لها وخسر أكبر إقليم في مملكته.

أصبح «سعود» مجدداً في حكم الهارب لكنه كان نشطاً في تحريك النضال من أقاليم الجنوب، وهي المناطق التي كان بإمكانه أن يحظى فيها بشكل دائم ببعض الدعم والمساعدة. كانت قد انضمت إلى «سعود» أعداد ضخمة من دواسر إقليم «الأفلاج»، فقام «عبد الله» - الذي كان يفكر في اتخاذ تدابير مسبقة لإحباط أي تقدم يقوم به «سعود» باتجاه الرياض - بإرسال أخيه «محمد» وعمه «عبد الله بن تركي» على رأس قوة كبيرة لاحتلال «الدلم». تحرك «سعود» بقواته (وباشمئزاز) ليفرض حصاراً على المدينة التي سرعان ما تواطأ أهلها معه بسبب تعبهم من الفاقة والحرمان والعوز، وبفعل ذلك التواطؤ تمكن «سعود» من دخول المدينة لكن «محمد» تمكن من الهرب ووقع «عبد الله بن تركي» في الأسر وأودع في أحد السراديب وفارق الحياة بعد بضعة أيام، ولم يكن هناك أي حب ضائع بينه وبين «سعود» لكن يبدو أنه كان المؤثر والفعال والوحيد النشط خلال سنوات الفوضى التي نجمت عن موت الأمير «فيصل». وقعت الأحداث المذكورة عند حوالي شهر كانون الثاني عام ١٨٧٣، وبعد مضي حوالي شهرين

التفت «سعود» إلى الرياض بعد أن نال من كل من «ضرما» و «حريملاء»، وهناك خرج «عبد الله» لملاقاته. ودارت معركة بالقرب من «الجزعة» أسفرت عن تسوية المسألة فيما بينهما بشكل نهائي وعلى النحو التالي: فر «عبد الله» مع حرسه الخاص باتجاه الكويت ليقضي فترة أخرى في المنفى بعيداً عن الرياض وسط جماعات قبيلة «قحطان» التي كانت تخيم بالقرب من آبار «الصبيحية»، على إثر ذلك الحدث حكم «سعود» الرياض بدلاً منه وتدفق عليه وجهاء المناطق المجاورة ليقسموا له يمين الولاء والطاعة للمرة الثانية، لكن كل مناطق «نجد» كانت تعيش حالة ميؤوس منها من الفوضى، وكان بإمكان أي عدو له أن يستغل تلك الظروف للنيل منه.

لا بد أن «سعود» أدرك أهمية التطورات الأخيرة التي حدثت في «حائل» إذ قام «محمد بن رشيد» عند حوالي نهاية عام ١٨٧٢ بالانتقام لمقتل أخيه، ووفاءً للوعد الذي قطعه «بندر بن طلال» على نفسه في الرياض قام بتعيين «محمد» في منصب هام ومربح على الصعيد المالي وهو منصب المشرف على طريق الحجيج بين العراق ومكة عبر أراضي شبه الجزيرة العربية. وجاء هذا التعيين في الوقت الذي كان فيه «محمد» عائداً من المناطق الحدودية مع العراق بعد أن أوصل ما أوكل له إلى السلطات التركية (العثمانية) هناك. في تلك الأثناء كان «بندر» ومعه عدد من أمراء الأسرة الحاكمة قد حشدوا قواتهم وخرجوا للتصدي لقوات «محمد»، وقد ذعر «بندر» لدى رؤيته للأعداد الكبيرة من رجال قبائل «الظفير» التي كانت ترافق «محمد»، وكان

اللقاء بين العم وابن الأخ بارداً جداً لا يطمئن أي طرف منهما، وعليه قام «محمد» بالمبادرة وطوق «بندر» بقواته وشهر سيفه وأردى «بندر» قتيلاً. وعلى أي حال كانت أصول الفروسية في الصحراء العربية مرعبة في ذلك الوقت، بمعنى أنه كان لـ «محمد» الحق فعلاً في الانتقام من الضحية «بندر»، لكن لم تتوقف المشكلة عند هذا القدر، فكان للمقتول «بندر» خمسة إخوة تعقبهم «محمد» جميعاً وقتلهم باستثناء «نايف» الذي كان في ذلك الوقت مجرد طفل، إضافة إلى ابن رضيع لـ «بندر» كانت قد أنجبته له زوجة «متعب» التي تزوجها «بندر» بعد أن قتل زوجها. وشاءت الأقدار أن يكون هذا الرضيع والذي كان يدعى «عبد العزيز» أن يخلف «محمد» في الحكم لأنه تبناه لعدم قدرته على الإنجاب. تم إزالة الخزي الذي حل بأسرة «آل رشيد» بسبب الانتحار الذي اقترفه «طلال» بحق نفسه، حين قتل عبد العزيز كل أبنائه. هذا وذكر لـ «شارل دوتي» خلال الترحال الذي قام به بعد مضي بضعة سنوات على هذا الحدث أنه بالرغم من أن «محمد» كان قد اقترف جرائم لم يعرفها العالم من قبل، ، لكن لم يسبق لأمور الحكم أن حظيت بتعامل أفضل من تعامل «محمد».

جاء ذلك الحدث ليبرر وبالتأكيد تقييمه المبكر لمؤهلاته الشخصية، كما كان أيضاً مقدراً لـ «حائل» أن تكون الولاية الأم والعاصمة الحضارية لإمبراطورية الصحراء العربية ولكن لفترة محدودة من الزمن.

انطلق «سعود» في درب الغزو مرة أخرى عند أوائل شهر حزيران من عام

١٨٧٣، واستهدف هذه المرة تجمعات قبيلة «عتيبة» في عالية «نجد»، فداهمهم في مخيماتهم عند آبار «طلال» وكانت الساعات الأولى من القتال لصالحه لكن سرعان ما أعاد رجال القبائل تجمعهم وعززوا أنفسهم ودارت رحى المعارك ضد «سعود» ومني بخسائر كبيرة في الرجال والمعدات. وبعد أن عوض الخسائر التي فقدها من مخزونه طيلة موسم الخريف، عاد «سعود» عند انقضاء العام إلى مناطق قبيلة «عتيبة»، علماً بأن السجلات التاريخية لم تذكر شيئاً عن طبيعة النشاطات التي قام بها هناك. وفي تلك الأثناء كانت المشكلات في إقليم «الأحساء» تتقد تحت نار هادئة. فحدث أن وصل في شهر تشرين الأول عام ١٨٧٤ أصغر أبناء الأمير «فيصل» المدعو «عبد الرحمن» إلى «الأحساء» قادماً من بغداد. ومن المحتمل أيضاً أن يكون «عبد الرحمن بن فيصل» كان قد ذهب إلى الأتراك موفداً من قبل «عبدالله» بعد هروبه الثاني من الرياض باتجاه الكويت، علماً بأن هذا التخمين غير مذكور في السجلات التاريخية. ومهما يكن الأمر فبدت عودته إلى «الأحساء» بمثابة مناسبة لانتفاضة عامة ضد الحامية التركية الموجودة في «الهفوف».

هجم الأهالي على قلعة «خزام» الجديدة وقتلوا الحراس على الأبواب واستولوا عليها، إلا أن القوة الرئيسية التركية في القلعة تراجعت إلى حصن «الكوت» واستحكمت فيه لتقاوم الحصار المتوقع، لكن سرعان ما وصلت قوة لنجدتهم مؤلفة من الجنود النظاميين ومن المقاتلين البدو، وكانت تلك القوة قد قدمت من العراق تحت إمرة زعيم المنتفق «ناصر السعدون» الذي تولى منصب حاكم الإقليم.

شن «عبد الرحمن» هجمات مضادة عليهم إلا أنهم تمكنوا من دحره، ووقعت «الهفوف» فريسة أعمال سلب ونهب، ولم يعتدي الأتراك على الشيعة بل اعتدوا على كل شخص شكّوا بأن له علاقة بالحركة الوهابية أو كان متعاطفاً معها، وذلك انتقاماً للجنود الأتراك الذين قتلوا في تلك الاشتباكات. هذا وذبح في تلك الأحداث أعداد كبيرة من الناس، وسلب من الغنائم ما لا يحصى، وتمكن وجهاء المنطقة من النجاة بحياتهم بأن هربوا إلى البحرين كما هرب «عبد الرحمن» وأتباعه إلى الرياض، وتصادف وصولهم مع عودة «سعود» من الغارة التي شنها على «حريملاء»، وشاركوا في الترحاب بعودته إلا أنه كان في تلك الفترة مريضاً. وبعد فترة وجيزة وبالتحديد في السادس والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٨٧٥ وافته المنية.

وهكذا انتهت مرحلة مكربة ومضطربة من تاريخ أسرة «آل سعود» الحاكمة، علماً بأن الأقدار شاءت لأبناء «سعود» ولأبناء أبنائه أن يحلوا في الصحراء العربية بلاد الفتنة والعصيان لسنوات عديدة.

تسلم «عبد الرحمن» زمام إدارة الأمور في العاصمة الرياض نيابة عن «عبد الله» الذي كان لا يزال مع أخيه «محمد» في الكويت. وعلى أي حال كان «عبد الله» قد أرسل أخاه «محمد» للسيطرة على منطقة «الوشم»، وبعد بضعة أيام من العمل على استقرار الأمور في «شقراء» انطلق باتجاه «ثرمدا»، وقد أحدث هذا التصرف بعض الامتعاض في العاصمة الرياض. فما كان من «عبد الرحمن» إلا أن حشد قوة كبيرة من الأهالي ومن البدر وسار بها وإلى جانبه أبناء «سعود» باتجاه «ثرمدا» وفرضوا عليها حصاراً دام لبضعة

أيام. وهناك ودارت اشتباكات سقط بسببها العديد من القتلى من الطرفين، ولم يمض وقت طويل حتى توصلا إلى اتفاق علي الهدنة وعادت العلاقات الودية بينهما، ووضع «محمد» نفسه تحت تصرف أخيه الأصغر وسلمه أسلحته وكل معدات التنقل. وبالطبع كان من المحتمل في هذه المرحلة أن يكون «عبد الرحمن». يفكر بالعمل لمصلحته الشخصية، ولذلك تحرك بقواته باتجاه «الدوادمي» وفي الطريق واجه زعماء قبيلة «عتيبة» الذين كانوا يعملون على تثبيت أقدامهم في تلك المنطقة، ودارت معركة بينهم مني «عبدالرحمن» فيها بالهزيمة والخسائر، وحتى عندما عاد إلى الرياض سرعان ما دارت المشكلات بينه وبين أبناء «آل سعود».

وقد دفعه تصرف أبناء «سعود» إلى أن يلقي بنفسه بين يدي «عبد الله» وانضم إليه في موقعه بالمنطقة الشرقية من السعودية العربية تاركاً الرياض تحت رحمة أبناء أخيه. وبعد فترة قصيرة سار «عبد الله» ومعه «عبد الرحمن» على رأس قوة كبيرة من البدو باتجاه الرياض، فما كان من أبناء «سعود» الذي كانوا يطالبون بالحكم إلا أن فروا خلسة باتجاه «الدلم»، وهناك فتح «عبد الله» مجلسه للمرة الثالثة ليستقبل المهنئين من الأهالي وليستمع إلى قسم الولاء له. كان ذلك التغيير الثامن الذي شهدته العاصمة الرياض منذ وفاة الأمير «فيصل» والتي حدثت قبل إحدى عشر عاماً. إن تواريخ هذه التغيرات ليس محدداً بشكل دقيق في الوثائق التاريخية، لكنها تبدو على النحو التالي:

من ٠٢/ ١٢/ ١٨٦٥ إلى ٩ / ٠٤/ ١٨٧١ عبد الله الثاني ابن فيصل

من ١٠/ ٠٤/ ١٨٧١ إلى ١٥/ ٠٨/ ١٨٧١ سعود الثالث ابن فيصل

من ١٥/ ٠٨/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ١٠/ ١٨٧١	**عبد الله بن تركي**
من ١٥/ ١٠/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣	**عبد الله الثاني ابن فيصل**
من ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣	إلى ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥	**سعود الثالث ابن فيصل**
من ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥	إلى ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦	**عبد الرحمن بن فيصل**
من ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦	إلى ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦	**أبناء سعود الثالث ابن فيصل**
من ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦		**عبد الله الثاني ابن فيصل**

ومن بين الزوار الذين قدموا إلى «عبد الله» في هذه المناسبة كان شخصاً يدعى «إبراهيم بن عبد المحسن بن مدلج» من عشيرة «العليان» من «بريدة». أتى «إبراهيم» لينشد الإنصاف في موضوع اغتصاب حكم «بريدة» من قبل «حسن بن مهنا الصالح» «أبا الخيل» زعيم العشيرة المنافسة لعشيرته. وتبدأ الأحداث حين قام مهنا الصالح أبا الخيل بإبعاد بعض العناصر من أسرة آل عليان لاشتباهه بمحاولة الإطاحة بحكمه. وبعد مدة من النفي في عنيزة عادت هذه العناصر وأطاحت بالأمير مهنا وقتلته وهو في طريقه لصلاة الجمعة ولذلك قام ابنه حسين بمحاولات الثأر لأبيه واستعادة السلطة.

وجه حسن اهتمامه صوب القلعة التي تحصن بها الثائرون على والده حدث وأن قتل اثنان من قادة عشيرة «أبا الخيل» بعيارات نارية صوبت عليهما من القلعة خلال اغتصاب السلطة، لكن المهاجمين استمروا في التقدم ونجحوا في وضع لغم تحت برج القلعة الرئيسي. وانفجر اللغم وأطاح بالبرج الذي دفن تحت أنقاضه العديد من الأشخاص. كما تمكن المهاجمون من أسر وقتل عدد آخر ممن كان في القلعة، وهكذا تمكن «حسن» من الانتقام لمقتل والده. لم يكن «إبراهيم» موجوداً في «بريدة» في ذلك

الوقت، إلا أن «حسن» تمكن من اعتقال والده واثنين من إخوانه وأودعهم السجن بتهمة كانوا على علاقة بالعناصر القادمة من عنيزة للإطاحة بالسلطة. على أي حال تمكنوا في إحدى الليالي من الهرب إلا أن قوات «حسن» تعقبتهم وتمكنت من قتلهم باستثناء «مدلج» (الأخ الأصغر) الذي تمكن من الهرب وإطلاع الآخرين على ما حدث. وافق «عبد الله» مبدئياً على اتخاذ إجراء بحق «حسن المهنا»، وعندما سنحت الفرصة سار بقوة ضخمة باتجاه «عنيزة»، لكن «حسن المهنا» ناشد (محمد بن رشيد) أن يقدم له وعلى الفور قدم «ابن رشيد» إلى «بريدة» وكان لقدومه السريع دور في تهدئة اندفاع «عبد الله» في تنفيذ وعده. على أي حال قرر «عبد الله» أن يحل معسكره وأن يعود إلى الرياض دون أن يحقق أي غرض، علماً بأن ذلك الحدث كان على درجة من الأهمية، لأن حائل والرياض استعرضتا فيه قواتهما ولأول مرة.

ومما لا شك فيه أن «حسن المهنا» كان الشخص الذي بدأ في الهجوم على المناطق الخاضعة لسلطة «آل سعود»، لكنه مني بهزيمة كما مني بالخسائر المادية الكبيرة من جراء محاولته الاستيلاء على مدينة «شقراء» في ربيع عام ١٨٧٧. وفي وقت لاحق من ذلك العام انضم «حسن المهنا» إلى قوات «محمد بن رشيد» في الغارة التي شنوها ضد قبيلة «عتيبة» التي كانت تخيم في الجوار، وتضررت محاصيل «أشيقر» بشكل ملحوظ علاوة على الضرر الذي أصابها بسبب الجراد، وقام الغزاة باعتبار أنهم كانوا يبتغون النهب فقط بسرقة ما تبقى من المحصول، كما سرقوا ثمار العديد من واحات النخيل. حان الآن دور عشيرة «العليان» (الذين أصيبوا بخيمة أمل بسبب عدم تمكنهم

من التقرب إلى السلطة في الرياض) أن يجربوا حظهم مع «ابن رشيد»، فأرسلوا وفداً إليه أن جماعة «حسن المهنا» نصبت كميناً لثلاثة من كبار ذلك الوفد أثناء عودتهم من الاجتماع بابن رشيد، وتمكنوا من قتلهم في منطقة «بقرية» عندما كانوا في طريقهم إلى «عنيزة» عائدين من «حائل»، وكان من بين القتلى «إبراهيم بن عبد المحسن».

والحدث البارز الآخر من بين أحداث عام ١٨٧٧ كان موت شريف مكة «عبد الله بن محمد بن عون» إذ خلفه في السلطة هناك أخوه «حسين» بعد أن أقصى عن الحكم «علي» و «محمد» والدا المتوفى «عبد الله».

لم يشر المؤرخ «ابن عيسى» إلى الزيارة التي قام بها «تشارلز دوتي» إلى «حائل» وإلى «القصيم» بل خرج عن أسلوبه المألوف ليقول بأن الأعوام ما بين١٨٧٨ و ١٨٨١ لم تشهد أية أحداث تذكر، وفعلاً يمكن أن يكون هذا الشيء صحيحاً أو يطبق على المناطق الخاضعة لحكم «عبد الله» والتي أخذت في التقلص والتناقص، خاصة أنه خسر إقليم «الأحساء» لتستولي عليه القوات التركية دون أمل في استرداده، كما أن إقليم «القصيم» بدأ يأخذ استقلاله بشكل حذر وسري بحماية علنية أو غير علنية قدمها له «محمد بن رشيد»، ناهيك عن وجود منطقة «الخرج» تحت سيطرة أبناء «سعود». . . فلم يبقى بإمكان «عبد الله» أن يفعل الكثير ليستعيد هيبته وسمعة أسرة «آل سعود» الحاكمة واللتان بدأتا تأخذان في التناقص والضعف.

ازدادت في تلك الفترة رغبة «ابن رشيد» في مد نفوذه نحو الشمال باتجاه «الجوف» و «وادي سرحان»، وكان الأتراك يزحفون على هاتين المنطقتين ببطء وبدعم مزعوم غير حقيقي من قبل قبيلة «الرولة» وزعيمها المدعو

«سطام بن شعلان» . حدث في فترة سابقة أن أرسل الأتراك قوة صغيرة لتعسكر في منطقة «الجوف» بموجب اتفاق لحفظ ماء الوجه تم مع «محمد بن رشيد» ، لكن تصرف القوات التركية أسفر عن انتفاضة الأهالي وإجبارهم القوات التركية على التراجع . وبشكل عام يمكن القول إن الواحة هناك حافظت على ولائها لـ «حائل» ، وبدأ «محمد» ببطء لكن بخطى ثابتة في مد نفوذه باتجاه «وادي السرحان» حتى« وصل تقريباً إلى حدود «حوران» .

كان «محمد» وبدون شك الشخصية القوية في العربية السعودية في ذلك الوقت ، فبعد أن تمكن من التصدي والحد من التوسع التركي في الشمال ، نأى بنفسه عن أي مغريات للتدخل في نشاطاتهم التي كانوا يقومون بها في «الأحساء» وفي مناطق الحجاز ، وكان الأهالي في كلتا هاتين المنطقتين مستائين تماماً من سيطرة الأتراك وإدارتهم للأمور ، وكان الشريف «حسين» ضحية هذا الاستياء إذ أقدم الأهالي في عام ١٨٨٠ على اغتياله بسبب إذعانه وقبوله لهذه الأحوال . استغل الأتراك هذه الحادثة وأحدثوا تغييراً على صعيد السلالة الحاكمة لإمارة مكة ، وعليه تم استدعاء «عبد المطلب بن غالب» وهو من سلالة «ضاوي بن بني زيد» وتم تعيينه أميراً على مكة . والجدير بالذكر أنه سبق له أن شغل ذلك المنصب من عام ١٨٥١ حتى عام ١٨٥٦ ، ثم أقيل مجدداً من ذلك المنصب في عام ١٨٨٢ ليعين مكانه «عون الرفيق» وهو أحد إخوة المغدور «حسين» وهو من خلفه أيضاً بعد اغتياله . كما قدر له أن يشهد المرحلة الأولى من خط سكة الحديد في الحجاز والتي انتهت في السنوات الأولى من القرن العشرين أي خلال فترة حكمه ، لكنه لم يعش طويلاً ليشهد انتهاء العمل في سكة حديد الحجاز ، فداهمته المنية

عام ١٩٠٥ وخلف وراءه سمعة حسنة دلت على فعاليته وجاذبية شخصيته.

أما بالنسبة لـ «عبد الله» فقد كان «محمد» مكتفياً بمراقبته عن قرب دون أن ينقض عليه. وفي الواقع كان كل ما توجب عليه أن يفعله هو أن يترك ضحيته تحفر قبرها بيدها، لكن ذلك لا يعني أن «محمد» لم يطلق العنان لقدراته الفائقة في التعامل وإحداث المكائد السياسية، والدليل على أنه أعطي إمكاناته وقدراته الشخصية حق قدرتها ووزن الأمور، وكان بإمكانه أن يحقق التفاهم مع كافة الشخصيات القيادية في كل إقليم من أقاليم مملكة «عبد الله» التي كانت آخذة في التناقض والضعف. كذلك تمكن من التفهم لأي أزمة يمكن أن تتعاظم وتكبر في شؤونهم الداخلية.

وبالتأكيد كانت تلك حالته مع «المجمعة» ومع إقليم «سدير» اللذان خرجا من عام ١٨٨٢ متأكدان من استقلاليتهما. حشد «عبد الله» مقاتليه من عشائر «العارض» ومن «عتيبة» ليقودهم باتجاه «المجمعة»، فما كان من أهالي تلك المنطقة إلا أن ناشدوا «ابن رشيد» أن يقدم لهم العون الذي كان قد وعدهم به، وتجلت ردة فعل «محمد» بأن أرسل على الفور قوة كبيرة إلى «بريدة»، وهناك انضمت إلى تلك القوة جماعات مقاتلة بقيادة «حسن المهنا»، بمن معه من فرق «القصيم». وبعد أن تأكد من زخم وتعزيز القوة تقدم بها حتى وصل إلى «الزلفي». كان مجرد خبر تقدم قوات «محمد» كاف لأن يجعل «عبد الله» يهرول عائدا إلى الرياض بعد الحصار غير المجدي الذي دام لمدة أربعين يوماً. أمضى «محمد» بعد ذلك بضعة أيام في «المجمعة» وهناك نظم أمورها وعين عودته إلى ديرته أحد رجاله المدعو «سليمان بن سامي» (وهو من حائل) حاكماً عليها نيابة عنه. تمكن «محمد» وبدون تفاخر وبقليل من

الجهد أن يضيف إلى مملكته إقليماً آخر، فكان لا بد لهذا الحدث أن يكون بمثابة تحذير إلى «عبد الله» لكنه كما سنرى لاحقاً تجاهل هذه الحقيقة ليلقى في الوقت المناسب مصيراً مقدراً.

في تلك الأثناء قام أبناء ذرية «سعود» وعلى سبيل الحصر بالتصدي لتحديات تنامي سيطرة «ابن رشيد» على مناطق «نجد»: فقام «محمد» أكبر أبناء «سعود» بتنظيم قوة شكل رجال قبائل «عتيبة» الجزء الأكبر من مقاتليها. وكانت هذه القوة معسكرة بالقرب من آبار «عروى» في منطقة «العارض» وهناك هاجمتها قوة مشتركة من رجال «حسن المهنا»، فانهزمت قوات «محمد بن سعود» وتراجع بها إلى «الخرج» ليعد العدة لحملة أخرى يشنها خلال فصل ربيع عام ١٨٨٣، وكان هدفه من تلك الحملة غزو جماعات «مطير» في الصحراء الشرقية، وفعلاً تحرك باتجاهها واستولى على الكثير من الغنائم (من الجمال وأنواع أخرى من الماشية)، وقتل في تلك المعركة أحد إخوته المدعو «عبد الرحمن».

شهد فصل شتاء عام ١٨٨٣/ ١٨٨٤ أمطاراً غزيرة سالت على إثرها السيول في الأودية. وفي أوائل شهر كانون الثاني من العام نفسه ظهر «عبدالله» على ساحة المعركة من جديد ولكن بدون تخطيط مركز، ليجبر أهالي «المجمعة» على الركوع والخضوع له. ومن «شقراء» قاعدته العسكرية المتقدمة أرسل منادين واستدعى العشائر لحشد القوات في سهل «الحمادة» الواقع في مسار المراعي الخصبة باتجاه «أم العصافير». هب التحالف القائم بين «حائل» و «بريدة» للعمل والدفاع عن «المجمعة» التابعة لحمايتهما، ودارت المعركة المحتومة التي انتهت بهزيمة تامة وبخيبة أمل «عبد الله» ومن

تحالف معه، وبعد انتهاء المعركة مكث «ابن رشيد» في «الحمادة» ليرتب الأمور الإدارية في المناطق الواقعة على كلا الجانبين، واستجاب كبار أهالي القرى والبلدان في مناطق «الوشم» و «سدير» لندائه ومثلوا أمامه، وتقول المصادر التاريخية إن «ابن رشيد» عين حاكماً على كل قرية من قرى هذين الإقليمين. كان ذلك أول تصادم مسلح حقيقي بين الفئة الحاكمة وبين الرعية التابعة لها، ودلت تصرفات «محمد» التي ظهرت بعد تلك المعركة على أنه أصبح الآن يدرس إمكانية عكس الأدوار. وهنا يشير المؤرخون من «نجد» أن «ابن رشيد» بدأ في هذه المرحلة يتوق للسيطرة على مملكة «نجد» نظراً لأن هناك جماعات لها مصلحة في هذا الأمر وستقدم له الدعم في مراحل تحقيق ذلك الهدف.

ومع نهاية شهر آب (اغسطس) من عام ١٨٨٤ بلغ الأمر بـ «عبد الله» إلى حد أن أدرك ما كان خلف ظهره، فأرسل أخاه «محمد» إلى «حائل» وحمله رسالة ودية إلى «ابن رشيد». استقبله «ابن رشيد» ووجبه وعاد «محمد» إلى الرياض في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول محملاً بالهدايا الثمينة، وبدون أي تحفظ تخلى «محمد» عن الإقليمين ليعودا تحت حكم «عبد الله». والجدير بالذكر أن «محمد» كان في وقت مبكر من ذلك العام قد ضم هذين الإقليمين إلى مملكته، وكان على يقين بأن الهدايا التي أرسلها إلى «عبد الله» كانت ستعود عليه في الوقت المناسب بفائدة مضاعفة. كانت الاضطرابات والفتن لا زالت على أشدها في كل المناطق التابعة لحكم «عبد الله». وبالمناسبة نقول إن وثائق المؤرخ «ابن عيسى» تتوقف عن سرد الأحداث عند هذه النقطة. ومن هذه النقطة فصاعداً علينا أن نتبع سبيلاً آخر

عبر السجل التاريخي للأحداث في الصحراء العربية، علماً بأن لدينا ما يكفي للشك بأن السجل التاريخي المكتوب بقلم المؤرخ «عبد الرحمن بن ناصر» تحت عنوان «السعد والمجد» يعوض لنا عن الجزء المفقود من الوصف التاريخي الذي بدأه، إذ إنه تعرض للكثير من الشطب والإلغاء والتصحيح الهامشي. يمكن أن يقال بأن الأسلوب هو واحد في حين أن الأجزاء التي ألغيت والتي يمكن فهمها بسهولة من المخطوطات اليدوية يبدو عليها أنها أصدق أن تكون مطبوعة من أن يكون المحرر قد قام بجهد كبير لتغيير صيغة صورة الواقع، وعلى أي حال فإن لدينا النسختين ويمكننا أن نختار فيما بينهما.

وليكن الأمر مهما يكن فإن المؤلف الجديد (وبعد أن نسخ كلمة بكلمة سجل الأحداث التي كتبها سلفه على مدى عدة سنوات سبقت المرحلة التي توصلنا إليها) يسرد الأحداث بدءاً من التاريخ الهجري ١٣٠٣ والمصادف للعاشر من تشرين الأول عام ١٨٨٥ وهي السنة التي تم فيها توقيف وسجن عاثر الحظ الأمير «عبد الله» في الرياض على أيدي أبناء أخيه «سعود»، وبعد ذلك الحدث استأثروا في الحكم. وها هي الفرصة تلوح أمام «محمد بن رشيد» ليظهر صداقته إلى «عبد الله» وفي الوقت نفسه يبسط يده على ما تبقى من المملكة السعودية، ولذلك توجه إلى الرياض على رأس قوة كبيرة تراجع أمامها أبناء «سعود» وولوا وجهتهم صوب «الخرج». تمكن «محمد» من إطلاق سرح «عبد الله» من السجن وأخذه معه إلى «حائل» حرصاً على سلامته وعين «سالم السبهان» حاكماً على الرياض وهو واحد من أكثر الشخصيات التي يثق بها، ومعروف عنه شدته وحرامه لكنه كفؤ. اختلفت

الروايات فيما إذا كان «ابن رشيد» أخذ معه في تلك الفترة إلى «حائل» «عبد الرحمن»، لكن يبدو أنه من المرجح أن «عبد الرحمن» لم يذهب إلى «حائل» لزيارة أخيه إلا بعد مضي عامين تقريباً من ذلك الحدث. كما لا تتوافر وثائق تاريخية تحدد مكان وجود «محمد بن فيصل» في تلك الفترة. ولم تعاود الوثائق التاريخية ذكر أخباره إلا في الجزء الأخير من عام ١٩٨٠ حيث ورد أنه كان في ذلك التاريخ موجوداً في الرياض، ومن المرجح أن «محمد بن فيصل» كان طيلة كل تلك الفترة ومنذ رحيل «عبد الله» إلى «حائل» موجوداً في الرياض.

وخلال خريف عام ١٨٨٦ (والذي جاء مصادفة إثر فصل الربيع الذي شهد الكثير من الأمطار)، حدثت مشكلات في إقليم «الخرج» بين أبناء «سعود» الذين لم يكفوا عن إثارة الشغب والاضطرابات، بين أهالي تلك المنطقة الذين ناشدوا «سالم السبهان» التدخل من أجل إصلاح ومعالجة الوضع. أرسل «سالم» جماعة مسلحة تحت إمرة رجل يدعى «شنيف» لمعالجة الوضع هناك، وقتل في ذلك الاشتباك ثلاثة من أبناء «سعود» وهم: محمد وسعد وعبد الله، وكان الابن الآخر «عبد الرحمن» قد سقط في معركة «أم العصافير» لكن الابن المتبقي منهم ويدعى «عبد العزيز» كان في زيارة إلى «حائل» أثناء حدوث ذلك الاشتراك، وهناك ألقى «ابن رشيد» القبض عليه وأودعه السجن بشكل مؤقت.

ومرة ثانية هطلت أمطار غزيرة وكان «ابن رشيد» في تلك الأثناء يغير على قبيلة «عتيبة» التي وجدها متجمعة بكامل قوتها في منطقة «عروى»

وهي مسرح الأحداث التي وقعت في عام ١٨٨٧ . ودار اشتباك بينهم، ويبدو أن البدو الذين كانوا تحت قيادة رجل يدعى «محمد بن هندي» تمكنوا في البداية من تحقيق النصر، إلا أن وصول مجموعة قوية من «القصيم» بقيادة «حسن المهنا» مكنت «ابن رشيد» من إلحاق الهزيمة برجال القبائل والاستيلاء على ماشيتهم ومعدات معسكراتهم.

شهد خريف العام التالي ١٨٨٧ أيضاً أمطاراً غزيرة سالت على إثرها الوديان، وخلال هذا الموسم وجه «ابن رشيد» غزواته باتجاه «العجمان» ورافقه في تلك الغزوات مرة ثانية زعيم «بريدة»، وقصة أحداث العام التالي كانت مشابهة لأحداث هذا العام، وكانت قبيلة «عتيبة» مرة ثانية ضحية تلك الغزوات.

واستجابة للشكاوى والتذمر الذي أرسله أهالي الرياض والتي أعربوا فيها عن استيائهم من «سالم السبهان» والمولع بالقتال، قام «ابن رشيد» بعزلة من منصبه وعين عام ١٨٨٧ بدلاً منه حاكماً على الرياض يدعى «فهد ابن رخيص» وخلال شتاء عام ١٨٨٩/ ١٨٩٠ قام «ابن رشيد» بغزوات اتسمت بطموح أكبر ووصلت حتى مناطق «بلي» و «جهينة» في الحجاز، وعند عودته من هذه الغزوات وجد أن ضيفه «عبد الله بن فيصل» كان يعاني من مرض شديد، وعلى الفور نزل عند رغبته وسمح له بالعودة إلى الرياض مع أخيه «عبد الرحمن». ولم يكتفي «ابن رشيد» بأن سمح له بالعودة، بل أعاد إليه كامل حقوقه في السيادة على ديرته، لكن كرم «محمد بن رشيد» هذا لم يفد الأمير كثيراً لأنه سرعان ما داهمته المنية بعد وصوله إلى الرياض ومات وبالتحديد في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٩ . مر على

توليه السلطة من والده عشرون عاماً حكم خلالها مملكة امتدت من «جبل شمر» إلى مرتفعات «عُمان» ومن شواطئ الخليج إلى حدود الحجاز واليمن.

كان لعدم كفاءته دور في تبدد هذا الإرث الملكي الكبير، كما أنه لم يتردد في جلب المساعدات الخارجية لدعم وإسناد عرشه المتداعي، وكانت النتيجة أن الأجانب ضموا إلى ملكهم كل المناطق التي أتوا لنجدتها وإنقاذها. وعندما ذهب إلى منفاه في «حائل» ليعيش بقية عمره لم يكن يملك سوى ديرته «العارض» وسيادة اسمية على «الوشم» و «سدير». كان «عبد الله» قد قضى أقل من نصف عمره بقليل محارباً في أكثر من موقع ومع أكثر من جبهة، في تلك الأثناء تولى آخرون مكانه في الحكم وسط مملكة متداعية. وكونه وعلى كل المقاييس رجل جاذبية وتهذيب وكياسة، كان ينقصها الحكمة في التعامل مع الخصوم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد بلغ سن السبعين عندما وافته المنية.

كان على أخيه الأصغر «عبد الرحمن» الذي بلغ من العمر في تلك الفترة سن الأربعين أن يتقدم موكب جنازة مملكة والده، فلم يتردد إثر وفاة أخيه «عبد الله» من يخلفه بالسلطة رغم وجود أخيه الأكبر «محمد» الذي لعب دوراً نشطاً في الحملات العسكرية التي تمت في زمانه. لكن على ما يبدو لم تكن لديه طموحات سياسية. قام «عبد الرحمن» وعلى الفور بإبلاغ «ابن رشيد» بخبر وفاة أخيه وبتسلمه السلطة من بعده، وفي الوقت نفسه طلب منه أن يسحب ممثل «آل رشيد» من الرياض المدعو «فهد بن رخيص». وافق «محمد بن رشيد» على الاقتراح الذي لم يدل على وجوب استبدال ذلك

الشخص بشخص آخر، لكنه قرر أن يعين «سالم السبهان» ممثلاً عنه في الرياض، ويقال بأنه طلب منه أن يراقب وعن كثب تحركات الحاكم الجديد الحاكم الجديد في الرياض. لم تذكر الوثائق التاريخية تاريخ وصول «سالم» إلى الرياض، لكن تذكر بعض الوثائق بأن «سالم» طلب في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٨٨٩ إذناً بأن يمثل أمام «عبد الرحمن» وأعضاء آخرين من العائلة الحاكمة لينقل إليهم تحيات سيده «ابن رشيد» بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وكانت تلك مجرد شكليات تم ترتيبها ببساطة إلا أن «عبد الرحمن» كانت لديه أسباب في استشعار خيانة ما، ولذلك فضل أن يبادر بالدفاع فما كان منه إلا أن هاجم «سالم» والرجال الذين كانوا معه، وأمر بذبح بعضهم لدى دخولهم صالة الاستقبال، لكن «سالم» تمكن من الهرب. إن ما حدث سيسفر الآن عن متاعب جسيمة. لم يكن أمام «عبدالرحمن» سوى السلاح والقيام بالتحصينات، ويبدو أن الحظ خدمه إذ حدثت تطورات غير متوقعة في «القصيم»، ولسبب ما لم تعرف تفاصيله (علماً أنه من المحتمل أن تفسر تلك التطورات استناداً إلى التنافس الدائم بين «بريدة» و «عنيزة») قام «ابن رشيد» بإلحاق الإهانة بأهالي «القصيم». ومن خلال بحثهم عن حلفاء يقفون إلى جانبهم حيال المشكلات القادمة إليهم، كتبوا رسائل إلى «عبد الرحمن» وعدوه فيها بولائهم له مقابل أن يقدم لهم الدعم.

أبدى «ابن رشيد» ردة فعل فورية لذلك التحالف الجديد، فسار بقواته باتجاه الرياض وأرسل مندوبين عنه إلى «عنيزة» ليؤكدوا على مشاعر الود التي يكنها لهم ولقادتهم، وعندما وصل بقواته إلى غايته المنشودة وجد أن

الرياض محصنة بشكل قوي ولم يكن من السهل النيل من المدافعين عنها. وعليه قرر أن يحاصرها وأثناء الحصار شن غارة على طرق الإمداد والتموين وعلى المعسكرات المنتشرة حولها، كما أقدم على تدمير واحات النخيل، ويقال بأنه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف نخلة.

وبعد مضي أربعين يوماً على هذه الأعمال التي لم تسفر عن نتيجة مجدية، تم الاقتراح على أن يجري الطرفان مفاوضات للتوصل إلى تسوية سليمة لكل الخلافات بينهما، ووافق «عبد الرحمن» على هذا الاقتراح وأرسل وفداً لذلك الغرض برئاسة أخيه «محمد» ومن بين الآخرين الذين وافقوه كان كبير المشايخ «عبد الله بن عبد اللطيف». وكان من بين الوفد الأمير «عبد العزيز بن عبد الرحمن» الذي لم يبلغ من العمر في تلك الفترة سو« عشر سنوات[1]، والذي ظهر على مسرح الأحداث في تلك الفترة لأول مرة وكان قدره أن يسيطر عندما اشتد عوده على مسرح الأحداث كلياً. تمكن الجميع بسهولة وبسرعة من تسوية المشكلات المطروحة شريطة أن يرفع «ابن رشيد» الحصار عن الرياض وأن يذهب إلى ديرته بسلام، وأن يبقى «عبد الرحمن» على عرش أجداده. من المحتمل أن يكون أي فريق منهم قد نوى فعلاً أن تكون هذه الترتيبات نهائية ودائمة، فقد بلغت خسارة «عبد الرحمن» أكثر بكثير مما يمكنه أن يسترد، في حين لم يكن أمام الطرف

---

(١) القول بأن عمر الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن كان عشر سنوات مبني على أن تاريخ ولادته كان في عام ١٢٩٧هـ. وهو قول مرجوح غلبه فيما يبدو الرأي القائل بأن مولد الملك عبد العزيز كان عام ١٢٩٣هـ وهذا يتفق مع قيام الأمير عبد العزيز المشاركة بهذه المهمة (مهمة المفاوضة) التي كلفه بها والده ضمن مفاوضاته مع ابن رشيد. للمزيد عن تاريخ مولد الملك عبد العزيز انظر خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج١، ص ٥٦، ٥٨.

الآخر سوى الشيء القليل الذي يجب أن يفوز به ليحقق حلمه في حكم إمبراطورية «نجد» ؛ والواقع أن «عبد الرحمن» كان الطرف الذي بادر في كسر هذه الهدنة .

أصيب «ابن رشيد» بخيبة أمل من تصرف «عبد الرحمن» في الرياض، وقرر أن يصفي حساباته مع أهالي القصيم لأن «حسن المهنا» الذي سقط من اعتبار «ابن رشيد» ولم يعد يلقى حظوة عنده تحالف مع «زامل السليم» زعيم «عنيزة» وقررا أن يطرحا تسلط «حائل» عن كاهلهما . سار «ابن رشيد» بقوة حشدها من رجال قبائل «شمر والظفير وحرب» حتى من رجال «المنتفق» في «العراق»، وتقدم باتجاه «المليدا» التي تقع على حافة رمال الدهناء الشاسعة في منتصف «القصيم» . في تلك الأثناء أخذ المتحالفون مواقعهم عند واحات نخيل «القرعا» ودارت لبضعة أيام بعض المناوشات بين الطرفين تكبدت قوات «ابن رشيد» بسببها خسائر جسيمة بلغت أكثر من خسائر الطرف الآخر . بعدها تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه «الضلفعة» ليغري قوات «القصيم» بالتقدم إلى أراض مكشوفة، وفعلاً تمكن فرسانة المتفوقون عدداً ومهارة من السيطرة على عدوهم الذي أصبح في تلك الأرض المكشوفة تحت رحمتهم .

نجم عن ذلك التخطيط معركة ضارية قتل فيها «زامل السليم»، كما قتل عشرة من قادة قوة بريدة المحاربة، وبلغ عدد الإصابات التي وقعت بين صفوف المتحالفين ٦٠٠ إصابة، وكان النصر الذي حققه «ابن رشيد» نصراً حاسماً بكل الاعتبارات، وأصبحت «القصيم» تحت رحمته وأمام معسكره في بلدة «الرفيعة» . وهناك استسلم إليه أهالي المدن والقرى . إصيب «حسن

المهنا» بجرح في المعركة واستسلم وتم إرساله كأسير إلى «حائل» مع عدد من أعضاء أسرته وبقي هناك لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها. عين «ابن رشيد» المدعو «سالم السبهان» حاكماً على بريدة بدلاً من «المهنا»، وعين حاكماً على عنيزة «عبد الله بن يحيى» وهو من أعضاء أسرة «السليم»، وجاء تعيينه مكان «زامل» الذي قتل في المعارك. هذا والجدير بالذكر أن معركة «الميلدا» كانت قد دارت في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني من عام ١٨٩١، وأصبح «ابن رشيد» على إثرها متحكماً بكل مناطق «نجد» دون منازع، علماً بأنه فضل الذهاب إلى ديرته ليحصل على قسط من الراحة قبل أن يتعامل مع مشكلة الرياض البسيطة.

كشف «عبد الرحمن» عن موقفه بسبب التحضيرات التي أعدها لمساعدة حلفائه في «القصيم». وعلى أي حال جاءت مشاركته في المعركة الحيوية متأخرة جداً، إذ علم بالأخبار النهائية لها عندما كان قد وصل إلى منطقة «الجريفة» في سهل «الحمادة»، وإدراكاً منه بأن المعركة انتهت، قفل راجعاً إلى الرياض وأعد ترتيبات سريعة للرحيل عن العاصمة مع أسرته يصاحبهم كل أعضاء عائلته «آل سعود» باستثناء أخيه «محمد» الذي بقي في الرياض ينتظر قدوم «ابن رشيد».

وأثناء هذه الأحداث بقي «عبد الرحمن» يهيم في المنطقة الشرقية بانتظار وصول جواب من الشيخ «عيسى» أمير البحرين بخصوص طلبه في أن يحصل أطفاله ونساؤه على اللجوء السياسي في البحرين لحين أن تجلو الرؤية عن تطورات الوضع. وبالطبع كان جواب الشيخ «عيسى» إيجابياً. وبعد أن أمن عبد الرحمن على سلامة زوجاته وأولاده في منأى من

المشكلات، قام بجمع عدد من البدو وعاد بهم إلى الرياض، لكن دون نية للبقاء فيها، وكانت الخطوة التالية التي ترتب عليه القيام بها هي اللجوء إلى «حريملاء» لكن ما أن سمع «ابن رشيد» بأخباره حتى قدم إلى منطقة «البرة» على رأس قوة كبيرة، ومن هناك شن هجوماً مباغتاً على الهاربين والفرين المتواجدين في «حريملاء»، لكن «عبد الرحمن» وأتباعه تمكنوا وبشق الأنفس من الهرب ليهيموا مرة أخرى في الصحراء بانتظار ردود تتعلق بمناشدتهم الأتراك في «الأحساء» ومناشدتهم أمير «الكويت» في السماح لهم بالاستقرار في المناطق الخاضعة لإدارتهم. وعندما رفض كل من الأتراك وشيخ الكويت طلبهم، وسار «عبد الرحمن» بجماعته عند حوالي نهاية ذلك العام باتجاه «قطر» وهناك مكث لمدة شهرين آخرين دارت خلالهما مفاوضات مع الأتراك حول شروط استسلامه. وأخيراً وبسبب المساعي الحميدة الي قام بها «حفيظ باشا» المتصرف العثماني في «الأحساء» وافقت الحكومة العثمانية أن تدفع له ستين ليرة ذهبية شهرياً، كما أذنت له بالاستقرار مع عائلته في أي مكان يشاء داخل حدود المنطقة الخاضعة للحكم العثماني. وقع اختياره على «الكويت» ليراقب منها مجرى تطور الأحداث في «نجد» وبعيداً عن أذى حكامه الجدد.

بعد حادثة «حريملاء» توجه «ابن رشيد» بقواته لاحتلال الرياض، وتمكن من هدم سورها الدائري وتحصيناتها، وعين «محمد بن فيصل» أميراً عليها بالنيابة عنه، ولم يكن ذلك التعيين سوى ترتيب مؤقت لأنه في العام التالي (ونتيجة لتذمر أهالي الرياض من أن عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم جعلتهم عرضة لغزوات أو غزوات البدو على محاصيلهم وماشيتهم) قام

«ابن رشيـد» بتعيين رجل من «حائل» يدعى «عجلان» حاكماً على إمارة الرياض، وأوكل إليه مهمة الدفاع بكل الوسائل عن أهالي الرياض. وتحولت مناطق «نجد» إلى إقليم غير جدير بالاهتمام وتابع لحكم أسرة غريبة عنه، وأصبح تاريخ «نجد» دينياً محدوداً تكثر في سجلاته التاريخية أحداث وفيات وجهاء تلك المناطق، وأمور تعيينات إدارية طفيفة كان يفرضها «ابن رشيد» من حين لآخر. ويبدو أنه لم يعد يشغل تفكير «ابن رشيد» سوى شن غارات اعتيادية في فصل الشتاء ضد مختلف قبائل البدو.

ومع نهاية عام ١٨٩٤ حدثت حادثة في «الكويت» لا بد أن يكون «ابن رشيد» قد استمد منها فكرة معينة. تجلت تلك الحادثة في أن قام «مبارك» باغتيال أخيه «محمد بن الصباح» وأخيه الآخر «جابر» واستولى على السلطة في مدينة «الكويت» وعلى القبائل فيها. وقدر له أن يمارس تأثيراً بالغ الأهمية على شؤون الصحراء العربية على مدى عشرين عاماً. بعد تلك الحادثة، ولم تغب عن ذهنه حقيقة أن وجود بقايا من عائلة «آل سعود» في ديرته كان مكسباً لا يقدر بقيمة يدعم به نشاطاته السياسية. في هذه المرحلة تعلم الأمير «عبد العزيز بن عبد الرحمن» دروسه في فن السياسة وإدارة الدولة، الأمر الذي مكنه من أن يرقى إلى منصب مرموق.

وهكذا تستمر قصة أحداث السعودية البسيطة وتنقضي السنوات ويثبت «ابن رشيد» معها نفسه على صهوة الحكم دون أن ينافسه أحد في سيطرته.

حدث في الحادي عشر من شهر تموز من عام ١٨٩٦ كسوف كلي في الشمس، ونظر بعض الناس إلى هذا الحدث على أنه نذير شؤم أو نذير كارثة، علماً بأنه لم يحدث شيء أكثر خطورة من حدث موت أمير المجمعة

«إبراهيم العسكر» الذي وافته المنية بسبب إصابته بمرض الكزاز (وهو مرض تتشنج معه عضلات العنق والفك). ولم تدرك المنية الرجل العظيم «محمد بن رشيد» إلا في شهر كانون الأول من عام ١٨٩٧، حيث توفي عن عمر مديد مشرف، وخلفه في الحكم ابن أخيه «عبد العزيز بن متعب بن رشيد»، وهو شاب كان في الثلاثين من عمره، وكان قدره أن يبدد وعلى مدى عقد من الزمن الإرث الكبير الذي خلفه له عمه «محمد بن رشيد».

صفحة بيضاء

الفصل التاسع

عبد العزيز الثانى ابن سعود

صفحة بيضاء

عبد العزيز الثاني ابن سعود

أصبحت إمارة الكويت بعد موت «محمد بن رشيد» ولفترة قصيرة محور الصراعات السياسية في الجزيرة العربية، كما أصبحت بؤرة التوتر والمنافسة الدولية. كان الأتراك قد خسروا حليفاً لهم في قلب الجزيرة العربية لا يقدر بثمن، كما كانوا على يقين بأنه لا يمكنهم الاعتماد كلياً على «عبدالعزيز بن متعب بن رشيد» خليفة «محمد بن رشيد» الذي كان أميراً على «حائل». ولم يكن بالإمكان وضع «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» في نفس المرتبة التي كان يتمتع بها زعماء قبائل «سعدون» في منطقة «المنتفق» العراقية، أو في نفس مرتبة الشيخ «مبارك الصباح»، علماً بأنه كان من الممكن للأتراك أن يعطوا «عبد العزيز بن رشيد» قيمة ومكانة، وذلك عن طريق مده بالمال والسلاح بالرغم من عدم ارتياحهم له.

من غير المحتمل أن يكون لـ «سعدون باشا» طموح في حكم وسط الصحراء العربية، فقد كان راضيا تماماً بمركزه القوي في جنوب العراق، وكان ينظر إلى الصحراء على أنها مجرد ساحة للغزوات العادة والمناوشات بين فرسان ذلك العصر، لكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لـ «مبارك» الذي كان يحلم بأن يأخذ مكان المرحوم «محمد»، وكان لديه أوراقاً رابحة يمكن أن يلعبها وذلك لكون الشخصيات الرئيسية من عائلة «آل سعود» كانوا يعيشون ضيوفاً لديه في المنفى. إن ما زاد من تفاؤله كان التصرف المستبد الذي سلكه «ابن رشيد» الجديد تجاه رعاياه. فلم يمضي وقت طويل حتى أثارت الحكومة البريطانية مخاوفه بخصوص الوضع في الكويت ونبهته لضرورة حماية

الكويت من أي اعتداء أجنبي، استناداً لما كان لدى الحكومة البريطانية من أخبار عن المباحثات العثمانية الألمانية المتعلقة بإقامة خط سكة حديد يربط بين بغداد وبرلين. وهكذا أطلقت يد «مبارك» ليقوم بمغامراته في الصحراء العربية التي كان يحتفظ بمفتاحها في جيبه، وكان بإمكانه أيضاً أن يعتمد على تعاون «المنتفق» معه في حملاته داخل المناطق الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد» الجديد، ولذلك السبب قام بغاراته مع رجال البدو ضد المناطق المتاخمة للعراق.

في الواقع اتخذ «ابن رشيد» عنصر المبادرة في تلك المسألة، ففي خريف عام ١٨٩٨ قام بتفقد المناطق المجاورة للرياض ليتأكد من أن الأوضاع في الأراضي النجدية التي مضى على حكم عمه الفعلي عليها إحدى عشر عاما كانت على ما يرام. فقدم إليه وجهاء الرياض وكبار رجال الدين فيها ليبايعوا حاكمهم الجديد، وبعد أن اطمأن من أن «عجلان» الحاكم الإقليمي كان مسيطراً على الوضع هناك، قرر الاندفاع في غارة على قبيلة «الدواسر» التي كانت في منطقة «مروطة». وقبل عودته إلى ديرته نفذ خطته وأغار عليهم وحصل على غنائم كثيرة منهم. وفي خريف العام التالي وكنتيجة للمراسلات التي دارت بينه وبين بعض المستائين من الكويتيين الذين كانوا يعيشون في المنفى بـ «البصرة» حول أنظاره باتجاه الشرق وقام بغزوة عادية ضد البدو على الحدود العراقية، وتوجه بعد ذلك بقواته نحو «الكويت» وهناك اشتبك مع القوات المحلية التي كانت تساندها قوات متحالفة معها من «المنتفق» وتمكن من هزيمتهم بسهولة ومكث هناك بعض الوقت قبل أن يعود إلى «حائل» ليقضي فيها فصل الصيف.

شهد أول خريف من القرن الجديد المزيد من التطورات وكان كلا الطرفين مستعدين للقتال، فقد شن «عبد الرحمن بن سعود» غارة على قبيلة «قحطان» في منطقة «سدير» وعاد وهو مدرك أن الظروف كانت مواتية للقيام بالمزيد من الغارات والغزوات. كان «ابن رشيد» في تلك الأثناء قد وصل بقواته حتى الحدود العراقية، وعسكر في منطقة «الهجرة» ليقضي فيها فصل الشتاء وليستغل أي ظرف يمكن أن يحدث فيها. وأثناء وجوده هناك وصلته أخبار مفادها أن «مبارك الصباح» ومعه قوة كبيرة قد غادروا «الكويت» باتجاه وادي «الشوكي» الواقع خلف صحراء «الدهناء»، ومن هناك تمكنوا من الوصول إلى «بريدة» عاصمة «القصيم». والجدير بالذكر أن قوة «مبارك الصباح» تلك كانت مشكلة من قوات «سعدون باشا» إلى جانب رجال قبائل «المنتفق» وفرقة مقاتلة من قبيلة «الظفير» ومعهم أمراء «آل سعود» الذين وجهوا نداءً إلى قبائل «العجمان» و «مطير» التي استجاب رجالها لذلك النداء وانضموا إلى الأمراء. لم يتردد «ابن رشيد» في مواجهة ذلك التحدي فسار بقواته وبسرعة باتجاه الغرب، تزامن ذلك مع توجه «عبدالعزيز (حديث السن) من وادي «الشوكي» على رأس قوة كبيرة ليجرب حظه في الرياض. وفعلاً تمكن من الدخول إليها عبر أطلال أسوارها المجردة من وسائل الدفاع، لكنه لم يتمكن من إضعاف القلعتين اللتين لجأت قوات «ابن رشيد» إليهما لتستعد ولتقاوم الحصار. كان لا بد من تسوية هذه المسألة على أرض المعركة في منطقة «الصريف» بالقرب من «بريدة». وفعلاً ألقي بكامل قوة المتحالفين في المعركة التي دارت في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٠١ ضد قوات «ابن رشيد». تمكن «ابن رشيد» في تلك المعركة من هزيمتهم، وفر مقاتلوهم في

حالة فوضى واضطراب باتجاه «الكويت». تحركت قوات «ابن رشيد» في إثرهم وطاردتهم ولم ترحم الفارين الذين وقعوا في أيديهم. وعندما تلقى «عبد العزيز بن سعود» أخبار تلك الكارثة انسحب بسرعة من الرياض. احتفل «ابن رشيد» بنصره ذلك بأن أنزل في أهالي «بريدة» وأهالي بلدان أخرى في «القصيم» أقسى أنواع الوحشية في التعامل وكان ذلك عقاباً لارتدادهم عن التحالف معه، وأرسل أيضاً الشخصية المعروفة «سالم بن سبهان» إلى الرياض ليقوم بالدور نفسه.

أصبح الآن بمقدور «ابن رشيد» أن يعود إلى تنفيذ خطته الأصلية التي وصل بموجبها في الخريف الماضي حتى منطقة «الجهرة». وكان من الواضح أنه توصل مع الأتراك إلى اتفاق يمكنه من مهاجمة «الكويت» التي ضعفت القوات المدافعة عنها بسبب معركة «الصريف». وعليه تحرك بقواته باتجاه «حفر الباطن» وسرعان ما وجد نفسه أمام أسوار «الجهراء» وهي قرية تقع على الطرف الداخلي من خليج الكويت، وهنا ناشد «مبارك» البريطانيين ليقدموا له المساعدة، وفعلاً أرسل البريطانيون سفينة حربية لتصف معسكر العدو. وفي ظل هذه الظروف وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الحصار غير الفعال، قرر «ابن رشيد» أن يتراجع بقواته إلى معسكره في «الحفر»، ومن هناك تابع المسير باتجاه «حائل» ليقضي استراحة فصل الصيف المعتادة. كان انتصاره في معركة «الصريف» بمثابة موضوع قيم جداً، لكن عنصر المبادرة في الانتصار تحول لصالح أعدائه.

يبدو أن «مبارك» و «عبد الرحمن آل سعود» لم يعد لديهما الجلد على القيام بالمزيد من المغامرات في الصحراء، بسبب الهزيمة التي لحقت بهما

مؤخراً. لكن «عبد العزيز» الحديث السن والذي كان قد بلغ من العمر واحداً وعشرين عاما، كان يتحفز للقيام بنشاط ما. ويمكن أن تكون تجربته الشخصية في الشتاء الماضي قد ولدت لديه بعض الأحلام التي بدورها شجعته لمعاودة المحاولة في الاستيلاء على الرياض.

حصل «عبد العزيز» على موافقة «مبارك» وموافقة والده على خطته في شن حملات وغزوات عبر الصحراء خلال خريف عام ١٩٠١. لكن لم تكن موافقتهما لتخلو من الهواجس والشكوك. غادر «عبد العزيز» الكويت ومعه أربعون شخصاً من أتباعه المجاهدين، وبدأ في حشد التعزيزات من البدو، وشرع في غزو القبائل المعادية له وصولاً حتى حدود إقليم «الأحساء» (الذي كان في تلك الفترة خاضع للاحتلال التركي) ومشارف إقليم «سدير». وفي شهر كانون الأول وصل إلى موارد مياه «حرض» (التي هي حالياً منطقة غنية بالنفط)، ومكث هناك ليقضي شهر رمضان. وما إن انقضى شهر رمضان حتى شمر عن ساعديه استعداداً للمغامرة الكبيرة التي توجت بعد خمس سنوات وبالتحديد في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٢ باسترداد الرياض. تكرر ذكر تفاصيل تلك المغامرة الدرامية مرات عديدة لدرجة أنه لا حاجة لذكرها في هذا السياق. قتل في تلك المعركة «عجلان» الحاكم الذي عينه «ابن رشيد» كما قتل معه العديد من رجال الحامية التي كانت تحت إمرته؛ وهرع أهالي الرياض الذين أصابتهم الدهشة والذهول ليقدموا مرة ثانية ولاءهم إلى عائلة «آل سعود» كما كان الحال في الأيام الخوالي. وخلال شهر من الزمن ارتفعت أسوار الرياض التي هدمها «محمد بن رشيد» لتحصن العاصمة السعودية من جديد.

أصبح همّ «ابن سعود»[١] الآن ترتيب أمور نقل والده وبقية أسرته من «الكويت» إلى «الرياض»، حيث أعد لهم استقبالا يليق بالأبطال. جلس الأب والابن ليتدارسا المشكلات التي تواجه حكمهم الجديد، وبسهولة اتفقا فيما بينهما على أن يحتفظ «عبد الرحمن» بلقب الإمام لكونه رئيس الأسرة الملكية الحاكمة، وأن يكون ابنه الرئيس الفعال للدولة والقائد العام للجيش، ولم يسفر هذا الوضع نوعاً ما عن أية مشكلات على صعيد الممارسة العملية، لأن «عبد العزيز» كان لا ينزل عن رغبة أو إرادة والده في القضايا الرسمية، كما أن الوالد لم يسمح لنفسه أبداً بأن يتدخل في شؤون الدولة التي كان مجلس قادتها الحكماء تحت إمرة ابنه دون أي تحفظ. وهكذا كانت ولادة علاقة ساحرة بين الابن وابنه، ارتكزت تلك الرابطة على تفاعل بين احترام الابن لأبيه وكرامة الأب المرعية باستمرار، قدر لتلك العلاقة أن تستمر دون أن يعكر صفوها أي توتر أو عدم اتفاق في الرأي، إلى أن توفي الإمام «عبد الرحمن» في عام ١٩٢٨ عن عمر يناهز الثامنة والسبعين. والجدير بالذكر أن «عبد الرحمن» كان ينوب عن ابنه «عبد العزيز» في كل القضايا التي لها علاقة بالإدارة المركزية في العاصمة نظراً لأن الابن كان منشغلاً في معظم الأوقات في ساحات القتال.

أصبح «ابن سعود» الآن مشغولاً بالمهام الصعبة والشاقة والرامية لاستعادة مكانة أسرته الحاكمة في كافة الأقاليم. وكان «ابن سعود» يتصرف بثقة تامة

---

(١) المقصود بابن سعود: هو جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مؤسس وموحد المملكة العربية السعودية الحديثة، وهو من الأسماء العديدة التي كانت تطلق عليه من قبل الكتاب والمؤرخين.

(المعلق)

من أن الأمور كانت تجري على ما يرام حتى في غيابه، وهكذا قام بنفسه باستعادة سيطرته على المناطق الجنوبية وعلى المناطق القبلية التي لم يعاملها «ابن رشيد» بلطف وكياسة. تقدم «ابن سعود» بقوته إلى مناطق «الخرج» و«الأفلاج» و «الحوطة» و «الحريق» ليحظى بقسم الولاء له من زعمائها ووجهائها. هذا وأرسل أهالي «وادي الدواسر» وفداً عنهم ليعربوا عن ولائهم له. لكن «ابن سعود» اضطر لمهاجمة قبيلة «قحطان» في منطقة «حلبان» ليؤكد للجميع إصرار الحاكم الجديد على قدرته في الحكم بالاسم والفعل.

طالما أن الموالين لابن سعود في الأقاليم الشمالية لم يكونوا في وضع يمكنهم من تحدي سلطة حكام «آل رشيد» المفروضة عليهم، فقد قرر «ابن سعود» ترك الأقاليم الشمالية لمناسبات قادمة. وكان «ابن رشيد» نفسه بطيئاً في الرد على الوضع الجديد في الجنوب، ولم يتمكن من السير بقواته جنوباً إلا مع حلول خريف عام ١٩٠٢، وفي طريقه إلى هناك أقام مقراً لقيادته في منطقة «رغبة» الواقعة على حافة سهل طويق، ومن هناك بعث فرق كشفية لتحاول التأثير على التحالف بين قبائل «العجمان» و «المرة» في الأحساء، إلا أن «ابن سعود» تصدى لمحاولته تلك بأن أرسل أخاه «محمد» ومعه ابن عمه «عبد الله بن جلوي» ليحبطا مكيدته تلك.

وبسبب التزام قبيلة «المرة» بالدعوة للشيخ محمد بن عبدالوهاب الرشيدي كان بالإمكان إسقاط تصرف قبيلة «العجمان» المتذبذب من حسابات المعركة وعدم الإكتراث به. وبينما كان «ابن رشيد» يعسكر بقواته في منطقة «رغبة» كان «ابن سعود» غير منشغل بأي شيء سوى أن يعد

الخطط لجره إلى المعركة. وكان أول عمل قام به هو أن ترك المدافعين عن الرياض وراء الأسوار يدافعون عنها وتوجه بقواته نحو «الحائر» في وادي حنيفة، ومن هناك تقدم باتجاه «الحوطة» ليحشد ويجند أهلها الشجعان بين صفوف قواته. في تلك الأثناء أيضا أرسل «محمد السديري» على رأس قوة ليحتل «الدلم» عاصمة «الخرج»، كما أرسل أخاه «سعد» إلى «الحريق» ليجلب المزيد من التعزيزات.

احتار «ابن رشيد» أمام هذه الاستراتيجيات، فما كان منه إلا أن تقدم نحو آبار «الحسي» عند مدخل ممر «الحيسية» واستراح هناك لفترة من الزمن، إلا أن اندلاع مرض الحمى بين صفوف قواته عكر صفر تلك الراحة. عطله ذلك الوباء بعض الشيء وكان ذلك التأخير - من وجهة نظره - أكثر خطورة من الإصابات التي نجمت عن ذلك الوباء، وعلى أي حال تقدم باتجاه «بنبان» ومن هناك هبط بقواته فوصل إلى منطقة «الخرج». كان «ابن رشيد» ينوي مهاجمة «الدلم» فوصل إلى واحات نخيل «نعجان» القريبة منها واحتلها، لكن الوقت كان متأخراً بعض الشيء ليقوم بإجراء آخر فعال. لم يكن «ابن رشيد» على علم بأن «ابن سعود» وصل بنفسه في الليلة السابقة إلى «الدلم» على رأس قوة كبيرة. وعندما دفع بقواته في صباح اليوم التالي إلى أرض المعركة تعرضت تلك القوات لنيران مهلكة صوبتها عليهم القوات المدافعة التي كانت مختبئة في واحات «الدلم» وأجبرتهم على التراجع بشكل فوضوي. هذا وطاردهم فرسان «آل سعود» في السهل الواقع بين الواحتين، إلا أن «ابن رشيد» تمكن من إعادة تنظيم قواته ودارت معركة شرسة دامت من وقت الظهر حتى غروب الشمس، وكانت النكسة بمثابة

عامل حاسم للغاية للقيام بهجوم مضاد في وجه قوة كانت أكبر من القوة التي كان يعتمد عليها، وعليه اضطر «ابن رشيد» إلى الانسحاب خلال ساعات الليل باتجاه «السلمية» في الطرف الشرقي من الإقليم، ومن هناك، وبعد مشاهدة خيالة «آل سعود» تطارد قواته، تحرك بقواته سريعاً باتجاه وادي «السلي» ووصل إلى آبار «حفر العتش» البعيدة والآمنة نسبياً.

وبعد بضع سنوات وأثناء وصفه للمعركة الحاسمة اعترف «ابن سعود» بأنه كان من الممكن أن تسير الأمور على نحو سيئ ولا تخدم قضيته لو أن «ابن رشيد» كان على علم بعامل واحد حيوي ومهم. ذلك يعني أنه كان لدى «ابن سعود» عدد كبير من المقاتلين، إلا أن مخزونة من الذخيرة كاد ينفذ خلال الاشتباكات، وكانت المطاردة التي قام بها فرسانة لقوات العدو أكثر من مجرد إشارة تحد، إلا أنها حققت الغرض المطلوب. ظل «ابن رشيد» على هدوئه في منطقة «حفر العتش» بالرغم من أن همته قد فترت بسبب الهزيمة التي لحقت به في منطقة «الدلم». على أي حال أمضى «ابن رشيد» الأشهر المتبقية من موسم عام ١٩٠٢/ ١٩٠٣ في حملات غزو شنها في اتجاهات متعددة. شجعته الانتصارات التي حققها ضد قبيلة «العتيبة» بالقرب من «الأرطاوية» وضد قبيلتي «سبيع» و «السهول» في صحراء «الدهناء» على التحرك باتجاه «الكويت»، وقام هناك بهجوم على رجال قبائل «العربدار» الذين كانوا على مقربة من الكويت نفسها. أدخل ذلك الهجوم الذعر في قلب الشيخ «مبارك»، وعلى الفور أرسل رسالة عاجلة إلى «ابن سعود» طلب منه فيها أن يقدم له العون، وعلى الفور وبسبب حاجته لتعويض مخزونه من الذخيرة قدم «ابن سعود» إلى الكويت على

رأس قوة كبيرة تقدر بعشرة آلاف رجل، وهناك انضم إليه «جابر» ابن الشيخ «مبارك» ومعه قوة تقدر بأربعمائة رجل. قامت تلك القوات بمهاجمة حلفاء «ابن رشيد» من قبيلة «مطير» الذين كانوا تحت إمرة «عماش الدويش» وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم في منطقة «الصمان» وسلب كل ممتلكاتهم. في تلك الأثناء قرر «ابن رشيد» الذي عاد مسرعاً إلى معسكره في «حفر العتش» أن يهاجم الرياض نفسها، وتمكن من الوصول بقواته إلى هضبة «أبو مخروق» التي تبعد على مسافة مد النظر من الرياض دون أن يشعر بتقدمه أحد، ومن هناك تقدم باتجاه العاصمة، ولسوء حظه أن أحد البدو لاحظ تقدم قواته باتجاه الرياض وأنذر «ابن سعود» بذلك، وعلى الفور قام أهالي الرياض بتعزيز تحصيناتهم وحشد قواتهم، وباعتبار أنه لم يعد الآن هناك مجال للقيام بهجوم مفاجئ، فما كان من «ابن رشيد» إلا أن نفس عن غضبه بأن دمر واحات النخيل المحيطة بالرياض وقتل عدداً من الفلاحين المسالمين. حدثت أيضاً بعض الاشتباكات بالقرب من أسوار الرياض بين الفرق المدافعة عن الرياض وبين قوات «ابن رشيد»، وكونه قد خسر عنصر المبادرة قرر «ابن رشيد» في اليوم التالي التخلي عن محاولته في احتلال الرياض وسحب قواته وتوجه بها شمالاً، ولم يعد بعد ذلك الحدث باتجاه الجنوب مرة أخرى.

أصبح الهم الرئيسي لـ «ابن رشيد» الآن هو أن يعزز قوة أقاليم «الوشم وسدير والمجمعة» في الشمال لتقاوم أية محاولة يمكن أن يقوم بها «ابن سعود» لاستردادها، ولذلك بنى «ابن رشيد» قلعة في منطقة «ثرمدا» في الوشم، ووضع بها حامية قوية للدفاع عنها، كما قام بوضع حاميات مماثلة في «المجمعة» و «روضة سدير»، وبعد أن أمن على أن شقراء» عاصمة إقليم

«الوشم» كانت إلى جانبه، شعر أن بإمكانه التراجع باتجاه إقليم «القصيم» لينظر ويراقب تطور الأحداث.

وعند عودته إلى الرياض قادماً من الكويت وجد «ابن سعود» نفسه مسيطراً سيطرة تامة وبدون منازع ليس فقط على إقليم «العارض» (الذي يشتمل على العاصمة الرياض)، بل أيضاً على كل الأقاليم في جنوب «نجد». وأفادت أول الأخبار التي وصلت من أرض المعركة بعد وصوله أن «مساعد بن سويلم» الذي كان الإمام «عبد الرحمن» قد أرسله على رأس قوة لاحتلال المناطق الشمالية في أعقاب تراجع العدو، لم ينجز مهمته فحسب بل زاد عليها أن شن هجوماً على «شقراء»، ولم يبد القائد الرشيدي هناك والمدعو «صويغ» أية محاولة للدفاع عنها بل هرب إلى قلعة «ثرمدا» وتبعه إلى هناك «مساعد» بعد أن احتل عاصمة «الوشم» بدون مقاومة. أرسلت التعزيزات على الفور إلى إقليم الوشم تحت إمرة «عبد الله بن جلوي»» لكن يبدو أن حامية «ثرمدا» كانت قد جلت قواتها عن القلعة تحت جنح الظلام قبل أن تصل تلك التعزيزات. وفي تلك الأثناء كانت قوات أخرى قد وصلت إلى إقليم «سدير» قادمة من الرياض، ولم تلقى تلك القوات أية مقاومة إلا في منطقة «الروضة»، وعلى أي حال تم دحوها وهربت القوة إلى «المجمعة».

يبدو أن «ابن سعود» في هذه المرحلة كان قد توجه شمالاً ليدير العمليات بنفسه، ولم يكن بإمكان «ابن رشيد» أن يفعل أي شيء قبل عودته إلى ديرته بشكل نهائي أكثر من أن يدمر بعض القرى العاجزة عن الدفاع عن نفسها

والقريبة من منطقة «عشيرة» الواقعة على التخوم الشرقية لإقليم «سدير». والجدير بالذكر أنه كان قد وصل إلى «عشيرة» عن طريق «الزلفي» في محاولة منه لاستعادة الأوضاع هناك. وحيال هذا الوضع سارع أهالي «المجمعة» لاستدرار رأفة «ابن سعود» ومسامحته لهم عن زلاتهم الماضية، واستسلمت أيضاً مدينة «الزلفي» له، وهكذا انهار كل النظام الدفاعي لهذه الأقاليم الذي كان «ابن رشيد» قد رتبه على عجل قبل تراجعه إلى «القصيم».

تم ذلك الانهيار بشكل غير عادي عند ظهور أول بوادر قوات «ابن سعود»، وقد سبب القتال الذي نشب للاستيلاء على إقليم «القصيم» الحيوي بالنسبة للقائدين مشكلات جادة. ومن الواضح أن «ابن رشيد» بدأ يدرك أن مكانته أصبحت محفوفة بالمخاطر بسبب تخلي القرى والقبائل عن قضيته، لكنه كان لا يزال يسيطر على مصادر ثروات القصيم لإطعام جنوده طيلة وجودهم هناك، إلا أنه لم يكن ليثق بأن أهالي القصيم سيقفون إلى جانبه إذا تردت الأمور، وبدا أن أمله الوحيد في التصدي لتقدم قوات «ابن سعود» كان يمكن في البديل الأكثر خطورة وهو مناشدة الأتراك في تقديم العون له. لن يكون الأتراك في تلك الحالة مستائين من تقديم ذلك العون لسبب بسيط هو أنهم نتيجة هذا الموقف سيضعون قدمهم في وسط الصحراء العربية لدعم إقليم «الأحساء» الخاضع لسيطرتهم، والذي فازوا به نتيجة تدخلهم قبل ثلاثين عاماً لدعم موقف «عبد الله بن سعود».

قرر «ابن رشيد» أن يتمسك بالقشة الأخيرة تلك، ولذلك أرسل رسائل إلى الوالي التركي في بغداد وشرع في إعداد ترتيبات مؤقتة للدفاع عن «القصيم» مستبقاً بذلك وصول جنود السلطان التركي. فأقام معاقل قوية في

منطقتي «عنيزة» و «بريدة» ووضع الحامية في «بريدة» تحت إمرة الحاكم المحلي، كما وضع الحامية في «عنيزة» تحت إمرة ابن عمه «ماجد بن حمود» تحسباً من ردة فعل أهالي «عنيزة» المشكوك في ولائهم له، وأقام موقعاً متقدماً عززه ببدو قبيلة «حرب» وواصل نشر قواته حتى منطقة «السر» وجعل «حسين بن جراد» قائداً على ذلك الموقع وكلفه بمراقبة أي تقدم للقوات السعودية وبالتصدي لها إذا اقتضى الأمر.

أما بالنسبة لـ «ابن سعود» فقد وضعه احتلاله السهل لكافة الأقاليم وصولاً إلى حدود إقليم القصيم حيال ورطة ومأزق صعب، إذ إن الجفاف الذي جلبه فصل الشتاء وميل قادة «ابن رشيد» إلى نزعة السلب والنهب جردا كل المناطق الخاضعة له من خيراتها، فلم يكن بإمكانه الاعتماد كلياً على دعم الأهالي في حال قرر أن يجازف بالتقدم الفوري باتجاه القصيم. وبالطبع رأى كبار الشخصيات المعروفة بتأييدها لقضيته أنه من الحكمة أن يرفعوا أيديهم عن موضوع القصيم خوفا من انتقام «ابن رشيد» وأخذه للثأر منه وفضلوا في تلك المرحلة استمرار الإقامة في الكويت بانتظار تطور الأوضاع في منطقة «نجد». وعليه قرر «ابن سعود» العودة إلى الرياض مؤقتاً وأرسل رسالة إلى «الشيخ مبارك» يطلب منه أن يرسل أهل القصيم إلى «نجد» لينضموا إليه، وكانت هذه الجماعات متلهفة لحدوث فرصة يمكنهم من خلالها المساعدة في تحرير مناطقهم من نير الحكم الرشيدي. وفعلاً وصلت إلى الرياض جماعة منهم تقدر بمائتي رجل كان بينهم «عبد العزيز السليم» زعيم «عنيزة» و «صالح المهنا» زعيم «بريدة».

لم يضيع «ابن سعود» الوقت فسارع في تنشيط عملياته، فاشتبك في أوائل شهر آذار من عام ١٩٠٤ مع جماعة «حسين بن جراد» في منطقة

«السر» وألحق بهم هزيمة نكراء كما ألحق الهزيمة أيضا بمؤيديهم من قبيلة «حرب» في منطقة «فيضة السر». وعند نهاية ذلك الشهر تمكن بعد أن تجنب الموقع المتقدم الذي كان إمرة «ماجد بن حمود» من شق طريقه ليلاً وتمكن من دخول «عنيزة»، وحدث هناك اشتباك قتل فيه نائب «ابن رشيد» المدعو «فهيد بن سبهان»، كما قتل أخو «ماجد» المدعو «عبيد». لم يكتفي «ابن سعود» بالاستيلاء السهل على مدينتين رئيستين في إقليم القصيم. فسار بقواته ليلاً يبحث عن موقع القوة الرئيسية لعدوه التي كانت تحت إمرة «ماجد»، ووصل به البحث حتى وصل إلى أواسط واحات النخيل في وادي «الرّمة»، وهناك هاجم عدوه على حين غرة وحدث اضطراب بين الجنود، فما كان من «ماجد» إلا أن هرب وتمكنت قوات «ابن سعود» من الاستيلاء على المعسكر وأخذت كل المؤن والمعدات التي كانت فيه. والحدث الطريف في هذه المرحلة أن «ابن سعود» عثر على أبناء عمه الثلاثة والذين كانوا إما في معسكر وادي «الرّمة» أو في «عنيزة» نفسها، والجدير بالذكر أن أبناء عمه الثلاثة هؤلاء هم أحفاد عمه «سعود» الذين كانوا قد انضموا إلى صفوف «ابن رشيد» على أمل أن يستعيدوا حكمهم على العاصمة الرياض بفضل مساعدته وبفعل الشهامة التي أصبحت جزءاً من شخصيته عفا «ابن سعود» عنهم وعرض عليهم أن يختاروا بين البقاء معه أو الالتحاق بـ «ابن رشيد». وعليه قبلوا عرضه الهادف إلى السلام والدال على حسن الضيافة.

أصبح الآن الطريق إلى «بريدة» سالكاً أمام «ابن سعود» فلم يجد صعوبة في احتلالها، علماً بأن الحامية الرشيدية هناك رفضت الاستسلام واستحكمت في القلعة الكبيرة لتقاوم الحصار على أمل أن يأتي «ابن رشيد»

في الوقت المناسب لكسر طوق الحصار عنهم. على أي حال لم يتحقق ذلك الأمل، وبعد مضي حوالي شهر من الاقتتال المتقطع والقنص استسلمت الحامية الرشيدية وفق شروط معينة، وسمح لها بالخروج مع أسلحتها لتلتحق بزعيمها في «حائل»، وأصبح «ابن سعود» الآن سيد الجزء الغربي من «القصيم» في حين بقي الجزء الشرقي وعاصمته «الرس» (ولو اسميا» على ولائه لـ «ابن رشيد» والذي سرعان ما تحول ليصبح قاعدة لعملياته. بدت مناشدة «ابن رشيد» للأتراك تؤتي ثمارها فوصلته ثمانية كتائب من القوات النظامية (التي كان بعضها من المدينة) تحت إمرة «صدقي باشا»، وكان بعضها الآخر من بغداد تحت إمرة «فوزي باشا» الذي كان في مركز القائد العام لكافة تلك القوات.

استسلمت «بريدة» في أوائل شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٠٤، وبعد مضي بضعة أسابيع على هذا الحدث بدأ «ابن رشيد» يتحفز، إذ كان الأتراك قد مدوه وبشكل تام بالمال والسلاح والمعدات، وأصبح بمقدوره أن يحشد ضمن قواته أعداد كبيرة من بدو قبيلة «حرب» وقبيلة «عتيبة» إضافة إلى رجال قبيلته من «شمر». وبهذه القوة من المحاربين إلى جانب الكتائب التركية، تقدم «ابن رشيد» باتجاه القصيم التي وصلها عند حوالي نهاية شهر آب، وبالتحديد يمكن القول إنه وصل إلى منطقة «القرعا» المجاورة لها. قبل «ابن سعود» ذلك التحدي وسار بقواته إلى منطقة «البصر» وهي إحدى الواحات الصغيرة في منطقة تعرف باسم «الخبوب»، وتمركز في موقع جعل من كثبان الرمال فيه ستاراً واقياً لقواته، وتمكن من ذلك الموقع من مراقبة تحركات «ابن رشيد» دون أن ينخرط في أي هجوم مباشر، وبدأت

المناوشات المتقطعة إلى أن تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه رمال «الشيحية» المتموجة حيث كان بإمكان مقاتليه أن يحتموا أثناء النهار بواحات النخيل المنتشرة هناك، كما كان من الممكن لفرسانه من ذلك الموقع أن يتحركوا بسهولة إذا اقتضت الضرورة.

رد «ابن سعود» على ذلك التحرك بأن تقدم إلى واحات «البكيرية» الشاسعة وترك جيشه يرابط خلف كثبان الرمال العالية والممتدة طولاً والتي تفصل بينه وبين قوات العدو، ولم يباشر «ابن سعود» في الهجوم المخطط له أن يتم في فجر اليوم التالي. تجمعت قوات «ابن سعود» في واحات النخيل التي اتخذت منها مأوى لتخفف عن نفسها من لهيب شمس النهار، وعندما توسطت الشمس كبد السماء داهمتهم قوات «ابن رشيد» واحتدمت المعركة ودامت حتى غروب الشمس. استفادت قوات «ابن سعود» من واحات النخيل واستحكمت خلفها وتمكنت بذلك من إنزال خسائر جسيمة بين صفوف المهاجمين، لكن لم يكن بإمكان قوات «ابن سعود» البقاء في واحات النخيل بعد هبوط الظلام، ولو فعلوا ذلك لجازفوا باحتمال أن تدحرهم قوات العدو التي كانت تفوقهم عدداً. وبالتدريج ومن خلال حماية مؤخرتهم تمكنوا من التسلل عبر الواحات ووصلوا كثبان الرمال التي كانت خلفهم، ومن هناك سارعوا إلى التراجع بأقصى سرعة ممكنة تحت جنح الظلام.

ظلت قوات «ابن رشيد» مسيطرة على أرض المعركة، لكن أخيراً جاء دور قوات «ابن سعود» لتفاجئهم عند غروب الشمس فاصطدمت فرقة القصيم (التي كانت قد وصلت متأخرة جداً للمشاركة في القتال والتي لم يكن لديها

علم بتراجع قوات حلفائها) بقوات ابن رشيد إثر معركة النهار . ودارت كفة الموازين تماماً وتكبدت قوات «ابن رشيد» الكثير من القتلى والجرحى أثناء انسحابها من تلك الواحة، ويبدو من التقديرات عن هذه الفترة من تطور الأحداث أن الاشتباكات بين الفريقين استمرت على مدى اليوم أو اليومين التالين، إلا أن المواجهة الرئيسية بين القوتين كانت قد حدثت وانتهت لأن أهل القصيم توقفوا عن القتال وانسحبوا إلى قواعدهم، ذلك لأنهم علموا بخبر تراجع القوات الرئيسية في جيش «ابن سعود» وخافوا من وصول تعزيزات «ابن رشيد» .

سحب «ابن رشيد» أيضاً قواته باتجاه معسكره في منطقة «الشيحية» لكنه ترك في «البكيرية» فرقة عمل في وقت لاحق على تعزيزها ودعمها . كان جيش «ابن سعود» في تلك الأثناء قد وصل بتراجعه إلى «عنيزة» وهناك أعاد تجميع قواته، وانضمت إليه في وقت لاحق فرقة رجال القصيم . وكان «ابن رشيد» قد أمر قواته بأن تتقدم باتجاه «البكيرية»، وهناك لقيت هذه القوات هجوما مباغتا ليلاً من قوات «ابن سعود»، فتراجعت قوات هذا المعسكر لتحتمي بالقرية ودارت هناك معركة ضارية استمرت طيلة الليل . وفي النهاية اضطرت قوات «ابن رشيد» إلى فك الاشتباك والهرب باتجاه «الخَبْراء»، وهناك حاولوا الاستيلاء عليها لكنهم فشلوا بعد حصار دام لعدة أيام استخدمت القوات الرشيدية فيه المدافع وقصفوا بها تلك القرية .

اتجه «ابن رشيد» بعد ذلك نحو «الرس» واعترضت تقدمه هناك قوة من فرسان «ابن سعود» التي كانت تحت إمرة أخيه «محمد» وأحبطت محاولته، فما كان منه إلا أن حول وجهة مسيره باتجاه قرية «الشنانة» المجاورة واتخذ

منها مقراً للقيادة ومكث فيها لمدة شهر تقريباً. حدثت خلال ذلك الشهر مناوشات متقطعة بين خيالة الفريقين، وبدأت قوات «ابن رشيد» الاحتياطية من البدو بالتململ بسبب صعوبة تأمين المراعي لجمالها حيال غارات العدو المتكررة. وعملياً فقد وجد نفسه مضطراً للقيام بإجراء سابق لأوانه، فسحب قواته إلى الخلف وكأنه في حالة تراجع باتجاه واحة مجاورة يقال لها واحة «قصر ابن عقيل» والتي تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من «الشنانة»، وأثناء ذلك التراجع قام «ابن سعود» بمطاردة قواته ومهاجمتها بشكل عنيف، وبعد مضي بضعة أيام من القتال الشرس قرر «ابن رشيد» تحت ضغط من البدو أن يتراجع عن القتال، فقامت قواته بتحميل معداتها وأسلحتها على الجمال التي انطلقت تحت جنح الظلام في رحلة طويلة باتجاه «حائل». وفي الصباح أطلق «ابن سعود» فرسانه في أعقاب القافلة الشاردة وأمر القوة الرئيسية من جيشه بممارسة الضغط والهجوم على مشاة قبيلة «شمر» وعلى القوات التركية التي كانت في وسط رمال قعر الواد. تمكن فرسان «ابن سعود» من إفساد وتدمير وسلب الجزء الكبير من مؤونة ومعدات وأموال تلك القافلة، وعندما علم «ابن رشيد» بذلك قرر العودة إلى المعسكر إلا أن الضغط المتواصل من قبل خيالة «ابن سعود» ألحق بهم الهزيمة. وهنا يقول المؤرخ «ابن ناصر»: «إنه قام بعض مقاتلي «ابن رشيد» بالسير مع البدو وبعدها هربوا من الخدمة، في حين شرد وتاه البعض الآخر في الصحراء ولقي مصرعه فيها، وأما ما تبقى منهم فاستسلم لقوات الإمام الذي أمن لهم المأوى وعاملهم معاملة حسنة».

دامت معركة «البكيرية» على مدى شهري أيلول وتشرين الأول، وانتهت

المعركة بانتصار تام لقوات «ابن سعود». رغم أن ثمانية كتائب من القوات التركية النظامية كانت قد انتشرت في أرض المعركة، لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الأتراك كانوا يحاربون تحت ظروف غريبة عليهم ووسط أحوال جوية غير مواتية تميزت بجفاف الصحراء في لهيب الصيف. على أي حال لم يكن أداء الأتراك متميزاً ومنوا بهزيمة على أيدي عدو شجاع ومتمرس في القتال لم تكن تتوافر لديه سوي مصادر قتالية أقل بكثير من تقنية وجودة معدات الأتراك أنفسهم.

تراجع «ابن رشيد» بقواته إلى «الكهفة» وهي قرية تقع ضمن حدود «جبل شمر» ومن هناك بعث بأخبار الكارثة إلى بغدا وناشد الوالي فيها أن يقدم له المساعدة. حدث عند هذه المرحلة من تطور الأحداث أن جاءت أخبار تفيد بوقوع تمرد عنيف ضد الحكم التركي (العثماني) في منطقة «اليمن»، وتفيد تلك الأخبار أيضاً أن ذلك التمرد تم بقيادة الإمام «يحيى حميد الدين». وبنفس الوقت كانت الحكومة العثمانية مضطرة لتضييق مدى مسؤولياتها في وسط الجزيرة العربية لتقوم بإجراء معين من شأنه أن يعيد سيطرتها وهيبتها في المناطق الجنوبية. وعليه صدرت الأوامر إلى «أحمد فوزي باشا» بأن يتوجه على جناح السرعة إلى «اليمن» ليتولى قيادة القوات الموجودة هناك إضافة إلى قيادة التعزيزات التي كانت في طريقها إلى هناك أيضاً، وكلف أيضا «صدقي باشا» بقيادة القوات الموجودة في المناطق الداخلية من الصحراء العربية، ويبدو أن «صدقي باشا» كان قد تلقى تعليمات بشأن إجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية للخلاف مع «ابن سعود»، وبالتالي ليخلص الأتراك المشاركين في الحملة العسكرية هناك من الورطة التي

وجدوا أنفسهم فيها وسط الصحراء.

قامت السلطات العثمانية في العراق في تلك الأثناء بإرسال رسالة عن طريق أمير الكويت إلى الإمام «عبد الرحمن» في الرياض تقترح فيها إجراء مفاوضات فورية على الصعيد السياسي، وتمت الموافقة على ذلك الطرح وتوجه الإمام إلى الكويت لمنافشة الأمور مع والي البصرة وبحضور الشيخ «مبارك». اقترح الأتراك أن يبقى إقليم «القصيم» بمثابة دويلة محايدة تقع بين دولتين تحول دون تصادمهما، على أن تقوم القوات التركية (العثمانية) بحمايتها والإشراف عليها إلى أن يتم التوصل إلى تسوية نهائية لكافة القضايا المتنازع عليها بين «ابن سعود» و «ابن رشيد». وافق الإمام على هذا الطرح دون تردد شريطة أن يحال الأمر إلى أهالي نجد ليصادقوا عليه. وهنا وصلت إليه أخبار مفادها أن ابنه عاد من «القصيم» وتحرك باتجاه «الأحساء» للقائه، وبعد أن تباحث الأب مع ابنه في أمر المفاوضات التي دارت في الكويت قرر العودة وبشكل فوري إلى القصيم. لكن في الواقع لم يذهب «عبد الرحمن» أبعد من «شقراء» حيث مكث هناك ليعيد تنظيم الأمور الإدارية ولينظم المزيد من المقاتلين بين قواته تحسباً للحاجة، وفي تلك الأثناء استمر ابنه في التقدم باتجاه «عنيزة» لمقابلة «صدقي باشا» و «فوزي باشا» اللذان كانا لا يزالان موجودين هناك. وفي ذلك اللقاء أعيد طرح موضوع إقامة المنطقة المحايدة على أن ترابط القوات التركية في «بريدة» و «عنيزة». رفض ذلك الطرح بالرغم من قبوله من قبل «صالح بن مهنا» الذي وجد نفسه في دور الزعيم القصيمي المفاوض تحت الحماية العثمانية وبشكل مستقل تماماً عن «حايل» و «الرياض». وكلما تمخضت عنه المفاوضات

المتجددة كان التوصل إلى اتفاق يقضي برحيل القوات التركية عن بغداد وعن المدينة المنورة على أن يؤمن «ابن سعود» سلامة انسحابها ويضمن عدم تحرش القبائل بها أثناء الرحيل. وكأجراء احترازي ضد أي غدر من المحتمل أن تقوم به القوات التركية، أمر «ابن سعود» بضرورة أن تجتاز القوة التركية الموجودة في بغداد كافة مناطق ما بين النهرين قبل أن يمهد لقوة المدينة بالرحيل عن القصيم، وفعلاً تم تطبيق هذا الاتفاق دون حدوث أية عراقيل.

وهكذا رحلت القوات التركية عن الصحراء العربية (نجد) إلى الأبد، وأصبح «ابن سعود» في موقف يمكنه من فرض إرادته على إقليم القصيم. قصد «ابن سعود» أن يستفيد من صمته في العمل على تسوية مشكلة معينة، كما أنه انزعج كثيراً من المكائد التي كانت الفئات المتناحرة تقوم بها في ذلك الإقليم، ومثال على ذلك التحذيرات التي صدرت عن زعيم بريدة «صالح ابن مهنا» من أن «ابن رشيد» سيقوم قريباً بتصفية حساباته مع «ابن سعود». وحيال هذه الأمور ما كان من «ابن سعود» إلا أن ترك إقليم القصيم يتخبط في رغبته وإرادته وعاد إلى «الرياض»، لكنه كان مطمئنا للغاية من أن الأتراك لن يقوموا بأية محاولة للعودة إلى ذلك الإقليم. والسبب الحقيقي لهذا الإجراء هي الأخبار التي وصلت إليه من «قطر» والتي تفيد بأن «أحمد» قد تمرد على أخيه «قاسم بن ثاني» حاكم «قطر» تدعمه في ذلك التمرد قبيلة «المرة»، وذكرت تلك الأخبار أيضاً أن كفة «أحمد بن ثاني» بدأت ترجح في ذلك التمرد، ولذلك توجه «ابن سعود» على جناح السرعة إلى مسرح الأحداث وتمكن من قمع التمرد بسهولة، بعدها فر «أحمد» إلى البحرين للنجاة بحياته.

وما أن أدار «ابن سعود» ظهره لإقليم القصيم حتى قام «ابن رشيد» (كما سبق له أن تنبأ) بمعاودة نشاطاته ضد ذلك الإقليم، وأرسل قوة كبيرة بغزو بلدة «الرس» وتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة وهرب أهلها باتجاه «الشقة»، إلا أن قوات «ابن رشيد» طارتهم لكن القرويين هناك تمكنوا من دحر المهاجمين. هذا وقامت قوات «ابن رشيد» أيضاً بغارة أخرى على «الطرفية» أسفرت عن ذبح أربعين من المزارعين العزل في حقولهم، كما هاجموا قبيلة صغيرة تدعى «الحمادين» ونهبوا جمالهم وماشيتهم، وقد خلفت هذه الأحداث (التي كانت أكثر من مجرد مضايقات وإهانات صغيرة بحد ذاتها) شعوراً بانعدام الأمن في الإقليم، وألقى الأهالي هناك اللوم على «صالح المهنا» لعدم تعاونه مع «ابن سعود». ولصرف الأنظار عن المكائد التي كان يرتبها بالتعاون مع «ابن رشيد» قام «صالح المهنا» بإرسال أخيه «مهنا» إلى «عنيزة»، كما بعث برسول إلى الشيخ «مبارك» الذي كان يجري أيضاً اتصالات سرية مع «حائل» ولمح من خلال هذين الرسولين عن نيته في التقرب إلى «ابن سعود» بغية التوصل إلى تسوية شاملة. لم يكن باستطاعة «ابن سعود» أن يتجاهل غصن الزيتون، لكنه أبدى ردة فعل مشوبة بالحذر. فأرسل فيما بعد أخاه «محمد» بقوة للغارة على قبيلة «حرب». وقاد بنفسه قوة باتجاه «بريدة» ومن هناك تقدم نحو «الأسياح» المتاخمة للمنطقة التي كانت قوات «ابن رشيد» تعسكر فيها، واصطحب معه في تلك الحملة «صالح المهنا» إضافة إلى فرقة من مقاتلي «بريدة»، ولكنه لم يكن مقتنعاً بالولاء الذي تظاهر به «صالح المهنا». وجد «ابن سعود» أنه من الحكمة أن يتراجع بقواته نحو «الزلفي» ومن هناك إلى «المجمعة»، وأمر قوة

«بريدة» بالرجوع إلى الرياض، لكن «ابن رشيد» كان في تلك الأثناء يمارس غارات متقطعة على مناطق الصحراء الشرقية، وكان يشنها من معسكره في «روضة مهنا»، الأمر الذي جعل «ابن سعود» يقرر مهاجمته.

قدم «ابن سعود» على رأس قوة كبيرة انضمت إليها قوات قبيلة «مطير» تحت قيادة «فيصل الدويش» الذي كان «ابن سعود» يشك نوعاً ما في تصرفاته، وتمكن ليلاً وسيراً على الإقدام من اجتياز الحاجز الرملي الذي يفصل بين قواته وقوات أعدائه، وحدث الاشتباك الفعلي في الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٠٦. كانت المعركة شرسة وتصرف «ابن رشيد» خلالها بشكل مناف للتقليد المعروف، إذ كان يدور بفرسه حول رجاله يجمعهم ويوجه هجماتهم وإلى جانبه حامل رايته وقائد قواته، وأثناء تجواله تمكنت قوات «ابن سعود» من التعرف عليه فأطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً، وكانت تلك هي نهاية المعركة. تفككت قوات «ابن رشيد» ولاذت بالفرار وهرب قادتها باتجاه «حائل» لا يفكرون إلا بالشخصية التي ستخلف «ابن رشيد» في الحكم. استولت قوات «ابن سعود» على الكثير من الغنائم التي تركتها قوات «ابن رشيد» في المعسكر، لكن «ابن سعود» لم يضيع الوقت في حصرها وتوجه بقواته وأغار على فريقين من قبيلة «حرب» في منطقتي «الرحي» و «أبو مغير»، وتقدم بعد ذلك نحو «بريدة» وهناك اعتقل «صالح المهنا» وأمر بإرساله إلى السجن في الرياض وعين ابن عمه المدعو «محمد العبد الله أبا الخيل» أميراً على «بريدة» بدلاً منه.

هدأ بال «ابن سعود» بعد مقتل «ابن رشيد» ولم يعد يفكر باحتمال حدوث اضطرابات تعكر صفو حكمه في المناطق التي تمتد حتى الحدود

الشمالية من القصيم. ويبدو أنه لم تكن لديه طموحات في المناطق التي تقع خلف تلك الحدود، فقد قويت قبضة «ابن سعود» على منطقة القصيم بعد إزاحة «صالح المهنا» عن السلطة. وعندما قام «متعب بن عبد العزيز» الرشيد الذي ثبت أقدامه في السلطة بعد وفاة والده بمبادرة لتسوية الخلاف، رحب «ابن سعود» بتلك المبادرة ووافق على استقلال «جبل شمر» ضمن حدوده الطبيعية، كما تعهد «متعب» بأن يعيد إلى الرياض كافة المقيمين في حائل من عائلة «آل سعود» الذي احتموا في «حائل» لكن على أمل أن يكرسوا الوضع القائم هناك لخدمة مصالحهم. وعلى أي حال لم يكتمل جلاء القوات التركية التي كانت في تلك الفترة تحت إمرة «سامي باشا الفاروقي» الذي خلف «صدقي باشا» في قيادتها. وطالما أن هناك بقايا من بقياهم فإن هناك مجالاً لظهور المزيد من المكائد. وبالرغم من التسوية التي توصل إليها «متعب» مع «ابن سعود» إلا أنه كان يجري اتصالات مريبة مع والي بغداد، لكن الأتراك لم يتأثروا كثيرا لتقربه منهم. حاول «سامي باشا» أن يقدم مساعدة مالية لـ «ابن سعود» ليسمح لقواته بالبقاء في إقليم القصيم، إلا أن «ابن سعود» رفض ذلك العرض بسخط واستياء، وأخيراً اضطرت القوات التركية إلى الرحيل. عاد «ابن سعود» بعد ذلك إلى الرياض، وفي الطريق توقف في «شقراء» وهناك استقبل وفداً من «المجمعة» كان قد قدم ليؤدي يمين الولاء لـ «ابن سعود». وأثناء وجوده في «شقراء» وصلته أخبار تفيد بوجود مراسلات تنم عن خيانة بين «فيصل الدويش» زعيم قبيلة «مطير» وبين الأتراك، وعلى الفور أرسل «ابن سعود» حملة تأديبية وأنهى تلك المؤامرة. عاد «ابن سعود» إلى الرياض ليستقبل وفداً قدم إليه محملاً بشكر

السلطان «عبد الحميد» للمعاملة الطيبة التي أبداها للقادة والجنود الأتراك خلال الفترة التي قضوها في الصحراء العربية.

لم ينعم «ابن سعود» لفترة طويلة بالمجد الذي حققه إذ سرعان ما وصلت إليه أخبار مرعجة من «حائل» تفيد بمقتل «متعب» مع اثنين من إخوته. وتفيد الأخبار أيضاً بأن أحد العبيد المخلصين لهم تمكن من تهريب أخاهم الأصغر والنجاة بحياته. أصبح «سلطان بن حمود» الذي اقترف تلك الجريمة حاكماً على «حائل» واستمر في حكمها لمدة عام. وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨ قام «سعود وفيصل» بقتل أخيهم «سلطان بن حمود» ونصب «سعود» نفسه حاكماً على «حائل»، في حين أصبح «فيصل» حاكماً على الجوف وعلى المناطق الشمالية. عارض زعيم جماعة «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» ربط الجوف وتلك المناطق بحائل. ومما لا شك فيه أن معارضته تلك كانت مدعومة من قبل الأتراك الذي كانوا يتحركون خلسة باتجاه مناطق شمال الحجاز. سارعت جماعة واحة «خيبر» في الإعراب عن ولائها للمغدور به «سلطان بن حمود» الذي أسفر عجزه وعدم تأهيله عن تحويل خط سير قوافل الحجاج القادمة من العراق وإيران عن «حائل» إذ كانت القوافل تتوجه من خلال حائل باتجاه «القصيم». على أي حال لم يكن «سلطان بن حمود» ليقبل بخسارته لإقليم «القصيم» بشكل نهائي، واستمر في الاعتماد على قبيلة «مطير» والعائلات الأخرى في منطقة «بريدة» على إبقاء الوضع يسير سلس ومرن.

كان «فيصل الدويش» الحاكم السابق أول من رفع مستوى التمرد، إذ قام في شهر آيار (مايو) عام ١٩٠٧ بحركة تمرد تم سحقها تماماً. وأسفر ذلك

التمرد عن اشتباكات دارت في المجمعة شارك فيها «فيصل الدويش» وأصيب بجراح بالغة.

لم تؤد مهزلة الاستسلام والعفو المعتاد لأي تغيير دائم في سلوكه، إذ نجده في خريف العام نفسه معسكراً بقواته في «الطريفيه» بدعم من «سلطان» ومن زعيم بريدة «محمد أبا الخيل» للانقضاض مجدداً على «القصيم». ولذلك تحرك «ابن سعود» بسرعة باتجاه «سدير»، وهناك استدعى قبائل «عتيبة» و «قحطان» و «سبيع» و «السهول» وطلب منهم الاستعداد بكامل قواتهم، ثم سار باتجاه «عنيزة» وأغار على مواقع قوات «سلطان» المتقدمة، وأرسل بقوة لتسيطر على قبيلة «مطير» في «الطرفية»، ومن هناك تحرك شخصياً على رأس قوة ليلحق بقوات «فيصل» هزيمة نكراء ويحتل معسكرهم. حاول «سلطان» وجماعة «بريدة» مفاجأته في هذا الموقع وأغاروا عليه في العشرين من شهر أيلول، إلا أنهم منيوا مجددا بالهزيمة وفروا باتجاه «بريدة»، ومن هناك هرب «سلطان» إلى «حائل» تاركاً وراءه أخاه «فيصل» ليساعد قوات «محمد أبا الخيل» حين تستدعي الضرورة. أرسل «ابن سعود في تلك الفترة قوة من الخيالة لمراقبة تطور الأوضاع في «بريدة»، كما قام بعدة هجمات استهدفت مناطق في عمق «القصيم» مثل «البكيرية» و «الرس» ومنطقة قبيلة «حرب» المتواجدة حول «النبهانية». وبعد انتهائه من تلك الغارات عاد إلى الرياض ليقضي فيها وقتاً من الراحة.

لم يطل «ابن سعود» الجلوس في الرياض، إذ وصلته أخبار مفادها أن «سلطان» كان يتحرك بقواته باتجاه «بريدة»، وعليه عاد مسرعاً إلى «القصيم»، لكن اتضح فيما بعد أن تلك الأخبار لم تكن صحيحة. وفي

محاولة منه للمسارعة في اعتراض تقدم قوات «سلطان» تحرك بقواته ووصل بها حتى منطقة «الكهفة» لكن لم يجد هناك أي أثر لأعدائه، فشن غارة على معسكر لجماعة «الطوالة من شمر» في منطقة «فيد»، وبعد تلك الغارة سحب قواته باتجاه «البكيرية»، وهناك وصلته أخبار مقتل «سلطان» وكانذلك في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٨ . سارع الحاكم الجديد للتوصل إلى ترتيبات مع «ابن سعود» الذي صب جل اهتمامه الآن على «بريدة» وفي ذهنه تصور معين لتسوية نهائية. تعب أهالي «بريدة» من حالة التأهب والاستنفار المستمر الذي فرض عليهم نتيجة السياسة الشخصية التي نهجها «محمد أبا الخيل»، ولذلك قاموا باتصالات سرية مع «ابن سعود» واتفقوا معه على أن يفتحوا أحد بوابات المدينة ليلاً خلال أداء صلاة عشاء. كلف «ابن سعود» فريق من رجاله لاحتلال الأبراج والقلاع الموجودة على السور الدائري للمدينة، وفعلاً احتلوها بسهولة وقامت مجموعة تقدر بثلاثمائة رجل بتشكيل ستار لعزل المساحة الكبيرة التي كانت أمام القلعة الكبيرة. أخذ رجال «ابن سعود» يقرأون في الساحات العامة وفي المساجد إعلاناً صدر عن «ابن سعود» يقضي بتأمين سلامة كافة الأهالي المخلصين له ومطالبتهم بالاستسلام وبتسليم كافة الأسلحة. وعلى الفور استجاب الأهالي إلى ذلك النداء، وكل ما بقي أمام «ابن سعود» من العقبات هو التغلب على «محمد» وأتباعه الذين دخلوا القلعة واستحكموا فيها استعداداً لمواجهة الحصار. على أي حال كانوا في موقف ميؤوس منه، وبعد مضي بضعة أيام من المناوشات العقيمة سعى « محمد» وراء الاستسلام. تمت ترتيبات الاستسلام على أساس أن يسلم «محمد» كافة أسلحة وذخائر

أسرته وأتباعه مقابل أن يرحلوا بسلام عن «بريدة» ويتجهوا الوجهة التي يريدونها، وفعلاً اختاروا اللجوء السياسي في العراق واستقروا مع مرور الزمن في «سوق الشيوخ». كان «محمد أبا الخيل» آخر حاكم محلي من «بريدة»، ولم يعد بإمكان «ابن سعود» أن يغامر بنتائج ترك الأسر الرئيسية في «بريدة» تعكر صفو الأمن في مملكته بسبب تنافسها المثير للنزاع على الفوز بالحكم. وكانت هناك حاجة إلى قوة أكبر من قوتهم لضبط روح الاستقلال في إقليم «القصيم»، فعين «ابن سعود» حاكماً على القصيم ابن عمه «عبدالله بن جلوي» المعروف ببسالته وشجاعته، وبقي «عبد الله بن جلوي» في ذلك المنصب لمدة خمس سنوات إلى أن استدعت الحاجة إلى الاستفادة من خدماته في مهام ومسؤوليات في مكان آخر. لم يعد إقليم «القصيم» محور الأمور السياسية في الصحراء العربية، ولم يعد كذلك مصدراً للتوتر الذي سبق أن كان عليه على مدى السنوات الحرجة من نضال «ابن سعود» للسيطرة على «نجد».

استسلمت «بريدة» في اليوم التاسع والعشرين من شهر آيار عام ١٩٠٨ وسارع «سعود» الرشيد (حاكم «حائل» الجديد) للتوصل إلى تسوية لخلافاته مع «ابن سعود». وعلى الفور قبل «ابن سعود» تلك المبادرة واعترف باستقلال «جبل شمر» شريطة أن يتوقف ذلك الإقليم عن تعكير الأمن في المناطق الخاضعة لحكمه. أرسل أهالي المجمعة أيضاً وفداً برئاسة زعيمهم «عبد الله العسكر» لتقديم الاعتذار إلى «ابن سعود» عن تصرفاتهم المريبة وليعلنوا للملأ عن ولائهم للحكم الجديد.

ويبدو أن الفيضان الكبير الذي اجتاح «مكة» جاء كخاتمة لعام شهد

إنجازات مرموقة، فقد جرت مياه الفيضانات وهي تلتف كالدوامة ودخلت الكعبة المشرفة وشكلت حول الكعبة نفسها بحيرة بلغ عمقها حوالي عشرة أقدام. سرعان ما تلاشت أحلام «ابن سعود» في العيش بفترة سلام بسبب المشكلات التي تفجرت من جديد في «حائل». فكما سبق أن أشرنا تم إنقاذ الوريث الشرعي للحكم في «حائل» والمدعو «سعود بن عبد العزيز بن رشيد» والذي كان قد بلغ من العمر آنذاك عشر سنوات من براثن المجزرة التي قام بها «سلطان بن حمود» للاستيلاء على السلطة، إذ تمكن أحد العبيد المخلصين من تهريبه إلى «المدينة».

إن استمرار المشكلات في «حائل» جعل الوجهاء من الأهالي هناك يفكرون في العودة إلى السلالة الشرعية لتحقيق الاستقرار والأمن، فتزعم هذه الحركة اثنان من عائلة مرموقة وقدر لهما أن يلعبا دوراً قيادياً في الأمور السياسية لمنطقة «جبل شمر» وعلى مدى حوالي اثني عشر عاما من الفترة التي ظلت خلالها «حائل» منطقة تتمتع باستقلاليتها. كان «حمود بن سبهان» هو منفذ وصاحب فكرة الانقلاب الذي حدث في شهرشباط من عام ١٩٠٩ بالتواطؤ مع ابن عمه «زامل بن سبهان». فبعد أن حشدا الدعم اللازم لخطتهما تلك عملا على حشد القوات اللازمة لتحقيق آمالهم في انتصار خطتهم. تم إحضار «سعود» - الشاب الصغير - من «المدينة» وقام أنصاره بفتح بوابات المدينة له، وهناك نشب قتال قتل فيه «سعود بن حمود» كما تم تصفية بقية أعضاء أسرته بالقتل، علماً بأن اثنين منهم وهما «ضاري» و «فيصل» تمكنا من الهرب إلى الرياض، بعدها تم تنصيب «سعود بن عبدالعزيز» ابن رشيد أميراً تحت وصاية «حمود بن سبهان» الذي تصادف أن كان زوجاً لشقيقته وهي

البنت الوحيدة التي خلفها «عبد العزيز». كان «زامل» اليد اليمنى في حكم ذلك الإقليم، لكن بعد مضي بضعة أشهر توفي «حمود» مسموماً وخلفه «زامل» كوصي على الحكم. وليقوى قبضته على شؤون الإقليم أقدم «زامل» على الزواج من والدة «سعود» التي سبق لها أن تزوجت ثلاثة من قبله، فكان زوجها الأول «محمد الكبير ابن رشيد» وبعده تزوجت «عبد العزيز بن رشيد» وبعده «سلطان بن حمود» وهو الشخص الذي قتل «متعب» ابن زوجها وخلفه في الحكم. لم تكن العزلة المفروضة على النساء في الصحراء العربية لتمنعهم من تحريك القطع الهامة على رقعة الشطرنج السياسية.

كان أول تحرك قام به «حمود» هو محاولة لكسب رضي «ابن سعود»، لكن الروايات التاريخية المتوافرة، رفض «ابن سعود» محاولة «حمود» التقرب منه. حدث ذلك الرفض خلال فترة قصيرة سبقت قيام «زامل» بتنظيم غارة على جماعة «مطير». وكإجراء انتقامي قام «ابن سعود» بالهجوم على جماعة «شمر» التي كانت بجوار منطقة «شعيبة»، وأقام فيها مقراً لقيادته وبدأ يجوب النفوذ بحثاً عن «زامل» الذي علم بأنه كان يناور لشن هجوم مضاد. تحرك «ابن سعود» بعد ذلك إلى مكان يقال له «الاشعلي» وهناك نصب خيامه بعيداً بعض الشيء ليراقب تطور الأحداث. عثر «زامل» (أثناء تحركه تحت جنح الظلام) على معسكر «ابن سعود» وأخبرته دوريات العسس بأن المعسكر كان خالياً من الناس، وعليه أعد الترتيبات لمهاجمته، فتقدمت قواته باتجاه المعسكر ونهبت ودمرت كل معداته وممتلكاته. لكن بقيت قوات «ابن سعود» تراقب الوضع عن بعد إلى أن حان الوقت للقيام بهجوم مفاجئ. نجم عن ذلك الهجوم الهزيمة المحققة وتابع

«ابن سعود» مسيره باتجاه «قبة» ومنها إلى «القصيم» ومن ثم إلى الرياض.

أصبحت الآن كافة مناطق وسط الصحراء العربية على شفا جفاف قاسي. حدث الجفاف لعدة سنوات إلى درجة أن الوثائق التاريخية للصحراء العربية أشارت إليه باسم «السحت»، وذلك يعني «العقم المطبق». وبالرغم من ذلك الجفاف أو ربما بسببه دخلت المنطقة في فترة عصيان وانشقاق وعدم استقرار شامل، اضطر «ابن سعود» خلال تلك الفترة إلى استنزاف كافة مصادره الشحيحة. حدث خلال تواجده في الشمال أن تلقى والده «عبدالرحمن» أخباراً غير سارة تفيد بحدوث مشاحنات محلية في منطقة «الحريق»، والتي حدث فيها أن قُتل «الهزاني» على أيدي اثنين من أبناء عمه. قامت القوة التي أرسلت إلى هناك لإنهاء المشكلات واعتقال القتلة الذي قام بدوره بذبحهما بعد محاكمة وفق الشريعة الإسلامية. وما أن عادرت تلك القوة المنطقة حتى حدثت جريمتان أخريان، عندها توجه «عبد العزيز» بنفسه إلى هناك وأصر على معالجة المشكلة وفق الشريعة الإسلامية، إلا أن المعنيين بالمشكلة لم يستجيبوا له والتجأ القادة المعنيون إلى قلعتهم واحتجموا فيها وقاوموا حصاراً دام لمدة خمسة عشر يوماً، وأخيراً وضع «ابن سعود» لغماً تحت القلعة وهدد بنسفها بمن فيها، وعليه استسلم المعتصمون وأرسلوا إلى الرياض ليسجنوا في سراديب سجن «المصمك» لمدة عامين بعدها أطلق سراحهم بسبب تدخل «قاسم آل ثاني» أمير قطر.

في تلك الأثناء نشبت خلافات صعبة بين الشيخ «مبارك» أمير الكويت و«سعدون باشا» والي منتفق العراق. ناشد الشيخ «مبارك» الأمير «سعود» وطلب منه المساعدة، واستجابة منه لتلك المناشدة سار «ابن سعود» بقواته

باتجاه مقاطعة «الهجرة» بالقرب من الحدود العراقية، ومن هناك سار بقوة تقدر بما يزيد على سبعة آلاف رجل كان القسم الأعظم منهم من رجال الكويت تحت إمرة الشيخ «جابر». وبعد فترة قصيرة اشتبكوا مع قوات «سعدون باشا» التي بلغ تعدادها نفس تعداد قوات «ابن سعود» لكنها تميزت وبشكل ملحوظ بفرقة الخيالة. تجاهل «جابر» نصيحة «ابن سعود» بأن يدع المقاتلين من البدو يهاجمون المعسكر، وفتح جبهة القتال من ناحية «الهدية» بأن دفع فرقة الفرسان في مقدمة الهجوم وكان ذلك في اليوم السادس عشر من شهر حزيران عام ١٩١٠. احتفظ «سعدون» بفرسانه في حالة احتياط ولم يطلق يدهم في القتال إلا بعد أن توقف عدوه عن المنازلة وتمكنوا من ردهم على أعقابهم بعد أن دبت بهم حالة الفوضى. تلاشت القوات المتحالفة في الصحراء وولت الأدبار باتجاه الكويت، وقامت قوات «المنتفق» باحتلال معسكرها ونهب كل ممتلكاته.

لم تكن تلك المعركة سوى جزء من تحرك سهل كان القصد منه تضييق الخناف على جهود «زامل بن سبهان» الرامية إلى استعادة شيء ما من مجد «حائل» القديم. في الوقت الذي كان فيه «سعدون باشا» متحالفاً مع «زامل» بادر أمير «الرولة» المدعو «نوري الشعلان» وانضم إلى عمارات «عنزة» ليضغط على «زامل» في الشمال والشمال الشرقي، في حين كان «ابن سعود» وإلى جانبه الكويتيون يمارسون الضغط عليه من جهة الجنوب. والجدير بالذكر أن «نوري الشعلان» كان قد تمكن في تلك المرحلة من إقصاء «الجوف» ومنطقة «وادي السرحان» عن تحالفها وولائها السابق إلى «حائل». سبق أن بينا أيضاً كيف أن أحد بنود هذا البرنامج قد انحرف عن

مـجـراه فـي منطقـة «الهـدية» بأن حـدث عند حـوالي تـلك الفـتـرة أن هاجم «زامل» القـوات المتحالفـة في شمـال منطقة «الجميـمة»(*) . وفي تلك المرحلة أيضـا ثار سكان واحة «تيماء» في الغرب، وعلاوة على ذلك قامت القوات التركية التي قدمت من المدينة تلبية لدعوة السكان باحتلال الواحة . وحيال هذه الأمور وجد «زامل» نفسه مضطراً لاتخاذ إجراء معين، ومرة ثانية كان النجاح حليفه وتمكن من إجبار الحامية التركية على التراجع وانتقم من السكان لانحرافهم عن الولاء له . وفي نفس الوقت قام «سعدون» و«زامل» اللذان استغلا ولدرجة كبيرة الجفاف المسيطرعلى المنطقة بترتيب المكائد مع جماعة «العجمان» في شرقي الصحراء العربية، ونجحوا في ممارسة المزيد من الضغوط على قـوة «ابن سعود» . وازداد الوضع تعقيداً نتيجة لحقيقة أن الحاميات التي كانت تحت إمرة «سعود بن فيصل» كانت قد غادرت الرياض خلال فترة غياب «ابن سعود» على رأس الحملة التي توجه بها إلى منطقة «الهدية» وانضمت إلى قوات جماعة «العجمان» المعادية . والجدير بالذكر هنا أن «سعود بن فيصل» كان قد رجع إلى عائلة «آل سعود» (كما سبق أن أشرنا) بعد أن استولى «ابن سعود» على «عنيزة» عام ١٩٠٤ . كانت تلك تطورات سيئة أسفرت وبشكل مباشر تقريباً عن نتائج وخيمة، ولم يعد بالإمكان تعيين أبناء العم في مناصب إقليمية دون المغامرة بمخاطر محتملة . ولم ينسى أبناء العم هؤلاء أسبقيتهم ورفعة منزلتهم في شرعية الخلافة على الحكم، علماً بأن «ابن سعود» عاملهم بكل تقدير واحترام، لكن ليس من الغريب أو المفاجئ على جماعة من الشبان في ريعان الشباب أن يغتاظوا

(*) من قرى رفحا بمنطقة الحدود الشمالية .

بسبب العضالة المفروضة عليهم في زمن كان العالم أمامهم مملوء بفرص المغامرة والمتعة.

مع بداية عام ١٩١١ قام «زامل» بمبادرة للتوصل إلى السلام، وقبلت مبادرته على أساس الاعتراف باستقلاله في منطقة «جبل شمر» فقط، وكان ممكن لتلك الترتيبات أن تدوم طالما أنها تناسب مصلحة الأطراف المعنية، إضافة إلى أنه قد ظهر الآن عدو آخر من ناحية الغرب. لم يفقد الأتراك الأمل أبداً في فرض سيطرتهم على وسط الصحراء العربية، علماً بأنهم منيوا بالفشل على أيدي «ابن رشيد» بسبب تجربتهم السابقة. آل ذلك الأمل إلى «الشريف حسين» الذي كان قد عين أميراً على مكة عام ١٩٠٨، وهو العام الذي تم فيه إنجاز خط سكة حديد الحجاز فبلغ أقصى مسافة له حتى حدود المدينة المنورة. عاش «الشريف حسين» فترة طفولته بين البدو قبل أن يذهب للقسطنطينية (استانبول) ليقضي هناك منفى دام لفترة طويلة، والآن وقد بلغ من العمر ستين عاماً توفرت له الفرصة الأولى ليبدي ما يمكنه عمله من أجل إثبات نفسه كعنصر هام في مجال السياسة المتعلقة بالصحراء العربية.

وبشكل عام وبدون اتخاذ أي إجراء إيجابي، قلد «الشريف حسين» سلفه في تعطيل الأعمال الخاصة بمشروع سكة الحديد الممتدة إلى مكة. وأبدى «الشريف حسين» بوادر تدل على براعة وقدرة في قيادة الحملة التي فوضه «الصدر الأعظم» للقيام بها ضد الزعيم الإدريسي المتمرد والمدعو «محمد» والذي كان قد احتل مرتفعات «عسير» و «أبها» في تلك الفترة. تمكن «حسين باشا» من استرداد إقليم «عسير» وإعادته إلى أسياده الأتراك، وعاد

إلى مكة منتصراً عن طريق واحات «بيشة» و «رنية» و «تربة». شجعت الإنجازات التي قام بها «حسين باشا» على الاستفادة من خدماته في محاولة لتعزيز نفوذهم في الصحراء العربية. وفي نهاية عام ١٩١١ أو بداية العام التالي تحرك «الشريف حسين» على رأس قوة ضخمة مروراً بمناطق قبيلة «عتيبة» ووصل إلى «القويعية» وذلك في نفس اللحظة التي كان«سعد» بن عبدالرحمن الأخ المفضل لابن سعود قد وصل إليها لحشد المحاربين في صف ابن سعود. تمكن «الشريف حسين» من اعتقال «سعد» وأخذه كرهينة وطلب من «ابن سعود» أن يدفع فدية لإطلاق سراحه، وتجلت تلك الفدية في قبول «ابن سعود» بسيادة السلطة العثمانية إضافة إلى دفع جزية اسمية عن إقليم «القصيم».

قام بمطاردة قوات «الشريف حسين» التي تراجعت باتجاه الغرب حاملة معها ما سلبته من غنائم ثمينة. والمعروف عن «الشريف حسين» أنه كان يتجنب الأماكن التي يمكن أن تستعر فيها المشكلات على نار هادئة. ولم يكن أمام «ابن سعود» الكثير من الخيارات، فكان مستعداً لفعل أي شيء لإنقاذ أخيه من براثن العدو. وبعد أن فشل عدة مرات في التفاوض مع الأتراك عبر قنوات أخرى، وجد نفسه مضطراً للتوقيع على الوثيقة التي عرضها عليه «الشريف حسين». حمل «الشريف حسين» تلك الوثيقة وهو في غاية السعادة وتم إطلاق سراح «سعد» والتحق بقوات أخيه. لقد حقق أمير مكة نصراً فنياً للموقف التركي، إلا أن «ابن سعود» لم يلزم نفسه ببنود الاتفاقية، فلم يدفع «ابن سعود» أية جزية وقام بأعمال دلت على تراجعه عن تلك الوعود الشفهية التي كانت تكتيكاً من ابن سعود استطاع من خلالها

أن يقوي صفه في وجه خصومه السياسين في تلك الفترة.

وأثناء وجود ابن سعود في الصحراء الشرقية لمتابعة فلول المتمردين وصلته رسالة من الشيخ «مبارك» يطلب فيها مساعدته ضد «المنتفق» و «الظفير» المتواجدين في المناطق المتاخمة للحدود العراقية. لكن بعد تجربته الأخيرة مع «جابر» في منطقة «الهدية» لم يكن «ابن سعود» في وضع يمكنه من التعاون مع «مبارك»، إلا أن الرسالة العاجلة الثانية التي أرسلها «مبارك» إليه حملته على أن يغير رأيه فتحرك على رأس قوة كبيرة للغاية باتجاه «حفر الباطن» وهناك قدم إليه «حمود بن سويط» زعيم قبيلة «الظفير» وعقد معه اتفاقية سلام، كما أطلعه بأن «مبارك» نفسه كان قد حذره من تقدم قوات «ابن سعود»، لكن على ما يبدو كان «مبارك» يعمل على توازن القوى في الصحراء العربية.

أغار «ابن سعود» على جماعة «المنتفق» في منطقة «كبيدة»، وفجأة وجد نفسه في منطقة «صفوان» المجاورة للبصرة والزبير. ومهما يكن الدافع وراء استعراضه للقوة تلك والتي جاءت في وقت كان فيه الأتراك متوترين ومشدودين بسبب انتشار حركة القوميين العرب في سوريا والعراق وفي أماكن أخرى بعد ثورة عام ١٩٠٨، فنجد أن «ابن سعود» وافق على الانسحاب من تلك المناطق بعد أن وصل إليه وفد ودي يمثل والي البصرة ويمثل أهالي «الزبير»، وفعلاً سار بقواته باتجاه «الجهرة» القريبة من الكويت. وبعد لقاء ودي بالشيخ مبارك الصباح قام «ابن سعود» بغارة ثانية على جماعة «العجمان» في مناطق «الأحساء».

ومما لا شك فيه أن الأتراك تفاجأوا بمكانة وإمكانية «ابن سعود» المتنامية

وبتأثيره على شؤون الصحراء العربية، لذا سعوا لجلبه إلى مجالسهم ليشكل ثقل مقابل حركة القوميين العرب التي كانت تنشط في المناطق المأهولة القريبة من حدود المناطق التي يسيطر عليها. وعليه تم تفويض والي «البصرة» المدعو «سليمان شفيق باشا» بالتحقق من تصرف ذلك الزعيم السعودي وأخذ النصيحة منه بخصوص أفضل الطرق التي يمكن نهجها للتعامل مع حركة القوميين العرب.

الحقيقة أن جواب «ابن سعود» للأتراك كان موثقاً تاريخياً، كما كان جواباً مشوقاً باعتباره أول مقالة تصدرعن فن الحكم في إدارة الأمور وبعد تمهيد أو مقدمة لتلك الوثيقة القانونية والتي حمل «ابن سعود» فيها الأتراك المسؤولية التامة عن المشكلات التي تحيق بهم في كل مكان من إمبراطوريتهم في العالم العربي، يقول «ابن سعود» إن الأتراك اكتفوا بكونه حكاماً دون أن يقوموا بواجبهم تجاه المسؤوليات الملقاة على عاتق الحكام والتي تستوجب التفكير في سعادة ورفاهية رعاياهم، وأضاف أنه إذا أراد الأتراك السلام في الصحراء العربية وإذا أرادوا أن يعالجوا بحرية المشكلات المحلية عليهم أن يتوصلوا إلى تفهم مع العرب مبني على أساس طوعي فعلي، وعليهم أن يعقدوا اجتماعاً لكافة زعماء القبائل العربية كبيرهم وصغيرهم دون استثناء، على أن يكون ذلك الاجتماع في مكان غير خاضع لإدارة الحكم العثماني لكي تتوافر حرية التعبير عن الرأي بشكل مطلق. ويمكن أن تكون الغاية العامة من ذلك الاجتماع إيجاد تجانس بين العرب وإقامة صداقة بينهم وبين الحكومة العثمانية. أما بالنسبة للهدف المحدد فيمكن أن يكون الخيار بين بديلين: إما أن يشكل العرب مجموعة واحدة يرأسها حاكم يختاروه

بأنفسهم، أو أن تستمر الترتيبات الحالية للفئات أو الكيانات السياسية المنفصلة، ويكون ذلك الاستمرار على أساس الاستقلال الإداري المحلي التام، ويعمل كل كيان منها تحت إمرة حاكم يتصرف وكأنه والي في إقليم تركي له حدود محددة ثابتة، أو إذا استدعت الضرورة يمكن أن تحدد تلك الحدود من خلال المساعي الحميدة للحكومة التركية، وفي كلتا الحالتين تبقى الأراضي العربية تحت سيادة السلطان التركي المهيمنة والذي يكون بدوره مسؤولاً عن إعداد الترتيبات الخاصة بالدفاع والتطور. ويتوقع من كل كيان حاكم أن يتعاون مع جيرانه من أجل صيانة وتعزيز الرخاء. وبالعمل الجماعي يمكنهم ردع أو هزيمة أي اعتداد من قبل أية جهة. ويختم «ابن سعود» خطابه قائلاً إنه بهذه الطريقة وحدها يمكن التوفيق بين مصالحكم ومصالحنا، كما يمكن خدمتها وضمان حمايتها ضد أي عدو خارجي.

تشير النصوص التاريخية إلى أن والي البصرة أعرب عن إعجابه بالوثيقة أعلاه ونقلها إلى الصدر الأعظم لدراستها والنظر فيها. ويبدو أنه تم النظر إلى تلك الوثيقة - وربما بشكل لا خيار له فيه - على أنها جهد قام به «ابن سعود» ليعزز من سيادته على كافة مناطق الصحراء العربية بدعم من الإمبراطورية العثمانية وعلى حسابها أيضاً. وبالرغم من ذلك يمكن أن يكون من الأفضل للصدر الأعظم لو أنه اختار هذه الفترة التي تميزت بهدوء نسبي ليعد أشرعته على نحو يتناسب مع العاصفة القادمة. لم يكن أمام «ابن سعود» بديلاً إلا أن يعتمد على ترتيبات بديلة ليقي نفسه من الخطر، خاصة أنه أدرك أن اقتراحاته لم تلقى آذاناً صاغية. كان «ابن سعود» خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية قد حاول جاهداً أن يستميل اهتمام الحكومة البريطانية

لصالحه كقوة وحيدة لها مصالح حيوية وقوة فعالة في الخليج، إذ كانت تدور في رأسه فكرة ضمان مكانته ومركزه في الصحراء العربية ضد أي اعتداء كان، لكن لم تكن لدى البريطانيين الرغبة في التدخل في مغامرات الصحراء. وكانت الحكومة البريطانية مهتمة كثيراً باسترضاء الأتراك على الصعيد الدبلوماسي لأقصى درجة ممكنة وبشكل يتناسب مع حماية مصالح البريطانيين في الخليج. وهكذا ومع استمرار سيطرة العثمانيين لإقليم «الأحساء» الذي بدأ عام ١٨٧١ والسيطرة الفعلية للبريطانيين على كافة منافذ سواحل الصحراء العربية من الكويت حتى مسقط، وجد «ابن سعود» نفسه محاصراً في الصحراء. وحتى وجد نفسه في هذه المناطق الداخية المغلقة عرضة لهجمات يمكن أن يقوم بها أعداؤه من جهات الشمال والغرب بدعم وتشجيع من قبل العثمانيين.

لا بد أن «ابن سعود» أمضى خلال سنوات النضال هذه العديد من الساعات في التفكير المضني وفي دراسة الطرق والوسائل التي تمكنه من مجابهة تقلبات القدر التي يصعب التنبؤ بها، والتي سبق أن وضعت أسلافه وأجداده عند فواصل زمنية من تاريخ الدعوة الوهابية التي كانت تنجح حيناً وتخفق حيناً آخر، والتي كانت أسرة «آل سعود» قد بنت عليها موقفاً استطاعت من خلاله السيطرة على الصحراء العربية. هذا وشهد «ابن سعود» نفسه كما لعب دوراً بارزاً في انهيار حكم «محمد بن رشيد» الذي حدث في اللحظة التي أقصى فيها الموت يد تلك الشخصية القوية عن دفة الحكم. سبق أن كان للقيادة الضعيفة دور في تبدد الإمبراطورية العربية القوية في الأيام الأولى من الرسالة الإسلامية، كما أسهم في تبددها أيضاً

ذبول القناعات التي لها صلة بغنى ورخاء الأقاليم التي تم فتحها من قبل المسلمين. ومن الواضح أنه كان هناك ثمة ضعف في تركيبة مجتمع الصحراء العربية، بمعنى أنه بقدر ما كان يتمتع بقوة بطولية ناجمة عن قضية عظيمة أو شخصية عظيمة، إلا أن تركيبة المجتمع القبلي جعلته عاجزاً عن الحفاظ على انضباط ضروري لتنمية ثمرات انتصارات تحققت على يده لخدمة الناس كافة. كانت قبائل الصحراء وكذلك المدن مهووسة بحس الولاء المحلي أو القبلي الذي هيمن على الروح الجماعية والروح الوطنية الأكثر شمولية والتي هي أكثر ضرورة للحفاظ على النظام في البلاد. سخر «ابن سعود» كل جهوده لمعالجة ظاهرة الضعف هذه وأصر على إيجاد العلاج لها طالما أن ذلك ممكناً. أملى عليه تاريخ أسرته أن يكون الدين هو العنصر الرئيسي في العلاج، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» ووالده كانا الورعين المخلصين على سنة السلف الصالح. على أي حال يمكن الافتراض أن فكرة إحياء حركة الدعوة الإسلامية كانت تعمل في فكر «ابن سعود»، على أنها أداة سياسية هامة، ولذلك كان «ابن سعود» قد طعم النموذج الاعتيادي المتبع في إحياء مثل تلك الحركات بمفهوم جديد، وحدد أيضا نقطة لترتكز عليها جهود رسله الذي توجهوا لهذا الغرض إلى القبائل البدوية. وبدأت نتائج جهوده تؤتي أكلها في أوائل عام ١٩١٢.

تجمعت في ذلك العام أعداد كبيرة مختلفة من رجال قبائل «حرب» و«مطير» في منطقة «حرمة» (بالقرب من «المجمعة») وبدا عليهم أنهم تأثروا فعلاً بمواعظ وتحذيرات رجال الدين الموفدين إليهم، ومقتنعين بالجزاء والثواب من الله. وكان الهدف من تجمعهم هناك تثقيف أنفسهم حول هذا

الموضوع والسماع من مصادر أكثر اطلاعاً بأمور الدين من الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم «ابن سعود» إليهم، وما كان من المتحمسين المتدينين من أبناء تلك المنطقة إلا أن أمدوهم بما كانوا يحتاجونه من علم، لكن سرعان ما قام بعض الأهالي هناك بأن أفسد ميولهم للتعصب الديني ومحاولاتهم في وضع النفس على الصراط المستقيم.

قرر أفراد هذا التآخي الجديد والذي سرعان ما تكتسب اسم «الإخوان» (الذي أصبح تعداد المنتمين إليه حوالي خمسين رجلاً مع أسرهم) أن يهاجروا إلى مناطق مجاورة تكون أقل تعرضاً للشبهة، ووقع اختيارهم على مناطق آبار «الأرطاوية» الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم، وأقاموا فيها قرية سرعان ما تحولت إلى نموذج أولي تحذو حذوه المعسكرات الدينية الأخرى المتشددة والتي انتشرت واحدة تلو الأخرى في كافة أرجاء الصحراء العربية، وبالتحديد في الأماكن حيث الظروف كانت مواتية لتأسيس حياة جماعية. وضع «ابن سعود» كل التسهيلات الضرورية تحت تصرف الوعاظ والدعاة الذين أرسلهم إلى القبائل لتنشيط هذه الحركة وتكاثرها فيهم، فوضع تحت تصرفهم المال والأدوات الزراعية والبذور ومدرسي الدين وزودهم بالمال الكافي لبناء المساجد والمدارس والمساكن، وأخيراً وليس آخراً وضع تحت تصرفهم السلاح والذخيرة للدفاع عن معتقدهم الذي كانت المادة الرئيسية فيه هي تأييد العادات الدينية والتخلي عن كافة ممارسات النظام القبلي القديم.

وبغض النظر عن انتمائهم القبلي أو وضعهم الاجتماعي، كرس كافة الرجال من الإخوان والذين ارتضوا هذا النظام كرسوا نزعة القتال الطبيعية

عند العرب لخدمة دين الله وخدمة القائمين عليه في الأرض، وأصبحت غارات القبائل بعضها على بعض شيئاً منبوذاً كما نبذت أعمال قطع الطرق وتدخين السجائر وأشياء أخرى من مسببات الرفاهية والمتعة التي كان يمارسها الأولون، وأصبح هم الناس في تلك المجمعات الدينية هو السعادة في الآخرة وكيفية لقاء الخالق بعد الموت.

انتشرت نشاطات الخمسين رجلاً من الإخوان على نطاق واسع بين القبائل التي سبق أن هجروها، وتهافت عليهم الرجال لتنضم في صفوفهم من كل حدب وصوب، ولتزيد من أعدادهم، وسرعان ما تحولت «الأرطاوية» إلى مدينة بلغ تعداد سكانها في أوج نموها حوالي عشرة آلاف نسمة. وفي منطقة «ضرما» نهجت هجرة «الغطغط» منهج «الأرطاوية» وشكلت عناصر قبيلة «عتيبة» فيها نواة تعاظمت مع مرور الزمن لتصبح ثاني منطقة من حيث الحماسة والأهمية بعد «الأرطاوية».

كثرت تلك القرى في كل مركز مناسب وازداد عددها بشكل مفاجئ. وقبل أن ينتهي ذلك العام على وجه التقريب وجد «ابن سعود» نفسه قائداً على جيش محلي معظم جنوده من المتطوعين وبالتحديد من البدو، وكان بإمكانه أن يعتمد على إخلاصهم له حتى الموت بالرغم من أنه كان في حاجة مستمرة لدعم قوات أعتى منهم كان قد جلبها من المدن والقرى، ذلك الدعم كان من الممكن أن يجعل من شجاعتهم غير المنضبطة والعارمة قوة فعالة يستفاد منها. وكان عليه أن يضبط حماسهم المتعصب والهادف إلى تدمير الكفرة سواء في ساعات النصر أو حتى في زمن السلم. والجدير بالذكر هنا أن الكفرة بالنسبة لأولئك البدو ليسو فقط الأشخاص غير المسلمين بل شمل

ذلك التعبير المسلمين الذين لا يشاركوهم في مفاهيمهم الأصولية الخاصة بالعقيدة.

ومنذ ذلك الحين أصبح جيش «ابن سعود» يشتمل وباستمرار على فرقة من رجال الإخوان تلازمه في مسيرها. وكان لكل تصنيف من تصنيفات فرق الجيش عمل محدد تقوم به في العمليات الواجب تنفيدها، وكانت مهمة فرقة الإخوان تنشيط العمليات ورفع المعنويات عند المقاتلين. ازداد عدد تجمعات الإخوان على مدى السنوات اللاحقة ووصلت إلى المئات في تعدادها، وانتشرت الهجر ووصلت إلى أقاصي مناطق عالم البدو في الصحراء العربية.

لكن لا بد من أن يعزى شرف المكان في سجل التشريفات إلى المعسكرات الأولى التي كانت القدوة والنموذج الذي احتدت به بقية تجمعات الإخوان، كما أن أسماء هذه المعسكرات الأولى تستحق أن تذكر في سجل الأحداث التاريخية. استقر رجال قبيلة «مطير» (الذين تحولوا إلى حركة الإخوان) في منطقة «الأرطاوية» وامتدت أغصان فروعهم إلى «مبايض» و بوضا» و «فريشان» و «مليح» و «العمار» و «الأثلة» و«الأرطاوي» و «مسكة» و «ضرية» و " القريتين " . كانت جماعة «برقا» من قبيلة «عتيبة» هي الجماعة المسؤولة عن «الغطغط» و «الروضة» و «عروى» و «سنام»، في حين عملت جماعة «الروقة» على إنشاء تجمعات في «الداهنة» و «الصوح» و«عرجاء» و «ساجر» و «عسيلة» و «كبشان» و «نفي». اتخذت جماعة «حرب» تجمعات لهم في «دخنة» و «الشبيكية» و «الدليمية» و«القرين» و «الساقية» و «حليفة» و «حنيظل» و «البرور» و «خصيبة» و «قبة» و «الفوارة»، هذا واستوطنت

جماعة شمر الذين انضموا إلى حركة الإخوان في «بنوان» و «فطيم» و «القصير» و«الحفير» و«البلازية» و«حبة» و «التيّم» و «الأجفر» و«كهفة» و«الغيضة» و«بيضا نثيل». استقر المنتمون إلى الإخوان من قبيلة «عنيزة» في «الشعيبية» و «القلبان» و «الشقيق»، في حين توجهت جماعات «هتيم» المتواضعة إلى «خريفط» و «المشاش» و «المرير»، كانت جماعة قحطان مسؤولة عن «الهياثم» و «الجفر» و «الحصاة»، إضافة إلى منطقتي «الرين العليا والسفلى»، كما استقرت جماعات الدواسر في «المشيرفة» و «الوسيط» إضافة إلى مناطق أخرى. هذا واستقرت جماعات «عجمان» في منطقة «الصرار» و «حنين» و «الصحاف» و «العقير» و«عريعرة» واستقرت جماعة «العوازم» في «الحسي» و «ثاج» و «الحناة» و«عنيق»، وكانت هناك تجمعات تواجدت فيها فئات مختلفة مثل «الشباك» و«مبيرك» و «عين دار». استقرت جماعات «سبيع» و «السهول» في منطقة «الضبيعية» و «البدع» و «منيف» و «الأخضر» و «النسم» و«الريضة».

وهكذا كانت أماكن العشائر ومناطق تجمعاتهم التي بدورها شكلت نواة لإدارة جديدة سرعان ما أقدم «ابن سعود» على امتحان قدراتها من خلال الحملات التي قام بها في المرحلة الثانية من محاولته للهيمنة التامة على الصحراء العربية.

تجاوزت تلك الحملات وبشكل دقيق مرحلة عقلية الحرب القبلية ووصلت إلى مستوى رفيع بلغت فيه صعيد الصراعات الدولية. وكان لـ «ابن سعود» مكانة في القضايا المطروحة أرفع قدراً من أي دور لعبه حتى الآن. وليس بالإمكان أن ننكر بأن «ابن سعود» كان مداناً في الكثير من

النجاح الذي حققه لجماعات الإخوان، علماً بأنهم في نهاية المطاف عرضوا حنكته في سياسة الأمور إلى اختبار صعب مليء بالمشكلات، وحدث ذلك عندما بدأت التزاما ت «ابن سعود» حيال دول العالم تتعارض مع المعتقدات الدينية «للأخوان». ويوضح المؤرخ المختص بشؤون «نجد» (والذي دوّن ملاحظاته طبعاً بعد وقوع الأحداث) قائلاً إن «ابن سعود» كان ولدرجة كبيرة سمحاً كريماً في تبني تجمعات الإخوان ومساعدتها في الوقوف على أقدامها. عين «ابن سعود» أميراً في كل منطقة ليتأكد من أن العدالة الاجتماعية بين الضعيف والقوي كانت مرعية ومطبقة. كانت جماعات المطاوعة والمشايخ تعمل على تغذية الاحتياجات الدينية والروحية، إذ كان واجبهم تدريس مبادئ العقيدة وتفسير الشريعة الإسلامية المقدسة. علاوة على ذلك قدّم «ابن سعود» للإخوان الطعام على محمل سخي، كما قدم لهم المعدات الزراعية والاحتياجات الأخرى، إضافة إلى السلاح والذخيرة.

وبهذا الشكل بقيت تجمعات الإخوان صامدة في عقيدتها على مدى خمسة عشر عاماً. ويعلق المؤرخ على أوضاعهم بقوله إن أحوالهم استمرت على ذلك النحو إلى أن جعلتهم رفاهيتهم وغناهم يتباهون بأنفسهم ويستكبرون، وأصبحوا يتفاخرون أو يتبجحون بقولهم إن كافة الانتصارات التي تم تحقيقها جاءت كنتيجة لفضائلهم ولتدينهم وبسالتهم الفائقة. لكنني بعد هذا الفصل سأناقش الأمور التي ترتبت على سلوكهم وتصرفاتهم.

صفحة بيضاء

الفصل العاشر

التوسع وتعزيز القوى

صفحة بيضاء

التوسع وتعزيز القوى

مع حلول عام ١٩١٢، أي عندما كانت حركة الإخوان قد ضربت جذورها في عمق الأرض وأكدت مع رسوخ تلك الجذور سهولة وسرعة حشد قوة ضاربة وملهمة بفكرة مثالية دينية متعصبة، أصبح «ابن سعود» السيد المعترف به على« وسط الصحراء، أو بمعنى آخر على مناطق «نجد» التي تمتد من إقليم «وادي الدواسر» في الجنوب إلى الحد الجنوبي لـ «جبل شمر» في الشمال، ومن الحد الغربي لإقليم «الأحساء» الخاضع للحكم التركي حتى الحدود الشرقية لمنطقة الحجاز التي كانت أيضاً جزءًا من الإمبراطورية التركية. كان يربط بين هاتين المنطقتين التابعتين للحكم العثماني شبه قوس من المناطق الخاضعة للأتراك والتي تضم سوريا والعراق. وكان جبل شمر - المعترف أيضا بالسيادة العثمانية عليه - يشكل دولة فاصلة تجثم فوق مناطق من داخل العراق وسوريا والجزء الشمالي من الحجاز، وتقع تقريباً فوق خط العرض السابع والعشرين. ولم تصل حدود المملكة السعودية في أية مرحلة من المراحل إلى شواطئ البحار، في حين كانت هذه المملكة من كل الجوانب باستثناء الجانب الجنوبي (حيث تشكل رمال صحراء الربع الخالي خطاً دفاعياً طبيعياً في وجه الأراضي الواقعة على شاطئ المحيط الهندي) مطوقة بمراكز ونقاط استعمارية تابعة للحكم العثماني، أو بمعنى آخر تابعة للقوة المعروفة تقليدياً بعدائها للعرب والتي تعزز موقفها على طول ساحل البحر الأحمر بسبب احتلالها لمناطق اليمن وجبال «عسير»، هذا وتجثم في الطرف الجنوبي من مناطق اليمن المستعمرة

البريطانية ومحمية «عدن»، في حين كانت الكويت في ذلك الوقت تحت الحماية أو الوصاية البريطانية. كانت الكويت بمثابة الجزء المكسور من الحلقة أو الأنشوطة الضخمة التابعة للحكم العثماني، التي تكتنف المملكة السعودية من خاصراتها الثلاث، وكانت البحرين والحافة الساحلية لـ «عُمان» إضافة إلى موانئ «حضرموت» جميعها خاضعة على نحو قليل أو كثير للسيادة البريطانية أو للإشراف البريطاني أو حتى للسيطرة البريطانية المباشرة.

ومما يزيد من حجم مشكلات «ابن سعود» أن كافة المناطق الخاضعة لحكمه كانت مجردة من الثروات الطبيعية من أي نوع كان، ولم يكن محصول جني تمور أشجار النخيل كافياً ليغطي احتياجات المناطق المأهولة بالسكان سواء البدوية منها أو الحضرية، وكان محصول القمح بحاجة إلى تعزيزات تسنده عن طريق استيراد الحبوب من الخارج بما في ذلك الأرز الذي كان «ابن سعود» أول من وفره للناس كسلعلة غذائية رئيسية وبالتحديد للطبقة الميسورة. اعتمد الناس في المدن وبشكل رئيسي على المواد المستوردة من الدول الأخرى كالملابس، لكن البدو وجدوا أنفسهم مضطرين لاستعمال الأقمشة الخشنة التي يغزلونها من شعر وصوف الماشية. وكانت في مواسم الخير تتوافر مواد السمن واللحم والحليب، إلا أن أكل اللحم بالنسبة للبدو كان يعتبر رفاهية رغم أنهم كانوا يربون الماشية، كما كان يعتبر بيع الحليب شيئاً معيباً. وكانت المادة التي يمكنهم بيعها واستهلاكها هي السمن، كما كانت تربية الجمال بمثابة الحرفة الرئيسية ومصدر الرزق بالنسبة للبدو الذين كانوا إما يبيعون جمالهم أو يؤجرونها للركوب أو النقل، أو أن يذبحونها

للاستفادة من لحومها. وكانت الزراعة هي شغل الناس في مناطق الحضر والقرى، هذا وأهمل الناس صناعة الأكواخ ولم يعمل بها سوى الفقراء لتسد رمق احتياجاتهم الضرورية. كان الوضع الاقتصادي بائساً جداً، كما أن التطلعات السياسية نادراً ما كانت مشجعة، ومع ذلك لم يكن «عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود» الرجل الذي يمكن أن يرضخ للظروف الجبرية ويستسلم للظروف القاسية التي كانت تواجهه، خاصة أنه بلغ ذروة الإنجازات العظيمة التي رفعت من منزلته. ومما لا شك فيه أنه كان يشجع نفسه كما أنه كان يجد العزاء حيال تلك الأمور الصعبة بالرجوع إلى إلى الآية القرآنية المحببة إليه: التي تقول: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح بإمكان «عبد العزيز» أن يضع الجزء الأول من خططه المستقبلية حيز التنفيذ. ولعل المرء يفكر بأنه نظراً للظروف السائدة في تلك الفترة كان لزاماً على «عبد العزيز» أن يعمل على ترسيخ الأمن والاستقرار في المناطق التابعة لحكمه في الصحراء العربية، وذلك عن طريق تصفية عدوه اللدود ألا وهو أسرة «آل رشيد» الحاكمة في «حائل». لكن لم يكن «عبد العزيز» ليفكر على ذلك النحو، ومن المحتمل أنه كان قد فكر بأن ضم «جبل شمر» إلى مملكته في تلك الفترة يمكن أن يفاقم من الصعوبات الاقتصادية التي كانت تواجهه. لكن مهما تكن حقيقة الأمر وحقيقة أنه قد أصدر أمراً لحشد كافة القوات، إلا أنه تحرك في شهر شباط من عام ١٩١٣ من الرياض باتجاه أماكن تجمع المياه في منطقة «الخفس» الواقعة على الطرف الغربي من سهل «العرمة» حيث تتوافر المراعي التي

يمكن أن تكفي ماشية العديد من الجماعات الإقليمية المحاربة في صفوف قواته. كان من المفروض أن تتجمع قواته في تلك المنطقة لتشكل مجمل جيشه. وأثناء انتظاره وصول كافة الحشود وليحول الأنظار عن أهدافه وخططه الحقيقية، قام بإرسال مجموعة مقاتلة لتغزو قبيلة «المرة» محدثة لهم أضراراً مادية وعسكرية إلى حد ما.

ثابر «عبد العزيز» في المسير بقواته بصعوبة ووصل على بعد مسافة قصيرة من منطقة «الهفوف» التي كانت تعتبر عاصمة إقليم «الأحساء» والتي حدث وأن زارها خلال أشهر الشتاء الماضي الرحالة البريطاني الكابتن/ جي إي ليتشمان. وكان هذا الرحالة قد وصل إليها في نهاية رحلة طويلة في الصحراء بدأها من بغداد وتغلب خلالها على عدة عقبات ومغامرات واجهته خلال مسيرة إلى الرياض عن طريق بريدة. وانتهت تلك الرحلة به على شواطئ «الأحساء» وهناك وجد القوات التركية المرابطة في ذلك الإقليم - والذي هو بمثابة منفى لهم - فرحين جذلين غير مبالين بقضاء بقية حياتهم في تلك البراري. وكان آخر شيء كان يمكن أن يفكروا فيه - حتى في أحلامهم - هو أن يتم إعفاؤهم بشكل مبكر من الخدمة في الصحراء العربية، إلا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لمغادرة الصحراء العربية إلى الأبد وذلك بعض مضي أقل من خمسة أشهر على الزيارة التي قام بها هذا الرحالة البريطاني. بلغ تعداد قوات الحامية التركية في «الهفوف» ١٢٠٠ رجل، هذا إضافة إلى حامية تركية صغيرة كانت موجودة في منطقة «القطيف» كما كان هناك العديد من المراكز العسكرية البسيطة المبعثرة حول مناطق ذلك الإقليم.

أمضى «ابن سعود» مساء اليوم الثامن من شهر آيار (مايو) يعد العدة

للهجوم على المدينة المحصنة بأسوارها وعلى قلعتها الكبيرة، كما كان يعطي كبار مساعديه من القادة تعليمات مشددة تتعلق بالكيفية التي يجب أن ينفذ بها الهجوم. أقدم جنوده على قطع بعض أشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة من المدينة وعملوا من جذوعها سلالم، ووزعوا الحبال التي كانت بحوزتهم (والتي كان من الطبيعي لكل مسافر في الصحراء العربية أن يحملها معه لسحب الماء من الآبار) على كافة أعضاء المجموعة المكلفة بتسلق الأسوار ليقوموا بدورهم بتدليتها من أعالي الأسوار. ومع حلول منتصف الليل تحركت الدفعة الأولى سيراً على الأقدام، وعند حلول الفجر تمكنت من وضع السلالم على الأسوار استعداداً للتسلق. تمكن هؤلاء الجنود من قتل بعض الحراس الذين غلب عليهم النوم، وقبل أن يتاح لتلك الحامية فرصة استدراك رشدها لصدقها بفعل الهجوم الليلي، كانت قلعة «الكوت» الكبيرة قد سقطت عملياً في أيدي القوات السعودية. وعلى الفور انسحبت القوات التركية واحتمت بجامع «إبراهيم باشا» واستحكمت فيه لتراقب التطورات. تمكنت قوات «ابن سعود» في تلك الأثناء من الاستيلاء على أحد بوابات المدينة، الأمر الذي مكن قواته من أن تتدفق للداخل وأخذوا يطلقون عياراتهم النارية ويهتفون بصرخات الحرب وذلك ليزيدوا من حدة الاضطراب الذي أصاب الناس، وليؤثروا على عدوهم ويولدوا لديه الشعور بالخيبة من جراء الكارثة التي حلت به. وتم إرسال أحد الأسرى الأتراك إلى قائده ليبلغه ضرورة استسلام كافة أفراد الحامية التركية، مقابل ضمان سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ومرافقتهم بسلام حتى الشاطئ ليتسنى لهم التوجه عبر البحر باتجاه البحرين. في تلك الأثناء قامت القوات

السعودية بوضع ألغام تحت الأبنية التي لجأت إليها قوة العدو الرئيسية، وأصدرت إليهم تحذيراً بأنها ستفجر الألغام إذا تأخروا أو تبطأوا في الاستسلام.

لم يكن لدى القائد التركي العديد من الخيارات حيال تلك المشكلة، وذلك وافق على أن يلقي سلاحه وفقاً للشروط التي تقدم بها «ابن سعود»، وعندما حان الوقت المناسب خرجت الحامية التركية تلك من «الهفوف» ورافقتها أثناء انسحابها قوة من الجيش السعودي بقيادة «أحمد بن ثنيان» وهو من أبناء عمومة القائد السعودي، ومن هناك استقلت القوات التركية ما كان موجوداً من القوارب وأبحرت باتجاه البحرين. ومن البحرين قرر القائد التركي أن يقوم بمحاولة لاستعادة الوضع فأرسل قوات جديدة إلى «العقير» لكن القوات السعودية تمكنت من أسر بعضاً منهم أثناء نزولهم إلى الشواطئ، وتمكن البعض الآخر من العودة بالمراكب إلى البحرين. قدم «ابن سعود» شخصياً إلى «العقير» وأطلق سراح السجناء وسمح لهم بالذهاب بالقوارب إلى البحرين، وتحرك بعد ذلك بقواته إلى «القطيف» وهناك لم يواجه أية مشكلات بل على العكس تجمهر الأهالي ليحيوا حاكمهم الجديد. تمكن «ابن سعود» في كل من «القطيف» وقرى بلدان «الأحساء» من إعادة استكمال مخزونة الذي كان قد نضب إلى حد بعيد، كما تمكن من جمع الكثير من الأموال.

تمكن «ابن سعود» وبسهولة من إحباط محاولة تركية لاستعادة «القطيف». وبعد أن شعر بالرضى عن العمل الذي قام به على مدى شهر مضى قرر «ابن سعود» العودة جذلاً إلى الرياض، لكنه فعل ذلك بعد أن

أعد الترتيبات المناسبة لإدارة إقليمه الجديدة. كرس «ابن سعود» اهتماماً بشكل خاص على تثقيف الأهالي هناك وفق تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة التي تشمل كافة أشكال الحياة هناك. وأعد «آبن سعود» أيضاً ترتيبات من أجل بناء المساجد والمدارس، وعين عليها رسميين جديرين بالثقة ليتلقوا الأموال وليقوموا بتوزيعها، وأعاد تشكيل هياكل المحاكم لتعمل وفق الشريعة الإسلامية، وأخيراً وليس آخر عين حاكماً جديداً بقي في منصبه لمدة ربع قرن إلى أن وافته المنية، وبذلك أصبح أسطورة عصره وزمانه. وكان ذلك الحاكم هو «عبد الله بن جلوي» الذي شارك ابن عمه في الهجوم الشجاع الذي حقق استرجاع العاصمة الرياض في عام ١٩٠٢. سبق أن كان حاكماً عاماً على إقليم «القصيم» منذ أن استعادته القوات السعودية. ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» كان يستنير برأيه بخصوص خططه الهادفة للهجوم على إقليم «الأحساء».

كان «عبد الله بن جلوي» قد غادر «بريدة» برفقة سيده ليشارك في حملة الأحساء تماماً قبل وصول الرحالة البريطاني «ليتشمان» إليها في شهر كانون الأول عام ١٩١٢. كما كان «فهيد بن معمر» في تلك الفترة يدير شؤون حكم بريدة. هذا وتم تعيين «عبد الرحمن بن سويلم» (الذي كان قد قاد القوة العسكرية لاحتلال «القطيف») أميراً على الميناء، لكن تابع للقيادة العامة لـ «عبد الله»؛ ووضعت «العقير» تحت إمرة «عبد الرحمن بن خير الله» الذي بقي في ذلك المنصب طيلة نفس المدة التي بقي فيها رئيسه حاكماً على «الهفوف».

وعلى نحو مدهش ولكن بقليل من الجهد تمكن «ابن سعود» من الدخول

إلى مناطق الخليج العربي من خلال جبهة عريضة تمتد من أراضي الكويت شمالاً حتى إمارة «قطر» في الجنوب. حدث في قطر عام ١٩٠٥ أن مات صديق «ابن سعود» وحليفه القديم «قاسم بن ثاني» عن عمر يناهز المائة وإحدى عشر عاماً. والجدير بالذكر أن «ابن سعود» كان قد ذهب في أوائل ذلك العام لنجدة صديقه «قاسم» الذي كان يتمتع بسمعة أسطورية واحتفظ بقدراته الجسدية والذهنية حتى وفاته. وكان الناس غالباً ما يشاهدونه في ساعات العصر راكباً فرسه وبرفقة مجموعة من الفرسان معظمهم من أبنائه وأحفاده.

وبعد وفاته خلفه في الحكم ابنه «عبد الله» الذي حافظ على علاقات ودية مع جاره العظيم الذي بدوره لم يتدخل أبداً في شؤون استقلال شبه الجزيرة العربية. كانت الإمبراطورية العثمانية غير مبالية لخسارتها إقليم «الأحساء»، ودارت مفاوضات مع «ابن سعود» عن طريق شخصية سياسية من البصرة هو «السيد طالب النقيب» وفي تلك الأثناء كان والي البصرة «سليمان شفيق كمالي باشا» يحري حواراً مع «زامل السبهان» الذي كان حاكماً على «حائل» بالنيابة عن «سعود بن رشيد» وذلك بخصوص الترتيبات المتعلقة بطلب ابن رشيد من الأتراك تزويدهم بالمال والسلاح اللازمين لخوض المعركة المرتقبة ضد «ابن سعود». واحتج هذا الأخير لدى «زامل» على نقضه لشروط الهدنة التي تم التوصل إليها آنذاك بين البلدين والتي نجمت عن قبول هدية الأتراك المؤلفة من اثني عشر ألف بندقية مع ذخيرتها، إضافة إلى مبلغ من المال على أن تستعمل جميعها ضده شخصياً، وأجاب «زامل» بكل صراحة بأنه كان إلى جانب الأتراك كقوة لها سيادتها وسلطانها، وأنه إذا

حدث تماس بين مصالحهم وبين علاقته مع الرياض فسيقف إلى جانب الأتراك ويخدم مصالحهم. قبل «ابن سعود» ذلك التحدي الضمني وأصبحت الهدنة في هذا الحال في عداد المنتهية. وعلى أي حال كان «ابن سعود» متنبهاً لفرط حساسية موقفة، لذلك توخى السلامة في محادثاته التي أجراها مع «سيد طالب» في منطقة «الصبيحية» بالقرب من الكويت والتي انتهت بإعطائه تعهداً شفوياً بالاعتراف بسيادة السلطان التركي على منطقته مقابل أن يقدم الأتراك له المال والسلاح الكافي الذي يمكنه من تحقيق أمن الإقليم الساحلي التابع لسلطته. والجدير بالذكر أن الخيرات الزراعية في هذا الإقليم إضافة إلى عائدات الجمارك فيه كانت تمثل وبلا منازع أغنى جوهرة في تاجه. هذا ولم يتم تنفيذ أي جزء من هذا التفاهم المبدئي كما أن اندلاع الحرب بين الأتراك والبريطانيين في شهر تشرين الأول من عام ١٩١٤ وضع نهاية قطعية لآمال الأتراك في استرداد إقليم «الأحساء».

وعلى ضوء هذه التطورات يبدو جلياً أن «ابن سعود» تصرف في الوقت المناسب ليعزز وجوده في إقليم «الأحساء» الذي كان من الممكن أن يسقط في أيدي قوات الحملة البريطانية المحتشدة في البحرين. فقد عمل «ابن سعود» كل جهده في تلك الفترة ليضمن تعاطف البريطانيين معه وليضمن دعمهم لموقفه في إقليم «الأحساء» واستغل بذلك التزام الأتراك الحقيقي وتقاربهم وبشكل مسبق من موقف الألمان، لكن البريطانيين كانوا منشغلين على الصعيد الدبلوماسي يحاولون درء مثل ذلك التطور عندما قام الممثل البريطاني في البحرين في زيارة مجاملة لـ «ابن سعود» الذي كان في «العقير» بعد سقوط إقليم «الأحساء» لم تكن لديه أية تطمينات ملموسة يمكن أن

يقدمها للأمير السعودي. وعند نهاية ذلك العام لم يكن بإمكان الكابتن شكسبير - الوكيل السياسي البريطاني في الكويت - أن يناقش مع «ابن سعود» سوى الأمور الضمنية العامة المتعلقة بالوضع الجديد، كما أنه لم يكن بمقدوره أن يطلعه على معلومات معينة كانت بحوزته. والجدير بالذكر أن هذا اللقاء مع «ابن سعود» تم أثناء مرور «شكسبير» عبر الرياض في سياق رحلته الكبيرة عبر أراضي الصحراء العربية (وذلك من الكويت إلى السويس)، علماً بأن «شكسبير» هذا سبق له أن اجتمع مع «ابن سعود» في أحد معسكراته في الصحراء. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الحكومة البريطانية كانت قد حجبت وعن قصد تلك المعلومات عن «ابن سعود» ولم تطلعه عليها لمدة سبعة عشر عاماً، إلى أن حان عام ١٩٣٠ إذ وجدت نفسها مضطرة أن تقدم وثائق تثبيت أنها الوارث الشرعي للتركة العثمانية، خاصة فيما يتعلق بمناطق لم يسبق لها أن احتلتها ولم يسبق أيضاً لأي قوة تركية أن تجرأت في الدخول إليها. انفضح أمر سخافة ومهزلة هذا الادعاء لكل الناس إلا أن البريطانيين استمروا ولعدة سنوات جاهدين لتحقيقه ومتابعته، ولا زالت أصداؤه تنذر بالشؤم في بعض أجزاء جنوب الصحراء العربية.

فالمعلومات التي لم يكن بإمكان «شكسبير» أن يفصح عنها لمضيفه «ابن سعود» كانت هي أنه في أقل من شهرين على استيلاء «ابن سعود» لإقليم «الأحساء» تم توقيع اتفاقية في التاسع والعشرين من شهر حزيران بين الأتراك والبريطانيين. وقع الاتفاقية عن الجانب التركي «إبراهيم حقي باشا» ووقعها عن الجانب البريطاني وزير الخارجية البريطانية السير «إدوارد غريه»، ووضحت تلك الاتفاقية مصالح كلا البلدين في مناطق الصحراء

العربية، وبالتحديد في الكويت والبحرين ودول الساحل الخليجي. وكان لهذه المناطق بطريقة أو بأخرى مساس بإقليم «الأحساء» الذي لم يرد ذكره في الاتفاقية والذي كان يفترض ضمنياً بأنه لا يزال جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. تم الإعداد للتصديق على هذه الاتفاقية خلال ثلاثة شهور، ولكن لسبب ما تم تحديد موعد التصديق عليها حتى تاريخ الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٤، وصادف ذلك نفس اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية. لكن لم يكن ذلك أسوأ ما في الأمر بل حدث ما هو أكثر سوءًا، إذ إنه لا بد أن كانت المفاوضات بذلك الخصوص جارية في وقت كان فيه «شكسبير» يجري زيارته الودية لـ «ابن سعود» في الرياض. على أي حال كان «شكسبر» على وشك الوصول إلى السويس عندما وقع في المفاوضات في التاسع من شهر آذار عام ١٩١٤ اتفاقية أخرى في لندن صادق عليها الطرفان في الثالث من شهر حزيران من العام نفسه. لم يكن معلوماً حتى هذه المرحلة من تطور الأحداث فيما إذا كان هناك أمل في استرداد إقليم «الأحساء» بمساعدة وموافقة البريطانيين، أو إذا كانت لديهم دوافع ومناكاة «ابن سعود»، أو أن المبعوث التركي كان قد تصرف بدوافع دنيئة، لكن شروط الاتفاقية نصت على تقسيم كافة أرجاء الصحراء العربية بين الحكومتين، وذلك برسم خط مستقيم يمتد من أسفل مناطق «قطر» في شبه الصحراء العربية عبر الصحراء ليلتقي بالطرف الشرقي للحدود المرسومة عام ١٩٠٢ بين محمية «عدن» و«اليمن»، وكانت الغاية من ذلك جعل كل المناطق الواقعة شمال ذلك الخط تابعة للحكم التركي بما في ذلك ليس فقط إقليم «الأحساء» بل كافة مناطق «نجد» أيضاً، علاوة على

ذلك تقرر أن تكون كافة المناطق الواقعة جنوب ذلك الخط تابعة للحكم البريطاني . ولا عجب إذن من أن الحكومة البريطانية كانت حذرة بل وضنينة بالسماح لـ «ابن سعود» بمعرفة أسرار المكائد التي كانت ترتبها مع أقوى أعدائه، والأقل عجباً من ذلك أن الإفشاء عن هذه الخطة والذي جاء في وقت متأخر ولد الانطباع من أن الحكومة البريطانية أخذت الدور التركي التقليدي المعروف كونه العدو الرئيسي للحكم السعودي . والجدير بالذكر أن ذلك الانطباع أصبح الانطباع السائد منذ ذلك الحين . ويمكن القول في سياق هذا الحديث إن ثمة عوامل أخرى ظهرت خلال وبعد الحرب العالمية الأولى بتؤكد وتثبت صحة هذا الانطباع، ولم يكن بإمكان الأحداث الأخيرة التي حدثت في منطقة «البريمي» أن تزيل ذلك الانطباع .

وعند اندلاع الحرب في شهر تشرين الأول عام ١٩١٤ قام السير «بيرسي كوك» الذي كان في وقتها المسؤول السياسي للحملة البريطانية العسكرية في بلاد الرافدين باستدعاء «شكسبير» من إجازاته وأرسله في مهمة لتمثيل المصالح البريطانية في «الرياض . وكان «شكسبير» الشخصية المثالية لتلك المهمة لما له من خبرة عسكرية وتجربة سياسية في التعامل مع العرب، علاوة على أنه كان شخصية محبوبة ومرغوب لها لدى «ابن سعود» .

ولعل الخطأ الوحيد الذي ارتكبه شكسبير الذي دلت التجربة على أنه كان خطأً قاتلاً وجسيماً، هو أنه لم يقبل أن يلبس اللباس العربي أثناء وجوده على الأرض العربية . وفي الوقت الذي وصل فيه «شكسبير» إلى الرياض كانت الأعمال العدائية بين «حائل» والرياض قد بدأت بمبادرة من قبل

«ابن رشيـد» . ومما لا شك فيه أن الأتـراك حثـوا حليـفـهم «ابن رشيـد» على القيام بأعمـال تستهـدف تصـفـية النظام السعـودي . وفعـلاً حدث في أواخـر شهر كانون الأول أو بداية شهر كانون الثاني أن «ابن رشيد» تقدم بقواته إلى داخل الحدود السعودية وكان «ابن سعود» في تلك الفترة قد أعد ترتيباته لمجابهة نشاطات «ابن رشيد» والتصدي لها . رافق «شكسبير» «ابن سعود» في حملته ، في معركة «جراب» التي دارت بينه وبين قوات «ابن رشيد» على مسافة قريبة من «الزلفي» ، حيث حالف الحظ القوات السعودية المرتجلة في أحد مواقع المعركة ، كما حالف الحظ فرسان «جبل شمر» في مواقع أخرى . وقتل في حمأة المعركة «شكسبير» الذي كان يوجه نيران مدافع السعوديين ، وتوقف القتال وادعى كل من الطرفين النصر لنفسه . والحقيقة أن المعركة انتهت دون غـالب أو مغلوب . لم يكن موت «شكسبير» في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩١٥ مجرد كارثة لبلاده فحسب ، بل كان كارثة أيضاً بالنسبة لـ «ابن سعـود» الذي جلس في خيمته إثر ذلك الحدث عابساً متجهماً . تطورت الأحداث في مناطق أخرى من الصحراء العربية وحولت مع تطورها موقف «ابن سعود» ليصبح نسبياً موقفاً غير مؤثر في مجريات سياسة الصحراء العربية . وزادت تلك الظروف أيضاً من عدد أعدائه كما قوّت من شوكتهم ، وكان من بين أولئك الأعداء ابن رشيد الذي حظي بدعم الأتراك له ، لكن كان خطره بسيطاً إذا ما قورن بخطر «الشريف حسين» حاكم مناطق الحجاز وخطر زعماء آخرين متحالفين مع الحكومة البريطانية .

ولهذا القدر وبما يخص السير «بيرس كوس» يمكن القول إن «كوكس» لم

يكن مستعداً أن يغامر بحياة الرسميين البريطانيين وسط المخاطر التي كانت الصحراء العربية تعج بها. والحقيقة تقال أن الصحراء العربية في ذلك الوقت كانت من أكثر مناطق العالم أمناً، لكن السير «كوس» لم يفقد الرغبة في التعامل مع «ابن سعود» وأبقى على اتصالاته والتي كانت تتم عبر «عبداللطيف بن منديل» ممثل «ابن سعود» في البصرة. في تلك الأثناء خولت الحكومة البريطانية السير «كوكس» صلاحية الاستمرار في الخطى التي اقترحها «شكسبير» والتي جاءت كنتيجة للمناقشات التي كان قد أجراها مع «ابن سعود». وعليه تم إرسال مسودة معاهدة صداقة إلى «ابن سعود» ليدرسها ويوقع عليها، وفعلاً وقع «ابن سعود» عليها وأعادها إلى الحكومة البريطانية بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات. تطلبت تلك التعديلات إجراء المزيد من المداولات والاعتبارات.

لم يتمكن السير «كوكس» من الاجتماع بـ «ابن سعود» إلا في نهاية عام ١٩١٥ في منطقة «القطيف»، وهناك تم توقيع الاتفاقية حسب الأصول التي بموجبها اعترفت الحكومة البريطانية باستقلال «ابن سعود» وضمنت الوقوف إلى جانبه ضد أي تدخل أجنبي يطرأ على حدوده التي سيتم تعيينها وتحديدها بعد انتهاء الحرب. أما من جهته فتعهد «ابن سعود» بأن لا يهاجم المحميات البريطانية في منطقة الخليج. هذا وتضمنت تلك الاتفاقية عبارات اعتيادية مثل منع منح ملكية الأراضي إلى أية دولة أجنبية أخرى أو ممارسة علاقات دبلوماسية مع أية قوى أجنبية مماثلة. تكشفت حسن النوايا المعرب عنها في بنود الاتفاقية وبشكل مسبق عندما أقدمت الحكومة البريطانية في صيف العام المنصرم وأن قدمت لـ «ابن سعود» هدية شملت على ألف بندقية إضافة إلى عشرين ألف جنيه استرليني، كما قدمت له تسهيلات تمكن

بموجبها من استيراد الذخيرة عبر جهوده الخاصة من البحرين. جاءت هذه المساعدات والهدايا لتسد احتياجات الحملة العسكرية التي كان «ابن سعود» يعد لها لضرب قبيلة «العجمان» المتمردة. وفي شهر أيلول من ذلك العام هجم «ابن سعود» بقواته على قبيلة «العجمان» وألحق بها هزيمة نكراء وأجبرهم على الهرب واللجوء إلى مناطق الكويت. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن السير «كوكس» كان خلال هذه المفاوضات متكتماً على موضوع كان من الممكن أن يثير جل فضول واهتمام «ابن سعود» إن لم نقل قلقه. فلم يكن بمقدوره ولأسباب واضحة أن يشير إلى المفاوضات التي تمت بين السير «هنري ماكماهون» و «الشريف حسين» أمير مكة والتي أسفرت عن الثورة العربية في حزيران عام ١٩١٦، إذ لم تتضمن الاتفاقية أية إشارة إلى الحدود الغربية لمملكة «ابن سعود»، هذه نقطة سببت الكثير من المتاعب لاحقاً.

وعندما علم «ابن سعود» بخبر الثورة العربية كان قد اتخذ وتبنى موقفاً سلبياً، لكنه لم يخفي مخاوفه من أن طموحات «الشريف حسين» ستتضارب في يوم من الأيام مع مصالحه الشخصية. لكن الحكومة البريطانية التي قررت في هذه المرحلة دعم الثورة العربية مهما بلغت التكاليف، فوضت السير «كوكس» أن يلعب دور الوسيط في تقريب وجهات النظر بين الأطراف المختلفة في المنطقة. كما فوضته بأن يقدم ضمانات لكنها لم تفد كثيراً في تهدئة غضب «ابن سعود» أو تخفيف قلقة وتوتره. في تلك الأثناء ومع نهاية عام ١٩١٥[*] كان الشيخ «مبارك» أمير الكويت قد فارق الحياة، لكنه قبل موته كان غيوراً وشديد الانتقاد لشخص يمكن أن ينظر إليه على أنه تلميذه في

(*) الصحيح أن الشيخ مبارك توفى عام ١٩١٥م وخلفه ابنه الشيخ جابر الذي استمر في الحكم حتى عام١٩١٧هـ.

الأمـور السيـاسيـة . كـان ابنه الأكبـر ووريثـه في الحكم المدعـو «جـابر» على صداقة طيبة مع «ابن سعود»، إلا أن فترة حكمه كانت قصيرة جداً ولم يكن بالإمكان أن تصدر عنهـا أية نتـائج ملموسة خصـوصاً فيـما يتعلق بالخطر المحدق بأمن «ابن سعود» والمتأصل في وجود لاجئين من قبيلة «العجمان» في المناطق الخاضعة لحكمه.

كان «سالم» الذي تولى حكم الكويت بعد وفاة شقيقه «جابر» على عداء واضح مع «ابن سعود»، ولم يحاول أن يخفي ذلك العداء، كما لم يعد «ابن سعود» في موقف يحسد عليه بسبب الصراع الدائر بينه وبين «جبل شمر» والحجاز والكويت، إضافة إلى موقف الحكومة البريطانية المتزايد في الفتور تجاهه. ولهـذا عمل «ابن سعود» جاهداً لعقد لقاء آخر بينه وبين السير «كوكس»، وفعلاً تم ذلك اللقاء في «العقير» وكان المراد منه على الصعيد الظاهري مناقشة الطرق والأساليب التي تمكن «ابن سعود» من مباشرة حملته التي طال انتظارها ضد جماعة «ابن رشيد»، لكن في حقيقة الأمر كان الهدف من ذلك اللقاء ومن وجهة نظر «ابن سعود» هو أن يحظى بالمزيد من الشروحات الخاصة بالترتيبات التي تم التوصل إليها مع «الشريف حسين» الذي بدأ يعلن أنه تلقى اعتراف رسمي بلقب «ملك العرب».

لم يكن باستطاعة السير «بيرسي كوكس» إلا أن يؤكد لابن سعود بأن استقلاله لم يكن عرضة لأي خطر، ووجه إليه الدعوة للمشاركة في حفل رسمي خاص للزعماء العرب تقرر عقده في العشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٦ بمناسبة تقليد «ابن سعود» وتقليد «جابر» الأوسمة الرسمية. وفي ذلك الحفل تم تبادل العبارات الحسية المنمقة، وتحدث السير «كوكس»

وهنأ كافة الحضور على بوادر الوحدة العربية التي برزت في ذلك الوقت حيال الأزمة الدولية. ولم يكتب لـ «جابر» أن يعيش العمر الطويل بعد تسلمه ذلك الوسام. قبل «ابن سعود» دعوة السير «كوكس» لزيارة البصرة كضيف خاص له وبالتالي ضيفاً على القائد العام للقوات البريطانية. كانت تلك الزيارة أول تجربة لـ «ابن سعود» في سفره خارج الصحراء العربية، حيث اندهش «ابن سعود» كثيراً لمشاهدة آليات ومكننة الحرب الحديثة في ذلك العصر. وربما كان مندهشاً أكثر من ذلك بحقيقة أن أكثر مستضيفيه ذكاءً كان امرأة تدعى «جرترود بل». جاءت النتيجة العملية لهذه الاتصالات التي تمت على مدى شهر من الزمن وعلى مستوى عال أن تم عقد اتفاق يحصل «ابن سعود» بموجبه على مساعدة مالية تقدر بخمسة آلاف جنيه بريطاني شهرياً إضافة إلى أربعة مدافع وثلاثة آلاف بندقية وكميات كبيرة من الذخائر، مقابل أن يبقي قوة تقدر بأربعة آلاف رجل مستعدة وبشكل دائم لمواجهة «ابن رشيد»، وأن يتقدم بها لمهاجمة عاصمته «حائل». لكن من المؤسف أن تفاؤل الرسميين البريطانيين بخصوص مدى دعم الوحدة العربية لموضوع التحالف الذي تم التوصل إليه خلال هذه الإجراءات لم يكن في مكانه. فخلال اثني عشر شهراً عادت الخلافات وتضارب المصالح الأولية تجتاح كافة الجوانب السياسية بين العرب، وأطلقت أولى رصاصات الحرب التي لم تنتهي إلا بسقوط «الشريف حسين» وضم الحجاز والمناطق المقدسة فيه إلى الحكم السعودي.

ومنذ بداية عام ١٩١٧ وصاعداً، وناهيك عن ضرورة صرف انتباه «ابن

سعود» عن نشاطات الحلفاء في مناطق الحجاز، وذلك بتشجيعه في أن يتخذ إجراءً معيناً ضد «ابن رشيد»، كان هم السير «بيرسي كوكس» بالدرجة الأولى القضاء على المواقع التركية ومنع تقدمها إلى ما وراء بلاد الشام. شجع غلاء الأسعار وندرة المواد التموينية في سوريا على وجود سوق مثالية للتهريب والمهربين فقد كان المهربون العرب يجلبون البضائع المعربة إلى دمشق من العراق ومن موانئ الخليج العربي مروراً بالصحراء العربية. كان الشيخ «سالم» أمير الكويت يتغاضى عن عمليات التهريب التي كانت تمر بأراضيه، وكان يأخذ مقدماً ضريبة على مرورها من أراضيه وفي الوقت نفسه كان تجار «القصيم» وتجار مناطق أخرى خاضعة لحكم «ابن سعود» يحملون بضائعهم قاصدين «حائل» ومنها كانوا يرسلونها إلى الأتراك. كان من المتوقع من «ابن سعود» أن يحول ويمنع ذلك النهريب وذلك كجزء متكامل من حملته ضد «ابن رشيد»، لكن مما لا شك في أنه كام بمقدور بعض القوافل أن تفلت من مراقبته الشديدة لحركات التهريب.

سببت العلاقات غير الودية القائمة بين الكويت والرياض قلقاً بالنسبة للمفوض البريطاني المكلف بالأمور المدنية في بغداد. وجاء ذلك القلق لأن العلاقات غير الودية أوجدت من ناحية معينة حالة عدم استقرار في المناطق الداخلية من بلاد الشام، كما أنها من ناحية أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمية ساهمت وسهلت حركة التهريب بين تلك المناطق. هذا وكان المفوض التركي قد وعد «ابن سعود» بأن يتخذ إجراءات ضد وجود قبيلة «العجمان» في الأراضي الكويتية، حيث كان بإمكانها من تلك المواقع الانقضاض على قبائل «نجد» والإفلات من العقوبة.

وكان هناك أيضا ثمة قضايا أخرى بسيطة مثل عدل ضريبة الجمارك التي

تتقاضاها الكويت وبغداد على البضاعة المتوجهة إلى «نجد»، وإمكانية ترتيب عملة معدنية بقيمة بسيطة للاستعمال اليومي من قبل أهالي البلاد. تأزمت كافة هذه الأمور في خريف عام ١٩١٧ عندما بدأ المفوض السامي في مصر السير «ريجنالند ونجت» بالضغط على «حائل» جاء ذلك في وقت كانت فيه الثورة العربية قد استنزفت بعض من قوة الزخم لديها وأصبحت مهددة بالتردي إلى حالة ركود. وحيال هذا الوضع تم إرسال الكولونيل «لونس» إلى جدة ليعيد تنشيط حركة الحياة، في حين تم إرسال ممثل آخر عن السير «ريجنالد ونجت» إلى بغداد ويدعى السيد «رونالد ستورز» الذي حظي بلقب «السير» فيما بعد. توجه هذا الأخير إلى بغداد لمناقشة الوضع العام مع «بيرسي كوكس» وهناك اقترح «كوكس» أن يقوم «ستورز» بناء على خبرته الكبيرة في الجانب الآخر من القضية بالتوجه إلى «ابن سعود» كممثل عنه ويعرض عليه موضوع تطبيق العديد من المقترحات التي تهدف (عندما يحين الوقت المناسب) إلى إزالة أسباب الخلافات بين الحليفين العربيين الرئيسيين للحكومة البريطانية.

ولسوء الحظ لم تؤت تلك الخطة العبقرية ثمارها لأن «ستروس» سقط ضحية ضربة شمس واضطر إلى الرحيل عن الصحراء الكبرى على عجل. أصيب «كوكس» ببعض الإحباط بسبب تجربة مبعوثه الثاني إلى «ابن سعود»، لكنه لم يفقد الأمل في حل تلك المشكلة المعقدة. وبعد مشاورات طويلة عن طريق الرسائل البرقية بين بغداد والقاهرة، تقرر أن يرسل «كوكس» بعثة صغيرة إلى الرياض وأن ينضم إليها «ستروس» وهي في طريقها إلى الحجاز. لكن «الملك حسين» من البداية حال دون انضمام «ستروس» إلى البعثة ورفض تحمل أي مسؤولية تتعلق بسلامته بسبب

الأوضاع المضطربة في الصحراء.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩١٧ وصل ممثلو «كوكس» إلى «العقير» وتابعوا المسير باتجاه الرياض، وخلال مرورهم بواحة «الأحساء» مكثوا في ضيافة «عبد الله بن جلوي» لبضعة أيام، ووصلوا إلى الرياض في نهاية الشهر لمناقشة كافة جوانب الوضع مع «ابن سعود». وبعد أن تناقشوا معه وأرسلوا تقريراً عما دار بينهم إلى بغداد، توجهوا بموافقة «ابن سعود» باتجاه الحجاز ووصلوا إلى «الطائف» دون أية مشكلات في يوم عيد ميلاد السيد المسيح. كان وصولهم مفاجئاً لـ «الملك حسين» وسبب له الكثير من السخط والانزعاج، ووجد نفسه مجبراً على إعداد ترتيبات تتعلق باستمرار رحلتهم إلى جدة. وعقدت الآمال على أن ينضم «ستورز» إلى هذه البعثة في «جدة» إلا أن الجنرال «اللبني» كان قد استولى على القدس وعين «ستورز» أول حاكم عليها بعد سقوطها في أيدي الجيش البريطاني. وبدلاً من وصول «ستورز» إلى «جدة» وصلها القائل العسكري «هوغارث»، وبعد ذلك بوقت قصير وصل إلى هناك أيضاً «الملك حسين» قادماً من مكة ليكون في استقبال ضيوفه القادمين من الشرق والغرب. ودارت المباحثات ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً بسبب رفض الملك حسين المطلق أن يتعامل مع «ابن سعود» على محمل الجد وخاصة في القضية التي تتعلق بملكية «الحزمة» التي سبق أن تعرضت في شهر كانون الأول (ديسمبر) لغزو إحدى الحملات من مكة والتي على إثرها ناشدت الحزمة «ابن سعود» أن يقوم بواجبه في الدفاع عن الأهالي هناك. عادت البعثة إلى البصرة ومن ثم توجهت إلى «ابن سعود»، وفي تلك الفترة كان السير «بيرسي كوكس»

قد أصبح دبلوماسياً بمنصب الوزير البريطاني في طهران، وخلفه في منصبه في بغداد «آرنولد ولسون»، وعلى ما يبدو لم يكن «ابن سعود» في أي مزاج يمكنه من تحمل المزيد من استفزازات «الملك حسين» بخصوص «الخزمة» التي أصبحت حجر الزاوية في موقف الحكومة البريطانية. والحقيقة أن «ابن سعود» لم يبد أي ردة فعل حيال الهجومين اللذين تعرضت لهما «الخزمة» من جهة مكة خلال صيف عام ١٩١٨ باستثناء أنه أعلن رسمياً بأنه يمكن أن يقود حملة عسكرية ضد «الشريف حسين» في حال تعرضت «الخزمة» لأي اعتداء آخر. في تلك الأثناء تكرست كافة جهود الحملة للتأثير على «ابن سعود» للقيام بإجراء ضد «حائل»، وهو ما حدث بالفعل، ففي آب توغل «ابن سعود» بقواته في قلب «جبل شمر» ملحقاً خسائر مادية في المناطق الأمامية الخاضعة لسيطرة «ابن رشيد» وتابعت قواته المسير إلى أن وصلت إلى أعتاب «حائل»، وكانت «حائل» محصنة بشكل منيع ولم يكن بالإمكان مهاجمتها من دون قصفها بنيران المدافع، ولذلك عاد «ابن سعود» إلى «بريدة» وهناك أبلغته البعثة البريطانية بأن الحكومة البريطانية لم تعد تكترث لمصير «ابن رشيد» لأن الأتراك أنفسهم كانوا قد خرجوا من دائرة الحرب. ولم تكن تلك الأخبار مفرحة بالنسبة للأمير السعودي الذي تركه البريطانيون مرة أخرى ليتصرف وفق هواه. وفي تلك الأثناء كان الحلفاء المنتصرون مشغولين بتوزيع مراكز الانتداب، إضافة إلى معالجة مكاسب أخرى كانوا يتداولون بأمرها في مؤتمر السلام الذي بحثوا فيه أيضاً الحالة النفسية المتأزمة في العالم العربي. لكن كان لا بد لـ «ابن سعود» أن يجعل الحلفاء أو على الأقل الحكومة البريطانية مدركة للأحوال العربية، ومرت

بضعة أشهر شهدت فيها المناطق الداخلية بعض المآسي التي ألمت بـ «ابن سعود» شخصياً: فانتشرت حمى الأنفلونزا الإسبانية خلال شتاء عام ١٩١٨/ ١٩١٩ وراح ضحيتها ابنه الكبير «تركي» واثنين من أبنائه، إضافة إلى زوجته الأولى «جواهر».

حدث في شهر آيار (مايو) من عام ١٩١٩ أن تبخر «الملك حسين» بخيلاء أمام السعوديين الحانقين، إذ أرسل ابنه الثاني «عبد الله» على رأس حملة قوية وأمره بالاستيلاء على «الحزمة» مهما بلغ الثمن. وقد وصل «عبد الله» إلى «تربة» وأقام فيها معسكراً محصناً جلس فيه لبعض الوقت، كما نظر خلال تلك الفترة في أوضاع أهالي تلك الواحة الغير مهتمين بولائهم لوالده. وبعدها سار بقوته نحو غايته المنشودة. والتزاماً منه بالوعد الذي قطعه على نفسه بالدفاع عن أهالي «الحزمة» في حال تعرضهم لأي اعتداء، أرسل «ابن سعود» قوة قوية إليه. في تلك الأثناء سارع بعض الأشخاص الساخطين في «تربة» وأبلغوا «خالد بن لؤي» أمير «الحزمة» عن حقيقة الأوضاع في معسكر «عبد الله». وفي سديم الليل قام الإخوان المتعصبون بمهاجمة معسكر «عبد الله» من كافة الاتجاهات وفي آن واحد، وشرعوا في قتل المدافعين عن المعسكر، وتمكن «عبد الله» ومن معه من القادة من الهرب على ظهور الخيل عند سماعهم أول دلائل تلك الغارة. كما فر أيضا بعض المحاربين من البدو الذين كانوا قد رافقوا حملة «عبد الله» وتمركزوا على طول تحصينات المعسكر. وعليه أصيب قوات «عبد الله» بانهيار تام واستولت القوات السعودية على كافة المدافع والبنادق والذخائر التي كانت بحوزة قوات «عبد الله». وبعد يوم أو يومين وصل «ابن سعود» إلى مسرح

أحداث المعركة وتوج ذلك الانتصار بأن ضم تلك الواحة إلى حدود مملكته.

ويذكر لـ «الملك حسين» أنه في بداية ذلك العام كان قد اطلع الحكومة البريطانية على نيه في احتلال «الخرمه» وطلب منها أن تبارك حملته تلك. وفي منتصف شهر آذار عقد اللورد «كرزون» مؤتمراً لقادة المناطق لمناقشة تلك المسألة، وقرر المؤتمرون بالإجماع أنه نظراً لأن جيش «الشريف» كان مدرباً تدريباً جيداً ومعه أفضل المعدات، فيمكن أن يكون بإمكانه وبسهولة إلحاق الهزيمة بالقوات السعودية بغض النظر عن مدى تعصبهم الديني. علاوة على ذلك رأوا أنه إذا تم إنجاز ذلك النصر دون المخاطرة في تورط الحكومة البريطانية بمناوشات عسكرية في الصحراء العربية، ستقرر أن تكون واحة «الحزمة» جزءًا من مملكة الحجاز، فإن السياسة البريطانية المستقرة الداعمة لقضية الشريف حسين ستسمح للشريف حسين باتخاذ الخطوات الضرورية ليؤكد على حقه في ضم وحكم «الحزمة». كما تقرر إبلاغ «ابن سعود» بالقرار الذي تم التوصل إليه وتحذيره من ضرورة الإحجام عن التدخل في تلك المسألة معرضاً نفسه لخسارة المعونة البريطانية المالية الشهرية التي تقدر بخمسة آلاف جنيه استرليني. وكما شاهدنا، تجاهل «ابن سعود» ذلك التهديد، وحشد قوات جيشه من الإخوان وانطلق بها لنجدة أهالي «الحزمة». وفي الوقت الذي وصل فيه «ابن سعود» إلى آبار «السخا» كان طابور متقدم من قوات جيش ابن سعود قد محق تماماً كامل جيش «عبد الله».

أما وقد وقع الفأس في الرأس وإن ما حدث سيسفر عن متاعب جسيمة، فقد استدعى اللورد «كرزون» مجدداً أعضاء لجنته المشرفة على الأمور الإدارية لمناقشة نتيجة القرار السابق. وفي تلك الأثناء قام أحد الضباط

المتحمسين بإبراق الأوامر المتعلقة بقرار الحكومة البريطانية إيقاف المساعدات المالية عن «ابن سعود» وإيصالها إلى السير «آرنولد ولسون». نقل تلك البرقية إليه ساعي البريد الذي كان خارجاً للتجول بسيارته، وألقى «آرنولد» نظرة على فحوى البرقية ودسها في جيبه ولم يكترث لمحتواها. أما بخصوص لجنة اللورد «كورزون» فقد خيم على اجتماعها شعور بالراحة والاطمئنان لأن شيئاً ما قد تم إجراؤه ليصون شرف السيادة البريطانية وليبين لـ «ابن سعود» أنه لا يمكن له أن يتجاهل أو يهمل رغبات وتحذيرات حكومة صاحبة الجلالة. لكن تلك اللجنة اجتمعت لمناقشة قضايا أكثر أهمية من تلك، إذ إن السلطات البريطانية في «جدة» كانت قد أرسلت تقارير مفادها أن الذعر دب في منطقتي «مكة» و«جدة» بسبب أخبار وصول قوات «ابن سعود»، وأن آلاف الحجاج قد لجأوا إلى الميناء. والجدير بالذكر أن حوالي أحد عشر ألف حاج من هؤلاء الحجاج هم أصلاً من مناطق خاضعة للحكم البريطاني، وأنه لا يمكن تجاهل مصيرهم دون إلحاق الإساءة بشرف الحكومة البريطانية، وعليه كان هناك حاجة إلى إحدى عشر سفينة لنقلهم إلى بر الأمان، ولكن نظراً لندرة السفن في تلك الأوقات أرسلت تعليمات مشددة إلى الأدميرالية البحرية بضرورة تقيد كافة السفن بتلك الغاية. وذكر مسؤول مكتب الحربية البريطانية أنه لم تكن هناك قوات بريطانية لتدافع عن اللاجئين. لقي الاقتراح القائل بأن «ابن سعود» لن يتقدم باتجاه «جدة» أو باتجاه مكة استهجاناً، ونظر إليه بازدراء، كما أن التقارير الواردة من مكان الحدث لم تدعم صحة تلك المقولة، وبدا الوضع وكأنه معقداً للغاية ولا مجال إلى حله، لكن البريطانيين أرسلوا جواً مبعوثاً إلى «ابن سعود» ليهدئ

من غضبه وليحول تفكيره - إذا أمكن - عن نيته في احتلال الحجاز، وفي الوقت نفسه تم إرسال ست طائرات مجهزة لقصف القوات السعودية إذا استدعت الحاجة، لكن تلك الطائرات لم تستخدم قذائفها وتم إبلاغ المبعوث الذي وصل إلى مقر قيادة الجنرال «اللبني» (الذي كان في وقتها القائد العام للقوات البريطانية) بأن «ابن سعود» قد سحب قوات جيشه المنتصر من «تربة» وعاد بها إلى الرياض، وأن ما فعله «ابن سعود» كان مجرد ضم «تربة» إلى مملكته.

وجهت اللجنة الدعوة إلى «ابن سعود» بأن يرسل ممثلاً عنه إلى «لندن» لمناقشة كافة جوانب الوضع الراهن. وفي شتاء عام ١٩١٩ أرسل بعثة تمثله إلى هناك برئاسة الأمير «فيصل» بن عبد العزيز الذي كان في ذلك الوقت ابن أربعة عشر عاماً، وقد أحدثت تلك الزيارة (في لندن وفي أماكن أخرى) ردود فعل قوية، وأوقعت في الأوساط الحكومية البريطانية تأثيراً قوياً، وتم الافتراض ضمنياً بأن قضية «الخرمة» قد سويت بسبب ضم «تربة» إلى مملكة ابن سعود إضافة إلى حقائق أخرى. كما افترضت الحكومة البريطانية أيضاً بأن المساعدات المالية البريطانية لـ «ابن سعود» أصبحت معلقة أو معطلة منذ شهر آيار الماضي، وأنه لا مجال لإعادتها دون تعويض أو مقابل. لكن ظهرت أمام اللجنة الإدارية مفاجأة لكنها لم تكن سارة، إذ تم الاعتراض والارتباك في البيان المتعلق بتوقيف المساعدة المالية، لكن السلطات الرسمية البريطانية أكدت ذلك البيان رسمياً وبشكل غير مقيد أو مشروط. سبب ذلك الموقف إحساساً مثيراً بعض الشيء لكن لم يعد الآن شك بخصوص توقف المساعدات المالية، وتم أيضاً مناقشة قضايا أخرى ذات اهتمام متبادل وعاد

الوفد في الوقت المناسب إلى الصحراء العربية (الرياض).

كان الوضع في العراق يزداد حساسية لأن الشريف فيصل الذي كان في ذلك الوقت ملكاً على سوريا، كان يعمل بسرية وبشكل حثيث على تقويض الترتيبات الإمبريالية البريطانية والتي كان «آرنولد ولسون» بدوره يذكي نارها في مناطق بلاد الشام على نطاق واسع وملحوظ. ففي أوائل عام ١٩٢٠ اندلعت شرارة التمرد وأصبحت السياسة البريطانية في كافة أنحاء المنطقة قيد نقد ومساءلة. وأخيراً قررت الحكومة البريطانية استدعاء السيد «بيرسي كوكس» من «طهران» لمناقشة احتمال تطبيق سياسة ليبرالية في «العراق»، وبصفته المندوب السامي البريطاني فقد أوكلت إليه مهمة تطبيق هذه السياسة. سمحت الرحلة البحرية إلى «البصرة» للسيد «كوكس» بأن يجدد اتصالاته مع «ابن سعود» الذي قدم بدوره للقائه في منطقة «العقير».

كانت النقطة الرئيسية التي شغلت تفكير «ابن سعود» هي الإشاعة التي أفادت عن نية الحكومة البريطانية عرض تاج حكومة العراق على «الشريف فيصل» الذي خسر - في تلك المرحلة من تطور الأحداث - حكمه على سوريا بسبب الصعاب التي واجهها مع الفرنسيين والتي نجمت عن معركة العرب ضد الفرنسيين في موقعة «ميسلون» في شهر تموز (يوليو) عام ١٩٢٠. وكان بإمكان «كوكس» أن يقلل من قلق «ابن سعود» بخصوص تلك المسألة طالما أنه تقرر بشكل قاطع أنه لم يتم اتخاذ إجراء نهائي بخصوص الوضع في العراق إلا بعد أن يتمكن من دراسة الوضع وإرسال تقرير عن وجهات نظره وتوصياته بذلك الخصوص. تصادف أن «كوكس» في تلك الفترة لم يؤيد فكرة أن يتولى الشخص الذي رشحه «لورنس» مهمة

إدارة البلاد، والذي كان إلى حد ما مسؤولاً عن حركة التمرد. وتمت أيضاً مناقشة البنود العامة لموضوع «ابن رشيد» لكن كان من الواضح أن السيد «كوكس» كان ينظر إلى «ابن رشيد» على أنه عامل مفيد في حفظ توازن القوى في الصحراء العربية، ومما لا شك فيه أن «ابن سعود» خلص إلى نتيجة مفادها أن منافسه القديم حاكم منطقة «جبل شمر» يمكن أن يتحدى مكانته الشخصية بتشجيع من الحكومة البريطانية. والجدير بالذكر هنا أن المبعوث الخاص لـ «ابن رشيد» كان في تلك الفترة موجوداً في بغداد ليجري مفاوضات مع «جيرترود بل».

لذا قرر «ابن سعود» أنه يتوجب عليه أن يحمي نفسه من أعدائه الحقيقيين الذين شكلوا طوقاً حول حدود مملكته الشمالية، وعلى أي حال بادر بإرسال الأمير الشاب «فيصل» على رأس قوة كبيرة ليحتل مرتفعات عسير والواحات التي في أطراف ذلك الإقليم باتجاه الصحراء. وكان غايته من ذلك الإجراء هو تعزيز المكاسب التي حققها من الاستيلاء على «الحزمة» و «تربة» واللتان امتد خط دفاعهما ضد أي اعتداء محتمل من الغرب عبر «رنية» و «بيشة» باتجاه «خميس مشيط» و «أبها». ومن هناك كان «ابن سعود» في موقف يمكنه من السيطرة على كافة القبائل التي تعيش في المرتفعات وصولاً حتى حدود إقليم «الطائف».

قدم هذا التحرك لـ «ابن سعود» حجر ارتكاز لا غنى عنه لتحقيق طموحاته التي بدأ فعلاً في بلورتها في ذهنه. حدث خلال عام ١٩٢٠ أن قام «عبد الله بن طلال» (أحد أبناء عمومة «ابن رشيد») بأن أطلق النار على «سعود بن رشيد» خلال إحدى النزهات، وعلى الفور قام عبيد المغدور بقتل

القاتل، كما تمكن «عبد الله بن متعب» أخو المغدور من الظفر بالسلطة بعد أن تمكن من إيداع «محمد بن طلال» السجن. والجدير بالذكر هنا أن «عبد الله بن متعب» هو حفيد «عبد العزيز بن متعب بن رشيد» وهو العدو القديم لـ «ابن سعود»، وها هو قد اعتلى سدة الحكم بعد اغتيال «سعود بن رشيد».
ظهر ضعف شخصيته كحاكم وانعكس في الضعف العام الذي ألم بمنطقته، وبدأت عناصر من جماعة الشريف تتقرب منه بشكل ملحوظ، وزداد توددها له عندما بدأ القدر يلوح باحتمال أن يتولى الشريف «فيصل» منصب ملك العراق. لم يكن بإمكان «ابن سعود» أن يتوانى أو يضيع الوقت سدى فيما يتعلق بالوضع في «حائل»، إذ إن سيطرته على «حائل» يمكن أن تجعل منه سيداً على كافة مناطق الصحراء العربية، كما أن سيطرة أي فرد من جماعة الشريف يمكن أن تعرض موقفه للخطر إلى أبعد الحدود. ففي ربيع عام ١٩٢١ أرسل «ابن سعود» أخاه «محمد» على رأس قوة عسكرية باتجاه الشمال، وفي الوقت نفسه أرسل «فيصل الدويش» على رأس قوة محاربة من الإخوان لدعمه من جهة الشرق، وساعد «نوري الشعلان» من قبيلة «الرولة» في سوريا بأن مارس الضغط على مناطق واحات «الجوف».
اتسمت هذه العمليات بسمة جس النبض، وجاءت في وقت كان فيه السيد «ونستون تشرشل» يعقد مؤتمره الشهير في القاهرة ليقرر مستقبل شكل الشرق الأوسط. وكان القرار الرئيسي لذلك المؤتمر هو وجوب أن يعين «فيصل» ملكاً على العراق. في تلك الأثناء وصل الشريف «عبد الله» من مكة إلى عمّان على رأس قوة كبيرة ليفسد جو المؤتمرين وليعلن عن نواياه في مهاجمة الفرنسيين في سوريا.

هذا وافتُدي الشريف «عبد الله» من مغامرته غير المناسبة تلك بأن عرضت عليه إمارة عبر شرق الأردن. ولم تترك تلك الحقيقة التي تضافرت مع الخبر المؤكد بأن أخو الشريف «عبد الله» سيعين حاكماً على بغداد مجالاً أمام «ابن سعود» أن يعيد النظر في الأمور، فأخذ ينظر بجدية بالغة إلى حملته الموجهة ضد «حائل»، لذا ترأس الحملة بنفسه وقادها باتجاه «حائل» التي وصلها في فصل الخريف أي بعد فترة وجيزة من تتويج «فيصل» ملكاً على بغداد. رفض وفد من «حائل» كان قد توجه إلى معسكر «ابن سعود» النزول عند مطلب وإصرار «ابن سعود» القاضي بأن تتنازل عائلة «آل رشيد» الحاكمة عن الحكم، وعندما أبلغ «عبد الله بن متعب» بمطلب «ابن سعود» رفضه أيضاً وأصبحت يدا «ابن رشيد» مكبلتين. وليتعامل مع الوضع الملح في الشمال حيث كانت منطقة «الجوف» على حافة خطر السقوط في يد «نوري الشعلان»، توجب أن يطلق سراح «محمد بن طلال» من السجن ليقود قوة عسكرية لتخفيف الضغط على «الجوف». وعند عودة «محمد بن طلال» إلى «حائل» قام بانتفاضة ضد ابن عمه الضعيف والمتأرجح الذي لاذ (في لحظة لم يتمكن فيها من ضبط نفسه) إلى حماية «ابن سعود» وبقي ضيف شرف على «ابن سعود» في الرياض إلى أن وافته المنية عام ١٩٤٧.

يبدو أن «ابن سعود» كان قد عاد إلى الرياض قبل تطور هذه الأحداث، إلا أن التصرف العنيف والعدواني الصادر عن الأمير الجديد «محمد بن طلال» والذي كان قد بدأ في اعتداءاته على القوات السعودية التي كانت تطوق «حائل» على بعد مسافة ملحوظة أجبره على استئناف المبادرة التي بدأ

بها. وعليه وصل «ابن سعود» في الثامن من شهر أيلول إلى «بقعاء» الواقعة إلى الشرق من «حائل»، وصادف وصوله بعد أن كان «فيصل الدويش» وفرقته من الإخوان قد دحروا هجوماً قام به «محمد» الذي كانت قواته الرئيسية تتمركز في تلك المنطقة. هذا واعتمد «محمد» على أسوار حائل وتحصيناتها ليصد أي عدو يحاول الهجوم عليه ويبقيه على بعد مسافة منه أعد «ابن سعود» هجوماً على مواقع «محمد» في «بقعاء» وعززه بقوة ضاربة، وسقطت القلاع واحدة تلو الأخرى وهرب «محمد» إلى «حائل» عن طريق جبل «أجا»، فلا بد وأن أدرك الأمور لم تكن تسير لصالحه، وعليه عرض على «ابن سعود» أن يستسلم شريطة أن يبقى أميراً على «جبل شمر» تحت مظلة سيادة «ابن سعود». لكن «ابن سعود» لم يقبل هذا الشرط وأعد ترتيباته لفرض الحصار عليه، وجلب كل مدافعه لقصف المدينة، وبناءً على طلب بعض المتنفذين والوجهاء من الأهالي وافق «ابن سعود» على إيقاف القصف لفترة معقولة من الوقت، وذلك ليتمكنوا من ترتيب استسلام المدينة سليماً. وأثناء تلك الفترة أرسل «محمد بن طلال» مناشدة بالشفقة يطلب مساعدة كلاً من السلطات البريطانية في العراق والملك «فيصل» الشريف، وبعد مرور بضعة أسابيع من الصبر أرسل «ابن سعود» إنذاراً أخيراً إلى أصدقائه في المدينة أعلن فيه عن نيته معاودة القصف إذا لم تستسلم المدينة خلال ثلاثة أيام. كانت تلك الفترة كافية للجميع باستثناء «محمد» الذي أغلق أبواب القلعة ليقاتل حتى آخر رمق، وفتحت أبواب المدينة أمام قوات «ابن سعود» في الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩٢١.

وسرعان ما مال «محمد» إلى الاستسلام مقابل ضمان سلامته

الشخصية، ومن ثم توجه إلى الرياض وعاش هناك مكرماً مرتاحاً، ومع مرور الأيام زوج ابنته للملك العظيم الذي سبق أن أطفأ نور أسرته الحاكمة بعد ولاية دامت لمدة تسعين سنة تقريباً بدأت من عام ١٨٣٤ حين ارتقى جده سدة الحكم على إمارة «حائل». هذا وقام أحد عبيد «محمد بن طلال» وبالتحديد في الرياض خلال شهر شباط عام ١٩٥٤ باغتيال «محمد بن طلال» نفسه.

كان «ابن سعود» قبل الشروع في حملة «حائل» هذه قد عقد مؤتمراً لرؤساء القبائل ووجهاء علماء الدين في الرياض لمناقشة الحالة التي كانت تعاني منها البلاد، وقد وافق المؤتمرون على اقتراح «ابن سعود» القائل بأنه من أجل إعطاء «نجد» وضعية دولية مساوية لوضعية ومكانة جيرانها، يجب أن يحظى «ابن سعود» بلقب سلطان «نجد» وتوابعها. وصل هذا القرار عبر القنوات المرعية إلى المفوض السامي في بغداد، وعندما حان الوقت المناسب اعترفت الحكومة البريطانية به. عزز التخلص من «حائل» الوضع الجديد لـ «ابن سعود» الذي بدأ يتمتع به، كما أزال عنه كل إحساس بالتوتر المتعلق بأي تدخل محتمل من قبل الأشراف على أمور «نجد» الداخلية. ذلك التدخل الذي يمكن أن يقوم به هؤلاء الأشراف في المناطق المحيطة بنجد، سواءً بتشجيع أو بعدم تشجيع من الحكومة البريطانية، وأصبح «ابن سعود» الآن في موقف يمكنه من تنفيذ الخطوة التالية في برنامجه والتي تصور من خلالها توسيع سيادته بشكل فعال لتشمل حدود معقولة من الصحراء العربية.

وعليه قام «ابن سعود» في عام ١٩٢٢ بدقع قواته من باتجاه «الجوف»

ومناطق وادي سرحان، والتي كانت تشكل حتى أواخر عام ١٩٢٠ جزءاً مكملاً لإمارة «جبل شمر»، علماً بأن مقتل «سعود بن رشيد» وانهيار سلطة «آل رشيد» بسبب ذلك الاغتيال كانا قد أغريا «نوري الشعلان» زعيم قبيلة «الرولة» على احتلال هذه الأصقاع بتشجيع من الشريف «عبد الله» حاكم مناطق الأردن، مع إذعان وموافقة السلطات البريطانية على ذلك. والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية كانت في تلك الفترة مهتمة بفكرة إنشاء خط سكة حديد استراتيجي يربط بين العقبة وبغداد، وبتشجيع ودعم فعال من قبل «أحمد بن مويشر» وبعض الوجهاء المحليين الذين كانوا قد تبنوا الدعوة السلفية، تمكنت قوات «ابن سعود» من تثبيت أقدامها في جزء من إقليم «سكاكا»، وعليه أرسلت خلال شهر آب فرقة عبر الأراضي الأردنية لجس النبض وتوغلت حتى وصلت إلى منطقة سكة الحديد وقتلت سكان قرية «زيزة» القريبة من هناك، إلا أن قوات سلاح الجو الملكي المدرعة إضافة إلى بعض الطائرات التي قدمت من عمّان تمكنت من طرد هذه الفرقة خارج حدود الأردن وأنزلت بها خلال هربها المضطرب خسائر فادحة. وفي فصل الخريف من ذلك العام هاجم الإخوان قبيلة «الرولة» في «المنوة» الواقعة في مقاطعة قرى «السلط» والمتمركزة حول قرية «كاف»، ولم يكن بإمكان قبيلة «الرولة» من دون مساعدة أحد أن يصمدوا أمام قوة «ابن سعود» العاتية. وعندما وصلت القوة الرئيسية لجيش «ابن سعود» إلى «الجوف» سارع الأهالي هناك إلى الاستسلام دون أية جلبة وتخلوا عن ولائهم لـ «نوري الشعلان». وعليه قبلت البلدان الواقعة في وادي سرحان الحكم الجديد بوصفه نتيجة طبيعية أو منطقية حتمية. في تلك الأثناء كانت القوات

السعودية المقاتلة قد احتلت أيضاً واحات «خبير» و«تيماء» القريبة من حدود الحجاز والخاضعة لسلطة «حائل» منذ أيام «محمد ابن رشيد». وفي نهاية عام ١٩٢٢ كان «ابن سعود» قد احتل كافة واحات صحراء شبه الجزيرة العربية، وذلك من الحدود المتاخمة للهلال الخصيب حتى الربع الخالي إضافة إلى طوق من المناطق الخاضعة لحكم الأشراف حول الحد الشمالي من مملكته. تظافرت ظواهر عدة مثل عداء الملك «حسين» المكشوف وعداء أبنائه المبطن والمتحفظ في العراق ومناطق الأردن (والتي كانت آنذاك تحت الوصاية البريطانية) علاوة على طموحات «ابن سعود» جميعها تضافرت لتفجر الوضع على نحو لم يعد بإمكان الحكومة البريطانية أن تتجاهله.

ومع حلول نهاية عام ١٩٢١ تمكن السير «بيرسي كوكس» من إغراء السلطان عبدالعزيز بإرسال بعثة إلى بغداد لمناقشة مشكلات الحدود. والجدير بالذكر أنه لا يمكن اتهام «كوكس» بأن لديه مشاعر عدائية تجاه «ابن سعود»، علماً بأنه كان مهتماً بالدرجة الأولى بأمن ورخاء العراق. لقد تم وبسهولة تسوية مشكلة الكويت، كما تم ترتيب وتحديد حدودها مع سلطنة نجد إضافة إلى إقرار منطقة محايدة لتقف في وجه أية مشكلات قد تحدث بشكل عرضي. وبعد محاولة عنيفة ثم إقناع أو البعثة السعودية على توقيع «معاهدة المحمرة» التي تحددت بموجبها الحدود بين «نجد» و«العراق». رفض «ابن سعود» الاعتراف بتوقيع ممثلة على تلك المعاهدة بحجة أنه تجاوز التعليمات الصادرة إليه وقال بأنه لا يوافق على الحدود المقترحة بدعوى أنها لا تشتمل على فقرة تخول قبائل نجد في المناطق التي أعطيت للعراق في ممارسة حقهم الموغل في القدم في الرعي هناك. وعليه اقترح «ابن سعود»

إعادة النظر في كافة المسألة عن طريق إجراء محادثات شخصية بينه وبين السير «بيرسي كوكس»، ووجه إليه الدعوة ليقابله في «العقير» خلال فصل شتاء عام ١٩٢٢/ ١٩٢٣ وقبل «كوكس» الدعوة، وفي الوقت الذي تمت فيه المقابلة كان «ابن سعود» قد بلغ ذروة سلطانه وملأت سمعته أرجاء الصحراء العربية كحاكم على كافة مناطقها. كان «ابن سعود» بأي حال من الأحوال متيماً أو مفتوناً بتصور السير «كوكس» عن حدوث ثابتة نظراً للوضع البدوي التقليدي في المنطقة المعنية. تمكن «كوكس» في نهاية المطاف من تمرير مراده عن طريق تقديم تنازلات جوهرية بخصوص هذه المسألة، وتم الاتفاق بموجب بروتوكول «العقير» على أن يفهم مع اتفاقية «المحمرة» بأنه من أجل التمكن من الوصول إلى آبار ومراعي المنطقة المعتبرة ملكاً لكلا الطرفين، لا يحق لأي طرف أن يقوم ببناء قلاع أو أبنية دائمة ضمن مسافة معينة بعيدة عن الحدود أو داخل منطقة محايدة متفق عليها.

إن ما جاء بمثابة انتصار لمهارة السير «بيرسي كوكس» الدبلوماسية هو الخط الحدودي المحدد الذي يحمي العراق والكويت من أي اعتداء يمكن أن تقوم به القوات السعودية، ذلك إضافة إلى انتصاره في تأمين الحماية لدول خليجية أخرى من تدخل «ابن سعود» في شؤونها، وتم ذلك عن طريق توقيع معاهدة خاصة بذلك الفرض. لكن كان لـ «ابن سعود» يشعر بإحساس بالأسى، بمعنى أنه لم يتم النظر في اهتماماته ومصالحه في المناطق الغربية والشمالية حيث كانت له مطالب وأوضاع هامة بخصوص مناطق لا بد من تثبيت حقه فيها أو التوصل إلى تسوية بخصوصها. غير أن تغير الظروف والأحوال كان للحد الفعال من طموحاته في المناطق الشرقية دور

في تحويل اهتماماته نحو توجهات أخرى. وفي عام ١٩٢٣ وجدت الحكومة البريطانية نفسها مضطرة إلى تدارك الاحتمالات الخطرة لمثل ذلك الظرف، وبالتحديد فيما يتعلق بمناطق عبر الأردن حيث تكرر وقوع الأحداث بسبب غياب النقاط الحدودية الواضحة هناك. كانت الحجاز أيضاً بمثابة مسؤولية أدبية أو التزام أدبي بالنسبة لحكومة جلالة الملك، علماً بأن اهتمامها بالملك «حسين» وبطموحاته التي لا حدود لها كانت قد بدأت تذبل وتتلاشى منذ تاريخ ١٩٢١ عندما لم يلقى أذناً صاغية لجهود «لورنس» المقنعة والرامية في ذلك الوقت إلى حمله على التصديق على السياسة البريطانية في فلسطين. نادراً ما كانت الحكومة البريطانية ترحب بطموحات إقليمية متعلقة بأماكن المسلمين المقدسة في الحجاز، ومما كان مشكوك فيه هو إمكانية إقامة بريطانيا لتأثير سياسي فعال في وجه سلوك الملك «حسين» الذي أصبح في تلك الفترة متعنتاً ومتصلباً، لكن الحكومة البريطانية في تلك الفترة كانت قد حصلت (من أبناء الملك «حسين») على ما أرادته من منطقة الهلال الخصيب، وأصبح من الممكن النظر إلى المساعدات السنوية التي تقدمها الحكومة البريطانية إلى الدول العربية على أنها أمور ردع لأي عمل عدائي يمكن أن تقوم أية دولة من هذه الدول. على أي حال لم يكن بالإمكان التوقع لهذه المساعدات المالية أن تستمر إلى الأبد، وكان من المهم تأمين تسوية سياسية شاملة لكافة المشكلات العربية بالسرعة الممكنة.

وحيال هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية إمكانية عقد مؤتمر في الكويت خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٢٣ على أن يترأسه مسؤول بريطاني رفيع المستوى ذو خبرة طويلة في الأمور القانونية وكان

المسؤول الذي تم اختيـاره هو الكـولونيل «إس جي نوكس» الذي سـبق له أن خدم في الكويت ومسقط والعراق. هذا ويمكن أن تمثل وفود معتمـدة كافة الجـهات المهـتمـة بهـذا المؤتمر. وقـد وافق العـراق و «ابن سعـود» علـى الفكرة دون تردد أو شـروط مسبـقـة، ومما تجـدر الإشـارة إليه بشكل عـابر هنا أنه في بداية هذا العام كان «ابن سعـود» يدرس اقتراحاً تقدم به السير «كوكس» مفاده تقـديم امتيـازات نفطية تشـمل كل مناطق شـرقي الصـحراء العـربية لشـركة «إيسترن جنرال سنديكيت» البريطانية مقـابل أجرة سنوية رمـزية تصل إلى ألفي جنيه إنجليزي. اعـترض الملك «حسين» على المؤتمر المقترح لكونـه غير ضروري من حيث المبدأ، ولأن فحوى وجدوى القـضايا التي ستناقش في المؤتمر كـانت بديهـية لأي عـاقل. ورفض الأمير «عبـد الله» أن يرسل أي وفـد إلى المؤتمـر ما لـم يرسل والده أولاً وفـداً من قـبله. وبعـد جـدال طويل أخـذ المؤتمر - من قريب أو من بعيـد - شكلاً تمثيلياً، وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت بشكل مسبق أنهـا ستوقف كـافة المساعدات المالية التي تقدمـها للدول العربية اعتباراً من الحـادي والثـلاثين من شهـر آذار عـام ١٩٢٤، كمـا أعلنت أنها ستدفع مقدماً كافة المبالغ المستحقة عليها لحين ذلك التاريخ.

وفعـلاً كان ذلـك ما فعلته الحكومة البريطانية، واجتمعت الوفـود العربية وسط جـو مـريح وشـعـرت بأنهـا لن تخـسـر شـيـئـاً بسـبب عنادها وتـصلب موقفـها، لكن الحكومة البريطانية هي الجـهة التي أفسدت برنامج المؤتمر قبل البدء في اللعبة، كـان كـبار الرسـمـيين البريطانيين قد أطلعوا رئيس المؤتمر البريطاني عن النتائج المتوقعة للمؤتمر، والتي استشفوا نتيجة المداولات التي أجروها مع الوفـود، وكانت إحدى هذه التوقعات كافية بحد ذاتها لتؤكد أن

المؤتمر لن يسفر عن أية نتائج. وفي حقيقة الأمر طلبت الحكومة البريطانية وبإصرار من «ابن سعود» أن يتخلى عن «الحرمة» و «تربة» ويقدمهم للملك «حسين» مقابل تنازل «حسين» عن وادي «السرحان» وقرى «السلط» التي كان «ابن سعود» قد سيطر عليهما منذ أن احتل «الجوف»، إذ كان بإمكان قواته أن تدخلهما وتحتلهما في أي وقت يشاء. تلاشت وقائع ذلك المؤتمر على امتداد فترة ستة أشهر. لذا قرر الملك «حسين» أن يظهر مدى سلطته على أبنائه فحدث في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٤ أن قدم بنفسه إلى مناطق عبر الأردن متظاهراً بأنه استعاد أمر تسيير الأمور، وحضر إلى هناك أولاده الثلاثة صاغرين. لكن ذلك الحدث كما أذهل أدخل الرهبة في قلب «هيربرت صامويل» المفوض السامي البريطاني على فلسطين ومناطق عبر الأردن، وفي الوقت نفسه تضايق من ذلك الإجراء بحد ذاته.

وعليه عين الملك «حسين» أكبر أبنائه الشريف «علي» مشرفاً على خط سكة حديد الحجاز، وزوده بتعليمات طلب منه فيها أن يعيد كامل الاتصالات مع «المدينة»، وكان ينظر بشكل جدي أيضاً إلى تعيين ابنه «علي» مكان ابنه «عبد الله» كأمير على مناطق عبر الأردن. في الوقت الذي كان في الملك «حسين» يدرس هذا الموضوع حدثت حادثة غيرت مجرى تاريخ الصحراء العربية: كان الدكتاتور التركي «مصطفى كمال باشا- اتاتورك» قد رأى أن الوقت كان مناسباً لإلغاء المنصب التاريخي للخلافة الإسلامية، وعليه أطاح بآخر الخلفاء العثمانيين المدعو «عبد المجيد خان». والجدير بالذكر أنه بعد أن تم القضاء على الحكم السلطاني العثماني سمح للخليفة «عبد المجيد خان» بأن يحتفظ بمكانته الدينية. بينما أقام الحسين حتفالاً مهيباً

توج نفسه فيه على أنه خليفة المسلمين، وبعد ذلك وعندما كان في انتظار أن يبايعه أهالي العراق ومناطق عبر الأردن ومناطق أخرى من الهلال الخصيب على الخلافة أعد الملك «حسين» ترتيبات طارئة للعودة إلى مكة، وعليه تم مؤقتاً تخليص مناطق عبر الأردن وكذلك الأمير «عبد الله» من شر وبلاء كان على وشك أن يحيق بهم. وضعت الحكومة البريطانية نهاية لترتيبات وإجراءات مؤتمر الكويت التي كانت أصلاً في حالة سبات واحتضار.

أصبحت الحالة مهيأة لمأساة قادمة ارتفع عنها الستار بعد أقل من ستة أشهر إثر انهيار محادثات الكويت وبالتحديد في الثالث من شهر أيلول عندما حدثت معركة «الطائف»: كان «ابن سعود» قد أمضى فصل الصيف في الإعداد لتسوية نهائية مع ملك الحجاز الذي أسفر اغتصابه للخلافة عن وجود مبرر لإعلان الجهاد المقدس وعليه استدعى «ابن سعود» كافة القوات التي كانت تحت تصرفه. أمر «ابن سعود» أن تنتشر قوة على طول الحدود المتاخمة للعراق، وكان القصد من ذلك جس النبض واستعراض القوة لردع أي عمل يمكن أن يفكر الملك «فيصل» القيام به. ولم تقع أية حادثة تذكر، كما أن القوات السعودية لم تعبر الحدود إلى داخل العراق. وأرسل «ابن سعود» قوة أخرى من الإخوان باتجاه الشمال تقدر بألف رجل، وتوغلت تلك القوة داخل مناطق عبر الأردن وأقدمت على مهاجمة سكان إحدى القرى القريبة من خط سكة الحديد، لكن سلاح الجو الملكي أحبط تلك القوة وأجبرها على التراجع. وما أن بدأ العالم ينظر في مضاعفات تلك النشاطات حتى وصلته تقارير عن سقوط «الطائف».

قاد زعيم قبيلة «الغطغط» الشرس والمدعو «سلطان بن بجاد» قواته

المشكلة من الإخوان فقط وعبر بها مناطق الصحراء، وخلال مسيرته وصل إلى عاصمة الحجاز الصيفية وهناك كان الشريف «علي» معسكراً على رأس قوات حجازية. وعملياً لم يبد الشريف «علي» أية مقاومة أو تصدي لقوات الإخوان، إذ هرب بجيشه باتجاه «الهدا» وهو جرف يطل على سهول المرتفعات المكية. وهربت مع قوات الشريف «علي» أيضاً آلاف من أهالي منطقة «الطائف» ومن الناس المصطافين هناك الذين خافوا من مجابهة القوات السعودية. قامت بعض القوات السعودية بمطاردة القوات المنسحبة ومطاردة اللاجئين معهم، وهاجموا كافة الشاردين واستمروا في الضغط على قوات الشريف «علي»، ودارت بينهم معركة في مناطق «الهدا» ومن هناك هربت قوات الشريف مجدداً في حالة فوضى وأخذت تتراكض فوق منحدرات الجبال باضطراب ملحوظ. قلّب الشريف «علي» الأمر في تعقل وحذر محاولاً الاستفادة مما تبقى من شجاعته، وقرر التوجه إلى «جدة» عن طريق مكة ليتجنب مواجهة أبيه الذي كان يتطاير غضباً.

واصل «سلطان بن بجاد» مع ما تبقى معه من قوة الضغط على أهالي الطائف، حيث قتل من قاوم وفي واقع الأمر لم يزد عدد الذين قتلوا على ثلاثمائة رجل بمن فيهم أولئك الذين ماتوا أو سقطوا خلال هروبهم من «الهدا»، لكن ذلك العدد كان كافياً لإحداث الذعر في كافة أرجاء مكة وجدة، إلا أن أوامر «ابن سعود» العاجلة التي وصلت إلى هذا القائد المندفع أبقت على حياة ما تبقى من الناس، كما طلب منه أن يتجنب القيام بأي نشاطات عسكرية في المناطق المذكورة، وأمره بأن ينتظر حتى يصل «ابن سعود» إلى هناك وأن لا يباشر في التقدم لاحتلال مكة. وفي مكة كان الملك

«حسين» قد أعلن عن نيته في البقاء فيها بغض النظر عن المخاطرة التي يمكن أن تلحق بحياته شخصياً، لكنه فقد السيطرة على الوضع هناك وقام أهالي جدة الذين أصبحوا أمام خطر جسيم أكبر من الخطر الناجم عن غضب الملك العجوز، وطالبوا الملك بالتنازل عن العرش ليحل محله ابنه «علي» الذي كانت أمامه على الأقل فرصة أفضل من الفرصة المتوافرة أمام والده للتوصل إلى اتفاق وشروط معينة مع القوات السعودية، وبالتحديد مع «ابن سعود».

وهكذا غادر الملك «حسين» مكة إلى الأبد بعد فترة حكم دامت ستة عشر عاماً أمضى نصفها ملكاً مستقلاً حاكماً بأمره، وتوجه إلى جدة ليرحل منها إلى العقبة آخذاً معه حريمه وكنوز ثروته. لكن لم يمض على وجوده في جدة فترة طويلة حتى أجبرته السلطات البريطانية على التوجه من هناك إلى «قبرص» خشية أن يشجع وجوده هناك القوات السعودية على التحرك شمالاً في وقت لم يكن فيه البريطانيون مستعدون لاحتلال العقبة، لكنهم احتلوا العقبة في صيف عام ١٩٢٥.

خلف الشريف «علي» والده كملك على الحجاز، ولم يدعي لنفسه الحق في حكم مملكة على نطاق أوسع من ذلك كما تصورها والده، كما أنه لم يدعي حقه في أن يكون خليفة على المسلمين، فقد تعطل هذا الموضوع مجدداً وانتقل إلى حيز النسيان وإلى الأبد. لم يكن «ابن سعود» في عجلة من أمره ليصعد الأمور، ولم يصل إلى مكة إلا في بداية شهر كانون الأول حيث دخلها وهو مرتدياً لباس الإحرام كما فعل «سعود الثاني» الذي كان آخر أعضاء أسرة «آل سعود» والممثل الوحيد لتلك الأسرة الحاكمة الذي زار مكة للمرة التاسعة، حيث كانت المرة الأخيرة عام ١٨١٢. وبعد هروب

الملك «حسين» كان «سلطان بن بجاد» قد احتل المدينة المقدسة من دون أية مقاومة، كما تمكن من تهدئة مخاوف أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم، علماً بأنه ترك قصور الأشراف هناك عرضة للسلب والنهب، وهدم كافة قباب قبور كبار رجال الدين الأوائل المدونين في مقبرة «المعلاة» وفي أماكن أخرى، كما حدث سابقاً عند دخول مكة المكرمة.

أصبح الآن «ابن سعود» مشغولاً في إعداد الترتيبات لضم بقية مناطق «نجد»، إذ كان من الضروري تلقين القبائل الشرسة العنيدة هناك درساً يجعلهم يقتنعون بأنه لا توجد علاقة مشتركة بين السلام في عهد عبدالعزيز وبين حالات الفوضى التي شهدتها أيام الأشراف. وبالطبع كانت هناك مشكلتا «جدة» و «المدينة» الغير مبتوت فيهما والتي توجب عليه معالجتهما. تطلب حل هاتين المشكلتين مزيجاً من البراعة والإصرار إلى جانب إظهار القوة وإلا فإنه من المحتمل أن تؤدي أعمال عنف جامحة مصحوبة بأعمال وحشية إلى حدوث مشكلات مع بعض القوى الأجنبية، أو تؤدي إلى جرح أحساسيس ومشاعر جماعات إسلامية معينة. قام في تلك الأثناء الشريف «علي» وبعض مستشاريه بتطويق «جدة» بسياج ضعيف من الأسلاك الشائكة، ووضعوا على بعد مسافات معينة منه ألغاماً يشك في مدى فعاليتها، وحشد «ابن سعود» قواته مقابل هذه المواقع ووضع مدافعه في أماكن منخفضة بين التلال على الشريط الساحلي والتي كانت تبعد حوالي عشرة أميال عن المدينة.

وفي اليوم الثالث من شهر كانون الثالث عام ١٩٢٥ بدأ القصف السعودي واستمر على نحو غير منهجي وبشكل متقطع حتى نهاية شهر آذار

حيث سحب «ابن سعود» جيشه باتجاه «مكة» لقضاء استراحة المحارب خلال فصل الصيف وبالتحديد في شهر نيسان الذي تزامن معه حلول شهر رمضان. وجاء موسم الحج في بداية شهر تموز وكان ذلك أول حج يتم الاحتفال به تحت رعاية الملك عبدالعزيز «آل سعود» بعد فترة زادت على قرن من الزمن. قدم إلى موسم ذلك الحج أعداد كبيرة من أهالي «نجد» إضافة إلى جنسيات أخرى تمكنت من الوصول إلى هناك عن طريق موانئ «الليث» و «رابغ» التي كان «ابن سعود» قد احتلها وسخر خدماتها لخدمة هؤلاء الحجاج. وحدث أيضاً أن قدم إلى موسم حج ذلك «الدون ريتير» البريطاني المسلم الذي كتب فيما بعد كتاباً ممتعاً عن تجربته في مناطق الحجاز خلال السنة الأولى من احتلال القوات السعودية لها.

وبالطبع خلال فصل الصيف تم إعداد الترتيبات لاستئناف الأعمال الهجومية في فصل الخريف، وعليه قدم إلى الحجاز الأمير «فيصل» على رأس قوة كبيرة مجهزة بشكل جيد، وكان جزء من تلك القوة قد توجه وجهة «المدينة» بقيادة «محمد» وهو ابن آخر من أبناء سلطان «نجد» عبدالعزيز. وبدا الوضع في كلتا المدينتين باعث على اليأس، وفي الحقيقة غير مبشر بالأمل أو النجاح، فقد تبين أن المياه والأطعمة المتوفرة لهم لم تكن كافية لمدينتين زاد تدفق اللاجئين عليهما من المناطق المجاورة من تعداد البشر فيهما. وعليه أصدر «ابن سعود» أمراً منع بموجبه القيام بأي عمل يتسم بالاغتصاب والاعتداء على الضعفاء. هذا وأمضى «ابن سعود» جزءاً من فصل الخريف يتفاوض مع السير «جلبرت كلايتون» في وادي «فاطمة» بخصوص الاتفاقيات المتعلقة بـ «الهدا» و «بحرة»، وذلك ليتوصل إلى

تسوية كافة القضايا المعلقة بين السلطنة السعودية والمناطق العراقية ومناطق عبر الأردن الواقعة تحت الانتداب البريطاني بما فيها حدود مناطق عبر الأردن التي لم يكن من الممكن التوصل بخصوصها إلى اتفاق بسبب رفض «ابن سعود» المطلق الاعتراف بالاحتلال البريطاني لميناء ومنطقة العقبة والذي احتلته بريطانيا باستخدام القوة خلال فصل الصيف.

وبقيت عقدة هذه المشكلة دون حل إلى يومنا هذا بالرغم من أن كلا الجانبين احترما الخط الحدودي الموجود على نشر غير شرعي. استمر حصار مدينتي «جدة» و «المدينة» بشكل متقطع جنباً إلى جنب مع هذه المفاوضات، وتم حصار «المدينة» تحت قيادة «إبراهيم النشمي» يدعمه في ذلك «فيصل الدويش» ذو السمعة المروعة والذي كان يقود قوة ضاربة من الإخوان. والجدير بالذكر أن أهالي مدينة الرسول ﷺ رفضوا وضع أنفسهم تحت رحمة الإخوان السريعة الغضب وذلك بغض النظر عن نوعية الشروط. وواجهوا الدعوة إلى «ابن سعود» ليرسل ممثل عنه ليشهد استسلامهم له. وما إن وصل «الأمير محمد بن عبد العزيز» بقواته عند حدود «المدينة» حتى سارع الأهالي في الخامس من كانون الثاني بالاستسلام، وتمت إعادة انتشار قوات «فيصل الدويش» للقيام بعمليات تطهير في مناطق شمالي الحجاز، وباعتبار أنه لم يتبقى للملك «علي» سوى الحد الخارجي من مدينة «جدة» فما كان منه إلا أن استسلم (بناءً على نصيحة كبار الرسميين لديه) لما ليس له مفر منه، وطلب من الوكالة البريطانية أن تسخر مساعيها الحميدة لتؤمن رحيله بسلام ولتعد الترتيبات الخاصة باحتلال المدينة. وفعلاً تمت تلك الترتيبات وبعد أن غادر الملك «علي» إلى العراق عن طريق البحر، فدخل «ابن سعود» إلى

«جدة» في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول ليجد نفسه وللمرة الأولى على اتصال دبلوماسي مع عدد من الدول الكبيرة والصغيرة، وليواجه مجموعة من المشكلات العويصة بصفته فاتحاً للأماكن المقدسة التي ورثها عن النظام السابق نظام الاستسلام. وكان هذه الأمور قد صممت في العهود السابقة لحماية الكفار المقيمين على تراب المسلمين، لكنها تحولت لتأخذ شكل مبررات لتدخل الكفار في شؤون الحكومات الإسلامية. ومن البداية أوضح «ابن سعود» أنه لن يتساهل مع أي انتقادات أو تدخل في شريعة الإسلام، وكان عليه أيضاً أن يتعامل مع الرأي العام في العديد من الدول الإسلامية بخصوص الكيفية التي يجب أن تدار بها الأماكن المقدسة. لم يجد «ابن سعود» صعوبة في التخلص من البعثات التي انبثقت عن الوضع ونصبت نفسها هناك وذلك بأن وعدها بأن موسم الحج القادم سيؤمن فرصة مناسبة لمناقشة كافة القضايا التي تهم الشعوب الإسلامية، وأن على الممثلين المعتمدين لهذه البعثات الاجتماع به في مؤتمر الحج القادم.

وهكذا وبعد أن أوضح مبادئه بأنه سيضع سلامة ورفاهية الأماكن المقدسة في مقدمة عمله السياسي، أعرب عن استعداده لتقبل ودراسة أية نصيحة تعرض عليه بخصوص تلك الغاية. شرع «ابن سعود» في تولي شؤون الدولة، وسبب تصرفه ذلك إرباكاً في أواسط الغرب كما أسفر عن انطباع غير مستساغ في بعض الدول الإسلامية التي اعتادت ولفترة طويلة على حكم الدول الأجنبية وبالتالي تصاهرت كلياً مع الثقافات الأجنبية، لكنها احتفظت بولائها للإسلام وفق الطريقة التي فسرها المسلمون.

وفي يوم الجمعة الذي صادف الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٦ وبعد صلاة الظهر في المسجد الحرام بمكة أعلن تتويج «ابن سعود» ملكاً على الحجاز وسط احتفالات وتقاليد تتمشى مع الشريعة الإسلامية. وكانت تلك الاحتفالات بمثابة تعبير عن الإيمان وتحد لكافة دول العالم، كان مقدر لتلك الدولة أن تتحسن مع مرور الأيام دون أن تبتعد عن المبادئ التي ارتكزت عليها، وعن توحيد وعبادة الله الذي لم ينسى «ابن سعود» فضله عليه في كافة الأحوال المتقلبة بين الخير والشر. ولإيمانه بالله وبفضله قاد شعبه على مدى السنوات الطوال القادمة من غياهب الضياع إلى أرض تكثر فيها الخيرات.

انتهت المعركة التي دامت لمدة أربعة وعشرين عاماً، وبقيت أمامه فترة أربع سنوات لجني ثمار النصر الذي حققه وليطور ذلك النصر ليخدم مصالح الأجيال القادمة التي لم تعرف كما أنها لم تسمع صرخة الحرب التي كانت تنبعث من حناجر الإخوان السعوديون.

صفحة بيضاء

الفصل الحادي عشر

عهد الرخاء

صفحة بيضاء

عهد الرخاء

وضعت الحرب أوزارها، ومع انتهائها كان «ابن سعود» قد بلغ ذروة عمله السياسي والعسكري، وأصبحت السعودية العربية التي قدر له أن يحكمها لأكثر من ثلاثة عقود تقريباً موحدة بشكل لم يسبق لها أن توحدت على شاكلته، بمعنى أن ذلك التوحيد جاء وسط أصعب الظروف العملية في الأوضاع الدولية لذلك العصر. تفوق «ابن سعود» بتصرفاته على كل ما كان بمقدور أسلافه من تحقيقه. وبعد ذلك ضمن أطر هذه الحدود كان من غير المحتمل أن يواجه «ابن سعود» أي تحد، وأن الحكم الذي صنعه لنفسه بمضاء السيف وبالإيمان سيصل إلى من سيرث الحكم من بعده بصورته النقية، إذ كانت سمعته في العدل والثبات هي العامل الحيوي المميز لتلك الفترة التي نادراً ما كانت توضع موضع الاختبار. كانت سمعته تلك تثبت جدارتها عندما تستدعي الضرورة ذلك، وأصبح للصحراء العربية - وللمرة الأولى - حاكماً واحداً يمكن للجميع أن يحترمون، وبالفعل كانوا يحترمونه.

وفي سن الخامسة والأربعين كان «ابن سعود» في ريعان الشباب، وكان قد حقق منجزات العمر، إلا أن نشوة الانتصار نبهته وجعلت منه عملاقاً سائراً على الدرب من جديد، فقد وجد نفسه - كما كان في السابق - مضطراً للقيام بأعبائه بمفرده لكن وسط مزيد من أعداد المتربصين والناقدين. وكونه من عائلة مالكة حتى الصميم ولديه إيمان راسخ بحق الملك في الحكم شرعاً وإيماناً بواجبه في تسييس الشعوب، كان «ابن سعود» ديمقراطياً من

حيث النزعة الفردية وملماً بقدر كاف بأمور التشاور في الحكم، وهي صفة كانت بمثابة جزء متكامل في حياة العرب. ولعل شخصيته التي اشتملت على هاتين الخصلتين سهلت عليه مهمة الاستمرار في الحكم، حيث إن سلوك شخصيته اللائق والتي كان «ابن سعود» بنفسه ميالاً إلى أن يفسرها بموجب الآية القرآنية التي تقول: ﴿**وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾.

خدمت هذه القناعة «ابن سعود» كثيراً وخاصة في الحالات التي كانت تتطلب ممارسة تلك المهارات الشخصية المتمرسة، لكن مكانته الجديدة كشخصية عالمية وضعته أمام مشكلات من نوع غير مألوف لم توفر له خبراته السابقة أي مؤشر على كيفية التعامل معها، وفي الوقت نفسه كانت الأعباء الجسام الملقاة على عاتقه كبيرة جداً لا يمكن لأي شخص أن يتعامل معها دون مساعدة من الآخرين، وخاصة فيما يتعلق بأمور فنية مثل الأمور المالية والاقتصادية.

كان «ابن سعود» على علم بجوانب القصور في إدارته، لكنه لم يتهرب أبداً من مسؤولياته، وكانت عظمته المتميزة واعتماده على نفسه بحد ذاتها لم تكن عقبة أمام تشكيل فرق من الأكفاء لمعالجة قضايا الدولة الإدارية والسياسية. لقد تمكنت الصحراء العربية (التي أطلق عليها بعد بضع سنوات اسم مملكة نجد والحجاز تحت إدارة ستة رجال تميزوا بقدرات وفضائل متقاربة) من أن تصبح مثالاً فريداً من نوعه ونبراساً لفن السياسة الإنسانية في تسييس البلاد. اشتملت تلك المجموعة على صفات روحانية وصفات حكم دنيوي مرتكزة على أرضية صلبة من الإيمان والعدل. ومما لا شك في أن

«ابن سعود» كان عازماً على توطيد وترسيخ هذه السمات بأي ثمن كان، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان لا بد من النظر إلى إرادة الشعب على أنها جوهرية وضرورية مثلها مثل إرادة العاهل الحاكم نفسه. ولكن لسوء الحظ أن هاتين النزعتين نادراً ما كانتا متوفرتين في الأشخاص الذين كان من المفروض بهم أن يساعدوه في تلك المهمة التي تفوق قدرة البشر. كانت الفضيلة في ذلك الوقت موجودة بشكل ملحوظ ويتحلى بها أهالي نجد الذين جازفوا بحياتهم لتحقيق المثل الروحانية الفاضلة، كما عملوا جادين على تطبيقها في ديار االفتن والجهل التي فتحوها، لكن لم يكن لدى القليل منهم دراية في الشؤون الإدارية وإلمام بالخبرة الضرورية لتطوير الأوضاع الجديدة التي فرضتها عليهم الانتصارات التي حققوها. لم يكن هناك أي تقصير على صعيد القدرة على العمل، وخاصة بين رعايا الملك الجدد في مناطق الحجاز، إلا أن الفضيلة كانت قد هجرتهم بسبب تلوث أجوائهم الاجتماعية الناجم عن السنوات الطوال لحكم الأتراك لتلك المناطق. ومن خلال خدمتهم للأتراك أصبح العديد منهم خبراء متفننون في ممارسة الإدارة. لكن «ابن سعود» كان حريصاً عند تعيين هؤلاء الناس في الوظائف الاجتماعية الشاغرة والذين أصبح ولائهم للحكم الجديد قائماً بشكل سلمي. وفي ظل هذه الظروف وجد «ابن سعود» نفسه مضطراً لتعيين موظفين من ذلك المصدر الوحيد الذي كان متوافراً له، علماً بأنه بدأ في ذلك على نطاق ضيق لكن فيما بعد تدفق التعيين في الوظائف على نحو لم يعد بالإمكان تحديده.

كرس «ابن سعود» جهده من البداية وبشكل سليم تماماً على أن لا يوظف غير المسلمين في أية وظيفة رسمية خشية أن تتكرر تجربة البلدان الإسلامية مع غير المسلمين في المناطق الخاضعة لحكمه، ومن ناحية أخرى أعلن «ابن سعود» وبوضوح أن مناطق الحجاز «على الأقل» يجب أن تعتبر مناطق في عهدة كافة المسلمين، وأنه يرحب بأي مسلم في القدوم إليها سواء للحج أو للعمل من أجل كسب الرزق، شريطة أن يحترموا ويقبلوا الشريعة الإسلامية على أنها النظام الوحيد الذي يضبط مجيئهم ومغادرتهم في كافة المناسبات الدينية. ومن خلال هذا التصنيف للعرب الأجانب وللجنسيات المسلمة الأخرى، وجد «ابن سعود» نفسه مضطراً للبحث عن موظفين رسميين لتسيير الشؤون الإدارية في البلاد، والتي كانت في البداية مقسمة «على وجه التقريب» إلى إدارتين منفصلتين هما «نجد و الحجاز»، ومرتبطتين مباشرة بسلطته العليا التي من خلالها يمكنه فرض إرادته في كلتا المنطقتين بشكل فعال.

تلك هي حالة الأوضاع التي وجد «ابن سعود» نفسه في خضمها عند مستهل فترة حكمه لمناطق الحجاز، ولعل من أفضل الطرق لتبيان الأسلوب الذي من خلاله تمكن «ابن سعود» من معالجة مشكلة إيجاد كوادر أساسية هي الإشارة إلى حقيقة أن كافة الشخصيات التي جمعها حوله استمرت ليس فقط في خدمته بل بقيت «على وجه التقريب» تشغل وظائفها في نفس الدوائر الرسمية إلى أن وافته المنية (كان «ابن سعود» قد حشد تلك الشخصيات خلال السنتين أو الثلاث سنوات الأولى إثر فتحه للحجاز لتقوم بتولي أمور ونشاطات مختلف أجهزة الدولة نيابة عنه). وإذا كان هذا

الإجراء لا يثبت بالضرورة صدق الحس الغريزي عند «ابن سعود» في اختيار الرجال المناسبين لشغل مختلف وظائف الدولة، فإنه ليدل وبالتأكيد على وجود ميزة هامة أخرى في شخصيته التي ربما تكون نوعاً من الإحساس الطفيف بالخوف أو الرهبة من كل ما هو غريب أو أجنبي. تجلت أعراض هذا الحس بانعدام تحمسه للتجمعات الغريبة رغم ما كان يبديه من كرم الضيافة المقرونة بانعدام مشاعر الود. في وقت كان فيه مهتماً في أن يجتمع حوله (وفي كافة الأوقات، ويوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة) نفس الأشخاص، ودائماً نفس الوجوه، سواء من أفراد العائلة، أو من الرسميين.

كان يشعر براحة أعصابه وسط هؤلاء الناس، وكان يتصرف بينهم على سجيته، وكان يكشف عن روح الدعابة لديه وعن ظرافته التي كانت تشد أزره حيال وطأة أعباء الحكم على عاتقه، كان بإمكانه أن يثق بهؤلاء الناس لأن معرفته بهم كانت وثيقة كما كانت معرفته بفضائلهم وبأخطائهم. قرّب «ابن سعود» هؤلاء الناس منه ومن عليهم لقاء خدماتهم له بكرم وسخاء لا حدود لهما، واستمر هذا الكرم في الازدياد مع تعاظم ثروته.

وكاستثناء للقاعدة العامة الخاصة بطول فترة الخدمة، كان هناك حالة تستدعي الانتباه وتتعلق بشخص خدم «ابن سعود» لفترة أطول من خدمه أي شخص آخر له ويدعى ذلك الشخص «عبد الله الدملوجي» وهو أصلاً من منطقة الموصل في العراق. التحق «الدملوجي» بخدمة «ابن سعود» في عام ١٩١٥ بصفته المستشار الطبي له، وبسبب معرفته باللغة الفرنسية أوكلت إليه المسؤوليات السياسية المتعلقة بالزوار الأجانب القادمين إلى دار الحكم في

الرياض. وبعد احتلال «ابن سعود» لمناطق الحجاز تم تعيينه في منصب الممثل الشخصي للملك في «جدة» إلى أن تدرج في ذروة نشاطه وأصبح وكيل الوزارة للشؤون الخارجية. كان «فيصل» (ابن الملك) في ذلك الوقت يشغل منصب وزير الخارجية، لكن بعد بضعة سنوات على امتحانه في هذا المنصب تم تنحيته، فسمح له عام ١٩٣٠ بإجازة مفتوحة تم بعدها قبول استقالته. وصل «فؤاد حمزة» كلاجئ من فلسطين ليخلف «عبد الله الدملوجي» في منصبه، وأثبت جدارته في وزارة الخارجية السعودية، وبقي في ذلك المنصب إلى أن توفي وهو على رأس عمله في عام ١٩٥١، وكانت وفاته خسارة كبيرة للسعودية - البلد الذي تبناه. وتجد الإشارة هناك إلى أنه حدث خلال الحرب أن مثل «فؤاد حمزة» المملكة العربية السعودية في «فيشى» ومثلها في وقت لاحق في «أنقرة» التي توجه إليها بصفته وزيراً وتبعه إلى هناك أخوه «توفيق». وكان العضو البارز في ذلك الفريق الرسمي السعودي «عبد الله السليمان» الذي أصبح في عام ١٩٢٩ وزيراً للمالية إثر تجربة مارسها في نفس المنصب شخص يدعى «شرف رضا». والجدير بالذكر أن «رضا» هو واحد من الأشراف الذين لم يكن لديهم أي سبب يحملهم على أن يكونوا مخلصين لأسرة الأشراف التي انقضى عهدها. تميز «عبد الله» عن زملائه بأن كان نجدي المولد ومحاسباً عن طريق الممارسة العملية، كما أن أخاه الأكبر كان قد عمل ولعدة سنوات كسكرتير خاص لجلالة «ابن سعود». سبق لـ «عبد الله» نفسه وأن رافق «ابن سعود» كسكرتير خاص خلال حملة الحجاز إلى وقع عليه الاختيار ليشغل وظيفة هامة. وكان ظاهرياً ذو بنية جسدية مألوفه كما كان ذو خيال واسع، كما أنه لم يتوانى

أو يتقاعس في تأدية المهام التي تتطلب البراعة والعناية الفائقة مثل التعامل مع وعاء من الخيرات وجعله يلبي متطلبات مفروضة على محتواه الذي لا ينضب. وكانت شجاعته لا تعرف الكلل في معالجته لمخططات متشعبة الجوانب التي تهدف إلى إعادة البناء والتطور، وبالطبع أسفر العديد منها عن نتائج كان لها فائدة كبيرة للبلاد. هذا وتمكن من إدارة الخيرات المتنامية لذلك البلد بدهاء باهر، وذلك من خلال المناصب الإدارية الحساسة التي كان أيضاً هو وأعضاء من أسرته يشغلونها. وبينما كان يبدو - وفي كافة الأوقات - متمتعاً بثقة الملك التامة، كان أيضاً هو العضو الوحيد في الحكومة الذي بمقدوره أن يتصرف وبشكل اعتيادي بمبادرة وصلاحيات شخصية لقناعة مبررة بأن تصرفاته ستلقى موافقة واستحسان سيده صاحب الجلالة.

ومن بين الشخصيات الأخرى البارزة في حكومة «ابن سعود» والتي بقيت في مناصبها منذ تلك الأيام حتى يومنا هذا هم «حافظ وهبة» و«يوسف ياسين»، وكان «حافظ وهبة» مصري الجنسية وسبق له أن سجن في «مالطا» لعلاقته بأعمال الشغب التي حدثت في الإسكندرية على أيام «زغلول باشا» عام ١٩١٩. هذا وخدم «حافظ وهبة» ولفترة قصيرة في وظيفة مدير المعارف، وبعدها ذهب ليشغل منصب ممثل «ابن سعود» في لندن. تعين في البداية وبالتحديد عام ١٩٣٠ في منصب الوزير، ومؤخراً اعتمد كسفير لحكومة «ابن سعود» واستمر في ذلك المنصب ومضى على عمله فيه حوالي ربع قرن، وفي نهاية المطاف أصبح من أكثر العاملين بجدية بين ممثلي «ابن سعود» من الدبلوماسيين. غالباً ما كان يتم استدعاؤه بين الحين والآخر للتشاور مع الملك ومع «يوسف ياسين» السكرتير السياسي

لصاحب الجلالة، والذي تم تعيينه مؤخراً في منصب وزير الدولة. وكان «يوسف ياسين» طيلة كل هذه السنوات بمثابة حلقة الوصل بين سيده وبين شبكة المناصب الدبلوماسية الواسعة التي تنتشر من «الصين» تقريباً حتى «البيرو». ومن حيث الأصل فهو سوري من مدينة اللاذقية تورط في بداية حياته في المشكلات الناجمة عن الوصاية الأجنبية المفروضة على بلاده، وقدم إلى العربية السعودية عام ١٩٢٣ وانتظم في صفوف الدعوة آنذاك، وبعدها تمكن من الفوز بثقة «ابن سعود» ورافقه في حملته التي قام بها إلى مناطق الحجاز. وهناك عين رئيساً لتحرير مجلة مكة الأسبوعية «أم القرى»، وكان إشرافه على محتواها كجزء من أعماله التي كان يقوم بها كسكرتير سياسي لـ «ابن سعود». هذا وكان «يوسف ياسين» من أبرز الرجال في حكومة «ابن سعود» وفي أكثر من مرحلة من مراحل نشاطها؛ ساعده في عمله الذي كان غالباً ما يتطلب السفر إلى الخارج لغرض أو لآخر مساعده القدير «رشدي ملحس» وهو لاجئ من فلسطين. لم تترك المهام الرسمية لـ «ملحس» الوقت الكافي لتطوير حسه الأدبي والدرامي، وعلى وجه اليقين يمكن القول: لو أن الظروف كانت طبيعية لفضل السيد «رشدي ملحس» أن يكرس كل حياته للأدب والدراسة.

ومن بين الآخرين الذين أسهموا لحد كبير في خدمة حكومة «ابن سعود» كان «خالد القرقني» الذي هجر موطنه «ليبيا» وبالتحديد بيته في «طرابلس» وتركها للمحتلين الطليان وأتى إلى «جدة» مع أوائل أيام الحكم الجديد في الحجاز وفي ذهنه فكرة الشروع في عمل تجاري ما، لكن سرعان ما انجذب إلى الخدمة في ديوان الملك وعمل هناك بصفته مستشاراً. وخلال السنوات

الأخيرة مكنته قدرته وإمكاناته التي أينعت وانصقلت مع مرور السنين من أن يحظى بمركز متميز بالقيادة والثقة . نكتفي بهذا القدر من السرد حول أمور الشخصيات الإدارية ، وسيلاحظ القارئ أن «ابن سعود» وخلال المراحل الأولى من حكمه أحجم عن تعيين أبناءه وأعضاء آخرين من الأسرة الحاكمة في مناصب لها اتصال مباشر بالأعمال الإدارية ، إلا أنه عين ابنيه الكبيرين «سعود» و «فيصل» نائبين رسميين عنه في «نجد» وفي «الحجاز» على التوالي ، كما عين «فيصل» وزيراً للخارجية بسبب خبرته البالغة في الترحال والسفر والاتصال مع العديد من حكومات الدول الأوروبية ، لكن مثل تلك التعيينات كانت طبيعية ومناسبة جداً نظراً للمسؤوليات الجسام التي ستلقى على عاتقها عندما يحين الوقت وضمن سياق المجرى الطبيعي للأمور . كان الانطباع العام بأنهما كانا يزاولان أعمالهما بإشراف مباشر من قبل الملك ، وخاصة في القضايا ذات الأهمية البالغة ، وبالتحديد عندما يتصادف وجود الملك في أي من المناطق المعنيين بها .

كان «ابن سعود» عاقلاً في تصرفاته تجاه بقية أفراد العائلة ، فلم يغامر بتعريض الأسرة الحاكمة للنقد من جراء تعيين أفراد تلك الأسرة في مناصب هم ليسوا مؤهلين لإدارتها أو ليست لديهم الخبرة أو التدريب اللازم لشغلها وكانت من خاصياته أنه كان دائماً يوصي الناس في مجالسه كما كان يوصي نفسه بشكل ضمني بالإشارة إلى الآية الكريمة في كتاب الله ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ ، وكان يكرر ذلك في حين كانت السنوات قد زادت من ثروات البلاد كما زادت من ذريته . كان «ابن سعود» يتصرف بناءً على تجربته العملية في الحياة ولقناعة بأن المغريات التي تحمل الشخص على إفساد الأبناء

والثروة شيء خطر للغاية وأن على الإنسان أن يحترس من ذلك الخطر.

وأخذاً بمبدأ التدرج والتطور الإداري بحكمه تم تشكيل مجلس الوزراء ليتولى مسؤولياته ويتيح لنفسه مهام الإشراف والتوجيه، جاء دور الأمراء ودخلوا المجلس وأخذوا نصيبهم من المراكز الحكومية التي كانت سابقاتها في أي عصر مضى أو مناخ سياسي منذ نشوء العالم أقل منها. وبالمناسبة يجدر القول إن السمة المثيرة والملفتة للنظر في أسرة آل سعود الحاكمة هي نظام أسبقية أعضائها داخل مجال أو مدى معين. لم يكن ذلك النظام محدداً بدقة في أي قانون محلي إلا أنه كان مفهوماً تماماً من قبل كافة أبناء الأسرة ومطبقاً ومرعياً بشكل تام من قبلهم جميعاً. يعتبر موضوع السن عاملاً حاسماً أو فاصلاً في اتخاذ القرارات: الأبناء، والأحفاد، حتى أحفاد الجيل الأول من مرتبة متقدمة عن أعمامهم وأبناء عمومتهم من الرعيل الأول، ذلك إذا صادف أن كانت ولادتهم قبل ولادة هؤلاء. ويبدو أنه ليس هناك استثناء لهذه القاعدة، حتى إن الأمير «سعود» بعد تنصيبه ولياً للعهد عام ١٩٣٣ شرع بتطبيق مبدأ الأسبقية على أساس السن.

كانت الميزة الوحيدة التي يتمتع بها الأمير «سعود» (بصفته أميراً أو وصياً على العرش) هو حقه في حرية التصرف في كافة الأوقات ويحظى بحماية عسكرية، إضافة إلى خدم مسلحين يسيرون على جانبي سيارته. ومع مرور السنين انتقلت إليه الأحقية الملكية المحصورة في شخصه في أن يترأس الجلسات الرسمية للدولة والمناسبات الرسمية الأخرى. وكانت تلك من أحد الواجبات التي مارسها الملك بالشيء الكثير من الحرص على الشكليات لكن دون أن يذعن لها ودون أن يستسيغها. والجدير بالذكر هنا أن الملك كان

لا على مثل هذه المناسبات، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأطعمة الشهية والترتيب البسيط للطعام على الموائد المتبعة في النظام القديم قد حل محلها وبشكل تدريجي مع مرور السنين ذوق ولائم العصر الجديد وفن الطبخ الحديث. وعند الإشادة بالماضي الذي ترعرعت ثقافته في أرض مولد «ابن سعود» وعبر حالات العسر والضيق التي مرت بها البلاد على مدى مئات السنين إلى أن وصلت إلى عصرنا الحالي، لا بد للواحد منا أن يعطي للجيل المعاصر حقه ويقر بنصيبه، ذلك الجيل الذي لم «يجري» العناء والمخاطر والتي رافقت تطوره ذلك الجيل الذي له كامل الحق في تبني أسهل الطرق وأوفر مسببات الراحة المتوافرة من نظام مختلف تمام الاختلاف، وذلك ينطبق على الجيل الجديد بحد ذاته كما ينطبق على الأجيال العديدة القادمة. فرغ ذلك الجيل من أمر الخيار، لأن صاحب الفضل العظيم لتلك الأيام الخوالي قد رقد في مهده واستراح من عناء التعب.

لنعد إلى موضوع تنصيب «ابن سعود» ملكاً على الحجاز: كانت ردة فعل العالم لهذا الحدث الذي لم يكن في الحسبان أقل إطراء في الدول الإسلامية عما كانت عليه في دول الغرب التي لم تكن بالتأكيد متحمسة له. لكن سياسة الاتحاد السوفيتي رفعت من حدة نغم هذا الإعلان وسارعت بالاعتراف الشرعي بالحكم الجديد على مناطق المسلمين المقدسة، تبعتها بريطانيا وفرنسا وهولندا بإصدار اعتراف مماثل صدر عن كل واحدة منها بشكل متلاحق ومتسارع. وجاء بعد هذه الدول دور تركيا وبلجيكا وسويسرا لتعترف بحكم «ابن سعود». وفي عام ١٩٢٩ انضمت ألمانيا إلى قائمة هذه الدول المعترفة بالحكم الجديد لـ «ابن سعود» على المناطق الإسلامية.

حـدث في السنوات الأخيـرة أن قـامت حكومـة بلاد فـارس «إيران» بأن فتحت باب المقاوضات التي أدت في النهاية إلى اعترافها بسيادته. والجدير بالذكر أن «بلاد فارس» كانت قد نأت بنفسها بسبب استياء الجماهير الإيرانية من هدم قبور الأولياء والصالحين في مكة والمدينة. أما الحكومة المصرية فامتنعت عن الاعتراف بحكومة «ابن سعود» بسبب بعض المشكلات الجادة التي حدثت بين الحجاج المصريين والقوات السعودية خلال موسم حج عام ١٩٢٦، علاوة على رجوع حملة الحجاج المصريين من «جدة» في العام التالي ١٩٢٧ والذي حدث بسبب رفض «ابن سعود» توجهها إلى «مكة» و«منى» خشية أن تكون سبباً في تجدد الشقاق والنزاع[١]. ولم تعود العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلا في عام ١٩٣٦، وذلك استجابة لاقتراح صدر عن السيد «مصطفى فارس» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس وزراء مصر) إثر وفاة الملك فؤاد. وضع ذلك الاقتراح وبشكل فعال نهاية لمزاعم الملك فؤاد في حقه بمنصب الخلافة على المسلمين (التي لا أساس لها من الصحة). ومنذ ذلك التاريخ أصبحت العلافة بين البلدين حميمة وودية. جاءت تلك العلاقة لصالح السعودية التي استفادت من مساعدة جارتها الأكثر تقدماً في المجالات التكنولوجية.

---

(١) رغم أن بعض مواقف تلك الدول كانت نابعة من الغيرة (السياسية) للنجاحات التي حققها الملك عبد العزيز إلا أن قادة تلك الدول رأوا أن يصبغوا مواقفهم بصبغة دينية أملاً في قبولها لدى شعوبهم وعلى أي حال فإن تلك المواقف من الملك عبد العزيز - رحمه الله - كانت نابعة من المبادئ التي آمن بها ونادى بها ووضعها أساساً لحكمه وهي الدعوة إلى اتخاذ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أساساً لا يحيد عنه في معالجة المخالفات العقدية التي كانت منتشرة في المنطقة عند توحيدها. والتي عمل - رحمه الله - على إزالتها بالتدرج فغضب حينئذ من غضب ورضي بذلك من رضي ومع مرور الزمن تبين للجميع صدق النية عند الملك وحسن التوجه لما يقوم به من أعمال فعادوا إلى رشدهم وأيدوا الملك على تلك الأعمال التي قام بها (المعلق).

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في تلك المرحلة مهتمة بالصحراء العربية. وإن ما يفسر غياب «إيطاليا» الواضح عن صفوف الدول التي اعترفت بحكم «ابن سعود» هو اهتمامها باليمن. وجاء ذلك الاهتمام على نحو أكثر من كونه مجرد اهتمام عذري. سبق لحكومة «سينغور موسوليني» أن صنفت اليمن على أنها منطقة مرغوب فيها لإقامة مستعمرة إيطالية. إن ما دفع الإمام «يحيى» بأن يلقي بنفسه في أحضان «الطليان» هو فشل السير «جلبرت كلايتون» في متابعة مفاوضاته المرضية والمتعلقة بمعاهدتي «الهدا» و«البحرة» واللتان تم التوصل إليهما مع «ابن سعود» في عام ١٩٢٦، وكذلك فشل «كليتون» عندما زار صنعاء في ربيع ذلك العام في تسوية العديد من القضايا غير المبتوت فيها بين بريطانيا والإمام «يحيى». وعند نهاية عام ١٩٢٦ توصل «السنيور كاسباريني» الحاكم الإيطالي العام في «أريتريا» إلى توقيع اتفاقية صداقة وتعاون تجاري بين إيطاليا واليمن والتي بموجبها اعترفت إيطاليا بالإمام «يحيى» ملكاً على «دولة اليمن المستقلة ضمن حدود أراضيها القائمة». وعلى ما يبدو ألزمت العبارة التي بين قوسين الحكومة الإيطالية بالاعتراف بمطالب اليمن الإقليمية والتي كانت في واقع الأمر أو من حيث الجوهر موضع خلاف بين الإمام يحيى من طرف وحكومتي بريطانيا والسعودية من طرف آخر.

شهدت الأشهر التي سبقت سقوط «جدة» زيارة ما لا يقل عن ثلاثة وفود أجنبية كانت عازمة على مناقشة «ابن سعود» في عدة مواضيع ذات اهتمام بالغ لحكومات تلك الدول. وكان أولها زيادة وفد السير «غلبيرت كليتون»

الذي سبق أن استعرضنا نتائجها. سمح أيضا لبعثة رسمية من بلاد «فارس» في أن تجتاز خط الدفاع - الذي كان الأشراف السابقون قد أقاموه - وتتقدم نحو «مكة» حيث وضع «ابن سعود» تحت تصرفها كل التسهيلات الضرورية لتتحقق من الأضرار التي رغم أن ألحقت بقبور الأولياء الصالحين في «مكة». وفي نهاية جولتنا قدمت مع جيش الأمير «محمد» إلى المدينة» لتقوم بنفس الغرض، ومن ثم تسوية القصور بحسب العقيدة الإسلامية، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى النتيجة السياسية التي حققتها تلك الزيارة.

وأقام تلك المواقف أعلن الملك عبدالعزيز بأنه: أولاً ليس بإمكانه أن يعفي نفسه من مسؤولية إقرار الأمن والسلامة في الأماكن المقدسة التي تحدى سكانها (ومعظمهم من القبائل المسلحة) كلاً من الأتراك وحكومة الأشراف بسبب الأذى والضرر الكبيرين اللذين لحقا بالحجاج، وثانياً اقترح أن يوجه الدعوة لكافة الأطراف المهتمة بمستقبل الحجاز للاجتماع به في مؤتمر يعقد في مكة بعد موسم حج العام التالي والذي يصادف في صيف عام ١٩٢٦. ومما كان كافياً في حد ذاته على أن هناك ثقة عامة بأن الأمن والسلامة قد عادا إلى الأماكن المقدسة تحت إشراف ورعاية «ابن سعود» هو أعداد الحجاج الذين قدموا من خارج المملكة. سمح ذلك المؤتمر عند انعقاده على أوسع نطاق في حرية منافشة كل القضايا سواء التي لها صلة أو التي ليس لها صلة بالموضوع. وتجلت تلك الحرية في تمرير قرارات دينية رشيدة وقويمة غير استثنائية.

أما بخصوص الموضوع السياسي الرئيسي والذي لم يكن بعيداً أبداً عن

سطحية المداولات، فلم يكن له سوى جواب واضح واحد، وهو أن «ابن سعود» كان عازماً على المضي في حكم مناطق الحجاز لما فيه خير وصالح الإسلام ككل، وكان مستعداً لتحمل كامل المسؤولية لإتمام تلك المهمة على أكمل وجه. انتهى المؤتمر بذلك المفهوم الواضح، وانفض الاجتماع، لكن لم يكن لدى الحجاج في ذلك العام أي سبب أو مبرر يجعلهم يشتكون من المخاطر أو من عدم الإحساس بالأمان خلال فترة الحج. تماماً كما لم يكن ذلك الإحساس خلال السنوات القلائل التي سبقت التردي الاقتصادي الذي حدث في بداية الثلاثينيات. ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ما يستدعي الشعور بعدم الأمان خلال أداء فريضة الحج.

علاوة على ذلك لا بد من الإشادة بالإجراءات التي تمت بموجب توجيهات «ابن سعود» الشخصية لتأمين الرعاية الصحية للحجاج، ومرد هذه الإشادة هي حقيقة أنه على مدى سبعة وعشرين موسم حج تلت ذلك المؤتمر لم تحدث ولا حتى إصابة واحدة بمرض وبائي. وإضافة إلى ذلك فإن قرار «ابن سعود» القاضي إلى توفير كل أسباب الراحة التي كان الحجاج حتى ذلك التاريخ محرومين منها. مثل تشجيع «ابن سعود» لفكرة إدخال وسائل نقل حديثة قد أحدث ثورة تحديث في الظروف التي كان الآلاف من الحجاج يتممون فيها حجهم. واليوم ومع رحلات النقل الجوي التي أضيفت إلى التسهيلات الأخرى المتوافرة للحجاج بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم تعد رحلة الحج مشروعاً شاقاً أو مجهداً.

ويمكن لهذا التحول المذهل أن يشكل كامل مفخرة وفضل الحكومة السعودية في رعايتها لراحة ورفاهية الحجاج على الرغم أن الحجاج في

السابق تذمروا من الرسوم المرتفعة التي كانت الحكومة تفرضها عليهم دون أن يسمحوا لأنفسهم بأن يفكروا في حقيقة أن الترتيبات التي تقام لراحتهم ولتأمين سلامتهم وصحتهم كانت تكلف الكثير من المال. لم يكن ذلك الرسم في حقيقة الأمر أكثر من خمسة جنيهات بريطانية، لكن جاءت تلك الرسومات في الوقت الذي كان فيه سعر الجنيه الاسترليني يعادل سعر الجنيه الذهبي. لا يمكن بأي حال من الأحوال توجيه اللوم للحكومة السعودية لأن سعرهما لم يعد على ذلك النحو المتماثل! إن الاستمرار في دفع الرسوم بالذهب أو بما يعادله من عملات السوق، لكن ذلك الأمر الاقتصادي حدث على نطاق عالمي. وليكن الأمر مهما يكن فإنه لم يعد لدى الحجاج أية مظالم وشكاوى لينفسوا عنها، إذ ألغت الحكومة السعودية - بموجب أوامر صدرت عن الملك - الرسوم المفروضة على الحجاج، وجاء ذلك الإلغاء بعد أن أصبحت عائدات الدولة من النفط ومن مصادر أخرى تسمح بمثل ذلك التنازل. أصبحت عائدات الدولة تمكنها من تحمل كامل تكاليف أسباب الراحة المقدمة إلى الحجاج والتي كانت تتزايد بشكل لا ينقطع، مثل طرق معبدة أو مسفلتة مع عدة قنوات مرورية مثل الطريق من مكة إلى عرفات.

وبعد الإنقضاء من أمر المؤتمر الإسلامي المشار إليه سابقاً أرسل الملك عبدالعزيز ابنه «فيصل» على رأس وفد صغير لينقل شكره للحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية والهولندية لاعترافهم بوضعيته الجديدة. وهناك ناقش الوفد الأمور ذات الاهتمام المشترك مع الرسميين في هذه البلدان الثلاث، ولم يكن له هدف سياسي محدد ليعمل على تحقيقه. ولدى عودة الوقد إلى السعودية تم تفويض القنصل البريطاني في «جدة» والمدعو

«إس آر جوردن» بفتح مفاوضات مع «ابن سعود» تهدف إلى استعراض شامل لكافة القضايا غير المبتوت فيها والتوصل إلى تسويتها بشكل يخدم المصلحة المشتركة. والجدير بالذكر أن «ابن سعود» كان في تلك الفترة في المدينة.

كان واضحاً لكل المعنيين أن اتفاقية «القطيف» التي تم التوصل إليها عام ١٩١٥ لم تعد تمثل العلاقات الحقيقية القائمة آنذاك بين البلدين، وأصبحت هناك حاجة إلى اتفاقية جديدة تعترف بموجبها الحكومة البريطانية باستقلال حكم «ابن سعود» التام إضافة إلى كل ما هو متضمن فيها. ويجب أن تكون لـ «ابن سعود» حرية إقامة علاقات مع دول أخرى، كما يجب أن يكون له الحق في أن يحصل على السلاح والذخائر من أي مصدر دون أية قيود. وفي نفس الوقت ليس هناك مجال أو إمكانية لاعتراف «ابن سعود» بالنظام الاستسلامي القديم الذي ولد في ظل الاحتلال التركي واستمر مع بعض التعديلات التي أدخلت عليه خلال الفترة القصيرة التي خلى منها الحكم من الأشراف. إلا أن الحكومة البريطانية تمسكت وبعناد بمطلبها القديم. ولم يقبل «ابن سعود» أن يلزم نفسه باعتراف شكلي بالانتداب البريطاني على العراق وفلسطين ومناطق عبر الأردن ما لم تعيد بريطانيا إليه إقليم «معان – العقبة». وكان كلا الطرفان مهتمين بمسألة إعادة خط سكة حديد الحجاز إلى وضعيته العملية. والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية بذلت الكثير من الجهود لتدمير ذلك الخط الحديدي خلال الحرب، وبقيت تلك المسألة ومنذ ذلك الحين وإلى هذا التاريخ قيد دراسة متقطعة دون بصيص أمل في أية مرحلة من مراحل الدراسة للوصول إلى حل، وخاصة فيما يتعلق بالقسم

المنسي والمهجور والواقع ضمن نطاق الأراضي السعودية. لقد امتنعت في البداية قوى الانتداب عن إعادة توزيع القاطرات وحافلات السكك الحديدية المتوافرة. ولم توافق على أساس الكيلومترات ولا على أي أساس آخر معقول. ولم يكن في تلك الفترة بمقدور لا الحكومة الجديدة في سوريا ومناطق عبر الأردن - ناهيك عن فلسطين - ولا حكومة المملكة العربية السعودية التوصل إلى اتفاق مرض بخصوص تلك المسألة التي أصبحت قيد الدرس من جديد.

لم تتمخض المحادثات التي دارت بين «ابن سعود» وبين المبعوث البريطاني عن أية نتيجة، وتوقف «ابن سعود» عن التدخل في المزيد من المحادثات حول هذه الأمور استعداداً للعودة إلى «الرياض» التي زاد غيابه عنها عن عامين. وربما بلغت الأمور ذروتها وحان الوقت بالنسبة لـ «ابن سعود» ليجدد اتصالاته مع شعبه في السعودية العربية، وخاصة شيوخ القبائل والعلماء على وجه التحديد، خاصة أنهم كانوا يسمعون بالأخبار عما كان يجري في الحجاز. كانوا في قرارة أنفسهم غير مرتاحين لاحتمال قيام الحجازيين المهزومين بأسر قادة المنتصرين، وكان إلى حد معقول هناك مبرر لشكوكهم. الحقيقة أن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلفت من اللحظة الأولى في الحجاز. وبالفعل تم القضاء على المنكرات والممارسات العشائرية. وكان شرب المسكرات وتدخين السجائر إثماً كبيراً يغامر به المدمنون بتعاطيها بعيداً عن عيون هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي كانت بالطبع مهتمة بأن ترى كل مسلم يؤدي الصلوات الخمس في المساجد وفي أوقاتها المحددة وبدقة وبحرص شديد.

كما كان على «ابن سعود» أن يواجه بعض أصحاب الفكر الرافض للجديد من المخترعات والتقنيات مث لاسيارات والطائرات. ومع مرور الأيام تغيرت تلك الأفكار وعلم أصحابها أنها نعم من الله يسرها للبشرية وأصبح المعارضين لها لا يريدون لها بديلاً من ترحالهم داخل وخارج المملكة العربية السعودية.

كما كان «الهاتف» من أبرز الأشياء الأخرى التي شغلت وأقلقت فكر هؤلاء المتعصبين الذي هرعوا للترحاب بملكهم لدى وصوله من «المدينة»، إذ كانوا - ومما لا شك فيه - قد سمعوا قصصاً عنه من أشخاص سبق أن زاروا «مكة» بعد الاحتلال. تم التغلب على معارضتهم لاستعمال الهاتف بأن دعوا إلى استعماله بأنفسهم وتركوا ليستمعوا إلى قراءة من القرآن بصوت مألوف لصديق ليس موجوداً أمام أعينهم، لكن ما يدعو للاستغراب أن هؤلاء القوم الذين اعتادوا طيلة سنوات عمرهم على استعمال المنظار لرؤية الأشياء البعيدة يستهجنوا الآن فكرة استعمال الهاتف، وهو جهاز إذا ما قورن بالمنظار يقرب الصوت البعيد إليهم!

وبالطبع بقيت أجهزة الحاكي الفونوغراف شيئاً محظوراً. لكن الزمان خفف من حدة العديد من مثل هذه التيارات الرافضة للجديد، وتزايد عدد آلات العرض وأجهزة الحاكي الموجودة في البيوت وأصبحت على شكل جموع غفيرة. ومما يستدعي الفضول أن أجهزة الاتصالات اللاسلكية ظهرت لأول مرة في السعودية العربية ضد جبهات دفاعية تم اختراقها بمستجدات ومستحدثات صناعية جديدة. و«ابن سعود» الذي كان دائماً تواقاً لسماع آخر الأخبار القادمة من أقاصي العالم، كان نصيراً قوياً لذلك

الجهاز الجديد (الهاتف). وفي عام ١٩٣١ أنشأ «ابن سعود» شبكة كاملة من المحطات اللاسلكيـة الداخليـة لتنقل إليـه الأخـيـار الفـورية عن كل الأحداث. . . بغض النظر عن نوعها، إذ يمكن أن تكون أخبار هطول أمطار في مكان ما، أو أخبار جريمة في مكان آخر، أو خبر وفاة المشاهير، أو حتى ولادة حفيد من الأحفاد.

لم تكن المحنة التي واجهها «ابن سعود» في الرياض محنة قاسية، حتى لو أنه سمع بالفعل نقداً صريحاً بسبب الابتكارات التي جلبها من الحجاز داخل قصره. إن مهارته في التعامل مع أهالي «نجد» وكذلك بلاغته في التعبير لم تترك مجالاً للشك بأن محدثيه ومحاوريه المتلهفون والتواقون سيقرون في النهاية ويصادقون على سياسته. والجدير بالذكر هنا أنه إذا استدعى حدث ما الخطابة فكان «ابن سعود» يرتقي إلى أعلى مستويات الخطابة. كانت النتيجة الرئيسية من زيارته إلى الرياض أن طلب منه أن يلقب نفسه بلقب ملك «نجد» من أجل أن يرقى بموطنه «نجد» إلى نفس مستوى الحجاز التي أخضعها لحكمه، علماً بأن والده تصدر الدعوة لتلك الفكرة وعليه قبلها «ابن سعود» برحابة صدر، وها هو الآن قد عاد إليها مبتهجاً ليعلن نفسه ملكاً على «الحجاز» و «نجد» وتوابعهما.

قامت الحكومة البريطانية في هذه المرحلة بمحاولة أخرى لتسوية المشكلات غير المبتوت فيها مع «ابن سعود». ومرة أخرى رشحت السير «غلبيرت كليتون» ليجري تلك المفاوضات، وسارت تلك المحادثات بيسر وسلاسة وتم في العشرين من شهر آيار عام ١٩٢٧ توقيع معاهدة «جدة» حسب الأصول، وتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في السابع عشر من

أيلول. وهذه المعاهدة التي كان مقرراً لها في الوهلة الأولى أن تدوم لمدة سبع سنوات ألغت اتفاقية عام ١٩١٥ جملة وتفصيلاً، واعترفت بالاستقلال المطلق والتام لمملكة الملك الذي تعهد على نفسه أن يسهل رحلات حج المسلمين البريطانيين، وأن يحترم كل المعاهدات البريطانية المبرمة مع إمارات الخليج العربي، كما تعهد أن يتعاون من أجل إنهاء المتاجرة بالعبيد.

حظيت هذه التطورات على رضى كافة الأطراف المعينة، ولكن لم يمض وقت طويل على تبادل وثائق التصديق على المعاهدة حتى حصلت حادثة على الحدود العراقية عكرت صفو العلاقات بين البلدين لعدة سنوات قادمة. كان من المفروض أن يقرن التأثير العام لمعاهدة «المحمرة» الموقعة في عام ١٩٢١ والتي أولت في العام التالي وفق بروتوكول «العقير» مع موضوع خط حدودي محدد بين العراق والدولة السعودية، ذلك على أن يتفهم الطرفان أنه لا يحق لأي منهما إنشاء قلاع أو أي منشآت عسكرية أخرى في المناطق المجاورة لذلك الخط الحدودي. ومع ذلك وعند حلول وقت المفاوضات بخصوص اتفاقية «جدة»، كان السير «هنري دوبس» المندوب السامي البريطاني في العراق قد أقر وصادق على خطة لبناء سلسلة من القلاع على طول الحدود العراقية السعودية. وفي تلك الفترة أيضاً كان فريق عمل قد غادر باتجاه آبار «الوسية» للبدء في إنشاء قلعة في ذلك الجوار، وهناك قامت مجموعة من بدو «مطير» بمهاجمة الموقع وقتلت كل المشاركين في المشروع. كان «ابن سعود» قد أكد للقبائل المقيمة على الجانب السعودي من الحدود - وقت توقيع المعاهدة المعنية - بأن حقوق الرعي الخاصة بهم في

المناطق الواقعة على كلا جانبي الحدود محمية ومصانة باتفاق متبادل يقضي بمنع إنشاء أي أبنية في المناطق الحدودية أو بالقرب من الآبار هناك، لكنهم أخطأوا عندما استخدموا القوة لاسترداد حقوقهم بتلك الطريقة المسلحة. والآن قام سلاح الجو الملكي وتجاوز في عملياته الانتقامية حقوق البدو عبر مناطق الحدود وقصف تجمعاتهم ومعسكراتهم أينما وجدت. اشتعلت مناطق الحدود بألسنة اللهب واستمرت الحرب هناك لمدة حوالي شهرين بشكل فعلي وليس بالاسم فقط بين الدولتين اللتين صادقتا منذ فترة وجيزة على اتفاقية صداقة من المفترض أن تدوم لمدة سبع سنوات. ردت قبائل «نجد» على القصف البريطاني بأن شنت غارات على الأراضي العراقية والكويتية، وكانت تقتل وتدمر كل ما كان في طريقها. وعندما طرحت أسئلة في مجلس العموم البريطاني بخصوص القصف البريطاني غير المبرر للأراضي السعودية، أدلى وزير المستعمرات البريطانية بجواب غير حقيقي وقال بأن السعودية قد تجاوزت حدودها في إعتدائتها عبر حدودها، لكن ما كان «ابن سعود» قد قاله هو أنه إذا استمرت القوات البريطانية في اعتدائها على أراضيه فلن يكون مسؤولاً عن النتائج المترتبة على تلك الاعتداءات.

في هذه الفترة كان «ابن سعود» قد عاد إلى الرياض ليكون على علاقة وثيقة بتطورات الوضع. كان «ابن سعود» هو الشخص الذي اقترح على البريطانيين إيقاف كافة النشاطات العسكرية على كلا الجانبين، واقترح أيضاً أن يحول الخلاف إلى المجلس التشريعي أو الهيئة القضائية، وتمت الموافقة على هذا الاقتراح وقام مرة أخرى السير «غيلبرت كليتون» بزيارة «جدة» ليجتمع مع «ابن سعود»، وتصادف وصوله إلى هناك مع انتهاك الهدنة إذ

قامت بعض الطائرات البريطانية بهجوم جوي على تجمعات البدو قرب آبار «حـازل». وهناك اضطرت إحـدى الطائرات البـريطانيـة إلى الهـبـوط اضطرارياً، وتم حرقها بعد أن قامت طائرات أخرى بانتشال طاقمها. كان برفـقـة «كليـتـون» لدى وصـوله إلى «جـدة» كـلاً من الكولونيل «ك. كـورنواليس» والميـجـر «جي بي غلب» والسيـد «جـورج أنطونيـوس». هذا وكان «كليتون» هذه المرة مفوضاً بأن يتناول وبشكل شامل كافة القضايا التي تؤثر على العلاقات السعودية مع جيرانها العراق ومناطق عبر الأردن، إلا أن اقتراب موسم الحج (والذي تصادف مع نهاية شهر آيار من عام ١٩٢٨) لم يترك إلا القليل من الوقت أمام «كليتون» ليتم مهمته. وسرعان ما أصبح واضحاً أنه في الوقت الذي لم يعد فيه من الصعب التوصل إلى اتفاق حول العديد من القضايا البسيطة المتنوعة، فإن التوصل إلى تسوية بخصوص الخلاف المتعلق بقلعة «البسية» ومع «ابن سعود»، كان بمثابة شرط لا بد منه لعقد أي اتفاق على الإطلاق. وكونه لم يتم تحقيق أي تقدم حول هذه النقطة خلال المدة الزمنية المتاحة، تم الاتفاق على فض المحادثات وإرجائها إلى ما بعـد مـوسم الحج لكي يتـمكن «كليـتـون» من العـودة إلى لندن لإجـراء مشاورات مع حكومة بلاده. وفعلاً عاد «كلايتون» إلى «جدة» في شهر آب وأجرى لقاءً قصيـراً غير مجد مع الملك الذي رد على عدم قدرة الحكومة البريطانية في الموافقة على إزالة القلاع الهجومية بأن رفض بدوره أن يوافق على أي شيء على الإطلاق. عاد «كليتون» إلى لندن ليقدم تقريره عن فشل مهمته، وعاد «ابن سعود» مسرعاً إلى «نجد» ليتعامل وبشكل جدي وضع منطو على القوة.

شجب «ابن سعود» تصرف الحكومة البريطانية هذا، وأبدى رعاياه أيضاً استعداداً للقتال حتى الموت من أجل ملكهم. والجدير بالذكر أن إهانات الكفار والأذى الذي ألحقوه بالمسلمين جميعها أزكت نيران الاستنهاض الديني عند هؤلاء الرعايا، لكن «ابن سعود» كان مدركاً أكثر منهم لحقيقة أنه في ظروف تلك المرحلة ستأتي الكارثة من الحرب مع العراق، وعليه اتخذ موقفاً وقرر عدم السماح لمثل تلك الحرب أن تحدث مهما بلغ الثمن. وكان مدركاً أيضاً أن الصحراء كانت في حالة اهتياج بلغت لدرجة تحدي سياسة التكيف التي ينهجها مع البريطانين، وأن عرب الصحراء كانوا عازمين على تأكيد حقوقهم في الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم. وقد تزعم هذه الحركة من جماعة الإخوان كل من «فيصل الدويش» من قبيلة «مطير» و «سلطان بن بجاد» من قبيلة «عتيبة». وكان «فيصل» رئيس هجرة «الأطاوية» وكان «سلطان» رئيس هجرة «الغطغط»، وكان بإمكانهما تحصيل الدعم من قبيلة «العجمان» تحت زعامة «ضيدان بن حثلين» وكذلك من الإخوان من قبيلة «الرولة» بزعامة «فرحان بن مشهور».

ولمعالجة هذه المسألة بطريقة التشاور التقليدية عقد «ابن سعود» مؤتمراً في الرياض، لكن لم يحضره العديد من قادة وزعماء التمرد، بل أرسلوا أبنائهم أو أشخاص من أقاربهم ليمثلوهم في المؤتمر. نظر الإخوان نظرات شزراً إلى العديد من الأمور المبتكرة الحديثة، لكن كبار العلماء الذين كانوا مدركين لمسؤولياتهم تجاه الله وتجاه ملكهم، قدموا كامل دعمهم لموقف الملك بخصوص كافة القضايا التي أثيرت خلال وقائع ذلك المؤتمر. وحظيت وعلى وجه التحديد سياسة الملك الرامية إلى السلم مع كافة جيرانه بتأييد ودعم

المؤتمرين. أصبح الآن بإمكان الملك أن يمضي قدماً بضمير مرتاح استناداً إلى القرارات التي تم التوصل إليها بالأساليب الديمقراطية المتبعة في حكمه.

اتخذ الآن قادة الأخوان موقفاً متمرداً علنياً من الملك، فما كان من الملك إلا أن حشد قواته ليجابه انتفاضتهم، وجاءت العمليات العسكرية على غرار الحرب المتقطعة التي قام بها البدو والتي تخللتها عدة مفاوضات للاستسلام، لكنها استمرت على ذلك النحو لحوالي أربعة أشهر أي إلى ربيع عام ١٩٢٩. كلفت تلك المعارك خزينة الدولة نفقات بلغت حوالي أربعين ألف جنيه استرليني. رفض قادة الإخوان إصرار الملك على أن يستسلموا بشكل غير مشروط ويقدموا للمحاكمة أمام قضاة شرعيين لا يسعهم إلا أن يحكموا بإدانتهم بالخيانة العظمى، وبالتالي لا يمكنهم إلا أن يصدروا أمراً بإعدامهم، علماً بأنه كان بإمكانهم أن يناشدوا الملك الرحمة بهم وإن كان من المؤكد تقريباً أن الملك سيرأف بهم. لكن ربما كان لديهم إحساس بأنهم قد تمادوا في الخوض بتلك المخاطرة، وأن الاقتتال قد ذهب إلى حد بعيد مفرط. وعليه تجمعت قوات المتمردين في مواقع محصنة بالخنادق في سهل «السبله» الواقع بين «الزلفي» والأرطاوية، وتوزع جيش الملك إلى عدة فرق قاد كل فرقة إما أحد أبناء الملك أو أحد إخوته. وبدأت هذه الفرق تطوق مواقع المتمردين ببطء لكن بتشكيلات محيقة، وبعد أن رفض المتمرودن آخر نداء وجه إليهم للاستسلام، أصدر «ابن سعود» أوامره في البدء بالهجوم، ولم ترد قوات الملك على نيران المتمردين إلا بعد أن أصبحت القوات على بعد مسافة تمكنهم من الانقضاض عليهم، وانتهت تلك المعركة بسرعة وبشكل حاسم.

ففي المعارك التي دارت بالسلاح الأبيض فتفوقت قوات الملك على قوات المتمردين من حيث العدد، وتمكنت من قتل المئات منهم. كان «بندر» (ابن فيصل الدويش) من بين القتلى، علاوة على أن «فيصل» نفسه أصيب بجرح مميت ونقل إلى «الأرطاوية». أما «سلطان بن بجاد» فقد هرب من ساحة القتال، لكنه - فيما بعد- استسلم لينزوي في سراديب السجون بالرياض إلى أن وافته المنية بعد فترة قصيرة. بعد ذلك توجه الملك بقواته نحو «الأرطاوية» ليجبر «فيصل الدويش» على الاستسلام. توسل حريم «فيصل الدويش» اللاتي طلبن منه أن يترك «فيصل» يموت بسلام، لكن تم إحضار «فيصل الدويش» أمام الملك على نقالة وهناك عفى عنه. وكان «الدويش» قد أمضى في خدمة الملك زمناً طويلاً ناضل خلاله ببسالة في خدمة دين الله، لكنه في نهاية المشوار نكث العهد، لكن بإمكانه الآن على الأقل أن يموت بسلام بين أهله وذويه.

وقعت معركة «السلبة» في شهر آذار عام ١٩٢٩، وبعدها سارع «ابن سعود» في العودة إلى مناطق «الحجاز» ليؤدي فريضة حج ذلك العام. وبعد أن يفرغ من الحج كان لا بد أن يكرس انتباهه لحل العديد من القضايا الإدارية، لكنه اضطر إلى إنهاء فترة استراحته في مكة بسبب حدث غير متوقع، وهو أن «فيصل الدويش» لم يمت وكتبت له الحياة من جديد، وما أن تشافى من جراحه حتى بدأ يخطط لهجوم آخر على الحدود العراقية حيث مشكلة القلاع كانت لا تزال قائمة ولم يتم التوصل إلى تسويتها علماً بأن «ابن سعود» كان قد اقترح إحالتها إلى لجنة تحكيم. استدعت الأخبار المتعلقة بنشاطات «فيصل الدويش» أن يعود «ابن سعود» إلى «نجد» بالسرعة

الممكنة. وفي شهر «تموز» وصل الملك «ابن سعود» إلى الرياض في مقدمة أسطول من العربات بلغ تعدادها مائتي سيارة. وبالمناسبة تجدر الإشارة هنا إلى أنه خلال إقامته في «الحجاز» كان قد رتب لشراء أربع طائرات من طراز «دي إتش ٩»، كما أعد ترتيبات خاصة بعدد من الطيارين البريطانيين ليقوموا على قيادة تلك الطائرات. وخلال تلك الفترة أيضاً تم تحقيق تقدم ملحوظ بخصوص خطة تتعلق بإنشاء محطات للاتصالات اللاسلكية تربط المراكز الرئيسية في مملكته المترامية الأطراف ذات الكثافة السكانية البسيطة مع باقي مقرات قياداته في أصقاع الصحراء. ولم تتبلور الفكرة الماضية بهذا المشروع إلا عند نهاية عام ١٩٣٠ تقريباً، حيث عهد بذلك المشروع إلى شركة «ماركوني». لكن الطائرات وصلت كما ينبغي إلى شاطئ «الأحساء» في نهاية عام ١٩٢٩، علماً بأنها لم تكن متوافرة، كما أنه لم يكن هناك حاجة إليها لقمع تمرد رجال القبائل الذي سبق أن أشرنا إليه.

في الوقت الذي وصل فيه الملك إلى عاصمته «الرياض» كان مركز ثقل حركة التمرد قد انتقل إلى «الأحساء» البلدة التي كانت قبائل «العجمان» تسبب فيها للحاكم الإقليمي «عبد الله بن جلوي» بعض المتاعب. كما أن «فيصل الدويش» كان يحشد رجال العشائر الموالية له للهجوم على مناطق الحدود العراقية.

قام «فهد بن عبد الله بن جلوي» بمراقبة نشاطات قبائل «العجمان»، ووضعت تحت إمرته قوة صغيرة ليتصدى بها لأي هجوم أو غزو يمكن أن يحدث ضد المناطق في الكويت أو في العراق. كان «ضيدان بن حثلين» زعيم قبيلة «العجمان» قد قام بزيارة لـ «فهد» ليؤكد له على حسن نواياه.

وأقدم «فهد» على احتجازه كإجراء احتياطي مؤقت وأرسل في نفس الوقت رسولاً إلى أتباعه ليخبرهم بأن أمور «ضيدان» كانت على ما يرام. ولسوء الحظ ضل الرسول الطريق ولم يصل إلى أتباع «ضيدان»، فما كان من رجال قبيلته الذي استهجنوا سبب تأخره إلا أن ساروا باتجاه معسكر «فهد» ليتحققوا من الموضوع. سبب ظهورهم بتلك القوة الذعر لدى «فهد» وعلى الفور أقدم على ذبح ضيفه «ضيدان». أثار هذ التصرف المتسرع غيظ المخلصين لـ «ضيدان» من رجال قبيلة «العجمان» الذين كانوا في تلك المرحلة يخدمون في صفوف «فهد» وفروا بشكل جماعي وانضموا إلى صفوف رجال قبيلتهم. وعلى الفور بدأ رجال قبيلة «العجمان» بفتح النار على معسكر «فهد». أودت طلقة طائشة بحياة «فهد»، وبهذا تم الأخذ بالثأر من المقترف الحقيقي لحادثة القتل.

يمكن في الأحوال الطبيعية أن يفضي هذا الحدث إلى إنهاء القضية، لكن المزاج العام كان قد تأثر سلباً بواقعة «السلبة» لدرجة أن «نايف بن حثلين» ابن «ضيدان» وخليفته في زعامة القبيلة لم يجدا صعوبة في إقناع رجال قبيلته في معاضدة «فيصل الدويش» في المرحلة الثانية من تمرده. كان في تلك الأثناء «عبد الله بن جلوي» قد تأثر كثيراً بسبب موت ابنه الأكبر لدرجة أن «ابن سعود» كان مضطراً لأن يرسل ابنه ووريثه الأمير «سعود» ليشرف بشكل مؤقت على ذلك الإقليم، وذلك تحت لقب اسمي كقائد لحملة تأديبية مرسلة لقبيلة «العجمان».

تبنى المتحالفون المتمردون استراتيجية شن غزوات عشوائية على مناطق في العراق والكويت. وفي كلتا المنطقتين كان المتمردون يتلقون مساعدات

وتشجيع من عناصر معادية لـ «ابن سعود»، كما كانوا تواقين ليسببوا لـ «ابن سعود» أي إحراج ممكن في ظل تلك الظروف. لم يسبق لـ «ابن سعود» في تلك المرحلة أن واجه أي شيء مماثل للتمرد المنظم الذي توجب عليه في بداية ذلك العام أن يتعامل معه، إضافة إلى أن المواقع المستهدفة من عمليات المتمردين لم تكن خاصة بالمناطق الواقعة تحت سيادته أو بالرعايا التابعين لحكمه، لكنه كان مضطراً للالتزام بمراقبة هجاماتهم على جيرانه (والذين هم في الواقع أعدائه) وبالتالي استدراكها وإحباطها. وعلى أي حال كان «ابن سعود» نداً لتلك الظروف فكانت تضيق حلقات حصاره على مناطق الصحراء، كما كان يتعامل بشكل صحيح مع أي قوة تصل إليها يده. ومن بين أكبر العمليات التي حدثت في سلسلة الأحداث تلك كانت عملية جابه فيها «عبد العزيز» وهو أكبر أبناء «فيصل الدويش». رجعت قواته من تلك المعركة والتي بلغ تعداد رجالها سبعمائة رجل وهي تحمل الغنائم التي استولت عليها من معسكر البدو القريب من منطقة آبار «حازل». وفي تلك المعركة وبفعل كمين بارع ناجح نصبته قوات «ابن سعود» تم القضاء على «عبد العزيز الدويش» وعلى كافة عناصر قواته. تأثر «فيصل الدويش» كثيراً بسبب مقتل اثنين من أبنائه، لكنه لم يتعثر أبداً في جهوده الهادفة إلى تعزيز تحدية الميؤوس منه. وبعد تلك الواقعة بزمن قصير دار اشتباك آخر عنيف في منطقة آبار «الوفرة»، ومرة ثانية مني «فيصل» وجيشه المؤلف من قوات قبيلتي «مطير» و «العجمان» بهزيمة ساحقة، واضطر للهرب إلى منطقة حدودية مجاورة مفضلاً اللجوء إلى الكفار على أن يستسلم لابن سعود.

وهنا أشرف «ابن سعود» شخصياً على مسرح الأحداث ليحول دون أن

يسفر ذلك الوضع المعقد عن نتيجة غير مرغوب فيها. وعليه ناشد السلطات البريطانية وطلب منها أن لا تقدم لـ «فيصل الدويش» وللمتمردين معه حق اللجوء السياسي، علماً بأن المتمردين كانوا يتلقون مساعدات ومواد غذائية من الكويت ليتمكنوا من الاستمرار في حركة تمردهم. بدت الضمانات التي رغبها «ابن سعود» وكأنها وشيكة المنال أو في متناول اليد، وأصبح موقف «الدويش» وجماعته أمراً ميؤوس منه. هاجم «ابن سعود» آخر تجمع لهم في منطقة «شعيب العوجة» بالقرب من «الرقعي» في حفر الباطن، وهي النقطة التي تلتقي فيها حدود نجد والعراق والكويت. ومرة ثانية ألحق «ابن سعود» بهم هزيمة ساحقة، لكن الضمانات البريطانية التي سبق أن أشرنا إليها كانت قد انهارت وتمكن قادة التمرد الأربعة: فيصل الدويش، ونايف بن حثلين، وابن لامي زعيم قبيلة «مطير»، وابن مشهور زعيم قبيلة «الرولة» من الهروب إلى العراق وهناك قامت القوات البريطانية بتجريدهم من السلاح واحتجازهم في انتظار نتيجة المحادثات المتعلقة بمصيرهم والتي جاءت نتيجة الاحتجاج الشديد الذي أعرب عنه «ابن سعود» ونتيجة مطالبته بضرورة ترحيلهم وعودتهم إلى «نجد». لم يكن الملك فيصل بن الحسين ملك العراق ميالاً لتسليم القادة الأربعة الذين لجأوا إليه والذين حقت عليه حمايتهم وفقاً لأعراف الضيافة والعادات العربية، لكن السلطات البريطانية وجدت نفسها في وضع محرج لفشلها في تنفيذ ضمانات ملزمة أدبياً. وعلى مدى بضعة أسابيع بدا الوضع في منتهى الجدية، لكن في النهاية تم التوصل إلى بعض الترتيبات التي اقتضت أن يسلم قادة التمرد الأربعة أنفسهم دون شروط مقابل أن لا ينفذ «ابن سعود» بحقهم العقوبة القصوى بسبب خيانتهم،

وعليه تم نقل «فيصل الدويش» وجماعته بالطائرة إلى «الدبدبة» وهو مكان متفق عليه في الصحراء يتم فيه تسليمهم إلى ملكهم. وفي الوقت المناسب وجدوا أنفسهم في سراديب أحد سجون الرياض التي لفظ «فيصل» فيها آخر أنفاسه بعد بضعة أشهر.

انتهت المشكلات مع نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٠، وتم الاحتفال بشكل لائق بهذه المناسبة بلقاء الملكين الذين أوشكا أن يكونا على شفير حرب تقع بينهما. تقابل الملك «ابن سعود» والملك «فيصل» للمرة الأولى في حياتهما على متن مركب شراعي بريطاني في مياه الخليج بصفتها ضيفين على السير «فرانسيس همفري» المقوض السامي البريطاني على العراق. والجدير بالذكر هنا أن «همفري» كان قبل فترة قصيرة قد خلف السير «غلبيرت كليتون» في ذلك المنصب إثر وفاة الأخير المفاجئة والتي حدثت له بعد أن تسلم ذلك المنصب من السير «هنري دوبس». وعلى أي حال ومن حيث الشكل إن لم تكن من حيث الحقيقة فقد خدمت حركة التمرد التي قام بها «الدويش» وبشكل غير مباشر في تقريب وجهات النظر بين السلالات الحاكمة المتنافسة في الصحراء العربية، والتي على الأقل بدأت تحترم - ومنذ ذلك الوقت - حدود بعضها البعض، كما أنها ساهمت في تسوية كافة المشكلات والوقائع الحدودية عن طريق الحوار بدلاً من اللجوء إلى القوة والاقتتال. لكن من العبث أن نفترض أن القادة الأشراف حكام ذلك الجيل كانوا مذعنين للخسارة التي لحقت بهم في موطنهم «مكة». وعندما مات الملك فيصل ملك العراق عام ١٩٣٣ خلفه ابنه الأكبر «عبد الله» الذي كان وقتها أميراً على مناطق عبر الأردن (وبعدها أصبح ملكاً

عليها) وحمل زمام الانتقام على أنه بطل قضية تلك السلالة الحاكمة. ومع حادثة اغتيال «عبد الله» التي أودت بحياته عام ١٩٥١ أزيلت آخر عقبة أمام إقامة علاقات طبيعية بين الدول الثلاث المعنية. وفي الحجاز ظهر جيل جديد لم يعرف الشريف «يوسف» بل كان يمضي جل وقته يستجم في دفء حرارة النعيم السعودي ويفكر في السنوات العجاف التي مر بها آبائه.

هيأت المحادثات الودية - ولو أنها كانت محادثات شكلية - بين الملكين العربيين والتي تمت على متن المركب الشراعي «لوبن» أرضية لعقد اتفاقية صداقة وحسن جوار بين بلديهما. وفي العاشر من آذار عام ١٩٣٠ وبالتحديد في بغداد وقع ممثلي الملكين بالأحرف الأولى. وكان ذلك هو الوقت الذي عاد فيه «ابن سعود» إلى «نجد» بعد رحلة الحج التي قام بها إلى الأماكن المقدسة في الحجاز. بعد ذلك وجد «ابن سعود» لنفسه متسعاً من الوقت ليكرس اهتمامه للعديد من القضايا المحلية والدولية والتي كان مضطراً لأن يضعها جانباً أثناء معالجته قضية الأمن الداخلي التي كانت أكثر إلحاحاً. إن الطريقة التي عالج بها «ابن سعود» المهمة الشاقة أكدت كما عززت من سمعته الجيدة في إدارة فنون الصحراء وفي فن الحكم بشكل عام. قضى «ابن سعود» وبشكل مستمر حوالي ثلاثين عاماً في ساحات المعارك يقاتل أعداءه الذين تمكن من إخضاعهم واحداً تلو الآخر على شكل سلسلة من الانتصارات المتصاعدة، ولكن من متناقضات الأمور أنه وجد نفسه مضطراً أن يخوض آخر معاركه ضد أصدقائه، وكان ذلك من أجل غاية محددة وواحدة فقط وهي ليريهم وليري العالم أجمع بأنه كان سيد منطقته وأنه كان عازماً على الحفاظ على تلك الوحدة. وبعدها لم ينزل بنفسه إلى أرض المعركة، وذلك ليس لأنه لم تعد هناك معارك ليخوضها،

بل لأن الانتصارات التي تحققت عن طريق السلام أصبحت تبرز وبشكل مهيب من أماكن غير مألوفة من العالم الجديد. ويمكن الآن لتلك المعارك أن تترك للجيل الصاعد الذي أصبح متمرساً في العمليات العسكرية التي حدثت في العقد الماضي.

سجلت معركة «السبلة» نهاية حقبة من الزمن، كما إن الصحراء العربية والتي لم يطلق عليها اسم المملكة السعودية العربية إلا في عام ١٩٣٤ اكتسبت شكلها النهائي نتيجة للحروب المستمرة والمتواصلة ضد الأعداء. ومن ذلك الحين فصاعد أصبح العالم حلفاء لهم وزنهم في قضية التقدم المشتركة.

لكن «فيصل الدويش» كان قد تعلم درساً في معركة «السبلة» وهو أنه لا يجب ممارسة تلك الفضيلة دون الحصول على إذن مسبق من السلطات العليا، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت ممارستها أمراً محظوراً للغاية. لقد تم نزع شوكة حركة الإخوان - وهي الحركة التي سبق أن لعبت دوراً بارزاً للغاية في تكوين وخلق النظام الجديد - ولم يعد بإمكانها الآن أن تخدم أي هدف مفيد آخر. وفي البداية وببطء أيضاً تلاشت حركة الإخوان إلى عالم النسيان، ولكن ذلك التلاشي كان يتم في زخم متواتر صهرت كافة العناصر المتغايرة في الديار السعودية ضمن بوتقة اجتماعية مرتكزة كحقيقة واقعة على عقيدة وثقافة الديانة الإسلامية. لكن تلك البيئة الاجتماعية كانت أقل تيقظاً مما كانت عليه سابقاً بخصوص موضوع مراقبة الخالق المستمرة لأعمال الناس في حياتهم اليومية.

جاءت محاولة «ابن سعود» في إيجاد وتكوين حركة الإخوان عام ١٩١٢

والتي تطابقت تماماً مع تصوراته بمثابة «ضربة معلم» دالة على نبوغ وعبرية فردية لا يعادلها ذكاء سوى إقدامه الشجاع على تصفية المتمرد بعد مضي ثمانية عشر عاماً على إنشائها. إذ لم تعد تلك الحركة في حينها سوى عقبة أمام تعزيز موقف ومكانة عمل «ابن سعود» الذي عمل على بنائها بالكثير من الصبر والجهد. وكان من المؤكد لهذا الإبداع المهلك (حركة الإخوان التي يمكن أن يطلق عليها اسم فرانكشتاين) أن يسهم في تدمير وحدة الكيان للصحراء نفسه لو أنه لم يبادر في تدمير ذلك الإبداع والقضاء عليه.

ظهرت الحكومة السوفيتية مجدداً على الساحة وكانت أولى الدول التي رفعت مستوى تمثيلها الدبلوماسي في «جدة» من قنصلية عامة إلى بعثة دبلوماسية، وعينت رئيساً على تلك البعثة السيد «كريم خان حاكيموف» ذو الخبرة السابقة الجيدة. وبعد فترة قصيرة وبالرغم من التوتر القائم في تلك الأثناء على الحدود العراقية، حذت الحكومة البريطانية حذو الحكومة السوفيتية وعينت السير «أندرو ريان» بمنصب الوزير الأول على تلك البعثة. وفعلاً وصل السيد «ريان» إلى «جدة» ليتسلم مهام منصبه في بداية شهر آيار. وهكذا لم يكن لدى «ابن سعود» سبب يجعله غير مسرور بالشكل الذي يجسده لنفسه على الساحة الدولية، ذلك لأن البعثات في السلك الدبلوماسي قد تعاظم عددها وتعاظمت أهميتها بالرغم من وضعية وسائل الراحة المتوافرة آنذاك في «جدة»، المنطقة التي انحصرت فيها كافة بعثات الدول الأجنبية. إلا إن ما جعل موقف وعمل البعثات الدبلوماسية الأجنبية صعباً بعض الشيء هو أن الملك كان يتحمل شخصياً مسؤولية سير علاقته مع الدول الأجنبية، ترافق مع ذلك الإحساس ميله الفطري لعدم قضاء أي

وقت في «جدة» زيادة عما كان ضرورياً. وبالطبع تم - من وقت لآخر - إعداد ترتيبات تتعلق بذلك الغرض بالذات وبالتالي تجعل الملك على اتصال مع الدبلوماسيين الأجانب عند وجود قضايا ذات اهتمام مشترك يتوجب مناقشتها. ولكن بعد مضي وقت طويل تم إنشاء شيء شبيه بمكتب العلاقات الخارجية في «جدة» وعين فيه موظف رسمي كبير تابع مباشرة للملك ليتعامل مع قضايا الروتين الدبلوماسي. وكان الأمير «فيصل» بصفته وزيراً للخارجية يزور «جدة» على فترات متقطعة لينظر - نيابة عن والده - في القضايا الدبلوماسية الأكثر أهمية، وكان الملك وعلى فترات متقطعة محدودة يتواجد أيضاً بنفسه حين يكون في زيارة إلى ميناء «جدة». وهكذا وقعت مهمة المحافظة على الاتصالات الدبلوماسية في بداية تلك الفترة على عاتق السيد «عبد الخالق الدملوجي» والسيد «فؤاد حمزة» العاملين في المكتب المشار إليه أعلاه. ربما كان من سوء طالع «ابن سعود» أن تزامن إتمام الترتيبات البديلة المؤقتة والخاصة بنظام حكمه الجديد مع بداية سنوات عجاف نجمت عن انحسار اقتصادي عالمي أصاب كافة دول العالم، انعكست آثاره على المملكة العربية السعودية على شكل هبوط جذري في عدد الحجاج القادمين إلى مكة من الدول الأخرى. وكان ذلك الهبوط بمثابة كارثة اقتصادية على المملكة. لقد ظلت العناية التي تقدمها حكومة «ابن سعود» إلى الحجاج - ومنذ احتلال الحجاز - مرضية حتى أنها في مناسبة من المناسبات بلغ عدد الحجاج رقماً قياسياً، وحظيت الحكومة السعودية بالمكاسب نتيجة لذلك. ضمرت العائدات التي كانت تحصل عليها الحكومة السعودية في الماضي بشكل زهيد ووصلت الآن إلى بضعة ملايين، ولكن

تلك الملايين لم تكن بالشيء الكثير جداً مقارنة مع ما هو مطلوب من الدولة. والآن قد توقف وبشكل مفاجئ تدفق سيل الذهب على المملكة وأصبحت تلوح في الأفق سنوات جفاف طوال، علاوة على أنه لم يكن لدى الدولة السعودية احتياطات مالية جمعتها من سنوات الطفرة لتوازن بها كفة الميزان مع النفقات، إذ تجاوزت بكثير الاحتياطات الضرورية للبلاد، والتي أصبح الآن من الصعب تقليلها دون معاناة.

تم ذلك الإجراء بشكل تدريجي لكنه كان تصاعدياً، والآن وقد أصبح «عبد الله ين سليمان» وزيراً للمالية (وبقي في ذلك المنصب على مدى ربع القرن التالي)، وجد نفسه مضطراً لممارسة كل مهاراته وعبريته في الحفاظ على المستوى المرتفع من النفقات التي أقرت بناءً على مصادر دخل الدولة التي تقلصت إلى حد كبير. إن ما يعتبر سراً غامضاً هو الكيفية التي تمكن بها من تدبير الأمور، وهذا أمر يمكن أن يكون في القصص الرومانسية أكثر من أن يكون في سجلات الأحداث التاريخية الجادة.

ومما كان يتعذر اجتنابه هو أنه كان لا بد لموظفي الحكومة من أصحاب الرواتب المتدنية أن يتحملوا جزءاً من الأعباء الجديدة. شكلت مساهماتهم المالية - والتي كانت في الواقع بمثابة قرض جبري - مبلغاً شهرياً مرموقاً، وصلت رواتبهم في أحد الأوقات مبلغ ستة أو ثمانية دفعات متراكمة من ديون استحقت على الدولة ولم تدفعها، تجلى ذلك وبشكل خاص في الأقاليم والمناطق النائية حيث أجبر الرسميون على أن يقاسموا مصيبتهم مع أصحاب المحلات التجارية ومع التجار من حولهم، وذلك بأن يشتروا

متطلبات معيشتهم بالدين مقابل وعداً بدفع ثمنها عندما يحصلون على رواتبهم. وهكذا انتشرت حلقات ترقرق موجة العسر الاقتصادي وتعاظمت مساحتها حتى شملت كافة أرجاء البلاد. وبالتأكيد لم تكن الضغوط الاقتصادية التي عانى منها الفقراء السمة البارزة للإدارة المالية للدولة التي لم تنسى دور الأغنياء كمساهمين فاعلين في دعم احتياجات البلاد. وعلاوة على كل هذه الأمور فقد شكلت بالمبالغ التي كانت مستحقة لهم من الدولة بموجب عقود معينة أو مشتريات أخرى، فائدة مرموقة ذلك على صعيد المبلغ المطلوب منهم إنفاقه، ولذلك تأخر سداد دفعات الديون إلى أن استوفوا الحد الأقصى من الديون المستحقة لهم، وحيال ذلك الوضع لم يكن هناك بديلاً عن إصدار قرار رسمي بتأجيل دفع الديون المستحقة على كافة الالتزامات، وذلك على أمل أن تتوافر لدى الدولة بعض الاعتمادات المالية لشراء الاحتياجات الأكثر ضرورة وإلحاحاً. جاء ذلك لتجنب اللجوء إلى الحد من معدل نفقات الدولة باعتبار أنه إجراء بغيض غير موغوب فيه. ويمكن أن نضيف هنا أنه تم الالتزام وبدقة بكافة الترتيبات الخاصة بالمرسوم الصادر بخصوص تأجيل دفع الديون، وهدفت تلك الترتيبات إلى تقدير القيمة الصحيحة للديون القائمة وفرض فائدة بنسبة خمسة بالمائة على مدى عدد محدد من السنوات.

إن التطورات التي تمت الإشارة إليها في الفقرة السابقة بشكل مختصر تناولت عدة سنوات بدءاً من عام ١٩٣٠ فصاعداً. وفي تلك الأثناء قام «ابن سعود» بعد أن انتهى من فريضة الحج في شهر آيار بتحويل مقر قيادته من

«مكة» إلى «الطائف» وذلك لقضاء أشهر الصيف هناك. وهكذا كان باستطاعته وللمرة الأولى منذ أن توج ملكا على الحجاز أن يكرس نفسه وفي وقت فراغه للنظر في حل العديد من اقضايا والأمور المحلية والأخرى المتعلقة بالسياسة الخارجية والتي كانت قد تراكمت خلال فترة غيابه، وعلى مراحل أصبح بمقدوره أن يريح أعصابه خلال الرحلات التي كان يقوم بها إلى صحراء «ركبة» الشاسعة، وهي المنطقة التي كان يقيم معسكره فيها لعدة أيام. وكان يعتبر معسكره ذلك بمثابة قاعدة بنطلق منها لصيد الغزلان التي بدأ عددها يتناقص يوماً بعد يوم نتيجة الصيد غير المنظم ليس هناك على مدى ربع القرن الماضي، هذا ولا يوجد بخصوص قوانين الصيد أيضاً أي مرسوم ملكي يتعلق بالحفاظ على الأماكن الأثرية العديدة والهامة والمنتشرة على طول وعرض هذه الأرض الموغلة في القدم. وباستثناء المكرمة المتعلقة بالإذن الصادر عن الملك عام ١٩٥١ لقيام البروفيسور «جي ركمانس» من مدينة «لوڤين» وفريقه من الخبراء البلجيكيين بدراسة الأقاليم الجنوبية، يبدو أنه كان ينظر لفكرة القيام بدراسة جادة للماضي القديم الذي أدى إلى ولادة المملكة العربية السعودية على أنه أمر جدير بشعب عملي له نظرة مستقبلية. كانت مثل هذه المساهمات التي تثري معرفتنا بالماضي القديم للصحراء العربية تأتي مصادفة نتيجة مغامرة أجنبية صادرة عن قطاع خاص وموجهة بالدرجة الأولى إلى أغراض أخرى وأهداف عملية.

إن استراحة الملك القصيرة تلك والتي قضاها في «الطائف» والتي تكررت بعد مضي أربع سنوات، وبالتحديد إثر موسم حج عام ١٩٣٤، ساهمت

في جوانب عدة بوضع الأسس التي شيدت صرح المملكة العربية السعودية. ومن بين الأمور التي شغلت بال الملك آنذاك كانت فكرة تحسين وسائل الاتصالات في المملكة، وما أن انتهى ذلك العام حتى تم التوقيع على عقد مع شركة «ماركوني» لتوريد المعدات اللازمة لإنشاء محطتين لاسلكيتين كبيرتين في مكة والرياض تعملان بقوة خمسة كيلو واط، إضافة إلى تركيب اثني عشر جهازاً بقوة نصف كيلو واط في عدد من عواصم الأقاليم بالمملكة، وأخيراً وليس آخراً تم التعاقد على تركيب أربع أجهزة متحركة بقوة نصف كيلو واط ليتم أخذها مع الملك وكبار الشخصيات من مرافقيه أثناء ترحالهم. وعند حلول موسع ربيع عام ١٩٣٢ تم بالفعل إنشاء هذه الشبكة العظيمة من الاتصالات اللاسلكية. وليس هناك مجال للتساؤل عن الدور الهام الذي لعبته هذه الشبكة منذ ذلك الوقت في إشراف الملك وتوجيهه لسياسة وشؤون البلاد. وبالطبع تم توسيع تلك الشبكة بشكل كبير وتم تطويرها عن الشكل الذي كانت عليه في تلك الآونة، واليوم يمكن مقارنة المملكة العربية السعودية في مجال التطور اللاسلكي بأية دولة من الدول المجاورة لها في منطقة الشرق الأوسط، ناهيك عن مقارنتها بالعديد من الدول الأوربية. كان الملك يصبو منذ زمن طويل ليتمتع بفوائد ومكاسب الاتصالات اللاسلكية البعيدة المدى، وخاصة الهاتف منها، وعليه تم توقيع عقد مع شركة ألمانية بإنشاء شبكة فخمة تحتوي على خدمات عديدة وتربط كافة المراكز الهامة بالنواحي البعيدة المترامية من الكرة الأرضية. وكانت محطة الإذاعة في «جدة» تعمل منذ عدة سنوات، كما كانت تربطها مع «مكة» ومع المناطق الرئيسية من مناطق الحج محطات إرسال معينة، وفي

تلك الفترة أيضاً كان يتم إجراء دراسة تتعلق بتنفيذ خطة أشمل تهدف إلى توسيع نطاق البث ليصل كافة البلدان الإسلامية. وربما تجدر الإشارة إلى أن قضايا مثل التطور الحاصل على مجالات البرق وخطوط الهاتف، علاوة على موضوع إدخال الخدمة الهاتفية الآلية في بعض المناطق، ما هي إلا مجرد مساهمات تقديرية للأهمية الي توليها الحكومة اليوم لوسائل الاتصالات الحديثة وما تقدمه من وسائل الراحة إلى الناس. إن هذا التطور هو تذكار بعهد قريب حيث كان الناس ينظرون إلى صوت الإنسان المسموع على أنه وسيلة من وسائل الشيطان تهدف إلى زعزعة إيمانه وإسلامه.

أما على صعيد المجال الطبي والذي سبق أن أشرنا إلى تأثيره على صحة الحجاج العامة، فتجدر الإشارة هنا إلى أن الاهتمام الشخصي للملك وتشجيعه في هذا المجال أسفر وبشكل متصاعد عن نتائج كان من الصعب التخيل بأنها يمكن أن تحدث ضمن حيز الواقع، ذلك لأن السعودين كانوا قد ورثوا عن الأتراك نظاماً هزيلاً عبر قرون من النضال العقيم ضد الأمراض وسوء التغذية. وكان «ابن سعود» دائماً يفتخر بأنه ملم بالطب. كانت له معرفة كبيرة في أمراض العرب وفي معالجتها، وإن معظم هذه المعرفة مشتقة من القصص المروية عن براعة جده «تركي بن عبدالله» في هذا المجال. ولم تكن تلك المعرفة في الطب الشعبي سبباً في يوم من الأيام في جعل «ابن سعود» متحيزاً ضد الأساليب الطبية الأوربية، علماً بأنه أمضى فترة طويلة حتى أدرك أن ما كان يفيد الأوروبيين كان ليفيد مرضى العرب أيضاً. وبالتدريج البطيء سقطت الحواجز القائمة بفعل عزل النساء وأصبح بإمكان الذكور من الأطباء العمل في مجال العناية الطبية لفئات المرض التي استفادت من تشخيص ومعالجة الأخصائيين لهم.

إن المرضى الذين لم يحصلوا على تلك الاستفادة من أطباء أبناء عرقهم استفادوا من الأخصائيين الأوروبيين بمن فيهم طبيبات من عدة دول. وتنامى عدد الكادر الطبي الدائم عما كان عليه منذ الأيام الأولى لفترة حكم «ابن سعود»، وكان معظم العاملين فيه من سوريا ومصر، علماً بأن التوجهات الأخيرة كانت باتجاه توظيف كادر طبي من ألمانيا، الأمر الذي حقق نتائج مرضية للغاية هذا وتم تحديث المستشفيات العتيقة المحدودة التي كانت متوافرة في ذلك الوقت والتي كانت تقدم المعالجة البسيطة للمرضى بأسلوب تقليدي. جاء ذلك التحديث بسبب الدعم الذي وفرته حكومة «ابن سعود» لها، وتم تعزيز إمكانيات هذه المستشفيات أيضاً عن طريق المبادرات التي قام بها العديد من المعاهد الخاصة والتي كانت تحتوي على معدات جيدة وعلى كادر طبي جيد أيضاً. كان بعضها متخصصاً وكان البعض الآخر متمكناً لدرجة أنه يمكن مقارنته مع المعاهد الأوروبية التي صممت أصلاً على غرارها. قبل بضع سنوات كان بإمكان الرياض أن تتفاخر بأن لديها واحدة من أفضل منشآت التصوير السيني في منطقة الشرق الأوسط.

صفحة بيضاء

الفصل الثاني عشر

ازدهار المملكة وتقدمها
من القحط إلى الرخاء

صفحة بيضاء

ازدهار المملكة وتقدمها

كانت المملكة العربية السعودية - ولا زالت - بمثابة منجم ذهب حقيقي بالنسبة للعاملين في مجال الطب. والنقطة الوحيدة التي يأسف لها المرء هي أن التقدم الذي تحقق في المجال الطبي لم يكن بحجم الآمال العريضة للملك عبدالعزيز، ذلك بالرغم من نية الملك التي أعلن عنها مراراً والرامية إلى توسيع مجال الخدمات الطبية لتشمل كافة أرجاء المملكة بما فيها مخيمات البدو، والسبب في ذلك الإحباط الذي ربما يعود إلى الميل الطبيعي عند الكادر الطبي وتفضيله العمل في المراكز الكبيرة بالمدن حيث توجد الفرص الثمينة لممارسة الطب في القطاع الخاص إضافة إلى وجود وسائل ترفيه اجتماعية لهم ولأسرهم. جاء التوسع الكبير في حركة السير وفق أوضاع وشروط معقولة، كما أدت الأوضاع التي أشرنا إليها سابقاً إلى تزايد ضغط الزوار القادمين من الأقاليم على المراكز الطبية في المدن حتى أصبح الحمل ثقيلاً وبشكل متزايد، في حين أن ما كان متوافراً من المساعدات الطبية شجع البدو وعناصر أخرى على إنشاء تجمعات بديلة في أطراف المناطق القريبة من المدن.

إن التزايد الضخم في عدد السكان في المدن خلال الثلاثين سنة الماضية كان واحداً من أبرز ملامح فترة حكم «ابن سعود»، ويعود السبب في ذلك إلى توافر الإحساس بالأمن وتوافر الرخاء والخيرات. ازداد عدد السكان في المدن مثل الرياض وجدة بنسبة أربعة أضعاف إذ أصبح تعداد سكان الرياض حوالي مائة ألف، وبلغ تعداد سكان جدة حوالي مائة وخمسين ألف نسمة،

كما تضاعف عدد السكان الأصليين في الطائف البالغ عددهم خمسة آلاف حيث بلغ عددهم خمسين ألف نسمة أي بمعدل عشرة أضعاف أما المدينة المنورة التي كان معدل سكانها في العهد العثماني ثمانين ألف نسمة والتي انخفض سكانها إلى حوالي عشرين ألف نسمة نتيجة تأثرها بأوضاع الحرب العالمية الأولى فقد تمكن الأهالي فيها من تحسين العجز المالي في وضعهم التجاري دون الاستعانة بالعائدات التي كانوا يحصلون عليها قديماً من سكة الحديد. أما بالنسبة للهفوف فقد تضاعف عدد سكانها الأصلي والبالغ ثلاثين ألف نسمة، في حين تنامت قرى الصيد الصغيرة مثل «الخبر» و «الدمام»، وتطورت لتصبح مدن مهمة مثل مدينة «الظهران» الصناعية المجاورة والتي لم يسبق أن سكنها إنسان قبل عشرين عاماً.

ومدينة مكة التي وصل تعداد سكانها في الأيام الأوائل إلى مائة ألف نسمة لا بد وأن شهدت زيادة في تعداد السكان بنسبة لا تقل عن خمسين بالمائة. وهنا لا بد أن نتذكر أن جزءًا كبيراً من هذه الزيادات التي طرأت على تعداد السكان جاء من دول مجاورة للملكة العربية السعودية، وبالتحديد من «مصر» ومن بلاد المشرق ومن «حضرموت» و «اليمن». وبالمناسبة يمكن القول إنه لم تقم الحكومة بأية محاولة لإحصاء تعداد السكان في المملكة، ولكن العدد التقريبي المعقول هو بحدود ستة ملايين.

والمشكلة الأخرى الجادة والناجمة عن تزايد تعداد السكان في المناطق المدنية كانت مشكلة تأمين المياه، فمثلاً مدينة «جدة» التي يعيش فيها قرابة ثلاثين ألف نسمة كانت تعتمد على محطات تحلية مياه البحر ذات القدرة المحدودة، كما أن مياه الشرب التي كانت تنتجها هذه المحطات كانت باهظة

التكلفة. وكانت «جدة» تعتمد على سلسلة من الأحواض الخرسانية المصممة لتجميع وتخزين مياه الفيضانات التي كانت تنساب من أطراف التلال وعبر السهول الساحلية، إضافة إلى مياه الآبار المالحة بعض الشيء والتي كان يعتمد عليها أبناء الطبقات الفقيرة. لقد اعتمد سكان مكة والمدينة ولفترة طويلة على قنوات المياه المتدفقة من عين «زبيدة» وعين «الزرقا» إضافة إلى اعتمادها على مياه العديد من الآبار لتغطية حاجاتهم وحاجات الحجاج الزائرين.

وكان من المتوقع لمصادر المياه هذه أن لا تؤمن كافة احتياجات السكان في الأحوال الطبيعية، ناهيك عن الأحوال التي يبلغ فيها تعداد الحجاج فوق المعدل المعتاد، ولذلك كان الشغل الشاغل للملك في تلك الفترة تأمين موارد مياه أفضل طالما أن عمل ذلك الشيء كان ممكناً في تلك الظروف. وعلى الفور تم توقيع عقد لإنشاء محطة تحلية كبيرة في «جدة» كما تم شق قناة «عين زبيدة» باتجاه النبع من أسفل المرتفعات الجبلية، وتم تنظيفها وتهيئتها للاستعمالات المستقبلية. هذا وتم اتخاذ إجراءات مماثلة في المدينة فتم توسيع المضخات الميكانيكية التي كانت مستعملة هناك لاستخدامها لأغراض زراعية، وقد أدى ما قام به الملك من هذه الإنجازات إلى أن تشجع الأمراء بمن فيهم الأمير «سعود» في الرياض بأن أدخلوا مضخات ري، كما شقوا قنوات زراعية كبيرة مماثلة.

وبعد أن تمت معالجة أهداب هذه المشكلة بطريقة مؤقتة، أصبحت الظروف مهيأة للتطورات الأكثر أهمية التي ستشهدها السنوات القادمة، فقد ربطت مدينة «مكة» بخط أنابيب حديدي متصل بعين «الجديدة» عند منع

وادي فاطمة، وكان الغرض من ذلك الربط هو مضاعفة مقدار المياه التي تصل إلى المدينة. ولتأمين الاحتياجات المتنامية للسكان وللحجاج هناك، عكف المسؤولون على دراسة خطط مماثلة. وبعد الفيضان الكبير الذي حدث عام ١٩٥٠ وهو عام اليوبيل الذهبي للملك، تم اتخاذ بعض الإجراءات لبناء سد وادي إبراهيم الذي كان يعتبر ضرورياً لدرء خطر مثل تلك الفيضانات، كما تم اتخاذ إجراءات لبناء سد وادي الزهير الذي هددت فيضاناته مناطق الشهداء والطريق الرئيسي المؤدي إلى «جدة» . والجدير بالذكر أن مياه فيضانات ذلك العام تدفقت باتجاه «الحرم» ووصل ارتفاع المياه حول الكعبة إلى سبعة أقدام. لقد تم تنفيذ هذه الأعمال على الوجه الأمثل قبل نهاية عام ١٩٥٢، بدليل أن العاصفة التي هبت في شهر تشرين الثاني في العام التالي أحدثت ضرراً طفيفاً أو حتى لا يذكر في مناطق تلك المدن.

حدث أيضاً في عام ١٩٥٧ أن تم ربط مجموعة من الينابيع في منطقتي «الجموم» و «أبو عروة» الواقعتين ضمن مدى السهل المنبسط لوادي فاطمة، وذلك بخط أنابيب ذات قطر واسع وممتد على مسافة أربعين ميلاً لتنقل كميات كبيرة من مياه الشرب إلى مكة. لكن التوسع المطرد للمدينة واستخدام الناس للمياه في ري الحدائق التي لا يمكن تصورها، جعل المسؤولين يدركون أنه لا بد من زيادة مقدار تدفق المياه التي كانوا يعتقدون أنها كانت أكثر من كافية لتلبية كافة الاحتياجات التي ستنجم على مدى فترة طويلة قادمة. وعليه تم في وقت لاحق مضاعفة قدرة مياه خط الأنابيب. وفي الرياض تفاقمت مشكلة المياه التي لم تكن في يوم من الأيام حادة باستثناء حالات الجفاف التي كانت تضرب المنطقة لفترات طوال وعلى مدى

سنوات متتالية. إن الاستعمال الوافر والكثير لمضخات المياه الميكانيكية كان له دور في تفاقم مشكلة المياه تلك، إذ كانت كافة مضخات المياه الكهربائية تعمل بشكل متواصل وعلى مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، وأدى ذلك السحب من المياه الجوفية التي ساهمت في جعل الواحات في ظل الظروف القديمة خيرة ومثمرة للغاية إلى تناقص منسوب المياه فيها، الأمر الذي اضطر معه الرسميون إلى مد المزيد من أنابيب المياه إلى المدينة من مصادر أخرى مثل مصادر وادي حنيفة في شمال وجنوب العاصمة، كما كان العديد من الصهاريج والتي يتسع كل منها إلى خمسة آلاف جالون من الماء تجلب وباستمرار المياه إلى المدينة من آبار في مواقع قريبة وبعيدة عن المدينة لتلبي احتياجات الناس وتوفر مياه الري لحدائقهم.

والواقع أن في المملكة كميات من الماء لكن لا زال ذلك الموضوع نقاش يتم البت فيه على ضوء التجربة التي ستبين فيما إذا كانت المصادر المائية المتوافرة ستتحمل الجهد المفروض عليها حالياً مع احتمال قليل بالتناقص المتوقع أن يطرأ عليها.

ومن بين القضايا التي أرقت مضجع «ابن سعود» خلال أيام السلام الحقيقية في «الطائف» كانت أمور الاتصالات والخدمات الطبية وتأمين المياه، لكن ما كان واضحاً من البداية أن كافة هذه المشكلات شكلت عاملاً مشتركاً بالغ الأهمية لحكومة «ابن سعود» التي كانت فعلاً راغبة في تأمين سعادة الوطن وراحة زواره الذين يأتون إليه من كل حدب وصوب قد تكلف مثل هذه المخططات الدولة مبالغ طائلة في وقت كانت مؤثرات تعداد حجاج موسم عام ١٩٣١ (وخاصة الذين قدموا من المناطق الزراعية المنكوبة في الشرق مثل: جاوا والماليو والهند) تبشر بأن الدولة ستؤمن الاعتمادات

المالية الكافية. وربما كان الوضع خيّراً بظاهره لكنه كان بمثابة تحد لرجل معتاد على تقلبات الحظ. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يجد «ابن سعود» نفسه فيها بحاجة إلى المال بالرغم من أن الفترة التي كان ينفق فيها كل ثروته على أمل كبير في تعويضها.

كانت «اليمن» البلد الوحيد المستقل في شبه الجزيرة العربية، ذلك بالرغم من المطامع الإيطالية بمصيره وبالاحتمالات المرتبطة باقتصادياته، إضافة إلى القلق البريطاني المبهم من احتمال أن تقوم محمية «عدن» بتقاسم مناطق الحدود مع الدولة السعودية العتيدة. أما المناطق الأخرى الواقعة خلف حدود المملكة السعودية فكانت محمية باستحكامات تتخطى حدود الوصاية البريطانية، ولم تكن الحدود بين اليمن ومملكة «ابن سعود» واضحة، كما أن واحة «نجران» ومحافظة «أبو عريش» في جنوب عسير والتي كانت خاصعة لحكم الأتراك. هذا ولم يكن أي طرف منهما مسيطراً سيطرة فعلية على أي من هذين الموقعين، ولم يكن «ابن سعود» الشخص الذي سعى لترسيم الحدود في المناطق المحايدة التي لا تخضع لسلطة أي طرف، بل كان راضياً بأن يترك هذه المناطق على وضعها المستقل غير الخاضع لأي قانون كما كانت في الواقع حالة «تيماء» في المناطق الشمالية. كانت «تيماء» بدون أي شك واقعة ضمن حدود مملكته لكنها مع ذلك تركت على استقلاليتها الشاذة وغير السوية وتابعة لسيادة «ابن رمان» إلى أن تم اغتيال آخر أثريائها، عندها اضطر «ابن سعود» لممارسة كامل صلاحياته القانونية عليها عام ١٩٥٠.

وكما كان الوضع السابق عند الخلاف على ملكية واحدة «الخرمة» حين بادر الملك «حسين» بإجراء عسكري وفي ذهنه فكرة تثبيت الأمر الواقع فقد

قام الإمام «يحيى» بمحاولة شبيهة كان الهدف منها التوصل إلى تسوية قضايا النزاع مع الملك عبدالعزيز عن طريق دفع قواته إلى مناطق يطالب «ابن سعود» في حقه في حكمها. قام «يحيى» بذلك مستعيناً بدعم من عناصر معينة تعيش فيها وتفضل أن تكون تحت حكم زيدي ضعيف، على أن تكون مقربة من «ابن سعود» صاحب القبضة القوية. وفي بداية عام ١٩٣١ حدث الاشتباك الذي تعذر تجنبه بين حرس حدود الطرفين في قرية «عروة»، وبسبب انعدام الخرائط في ذلك الزمان لم يكن من السهل تحديد الجهة التي بادرت بالاعتداء.

هذا ووقع في شتاء عام ١٩٣١/ ١٩٣٢ حادث أكثر خطورة، إذ قامت قوة يمنية باحتلال «نجران» ودمرت ممتلكات كافة الأشخاص غير الموالين لها، فاضطر «ابن سعود» حيال الشكاوى التي تقدم بها هؤلاء الأشخاص أن يرد على تصرف القوات اليمنية بعنف، وعليه قاد «خالد بن لؤي» زعيم «الخرمة» في ربيع عام ١٩٣٢ قوة كبيرة من الجيش السعودي باتجاه ذلك الموقع، وتمكن بقليل من الجهد من مطاردة فلول الحامية اليمنية واحتل الواحة باسم «ابن سعود». وهكذا تمت تسوية مشكلة «نجران» بشكل نهائي، إلا أن المناطق الجبلية من «عسير» أصبحت الآن مسرح اشتباكات متقطعة تتطلبت جهداً أكبر من الجهد الذي بذلته القوات السعودية لطرد الحامية اليمنية من «نجران». وعليه أرسل «ابن سعود» وفداً إلى «صنعاء» لمناقشة المشكلة على أمل التوصل إلى حل ودي لكافة القضايا غير المبتوت فيها بين الطرفين، لكن الإمام «يحيى» لم يكن في مزاج يمكنه من الإقرار بالمطالب السعودية، وأسفرت سلسلة من المؤتمرات التي كانت تعقد أحياناً في

السعودية وأحياناً في اليمن إلى أن طالت المفاوضات وامتدت حتى ربيع عام ١٩٣٤ . وبعد أن نفد صبر «ابن سعود» مع جاره العنيد، وجد نفسه مضطراً لأن يصدر إنذاراً عززه بأن نشر قوات جيشه استعداداً لغزو اليمن، وحدد «ابن سعود» الخامس من نيسان عام ١٩٣٤ أن يكون موعداً أخيراً لقبول الإمام وإذعانه لشروطه، كما أمر الفيلقين السعوديين بعبور الحدود اليمنية عند حلول ذلك التاريخ ما لم تصلهم أوامر خلاف ذلك. هذا وتسببت عاصفة رملية هوجاء دامت لمدة ثلاثة أيام في قطع الاتصالات اللاسلكية بين القائدين، وبدأت القوات السعودية غزوها لليمن في الموعد المحدد.

كان مقرراً للأمير «سعود» الذي كان يقود قوة من رجال الصحراء التي كانت تعسكر في «أبها» و «نجران» أن يشن الهجوم عبر الممرات الجبلية في أعالي جبال اليمن، إلا أن تقدمه تعثر بسبب طبيعة تلك المنطقة وبسبب ضرورة مواكبة تقدمه ومسيره مع فرق التموين التي اضطرت في أكثر من مناسبة إلى إنزال عربات التموين بالحبال من أعالي الصخور الشاهقة.

لم تكن مقاومة القوات المعادية سوى مقاومة متقطعة وكانت متقطعة حتى عند «البوابة الحديدية» الحامية لمدخل قرية «البقيم» والواقعة على الطريق الرئيسية المؤدية إلى «صنعاء»، واجه الجيش السعودي الذي كان تحت قيادة الأمير «فيصل» مقاومة قوية عند خط الوادي الذي يربط ميناء «ميدي» بمعقل «العراضة»(*) الجبلي المنيع، لكن زخم الهجوم الذي قامت به القوات السعودية أسفر عن دحر قوات العدو باتجاه الشاطئ وباتجاه الجبال. وبعد تلك الحادثة كان سهلاً على القوات السعودية إنجاز ما تبقى عليها من

(*) العراضة من قرى بللسمر وبلحمر في إمارة بلاد عسير.

أعمال، واستمرت هذه القوات هذه القوات في إنجاز مهامها وبشكل سريع إلى أن تمكنت في النهاية من احتلال «اللحية» وبعدها احتلت «الحديدة». هذا وتمكنت القوات السعودية من الوصول حتى أطراف ساحل الطيف في جنوب الحديدة، وأصبح الأمير «فيصل» الآن في موقف قوي فكان له إما أن يستمر في تقدمه مروراً بمناطق «تهامة» حتى يصل إلى حدود «عدن» أو أن يشق طريقه عبر الجبال ويهاجم «صنعاء» بالذات. كما كان بإمكانه وبالفعل القيام بهذين الأمرين لأنه كان هناك احتمال ضعيف في أن تقوم قوات الإمام التي انهارت معنوياتها بمقاومة قواته مع استثناء واحد هو أن تبدي مقاومة أخيرة للدفاع عن العاصمة.

لم يسغرق احتلال «الحديدة» ومناطق «تهامة» الواقعة إلى الشمال منها سوى ثلاثة أسابيع، ومن المؤكد أن مدة مماثلة يمكن أن تضمن للقوات السعودية ضم «اليمن» إلي مملكة «ابن سعود»، لكن «ابن سعود» في تلك المرحلة كان قد اكتسب عادات تتميز بالحيطة الناجمة عن متابعة بقية أعماله، وعليه تلقى الأمير «فيصل» (وبشيء من القنوط) أوامر من والده تمنعه من التقدم وتجاوز حدود «الحديدة» مهما كانت الأسباب، وفي نفس الوقت وجهت أوامر إلى «سعود» تستوجب بقاءه في المواقع التي وصل إليها والتي سرعان ما اتفق الطرفان على أن تكون مناطق حدودية بين الطرفين. في تلك الأثناء كانت السفن الحربية البريطانية والإيطالية والفرنسية قد توجهت إلى ميناء «الحديدة» متذرعة بالعديد من الحجج، ولم تأتي لأن لديها نية تقديم التهنئة للقائد السعودي المنتصر على البسالة التي أبداها في تلك المعارك،

كما أنها لم تكن تنوي تسهيل مهمته كسلطة فاتحة منتصرة، بل المرجح عدم إظهار القوى العظمى لاهتمامها المفاجئ باليمن هو إشعار الملك من الاستمرار في سياسته، لكن كان بإمكانه أن يصر على بقاء قواته في المناطق التي فتحها إلى أن تتكشف نتيجة المحادثات التي كان مقرراً لها أن تعقد في «الطائف» تحت رعايته، ولتحقيق حدوث مثل هذه المحادثات تم الإعلان عن هدنة، كما أن الإمام «يحيى» رشح السيد «عبد الله بن الوزير» أحد الرسميين البارزين في السلطة اليمنية ليمثله في تلك المحادثات.

وعقد المؤتمر في الوقت المحدد له، وفي تلك الأثناء قامت لجنة مصالحة تمثل مختلف الدول العربية يرأسها «هاشم باشا الأتاسي» من سوريا، و«محمد علي علوبة باشا» من مصر بزيارة «الطائف» للإشراف على سير أمور المؤتمر(*). وبالرغم من العقبة التي حدثت في اللحظة الأخيرة والتي كان سببها رفض الإمام في إقرار الاتفاق الذي تم التوصل إليه عن طريق الأطراف المتفاوضة، فقد تم التوصل إلى اتفاقية الطائف حسب ما جاء في أصول موادها، وتمت الإشارة بإجلاء القوات عن كافة الأراضي التي احتلتها، ويفترض أنه تم الاتفاق على ذلك الانسحاب مقابل دفع تعويضات عن الخسائر والأضرار التي قيل بأنها وصلت إلى مائة ألف قطعة ذهبية كان المفروض أن يتسلمها «ابن سعود» لقاء خسائره عن تكاليف تلك الحملة.

(*) نضم لجنة المصالحة الحاج محمد ابن الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين، والأمير شكيب ارسلان رئيس الوفد السوري في اوربا، انظر عبدالله العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، جـ٢، ص٣٨٦.

وتم إعداد ترتيبات لاجتماع «الهيئة المشتركة للحدود» والتي كان من المفروض أن تعين الخط الفاصل للحدود، وفي العام التالي تم إنجاز هذه المهمة كما ينبغي، كما تم في عام ١٩٣٦ رسم خريطة للخط الحدودي الفاصل ومنذ ذلك الحين لم تقع أية أحداث حدودية تعجز السلطات الحدودية عن تسويتها على أرض الواقع.

وهكذا تم التخلص من مسببات التوتر والخلاف بين البلدين والتزم الطرفان وعلى مدى السنوات التالية بمضمون مسمى تلك الاتفاقية التي عرفت رسمياً باسم «اتفاقية الطائف» عام ١٩٣٦م. هذا ولم يعكر الحادث المؤسف الذي حدث خلال موسم حج العام التالي صفو تلك الاتفاقية. وكان الحادث أن قام ثلاثة حجاج يمانيين - بسابق تخطيط وإصرار - بمحاولة طعن «ابن سعود» عندما كان يقوم بالطواف حول الكعبة. ويمكن القول هنا إن فعلتهم تلك جاءت إما بسبب تعصب ديني أعمى أو بشكل مأجور نيابة عن شخص مجهول لم يصب الملك بجراح خطيرة لكن الأمير «سعود» حماه من الطعنات بجسده وأصيب بجراح عدة في ظهره وكتفيه عاناها لوقت طويل، وقام حراس الملك وعلى الفور بإطلاق النار على هؤلاء الثلاثة وأردوهم قتلى، وبعد ذلك الحادث تم توخي الحيطة لحماية أفراد السلطة من مثل تلك المخاطر المأجورة.

وقبل أن نعود إلى الوضع الذي وجد الملك نفسه حياله عام ١٩٣٠، لعله من الأنسب هناك الإشارة إلى أن الأمير سعود كان قد عين رسمياً عام ١٩٣٣ ولياً للعهد، وكان الناس قد بايعوه رسمياً ولياً للعهد وملكا على البلاد في المستقبل وضع ذلك الإعلان حداً لكافة التكهنات الخاصة بأمر من

سيتولى الحكم لاحقاً. وأصدر الملك في العام التالي مرسوماً ملكياً غير بموجبه اسم البلاد وأصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم «المملكة العربية السعودية». ولم يكن هذا التطور مجرد شيء اسمي بل عكس إرادة الملك في أن يضع كافة أرجاء المملكة تحت نظام إداري متجانس، خاصة في النواحي التي تتعلق بالأمور المالية وأمور الأشراف على عائدات الدولة، والتي كانت حتى ذلك التاريخ تتم بطريقة تقليدية. حدث من الصلاحيات والنشاطات التي كان يقوم بها الرسميون الحكوميون بشكل مستقل الأمر الذي جعل بعضهم يستاء من ذلك. والأمر الآخر الذي استاءوا منه أكثر من ذلك كان موضوع تدقيق دفاتر حساباتهم، وهكذا كان النظام القديم يخضع تدريجياً وبشكل ثابت للنظام الجديد إلا أن «ابن سعود» كان على قدر من الذكاء ودراية في مراعاة شعور الآخرين، والتغاضي عن بعض الأمور.

وعلى العموم فقد اتسم النظام القديم بالبساطة وكان من محاسنه العمل بشكل مكشوف لا يتيح مجالاً للمخالفات، وكان الشخص بصفته حاكماً على إقليم ما مسؤولاً عن جمع عائدات ذلك الإقليم وتحويل نسبة محددة منها إلى الخزينة المركزية، وما تبقى منها كان يغطي راتبه والنفقات الأخرى المستحقة له والتي كان يصرفها على تكاليف الأمور الأخرى المتعلقة بإدارته لذلك الإقليم.

ومن ناحية أخرى كان النظام الإداري التركي مشهوراً برداءته وعدم فعاليته وبكونه فاسداً حتى الصميم، ولا يمكن القول إن العرب تخلصوا من كل عيوب ذلك النظام. وبالرغم من ذلك ونظراً للدور الجديد الذي كان من الممكن للمملكة العربية السعودية أن تلعبه في المجالات الاقتصادية والدولية،

فكان لا بد أن تعدل آلية العمل الإداري للتوافق مع احتياجات العالم الحديث.

علاوة على ذلك كان من الواضح أنه من أجل تأمين الكادر الوظيفي الذي يمكن أن يدير شؤون هذه الآلية الجديدة، كان لا بد من إحداث بعض التعديلات على النظام التعليمي الذي أصبح حتى يومنا هذا قادراً على تأمين احتياجات البلاد. وكان لا بد من خوض معركة التضارب بين النظام الجديد والنظام القديم على أرضية حساسة وتجمع بين الدين والحضارة، فحسب المفهوم القديم كان المفروض بالتعليم أن يعتني حصراً بالدراسات الإنسانية وبالتحديد الدراسات الثقافية الإنسانية الخاصة بالعرب والتي يحتل الدين فيها مركز الصدارة والذي تتشعب منه مجالات أخرى خاصة بالفكر الإنساني وفق ما هو وارد في القرآن وفي السنة النبوية، ووفق كل ما تمكن المفسرون من الاجتهاد على الصعيد الأدبي وما طوره المؤرخون والجغرافيون والفلاسفة والعلماء... إلخ.

كما تضمن دراسة مضامين الشعر الجاهلي الذي صدر عن شعراء العصر الذهبي العربي. ومما لا يقبل الشك حتى وللحظة واحدة هو أن الشخص المتبحر في هذا الكم الكبير من الأدب العربي والمتفهم لمضامينه، لجدير بأن ينظر إليه على أنه رجل على قدر كبير من الثقافة حتى لو أنه لا يعرف كلمة واحدة من أي لغة أجنبية ولم يسبق له وأن درس أعمال أجنبية مترجمة. فإن مثل هذا الشخص هو خبير في مجال تخصصه وينظر إليه العرب على أنه «عالم» أو «طالب علم» حتى وإن لم يكن لديه معرفة تقنية من أي نوع. كان تاريخ «نجد» على مدى الخمسة قرون الماضية مرصع بأسماء المئات من هؤلاء

الرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم والتعليم وتأليف الكتب . ومن ناحية أخرى يمكن القول إنه من الواضح أن كادر الخدمات المدنية يشتمل على مثل هؤلاء الرجال وإن تعبير «التمدن» في الصحراء الحربية ليدل على نطاق واسع على مفهوم الثقافة المادية الدنيوية للعالم العربي والتي تهدف إلى إعداد النشء الجديد ليأخذ مكانته في الحياة المعاصرة القاسية والمتقلبة .

إن ما هو مؤكد هو أن العرب في الجزيرة العربية لم يشعروا بضرورة التعليم المعاصر إلا بعد فتح مناطق الحجاز ، كما أنهم تساءلوا وبشكل جاد عن مدى شرعية الثقافة الحديثة من منطلق إنها تسعى إلى تحويل الناس إلى الهدف الرئيسي في الحياة ، بل إنها تمثل امتداداً للقيم العليا للفكر الإسلامي والذي يتجلى في إعداد المرء لنفسه لملاقات ربه بعد الموت . أبرز الحاجة الماسة إلى تعلم الأمور الدنيوية التي سرعان ما تم الاعتراف بها على أنها نتيجة متممة لا بد منهالإيجاد أرضية متكاملة في استيعاب الدراسات التقليدية ، ولكن من سوء الحظ كان لا بد من تحصيل هذه العلوم الدنيوية من البلاد الأجنبية نظراً لعدم توافر الإمكانات المناسبة في مناطق الجزيرة العربية . شجعت الدولة هذا التوجه عن طريق توفير المنح الدراسية وتقديم المنح المالية للمبتعثين ليتمكنوا من مواصلة التحصيل العلمي في المدارس السورية والمصرية في المقام الأول ، وبعدها الالتحاق بالمهاهد التربوية في بريطانية وفرنسا وألمانيا وبلدان أخرى بما فيها أمريكا . استمر العمل على ذلك المنهج منذ أيام الحرب العالمية الثانية .

كان الشيخ «حافظ وهبة» أول شخص يعينه الملك في وظيفة مدير التعليم الذي شرع في تحقيق بدايات سليمة في هذا المجال ، كما أنه بذل جهوداً

لإدخال النظام التعليمي الحديث في مدارس المناطق الرئيسية في المملكة العربية السعودية، وذلك عن طريق تأمين الأبنية المدرسية وجلب المدرسين الأكفاء من مختلف بلدان الشرق الأوسط. كانت هناك مدرسة قائمة في قصر الملك بالرياض للتدريس وكان تشرف - ومنذ سنوات طوال - على تدريس الأمراء الشباب، وقد قام الأمير «سعود» الذي أصبح في تلك المرحلة ملكاً بخطوة يحتذى بها، إذ بنى مدرسة بالقرب من قصره بالرياض وكانت نموذجاً مطابقاً وإلى حد ما للمدارس العامة البريطانية. وجلب لتدريسهم أساتذة اختارهم من مصر. كذلك قام أخو الملك الأمير «عبد الله» ببناء مدرسة مماثلة في الرياض ليدرس فيها أبناء أسرته، كما قام الأمير «فيصل» ببناء مدرسة في «الطائف» ليدرس فيها أبنائه وأقران أبنائه من أبناء تلك البلدة. ومما لا شك فيه أن تعاليم العلوم الحديثة آخذة في الازدياد في المملكة، كما أن عدد المنح الدراسية التي تؤمنها الحكومة تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ منحة سنوية، وبلغ عدد المنح الدراسية في عام ١٩٣٥ حوالي ٧٠٥ منحة اشتملت على ٣٨٨ منحة إلى مصر و ٢٥٩ منحة إلى سوريا و ٤٦ منحة إلى أمريكا وبلدان أخرى بما فيها بريطاني.

وعندما طلب من «حافظ وهبة» أن يشغل منصب السفير في البعثة السورية في لندن عام ١٩٣٠، خلفه في منصبه كمدير للتعليم الشيخ «الطاهر الدباغ» الذي بقي في ذلك المنصب لبضع سنوات انتقل ذلك المنصب من بعده إلى الشيخ «محمد بن مانع» وهو شخصية بارزة وذات عقلية متنورة من بين مشايخ مكة، علماً بأنه أصلاً من مناطق «نجد». ويمكن أن نحكم على الوضع التعليمي في المملكة وفقاً لإحصائية عام

١٩٥٢/ ١٩٥٣ التي تشير إلى أن عدد المدارس في القرى بلغ ١٥٩ مدرسة يعمل فيها ٢٢١ مدرساً وتخدم عشرة آلاف وثلاثمائة وتلميذ واحد (١٠٣٠١) أي بمعدل ٦٥ طالباً في المدرسة الواحدة وبمعدل ٤٦ طالباً في الفصل الواحد، وبلغ عدد المدارس الابتدائية مائة وسبعين مدرسة يعمل فيها ألف ومائتان وأربعون مدرساً ويدرس فيها ٣٠٨٤٦ طالباً أي بنسبة ١٨١ طالباً في المدرسة الواحدة وبمعدل ٢٥ طالباً في الفصل الواحد، هذا كما كان يوجد أحد عشر مدرسة خاصة يدرس فيها ٣٥٦٨ طالباً ويعمل بها ١٤٩ مدرساً (بمعدل ٣٢٥ طالباً في المدرسة الواحدة و٢٤ طالباً في الفصل الواحد). وبلغ عدد المدارس الحكومية الثانوية أحد عشر مدرسة يعمل بها مائة وخمسون مدرساً ويدرس فيها ١١٠٥٠ (بمعدل ما يزيد على ألف طالب في المدرسة الواحدة، وبمعدل ٣٧ طالباً في الفصل الواحد). وبهذا الصدد نشير إلى أنه كانت هناك ثلاث مدارس ثانوية خاصة يدرس فيها ٤٣٨ طالباً ويعمل بها ٢٦ مدرسا (بمعدل ١٤٦ طالب للمدرسة الواحدة وبمعدل سبعة عشر طالبا في الفصل الواحد) وكان هناك تصنيفات متعددة من الدينية بلغ تعدادها ثلاثة عشر معهداً يعمل بها مائة مدرس ويدرس فيها قرابة ألف ومائة طالب، وكان هناك أيضاً ثمانية معاهد بها خمسة عشر مدرساً يشرفون على إعداد ٢٦٣ طالباً سيتخرجون ليعملوا في حقل التعليم، كما كانت هناك ستة معاهد مسائية يدرس فيها أربعون مدرساً أصول تدريس اللغة الإنجليزية، علاوة على هذا كانت هناك مجموعة من المدارس المختلفة التابعة لشركة «أرامكو» في الظهران تقدم دورس في التدريبات التقنية لعدد كبير من موظفيها، إضافة إلى أنها تقدم مواد عامة في المحاسبة والأعمال

الإدارية بمعدل بلغ ١٣٧٤ طالباً في الشهر. فمن وجهة النظر التعليمية فإن الوضع الذي وصلت إليه المملكة الآن يبين جانباً مغايراً ومتميزاً بالمقارنة مع الوضع قبل عشرين عاماً.

لكن هذه الإنجازات كلفت الكثير من المال، ويجب علينا الآن أن نرجع إلى المرحلة التي تركنا فيها «ابن سعود» يتساءل في «الطائف» عن الكيفية التي يمكن للأموال الزهيدة المتوافرة لديه أن تسد الاحتياجات الملحة الراهنة، ناهيك عن خطط التطوير وإعادة البناء التي كان «ابن سعود» أدبياً ملتزماً بها خاصة في الأماكن المقدمة.

وكما شاهدنا سابقاً، كان عليه أن ينتظر مدة أربع سنوات ليحصل على التعويضات المتواضعة التي جاءته بسبب حرب اليمن وهي الحرب التي عمل كل جهده لتفاديها. لكن عند ذلك الوقت كان «ابن سعود» قد تلقى تقريراً غير متوقع لم يكن بالحسبان، حدث ذلك أثناء مراجعته لميزانيته في الطائف. كان الوضع المالي وضعاً ميؤوساً منه. وبالرغم من حملات الصيد التي كان يقوم بها، وبالرغم من العديد من المشاغل الأخرى، إلاأن الكآبة كانت واضحة على محيا الملك.

وفي الوقت نفسه كانت تدور أحاديث بين الناس عامة حتى في الإدارة المسؤولة، عن وجود كميات هائلة من الثروة المعدنية في البلاد مدفونة في الأرض قيد الاستكشاف، أو على الأقل لم يتم استخراجها. وكان الاعتراض الرئيسي على هذا الاستخراج هو أن أي نشاط من هذا النوع يفترض التعاون مع الأجانب الذين هم وحدهم يمتلكون الخبرة الضرورية ورأس المال اللازم لتحقيق ذلك الغرض، سبق لـ «ابن سعود» نفسه أن مر

بتجربة من هذا النوع، لكن قلما يثنيه الفشل الذريع الذي لحقه من جرائها عن محاولة القيام بواحدة أخرى.

منح «ابن سعود» عام ١٩٢٣ وبتشجيع من قبل السير «بيرسي كوكس» امتيازاً للنقابة العامة الشرقية في لندن Eastern General Syndicate if London مع شروط سهلة للتنقيب على النفط في كافة مناطق المنطقة الشرقية، وكان الشرط الوحيد الذي فرضه على تلك النقابة هو أنه أصر على أن تدفع الشركة وبشكل مقدم أجرة سنوية مقدارها ألفي جنيه استرليني، وأن تستمر في جهودها الحثيثة إما للتوصل إلى استخراج النفط أو التأكد من عدم وجوده. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السير «بيرسي كوكس» كان يتمنى لو أن شركة النفط البريطانية الفارسية Anglo-Persian Oil Company . تكون صاحبة ذلك الامتياز، لكن «ابن سعود» كان غير راغب أن يعطي ذلك الامتياز إلى شركة حكومية خشية احتمال حدوث مضاعفات سياسية لذلك الأمر. هذا وحصلت تلك النقابة البريطانية التي كان الميجر «فرانك هولمز» ممثلاً لها على امتياز مماثل للتنقيب عن النفط في الجزر البحرينية لكنها حولت ذلك الامتياز إلى شركة مكسيكية والتي حولتها بدورها ولأسباب فنية إلى نفط من ولاية كاليفورنيا الأمريكية "Standard Oil Company" ، ويبدو أن الشركة الأمريكية حصلت على هذا الامتياز بعد أن عرضته الشركة المكسيكية على الشركة البريطانية الفارسية، والتي بدورها رفضته. وعند هذا القدر من تطور الأحداث كان كل ما يعني «ابن سعود» أنه حصل على أربعة آلاف جنيه بريطاني كأجرة مقدمة عن سنتين. وبعد مضي فصلين من عمل ناجح قام به خبراء نفط جيولوجيون بلجيكيون قررت النقابة البريطانية عدم القيام بالمزيد من أعمال التنقيب، وعليه قام «ابن سعود» عام ١٩٢٨

بإلغاء ذلك الامتياز بعد أن وجه إشعاراً حسب الأصول إلى الشركة صاحبة الامتياز.

على أي حال ووسط ظروف عام ١٩٣٠ التي تغيرت إلى حد كبير، بدا من الممكن أن تكون بعض شركات النفط مستعدة لدفع مبالغ كبيرة مقابل حصولها على الحق في معاودة التنقيب عن النفط في مناطق شرقي الجزيرة العربية، خاصة وأنه تم العثور على النفط في أحد الجزر البحرينية. كانت حاجة الملك الملحة في ذلك الوقت هي الحصول على أموال يستطيع من خلالها مجابهة العاصفة الاقتصادية ومواجهتها إلى أن يتمكن من إعادة ترتيبات الحج على شكل يعود عليه بالكسب المادي الأكبر. وبالتأكيد لم يكن يصبو في تلك المرحلة إلى أكثر من ذلك، كما أنه لم يكن متفائلاً بخصوص عائدات مثل ذلك المشروع. نظر وزير ماليته ذو الخيال الواسع إلى مؤشرات المستقبل على أنها وردية زاهرة، وعليه وافق الملك (وهو في مزاج أكثر من الأحوال العادية) على أن يقوم بالخطوة الأولى باتجاه الغاية المنشودة. ومن غرائب الصدف أن السيد «تشارلز كرين» المليونير الأمريكي كان في «القاهرة» في ذلك الوقت. وكان السيد «كرين» قد أبدى قبل عقد من الزمن تعاطفه مع الغرب بخصوص خطة الحلفاء الرامية إلى وضع «سوريا» رغماً عن إرادتها تحت الانتداب الفرنسي. هذا وكان السيد «كرين» أيضاً قد قام مؤخراً بزيارة إلى «اليمن» وقدم إلى حكومة الإمام «يحيى» مساعدات سخية تتعلق ببناء الطرق وإدخال التحسينات على الموانئ هناك، كما سبق له في عام ١٩٢٦ أن قام بزيارة إلى «جدة» للتعرف على «ابن سعود» الذي كان في ذلك الوقت في المدينة ولم يتمكن من مقابلته. إن ما

كان شبه مؤكد هو أن السيد «كرين» كان بإمكانه أن يعود إلى «جدة» إذا حصل على تأكيدات من أن الملك سيكون في استقباله هناك، وقد وافق الملك على أن يتم إطلاع السيد «كرين» بأن «ابن سعود» سيكون في «جدة» لمدة أربعة عشر يوماً اعتباراً من بدء موسم حج عام ١٩٣١ ، والذي تصادف حدوثه في ذلك العام في آخر يوم من شهر نيسان.

وحسب الأصول تم اللقاء بين الاثنين في جو ودي للغاية، وتمت على مدى سلسلة من اللقاءات مناقشة الاحتمالات الاقتصادية للمملكة العربية السعودية، ونتيجة لتلك المحادثات عرض السيد «كرين» على الملك أن يستفيد من خدمات السيد «كارل إس توتشيل» ولمدة ستة أشهر دون أن يدفع أجراً له. والجدير بالذكر أن «كارل» كان مهندساً كفوءًا متخصصاً في مناجم الثروات الطبيعية، وسبق له أن عمل مع السيد «كرين» في اليمن وأثيوبيا (الحبشة).

وصل السيد «توتشيل» إلى «جدة» خلال صيف عام ١٩٣١ ، وفي ربيع عام ١٩٣٢ توصل إلى نتائج أوردها في تقريره الذي قال فيه وبثقة تامة بأن منطقة الظهران تحتوي على النفط وأن الكميات الموجودة جديرة بالاستخراج، وقال أيضاً إن الأوائل استنفدوا كافة ثروات منجم «مهد الذهب» القديم المهجور والذي يقع في منتصف الطريق بين «جدة» و«المدينة». هذا وتناول تقريره أيضاً مناطق أخرى تحدث عنها بنفس صيغة التفاؤل، وعاد السيد «توتشيل» إلى أمريكا على أمل أن يثير اهتمام مختلف الشركات الأمريكية في التنقيب عن الثروات المعدنية والطبيعية الموجودة في الصحراء العربية. وبعد ذلك عاد السيد «توتشيل» إلى السعودية وبقي فيها

لعدة سنوات عمل خلالها في عدة مشاريع عائدة للدولة، وبقي منذ ذلك الحين يتردد على المملكة في زيارات متكررة.

حظي تقرير السيد «توتشيل» باهتمام الشركة الأمريكية للنفط في ولاية كاليفورنيا وهي شركة Standard Oil Company (S.O.C)، وبعد أن أجرت استفسارات أولية تعلقت بمدى الاستعداد المبدئي للحكومة السعودية في منحها امتيازاً للتنقيب عن النفط، أرسلت تلك الشركة ممثلها السيد «لويد هاملتون» إلى السعودية، ورافقه في تلك الزيارة السيد «توتشيل» بصفة مستشار فني، وكلفت الشركة السيد «هاملتون» بإجراء مفاوضات مع الحكومة السعودية. تم الإعلان عن نية الحكومة السعودية (لكن مع شيء من التحفظ) في مناقشة أمر إعطاء امتياز ما للتنقيب عن أماكن الثروات المعدنية في المملكة، وسافر السيد «هاملتون» إلى «جدة» وتبعه إلى هناك السيد «لونغ ريك» بصفته ممثلاً عن شركة الزيت العراقيةIraq Petroleum Company كما توجه إلى هناك الميجر «فرانك هولمز» مندوباً عن شركة"Eastern General Syndicate" والتي كما سبق وأشرنا كانت تنظر إلى الامتياز الخاص بالتنقيب عن النفط على أنه مجرد وأمر بسيط، وكان الشرط الرئيسي الذي فرضته الحكومة السعودية بخصوص المفاوضات الجديدة هو أنه يتوجب على الجهة التي تفوز بذلك التنافس أن تدفع بالذهب - وعند توقيع الاتفاق - مبلغاً وقدره مائة ألف جنيه استرليني، كما اشترطت أيضاً أن يتم تقديم نشرات أولية وبشكل مستمر عن حالة تلك المشاريع. وتركزت القضية برمتها على موضوع المبلغ المتوجب دفعه كدفعة أولية وعلى انسحاب شركة"Eastern General Syndicate"، وكذلك رفض شركة الزيت العراقية (IPC) في أن

ترفع قيمة المناقصة التي تقدمت بها لتصل إلى مائة ألف جنيه استرليني. تركت هذه الأمور المجال مفتوحاً أمام الشركة الأمريكية (S.O.C) لتنفرد بالعرض وأن تدفع بالذهب مبلغ خمسين ألف جنيه استرليني، وتبع ذلك الكثير من المحادثات المتعلقة بتفاصيل الموضوع وبالمفاضلة بين الأسعار، إلى أن تم في الثالث من آيار عام ١٩٣٣ التوقيع على «الامتياز» ووقع السيد «عبد الله السليمان» وزير المالية عن الجانب السعودي، ووقع عن الجانب الأمريكي السيد «لويد هاملتون»، ولم يمضي وقت طويل على هذا الاتفاق حتى قام السيد «توتشيل» نيابة عن شركة أمريكية بريطانية بإجراء محادثات مع الحكومة السعودية للحصول على امتياز للتنقيب عن مناجم الذهب في الصحراء العربية.

قللت احتمالات وجود الذهب من مدى جدوى استخراج الذهب في منجم «مهد الذهب» القديم والذي سبق أن استنفدت طاقته الإنتاجية عام ١٩٥٣. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك المنجم ساهم وبشكل متواضع في إثراء عائدات الدولة السعودية التي في النهاية تقاسمت مع الشركة الأجنبية الربح الصافي والذي وصل إلى عشرة ملايين دولار. وبعد بضع سنوات كانت التقارير المتعلقة بمنجم «ظلم» بالقرب من «الموية» تقارير إيجابية، فلذلك أنفقت الحكومة مبالغ طائلة لتطويره، لكن ذهبت تلك المبالغ سدى إذ بلغ إجمالي إنتاج المشروع ما يعادل ٩٠٠ جنيه إنجليزي ذهبي (أي ١٨٠ أونصة ذهبية أو ما يعادل ألف ريال) ذلك مقابل النفقات الفعلية التي وصلت إلى حوالي ثلاثين مليون ريال. كانت السلسلة الجبلية في مناطق الحجاز إضافة إلى سفوحها على كلا الجانبين مغطاة بالمناجم المحفورة منذ

زمن قديم، لكن يبدو أن عمال المناجم في زمن سليمان -عليه السلام- وكذلك الخلفاء العباسيون قد أخذوا كل قطعة معدينة نفيسة ولم يتركوا أي شيء للأجيال اللاحقة. وتجدر الإشارة هنا أن الذهب الذي تم استخراجه من منجم «مهد الذهب» كان من البقايا التي تم الوصول إليها بفعل الوسائل الحديثة التي استخرجتها من مناطق عميقة لم يكن بمقدور عمال المناجم الأوائل أن يصلوا إليها.

أما قصة النفط فكانت مختلفة تماماً، وهي قصة رومانسية حقيقية، وذلك من حيث تطور أحداثها المذهلة بدءاً من خطوات العمل الأولى التي قام بها الخبراء الجيولوجيون الأمريكيون في مناطق الصحراء حتى تم اكتشاف واستحراج النفط من أعماق سحيقة في باطن الأرض. ولسرد كامل القصة نحتاج إلى العديد من المجلدات، لكن يمكن تلخيص القصة من هذه النقطة فصاعداً على الشكل التالي: طلب «ابن سعود» ماء فمنت عليه السماء بالحليب وحاءته الخيرات متتالية على طبق فخم مهيب. كان الملك قنوعاً بذلك الكسب المفاجئ ولم يكن ليبالغ بأفكاره المتعلقة بتطلعاته نحو المستقبل، إلا أن الشركة الأجنبية كان تصبو إلى مكاسب أكبر واستمرت في أعمالها للبحث عن الكنز المدفون. وفي عام ١٩٣٥ تقرر وجود النفط في منطقة الظهران بكميات تجارية، كما أن أحد الآبار تكشف عن تدفق كميات ملحوظة الأمر الذي رفع من معنويات وتفاؤل الناس عامة. وبدأ إنتاج النفط الفعلي عام ١٩٣٨، وفي العام التالي وصل حجم الإنتاج السنوي إلى حوالي مليون طن سنوياً، الأمر الذي يعني تحقيق عائدات مالية للدولة تصل إلى مائتي ألف من العملة الذهبية (لنقل ما يزيد أو ما يقل قليلاً عن مليون

جنيه استرليني حسب معدل السعر في السوق الحرة)، لكن تلك الثروة التي كانت خيرة جداً لم تدم طويلاً. فمع اندلاع الحرب تطلبت سياسة الحلفاء تجميد إنتاج النفط عند المستوى الذي كان قد وصل إليه، كما أن ثمة ضرر آخر ألحق بالمصالح السعودية بسبب توقف قدوم الحجاج إلى المملكة ونجم ذلك عن دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الأعداء، والحقيقة أن أمريكا وبريطانيا قدمتا مساعدات سخية إلى حكومة ابن سعود لتعدل خسارة الميزان التجاري الناجمة عن الاستراتيجية التي نهجها الحلفاء، ناهيك عن المساعدات الفنية التي حصلت عليها حكومة «ابن سعود» لتطوير المشاريع المختلفة ذات الفائدة والمردود الدائمين للمملكة، إضافة إلى أن رفاهية مستوى المعيشة في السعودية في زمن الحرب كانت أفضل مما هي عليه في أي بلد آخر من العالم باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية.

على أي حال استاءت المملك العربية السعودية - وهو أمر طبيعي - من تقليص مصادرها الطبيعية من طرف واحد، لكن انسحاب إيطاليا من الحرب واحتواء العالم الغربي ألمانيا بشكل مؤثر في عام ١٩٤٤ ساهمت جميعها في إعادة تدفق الحجاج وأزالت الحظر المفروض على إنتاج النفط. وجاءت عاقبة الأمور على نحو رائع، فازداد إنتاج النفط بسرعة فائقة إلى أن وصل في عام ١٩٥٢ إلى أربعين مليون طن، في حين بلغ إنتاجه خلال سنوات الحرب مليون طن فقط. وعلى أساس الامتياز الممنوح فيعني هذا القدر من الإنتاج تحقيق دخل يقدر بأربعين مليون جنيه استرليني، إلا أن إدخال بند الضريبة على الدخل إضافة إلى الاتفاق الذي تمت مناقشته مؤخراً والقاضي بتقسيم عائدات النفط بين الحكومة والشركة المنتجة على مبدأ خمسين بالمائة

لكل فريق، جميعها ضاعفت المبلغ الذي يمكن للحكومة أن تحصل عليه. ومن المحتمل أن يتم إنتاج النفط على مثل هذا المعدل في المستقبل المنظور، لكن مع أخذ موقف العديد من الدول الأخرى بعين الاعتبار[١].

والنقطة الهامة الواجب إداركها هي معرفة قدرة استيعاب السوق العالمية للنفط، ومعرفة الوضع المالي المتشابك والمعقد في دول العالم. جرد ذلك الوضع نفط المملكة من ميزة كونه سلعة تتم المتاجرة فيها بالدولار الأمريكي. علاوة على ذلك تواكبت التطورات التي حدثت في الكويت والعراق على التطورات التي حدث في المملكة العربية السعردية. والجدير بالذكر أن الكويت تعتبر منتج رائع بالمقارنة مع حجمها، وكانت إيران في تلك الفترة خارج نطاق السوق النفطية، لكن سرعان ما أصبحت بلداً مصدراً للنفط وعلى نطاق واسع، ودخلت أيضاً مجال التنافس على الأسواق العالمية. وظهرت قطر كمصدر للنفط في حين حافظت البحرين على مكانتها كمنتج ومكرر للنفط.

امتد العمر بـ «ابن سعود» العظيم وعاش ليرى المبلغ الزهيد الذي دخل إلى خزينته خلال عامه الأول في الرياض (١٩٠٢ - ١٩١٢) وهو يتضاعف. وصل المبلغ في ذلك العام إلى خمسين ألف جنيه لكن تضاعف ليصل إلى مائة ألف جنيه بعد أن فتح «ابن سعود» إقليم «الأحساء»، وذلك على مدى الفترة بين ١٩١٣ و ١٩٢٥. واستمر ذلك المبلغ في الازدياد بشكل ثابت إلى أن وصل إلى معدل أربعة إلى خمسة ملايين جنيه إثر ضم

(١) دلت الأرقام التي نشرت عام ١٩٥٣ على إنتاج إجمالي بلغ (٤١) مليون طن من النفط الخام، وتدل نتائج الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٥٤ على معدل مستوى يصل لحوالي (٤٥) مليون طن.

لمناطق الحجاز على مدى الفترة ما بين ١٩٢٦ - ١٩٣٧ . ازداد هذا المبلغ أيضاً بحوالي مليون جنيه مع بدايات العائدات النفطية على مدى الفترة ما بين ١٩٣٨ - ١٩٤٤ ، ولا يشمل ذلك الرقم المعونات المالية التي قدمتها أمريكا وبريطانيا إلى المملكة أثناء الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك الحين فصاعداً تسارع تزايد الدخل بشكل منقطع، وكانت نتيجة ذلك التسارع أن نعم «ابن سعود» في السنة الأخيرة من عهده بمشاهدة أن العائدات التي بدأ بها حياته كحاكم مطلق على الصحراء العربية قد تضاعفت بمقدار ألفي ضعف إذ وصلت إلى مبلغ مرموق بلغ مائة مليون جنيه استرليني في العام الواحد[1] .

لم يكن دخل «ابن سعود» على أي صعيد كاف ليؤمن احتياجاته والتزاماته كحاكم على البلاد، لكنه كان دائماً ينظر إلى العقد الأول من حكمه على أنه أفضل سنوات عمره. وفي السنوات الأخيرة من عمره تضافر وهن جسده مع حرصه على خيرات البلاد ليثقلا كاهله الذي طالما حمل عبء المسؤولية بهمة ونشاط عبر مسيرة سنوات العسر والضيق. كان التحول السياسي والاقتصادي الذي شهدته الصحراء العربية على مدى نصف قرن بمثابة إنجاز حري بأي شخص أن يفتخر به، لكن «ابن سعود» لم يكن ليحب الأبهة والخيلاء وضروب الرسميات الفارغة. جعلت تلك الميزات منه إنساناً كامل الصفات و استثنته من بين أقرانه ورجال عصره. ولم يكن ليحب الأساليب الجديدة التي توجب عليه أن يستسلم لها كثمناً للنجاح الذي حققه.

---

(١) دلت الميزانية الأولى المعلن عنها على عائدات تقريبية بلغت عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ واحد وعشرين مليون جنيه ونصف المليون، بما فيها أربعة عشر مليون جنيه من عائدات النفط، وبلغت تقديرات الميزانية لعام ١٩٥١ تسعة وأربعون مليون جنيه منها ثمانية عشر مليون من عائدات النفط وستة عشر مليون من ضريبة الدخل، ووصل إجمالي الدخل لعام ١٩٥٢ مائة مليون جنيه . . . ومنذ ذلك التاريخ لم تصدر أية أرقام خاصة بالميزانية .

كان العالم يتجه ببطء وبإصرار نحو حرب عالمية ثانية. وشهدت مدينة الطائف محادثات تتعلق بإبرام اتفاقية صداقة مع «ألمانيا»، وكلف السفير الألماني في بغداد ليكون سفيراً لدى ديوان «ابن سعود»، وكانت مسودة المعاهدات الأخرى مع إيطاليا وفرنسا قد وصلت إلى مراحل شبه نهائية على أمل أن يتم التوقيع النهائي عليهما في روما وباريس خلال الجولة التي كان من المقرر أن يقوم بها الأمير «فيصل» إلى أوروبا عام ١٩٣١. وكانت تلك هي ثالث زيارة يقوم بها الأمير «فيصل» إلى دول العالم الغربي. شملت تلك الزيارة إلى كل من بولونيا والاتحاد السوفيتي وتركيا، وقد سبق لبعثة بولونية برئاسة الكونت «رازنبسكي» وعضوية مفتي تلك الديار المسلمة أن زارت «جدة» قبل زيارة الأمير «فيصل» إليها. وفي شهر أيلول توجه «ابن سعود» بنفسه من الطائف إلى جدة ليتفقد باخرة بولونية على متنها حمولة من الأسلحة كانت قد أرسلت إليه من قبل حكومة بولونيا، وكان ذلك واحد من الإجراءات التي تأثرت بقرار حكومة «ابن سعود» الخاص بتأجيل دفع الديون المستحقة على الدولة. هذا وأسفرت الحرب والتغييرات المترتبة عليه في الوضع البولوني عن توقف الدفعات المالية، وبقي القسم الأعظم من الديون غير مستوفي. وبذلت روسيا نشاطاً ملحوظاً خلال بداية الثلاثينيات استهدفت منه تحقيق بعض الأمور التجارية مع الدول العربية وبالتحديد مع السعودية واليمن. وعليه بادرت الحكومة السوفيتية بإنقاذ الوضع المالي المتدني لحكومة «ابن سعود» بأن أرسلت شحنة من الوقود والبضائع الأخرى، وعندما عرضت تلك البضائع في السوق بأسعار

مغرية، ورغم ذلك وجدت الحكومة السعودية نفسها مضطرة لاتخاذ إجراءات مستقبلية تهدف إلى عدم تشجيع مثل تلك المغامرات.

كانت السلطات السوفيتية عند حلول عام ١٩٣٨ قد أدركت بأن آمالها قد باءت بالفشل فيما يخص إنشاء قاعدة لنشر أفكارها السياسية عن طريق نشاطات تجارية لا تسعى من ورائها لأي كسب مادي. ومع حلول ذلك العام قامت الحكومة السوفيتية باستدعاء كافة عناصر بعثتها الدبلوماسية العاملة في الصحراء العربية لمحاسبتهم على فشلهم. كما قامت الحكومة السوفيتية بتصفية كافة أعضاء البعثة بمن فيهم «حكيموف» والشخص الذي خلفه في منصب رئيس البعثة في «جدة» والمدعو «تويمتوف»، إضافة إلى عدد من السيدات اللاتي كن يعملن في البعثتين، ونجا من القتل طبيب البعثة الوحيد الذي رفض أمر الاستدعاء إلى «موسكو» واعتنق الإسلام ليلتحق بالكادر الطبي السعودي.

وفي تلك الفترة كانت تركيا على علاقات دبلوماسية مع المملكة العربية السعودية بالرغم من الإجحاف والتحامل الذي سببه تصرف تركيا تجاه الدين الإسلامي. وجاءت زيارة «فيصل» إلى تركيا من باب الكياسة والمجاملة، علماً بأن العلاقات بين البلدين لم تعد إلى حالتها الطبيعية إلا بعد وفاة «كمال أتاتورك» عام ١٩٣٨.

حملت الحرب التي دارت عام ١٩٣٥/ ١٩٣٦ بين إيطاليا وأثيوبيا «ابن سعود» على الاعتقاد بأن سياسة الدولة البريطانية العظمى تميل للتضييق على الدول الأخرى. وظل «ابن سعود» إلى أن سقطت «أديس أبابا» وحدثت كارثة ضم أثيوبيا، يرفض أن يؤيد مقولة بعض الأشخاص من أن بريطانيا

يمكن أن تتنحى جانباً وتسمح لتلك المأساة أن تحدث وبأشنع صورها .

أما بخصوص عصبة الأمم ، والتي لم تكن المملكة العربية السعودية عضواً فيها علماً بأنها اعتادت على أن يصلها من عصبة الأمم منشورات تتعلق بالحقوق والدول والإنسان ، فيمكن القول إنه لم تراود «ابن سعود» أوهام بأن العصبة كانت قادرة على حماية حقوق الدول الصغيرة أو أن بمقدورها منع حدوث الحروب التي كان يعتبرها حالة طبيعية مصاحبة لوجود الإنسان على الأرض وأن يتكرر حدوثها على فترات . تعلم العرب من التجربة التي مروا بها في الحرب العالمية الأولى أنه يمكن للضعيف أن يجعل من الصراعات التي يخوضها القوي شيئاً طيباً يخدم مصالحه . لم يسفر عن الحرب العالمية الثانية أي شيء يمكن أن يقوض هذا المبدأ ، بل جاءت عاقبة تلك الحرب لتقنع «ابن سعود» بأن حرباً عالمية ثالثة محتومة كانت على وشك الحدوث . انتقد «ابن سعود» الحلفاء لتأخرهم في التحرك الذي جاء بعد أن أصبح العدو في موقف قوي جداً يصعب مهاجمته دون مخاطر تذكر .

ولم تكن لدى «ابن سعود» شخصياً أية شكوك حول المنهج السياسي الصائب الذي كان يتوجب عليه اتباعه لخدمة مصالحه وخدمة مصالح شعبه في الساحة الدولية ، علماً بأن العديد من مستشاريه لم يعربوا عن آرائهم تلك لكونهم كانوا يراقبون القوة المتنامية لدول المحور . فبالنسبة له لم تعد بريطانيا كما كانت لفترة طويلة في تلك المرحلة القوة العظمى الوحيدة في العالم فحسب بل كانت أيضاً القوة الوحيدة التي تلاقت مصالحها مع مصالح «ابن سعود» في موضوعات شتى ، ولذلك كانت الصداقة مع بريطانيا بمثابة حجر الزاوية الرئيسي في سياسته الخارجية . لم يعد هناك أي مجال لتهتز قناعاته

بآراء الآخرين. لم تكن أمريكا بالطبع قد ظهرت على الساحة السياسية للمملكة العربية السعودية، ولم يسفر موضوع سحب أفراد البعثة الدبلوماسية الروسية من «جدة» عن أي ندم أو أسف، بل في الواقع توازن رفض «ابن سعود» في إعطاء إذن أو تقديم تسهيلات لأي جهة تجاهر علناً بأي دين سوى الدين الإسلامي على الأرض السعودية، مع امتعاضه الظاهر لإقامة أي تعاون مع أي دولة تجاهر بعدائها لأي دين سماوي.

كانت تركيا تحت حكم نظام «أتاتورك» عرضة لأن ينظر إليها شزراً وبارتياب للأسباب التي أشرنا إليها سابقاً. ولم يكن «ابن سعود» ليسمح لبريطانيا رغم علاقته المميزة بها في حريته التامة بالحفاظ على علاقات ودية وحميمة مع دول غربية أخرى مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا، ولم تكن هولندا تقل أهمية عن سابقاتها الأخرى بسبب سيطرتها على مناطق «شرقي الإنديز» التي كان يأتي منها القسم الأعظم من الحجاج قبل حدوث فترة التدهور الاقتصادي.

أما في العالم العربي فقد عادت العلاقات بين السعودية ومصر منذ عام ١٩٣٦ إلى طبيعتها الودية، وكان موضوع عدم التدخل في شؤون العديد من المناطق الواقعة تحت الانتداب البريطاني عاملاً أساسياً في علاقاته وتعامله مع دول الانتداب. علماً بأن «ابن سعود» إلى جانب عدد آخر من قادة العرب كانوا قد أعربوا عن تعاطفهم مع قضية العرب في فلسطين. وربما كانت لدى «ابن سعود» بعض المخاوف والشكوك المتعلقة بقيادة الثورة التي حدثت في منتصف الثلاثينيات وبالأساليب التي كانت تلك القيادة تتبعها. وعليه رفض «ابن سعود» بالاشتراك مع القادة العرب الاقتراح

الصادر عن هيئة مفوضية «بيل» عام ١٩٣٧ والرامي إلى تقسيم فلسطين، كما رفضوا «الورقة البيضاء» التي صدرت عام ١٩٣٩ . كما ظل فاتحاً الباب على مصراعيه للتدخل في تسوية القضية الفلسطينية في حالة رغبة دولة الانتداب المشاركة بذلك. هذا ولم يصدر عن الحكومة البريطانية أية دعوة من هذا القبيل موجهة إلى الرجل الذي كان من المحتمل لسمعته ومكانته فقط أن تسفران عن تسوية لمشكلة شائكة للغاية. وأخيراً وبعد عقد من الزمن تم حسم تلك المشكلة عن طريق اللجوء إلى السلاح بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين مؤيدة فكرة التقسيم.

احتار «ابن سعود» بهذا الخصوص وبخصوص مواضيع أخرى وبالتحديد حيال التصرف الذي كانت تنتهجه الحكومة البريطانية نحوه شخصياً ونحو حكومته بشكل عام. وكان أحياناً يعرب عن ذلك الاستياء بصوت مسموع، وخاصة لانعدام ظاهرة التعامل بالمثل التي طالب بها بناءً على تفضيله لبريطانيا على كافة الدول الأجنبية الأخرى. فقد سبق له أن أبدى العديد من الاتفاقيات حيال الأمور التي كان من الممكن أن تتحسس منها الحكومة البريطانية. ومن دون أن يعلن رسمياً عن تخيله عن مطالبته المشروعة بمنطقة «معان - العقبة»، فقد وافق على احترام الخط الحدودي القائم هناك بفعل الأمر الواقع. وكان «ابن سعود» أيضاً قد وافق على حدود واضحة لا لبس فيها بين السعودية والعراق، والتي كان فيها بعض الضرر لرعاياه، كما أنه لم يطالب بأية حقوق في مناطق الخليج التي اعتبرتها بريطانيا مناطق خاصة تابعة لسيادتها وسيطرتها المباشرة. كان «ابن سعود» قد وافق بموجب اتفاقية تم التوصل إليها على أنه سيتعاون مع الحكومة البريطانية في القضاء على

تجارة العبيد، كما أنه لم يؤكد أو يلح على انتصار بلاده على اليمن . . . إلى آخر ذلك من الأمور التي كانت بريطانيا تقابلها بجفاء. ولم يكن بمقدوره تفسير أو إيجاد سبب لتلك المواقف، ويبدو أيضاً أن الحقيقة التي لا تقبل الجدل بأن استقلاله المطلق على الصعيدين المحلي والخارجي كان سبباً في تلك المواقف البريطانية بحيث لم يكن بمقدور التعاطف البريطاني معه أن يتجاوز ذلك الحاجز.

على أي حال عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية لم يتردد «ابن سعود» ولو للحظة واحدة (بالرغم من إعلانه عن موقفه الحيادي في ذلك الصراع) من أن يظهر الاتجاه الذي كانت تسير به عواطفه. كان موقفه المحايد موقفاً سليماً إلا أنه منع السفير الألماني الذي لم يكن موجوداً في «جدة» عند اندلاع الحرب من العودة إلى السعودية خشية أن تتعقد الأمور مع الدول المتحالفة والتي لها تمثيل دبلوماسي في «جدة». وعندما دخلت إيطاليا الحرب سارع «ابن سعود» إلى نقل الدبلوماسي الإيطاليين والمقيمين الآخرين إلى أماكن مريحة في إحدى الجزر، لكنه عاملها بكل الاعتبارات المرعية. وعندما لجأت المدمرات الإيطالية إلى سواحل المملكة هرباً من الضربات البريطانية، قام «ابن سعود» على الفور باعتقال كل أطقمها في مدينة «الطائف»، لكنه لم يسلمهم إلى الأعداء. وبعد الحرب وعندما قدم «رشيد علي الكيلاني» ليلتجئ في السعودية، استقبله «ابن سعود» كضيف شرف بالرغم من المحاولات البريطانية الرامية إلى استسلامه لها كأسير حرب كانت المحكمة العسكرية في العراق قد حكمت عليه بالموت لتزعمه حركة تمرد عام ١٩٤١ . لقد كان «ابن سعود» في القضايا المشابهة لهذه الحالات إحساس غريزي يدفعه لاتخاذ الموقف الصحيح، وكان يفعل الأمور الصحيحة دون خوف أو

محاباة لأحد حتى لو كان ذلك التصرف يسبب له شخصياً بعض الإحراج، ومع ذلك لم يكن هناك أدنى شك في أن «ابن سعود»، وعلى مدى سنوات الحرب، كان يأمل أن يحقق الحلفاء النصر، وكان حقاً منزعجاً بسبب كوارث الحلفاء التي حدثت عام ١٩٤٠ والعام الذي تلاه.

في ذلك العام أصبحت أمريكا مهتمة - وبشكل جدي - بالصحراء العربية، وبدأت تعمل على تأسيس بعثة لها في «جدة»، كما قام عدد من الشخصيات الممثلة للرئيس الأمريكي «روزفلت» بزيارة «ابن سعود» في الرياض لمناقشة بعض القضايا معه ولدراسة احتياجات المملكة. وقد سبق أن أشرنا إلى المساعدات المالية والنوعية التي قدمتها أمريكا وبريطانيا إلى حكومة «ابن سعود»، إلا أن موضوع تمتين أواصر العلاقة السياسة بين أمريكا والسعودية كان بمثابة التطور البارز الذي ظهر خلال سنوات الحرب والذي أسفر عن نتائج بعيدة المدى كان لها دور في تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المملكة خلال عقد واحد من الزمن.

كان الجميع يحترم موقف «ابن سعود» الحيادي كما كان واضحاً أيضاً أن قضية الحلفاء لم يكن لها أن تحقق أي مكسب عملي من أي تغيير رسمي يمكن أن يطرأ على موقفه حتى ولو كان «ابن سعود» على استعداد لتبني مثل ذلك المنحنى. لقد كان الرئيس الأمريكي «روزفلت» مدركاً تماماً للدور الهام الذي يمكن للمملكة العربية السعودية أن تلعبه في مرحلة ما بعد الحرب العالمية تلك. وحيال ترجيح كفة ميزان دول التحالف التي بدأت في الظهور، لم تعد هناك حاجة لأن يستمر «ابن سعود» في إخفاء حقيقة موقفه حيال ذلك الصراع.

كان الملك «فاروق» ملك مصر قد قام بزيارة لـ «ابن سعود» مع نهاية أيام تلك الحرب، وتم اللقاء بينهما في جوار «المدينة» ووجه له الدعوة لزيارة «مصر» في أول فرصة ملائمة، لكن القدر خبأ لـ «ابن سعود» الملك العظيم الذي ذهب إلى مصر في ربيع عام ١٩٤٥ بعض الأمور والترتيبات: حيث عاد «ابن سعود» ليقابل مهندس الانتصار المؤكد. ففي البحيرات المارة في قناة السويس اجتمع «ابن سعود» بالرئيس الأمريكي «روزفلت» على متن طراد أمريكي، ومن هناك توجه براً إلى الفيوم لزيارة «ونستون تشرشل» الذي رحب به «كصديق عن الضيق» سبق له أن وقف إلى جانب البريطانيين في أحلك أيام الحرب. لقد شكلت تلك الأحداث مرحلة هامة من عمله السياسي، إذ كانت تلك الرحلة أول رحلة ممتعة يقوم بها «ابن سعود» منذ رحلته إلى البصرة التي قام بها قبل ثلاثين عاماً، وكانت تلك هي أول لقاءات يجريها مع شخصيات هامة بالفعل، وكانت تلك أول تجربة له بالعالم الحديث وبأساليبه.

كان «ابن سعود» قد بلغ من العمر في تلك الفترة خمسة وستين عاماً، وبدأ يشعر بوقع ألم الروماتيزم في ركبته التي أصيبت بجرح في أحد المعارك الماضية، لكنه عاد إلى الرياض ومعه هدية من الرئيس كانت تلك الهدية الكرسي الخاص والمميز المشابه للكرسي الذي يستعمله الرئيس للتغلب على إعاقته، وتمسك «ابن سعود» منذ ذلك اليوم حتى نهاية حياته بذلك الكرسي الذي خفف عنه ألم وضعف ركبته.

وخلال هذين اللقاءين اللذان أجراهما مع زعماء الحرب العظام، تباحث

«ابن سعود» معهما بكافة القضايا المتعلقة بمستقبل المملكة، كما تبادل معهما الآراء حول تصرفاتهم حيال دول العالم بشكل عام. وبعد عودته إلى الصحراء العربية طلب منه أن يمعن النظر في مسألة مهمة للغاية وأن يتخذ قراراً بخصوصها، إذ رغبت بريطانيا وأمريكا «ابن سعود» أن يلعب دوراً في عالم جديد بدلته الحرب على نحو جذري. طلبتا منه أن ينضم إلى منظمة شكلت بهدف استمرارية السلام بشكل دائم بين الدول. وكانت الدول العربية الأخرى المستقلة قد دعيت أيضا إلى الانضمام لهذه المنظمة الدولية. لكن بريطانيا وأمريكا اشترطتا على «ابن سعود» ليصبح عضواً مؤسساً في هيئة الأمم المتحدة أن ينتسب إلى عضوية التحالف الكبير الذي يضم الدول التي كانت في تلك الفترة منهمكة في إعداد المرحلة النهائية لتركيع العدو. وكل ما كان مطلوب من «ابن سعود» لينضم إلى ذلك التحالف هو أن يعلن الحرب رسمياً على ألمانيا واليابان، وهما الدولتان اللتان بقيتا تقاتلان من بين دول المحور لكن «ابن سعود» امتنع عن فعل ما كان غير ملائم أو بالأحرى سخيفاً مثل أن يعلن الحرب على دولتين أصبحت الهزيمة من نصيبهما، علاوة على أن بلاده لم تكن على عداء مع هاتين الدولتين.

وانضمت المملكة العربية السعودية إلى صفوف المحور اسمياً إن لم تكن فعليا. وعندما حان الوقت توجه «ابن سعود» إلى «سان فرنسيسكو» لحضور المؤتمر بصفته عضو مؤسس في الأمم المتحدة التي كان الأمير «فيصل» يحضر اجتماعاتها السنوية بصفته وزيراً للخارجية. وفي مناسبات قليلة كان الشيخ «أسعد الفقيه» يقوم بمهمة تمثيل السعودية في تلك الاجتماعات. كان «أسعد الفقيه» قد بدأ حياته كوزير في الحكومة السعودية، وبعده كلف بمنصب سفير

السعودية في واشنطن، كما سبق له أن شغل منصب سفير السعودية في «بغداد».

ربما لا يمكن لنا أن ندعي بأن المملكة العربية السعودية أو جيرانها من الدول العربية التي لعبت دوراً فاعلاً في مناقشة أو تسوية المشكلات الرئيسية التي كانت تتأجج في عالم ما بعد الحرب، لكن تشكيل جامعة الدول العربية على نمط جسد واحد كبير وضع الدول العربية الأعضاء - بما فيها السعودية بالطبع- في موقف يمكنها جميعاً من التأثير على الرأي العالم العالمي، وخاصة في قضايا تؤثر أولاً على مصالح شعوب منطقة الشرق الأوسط وبالتالي على مصالح العالم الإسلامي. ولا نشير هنا إلى مجموعة الدول العربية والآسيوية الأكبر حجماً من جامعة الدول العربية والتي سبق أن تعاونت في مؤتمر نيويورك لحماية مصالح العديد من الدول التي كانت سابقاً - والتي لا يزال البعض منها - تحت حكم أو سيطرة الدول الغربية. هناك مجال للشك بأن الأمم المتحدة (حتى ولو قدر لها أن تثبت عدم قدرتها على تحقيق الأهداف الرئيسية التي أوجدت من أجلها بسبب الصدع الظاهر بين الدول القيادية الكبرى فيها)، هيأت مناخاً للدول الآسيوية والأفريقية لتتقارع وتتناحر مع عمالقة دول الغرب. وربما هيأت الأمم المتحدة تلك الساحة بشكل غير معتمد أو غير مقصود وبشيء من الإحراج الذي لحق ببعض الأعضاء المنتسبين إليها. وعلى أي حال فإن تلك المشكلة لم تسبب في ذلك الوقت قلقاً مباشراً للمملكة العربية السعودية. كانت جامعة الدول العربية بحد ذاتها ومنذ ولادتها منشقة إلى كتلتين بسبب التنافس الإقليمي بين أعضائها. لكن الأحداث ومرور الوقت لطفا ولدرجة كبيرة من حدة

الخلافات التي كانت تفرق بين الأعضاء ومن دواعي سرور «ابن سعود» أنه عرف - قبل حلول أجله - أن الدول العربية كانت قد حققت قدراً من التناغم والانسجام فيما بينها، لذلك تشجع على تقديم مبلغ ضخم للدفاع عن الأردن ضد الاعتداء الإسرائيلي.

على أي حال يمكن القول وبشكل عام إن «ابن سعود» لم يطمع في يوم من الأيام بمركز قيادة الجامعة العربية، كما أنه لم يتطلع ليكون ممثلاً عن العرب في منظمة الأمم المتحدة أو أن يحظى بمقعد في مجلس الأمن، فلم تساعده طبيعته الشخصية على التصرف في أمر تلوح بوادر فشله في الأفق، خاصة إذا كان لذلك الأمر علاقة بشرفه أو باحترامه لنفسه. وبكامل الصدق يمكن القول هنا إنه كان يكلف أشخاصاً آخرين لمعالجة مثل تلك المشكلات، وخاصة إذا كان هؤلاء الأشخاص متمرسين في الأساليب الغربية المتبعة في ذلك العالم الجديد الذي أصبح ينظر إلى «ابن سعود» من منظور طموحاته التي حققها بجهده دون أي رغبة في المزيد من الفتوحات.

كان لدى «ابن سعود» أمور أخرى ليفكر فيها، وكان تلك الأمور على درجة بالغة من الأهمية بالنسبة للمملكة التي أرسى أسسها والتي استمر في حكمها بدون مساعدة أحد ووسط تطورات غريبة جداً عن تجربته وخبراته. لا بد أن يكون موضوع التقدم في السن (ناهيك عن موضوع وهن الجسد الذي بدأ يحد من حركته) قد نبهه إلى حقيقة أن الوقت كان قصيراً لإنجاز ما تبقى عليه من الأعمال وبالتالي العمل على وضع إدارة الحكم في المملكة على أسس راسخة وقوية لتقاوم عواصف ومحن المستقبل في عالم تمكن بالكاد من أن ينجو من جائحة عنيفة لم يسبق لها مثيل. لكنه وجد نفسه

حيال هاوية سحيقة لا تبشر بالخير. لم يكن «ابن سعود» الرجل الذي لا يهاب من الصعاب والتي سبق له فعلاً أن تصدى لها بهدوء تميز به في كافة المعارك التي خاضها في الماضي، لكنه الآن أصبح مسناً ومتعباً ومعتلاً جسدياً، إلا أن شعوره بالمسؤولية وبالواجب المتأصل والمترسخ في شخصيته كان يدفعه إلى الاستمرار لدرجة أنه لم يكن متحمساً للعون المتوافر له والمتمثل في أبنائه الذي أصبحوا في تلك الفترة رجالاً متمرسين في شؤون هذا العالم، وبالعون الذي كان من الممكن أن يحصل عليه من العديد من الرسميين الذي عملوا على خدمته بأمانة وإخلاص لزمن طويل.

في الحقيقة أن الأمير «سعود» الذي شغل منصب ولي العهد لمدة تزيد عن عقد من الزمن، كان الساعد الأيمن لـ «ابن سعود» في إدارة حكم منطقة «نجد»، والحقيقة الأخرى أن الأمير «فيصل» كان ساعده الأيمن في إدارة أمور «الحجاز»، إضافة إلى تحمله مسؤولية أمور وزارة الخارجية. وفي الحقيقة أن «عبد الله السليمان» الذي كان يشغل منصب وزير المالية كان المسؤول الحكومي الوحيد الذي يمكن أن يقال عنه بأنه كان يتمتع بسلطة مستقلة لكن خاضعة بالطبع إلى رضى صاحب الجلالة «ابن سعود»، وكانت سلطته المستقلة تلك محصورة في إدارة الأمور المالية للبلاد وفي الإشراف على نفقات وميزانيات معظم الجهات الحكومية.

هذا وكان كافة كبار موظفي الدولة يعملون وبشكل حميم مع الملك كمستشارين له، في حين كانت الجهة الحكومية الوحيدة التي تعمل خارج هذه الدائرة التنفيذية من الديوان الملكي هي «مجلس الشورى» الذي كان يتخذ من مكة مقراً لعمله ويتألف من أشخاص مرشحين من قبل الملك

يمثلون المدن والمناطق الرئيسية في «الحجاز» وكانت تلك الهيئة كما يدل اسمها عليها هيئة استشارية لكنها عملت بالكثير من الكدح والعمل الجاد على فحص العديد من الخطط والمقترحات الصادرة عن وزير المالية وعن جهات حكومية أخرى، وأبدت الرأى فيها.

عمل الفريق العملي في الحكومة بشكل حسن في ظل ظروف بسيطة نسبياً عاشتها الصحراء العربية في فترة ما بعد الحرب، وكان الملك يشرف شخصياً على كل مشكلة لا تستطيع الجهات المعنية في الدولة البت فيها. ومما يزيد من مآثر «ابن سعود» الخالدة أنه مهما بلغت به درجة العناء فإنه كان دائماً متواجداً لسماع مشكلات وهموم رعاياه من مختلف الطبقات الاجتماعية الأغنياء منهم والفقراء، وكان يساعدهم في التغلب على مشكلاتهم. فكانت إحدى سجاياه. ومما كان ملفتاً للنظر أنه كان باستطاعة «ابن سعود» وسط مشاغله الصعبة المرهقة أن يجد الوقت ليفكر وينجز الآلاف من أعمال الخير التي جعلت من ذكراه أمراً مبجلاً في أذهان آلاف البشر.

كان مقدراً لظروف المملكة العربية السعودية أن تتغير بشكل سريع، كما أن النظم الإدارية التي تم ترتيبها في النظام القديم لحماية الناس لم تعد كافية لتتعامل مع تدفق الثروات التي هلت فجأة على البلاد واستمرت تضغط بكامل ثقلها على كافة جوانب الحياة في السعودية العربية.

على أي حال كانت الفترة التي تلت الحرب فترة مختلفة تماماً، إذ إنها قريبة جداً من زمننا هذا على نحونستطيع أن نقدم معه تفصيلات للطريقة التي لمع فيها اسم المملكة العربية السعودية عالياً.

وبخصوص الوضع في المملكة العربية السعودية فلعله من الممكن

الاعتراف وعلى نحو مبرر جزئياً بأن الثروة أصابت بثرائها بلاداً نامية في أجهزتها الإدارية ولذلك ظلت حتى ذلك التاريخ محصورتاً في إيجاد توازن بين موارد الدولة المالية البسيطة وبين احتياجات المملكة المتزايدة بشكل متسارع. لقد تمكنت حكومة المملكة بفعل الفتوحات والتوسع أن تأخذ مكانتها بين بقية دول العالم فكانت مستويات المعيشة فيها والخدمات العامة التي تقدمها الدولة مختلفة تماماً عن أي شيء مرت به الجزيرة العربية قبل ذلك التاريخ، ويعود الفضل في ذلك حقاً إلى التنظيم الإداري الذي نهجه «ابن سعود» والذي كان له الفضل في رفع مستوى تقدم البلاد ومستوى إمكانياتها لكن على حساب حدوث عجز بسيط في ميزانيتها. جاء ذلك العجز على شكل ديون عامة، كان بالإمكان تصفيتها عن طريق ترشيد النفقات المخصصة من عائدات الدولة لفترة محدودة.

نتوقف هنا عن الحديث عن الوضع الإداري العام على مدى القرن الماضي من حياة «ابن سعود»، ولنعد إلى بداية فترة ما بعد الحرب إذ كان الشغل الشاغل للملك بعد أن وضعت الحرب أوزارها في كافة أنحاء العالم هو تنفيذ الوعد الذي قطعه على نفسه بزيارة مصر استجابة لدعوة الملك «فاروق» أثناء زيارته «للمدينة» و «ينبع» والتي حدثت في شهر كانون الثاني عام ١٩٤٦ وسط تظاهرات من الحماس والود التي حركت مشاعر أسد الصحراء.

عادت علاقات الصداقة التي أقامها «ابن سعود» مع الملك «فاروق» بالنفع الكثير على المملكة العربية السعودية التي اعتمدت ومنذ وقت طويل على المساعدات المادية والفنية المصرية لتطوير مرافق الحياة في الحجاز لخدمة

الحجاج ولصيانة الأماكن المقدسة. نظر «ابن سعود» إلى حادثة اغتيال «محمود فهمي النقراش باشا» الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس الوزراء في مصر، على أنها خسارة شخصية له، وفي شهر تموز من عام ١٩٥٢ وفي عام ١٩٥٣ قامت في مصر ثورة سقط على أثرها الملك فاروق (ولأسباب شخصية أكثر من كونها متعلقة بسمات تلك المرحلة) شعر ابن سعود بالأسف. وفي عام ١٩٥٣ قدم «محمد نجيب»)الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لجمهورية مصر) ليؤدي فريضة الحج، وتم استقباله وفق المراسم المرعية، وكان على رأس المستقبلين الملك «ابن سعود» وولي عهده.

علاوة على المساعدة العملية التي كانت السعودية تتلقاها من الحكومة المصرية، فقد تركت الحقول الخضراء والأبنية الضخمة في القاهرة انطباعاً مؤثراً في نفسية ملك الصحراء الذي لم يسبق له أن شاهد مثيلا لها في حياته، علاوة على ذلك كان الأمير «فيصل» والعديد من إخوانه ومن الأمراء الآخرين قد عادوا من حفل تدشين الأمم المتحدة في مدينة «سان فرانسيسكو» وكلهم إعجاب ودهشة لكل ما شاهدوه في العالم الجديد. وسرعان ما جاء دور الأمير «سعود» ليقوم بجولة موسعة للولايات الأمريكية والتي عاد منها وهو يحمل تصوراً بعيد المدى عما يمكن أن يتم إنجازه في بلاده من أعمال في مجال الزراعة والكهرباء والنقل وأمور مشابهة أخرى.

تركت هذه التطورات أثرها في السعودية العربية، وسرعان ما بدت تتكشف مع تدفق جداول النفط بشكلها السريع، فانتشرت في مدينة الرياض الفلل والأبنية الفخمة والحدائق مع كافة وسائل الراحة المرفقة بها. وتم بعث الحياة في كافة الشتلات والبذور التي تم جلبها من العالم الجديد إلى

قلب الجزيرة العربية. علاوة على ذلك فقد تم جلب مضخات المياه الكهوبائية والأخرى التي تعمل على الديزل على نطاق واسع لتأمين المياه للأعمال الزراعية المتزايدة والتي تتجسد في مزارع الخرج الحديثة التي أشرف على تنظيمها وإدارتها خبراء أمريكيون. كان مشروع الري والزراعة الحديث في تهامة عسير في مراحله الأولى من التطور، وأصبحت الطائف والخرج مركزين عظيمين للتدريب العسكري الذي أشرف عليه مدربون أمريكيون حلوا محل مدربين بريطانيين. وتم أيضاً إنشاء مصنع للذخائر والأعتدة الحربية في منطقة الخرج بإشراف شركة فرنسية، وفي نهاية عام ١٩٥١ تم تحقيق حلم الملك عبد العزيز في إنشاء خط حديدي يربط الخليج بمدينة الرياض. وأصدر الملك تعليماته إلى المهندسين الأمريكيين ليشرفوا على مد ذلك الخط الحديدي ليمر في منطقة القصيم والمدينة المنورة وجدة ومنها إلى مكة. والجدير بالذكر هنا أن مدينتي مكة وجدة مرتبطتان بطريق مسفلت منذ حوالي خمسة عشر عاماً، هذا وقامت شركة بريطانية بإتمام المائة كيلومتر من الطريق الذي يربط ما بين جدة والمدينة بتصميم من الطراز الأول ليخدم الحجاج وليسهل حركة المرور المزدحمة بين هاتين المدينتين.

وباختصار يمكن القول أنه في العقد الأخير من فترة حكم ابن سعود كانت قد تضافرت أواصر الاتصالات مع العالم المتحضر مع معجزة اكتشاف الوسائل الضرورية للتقدم فأحدث في الجزيرة العربية ثورة اقتصادية واجتماعية تجاوزت حدودها مدى أحلام أولئك الذين شاهدوا القوات السعودية وهي تسير باتجاه جدة قبل ما يزيد عن ربع قرن من الزمن. لكن الرأي العام والرأي الرسمي بديا يميلان لفكرة إنشاء جيش نظامي يتدرب

على الطريقـة الأوروبيـة ويرتـدي زي مـوحـد على غـرار الـزي الأوروبي، وذلك ليحل محل القوات التقليدية التي سبق لها أن رفعت راية «ابن سعود» من نصر إلى نصر حتى وصلت إلى أقاصي البلاد، لكن لم يتم فعلياً حل تلك القوات علماً بأن أفرادها استمروا في التقاعد إلى أن بعثت فيها الحياة من جديد وأعيد تشكيلها على شكل فيالق عسكرية تركب الجمال أطلق عليها اسم «المجاهدين» وضمت جنوداً من المقاتلين التحقوا بها من مدن وقرى «نجد» وكانت تلك المدن والقرى تشعر بالتزام أدبي بتقديم العون إلى حكومة «آل سعود» كلما اقتضت الحاجة. وأصبحت معسكراتها موزعة في أماكن مناسبة حيث يتوافر الماء والكلأ للجمال التي ألحق بها عدد لا بأس به من العربات والسيارات لحمل المؤن والمعدات. عهد «ابن سعود» أمر حماية الحدود إلى الكتائب النظامية المحمولة على العربات والمجهزة بالسيارات المصفحة والمدافع، علماً بأنه لم يكن لديهم الكثير من الأعمال ليقوموا بها سوى المناورات وضبط طرق المهربين. أما في المدن الكبيرة ومناطق الحضر فقد كانت الحاميات العسكرية هناك تكرس وقتها للتدريبات العسكرية والقيام بالاحتفالات، في حين دخلت نغمات المعزوفات الموسيقية - التي كانت تعزفها فرق موسيقية مؤهلة نوعاً ما - إلى مناطق كان تعتبر في وقت ما مناطق يحظر عزف الموسيقى فيها. جاء ذلك العزف ليخفف من عناء التدريبات والاستعراضات العسكرية، وبالتالي لتجلب المزيد من المتطوعين إلى صفوف الجيش والترفيه عن الجماهير.

ويذكر أن المناسبة الوحيدة التي استخدمت فيها وحدة من تلك الوحدات

العسكرية التي اشتهرت القوة الواحدة فيها بقوة تعادل قوة اثني عشر وحدة عسكرية، كانت خلال عام ١٩٤٨ العام الذي شهد حرب فلسطين. تقرر في ذلك العام إرسال كتيبة من هذه القوة لتشارك ضمن القوات المصرية في عمليات الجيش العربي ضد اليهود. ويعزو المدافعون عن القضية العربية فشل الجيوش العربية في إنقاذ فلسطين من براثن اليهود إلى تآمر الحكومة البريطانية التي كانت في الواقع قد تنصلت من مسؤوليات انتدابها على فلسطين قبل بدء الصراع بين العرب واليهود، وتركت للحرب مجالاً رحباً ليفصل في النزاع بين الطرفين.

إن السبب الحقيقي في هزيمة العرب في نضال كان من الممكن أن يكون فيه نصرهم النهائي نتيجة حتمية، هو الحقيقة المؤسفة بأن الدول العربية المعنية كانت منقسمة وغير مجتمعة على الرأي.

أما الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية فإن علاقة «ابن سعود» مع اليمن ومع حاكمها استمرت على حالة من الود والتعاون منذ توقيع معاهدة الطائف عام ١٩٣٤.

وعلى أي حال تم في السابع عشر من شباط من العام نفسه نصب كمين للإمام «يحيى» الذي كان يقوم بجولة في السيارة برفقة رئيس وزرائه «عبدالله العمري» وتم القضاء عليهما، وفي غضون ساعة من الزمن وصلت أخبار تلك الجريمة إلى «ابن سعود» في الرياض واستمرت بعد ذلك وكالات الأنباء في العالم بنشر الخبر على مدى ذلك اليوم. جاءت ردة فعل «ابن سعود» لتلك الكارثة على نحو متميز، إذ أمعن النظر وبصمت تام في البرقية

التي وصلته في اليوم التالي من «عبد الله بن الوزير» الذي أعلن فيها عن موت الإمام كما أعلن أن انتخابه كإمام وملك على اليمن قد تم بصفة دستورية ليحكم البلاد من خلال مجلس وزراء ومن خلال ممثلين منتخبين عن سكان البلاد. هذا وقد أرسلت نفس البرقية إلى كافة الدول العربية الأخرى وتضمنت أيضاً مناشدة العرب في إرسال أي عدد من الطائرات المتوافرة للمساعدة على حفظ النظام والأمن في البلاد. سارعت جامعة الدول العربية إلى تشكيل لجنة للتحيق في أسباب ونتائج المشكلة على أرض الواقع، وقطعت تلك اللجنة سفرها جواً إلى اليمن وتوقفت في «جدة» لتزور «ابن سعود» في الرياض. وجاءت زيارتها للرياض في نفس الوقت الذي كان هناك وفد قد أرسله حاكم اليمن الجديد يزور الرياض أيضاً، وكان ذلك الوفد مشكلاً من «عبد الله بن علي» وهو ابن أخو «عبد الله بن الوزير» والشيخ «فضل الورتلاني» وهو من أصل مغربي، إضافة إلى شخصيات أخرى.

في تلك الأثناء كان الوريث الشرعي لعرش اليمن قد وصل إلى «حجة» قادماً من مقره الرسمي في «تعز» وأحرز تقدماً جيداً في حشد القبائل وأهل المدن لدعم قضيته، وبدأ موقف الغاضب للسلطة يتدهور بدليل المناشدة المذكورة التي وجهها إلى عدن والرياض وجامعة الدول العربية وبريطانيا وأمريكا، حتى إلى روسيا، لتقديم العون له. في الواقع لم يحظى «عبد الله ابن الوزير» سوى بالدعم المعنوي المحدد من وفد جماعة الإخوان المسلمين في مصر والذي كان قد وصل إلى صنعاء. في تلك الأثناء كانت طائرات مصرية قد هبطت لإجلاء أعضاء البعثة التعليمية المصرية من اليمن.

لم تلقى مناشدات «عبد الله بن الوزير» وكبار قادته العسكريين وهما (الأمير إبراهيم ومحمد القبسي) آذاناً صاغية، لكن في الحادي والعشرين من شهر آذار انتهت تلك المشكلة عندما دخل الأمير «عباس» شقيق الملك الشرعي الإمام «أحمد بن يحيى» بقواته «صنعاء» وأجبر «عبد الله بن الوزير» وأصدقاءه على الاستسلام.

غادر الوفد اليمني الرياض محبطاً، لكنه لم يرجع إلى اليمن ولم تعد الآن هناك ضرورة لذهاب ممثلي جامعة الدول العربية إلى «صنعاء»، لذا غادروا السعودية إلى مصر. وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار تم نقل «عبد الله بن الوزير» وأتباعه من المتآمرين وهم مكبلين بالأصفاد إلى «حجة» وهي مقر حكومة الملك الجديد، وهناك وضعوا في سجون مختلفة ليحاكموا أمام محكمة شرعية. وفي يوم الثامن من نيسان عام ١٩٤٨ صدر في حقهم الحكم بالإعدام، وبصدور ذلك الحكم انتهت أزمة اليمن المأساوية.

كان «ابن سعود» مقتنعاً تماماً بأن الدول العظمى كانت تعد نفسها وبشكل حثيث لحرب عالمية ثالثة، ونظر إلى ذلك الوضع على أنه النتيجة الحتمية الممكنة لعداء الدول الغربية للدول الشيوعية ذلك العداء المستتر وراء حجاب شفاف.

نظر «ابن سعود» إلى ظهور الشيوعية واختراع أدوات ووسائل التدمير الشامل، على أنها ليست مجرد نذير بنهاية الحضارة الإنسانية فحسب، بل هي تحذير إلهي باقتراب يوم القيامة في حد ذاتها. هذا وقد وجد «ابن سعود» نفسه مهتماً ومشغولاً بمشكلات جيرانه.

ظهرت خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٤٨ أوضاع ملفتة للنظر في العراق، إذ أسفرت التظاهرات التي قام بها الطلاب والعمال احتجاجاً على الاتفاقية الجديدة المقترح إبرامها مع بريطانية عن إصابات خطرة في صفوف المتظاهرين، كما أسفرت عن سقوط رئيس الوزراء العراقي «سعيد صالح الجبر» وهروبه من البلاد، كما اختفى «نوري باشا» أيضاً عن الأنظار. لكن بعد مضي بضعة أشهر وبعد أن هدأت العاصفة عاد «نوري باشا» إلى العراق وترك الأمر للأمير «عبد الله» الوصي على العرش المجال ليهدئ من حماسة الناس. فأعلن بأنه لن يصادق على الاتفاقية التي كانت قد وقعت في السادس عشر من كانون الثاني على متن سفينة صاحب الجلالة «فيكتوري» في ميناء «بورت سموث». كان العراقيون رافضين لها طالما أن بنود تلك الاتفاقية تقر استمرار الترتيبات السابقة والخاصة باحتلال القوات البريطانية لقواعد جوية مختلفة في العراق.

سبق أن ناقشنا بإسهاب موضوع المشكلات في فلسطين، والتي تزامنت مع الأحداث الأخيرة في العراق، لكن لا بد أن نشير هنا إلى أنه نزولاً عند مبدأ التضامن العربي في مثل هذه القضايا سمح «ابن سعود» بجمع تبرعات لصالح القضية الفلسطينية وعين ابنه «محمد» رئيساً للجنة المكلفة بتلك المهمة. إضافة إلى هذه المساعدة المالية المقدمة إلى قضية فلسطين، صدرت عن الملك في شهر كانون أول عام ١٩٤٧ التفاتة كريمة بتجنيد المتطوعين للخدمة العسكرية. تجلت تلك البادرة في التوجيهات التي صدرت لكافة حكام مناطق «نجد» لفتح مراكز تسجيل للمتطوعين الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرين إلى خمسين عاماً، وتجلت أيضاً في دعوته لاثنين من زعماء

كل قبيلة لزيارة الرياض لتنسيق الجهود.

كان متوقعاً أن يتم من خلال هذا الإجراء حشد قوة تقدر بثلاثمائة ألف رجل، لكن كما أشرنا سالفاً لم يشاهد فلسطين من العرب السعوديين سوى الكتيبة النظامية التي انضوت تحت لواء القوات المصرية[1].

تم في دار الحكم بالرياض مناقشة موقف كل من أمريكا وبريطانيا حيال المشكلة برمتها، كما تمت مناقشة الحوار بين أطراف النزاع الذي تميزت به وقائع الأمم المتحدة، وكذلك تمت مناقشة إصرار الملك «عبد الله» (حاكم مناطق عبر الأردن والذي سرعان ما أصبح ملكاً على الأردن) في أن يتزعم القضية العربية وأن يحتل ما يمكنه احتلاله من فلسطين لصالحه الشخصي. تمت مناقشة كافة هذه القضايا بحرية، وبدا تصرف الملك بأن البريطانيين لن يتركوا فلسطين في نهاية المطاف بسبب مصالحهم الاستراتيجية في المنطقة، وبين مخاوفه من أن البريطانيين سيسلمون الجزء العربي من فلسطين للملك «عبد الله»، أو أن ينقلوا حاميتهم العسكرية من فلسطين إلى مناطق عبر الأردن لمنع أي هجوم يقوم به العرب ضد اليهود. لكن «ابن سعود» التزم

---

(١) ربما أن المؤلف يتحدث هنا عن الجوانب الرسمية في هذا الموضوع وإذا خرجنا عن هذا الإطار فإن المصادر التاريخية تشير إلى أن المشاركة السعودية في التطوع في حروب فلسطين فاق ما ذكر بكثير بل إن كثيراً من المعارك قد شهدت سقوط عدد من (الشهداء) السعوديين الذين لبوا نداء الواجب في تحرير فلسطين. ولعل حقيقة أن كثيراً منهم قاتل تحت بعض الرايات الأخرى نتيجة بعض الظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية قد تبرز ضياع تلك الجهود في زخم الأحداث. ورغم ذلك فإن من يطلع على بعض المصادر التاريخية سيخرج بانطباع جيد عن دور وجهود المتطوعين السعوديين في حروب فلسطين. ويمكن الاطلاع مثلاً على كتاب: سجل الشرف؛ ذكرى الخالدين الذي سجل فيه فهد المبارك أسماء وقصص بعض المتطوعين السعوديين في حروب فلسطين (المعلق).

بموقف واحد على الدوام.

وحيال هذه الخلفية الدولية غير المرضية احتفل «ابن سعود» في الثامن عشر من شهر تموز عام ١٩٥٠ باليوبيل الذهبي لفترة عهده كملك مطلق الحرية في الصحراء العربية.

احتفلت دول العالم التي كان لها علاقة دبلوماسية مع المملكة العربية السعودية بهذه المناسبة وأقيمت حفلات الاستقبال وأذيعت الكلمات الخطابية التي عددت مآثر المملكة. عكست تلك الاحتفالات إعجاب دول العالم وحبها المستلهم من إنجازات وشخصية الرجل الذي قاد شعبه من قفار الصحراء إلى إقامة العلاقات الطيبة مع الدول الأخرى. هذا وكانت الاحتفالات في المملكة تتم بشكل متقن لتظهر ولاء وعرفان شعب المملكة للملك الذي دامت فترة حكمه لمدة خمسين عاماً.

ومع حلول ذلك التاريخ كان قد مضى على بداية الحرب الكورية حوالي ثمانية عشر شهراً، كما أن الوضع في منطقة القناة المصرية كان يزداد صعوبة وتعقيداً، علماً بأنه في تلك الفترة لم يكن انقلاب الثالث والعشرين من شهر تموز الذي أطاح بالملك «فاروق» قد حصل، كما أنه لم يحدث إلا بعد ستة أشهر من هذا التاريخ على أي حال لم تتأثر المملكة العربية السعودية بشكل مباشر بهذه التطورات.

وقفت المملكة العربية السعودية مع الدول العربية الأخرى وقفة رجل واحد في دعم موقف مصر المطالب بجلاء القوات الأجنبية عن قناة السويس. لقيت الأعمال الوحشية والفظائع التي ارتكبت في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، كما لقيت بعض تصرفات حكومة «الوفد»

في تلك الفترة بعض الانتقادات والاستنكار. أما بخصوص كوريا فكان ينظر إلى الحرب فيها على أنها بداية صراع أكثر شمولاً ولا يتوقع له أن يتفجر خلال حياة «ابن سعود»، لذا لم تبدي المملكة اهتماماً كبيراً بالوضع هناك، خاصة بعد أن تم التوصل إلى الوضع الحرج المتعلق بخط الثمانية والثلاثين الذي نجم عن توغل القوات الشيوعية ورد القوات الأمريكية عليه، لم تشارك الدول العربية في مبادرة الأمم المتحدة الرامية إلى التعاون مع القوات الأمريكية المتورطة في القتال الذي كان ينظر إليها على أنه مجرد اختبار تحمل وثبات بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

أدى الاتفاق الألماني الإسرائيلي الخاص بإصلاح الأوضاع فيما بينهما إلى ظهور قضية على درجة من الأهمية محلياً. فقد لاحظ المراقبون خلال فترة سبقت ذلك الاتفاق، تحولاً ملحوظاً في السياسة السعودية الخاصة بالمجال الاقتصادي المتعلق بمصالح الحكومة الألمانية، وجاء ذلك فقط لإيجاد توازن مع الاحتكارات الفعلية الأمريكية. كان لموضوع الأسعار ولاعتبارات سياسية أخرى، إضافة إلى مشاريع غير ناجحة عهد بها إلى شركات بريطانية دور في إخراج بريطانيا من دائرة ذلك التعاون. هذا وكانت وزارة المالية التي سيطرت تماماً على مسرح الأحداث بموجب مبادرات نشطة قام بها «عبد الله السليمان»، قد قطعت شوطاً على طريق التفاهم مع العديد من الشركات الألمانية بما فيها شركة «فيليب هولزمان» المشرفة على خط سكة الحديد المشهور الذي يربط بغداد ببرلين.

كانت شركة «فليب هولزمان» في تلك الفترة قد أعدت خططاً لتطوير وتحسين ميناء «الدمام». وفي الوقت الذي كانت فيه تلك الشبكة تدرس

عـدداً من المشـاريـع المتعلقـة بالطرقـات الحـديدية، جـاء قـرار جـامعـة الدول العـربيـة القـاضي بمقـاطعـة كـافـة الشـركـات التـجـارية والصناعـيـة الألمانيـة، وسارت المملكة في خط هذه السياسة.

على أي حال صادقت الحكومة الألمانية على اتفاقيتها مع إسرائيل وصرف النظر عن غضب وفود الدول العربية المحتجة على تلك الاتفاقية.

والآن ها قد جاءت وفاة الملك لتوقف نشاطات المملكة بذلك الخصوص، وجاءت تلك الوقـفة لتمكن السلطات الجديدة من تولي العـديد من الأمـور التي خلفها لها العهد الماضي، ولتعد خططها للمستقبل بثقة تتعلق بمرحلة طويلة قادمة من السلام والرخاء. لم يكن هناك كما لم يكن في السابق أية ميول للتوصل إلى تسوية مع اليهود بالذات حول أي موضوع سياسي كان أم تجاري. فوصل عدد الشركات اليهودية من كافة دول العالم المدرجة على قائمة المقاطعة إلى رقم كبير، وكان التعامل معها في المملكة العربية السعودية أمراً محظوراً للغاية. وكان من غير المحتمل أبداً أن تخفف معزوفة «البجع» للسيد «ابن غوريون» من حرارة العداء الذي يعزل الدولة الإسرائيلية عن بقية جيرانها من الدول العربية. ذلك إضافة إلى حقيقة أن «ابن سعود» كان قد وضع لبلاده وبشكل عام سياسة تعاون ودي مع جامعة الدول العربية في كافة القضايا ذات الأهمية العامة أو الأهمية الدولية الخاصة للدول العربية مجتمعة أو كل دولة على حدة. إنه من الصعب تقدير إلى أي مدى اعتنى «ابن سعود» شخصياً بهذه القضايا خلال السنوات الأخيرة من عمره، وبالتحديد في الفترة التي كان اهتمامه فيها يتزايد بشكل مضطرد بالأمور الداخلية لمملكته، مثل حفظ النظام والقانون، والأمور الشخصية الأخرى

المتعلقة بالخطأ والصواب في مشاريع كانت تستهويه شخصياً مثل مشروع إنشاء سكة حديد الرياض - الدمام الذي أصر على إنشائها منذ البداية بالرغم من كل الآراء التي طرحها الاقتصاديون المدققون والتي عارضت تلك الفكرة. هذا ويمكن الإقرار الآن وبدون الدخول في التفاصيل أن الانتعاش الاقتصادي الذي تتمتع به المدن والمناطق العديدة في المملكة بسبب سكة الحديد تلك، لأكبر دليل وشاهد على صحة قرار الملك بأنشاء ذلك الخط الحديدي.

والجدير بالذكر هنا أن «ابن سعود» لم يتوقف في يوم من الأيام عن ممارسة إشرافه الحاسم على الأمور الإدارية المتعلقة بشؤون الدولة. وعلى صعيد مصالح البلاد المتعددة الأشكال تزايدت رغبة «ابن سعود» في ترك مجرى القضايا الهامة لولي العهد، وخاصة بعد عودته من زيارة طويلة قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية. أخذت مكانة ولي العهد تتزايد وتقوى إلى أن تحول خلال السنوات الأخيرة ليصبح الشخصية السائدة في إدارة حكم المملكة. ظل والده بعيداً عن الأضواء يقدم له النصح والمشورة في أمور تعينه على التغلب على الصعاب. وقد اتضح قبل بضع سنوات من دنو الأجل بأن رمال ساعة الأجل كانت تتسارع لتعلن نهاية رجل قضى حياته في مقارعة المحن والانتصارات، ولم يعد بإمكانه الآن إلا أن يراقب السحب المتراكمة فوق عالم مليء بالمشكلات وفي صدره الكثير من المخاوف والقلق على وطنه الحبيب الذي سيعتمد مستقبله على رجال لهم خبرة كخبرته على مستوى مهارته في إدارة شؤون البلاد. . . ليس إلا لأنهم تدربوا على مهنة الحكم على يديه وهي مهارة ورثها بدوره من أجداده وأسلافه، ومارسها بتفوق متميز. وعاش في خلوة فعلية في الرياض منذ أن

عاد من رحلة الحج التي قام بها في شهر أيلول من عام ١٩٥٢ ، حيث كانت حرارة ذلك الصيف في مكة على أشدها . وبدا عليه الكبر ووهنت صحته وأصبح الآن مضطراً بسبب العلة في ركبته أن يستخدم كرسيه المتحرك في كافة تحركاته ، ومع ذلك أصر على أن يحافظ - قدر الإمكان - على العادة التي مارسها طيلة حياته والخاصة بأمور تتعلق بحق رعاياه في الدخول إلى مجلسه في أوقات محددة ، لكنه نادراً ما كان يغادر فناء قصره الكبير في منطقة «المربع» علماً بأنه قضى جزءًا من صيف عام ١٩٥٢ في قصر ولي العهد بمنطقة «البديعة» الواقعة في وادي «حنيفة» . وكان ظهوره شخصياً ليرأس الافتتاح الرسمي لسكة الحديد في مدينة الرياض عام ١٩٥١ آخر عمل مهم يقوم به وسط احتفال جماهيري .

أما في أواخر صيف عام ١٩٥١ فقد حضر «ابن سعود» بعض الاحتفالات الشعبية في «الطائف» التي وصل إليها بطائرته الخاصة «سكاي ماستر» ليقضي فيها آخر أشهر عمره . وفي منتصف شهر تشرين الأول تعرض «ابن سعود» إلى نوبة قلبية حادة قلقاً بالغاً وأرقت مضاجع كافة أبناء المملكة وأبناء المناطق الأخرى ، وبدأت برقيات التعاطف والأمنيات له بالشفاء العاجل تهل على المملكة ، وكان من بين البرقيات التي وصلت برقية من ملكة بريطانيا . وعند شفائه من تلك الأزمة أصر مجدداً على عادته في استقبال المواطنين ، لكن تحددت تلك الاستقبالات بمرة واحدة في عصر كل يوم ، وذلك ليرى شعبه ولتتاح الفرصة لشعبه في أن يراه ، إلا أنه مع معاودة حدوث المرض عند نهاية ذلك الشهر اضطر إلى الاعتكاف في غرفته ،

وهناك وفي تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٣، وبحضور العديد من أبناء أسرته الكبيرة لفظ الملك العظيم أنفاسه الأخيرة. وفي عصر اليوم نفسه أقيمت على جثمانه صلاة الميت في المصلى الكبير في «الطائف» وحضر صلاة الجنازة تلك حشد غفير من أبناء شعبه، وبعدها نقل جثمانه جواً إلى الرياض برفقة الأمير «فيصل» وأبنائه الآخرين. وفي مساء اليوم نفسه وبعد أن صلى أبناء عاصمته صلاة الميت عليه وروي جثمانه ثرى الرياض ليرقد إلى جانب قبر والده. وهكذا انتهى عهد حكم وملك عظيم، ومع انتهائه تنتهي سلسلة عرض الأحداث والمنجزات التي قامت بها السلالة الحاكمة التي حكمت الجزيرة العربية لخمسة قرون، والتي يبدو من المؤكد أنها ستحكمها على مدى أجيال عديدة قادمة. لقد مات الملك إلا أن اسمه سيبقى خالداً.